تيسير التفسير

لقطب الأيمّة
الشيخ الحاج محمد بن يوسف اطفيش
(ت: ١٣٣٢هـ/١٩١٤م)

(الجزء الحادي عشر)

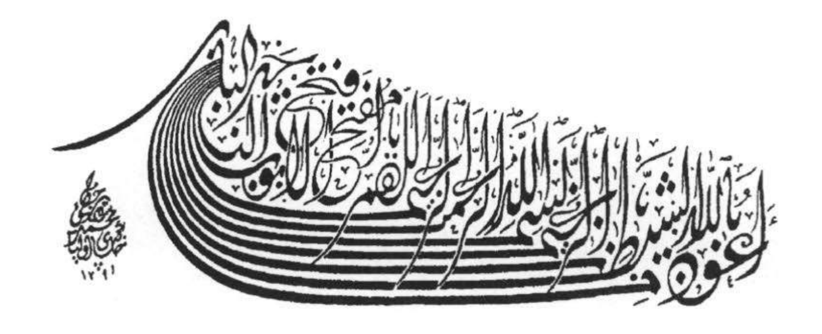
تحقيق وإخراج
الشيخ إبراهيم بن محمد طلاي
بمساعدة لجنة من الأساتذة

وضع التراجم وتخريج الأحاديث

الأستاذان: كروم أحمد وبازين عمر

الفهرسة ومتابعة الطبع

الأستاذان: مصطفى اشريفي ومصطفى طلاي



﴿ قل نزّله روح القدس من ربّك بالحقّ ليثبّت الذين

ءامنوا وهدًى وبشرى للمسلمين ﴾

(سورة النحل آية ١٠٢)

﴿ وَلَقَدْ وَصَّلْنَا لَهُمُ الْقَوْلَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٥١) الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ مِن قَبْلِهِ هُم بِهِ يُؤْمِنُونَ (٥٢) وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوا ءَامَنَّا بِهِ إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَا إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ مُسْلِمِينَ (٥٣) أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٥٤) وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ (٥٥) ﴾

إيمان طوائف من أهل الكتاب بالقرآن

﴿**وَلَقَدْ وَصَّلْنَا**﴾ شدِّد للتكثير أو للتعظيم، أي وصلنا وصلا عظيما محكما.

(لغة) ومن العجيب جعل أصل الوصل والتوصيل في الحبل، وليس كذلك بل هو على العموم، كوصل ثوب بآخر، وعود بآخر، وحديد بآخر، وماء بآخر في الساقية، ونوع بآخر كحبل بعود.

﴿**لَهُمُ**﴾ لأهل مَكَّة ﴿**الْقَوْلَ**﴾ القرآن بعضا ببعض بحسب الحكمة لا جملة، كسائر كتب الله، أو وصلنا وعدا ووعيدا وقصصا وعبرا وموعظ ونصائح وأحكاما، أو جعلناه أوصالا أي أنواعا مختلفة كما رأيت من نحو وعد ووعيد ﴿**لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ**﴾ فيؤمنوا به.

﴿**الذينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ**﴾ «ال» في «الْكِتَابَ» جنسيَّة: التوراة والإنجيل ﴿**من قَبْلِه**﴾ من قبل نزول ذلك القول الذي هو القرآن، وقيل: من قبله ﷺ، والصحيح الأوَّل ﴿**هُم بِه**﴾ بذلك القول، وَقِيلَ: بالنبيء ﷺ ﴿**يُومِنُونَ**﴾ وذلك على العموم في مؤمني أهل الكتاب.

وقيل: نزلت في مخصوصين منهم ويحمل عليهم مثلهم مِمَّن آمن منهم، وقد يقال: العبرة بعموم اللفظ، كما عمَّم ابن عبَّاس فيدخل من نزلت بسببهم أوَّلا وبالذات.

وقد قيل: نزلت في أبي رفاعة من اليهود وتسعة معه منهم، وقيل: أربعون من أهل الإنجيل، اثنان وثلاثون من الحبشة، قدموا منها مع جعفر بن أبي طالب، وثمانية من الشام بحيرا وأبرهة وأشرف وعامر وأيمن وإدريس ونافع وتميم، وقيل: عبد الله بن سلام وتميم الداري والجارود العبدي[1] وسلمان الفارسي.

﴿وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ ذلك القول وهو القرآن **﴿قَالُواْ ءَامَنَّا بِهِ﴾** أنَّه من الله ﷻ **﴿إِنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ﴾** مستأنف تعليل جملي، أي لأنَّه الحقُّ، أو تقرير لِمَا قبله على الاستقلال لا التعليل، أي هو الحقُّ المعروف عندنا، أو حال مؤكِّد لا تفسير، لأَنَّ كونه الحقَّ من الله غير نفس القول «آمَنَّا» بل موجب للقول.

﴿إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِ﴾ قبل نزوله **﴿مُسْلِمِينَ﴾** لأَنـَّا نراه في التوراة والإنجيل ونسمع به من العلماء، وَكُلٌّ من آمن بالله والنبيء الذي بُعث إليه و لم ينكر غيره يصدق عليه أنَّه آمن وأسلم، ومؤمن ومسلم بحسب أصل اللغة، كما صَحَّ أن يقال: ضارب لمن صدر منه الضرب ولَوْ مَرَّة ولَوْ ضعيفا.

وشهر أنَّ اسم الفاعل مختصٌّ بالموفِّي، وزعم بعض أنَّه لا يطلق مسلم وأسلم والإسلام إلاَّ لمن كان من هذه الأمَّة، وتردُّه هذه الآية، وقوله تعالى: ﴿ءَامَنتُ أَنَّهُ، لَآ إِلَهَ إِلاَّ الذِي ءَامَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَآئِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (سورة يونس: ٩٠) والتأويل بـ«إِنَّا كنا عازمين على الإسلام» خلاف الظاهر، بل إيمانهم به متقادم العهد لما وجدوه في الكتب.

١- هو بشر بن عمرو بن حنش العبدي سيد عبد القيس كان شريفا في الجَاهليَّة، وفد على النبيء ﷺ ومعه جماعة من قومه وهم نصارى فأسلموا، وعاش إلى زمن الردة فثبت على عهده واستشهد بفارس سنة ٢٠هـ. الزركلي: الأعلام، ج٢، ص٥٥.

وأمَّا التأويل بأنَّ المراد: إنَّا كُنــَّا مسلمين به فإسلامنا به حتَّى إنَّه حَقَّ لهم الوصفُ بالإسلام بسببه فغير ظاهر، إذ لا دليل على هذا التكلُّف، وتقدير الباء، فإنَّ الباء فيما قبل ذلك ليست للسببيَّة، فلا تكون دليلا على تقدير باء السَّــبَبِـيَّة هنا، وسواء في عدم الاختصاص بهذه الأمَّة الإسلامُ بمعنى التوحيد والعمل بمقتضاهُ، أو بمعنى الانقيادُ إلى العمل بمقتضاه.

﴿أُوْلَئِكَ يُوتَوْنَ أَجْرَهُم﴾ في الآخرة ﴿مَّرَّتَــيْنِ﴾ زمانين أو إيتاءين: مرَّةً بالإسلام مطلقا ومرَّةً بالأذى والهجران اللذين أصاباهم بالإيمان من أهل دينهم، ومرَّة بالإسلام بالتوراة والإنجيل، ومرَّة بالإسلام بالقرآن، أو مرَّة بالإيمان به قبل نزوله، ومرَّة بالإيمان به بعد النزول.

﴿بِمَا صَبَرُواْ﴾ لثباتهم على الدِّين ولو تزلزلوا عنه لم ينفعهم إيمانهم. و«مَا» مَصدَرِيَّة، ولا يقال: لو أريد العموم في ﴿الذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ لعارضهم ما ذكر، لأنَّ كلَّ من آمن منهم يؤذيه أهل دينه ويهجروه.

﴿وَيَدْرَءُونَ﴾ عطف على صلة «مَا»، وكذا ما بعد، فكأنَّه قيل: بصبرهم ودرئهم بالحسنة السَّــيِّــئَة، وإنفاقهم ممَّا رزقناهم، وكونهم ﴿إِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ أَعْرَضُوا﴾ وقولهم: ﴿لَنَآ أَعْمَالُنَا ولَكُمُ، أَعْمَالُكُم﴾. والدرء: الدفع ﴿بِالْحَسَنَةِ السَّــيِّــئَةَ﴾ بالطاعة المعصية، كما قال ﷺ : «**أتبع السَّــيِّــئَة الحسنة تمحها**»[1] وبالحلم الأذى، وبالكظم الغيظَ ، وبالعلم الجهلَ، وبالمعروف المنكرَ، وبالخير الشرَّ، وهذا أعمُّ. ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ قدِّم للفاصلة، وللإيذان بأنَّ الفضل من الله لا من المنفق، فإنَّ الله هو الذي رزقه فلا يعجب بإنفاقه ﴿يُنفِقُونَ﴾ في أوجه الخير.

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٣، ص١١٧.

﴿**وَإِذَا سَمِعُواْ اللَّغْوَ**﴾ شتم الدِّين وما لا يجوز من القول وتغيير اليهود صفه النبيء ﷺ والتوراة، ﴿**أَعْرَضُواْ عَنْهُ**﴾ ﴿وَإِذَا مرُّواْ باللَّغوِ مَرُّواْ كِرَاماً﴾ (سورة الفرقان: ٧٢) وقالوا للاَّغين: ﴿**لَنَآ أَعْمَالُنَا وَلَكُمُ، أَعْمَالُكُمْ**﴾ هذه متاركة على معنى لا يجازى أحد بعمل أحد، ومثله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وِلِيَ دِينِ﴾ ﴿**سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ**﴾ هذه موادعة لا تَحيَّة ولا دعاء بالسلامة، وهو في قوله: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُواْ سَلاَمًا﴾ (سورة الفرقان: ٦٣) ولو تلفَّظوا بسلام، فكيف لو لم يتلفظوا بل وادعوهم بغير لفظه.

قال ﷺ : «**لا تبدؤوا أهل الشرك بالسلام، وإذا سلَّم عليكم أهل الكتاب فقولوا: وعليكم**»[1]. ولا يجوز أن تقول لمشرك: سلام عليك، ولو أردت الدعاء بالسوء مثل: الله غضبان عليك، لا أن تبيِّن له ذلك أو بَيِّن له أنَّ الله عليك رقيب في كفرك ﴿**لاَ نَبْــتَغِي الْجَاهِلِينَ**﴾ لا نطلب مخالطتهم لِئَلاَّ يصيبنا سوءٌ بتعلُّم أعمالهم أو قسوة قلب.

﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝٥٦ وَقَالُوا إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٧ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّن بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ ۝٥٨ وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰ إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ۝٥٩ وَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ

١- تَقدَّمَ تخريجه، انظر: ج٣، ص٢٩١.

﴿أَفَلَا تَعْقِلُونَ ۝٦٠ أَفَمَن وَعَدْنَٰهُ وَعْدًا حَسَنًا فَهُوَ لَٰقِيهِ كَمَن مَّتَّعْنَٰهُ مَتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ثُمَّ هُوَ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مِنَ ٱلْمُحْضَرِينَ ۝٦١﴾

الردُّ على شبهات المشركين

﴿**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي**﴾ إلى التوحيد هداية إبلاغ لا قدرة لك، والمقام لهذا، وليس المراد: إنَّك لا تهدي إلى الوفاء بدين الله ﴿**مَنَ احْبَبْتَ**﴾ من أحببته لقرابة ونفع، أو لأحدهما للطبع، أو من أحببت هدايته، ولكن تهدي هدى بيان وإرشاد للناس، اتَّبعوك أو عصوك.

﴿**وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي**﴾ إلى التوحيد أو إليه وإلى العمل بمقتضاه ﴿**مَنْ يَّشَآءُ**﴾ هدايته لذلك ﴿**وَهُوَ أَعْلَمُ**﴾ عالم، وَأَمَّا غيره فلا يعلم إلاَّ بإعلام الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿**بِالْمُهْتَدِينَ**﴾ بمن تأهَّل للاهتداء، أو بمن استعدَّ له، والآية إمَّا تسلية له ﷺ على حزنه لتكذيب قومه إيَّاه، أو عتاب على مبالغته في أن يُؤَثِّر في قومه، كقوله تعالى: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ (سورة الشعراء: ٠٣) أو تسلية وعتاب معا.

(سبب النزول) روى مسلم والترمذي وغيرهما عن أبي هريرة: لَمَّا حضرت وفاة أبي طالب، أتاه النبي ﷺ فقال: «**يا عمَّاه قل لا إله إلاَّ الله أشهد لك بها يوم القيامة عند الله**» فقال: لولا أن تعيِّرني قريش يقولون: ما حمله عليها إلا جزَعُه من الموت لأقررت بها عينك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنَ احْبَبْتَ﴾، ومثله للبخاري ومسلم عن سعيد بن المسيب عن أبيه، وكذا روي عن ابن عبَّاس وقد اختلف في إسلامه.

وَإِنَّمَا اقتصر على «لا إله إلا الله» و لم يذكر «محمَّد رسول الله» لأنَّه يأمرهم بـ«لا إله إلا الله» على أنَّه أرسله الله به، فإذا قالها على ذلك فقد أقرَّ برسالته، وقد اختلفوا فيمن اعتقد و لم يقرَّ أهو مؤمن عند الله؟.

﴿وقَالُواْ إِن نَّــتَّبِعِ الْهُدَىٰ﴾ ما هو هدى عندك وعند الله، لأنَّ القائل الحرث بن عثمان بن نوفل بن عبد مناف ومن معه، أتوا النبيء ﷺ فقالو: نعلم إنَّك على حقٍّ، ولكن نخاف إن اتَّــبَعناك وخالفنا العرب ـــ وإنَّما نحن أكلة رأس ـــ أن يتخطَّفونا من أرضنا، فردَّ الله ﷻ بقوله: ﴿وقَالُواْ إِن نَّــتَّبِعِ الْهُدَىٰ﴾ ﴿مَعَكَ نُتَخَطَّفْ﴾ نؤخذ بسرعة ﴿مِنَ اَرْضِنَآ﴾ وبقوله ﷻ: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ﴾ متعلِّق بـــ«نُمَكِّنْ» لأهل مَكَّة، أو للعرب ﴿حَرَمًا﴾ مفعول لـــ«نُمَكِّن» بمعنى نثبِّت، ولا حاجة إلى جعله بمعنى «جعلنا» متعديا لاثنين، و«لَهُم» مفعول ثان. ﴿امنًا﴾ أسند الأمن إلى الحرم على طريق المجاز العقلي من الإسناد إلى المحلِّ، لأنَّ الآمن حقيقةً أهلهُ.

وَأَمَّا إذا جعلنا «آمنًا» للنسب كتَامِر ولاَبِن، أي حرما ذا أمن فليس فيه غنى عمَّا قلناه، لأنَّ صاحب الأمن ليس الحرم بل أهله، لا يؤخذ أهله، تتناحر العرب حوله وتأمن فيه. وأيضا لا يخافون ضيق الرزق باتِّباع الهدى كما قال:

﴿تُجْبَىٰٓ﴾ تجمع ﴿إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يمكن جلب ثمراته إليه وتطلب، فلا يشكل بأنَّ كثيرا من الثمرات لا يجبى إليه، وهذا أولى من أن يقال: المراد بالكلِّ الكثرة. والجملة نعت ثان لـــ«حَرَمًا» وإنَّما حصل الأمن للحرم لأجل الكعبة.

﴿رِّزْقًا﴾ حال من «ثَمَرَاتُ»، أي مرزوقات، أو مفعول مطلق لـــ«تُجْبَى» لتضمُّن «تُجْبَى» معنى ترزق، أو لتضمُّن «رِزْقًا» معنى الجبـــي، وأجيز أن يكون مفعولا من أجله بمعنى المصدري، وفيه ضعف لتبادر أنَّ المراد بالجبـــي هو معنى أن يرزقوا بها، فلا يعلَّل بالرزق ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ نعت «رِزْقًا» أو مُتَعَلِّق بـــ«تُجْبَى».

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ﴾ قيل: كلُّهم، وقيل: فيهم قليل يعلم ولا يعمل، والاستدراك متعلّق بقوله: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن...﴾ أو بقوله: ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ والأوَّل أولى لأَنَّ المقام للردِّ عليهم بأنَّا قد أعددنا لهم ما يأمنون معه ولا يخافون معه وهم مشركون عبدة أوثان، وكيف إذا أسلموا؟ وليس المقام لإعلامهم أنَّ الرزق منَّا لا من غيرنا ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ لا يتدبَّرون فيعلمون أنَّا قد أحضرنا لهم ما يأمنون معه إن آمنوا، أو يعلموا أنَّ ذلك الرزق من الله عَزَّ وَجَلَّ وحقّقوا، إذ لو علموا لَمَا خافوا.

﴿وَكَمَ اهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾ من أهل قرية أو القرية أهلها على ما مرَّ ﴿بَطِرَتْ﴾ أهانت و لم تشكر ﴿مَعِيشَتَهَا﴾ بمعنى رزقنا الذي رزقناها تعيش به في لين وسعة، ويجوز تقدير في معيشتها على قول الأخفش، ونصبه على الظرفية أي بطرت حال عيشها، أي حياها، كـ«جئت طلوع الفجر».

﴿فَتِلْكَ﴾ أي ديار القرية التي رأيتم بقيَّتها في أسفاركم كحجْر ثمود، مبتدأ خبره قوله: ﴿مَسَاكِنُهُمْ﴾ وقوله: ﴿لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمُ، إِلاَّ قَلِيلاً﴾ خبر ثان، أو «مَسَاكِنُ» بدل، أو بيان وما بعده خبر.

والمعنى: لم يسكنها أحد بعد إهلاكهم إلاَّ سكنا قليلاً أو زمنا قليلاً، كما يقيل المسافرون فيها أو يبيتون فيها، أو نحو ذلك، وإن سكن بعض منها على استمرار فالقلَّة باعتبار قلَّة الساكنين، وإذا جاز هذا جاز أن يكون النصب على الاستـــثـــناء من ضمير «تُسْكَن» إلاَّ أنَّ المتبادر ما مرَّ.

﴿وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ لم يملكها أحد بعدهم سوانا كمن مات وورثه غيره، وهَلاَّ خاف أهل مَكَّة من أن يقع عليهم مثل ذلك.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّـكَ مُهْلِكَ الْقُرَىٰ﴾ ما صحَّ أو ما كان في اللوح، أو في الحكمة، أو في قضاء ربِّك أن يهلك أهل القرى ﴿حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِي أُمِّهَا﴾ أصلها

التي ترجع إليها سائرها لكثرتها [قلت:] وكثرة أهل بلد أدعى إلى زيادة فطنة أهله ونبلهم إذ هو محلُّ كرسيِّ المملكة والأحكام ﴿**رَسُولاً يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَاتِنَا**﴾ تعليماً وترغيبا وترهيبا وقطعا للعذر، وَإِلاَّ قالوا: ﴿رَبَّنَا لَوْلاَ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولاً...﴾ (سورة طه: ١٣٤) وذلك عموم.

وذكر بعض أنَّ القرى ما كان حول مَكَّة على عهده ﷺ تَسْتَحقُّ أن يهلكها الله إن لم يؤمنوا إذ بعثه رسولا في أمِّ القرى، وهي مَكَّة، وهو مرويٌّ عن قتادة.

﴿**وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَىٰٓ إِلاَّ وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ**﴾ هذه الجملة حال من القرى، والقرى على ظاهره لأنَّه ذكر أهلها بعدُ، وإن فسِّرت بالأهل أو قدِّر مضاف فـ«أَهْلُهَا» في موضع الضمير، أي إلاَّ وهم ظالمون، والحكمة في ذكرهم مرَّتين تأكيد، أو لأنَّ إهلاك القرى إهلاك لأهلها إذ لم يعتد إهلاك قرية وسلامة أهلها فيها، وإهلاك أهلها إهلاك لها إذ اقتضت الحكمة أن لا تعمر بعدهم.

﴿**وَمَآ أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ**﴾ ممَّا ينتفع به ﴿**فَمَتَاعُ**﴾ فهو متاع ﴿**الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَزِينَتُهَا**﴾ فهو حقير، ولو كان عظيما، وقليلٌ ولو كان كثيرًا كما يلوِّح إليه بقوله عَزَّوَجَلَّ : ﴿مِن شَيْءٍ﴾ وبذكره باسم المتاع لأنَّه يتزيَّن به ويتمتَّع به قليلا، وإضافته للحياة الموصوفة بالدنوِّ ومقابلته بما عند الله وخير وأبقى.

﴿**وَمَا عِندَ اللهِ**﴾ للمؤمنين من الجنَّة وما فيها ﴿**خَيْرٌ**﴾ في ذاته ولا سيما في دوامه وخلوصه ممَّا يكدِّره من الملمَّات والهموم، وخوف الزوال ﴿**وَأَبْقَىٰٓ**﴾ وأقلُّ المنافع الناقصُ الدائمُ أفضلُ من أكثرها الكامل الفاني ﴿**أَفَلاَ تَعْقِلُونَ**﴾ التفاوت بين الناقص السريع الذهاب، الموجب للعقاب لمن لم يشكره، والكامل الدائم؟.

﴿أَفَمَن﴾ أيستوي الأمران فَمَنْ؟ أو الهمزة ممَّا بعد الفاء و«مَنْ» موصولة، أي الذي ﴿وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا﴾ حسنهُ بتحقُّق الوفاء به وكون الموعود به في غاية الشرف لذاته، ودوامه وعدم تنغُّصه ﴿فَهُوَ لاَقِيه﴾ عطف اسْمِيَّة للتحقُّق على فعْلِيَّة، وهي «وَعَدْنَاهُ وَعْدًا حَسَنًا»، وكان بالفاء لترتُّب اللقاء على وعده، ولسببيَّة وعد الله على لقائه إذ لا يتخلَّف وعده.

﴿كَمَن مَّتَّعْنَاهُ مَتَاعَ﴾ تمتيع ﴿الْحَيَوٰةِ الدُّنيَا﴾ تمتيعا ناغصا بالآلام والمكدِّرات، وخوف الزوال، وكلَّما عظم الشيء عظم الخوف على زواله، أو نقصه بقدره.

﴿ثُمَّ هُوَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنَ الْمُحْضَرِينَ﴾ للعذاب في المحشر والنار، والجملة الاسمِيَّة للتأكيد، و«ثُمَّ» للتراخي الرتبي، وهو المقصود، ولو كان الزماني أيضا، والآية على العموم للفظها، ولو كانت بالنزول في النبيء ﷺ وأبي جهل، أو في حمزة وأبي جهل، أو في عَمَّار رضي الله عنه والوليد بن المغيرة. وعن محمَّد بن كعب والسدِّي: في عليٍّ وأبي جهل.

﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٦٢﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓاْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴿٦٣﴾ وَقِيلَ ٱدْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ وَرَأَوُاْ ٱلْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُواْ يَهْتَدُونَ ﴿٦٤﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٦٥﴾ فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَنۢبَآءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لَا يَتَسَآءَلُونَ ﴿٦٦﴾ فَأَمَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَعَسَىٰٓ أَن يَكُونَ مِنَ ٱلْمُفْلِحِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾

تقريع المشركين يوم القيامة بثلاث حجج

﴿وَيَوْمَ﴾ عطف على «يَوْمَ الْقِيَامَةِ» ولَو اتَّحدَا لاختلاَف ما بعدهما، أو اذكر يوم ﴿يُنَادِيهِمْ﴾ يأمر بالنداء فينادي ملك، أو يقدَّر مضاف أي ينادي

ملكه، أو يخلق الله النداء حيث شاء، والإسناد مجاز عقليٌّ، وذلك نداء توبيخ، وفسَّر النداء بقوله: ﴿**فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآئِيَ الذِينَ كُنتُمْ تَزْعَمُونَ**﴾؟ المعروف في رابط الصلة من المتعدي تقديره ضميرا أي تزعمونهم، فهو هذه الهاء، والثاني «شُرَكَائِي» بعد الضمير، كقوله:

زعمتني شيخا ولست بشيخ وإنَّما الشيخ من يدبُّ دبيبا

(**نحو**) والأكثر أن يؤتى بأنَّ بالفتح ومعموليها نيابة عنهما، مثل أن يقدَّر هنا: «تزعمون أنَّهُم شركائي»، وهو جائز لأنَّه الأكثر، وقد يترجَّح لكثرته، ولاسيما أنَّه قد جاء في قوله: ﴿الذِينَ زَعَمْتُمُ، أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَآءُ﴾ (سورة الأنعام: ٩٤) .

﴿**قَالَ الذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ**﴾ قصدوا به بالمعنى المصدري، أو حقَّ عليهم المقول بمعنى المفعول، وهو ما تضمَّنه من أنَّ لهم النار وهم الرؤساء من الجنِّ والإنس، المتبوعين في الكفر، خصُّوا بالذكر لأصالتهم وتسبُّبهم فيه.

ولم يقل: قال الذين زعموهم شركاء لأَنَّ عيسى وعزير والملائكة لا يقولون: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَآءِ الذِينَ أَغْوَيْنَآ...﴾ مع أنَّهم شركاء لله في زعمهم، والكلام فيهم، بدليل قوله: ﴿**رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ الذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا**﴾ وإلاَّ فالقول حقَّ على التابعين كما حقَّ على المتبوعين.

أو أراد هنا أنَّ التابعين قد أجابوا بقولهم: ﴿هَؤُلَآءِ اَضَلُّونَا﴾ (سورة الأعراف: ٣٨) فيشمل من حقَّ عليه القول التابع والمتبوع، ولا سيما أنَّ السؤال في قوله تعالى: ﴿أَيْنَ شُرَكَآئِي﴾ للتابعين وإنَّما سارع الرؤساء المتبوعون إلى الجواب بقولهم: ﴿رَبَّنَا هَؤُلَآءِ الذِينَ أَغْوَيْنَآ...﴾ لعلمهم أنَّ السؤال راجع إليهم، ولعلمهم أنَّهم يستحضرون، ولعلمهم أنَّ التابعين سيقولون: ﴿هَؤُلَآءِ اَضَلُّونَا﴾.

(نحو) و﴿الذِينَ﴾ نعت أو بيان، و«أَغْوَيْنَاهُمْ» خبر «هَؤُلَآءِ»، وهذا أولى من جعل «الذِينَ» خبرًا و«أَغْوَيْنَاهُمْ» خبرا ثانيا أو مستأنفا، والمعنى: أغويناهم مع اختيارهم لا بالقهر كما غويناهم باختيارنا، فقد أفاد الخبر ما لم تفده الصلة كما أفاد قولك: الذي ضرب ضرب، والذي جاء جاء على فرس، وحصولُ الفائدة بالفضلة كاف.

﴿تَبَرَّأْنَآ﴾ من عبادتهم إيَّانا، ومن الكفر والمعاصي، ولو ادَّعوها لنا ﴿إِلَيْكَ﴾ تركناها و لم نقبلها ﴿مَا كَانُواْ إِيَّانَا يَعْبُدُونَ﴾ في الحقيقة، لأَنَّ عبادتهم لا تَـــتَّصِلُ بنا ولسنا أهلا لها، وإنَّما عبدوا أهواءهم، وقيل: «ما» مَصدَرِيَّة على تقدير حرف الجرِّ، والمصدر مُتَعَلِّق بقوله: ﴿تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي تبرَّأنا إليك من كونهم يعبدوننا.

﴿وَقِيلَ﴾ للتابعين تهكُّما بهم ﴿ادْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ ادعوا من تزعمون أنَّهم شركاء لله سبحانه ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ فدعوهم قهرا مع علمهم أنَّه لاحجَّة لهم ولا نفع فيهم. والفاء وما بعدها تقوِّي أنَّهم مطلوبون بأن يدعوهم، ولو كان المراد بقوله عزّ وجلّ: ﴿ادْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ﴾ مُجَرَّد تعجيز لهم لم يقل: ﴿فَدَعَوْهُمْ﴾.

﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُمْ﴾ لعدم حجَّة لهم، ولعدم قدرتهم على النصرة، ولأنَّهم في شغل عنهم، أو للختم على أفواههم.

﴿وَرَأَوُاْ الْعَذَابَ﴾ الداعون التابعون والمدعوون المتبوعون، أو الداعون التابعون. والرؤية بصريَّة والعذاب لا يرى بالعين، فالمراد: يرون بأعينهم مقدِّمات العذاب، كتغيير الوجوه والزبانية، والأغلال أو آلاته، وهي ما ذكر.

أو نزِّل العذاب منزلة الجسم المشاهد لتحقُّقه، والصحيح جواز حذف أحد المفعولين وبقآء الآخر لدليل، مثل أن يقدَّر: «ورَأَوْا العذاب مُتـــَّصِلا أو لاحقا بهم، أو غاشيا لهم» مع أنَّ الرؤية عِلميَّة.

﴿مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ اختيار في أن يخلقوا وقت كذا، أو على صفة كذا قبل خلقهم إذ هم عدم، ولا أن يُزادَ في خلقهم أو ينقص بعد وجودهم، أو يكون الأمر كذا كقول من قال: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾ (سورة الزخرف: ٣١) وقول اليهود: لو كان يأتيك غير جبريل لآمنَّا بك لأنَّه ملك العذاب.

(أصول الدين) ولا دليل للمجبرة في الآية فإن للعبد اختيارًا مخلوقًا لله عَزَّ وَجَلَّ يشاهده من نفسه إذ قدر أن يفعل وأن لا يفعل فيعمد إلى أحدهما.

وأجيز أن تكون «مَا» مفعولا لـ«يَخْتَارُ». و«كَانَ» تامَّة، أي يختار ما حصل، و«لَهُمُ الْخِيَرَةُ» مستأنف مثبت، أي للخلق اختيار في أفعالهم وتروكهم به عوقبوا وأثيبوا، وإلاَّ كان الله ظالما للعباد إذ عذَّبهم على ما أجبرهم، وقد نصَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أنَّه لا يوصف بالظلم، وكان غير حكيم إذا أجبرهم على فعل وفعلوه بلا اختيار وأثابهم، وقد نصَّ الله بأنَّه عَزَّ وَجَلَّ عزيز حكيم.

﴿سُبْحَانَ اللهِ﴾ تَسَبَّحَ الله تسبُّحا، أي تنزّه تنزُّها عن أن يكون أحد مشاركًا له في الخلق أو الاختيار، وهذا إخبار كما ترى، ويناسبه قوله: ﴿وَتَعَالَىٰ﴾ فإنَّه إخبار. وليس ﴿سُبْحَانَ﴾ هنا أمرا بالتنزيه ﴿عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ عن إشراكهم، و«مَا» مَصدَرِيَّة، وهو أولى من جعلها اسما موصولا أو نكرة موصوفة، على تقدير: تعالى عن مشاركة ما يشركونه به، لكثرة الحذف، أو تعجيب من إشراك من يضرُّهم ـــ وهو عاجز ـــ بمن يريد لهم كُلَّ خير قادر على كلِّ شيء، وهو متعلِّق بـ«تَعَالَىٰ»، ويجوز أن يتنازع فيه «سُبْحَانَهُ» و«تَعَالَى» أي سبحان الله عنه أي عن الإشراك وتعالى عن الإشراك.

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ تخفيه من اعتقاد الباطل وعداوة رسول الله ﷺ وسائر المعاصي ﴿وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ يظهرون من الأفعال والأقوال

القبيحة، وقَدَّم ﴿مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ﴾ لأنَّه منبع لِمَا يعلنون، ومتقدِّم في الوجود ولم يقل: «ما يكنُّون» لمبالغة السوء في الصدور فذكر الصدور.

﴿وَهُوَ﴾ أي ربُّك ﴿اللهُ﴾ المختصُّ بالألوهيَّة وأكَّده بقوله: ﴿لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ كقولك: دين الله الإسلام لا دين إلاَّ هو.

﴿لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ﴾ لا لغيره ولا شريك له فيه، لأنَّ كلَّ نعمة وشيء حسن هو خالقُه، والمراد أنَّ الحمد مختصٌّ به حقيقة، وما يوجد من الأشياء الحسنة في المخلوق هي من الله تعالى، وهذا أولى ممَّا قيل: إنَّ الآية حصر باعتبار الدارين معا، تحرُّزا عن الدنيا وحدها ففيها الحمد لغير الله ﷻ، ولو اعتبر حمد المخلوق في الحصر لورد أنَّ الأولين والآخرين يحمدون رسول الله ﷺ يوم القيامة في الشفاعة الكبرى، فلا يتمُّ هذا الحصر الذي يدَّعيه، وفسَّر بعضهم حمد الآخرة بقول المؤمنين: ﴿الْحَمْدُ لله الذي صَدَقَنَا وَعْدَهُ﴾ (سورة الزمر: ٧٤)، وقولهم: ﴿الْحَمْدُ لله الذي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ﴾ (سورة فاطر: ٣٤)، وقولهم: ﴿الْحَمْدُ للهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة الزمر: ٧٤). والحمد في الآخرة حمد شكر لا كلفة، وإنَّما يدوم التكليف على الملائكة. وعنه ﷺ: يلهم أهل الجنَّة التهليل والتسبيح كما يلهمون النفَس وذلك كالملائكة.

﴿وَلَهُ﴾ لا لغيره ﴿الْحُكْمُ﴾ القضاء النافذ في الدنيا والآخرة فلأهل الإيمان المغفرة والثواب، ولأهل الكفر العذاب الدائم ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُرْجَعُونَ﴾ أحياء للجزاء.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ

مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٣﴾ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٧٥﴾﴾

من أدلة العظمة والسلطان الإلهي وتقريع المشركين

﴿**قُل أَرَأَيْتُمْ**﴾ أصله استفهام ضمِّن معنى أخبروني، وجملة ﴿مَنْ إِلٰهٌ غَيرُ اللهِ﴾ مفعوله مغنٍ عن مفعولين، وذلك من باب التعليق بالاستفهام ﴿**إن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُم**﴾ متعلق بــ«جَعَلَ» ﴿**الَّيْلَ سَرْمَدًا**﴾ مفعولان لــ«جَعَلَ» وميم «سَرْمَدًا» زائدة في الوسط بوزن «فَعْمَل» شاذٌّ قياسا فصيحا استعمالا، من السرد وهو التتابع كدرع دلامص أي دلاص أي ملساء.

(**صرف**) وقياسا زيادتها أوّلاً كَاسْمِ المفعول مطلقا واسم الفاعل مِمَّا فوق الثلاثي، واسم الآلة والمصدر الميمي واسم المكان واسم الزمان الميميَّين، ومصدر فَاعَل بفتح العين، وقيل: أَصْلٌ فوزنه «فَعْلَل». وجواب «إِنْ» أغنى عنه «أرأيتم من إله غير الله» ﴿**إلىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ**﴾ مُتَعَلِّق بــ«سَرْمَدًا»، أي متتابعا إلى يوم القيامة لا يعقبه نهار بأن يحبس الشمس ولا يردُّها إليكم، مع أنّها في الدنيا في إقليم بعيد عنكم.

[قلت:] وليست في الليل تحت الأرض إلاّ إن أريد بتحت الأرض أنّ ظاهر الأرض أخفاها، وهي أبدا على الأرض وفي كلّ وقت ليل ونهار وضحى ومساء وسائر الأوقات، والله أعلم.

﴿**مَنِ الٰهٌ غَيْرُ اللهِ**﴾ نعت «إله» ﴿**يَاتيكُم بِضِيَآءٍ**﴾ الجملة نعت ثان، والمعنى لو قضى الله أن يدوم الليل لم يقدر أحد على قطع قضائه بنهار يأتي به،

إلاَّ أنَّه قضى أن لا يكون سرمداً فلا يكون، وكذا فيما بعد، وقال: ﴿مَنِ اِلَٰهٌ﴾ ولم يقل: هل يأتيكم إلهٌ لأنَّ المقام لمن يفعل لا لهل يفعل؟ إذْ عَـيَّـنُوا أشخاصا وادَّعَوْهَا آلهةً، واختار الضياء على النهار لأنَّ المقصود من النهار ضوؤه وبه الانتفاع ﴿أَفَلاَ تَسْمَعُونَ﴾ سماع قبول لهذه الدلائل الواضحة.

﴿قُلَ اَرَآيْتُمْ،﴾ أعاده للتأكيد ﴿إِن جَعَلَ اللهُ عَلَيْكُمُ النَّهارَ سَرْمَدًا اِلَىٰ يَوْمِ الْقِيامَةِ﴾ بإثبات الشمس في مطلعها أو مغربها، أو وسط السماء أو بين ذلك ﴿مَنِ اِلَٰهٌ غَيْرُ اللهِ يَاتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ﴾ استراحةً من متاعب الأشغال، إن قضى الله بأن لا ليل فمن يقدر أن ينقض قضاءه فيأتي بليل؟.

(بلاغة) وقدَّم إدامة الليل لأنَّها أشدُّ كراهة في النفوس، ولأنَّ الأصل الظلمة والضوء حادث، واختار ﴿عَلَيْكُمْ﴾ لا «لكم» في الموضعين للمضرَّة فيهما جميعا، ولو كانت في إدامة الليل أشدَّ، ولمراعاة معنى الحكم عليكم ولجعل ذلك كالقبَّة عليهم ﴿أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾ تعقلون الدلائل؟ أو ما أنتم عليه من خطأ.

﴿وَمِن رَّحْمَتِهِ﴾ بسببها ﴿جَعَلَ لَكُمُ الَّيْلَ وَالنَّهارَ﴾ جميعا ﴿لِتَسْكُنُواْ فِيهِ﴾ في الليل ﴿وَلِتَبْـتَغُواْ﴾ تطلبوا ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ في النهار بأنواع المكاسب، [قلت:] **والكسبُ للحلال بنيَّة صالحة عبادة لا تُنافي التوكُّل لأنَّه فيها لاعتقاده أنَّ الله هو الذي يرزقه في الكسب إن شاء** ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ كي تشكروا نِعَمَهُ.

﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ﴾ مثل ما مَرَّ ﴿فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِيَ الذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ تكرير للأوَّل لزيادة التذكُّر، ولا شيء أجلب لغضب الله من الإشراك، كما لا شيء أدخل في رحمته من توحيده ﷻ، أو الأوَّل لبيان فساد رأيهم لقوله: ﴿حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ﴾ (سورة فصلت: ٢٥) والثاني لبيان أنَّ إشراكهم

لا سند له بل مجرَّد هوى لقوله: ﴿قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُم﴾ (سورة الأحقاف: ١٨) ، أو الأوَّل إحضار لشركائهم بعد الصلوح، لقوله تعالى: ﴿ادْعُواْ شُرَكَآءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ...﴾ (سورة البقرة: ١١١) ، وهذا تحسير لأنَّه لا فائدة لهم، لقوله وَجَلَّ : ﴿وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾ (سورة القصص: ٦٤) .

﴿**وَنَزَعْنَا من كُلِّ أُمَّة شَهِيدًا**﴾ عطف على «يُنَادي». وصيغة الماضي لتحقُّق الوقوع. والتكلُّم بعد الغيبة تشديد في شأن الترع وهو الإخراج بسرعة. الشهيد: من يشهد، وهو نبيء كلِّ امَّة يشهد عليها، كما قال وَجَلَّ : ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَؤُلَآءِ شَهِيدًا﴾ (سورة النساء: ٤١) ، وتشهد هذه الأمَّة على سائر الأمم، وتشهد الملائكة، فالشهادة متعدِّدة في أماكنها وأوقاتها يوم القيامة فقد صحَّ ذلك.

﴿**فَقُلْنَا**﴾ لتلك الأمم ﴿**هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ**﴾ على صحَّة دينكم فَعَجَزُوا ﴿**فَعَلِمُواْ أَنَّ الْحَقَّ لله**﴾ في أنَّه لاَ إله معه ﴿**وَضَلَّ**﴾ تلف، استعارة تبعيَّة ﴿**عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ**﴾ ما كانوا يفترونه في الدنيا من الباطل.

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُوْلِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِن كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾

قصَّة قارون

-١-

بغيه على موسى واغتراره بالمال

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ من بني إسرائيل ابن عمِّ موسى عند ابن عبَّاس، فموسى بن عمران بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، وقارون هو ابن يصهر بن قاهث، وعن ابن عبَّاس: هو ابن خالة موسى.

(قصص) وعن محَمَّد بن إسحاق: إنَّه ابن عمِّ موسى فهو ابن يصهر بن قاهث، ويسمَّى المنور لحسن صورته، وكان أحفظ للتوراة من بني إسرائيل، ونافق كالسامري، لَمَّا جاوز موسى البحر صارت الرسالة والحبورة لهارون، والقربان والمذبح وكانا لموسى فأعطاهما هارون، فحسدهما، فقال: الأمر لكما فمالي؟ إلى متى أصبر؟ فقال: هذا صنع الله، فقال: لا أصدِّق إلاَّ بآية، فجمع عصي رؤساء بني إسرائيل في قبَّة الوحي التي ينزل عليه فيها الوحي، وحرصوها فإذا عصا هارون عليه السلام مورقة خضراء، وهي من شجر اللوز، فقال: ما هذا بأعجب من سائر سحرك.

﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ الفاء للترتيب الذكري لا الرتبي ولا الزماني، وكأنَّه قيل: أذكر لكم بعد ذكري إنَّه من قوم موسى ، إنَّه بغى عليهم، أو للسببيَّة إذ لو لم يكونوا من قومه بل أجانب لم يتيسَّر له البغي عليهم، أو يقدَّر: ضلَّ فبغى، والضلال سبب البغي، وهذا البغي ظلم وتكبُّر وطلب أن يكونوا تحته وما ليس له.

أو بغى عليهم بطلب ما مرَّ آنفا ممَّا لموسى وهارون، أو ظلمهم حين ولاَّه فرعون عليهم، ومن كبره أنَّه زاد في ثيابه شبرا، جعله فرعون واليا على بني

إسرائيل فكان يظلمهم. ويجوز عود الهاء إلى القوم وموسى لذكرهما معا، أو على طريق ذكر بني آدم وإرادة ما شمل آدم.

(قصص) كما روي أنَّه طلب من موسى أن يعظ الناس فلمَّا وعظهم بالنهي عن الزنى والجلد عليه أو الرجم، قال له قارون: ولو أنت ؟ قال: نعم، فقال: إنَّ فلانة البغي تقول: زنيت بها، وقد جعل لها مالا على أن ترميه، فسألها بالله والتوراة هل كان ذلك؟ قالت: لا لكن جعل لي مالا على ذلك، فقال: يَا رَبِّ إن كنت نبيئا فأهلكه، فسلَّط له عليه الأرض، فنادى: إنَّ الله تعالى أرسلني إلى قارون كما أرسلني إلى فرعون، فليعتزل عنه من كان معي، فما بقي معه إلاَّ رجلان، فأمر الأرض فأخذت أسرَّتهم فغيَّبتها، وقال: خذيهم يا أرض، فأخذتهم إلى أوساطهم، وقال: خذيهم فاخذتهم إلى أعناقهم، وقال: خذيهم فغيَّبتهم، وفي كلِّ مرَّة هم بستغيثون بموسى وبالرحم، فقال الله عزَّ وجلَّ : «ما أقساك يا موسى لو استغاثوا بي مرَّة لنجَّيتهم».

﴿وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ﴾ من الأموال المدَّخرة، مجاز مطلق لعلاقة الإطلاق والتقييد، إذا قلنا الكتر هو المدَّخر بقيد كونه مدفونا، وقيل: الكتر المدَّخر مطلقا فلا مجاز.

وذكر بعض المحقِّقين أنَّها سمِّيت كنوزا لأنَّه طالبه موسى بزكاتها فلم يؤدِّها، وذلك من أسباب عداوته، ويبحث بأنَّ المعنى حينئذ: آتيناه من الأموال التي لم تزكَّ، ويجاب بأنَّه لا بأس بهذا المعنى، لأنَّ المعنى: أكسبناه أموالا ادَّخرها بلا زكاة، فهي من حقيقة أموال لم تزكَّ. و«ال» للحقيقة.

وعن عطاء: المعنى أطلعناه على أموال مدفونة من عهد يوسف عليه السلام ، والكتر مطلق المدفون مع أنَّه لم يزك بعد يوسف، وإذا صحَّت هذه الزكاة في شرعهم فليست كما هي في شرعنا، ويبحث بأنَّ قوله: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ

عِندِيَ﴾ يدلُّ على أنَّها بالصنع، إلاَّ أن يقال أطلعت على ذلك الدفين باستعمال ما أطِّلعُ به عليه، وقيل: كان يستعمل كلَّ ما وجد من حديد أو نحاس أو رصاص ذهبا وفضَّة.

ولَمَّا أخذته الأرض وكان يتلجلج فيها إلى يوم القيامة، أذهب الله تعالى تلك الأموال كلّها ويبعثه الله تعالى يوم القيامة من حيث هو.

﴿مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُ﴾ جمع مَفتح بفتح الميم، اسم مكان بمعنى خزانة، وهي نفس المال المخزون، أو صندوقه وما يخزن فيه، قيل: أو جمع مِفتح بكسرها اسم آلة الفتح، ويناسبه قراءة الأعمش: ﴿مَفَاتِيحَهُ﴾ بالياء بعد التاء، جمع مفتاح بالألف، وهو آلة الفتح وقراءة بديل بن ميسرة[1]: ﴿مآ إنَّ مِفْتَاحَهُ﴾ إلاَّ أنَّه لا يناسب قوله تعالى:

﴿لَتَـنُوأُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ﴾ فإنَّ هذه العصبة إنَّما تثقل عليهم الأموال وظروفها.

(نقد القصة) ولا يتصوَّر أن يوجد من آلات الفتح ما يثقل عليهم، كما كذبوا بأنَّها وقر سبعين بغلا وأنَّها من جلود، وأنَّ كلَّ مفتاح كالإصبع، وأنَّها تجمع وتحمل، ومن يعرف كلَّ مفتاح وبابه وبيته؟.

(لغة) والعصبة: سبعون رجلا عند أبي صالح، وأربعون عند ابن عبَّاس، وعشرة إلى أربعين عند قتادة، وخمسة عشر إلى أربعين عند الكلبي، وقيل: من الثلاثة إلى العشرة، وعن مجاهد: من عشرة إلى خمسة عشر.

وإنَّما الذي تقبله الآية الكريمة: ما روي عن ابن عبَّاس أنَّ المفاتح الخزائن

١- بديل بن ميسرة تابعي عقيلي النسب، أقام بالبصرة وَتُوُفِّيَ بها سنة ١٣٠هـ. وعدَّه صاحب الكشَّاف من الثقات. (برنامج موسوعة الحديث الشريف CDROM).

وأنّه يحملها أربعون رجلا أقوياء. يقال: ناء به الحمل: أثقله، والباء للتعدية كذهب به بمعنى أذهبه.

﴿إِذْ قَالَ﴾ متعلّق بمحذوف، أي أحسس به إذ قال: ﴿لَهُ، قَوْمُهُ، لاَ تَفْرَحِ﴾ فرح بطر وركون للدنيا ﴿اِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾...الخ، فلم يتّعظ لا بافتخار لأنّه افتخر قبل قولهم، وزاد في ثيابه شبرا إلاّ أن يراد بـ«إذ» الوقت الشامل لذلك، قيل: وقد أمرهم الله تعالى بخيوط خضر في أطراف ثيابهم علامة للعبوديَّة، يتذكّرون بها الله تعالى، وما أنزل من الوحي، فأبى هو، فقال: إنّما يفعل هذا بالعبيد ليمتازوا لساداتهم، وهذا أوّل بغيه.

(قصص) فاتّفق مع قوم أن يرشوا بغيًّا بألف دينار وألف درهم، وقيل: بطسة من ذهب، وقيل: بأن يخلطها بنسائه، على أن تقذف موسى فتابت وأخبرت موس عليه السلام بذلك كما مرَّ.

[قلت:] والفرحون الذين لا يحبُّهم الله من يفرحون بالدنيا فرحا يلهيهم عن حقوق الله في أبدانهم وأموالهم.

﴿وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتَاكَ اللهُ﴾ من الأموال ﴿الدَّارَ الاَخِرَةَ﴾ أي ليكن معظم همّتك فيها صرفها للآخرة بالصدقة. و«في» بمعنى الباء متعلّق بـ«ابْتَغِ» أو ظرفيَّة متعلّقة بحال محذوفة، أي وابتغ متصرّفا فيما ﴿وَلاَ تَنسَ﴾ لا تترك ﴿نَصِيبَكَ﴾ حظّك ﴿مِنَ الدُّنْيَا﴾ بأن تأخذ ما يكفيك لباسا وأكلا وشربا ومسكنا ومركبا، ونحو ذلك بلا سرف، ولا تترك الكلّ فتبقى محتاجا، وعظوه بما له وما عليه ولو بعد عن ذلك، وإن فسّر بالعمل للآخرة من ذلك المال كان تقريرا لما قبله، لا إن فسّر بما ذكرت أو بالعمل بالبدن، ومن عرف أنّه سيموت اعتبر بقول شاعر:

نصيبك مِمَّا تجـــمع الدهر كلّه ... رداءان تلوى فيهمـــا وحنوط

﴿وَأَحْسِنْ﴾ إلى عباد الله بالإنفاق، وهو تقرير لما قبل، أو بطلاقة الوجه والاتضاع وعدم الترفُّع، أو بالشكر ﴿كَمَآ أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ﴾ إحسانا كإحسان الله إليك بصحَّة البدن والجمال وكثرة المال، أو لأجل إحسان الله إليك ﴿وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الاَرْضِ﴾ بالظلم والتكبُّر ﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ كلُّ ذلك من كلام قوم موسى المؤمنين.

﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُ﴾ الهاء عائد إلى «ما» من قوله: ﴿فِيمَآ ءَاتَاكَ اللهُ﴾. ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ خصِّصتُ به من بين الناس، أو لأجل علم، أو حال من تاء «أُوتِيتُ» ﴿عِندِيَ﴾ نعت لـــ«عِلْمٍ»، وهو علم التوراة، وهو أعلم بني إسرائيل بها، وقال أبو سليمان الداراني المنسوب إلى داران موضع بأندلس[1]: **علم التجارة والكسب.**

وقال ابن المسيب: علم الكمياء وهو المتبادر، قيل: كان موسى عليه السلام يعلِّمه فعلَّم يوشع بن نون ثلثه وكالبا بن يوقنا ثلثه وقارون ثلثه فتعلَّم منهما ثلثيهما ففاق فيه، وقيل: علَّمه موسى اخته فعلَّمته قارون، أو علم من التواريخ أو القصاص، وقيل: علم استخراج الدفائن، وقيل: ﴿عَلَىٰ عِلْمٍ﴾: من الله ﴿عِندِيَ﴾: علَّمنيه.

وليس في هذا كفر بخلاف ما قبل من الأقوال ففيه إشارة إلى استقلاله عن الله في ذلك، وهو كفر، إلاَّ أنَّ قوله: «أُوتِيتُهُ» إن أراد أنَّ الله آتانيه فاعتراف، ولا يخلو عن كفر لأنَّه أراد أنِّي متاهِّل لذلك بالذات.

١- هو عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي، ونسبه الزركلي إلى داريا بغوط دمشق، رحل إلى بغداد ثمَّ عاد إلى الشام وتوفي في بلده سنة ٢١٥هـ كان من كبار المتصوِّفة له أخبار في الزهد. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص٢٩٣. والداريا اسم لعدد مواضع في الشام وغيره.

﴿أَوَلَمْ يَعْلَمَ اَنَّ اللهَ قَدَ اَهْلَكَ مِن قَبْلِه مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً﴾ في العقل والبدن ﴿وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ جمع الرجال أو جمع المال، وهذا مما يبيِّن كذب من قال: مفاتيحه وقر سبعين بغلا من الجلد كالإصبع، فإنَّ الله لم يعط أحدا قبله ذلك ولا اكثر منه. والهمزة للإنكار ممَّا بعد الواو، أو دخلت على محذوف كما يعلم من نظائره، أي أَعَلِمَ ما ادَّعاه و لم يعلم أنَّ الله...الخ.

﴿وَلاَ يُسْئَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ عطف على ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ﴾ عطف قصَّة على أخرى، أو حال من ضمير «أَهْلَكَ»، أو من الموصول، أي أو لم يعلم أنَّ الله أهلك العصاة قبله، والحال أنَّه عالم بهم لا يحتاج إلى السؤال عنهم، وكذا قارون علم الله ذنوبه لا تخفى عنه، فهلاَّ خاف الهلاك؟ فخذ هذا ولا تخرج عن ذهنك جوازه.

والسؤال في الدنيا والمجرمون على العموم أو من قبله، وإن شئت فالسؤال في الآخرة لا يسئلهم يوم القيامة سؤال استعلام لعلمه بهم، ولا الملائكة لعلمهم بهم من صفائحهم ومن سيماهم، ﴿يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ﴾ (سورة الرحمن: ٤١) وأمَّا قوله تعالى: ﴿لَنسْأَلَـنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة الحجر: ٩٩) فسؤال توبيخ لا استعلام، أو هو في الموضعين توبيخ لا يُسألون في موطن إهانة لهم، وشدَّة الغضب، ويُسألون في آخر توبيخا، والأوَّل أولى. ولا تعطف على ﴿أنَّ اللهَ قَدَ اَهْلَكَ﴾ لأنَّه لم يقل: وإنَّه لا يسأل.

﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ فِى زِينَتِهِۦ ۖ قَالَ ٱلَّذِينَ يُرِيدُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ إِنَّهُۥ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۚ وَلَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلصَّٰبِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ ٱلَّذِينَ تَمَنَّوْا۟ مَكَانَهُۥ بِٱلْأَمْسِ

يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ۝٨٢﴾

-٢-

بعض مظاهر بغي قارون وكبريائه

﴿فَخَرَجَ﴾ عطف على «قَالَ»، وليس الترتيب باتِّصال والله أعلم، بل المراد التسبُّب ﴿عَلَىٰ قَوْمِه﴾ في عيد أو سبت ﴿فِي زِينَتِه﴾ حال من ضمير «خَرَجَ» لا متعلِّق بـــ«خَرَجَ»، إذ لا معنى للخروج فيها إلاَّ على معنى في حال التزيُّن بزينته.

(قصص) وهي أربعة آلاف دَابَّة له ولحشمه، عليهم ثياب حرير حمر بأرجوان، ومنها ألف بغلة بيضاء عليها قطائف الأرجوان، وقيل: سبعون ألفا وعليهم المعصفرات، قيل: هي أوَّل ما اتخذت، وقيل: بغلته بيضاء عليها الأرجوان وسرج من ذهب، وأربعة آلاف خادم عليهم على خيولهم الحرير الأحمر، وثلاثمائة غلام عن يمينه، وثلاث مائة جارية بيضاء عن يساره، وعليهنَّ الحليُّ والديباج الأحمر على سروج من ذهب، على بغال بيض.

[قلت:] والسنَّة اختيار اللباس الأبيض وكان بنو العباس يلبسون السواد شعارا لهم وسمُّوا لذلك المسوِّدة، وأصحابنا رحمهم الله يذكرون المسوِّدة ويريدون مطلق الأكثرين من الأَشعَرِيَّة لكثرتهم لا خصوص بني العَبـــَّاس.

﴿قَالَ الذينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنيَا﴾ من أهل التوحيد وأهل الشرك ﴿يَالَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِيَ قَارُونُ﴾ من المال وذلك غبطة.

(فقه) وهي لا تضرُّ إلاَّ أنَّها قد تقوى فتؤدِّي إلى الحسد، والحسد لا ذنب فيه ما لم يعمل به إلاَّ أنَّه يفضي إلى العمل به إن لم يعالج، وقيل: في الغبطة

ضرر دون ضرر الحسد على أنَّ في الحسد ضررا، قيل: يا رسول الله هل يضرُّ الغَبَطُ؟ قال: «**لا إلاَّ كما يضرُّ العضاه الخبط**» وذلك نفي الضرر لأنَّ الخبط ينفع العضاة، واعترض بأنَّه قد يضرُّها، فيكون المعنى كراهة الغبطة لئلاَّ توقع في الضرِّ. وقيل: تمنَّاه المؤمنون ليصرفوه في الآخرة، ويردُّه قوله تعالى: ﴿قَالَ الذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ...﴾.

﴿**إِنَّهُ، لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ**﴾ نصيب عظيم من الجاه والشرف والمال ﴿**وَقَالَ الذِينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ**﴾ بأحوال الدنيا والاخرة والثواب والعقاب والتوكُّل والأخبار، ومقتضى قوله: ﴿الذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَوٰةَ الدُّنيَا﴾ أن يقال: وقال الذين يريدون ثواب الآخرة، لكن ذكرهم بالعلم لأنَّه يتوصَّل بالعلم إلى معرفة الدارين.

﴿**وَيْلَكُمْ**﴾ مفعول مطلق عامله من غير لفظه، أي هلكتم ويلكم، أهلكتم هلاككم الذي تستحقُّونه، ولا يلزم من هذا أنَّ القآئلين: «يَا لَيْتَ لَنَا...» مشركون أو منافقون لأنَّ الويل كلمة تستعمل في الزجر ولا تختصُّ بعذاب الآخرة.

﴿**ثَوَابُ اللهِ**﴾ على الإيمان والطاعة ﴿**خَيْرٌ**﴾ في الآخرة ممَّا تتمنَّونه من مال قارون والدنيا كلِّها ﴿**لِّمَنْ ـــ امَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا**﴾ فليدم المؤمن على إيمانه وعلمه، وليكتسب غيره الإيمان والعمل ما دام في الدنيا.

﴿**وَلاَ يُلَقَّاهَا**﴾ هذه القولة، ومعنى تلْقِيَتِها جعلها ملاقية لقلب من أذعن إليها بالقبول والعمل، أو الضمير للثواب بمعنى المثوبة أو الجنَّة أو للإيمان والعمل الصالح، والتأنيث لتأويل الجماعة إذ قد يعبَّر عن الاثنين بعبارة الجمع، أو لأنَّ المراد بالعمل الأعمال، ولتعدُّد إيمان من آمن، أو للتاويل بالسيرة والطريقة ﴿**إِلاَّ الصَّابِرُونَ**﴾ على الطاعات والمصائب وعن المعاصي والشهوات.

﴿فَخَسَفْنَا﴾ مثل ما مرَّ ﴿بِهِ وَبِدَارِهِ الاَرْضَ﴾ بمرَّة، وكانت داره صفائح من ذهب هو يتسفَّل فيها لا يبلغ قعرها إلى يوم القيامة.

(قصص) قيل: أمرهم موسى عليه السلام بالزكاة فقال قارون: أمركم بكلِّ ما أراد ففعلتم حتَّى طلب أموالكم! فقالوا: ما ترى؟ قال: تبهته فلانة الفاسقة بالزنى، إلى آخر ما مرَّ، فخسف به وهو يستغيث بموسى كما مرَّ من قبل، فأوحى الله إليه: ما أقساك لو استغاث بي مرَّة لأغثته، فقال: يا ربِّ فعلت ذلك غضبا لك. وإنَّما يقبله لو تاب واستغاث قبل الشروع في الخسف ﴿لاَ يَنفَعُ نَفْسًا اِيمَانُهَا لَمْ تَكُنَ ـــ امَنَتْ مِن قَبْلُ﴾ (الأنعام: ١٥٨)، ﴿إِلاَّ قَوْمَ يُونُسَ﴾ (سورة يونس: ٩٨) ويروى أنَّه خسف بأمواله أيضا لَمَّا قيل ذلك ليرثه. والباء للتعدية، أي صيَّرنا الأرض خاسفة لهم أي مدخلة لهم فيها.

﴿فَمَا كَانَ لَهُ، مِن فِئَةٍ﴾ جماعة تردُّ عنه وهو محذوف اللام بوزن «فعة» من فاوت قلبه إذا ميَّلته، والجماعة يميل بعضها بعضا، أو محذوف العين بوزن «فلَة» من الفيء وهو الرجوع، لأنَّ بعض الجماعة يرجع إلى بعض. ﴿يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللهِ﴾ بدفع الخسف عنه، نعت «فِئَةٍ» ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ بأنفسهم، وإن قلنا بالفئة فتأكيد.

﴿وَأَصْبَحَ﴾ من الليل الذي خسف فيه به على أنَّ الخسف وقع في الليل، وهو أشدُّ إذ هو وقت الراحة والسكون، أو بمعنى صار فهو محتمل لليل وغيره ﴿الذِينَ تَمَنَّوْاْ مَكَانَهُ،﴾ مثل مكانه أي منزلته، لقوله عز وجل: ﴿مِثْلَ مَآ أُوتِيَ﴾ أو نفس منزلته على أنَّ «مِثْلَ» هناك صلة، والأوَّل أولى، لأنَّ الأصل عدم الزيادة، ولأنَّ الأصل تمنِّي المثل لا الشيء الفاني، وأمَّا تقدير مثل هنا فإنَّه ولو كان حذفا فلذكر مثله فكأنَّه لم يحذف. ﴿بِالاَمْسِ﴾ في الزمان الماضي القريب موصولا أو مفصولا.

﴿يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ﴾ «وَيْ»: اسم فعل بمعنى اعجب مِمَّا وقع من الخسف، أو بمعنى أندم على ذلك التمنِّي، والكاف حرف خطاب و«أنَّ الله» تعليل، لأنَّ الله أو بأنَّ الله، أو يقدَّر: أعلم أنَّ الله بصيغة المضارع أو الأمر.

(صرف) وقال الكسائي ويونس: أصله «ويلك»، فحذف اللام، فالكاف ضمير مضاف إليه، وقيل: «وي» اسم فعل و«كأنَّ» هي حرف تشبيه خرجت عنه إلى التحقيق، كقوله:

كأنَّ الأرض ليس بها هشام ....

مع أنَّه مات، إلاَّ إن ادَّعَى أنَّه نافع ولو مات، ولا يصحُّ ما قيل عن ابن عبَّاس: «ويكأنَّ» كلمة واحدة بمعنى ألم تر؟ ناصبة للفظ الجلالة، أي ألم تر أنَّ الله.

﴿يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ كقارون ﴿وَيَقْدِرُ﴾ يضيِّقه عَمَّن يشاء من متَّق وعاص، وليس لكرامة أو هوان، بل كثيرا ما يكون المال هلاكا لصاحبه كما رأيتم لقارون، وكان يؤذي موسى، وموسى يداريه لقرابته وتسكينا لحدِّه، حتَّى طالبه بالزكاة إذ نزلت فأبى فصالحه بإذن الله على كلِّ ألف بواحدة، فأبى وسعى في بهته بالزنى.

﴿لَوْلآَ أَن مَّنَّ اللهُ عَلَيْنَا﴾ بأن لم يعطنا مثل ذلك أو نفس ذلك ولم نفعل ما فعل من السوء، أو بأن لم نختر المقام معه حتَّى يخسف بنا، كما خسف بالاثنين الباقين معه ﴿لَخُسِفَ بِنَا﴾ كما خسف به أي لخسف الله بنا ﴿وَيْكَأَنَّهُ، لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ لنعم الله ﷻ ، أو المكذِّبون لرسله، وقارون مكذِّب عنادا لا جهلا.

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾ مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ ﴾

-٣-

جزاء الذين لا يفسدون في الأرض

﴿**تلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ**﴾ الجنَّة التي عرفت شأنها، وإشارة البعد للتَّعظيم ﴿**نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لاَ يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلاَ فَسَادًا**﴾ وهم أهل العدل والتواضع مع الولاة، وأهل القدرة من سائر النَّاس، وذكرهم بترك إرادة العُلوِّ والفساد لا بترك العلوِّ والفساد لمزيد التَّحذير.

وإرادة الشَّيء سبب لفعله ولعلَّه يفضي إليه ولا تضرُّه أو تنفعه حتَّى يعزم عليه، وإذا عزم و لم يفعل كان دون من فعل، والعُلوُّ التكبُّر وطلب الشَّرف بالسَّلطنة أو طلبهما معا، وشمل الاستكبار عن الإيمان، والفساد المعصية وظلم النَّاس في أموالهم أو أبدانهم أو أعراضهم، وشمل الدُّعاء إلى غير الله بالإشراك. والآية على العموم لا في التحرُّز عن فرعون وقارون.

دخل عدي بن حاتم على رسول الله ﷺ فجلس على الأرض وطرح له وسادة فقال له: أشهد أنَّك لا تبغي علوًّا ولا فسادًا، فأسلم رضي الله عنه ، وقال ﷺ : «**ليس من الكبر أن يعجب الإنسانَ جماله أو ثيابه أو شسع نعله**»[1]. أن يحبَّ أن لا يساويه أحد أو يفوقه في ذلك بل هو تسفيه الحقِّ وغمط الخلق.

١- روى **أحمد** في مسنده من حديث أبي ريحانة ما يقاربه لفظا ويوافقه معنى. مسند الشاميين، رقم ١٦٧٥٥.

﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ الكلمة الكاملة في الخير من الله لِمُـتَّقِي الشِّرك والمعاصي، أو الجنَّة لهم.

[قلت:] والجنَّة والنَّار موجودتان الآن لدليل ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُـتَّقِينَ﴾ (سورة آل عمران: ١٣٣) وخروج آدم ونحو ذلك ممَّا ذكر في محلِّه، ولا يدلُّ ﴿نَجْعَلُهَا﴾ على عدمها الآن لأنَّ المعنى نثبتها لهم بالإدخال **﴿مَن جَآءَ بِالْحَسَنَةِ﴾** جاءنا بها لم يبطلها في حَياته **﴿فَلَهُ﴾** بها **﴿خَيْرٌ مِّنْهَا﴾** عددًا وذاتًا ووصفًا. وأجيز أن يكون «خَيْرٌ» بمعنى نفع، فلا تكون «مِنْ» للتَّفضيل بل للبدلية.

﴿وَمَن جَآءَ بِالسَّـيِّـئَةِ﴾ لم يبطلها بالتوبة في حياته **﴿فَلاَ يُجْزَى الذِينَ عَمِلُواْ السَّـيِّـئَاتِ﴾** جمعها وذكر الذين إشارة إلى كثرة المُسِـيئِينَ، و لم يقل مثل هذا في الحسنة لقلَّة المُحْسنينَ، ولأنَّ الحسنة تكثر بما يزاد عليها من تسع فصاعدًا إلى ما لا يعلمه إلاَّ الله سبحانه، والسَّـيِّئة لا تتعدَّد إلاَّ بالأخرى، وأيضًا ذكر السَّـيِّئات و لم يضمر سيِّئةً تقبيحًا لهم بتكرير إسنادها إليهم.

﴿إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مثل ما كانوا يعملون أو نفسه مبالغة، ومقتضى قوله: ﴿وَمَن جَآءَ بِالسَّـيِّـئَةِ﴾ أن يقال: فلا يجزى الذين جاءوا بالسَّـيِّـئات، لأنَّ الجزاء على العمل قصدًا والمجيئ غيره.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ قُل رَّبِّيٓ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ وَمَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨٥﴾ وَمَا كُنتَ تَرْجُوٓاْ أَن يُلْقَىٰٓ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبُ إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ ظَهِيرًا لِّلْكَٰفِرِينَ ﴿٨٦﴾ وَلَا يَصُدُّنَّكَ عَنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بَعْدَ إِذْ أُنزِلَتْ إِلَيْكَ وَٱدْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٨٧﴾ وَلَا تَدْعُ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ لَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ ﴾

بشارة الرسول وتقوية عزيمته

﴿إِنَّ الذي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْءَانَ﴾ أوجب عليك العمل به وقِرَاءَتِه وإبلاغه ﴿لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ مرجع عظيم، والمعاد موضعٌ ترجع إليه قد كنت فيه قبل، وهو مَكَّة، أوحى الله ﷻ إليه وهو فيها أن ستُهَاجِر منها وترجع بالفتح إليها. وبلد الرجل معاده، يخرج ويرجع إليه، وأيضا رُوي أنَّه لَمَّا بلغ الجحفة في هجرته اشتاق إليها، فنزلت الآية أَن سَأَرُدُّك إليها.

وقيل: معاد اسم لمكَّة، لأنَّ العرب تعود إليها للبيت كلَّ عام، أو ذلك من معنى الاعتياد، أي موضع أَلِفْتَه واعتدته وهو مَكَّة، **والأوَّل أولَى** يردُّه إليها منصورا غالبا كما كانت العاقبة للمتقين، وكما نصر موسى على قارون، وقد فسَّره البخاري في التَّاريخ عن أبي سعيد بالجنَّة، والطبري والطبراني عن ابن عبَّاس بها، والديلمي عن عليٍّ عنه ﷺ بها.

وقيل: إنَّهُ دخلها ليلة الإِسراءِ، وقيل عن ابن عبَّاس: المراد يوم القيامة، وقيل: يوم الحشر، وقيل: هو المقام المحمود للشَّفاعة، وعن ابن عبَّاس وأبي سعيد: إنَّه الموت، وقيل: بيت المقدس دخله ليلة الإسراء ووعده بإسراء آخر إليه، أو الرُّجوع إليه بالحشر لأنَّه أرض المحشر.

﴿قُل رَّبِّيَ أَعْلَمُ مَن جَآءَ بِالْهُدَىٰ﴾ وهو رسول الله ﷺ.

(نحو) و«مَنْ» مفعول به لمحذوف، أي يعلم من جاء بالهدى لا مفعول لـ«أَعْلَمُ» لأنَّه اسم تفضيل وهو لا ينصب المفعول به، وفي الآية الأخرى: ﴿بِمَن جَآءَ﴾ (سورة القصص: ٣٧)، بالباء فهو ينصب المفعول بحرف الجرِّ كالباء، وهذه الباء مُتَعَلِّقَة بـ«أَعْلَمُ» وهي كباء الإلصاق تعالى الله، واسم التَّفضيل يمنع من نصب المفعول به الصريح لا من التعدية بالحرف، فلا حاجة

إلى تقدير: يعلم من جاء بالهدى. وقيل: الباء صلة، و«مَنْ» مفعول به لـ«أَعْلَمُ» خارجا عن التَّفضيل بمعنى عالم، و يردُّه أنَّ اسم التَّفضيل لا ينصب المفعول ولو خرج عن التَّفضيل.

﴿وَمَنْ هُوَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ هم المشركون قالوا له ﷺ أنت في ضلاَلٍ مُبين فنزلت الآية بأنَّهم فيه لا هو، وسبب ذلك مجيئه بالهدى فكان الكلام له بالباء ولهم بفي.

﴿وَمَا كُنتَ تَرْجُواْ أَنْ يُّلْقَىٰ إِلَيْكَ الْكِتَابُ﴾ القرآن. يَرُدُّك إلى معاد كما لم تَرْجُ الكتاب وأنزله إليك، فذلك تقرير للرَّدِّ إلى معاد مُتضمِّنٌ لتذكُّر النِّعمة ﴿إلاَّ رَحْمَةً من رَّبِّكَ﴾ استثناء مفرغ، أي إلاَّ لأَجْلِ الرَّحمة، أو إلاَّ في حال الرَّحمة؛ أو منقطع، أي لكن ألقاه إليك رحمة.

﴿فَلاَ تَكُونَنَّ ظَهِيرًا﴾ معينا بالكسل في الأمر والنَّهي ﴿لِّلْكَافِرِينَ﴾ إذ دعوك إلى دينهم وقالوا: هو دين آبائك، وتَمَسَّك بدين أبويك إبراهيم وإسماعيل.

﴿وَلاَ يَصُدُّنَّكَ﴾ لا يمنعنَّك المشركون ﴿عَنَ ـ ايَاتِ اللهِ﴾ القرآن، عن قراءتها والعمل بها ﴿بَعْدَ إِذُ انزِلَتِ الَيْكَ﴾ فإنَّها شرفك دينا ودنيا وأُخرى ﴿وَادْعُ﴾ النَّاس ﴿إِلَىٰ رَبِّكَ﴾ إلى توحيده وعبادته ﴿وَلاَ تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ بالتَّقصير أو مظاهرتهم بأمر مَّا، [قلت:] **ومن أعان المشركين فهو منهم معنى** ﴿وَلاَ تَدْعُ﴾ تعبد ﴿مَعَ اللهِ إِلَهًا ـ اخرَ﴾ ولبعده ﷺ عن تلك الأمور قال بعض: الخطاب لغيره ممَّن آمن.

﴿لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ﴾ تعليل وتقرير لقوله: ﴿وَلاَ تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا ـ اخرَ﴾، ﴿كُلُّ شَيْءٍ﴾ حيٍّ قبل نزول القرآن، وحال نزوله وبعده ﴿هَالِكٌ﴾ ذو هلاك

أي موت، فـ«فاعل» للنَّسب، أو سيموت فـ«فاعل» للاستقبال[1] باعتبار أنَّ القرآن خلقه الله وكتب اللَّوح المحفوظ قبل خلق الأحياء.

ولو جعلناه للحال وقت النزول أو للاستقبال وقته أو للمضي كذلك لم يَعُمَّ، و«شَيْء» شامل للحُور والوِلدان والزَّبانِيَة يموتون ثمَّ يُحيَوْنَ يوم القيامة.

﴿الاَّ وَجْهَهُ،﴾ إلا الله عَجَّلَ وعبَّر بالوجه لأنَّ معظم الشَّيء وجهه، والاتِّصال أصل في الاستـــثناء فتفيد الآية أنَّ الله يُسَمَّى شيئًا، وهو شيء لا كالأشياء، لا يقبل العدم لأنَّ وجوده ذاتيٌّ.

والهلاك بمعنى الموت مشهور في كلام العرب وبه فَسَّرَ ابن عبَّاس الآية، وقال: لَمَّا نزل ﴿كُلُّ نَفسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوتِ﴾ (سورة آل عمران: ١٨٥) قيل: يا رسول الله فما بال الملائكة ؟ فنزل ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ الاَّ وَجْهَهُ،﴾. وعن سفيان: **الهلاك البطلان و«وجهه» ما يوجِّه به إلى الله سبحانه من العمل الصَّالح، فإنَّه معتبر باق ببقاء ثوابه ﴿لَهُ﴾** لا لغيره **﴿الْحُكْمُ﴾** القضاء النافذ في كلِّ شيء في الدُّنيا والآخرة ، فيكم وبينكم. **﴿وَإِلَيْهِ﴾** لا إلى غيره **﴿تُرْجَعُونَ﴾** للجزاء على الإشراك وأعمال السُّوء، والتوحيد والعمل الصَّالح، ويجوز عَوْدُ الهاء للحكم، وهو ولو كان أقرب مذكور لكنَّ الكلام مبنيٌّ على ذكر الحاكم وهو الله لا على الحكم، وأيضا التَّذكير بالرُّجوع إلى الله أقوى من التَّذكير بالرجوع إلى الحكم، وكونه حكما لله كفى فيه قوله: ﴿لَهُ الحُكْمُ﴾.

اللهمَّ يسر لنا في الدُّنيا والآخرة.
وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد وآله وصحبه وسلَّم

١- يعني صيغة اسم الفاعل في قوله تعالى: {هَالِكٌ} إمَّا للنسبة أو للاستقبال.

تفسير سورة العنكبوت وآياتها ٦٩

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوٓا۟ أَن يَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَٰذِبِينَ ﴿٣﴾ أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّـَٔاتِ أَن يَسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٤﴾ مَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ اللَّهِ فَإِنَّ أَجَلَ اللَّهِ لَءَاتٍ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٥﴾ وَمَن جَٰهَدَ فَإِنَّمَا يُجَٰهِدُ لِنَفْسِهِۦٓ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِىٌّ عَنِ الْعَٰلَمِينَ ﴿٦﴾ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ الصَّٰلِحَٰتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَحْسَنَ الَّذِى كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٧﴾﴾

اختبار الناس وتكليفهم، وجزاؤهم في الآخرة

﴿**أَلَمِّ أَحَسِبَ النَّاسُ**﴾ الهمزة لإنكار أن يكون هذا الحسبان صوابا، ومعناه: أظَنُّوا أو أعملوا عَمَلَ الظانين؟ ﴿**أَنْ يُتْرَكُواْ**﴾ قائم مقام مفعولي «حَسِبَ»، لاشتماله على المسند إليه قبل التأويل بالمصدر، كما كثر ذلك مع «أن» المشدَّدة والمخفَّفة منها المفتوحتي الهمزة، أو هذا ثان والأوَّل محذوف، أي أحسب الناس أنفسهم أن يتركوا ؟ أي تركهم أي ذوي ترك أو متروكين ﴿**أَنْ يَقُولُواْ ءَامَنَّا**﴾ على أن يقولوا، أو لأن يقولوا بلام التعليل والحرف متعلِّق بـ«يُتْرَكُوا».

والترك مجرَّد التخلية، أي يتركوا بلا تكليف بالفرائض، وبالصبر على المصائب في الأبدان والأعراض والأموال، وعن الشهوات، ويكتفى بقولهم: آمنا بالله ورسوله وما أنزل إليه، كما قال: ﴿**وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ**﴾ لا يُختبَرون، حال من واو «يُتْرَكُوا» أو «يَقُولُوا»، أي أن يتركوا لقولهم آمنَّا، أو على مجرَّد قولهم آمنَّا، والحال أنَّهم لا يكلَّفون بأمور الشرع والصبر.

وزعم بعض أنّ تفسير ﴿يُتْرَكُوا﴾ بـ«يصيروا» أولى من تفسيره بالتخلية.

(نحو) و«أَنْ يَّقُولُواْ» مفعول ثان له، أي ثابتين على أن يقولوا آمنّا بلا فتن، أو ذوي قول، أو قائلين، ولا يجوز أن يخرج القرآن على أنّ قوله: ﴿وَهُمْ لاَ يُفْتَنُونَ﴾ مفعول ثان لـ«يترك» على زيادة الواو، أو تتريل جملة الحال مترلة المفعول الثاني.

﴿**وَلَقَدْ فَتَنَّا الذينَ من قَبْلِهِمْ**﴾ أتباع الأنبياء، صبروا على الأمور الشداد. روى البخاري وأبو داود والنسائي عن خبّاب بن الأَرَتِّ: شكونا إلى رسول الله ﷺ ولقد لقينا من المشركين شدّة، فقلنا: ألا تستنصر لنا ؟ ألا تدعو لنا ؟ فقال: «**قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثمّ يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه، فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه، وما يصدُّه ذلك عن دينه**»[1]. وهذا كما قال الله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيءٍ قُتِلَ...﴾ (سورة آل عمران: ١٤٦) .

(نحو) واللام للقسم. وجملة القسم لا تكون حالا إذ هي إنشاء. وإذا أجزنا دخول لام الابتداء على «قد» ولا قسم هنا فالجملة حال.

﴿**فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذينَ صَدَقُواْ**﴾ في قولهم آمنّا بأن يؤدُّوا الفرائض ويصبروا للشدائد ﴿**وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ**﴾ في ذلك، وأعاد «لَيَعْلَمَنَّ» تأكيدا، وإن جعلنا «لَقَدْ فَتَنَّا» غير قسم فقد عطف الإنشاء وهو «لَيَعْلَمَنَّ» الأوّل وهو قسم على الإخبار.

١- رواه **البخاري** في كتاب الإكراه (١) باب من اختار الضرب والقتل والهوان على الكفر، رقم ٦٩٤٣، وأبو **داود** في كتاب الجهاد، باب الأسير يكره على الكفر، رقم ٢٦٤٩. مطولا من حديث خباب الأرتّ.

(أصول الدين) ومذهبنا أنَّ علم الله واحد يتعلَّق بالموجود زمان وجوده وقبله وبعده على ما هو عليه، ووافقنا عليه من الْمَالِكِيَّة ابن المنير جدُّ الدماميني، وزعم غيرنا أنَّه تجدَّد علمه بحدوثه.

والآيتان وما بعدهما على العموم، وهما فيمن شكوا إليه ﷺ كما ذكر عن خبَّاب، وفي عمَّار وأمِّه.

(قصص من السيرة) كان أبو جهل أو غيره يعذِّبهما، يجعل على رأس عمَّار درعا من حديد في اليوم الصائف، وطعن في فرج أمِّه، وفي شأن مهجع مولى عمر، قتله عَمَّار بن الحضرمي بسهم ببدر، فجزع عليه أبواه وامرأته، وقال ﷺ : «**سيِّد الشهداء مهجع، وهو أوَّل من يُدعى إلى باب الجنَّة من هذه الأمَّة**» وإنَّه سيِّد الشهداء وهو أوَّل قتيل ببدر، وفي عيَّاش أخي أبي جهل عذِّب ليرتدَّ.

وقوله تعالى: **﴿أَمْ حَسِبَ الذِينَ يَعْمَلُونَ السَّـيِّـئَاتِ أَنْ يَّسْبِقُونَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾** في عموم المشركين، ولو نزلت في أبي جهل والوليد بن المغيرة والأسود والعاصي بن هشام، وشيبة وعتبة، والوليد بن عتبة، وعقبة بن أبي معيط، وحنظلة بن وائل ونحوهم.

و«أم» منقطعة للإضراب الانتقالي لا متَّصلة بقوله: ﴿أَحَسِبَ﴾، لأنَّ ما بعدها ليس مفردا ولا في تأويله ولا تجاب بأحد الشيئين أو الأشياء، ومثال ما في تأويل المفرد: أقعد زيد أم قام ؟ .

ومعنى ﴿أَنْ يَّسْبِقُونَا﴾: أن يفوتونا من العذاب، و﴿السَّـيِّـئَاتِ﴾: الشرك وما دونه، وزعم بعض أنَّها ما دون الشرك، وأنَّها في أهل التوحيد نزَّل تقصيرهم منزلة التكذيب وهو ضعيف وخلاف الظاهر في شأن المؤمنين.

(نحو) و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي ساء حكمهم، ولا حاجة إلى جعلها موصولا اسميًّا، أي ساء الحكم الذي يحكمونه، أو نكرة موصوفة، أي حكم يحكمونه، لأنَّ فيه الحذف، والمخصوص محذوف في جميع الأوجه، أي ساء ما يحكمون هذا، بل لا يلزم تقدير المخصوص ولا التمييز في باب نعم وبئس إذا تمّ الكلام بدونهما.

﴿مَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ اللهِ﴾ الكون في جنَّته ورضاه ونزول الملائكة بالخير إليهم منه.

[قلت:] ولْيَخَفْ أن لا ينال الجنَّة من يفسِّر الرجاء بمعنى يتضمَّن ما لا يجوز وهو رؤيته تعالى، لأنَّ المرئيَّ متحيِّز.

وما ذكرته أولى من تقدير لقاء ثواب الله، والرجاء: الطمع، ويجوز أن يكون بمعنى الانتظار للجزاء عقابا أو ثوابا، أو بمعنى الخوف، أي يخاف الكون في النار ولقاء عقاب الله كقوله: «إذا لسعته النحل لم يرج لسعها» أي لم يخفه[1].

(بلاغة) أو شبَّه المجيء للحساب والعمل في الدنيا والجزاء عليه بقدوم عبد على مولاه وعمله، ومحاسبته عليه، فإمَّا خير أو شرٌّ على الاستعارة التمثيليَّة، ويعمل ويحكم ويرجو للاستمرار، والجواب محذوف، أي فليبادر إلى ما يفوز به، وينجو دلَّ عليه علَّته، وهي قوله:

﴿فَإِنَّ أَجَلَ اللهِ لأَتٍ﴾ أي لأنَّ أجل الله وهو وقت اللقاء، والأجل آخر المدَّة المقدَّرة كما هنا، وقد يطلق على مجموعها نحو أجله شهر، وهو الأكثر ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ﴾ العليم بأقوال العباد ﴿الْعَلِيمُ﴾ بأحوالهم الظاهرة والباطنة.

١- تمام البيت: «وخالفها في بيت نوب عواسل». لأبي ذؤيب الهذلي.

﴿وَمَن جَاهَدَ﴾ نفسه بالصَّبر على الطَّاعة والمصائب وعن الشَّهوات ﴿فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِه﴾ منفعة جهاده راجعة إليه، لا نفع لله عَزَّ وَجَلَّ فيه، لأنَّ النَّفع كُلَّه منه ولا يحتاج كما قال: ﴿إِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ كُلِّهم.

﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَـيِّـئَاتِهِمْ﴾ لنكفِّرنَّ شركهم وما دونه بالتوحيد، وما عملوا بعد التَّوحيد نكفِّره بالتَّوبة، والصَّغائر بعده بها، أو باجتناب الكبائر أو بالتَّوبة منها﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمُ، أَحْسَنَ الذي كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي بثَواب أحسن [من] الذي كانوا يعملون، وأحسنه الطاعة وحَسَنُه (بفتح السين والحاء): المباح، فحذف الجار والمضاف.

[قلت:] ولا ثواب على المباح إلاَّ إن فُعِل تقرُّبـــًا إلى الله عَزَّ وَجَلَّ فإنَّهُ طاعة. وأولى من ذلك أنَـــّهُ مفعول مطلق أي أحسن جزاء العمل الذي عملوه، وهو الحسنة بعشر إلى سبع مائة فصاعدا، وحسنه الحسنة بواحدة كما إن نوى وعزم ولم يفعل لمانع، وليس في ذلك تعرض للحَسن (بفتح السين والحاء) بل للأحسن.

و إن أخرجْناه عن التفضيل شمل الحَسَن (بفتحهما). [قلت:] ومعلوم أنَّ المرادَ العبادةُ فلا يشمل المباح الذي لم يُقصد به عبادةٌ، ولو سَمَّيْنَاه حَسَنًا (بفتحهما) فكيف لو لم يسمَّ حسنًا ولا قبيحًا، وفي ذلك الإخبار بالإنشاء، أو يقدَّر «مقول فيهم: لنكفِّرنَّ ولنجزينَّ»، ويتساهل في الخبر ما لا يتساهل في الحال.

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًاۖ وَإِن جَٰهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَآۚ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ٨ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِى ٱلصَّٰلِحِينَ ٩ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ

فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا ٱتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَٰيَٰكُمْ وَمَا هُم بِحَٰمِلِينَ مِنْ خَطَٰيَٰهُم مِّن شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَّعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْـَٔلُنَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾ ﴾

طاعة الخالق أولى من طاعة المخلوق

﴿**وَوَصَّيْنَا الانسَانَ**﴾ جنس الإنسان، الذكور والإناث، الأحرار والعبيد، إذا أباح لهم مالكهم أو ما لا يحتاج فيه إلى الإباحة، ككلام حسن ودعاء وتعليم لا يشغل ﴿**بِوَالِدَيْه حُسْنًا**﴾ إيصاء حسنا أي ذا حُسْن، أو حَسَنا (بفتح الحاء والسين)، أو نفس الحُسْن تأكيدا، كأنَّ الإيصاء نفس الحسن (بضمٍّ فإسكان).

(نحو) أو اسم مصدر على نزع الجارِّ، أي بالإحسان على أنَّ الباء الأولى للإلصاق والثانية للتعدية، أو «حسنًا» مفعول مطلق اسم مصدر لمحذوف، والجملة محكيَّة بــ«وَصَّيْنَا» بمعنى قال، أي قلنا له: لِيُحْسِنْ بوالديه إحسانا، ولام «لِيُحسِنْ» لام الأمر، و«يُحسِنْ» مجزوم، أو يقدَّر القول، أي وصَّينا الإنسان بوالديه قلنا له: أحسن بهما إحسانا، أو قلنا له: افْعَل بهما حُسْنا، أي فعلَ حُسْن.

(بلاغة) والأمر بالحسن أبلغ من الأمر بطاعتهما لأنَّه يكون بلا أمر منهما وبه، والطاعة ما كان عن أمر.

﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ**﴾ أي بالغا جهدهما في الأمر بالإشراك، ويقدَّر القول، أي وقلنا: إن جاهداك، وهذا القول المقدَّر معطوف على «وصَّينا» عطف إخبار على إخبار، وإن قدَّرنا القول قبلُ فهذا الكلام داخل في حيِّزه، أو العطف على

الأمر المقدَّر أي قلنا أحسن ولا تطعهما بالإشراك إن جاهداك.

﴿لِتُشْرِكَ بِي﴾ في الأُلوهيَّة أو صفة من صفاتي أو فعل من أفعالي **﴿مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾** لعدم وجوده فضلا عن أن تعلمه، فالمراد بنفي العلم نفي المعلوم، وذلك مجاز لعلاقة اللزوم والسببيَّة، كقولك: المسلم لا يُرى في مجامع السوء، أي لا يكون فيها، ولا أراك في السوق، أي لا تكن فيها.

﴿فَلاَ تُطِعْهُمَآ﴾ في الإشراك ومن ذلك وغيره قال ﷺ : «**لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق**»[1].

﴿إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ﴾ رجوعكم بالإحياء بعد الموت أَيُّـهَا الناس كلُّكم **﴿فَأُنَبِّئُكُم﴾** أخبركم ولا يتصوَّر الإخبار بالشيء إلاَّ بالعلم به، ومن لازم العلم بالشيء الجزاء به، فالمعنى: أجازيكم خيرا أو شرًّا **﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** من شرك وتوحيد ومعصية وطاعة وبرِّ الوالدين وعقِّهما وكذا حقُّ الولد عليهما.

(سبب النزول) نزلت هذه الآية والتي في لقمان [آية: ١٥] والأحقاف [آية: ١٥] في سعد بن أبي وقَّاص حين أسلم وحلفت أمُّه حمنة بنت أبي سفيان بن أمية بن عبد شمس لا تستتر من شمس ولا ريح، ولا تأكل ولا تشرب، حتَّى يكفر بمحمَّد، وكان أحبَّ ولدها إليها فبقيت ثلاثة أيَّـام كذلك، وقال: والله لو كان لها مائة نفس فخرجت واحدة بعد واحدة ما كفرت بمحمَّد ﷺ ، فقال ﷺ : «**دارئها وأحسن إليها**».

(سيرة) وفي ربيعة بن أبي عياش المخزومي، هاجر مع عمر حتَّى دخلا

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٣ ، ص٢٥٦.

المدينة فجاءه أبو جهل بن هشام وأخوه الحرث بن هشام أخواه لأمّه أسماء بنت مخزمة من بني تميم بن حنظلة، وقالا له: «من دين محمَّد صلة الأرحام وبرُّ الوالدين -وقد نزلت- وقد تركت أمَّك لا تأكل ولا تشرب ولا تستتر من شمس ولا ريح حتَّى تراك -وَأَلاَنَا لَهُ- فاذهب معنا لتراك»، فاستشار عمر رضي الله عنه ، فقال: خدعاك فأقم ولك نصف مالي، فما زالا به حتَّى مال إليهما، فقال له عمر: فخذ ناقتي فإنَّها لا تسبقها ناقة، فإن رأيت سوءا فانج بها إلينا، ولَمَّا وصلوا البيداء قال أبو جهل: احملني معك كلَّت ناقتي، فترل ليوطئ له، فربطاه وجلده كلٌّ منهما مائة، ولَمَّا بلغ أمَّه قالت: لا تزال تعذَّب حتَّى تكفر بمحمَّد.

﴿وَالذينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ﴾ مثل الذي مرَّ أو يقدَّر لندخلنَّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنَّهم في الصالحين، والمعنى لندخلنَّهم في جملة من كمل صلاحه، وذلك مرتبة أعلى طلبها الأنبياء كما قال سليمان: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ...﴾ (سورة النمل: ١٩) وهذا أولى من تقدير في مدخل الصالحين وهو الجنَّة لإفادته مفاده وزيادة بلا حذف.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَّقُولُ ءَامَنَّا بِاللهِ﴾ وحده اتِّبَاعا للرسول ﷺ وتصديقا، وهم المنافقون بإضمار الشرك، كما يدلُّ له قوله: ﴿أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ وقيل: قوم ضعف إيمانهم يزلُّون خفية أحيانا خوفا من المشركين وطمعا في نفعهم، فكان يصيبهم أذى منهم.

﴿فَإِذَآ أُوذِيَ فِي اللهِ﴾ ضرَّهم الكفرة في دين الله، بأن عذَّبوهم على الإيمان أو لأجل الله ﴿جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ﴾ إيذاء المشركين ﴿كَعَذَابِ اللهِ﴾ في الشدَّة، حتَّى كأنَّه جهنَّم لا يقدرون عليها، فكفروا لينجوا منه، أو كتعذيب الله من كفر بالنار فأطاعوهم، كما يطيع الله من يخاف عذابه.

﴿وَلَئِن جَآءَ نَصْرٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ غلبة وغنيمة ﴿لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ في الدين أو في القتال فأعطونا للدين أو للقتال.

﴿أَوَلَيْسَ اللهُ بِأَعْلَمَ﴾ أيخفى حالهم وليس؟ أو أليس من نوَّر قلبه عالما وليس؟ [و«بِأَعْلَمَ»] باق على التفضيل، أي بأعلم مِنْ كلِّ مَنْ عَلِمَ من العالمين، أو «بِأَعْلَمَ» خارج عن التفضيل، أي عالما ﴿بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ﴾ من النفاق.

وقيل: الآية فيمن هاجر فردَّهم المشركون إلى مكَّة وارتدُّوا، وقيل: فيمن آمن وجاء مع المشركين إلى بدر وارتدُّوا، وهم المراد في ﴿إِنَّ الذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ (سورة النساء: ٩٧) .

﴿وَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ إيمانا خاليا عن النفاق ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ آمنوا بألسنتهم وأضمروا الشرك، أو زلُّوا به لضعف إيمانهم، أو آمنوا ونافقوا بإيذاء المؤمنين أو رجعوا للشرك بإيذاء المشركين لهم، وجزاء كلٍّ بما يستحقُّ لازم لعلم الله ﷻ ، و لم يقل: وليعلمنَّ الذين نافقوا للفاصلة.

﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ أشركوا صراحا ﴿لِلذِينَ ءَامَنُواْ اتَّبِعُواْ سَبِيلَنَا﴾ دين الشرك الذي جعلناه طريقا نسلكه كالطريق في الأرض، فـ«سَبِيلَ» استعارة تصريحيَّة، ولا يجوز نصبه على الظرفيَّة على أنَّ التقدير: اتَّبِعونا في سبيلنا، لأنَّه ممَّا لا ينصب على الظرفيَّة.

﴿وَلْنَحْمِلْ﴾ على أنفسنا كحمل الشيء على الظهر، أو نَضْمَنْ، مِنْ معنى الحمالة التي هي الكفالة، ويخالف هذا قوله ﷻ : ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ...﴾ ﴿خَطَايَاكُمْ﴾ إن اتَّبَعتم سبيلنا، وهي ما لا يجوز في دين الله على زعمكم حتَّى كأنَّا معتقدون له وقائلون به وفاعلون له لا أنتم، فلا تُعاقبون، بل نعاقب

نحن على فرض ثبوت الجزاء، أو ننجو لعدم ثبوته، أو يسامحنا الله، أو عبَّر عن الجزاء بالخطايا لأنَّها سببه وملزومه. والأمر بصيغة التكلُّم أمر لأنفسهم، وإلزام لها، بحيث لا محيد لها عن الحمل، وكذَّبهم بقوله:

﴿**وَمَا هُم بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُم**﴾ حال من «شَيْء» بعده ومنْ للبيان. ﴿**مِّن شَيْءٍ**﴾ مِنْ صلة لتأكيد العموم. و[كذَّبهم] بقوله: ﴿**إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ**﴾ في دعوى صحَّة الحمل المعلومة من قولهم: ﴿**وَلْنَحْمِلْ**﴾ فإنَّ دعواها إخبار، والكذب يقع فيها، أو الكذب بمعنى عدم إصابة الصواب، فيجوز في الإنشاء، يقال: سهم كاذب، إذا أخطأ.

أو «لنَحْمِلْ» أمرٌ لفظا إخبارٌ معنى، كأنَّه قيل: نحملْ (بالجزم) في جواب الأمر، فصحَّ الوصف بالكذب، بأن يكون في قلوبهم اعتقاد أن لا يحملوا خوفا منهم لعلمهم صادقون، أو اعتقادا منهم أن لا يصحَّ الحمل.

والآية في أبي جهل وأبي سفيان بن حرب، وأميَّة بن خلف، والوليد بن المغيرة إذ كانوا يعارضون من جاء للإسلام، ويقولون محمَّد يحرِّم الخمر والزنى والقمار والحقُّ معنا، وإن كان معه حملنا عنكم العذاب إن صحَّ البعث، وقال أبو سفيان وأمية ذلك لعمر.

والضمير في الآية لهؤلاء لعلمهم بالمشاهدة، أو لقريش إجمالا إذ هؤلاء منهم، وإذ رضوا.

﴿**وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ**﴾ العذاب لشركهم ومعاصيهم، وهو في الشدَّة كثقل الجبل، أو الأثقال الشرك والمعاصي، ويراد بحملها ملاقاة جزائها ﴿**وَأَثْقَالاً**﴾ أخرى من حيث أَمْرهم بالشرك والمعاصي وإضلالهم غيرَهم ﴿**مَعَ أَثْقَالِهِمْ**﴾ من غير أن ينقص من عقاب الضالِّ بهم شيء.

روى عبد بن حميد بسنده عن الحسن أنَّ النبيء ﷺ قال: «**أيُّما داع دعا إلى هدى فاتُّبع عليه وعمل به فله مثل أجور الذين اتَّبعوه، ولا ينقص ذلك من أجورهم شيئا، وأيُّما داع دعا إلى ضلالة فاتُّبع عليها وعمل بها فعليه مثل أوزار الذين اتَّبعوه ولا ينقص ذلك من أوزارهم شيئا**»[1]. وحاصل ذلك أنَّ الأعمال كالعدلين وأعمال المتَّبعين كالعلاوة عليهما.

﴿**وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**﴾ توبيخا ﴿**عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ**﴾ من الأباطيل التي ضلُّوا بها وأضلُّوا غيرهم، أو دَعَوْا إليها ولو لم يُتَّبعوا.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٤﴾ فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ وَجَعَلْنَاهَا آيَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٥﴾﴾

قصَّة نوح عليه السلام مع قومه

﴿**وَلَقَد**﴾ الواو عاطفة لا حرف قسم حذف بعض المعطوف والأصل: وبالله، أو الأصل: ووالله، بواو العطف بعد واو القسم المحذوفة، وبقي الجواب وهو «لقد...». ﴿**أرْسَلْنَا نُوحًا اِلَىٰ قَوْمِه**﴾ وهذا تسلية لرسول الله ﷺ، وتصبير ووعد بالنجاة والسلامة، ووعيد للمكذِّبين، كما فاز نوح ونجا وهلك مكذِّبوه.

﴿**فَلَبِثَ فِيهِمُ، أَلْفَ سَنَة**﴾ اختار أوَّلا لفظة السَّنَة لشهرتها في الشدَّة بالجدب المناسبة لِمَا لقي من قومه وقت دعائه لهم، والعام أعمُّ ﴿**اِلاَّ خَمْسِينَ**

١-أورده **الزبيدي** في الإتحاف: ج٨، ص٣٢٠. كما أورده الألوسي في تفسيره: مج٧، ص١٤٢، وقال: أخرجه عبد بن حميد وابن المنذر عن الحسن. ويؤيِّده معنى ما رواه ابن ماجه، باب من من سنَّ سنَّة... رقم ٢٠٣، من حديث جرير.

عَامًا﴾. روى الحاكم وقال: صحيح، وابن أبي شيبة وغيرهما عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: «بعث الله تعالى نوحا عليه السلام ابن أربعين سنة، ولبث فيهم ألف سنة إلاَّ خمسين عاما، يدعوهم إلى الله تعالى وعاش بعد الطوفان ستِّين، فكثر الناس، فعمره ألف وخمسون سنة».

(قصص) وروى ابن أبي جرير عن عون بن أبي شدَّاد أنَّ الله تعالى أرسله ابن خمسين وثلاثمائة ولبث فيهم ألفا إلاَّ خمسين، وعاش بعد ذلك خمسين وثلاثمائة، فعمره ألف وستمائة وخمسون، وعن عكرمة: عمره ألف وسبعمائة، وعن وهب: ألف وأربع مائة، وقيل: مدَّة نبوءته تسعمائة وخمسون، وعاش بعد الغرق خمسين، وقيل: مائتين.

ومدَّة الطوفان ستَّة أشهر آخرها يوم عاشوراء، ويحتمل أن تكون الآية في مدَّة إقامته من حين ولد إلى الغرق، وأن يكون ذلك جميع عمره، روى ابن أبي الدنيا عن أنس أنَّه قال له ملك الموت: «يا أطول الأنبياء عمرا كيف الدنيا؟» قال: «كبيت له بابان دخلت من أحدهما فقلت قليلا، وخرجت من آخر»، وروي: «دخلت وخرجت».

﴿فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ﴾ [من طاف يطوف] ما دار بهم، وهو هنا الماء **﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾** لأنفسهم بالكفر، ولم يؤثِّر فيهم وعظه وآياته **﴿فَأَنجَيْنَاهُ وَأَصْحَابَ السَّفِينَةِ﴾** معه فيها بنيه، ساما وحاما ويافثا، وأزواجهم ومن آمن، والجملة ثمانون إنسانا بنوح وزوجه، وقيل: ثمانية وسبعون، نصف ذكور ونصف إناث، وعن محمد بن إسحاق خمسة رجال وخمسة نسوة، وعنه ﷺ: «**ثمانية نوح وزوجه وأولاده وأزواجهم**»[1].

١- أورده الألوسي في تفسيره، مج٧، ص١٤٣، مرفوعا بدون تخريج. وأورده **السيوطي** في الدر: =

﴿وَجَعَلْنَاهَآ ءَايَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ يمرُّون عليها وهي على الجودي، حتَّى قيل: أدركها أوائل هذه الأمَّة. ولا داعي إلى ردِّ الضمير إلى القصَّة.

﴿وَإِبْرَٰهِيمَ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٦﴾ إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴿١٩﴾ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾ يُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَيَرْحَمُ مَن يَشَاءُ وَإِلَيْهِ تُقْلَبُونَ ﴿٢١﴾ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَٰئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٣﴾﴾

قصَّة إبراهيم عليه السلام مع قومه

﴿وَإِبْرَاهِيمَ﴾ واذكر إبراهيم وذلك عطف قصَّة على أخرى، أو معطوف على نوح على أنَّ الآية بعد الإيحاء إليه، وأمَّا على أنَّها في صغره لكمال عقله فلسعة الوقت، أو لتتريل إلهامه متزلة الوحي، ولا يعطف على هاء «أَنجَيْنَاهُ» أو على «أَصْحَابَ» لأنَّ التفريع بالفاء على ما قبل لا يناسب إبراهيم.

=

ج٥، ص١٥٦. وقال: أخرجه عبد الرزاق وابن المنذر عن مجاهد.

﴿إِذْ﴾ بدل من «إبراهيم» بدل اشتمال خارجة عن الظرفيَّة إلى المفعوليَّة ﴿قَالَ لِقَوْمِهِ اعْبُدُواْ اللهَ﴾ لا تعبدوا غيره ﴿وَاتَّقُوهُ﴾ احذروا عذابه على عبادة غيره، أو احذروا الإشراك به.

﴿ذَلِكُمْ﴾ ما ذكر من عبادته وتقواه ﴿خَيْرٌ لَّكُمْ،﴾ من عبادة غيره، ومن عبادة غيره معه، على زعمكم أنَّ في عبادة غيره نفعا أو خير لكم من كلِّ شيء، أو «خَيْرٌ» خاج عن التفضيل، أو بمعنى نفع. ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ شيئا ما من الأشياء، وهذا من أوائل ما يعلم، فإنَّ أدنى عاقل لا يرى الأصنام نافعة ولا قادرة على شيء مَّا، أو إن كنتم تميِّزون الخير والشرَّ.

﴿إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا﴾ تماثيل تنحتونها لا عقل لها ولا حياة ﴿وَتَخْلُقُونَ﴾ تكذبون ﴿إِفْكًا﴾ كذبا فهو مفعول مطلق، وهذا الكذب هو قولهم: إنَّها آلهة، وإنَّها تنفع وتشفع عند الله تعالى، أو «تخلقون» بمعنى تعملون أي تصوِّرونها فحذف المفعول به، و«إفكًا» مفعول لأجله، كَلَامِ العاقبة، لأنَّهم لم يقصدوا الكذب، أو «إفكًا» مفعول به، أي مأفوكا، أو نفس الكذب مبالغةً.

﴿إِنَّ الذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا﴾ مصدر، أي لا يملكون أن يرزقوكم، أو بمعنى المال المرزوق طعاما أو غيره.

(نحو) وهو مفعول به، ويجوز على المَصدَرِيَّة أن يكون مفعولا مطلقا لمحذوف، أي لا يملكون أن يرزقوكم رزقا، أو لـ«يَمْلِكُونَ» لتضمُّنه معنى يرزقون، ولا يعارض بأنَّه تعدَّى باللام إلى الكاف، ولا يقال: رزق لكم لأنَّ المتضمِّن «يَمْلِكُ» مع «لَكُمْ».

وتنكير «رِزْقًا» للعموم، أي رزقا مَّا، كثيرا ولا قليلا، أو للتقليل فكيف الكثير؟ فكيف تعبدونهم مع ذلك؟. و«الذِينَ» وواو «تَعْبُدُونَ» للعقلاء الذكور

على زعمهم إذ نسبوا ذلك للأوثان. ﴿فَابْتَغُواْ﴾ اطلبوا ﴿عِندَ اللهِ الرِّزْقَ﴾ «ال» للحقيقة أو للاستغراق، أي الرزق كلّه، كما أنّه نفى كلّه بقوله: ﴿رِزْقًا﴾. ﴿وَاعْبُدُوهُ﴾ وحده ﷻ ﴿وَاشْكُرُواْ لَهُ،﴾ على نعمه شكرا تثبتون به الموجود وتجلبون به المفقود. والجملتان متعلّقتان بما قبلهما كما هو المتبادر لا بقوله: ﴿إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ على معنى أعدُّوا للبعث العبادة والشكر له، وهذه الجملة متعلّقة بما قبلها، واجيز تعليقها بقوله: ﴿اعْبُدُواْ اللهَ واتَّقُوهُ﴾ ولا دليل عليه لبعده بالفصل.

﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ﴾ تكذّبوني في إخباري لكم بالبعث، والجواب محذوف أي لم يضرَّني تكذيبكم، ناب عنه قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ أي لأنّه كذّب أمم من قبلكم رسلَهم، فلم يَضُرَّ تكذيبهم رسلهم، كقوم شيت، وقوم إدريس، وقوم نوح، وقوم هود، وقوم صالح، وإنّما ضرُّوا أنفسهم إذ عُذّبوا لتكذيبهم.

﴿وَمَا عَلَى الرَّسُولِ﴾ جنس الرسل ﴿إِلاَّ الْبَلاَغُ﴾ أي تحصيل البلاغ، أو اسم مصدر بمعنى التبليغ ﴿الْمُبِينُ﴾ المزيل للشكّ، أو الواضح، وقد بلّغتكم البلاغ المبين، وهذا آخر كلام إبراهيم هنا، ويأتي جواب قومه في قوله بعد: ﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ﴾ ويأتي كلام له آخر في قوله: ﴿وَقَالَ إِنَّمَا اتَّخَذْتُمْ...﴾ وفي قوله: ﴿وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ...﴾ أو هذا الأخير للوط عليهما السلام.

وقيل: ﴿وَإِن تُكَذِّبُواْ...﴾ كلام من الله ﷻ خاطب به قريشا تنفيسا عن رسول الله ﷺ إذ كذّبوه، وأصرُّوا، كما أنّ قصّة إبراهيم كلّها تسلية له ﷺ.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ ألم يتأمّل قريش وأتباعهم و لم يروا، أي لم يعلموا، أو لم يروا

بأبصارهم ما يتوصَّلون به إلى العلم، أو الواو للأمم، وعلى كلِّ حال الآية وعظ لقريش وأتباعهم ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ﴾ من مادَّة ومن غير مادَّة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ،﴾ عطف على «يبدئ» فإنَّهم يشاهدون بأبصارهم ويعلمون ما خلق في السنة وأقل وأكثر، من الثمار وغيرها من الحيوان والليل والنهار وما خلق بعدها، وأجاز بعض أن تكون الإعادة بمعنى البعث، فيكون العطف على «لَمْ يَرَوْا» باعتبار انسحاب الاستفهام عليه قبله. والرؤية: العلم.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من الإعادة أو من البدء والإعادة. ويجوز أن يكون التذكير للإشارة إلى مصدر «يُعيدُ» مقدَّرا بلا تاء مضاف، هكذا: إنَّ إعاده، كقوله تعالى: ﴿وإِقَامِ الصَّلاَةِ﴾ بكسر الهمزة. ﴿عَلَى اللهِ يَسِيرٌ﴾ إذ لا يحتاج إلى شيء خارج عن ذاته.

﴿قُلْ﴾ يا مُحَمَّد لقومك، وزعم بعض أنَّ التقدير: قال الله لإبراهيم: قل لقومك ﴿سِيرُواْ﴾ سيحوا لتعتبروا ﴿فِي الاَرْضِ﴾ بأرجلكم أو بالركوب، وأجيز أن يكون سيروا بقلوبكم سير تفكُّر لا انتقال جسم، كما أنَّ الأنبياء في الأرض وقلوبهم جائلة في الملكوت.

﴿فَانظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ﴾ على اختلاف بالأجناس والأطوال والأعراض والألوان، والصحَّة والضعف والطبائع وغير ذلك، وهذه الْكَيفيَّة غير الْكَيفيَّة السابقة التي هي بالمادَّة، وغير الْمَادَّة في قوله: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ اللهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾.

(صرف) والمضارع هنالك للتجدُّد أو لاستحضار ما مضى، كأنَّه حاضر لما لا يخفى من أنَّ إبداء الشيء بعد عدمه أغرب في القدرة من جعله أطوارا مختلفة، كما أشار إلى تلك الغرابة بغرابة اللفظ، وهو «يُبْدِئُ» مضارع أَبْدَأَ، فإنَّ الأشهر: بَدَأَ يَبْدَأُ الثلاثي لكن لمناسبة «يُعِيدُ» الرباعي.

(رسم) كَما حذف ياء يسري حذفا غريبا مناسبا لسريان الليل في الغرابة، ومن ذلك الجنس كتابة ألف «ابن» بين عَلَمين إذا كان أوَّل السطر، كما ينطق به همزة إذا ابتدئ به نطقا. أو وجه التغاير أنَّ الإبداء هناك علمي على ما مرَّ والبدء هنا عيني، أو هناك نفسيٌّ وهنا أفقيٌّ.

﴿ثُمَّ اللَّهُ﴾ لم يقل: «هو» لمزيد التأكيد ﴿يُنشِئُ النَّشْأَةَ الاَخِرَةَ﴾ يحدثكم الإحداثة الآخرة، وهي البعث، والأولى هي الخلقة الأولى، والإبداء والإعادة كلاهما إخراج من العدم إلى الوجود، والأولى دليل على الثانية.

كيف يَحكُمُ باستحالة الثانية عقلا مَن يقرُّ بالأولى، كما حكم بعض الكُفَّار؟ أو كيف يستبعدها كما أجازها بعض الكُفَّار واستبعدها ؟ بل قد خلق أشياء لا من شيء، ولا فرق بين خلق الشيء من لا شيء، وبين ردِّ ما فني، وأمَّا ما كان من شيء فأولى لبادئ الرأي، كما أنَّ ردَّ ما كان لبادئ الرأي أسهل، والكلُّ عند الله سواء، واحتجَّ الله تعالى بذلك في قوله: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ﴾ (سورة الحج: ٥) .

وما بقي يخلق الله فيه الروح وما فني كلُّه يردُّه كلّه ويخلق فيه الروح، وما فني بعضه وبقي بعضه يردُّ الله فيه ما فني ويخلق الروح في الكلِّ، كما شاهد في حماره الرجل الذي مرَّ على قرية [سورة البقرة آية ٢٥٩].

وزعم بعض أنَّ ما فني من بعض أو كلٍّ يردُّ الله مثله لا نفسه، و لم يَصِحَّ عند أصحابنا حديث البخاري ومسلم: «**إنَّ كلَّ ابن آدم يفنى إلاَّ عجب الذنب فإنَّه يبقى ومنه يبنى**»[1]، وكذا تأوَّله بعض قومنا

١- رواه **البخاري** في كتاب التفسير باب يوم ينفخ في الصور... رقم ٤٦٥١. ورواه **مسلم** في كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب ما بين النفختين رقم ٢٩٥٥، من حديث أبي هريرة.

وأطال، ولا بأس به، إلاَّ إن زعم أحد أنَّه لا يقدر على إنشائه إلاَّ بذلك فقد أشرك.

(نحو) والنشأة مفعول مطلق قائم مقام الإنشاءة. والعطف على «سيرُوا» عطف إخبار على إنشاء لجوازه إجماعا فيما فيه القول، لا على «بَدَأَ» لأنَّه سلَّط عليه النظر، والنظر بالعين لا يتصوَّر في البعث من الآن، والنظر بمعنى العلم لا يتصوَّر في البعث بل في دليله.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لا يعجزه ممكن ولا يصعب عليه ﴿يُعَذِّبُ﴾ بالنار وغيرها ﴿مَنْ يَّشَآءُ﴾ تعذيبه بعد النشأة الأخيرة لكفره بها، أو لغيره من أسباب العذاب ﴿وَيَرْحَمُ﴾ بالجنَّة وغيرها ﴿مَنْ يَّشَآءُ﴾ رحمته لإيمانه بها ووفائه ﴿وَإِلَيْهِ﴾ لا إلى غيره ﴿تُقْلَبُونَ﴾ تردُّون.

﴿وَمَآ أَنتُم بِمُعْجِزِينَ﴾ لله عَزَّ وَجَلَّ بالفوات عن جريان حكمه فيكم بالعذاب ﴿فِي الاَرْضِ﴾ يبعد في طرف أرض، أو في باطنها بالحفر أو غيره، كالغور لو قدرتم عليه، متعلِّق بـ«مُعْجِزِينَ»، أو حال من المستتر فيه ﴿وَلاَ فِي السَّمَآءِ﴾ الدنيا أو سماء من السماوات فوقها، لو قدرتم على الطلوع إليها، وهذا كما أعجزهم بقوله: ﴿إِنِ اسْتَطَعْتُمُ أَن تَنفُذُواْ﴾ (سورة الرحمن: ٣٩) . وزعم بعض أنَّ السماء هنا ما علا في الأرض كالبرج والجبل.

﴿وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ وَّلِيٍّ﴾ يحفظكم من أن يجيئكم بلاء أرضيٌّ أو سماويٌّ ﴿وَلاَ نَصِيرٍ﴾ يدفعه عنكم إن جاء.

﴿وَالذِينَ كَفَرُواْ بِئَايَاتِ اللَّهِ﴾ دلائل وَحْدَانيَّته وكتبه المصرِّحة بالبعث ﴿وَلِقَآئِهِ﴾ الحضور لحسابه ﴿أُوْلَٰئِكَ يَئِسُواْ مِن رَّحْمَتِي﴾ أي يئسون، لكن عبَّر بالماضي لتحقُّق الوقوع، كأنَّه قد قامت الساعة وحصل إيَّاسهم، فهو يخبر

به، وإلاَّ فهم في الدنيا منكرون للبعث، فلا يتصوَّر رجاء منهم للخير، ولا إيَّاس، وذلك وعيد؛ أو شبَّه نفيهم لرحمة الآخرة لكفرهم بالآخرة بإيَّاس من أقرَّ بها و لم يرجها لجامع الامتناع، وسمَّاه إيَّاسا واشتقَّ يئس على التبعيَّة.

ويضعف أن يقال: لَمَّا لم يتحقَّق إيَّاسهم لرجاء الإيمان ما داموا أحياء شبِّهوا بمن مات كافرا فتحقَّق البعث كافرا وأيس، أو من فرض آيسا. وليس في إضافة الرحمة إلى ضمير الله تعالى ما يمنع أن يكون في «قل» خطابا له ﷺ بأن يحكي كلام الله ﷻ. ﴿وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ اَلِيمٌ﴾ أعاد الإشارة لتأكيد قبحهم.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُواْ اُقْتُلُوهُ أَوْ حَرِّقُوهُ فَأَنجَيٰهُ اُللَّهُ مِنَ اَلنَّارِۚ إِنَّ فِے ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يُومِنُونَ ۝٢٤ وَقَالَ إِنَّمَا اَتَّخَذتُّم مِّن دُونِ اِللَّهِ أَوْثَٰنا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِے اِلْحَيَوٰةِ اِلدُّنْيا ثُمَّ يَوْمَ اَلْقِيَٰمَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٖ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضاً وَمَأْوَيٰكُمُ اُلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٢٥ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٞ وَقَالَ إِنِّے مُهَاجِرٌ اِلَيٰ رَبِّيَ إِنَّهُۥ هُوَ اَلْعَزِيزُ اُلْحَكِيمُ ۝٢٦ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِے ذُرِّيَّتِهِ اِلنُّبُوٓءَةَ وَالْكِتَٰبَ وَءَاتَيْنَٰهُ أَجْرَهُۥ فِے اِلدُّنْيا وَإِنَّهُۥ فِے اِلْأَخِرَةِ لَمِنَ اَلصَّٰلِحِينَ ۝٢٧﴾

-٢-

محاججة إبراهيم لقومه، وإيمان لوط عليه السلام به

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ﴾ خبر «كَانَ»، واسمُها: «أَن قَالُوا» بالتأويل، ﴿قَوْمِهِ﴾ قوم إبراهيم ﴿إِلَّآ أَن قَالُواْ اقْتُلُوهُ﴾ بنحو السيف والخنق ﴿أَوْ حَرِّقُوهُ﴾.

قائله نمروذ، أو هيون رجل من أكراد فارس، خُسِفَ به وبداره الأرض، أو الجماعة من رؤسائهم، أوعامَّتهم إذ رضوا وفعلوا، أو قال

بعض لبعض، فبعض من الرؤساء قال: اقتلوه، وبعض قال: حرقوه أو قالوا ذلك على التَّخيير، وهو المتبادر.

وقيل: «أوْ» بمعنى بل، ويقوِّيه الاقتصار في السورة الأخرى [سورة الأنبياء آية ٦٨] على ﴿حَرِّقُوهُ﴾. والحصر باعتبار ما استقرَّ عليه جوابهم، وإلاَّ فقد أجابوا قبلُ بأباطيل كثيرة.

﴿فَأَنجَاهُ﴾ فألقوه في النَّار ليحترق فيستريحوا منه، وإن لم يمت أذعن إليهم فأنجاه ﴿اللهُ مِنَ النَّارِ﴾ حرِّ النَّار لم تصب إلاَّ كتافه [وثاقه] لينفكَّ منه، وهي نار واحدة، بردٌ وسلامٌ له ومُحْرِقَةٌ لكِتَافه. وذلك في أرض «كوتى» من سواد الكوفة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ في إنجائه منها ﴿لَأَيَاتٍ﴾ عجيبة حِفْظُهُ من حَرِّها، وعدم تضرُّره بالوقوع من عال، وإخمادها، وإيراق أعوادها وخشبها، وإثمار كلٍّ بثمره، وعبارة بعضٍ: إنشاء روض في مكانها، ﴿لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾ وغَيْرِهِم، وخَصَّهم بالذكر لأنَّهم المنتفعون بالتَّأمُّل فيها.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم ﴿إِنَّمَا اتَّخَذْتُم مِّن دُونِ اللهِ أَوْثَانًا مَّوَدَّةَ بَيْنِكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ المحصور فيه مودَّة، أي ما اتَّخَذتم من دون الله أوثانا إلاَّ مَوَدَّةً.

(نحو) والمفعول الثَّاني محذوف أي ما اتَّخَذتم من دون الله أوثانا آلهة. و«مِن دُونِ اللهِ» حال من «أَوْثَانًا». ويجوز كونه نعتا للمفعول الثَّاني، مقدَّمًا على الأَوَّل، أي آلهة تابثة من دون الله. و«مَوَدَّةً» مفعول من أجله، و«بَيْنِكُمْ» متعلِّق به، أو بمحذوف نعت لـ«مَوَدَّةً».

والمعنى: جمع بينكم الاجتماعُ على الأوثان بالعبادة لها، والإنفاقُ للمال عليها، أو رأيتم بعض من تحبُّونه اتَّخَذَها فاتَّخذتموها تبعا له لحبِّكم له.

ويقال: أصل الصنم أنَّ أناسا صالحين ماتوا فصوَّروهم حبًّا لهم، وعظَّموا صورهم، وما زالوا يزدادون تعظيمها حتَّى عبدوها، وألغى قولهم: ﴿لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى اللهِ زُلْفَىٰٓ﴾ (سورة الزمر: ٣) لأنَّه لا ينصت إليه من له أدنى عقل.

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُم بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُم بَعْضًا﴾ الخطاب للكفَّار وحدهم، يبرأ بعض من بعض يوم القيامة، ويتناكرون ويتباغضون بعد تحابِّهم في الدنيا، ويلعن بعض بعضا يوم القيامة، كما أنَّ الخطاب في «بَيْنِكُمْ» و«اتَّخَذْتُمْ» لهم.

وقيل: الخطاب لهم وللأوثان تغليبا للمخاطب المذكَّر على من لا يخاطَب وليس بعاقل، وهو الأوثان، وعلى هذا يخلق الله تعالى الحياة والعقل والنطق للأوثان فتكفر بعبَّادها وتلعنهم، ويكفرون بها ويلعنونها.

والأوَّل أولى للخطاب السابق ولقوله: ﴿وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ﴾ مرجعكم ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ فإنَّه أظهر فيهم لا في الأوثان، ولو كان تقرن الأوثان بهم في النار لكن الخطاب بـ«مَأْوَاكُم» أنسب بهم، على أنَّ قوله: ﴿وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾ لا يناسب الأوثان، ولو ردَّ إليهم وحدهم وما قبله على الشركة كان تفكيك الضمائر.

﴿فَئَامَنَ لَهُ لُوطٌ﴾ أذعن له، وأظهر له التوحيد السابق نصرة له، فإنَّ لوطا نبيء والنبيء لا يكفر ولا يجهل قبل النبوءة، أو آمن إيمانا ليس له من قبل، وهو مرتبة عظيمة منه، أو أذعن له بإظهار ذلك حين رأى النار لم تحرقه، أو ازداد إيمانا واستمرَّ على ذلك له إلى وقت نبوءتهما، وهو ابن أخت إبراهيم، فإبراهيم خاله، وقيل: ابن أخيه هاران فإبراهيم عمُّه.

﴿وَقَالَ﴾ إبراهيم للوط ﴿إِنِّي مُهَاجِرٌ الَىٰ رَبِّيَ﴾ إلى حيث أمرني ربِّي من البلاد التي لا أمنع فيها من توحيد رَبِّي وعبادته سبحانه، أو مهاجر قومي

بقلبي وديني ولساني، وهو على ذلك من أوَّل أمره ولكن أراد إظهار البقاء على ذلك، أو الازدياد فيه، والأوَّل أولى.

كما روي أنَّه هاجر من «كوتى» مع لوط وامرأته سارة بنت عمِّه إلى «حران»، ثمَّ منها إلى الشام نزل فلسطين ونزل لوط «سدوم»، وهي المؤتفكة، وبينهما مسيرة يوم وليلة، وعمر إبراهيم عليه السلام حينئذ خمس وسبعون سنة، وهو أوَّل من هاجر في الله عز وجل . وقيل: ضمير «قَالَ» للوط، وهو ضعيف، لأنَّ الضمائر قبلُ وبعدُ لإبراهيم.

﴿إِنَّهُ، هُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب فيمنعني من أعدائي ﴿الْحَكِيمُ﴾ أفعاله وأقواله حكمة ومصلحة، فأنال صلاحي معه.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ، إِسْحَاقَ﴾ ولدا له من عجوز عاقر ﴿وَيَعْقُوبَ﴾ نافلة ولد ولده، ولم يذكر سيِّدنا إسماعيل لأنَّ المقام للامتنان، وإنَّما امتنَّ عليه بإسحاق إذ ولدته من لا يرجو ولادها لكبرها وعقرها، وجاء منه يعقوب.

مع أنَّه قد لوَّح إلى إسماعيل بقوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوءَةَ وَالْكِتَابَ﴾ فإنَّ من إسماعيل سيِّدنا محمَّد صلى الله عليه وسلم وهو أشهر الخلق، فسيِّدنا إسماعيل مشهور عالي القدر فلم يصرِّح به لشهرته. و«الكتاب» التوراة والزبور والإنجيل والقرآن، أوحى إلى أنبياء هم من ذرِّيته.

﴿وَءَاتَيْنَاهُ أَجْرَهُ،﴾ على عمله ﴿فِي الدُّنْيَا﴾ من إنجائه من النار ومن نمروذ ومثله.

[قلت:] ومن الثناء الحسن إذ تذكره كلُّ أمَّة بخير وتحبُّه، ومن إعطاء الولد له الذي قرَّت به عينه، وهو إسحاق ومنه يعقوب، واستمرار النبوءة في ذرِّيته، وإراءة مكانه في الجنَّة، والصلاة عليه إلى آخر الدهر، قيل: وبقاء ضيافته عند

قبره، وقيل: «أجره» على هجرته إلينا فلا يعدُّ فيها الإنجاء من النار ونمروذ لتقدُّمه عليها.

﴿وَإِنَّهُ، فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ في درجة من كمل صلاحه ورسخ، فجمعت له الدنيا والآخرة. و«في» متعلّق باستقرار الخبر في «مِنَ الصَّالِحِينَ» قدِّم على العامل المعنويِّ للتوسُّع في الظروف، لا بـ«الصَّالِحِينَ» لأنَّه ليس المعنى أنَّ صلاحه يصدر منه في الآخرة.

﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلْفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ ٱلرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ ٱلسَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِى نَادِيكُمُ ٱلْمُنكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ ٱنصُرْنِى عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ إِبْرَٰهِيمَ بِٱلْبُشْرَىٰ قَالُوٓا۟ إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا لَنُنَجِّيَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥٓ إِلَّا ٱمْرَأَتَهُۥ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِىٓءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا۟ لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ ٱلْغَٰبِرِينَ ﴿٣٣﴾ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٰٓ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٣٤﴾ وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةًۢ بَيِّنَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٣٥﴾﴾

قصَّة لوط عليه السلام مع قومه

﴿وَلُوطًا﴾عطف على إبراهيم أو نوحا ﴿إذْ قَالَ لِقَوْمِه﴾ تقدَّم مثله ﴿إِنَّكُمْ لَتَأتُونَ الْفَاحِشَةَ﴾ الفعلة القبيحة جدًّا ﴿مَا سَبَقَكُم بهَا﴾ على ظاهره أو بمعنى فيها ﴿مِنَ اَحَدٍ﴾ فاعل ومن صلة لتأكيد العموم، ﴿مِنَ الْعَالَمِينَ﴾ يستقبحها

كلٌّ أحد، والجملة حال من الفاحشة أو من واو «تَأْتُونَ» أي مبتدعة أو مبتدعين، وفسِّر إتيان الفاحشة مع التوبيخ بقوله: **﴿أَيِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ﴾** الذكور صغارا وكبارا استعمالا للخاصِّ في العامِّ.

﴿وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ﴾ سبيل الولادة لأنَّ الإتيان في الدبر لا يحمل، ولو في أدبار الإناث، فكيف بأدبار الذكور لأنَّ الدبر يوصل إلى محل الطعام، لا إلى محلِّ الحمل.

أو **تقطعون السبيل في الأرض بأن لا يأتيكم الناس لكراهة أن تفعلوا بهم**، وقيل: لا يأتيكم الناس لقبحكم بذلك، أو بالقتل وأخذ المال **﴿وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ﴾** في مجلسكم الممتلئ بالناس **﴿الْمُنكَرَ﴾** كاللواط في محضرهم للغريب، ولبعض مع بعض، والضراط فيه، وحلِّ الإزار ولا حياء لهم.

وعن أمِّ هانئ بنت أبي طالب عنه ﷺ : «**يحذفون أبناء السبيل، ويسخرون منهم**»[1] رواه أحمد والترمذي والطبراني والحاكم والبيهقي، يرمون ابن السبيل بالحصى فمن أصابته حصاته جامعه وأخذ ماله، وقيل: يغرِّمه ثلاثة دراهم ويجامعه، ويأخذ ما معه أيضا.

وعن ابن عبَّاس: الرمي بالحصا والبنادق، وقرقعة الأصابع، ومضغ العلك والسواك بين الناس، وحلِّ الإزار، والسبِّ والفحش بالمزاح، والضراط والتصافع. وعن مجاهد: لعب الحمام، وتطريف الأصابع بالحناء، والصفير والحذف بالحصى، ونبذ الحياء في جميع أمورهم. [قلت:] ولم يأت عن لوط أنَّه دعاهم إلى الإسلام لأنَّهم من قوم إبراهيم وقد كفاه في ذلك.

١- رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (٣٠) باب سورة العنكبوت رقم ٣١٩٠ عن أمِّ هانئ.

﴿فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلاَّ أَن قَالُواْ ائتِنَا بِعَذَابِ اللهِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾ في دعوى النبوءة وفي تقبيح اللواط وتحريمه، والعذاب عليه، فإنَّه يذكر لهم العذاب والتحريم ولو في أوَّل مجيئه إليهم للنهي.

(بلاغة) ولا يتنافى هذا الحصر والذي في قوله: ﴿إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُوهُمْ﴾ (سورة الأعراف: ٨٢) والذي في قوله: ﴿إِلاَّ أَن قَالُواْ أَخْرِجُواْ ءَالَ لُوطٍ﴾ (سورة النمل: ٥٦) لأنَّ الحصر فيهنَّ إضافيٌّ، أي قالوا تلك الأقوال دون أن يذعنوا أو يلينوا بشيء، وهذا أولى من أن يقال: ما هنا عن كبارهم والآخران عن غير كبارهم أو بالعكس، ومن أن يقال: جوابهم إذ نصحهم، وغيره جوابهم فيما بينهم إذ تشاوروا، وقد بلغوا هذا الجواب كما هو ظاهر الآية، ومن أن يقال: ما هنا أوَّل الوعظ كذَّبوه وسخروا به والآخران انتقام منه إذ عاودهم.

[قلت:] ولا يـبيح الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لواط الولدان في الجنَّة ولا أدبار النساء، ولا يخطر الله في قلوبهم أن يحبُّوا ذلك فيجابوا لقبحه عقلا وشرعا، وأبيحت خمر الجنَّة لأنَّها لا تسكر، بل قال ابن العربي: لا أدبار لأهل الجنَّة لأنَّها لخروج الفضلة والريح وليسا فيها، وأخطأ من أجاز ذلك من قومنا، وأقول: لعلَّ لهم أدبار لكمال الخلقة لا لذلك.

﴿قَالَ رَبِّ انصُرْنِي﴾ بإنزال العذاب ﴿عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ﴾ الذين أفسدوا أنفسهم وغيرهم، بابتداع الفاحشة وسنِّها فيمن بعدهم، والإصرار عليها، واستعجال العذاب بطريق السخرية.

﴿وَلَمَّا جَآءَتْ رُسُلُنَآ﴾ هم الملائكة ﴿إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَىٰ﴾ بإسحاق ويعقوب ﴿قَالُواْ﴾ لإبراهيم في جملة كلامهم ﴿إِنَّا مُهْلِكُواْ أَهْلِ هَذِهِ﴾ القريبة منك، ولقربها قالوا هذه ﴿الْقَرْيَةِ﴾ «سدوم» أكبر قرى قوم لوط، وفيها نشأ اللواط أوَّلا، ولذا ولكثرته فيها خصَّت بالذكر.

و«مُهْلِكُوا» للاستقبال، ولا دليل على أنَّه للماضي وأنَّه لتحقُّق الوقوع، لأنَّ هذا خلاف الأصل، ولأنَّه ينافيه ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ، وَأَهْلَهُ،﴾ ﴿إِنَّ أَهْلَهَا كَانُواْ ظَالِمِينَ﴾ بالفاحشة، وأظهر الأهل للتأكيد إذ لم يقل: إنَّهم كانوا.

﴿قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ وليس ظالما، أي إنَّ في القرية لوطا، خاف أن يصيبه العذاب معهم، لأنَّ عذاب الدنيا يصيب الصالح ويبعث على نيته، كما جاء في الحديث[1]، و لم يعلم أنَّ الملائكة علموا به.

أو قاله على عجلة وذهول للشفقة عليه جدًّا كما قالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ﴾ (سورة آل عمران: ٣٦) ، أو أراد التنصيص ليطمئنَّ، لأنَّ لفظ الأهل يشمله لأنَّه فيها، وقيل: ذكر الأهل إخراج للوط لأنَّه حادث إليهم، و لم يحضر ذلك لإبراهيم، ويناسب حدوثه قولهم: ﴿مِن قَرْيَتِكُم﴾ [سورة الأعراف: ٨٢ وسورة النمل: ٥٦] وقد يخاف إبراهيم من فزعه مع علمه أنَّه لا يهلك.

﴿قَالُواْ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا﴾ منك أو عالمون بهم ﴿لَنُنَجِّيَنَّهُ، وَأَهْلَهُ،﴾ تصديق لإبراهيم في قوله: ﴿إِنَّ فِيهَا لُوطًا﴾ وتبشير له بتنجيته ﴿إِلاَّ امْرَأَتَهُ، كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ الباقين في العذاب، أو في القرية لا تخرج مع لوط.

﴿وَلَمَّآ أَن جَآءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا﴾ هم الملائكة المعهودون الذين بشَّروا إبراهيم، فَارقُوه وجاءوا لوطًا ﴿سِيٓءَ﴾ لوطٌ ﴿بِهِمْ﴾ ساءه الله بهم أي غمَّه لأنَّه ظنَّ أنَّهم آدميُّون، وكانوا على صور الشباب المرد الجميلين، فخاف عليهم طلب قومه منهم الفاحشة.

١- رواه البخاري في كتاب الفتن (١٨) باب إذا أنزل الله بقوم عذابا، رقم ٦٦٩١، من حديث ابن عمر. وأورده القطب في «جامع الشمل» كتاب ما جاء في الموت والخسف، رقم ٢٢٠٧.

وقيل: الهاء لقومه سيء بهم لعظم البلاء عليهم، ويردُّه أنَّه لا يحزن لبلائهم، بل يفرح، وقد طلب نزوله، وأنَّه لا يناسبه قول الملائكة: ﴿لاَ تَخَفْ ولاَ تَحْزَنِ اَنَّا مُنَجُّوكَ﴾.

﴿وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا﴾ طاقة ﴿وَقَالُواْ لاَ تَخَفْ﴾ علينا ﴿وَلا تَحْزَنْ﴾ بنا إنَّـنَا لسنا بشرًا بل ملائكة، رسل ربِّك لهلاكهم، لا ينالوننا، وقد علموا منه الضجر من قومه حتَّى قال: ﴿لَوَ اَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً...﴾ (سورة هود: ٨٠) ، ومن قال: الهاء لقومه كما مرَّ آنفا قال: المعنى لا تخف علينا وعليك، ولا تحزن بما نفعله بقومك.

(نحو) ﴿اِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ﴾ محلُّ الكاف الجرُّ بالإضافة، وهو مفعول به فعطف عليه بالنصب باعتبار المفعوليَّة، تقول: إنـِّي مكرم زيدٍ غدًا وإيَّاك، فلا حاجة لجعل الواو للمعيَّة، ولا إلى تقدير: «ومنجون أهلك»، ولا إلى دعوى الأخفش وهشام أن النُّون حذفت لشدَّة الاتِّصال، والكاف مفعول به.

﴿إِلاَّ امْرَأَتَكَ كَانَتْ﴾ في علم الله ﴿مِنَ الْغَابِرِينَ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَىٓ أَهْلِ هَذِه الْقَرْيَةِ رِجْزًا﴾ عذابا مزعجًا، من «ارتجز» بمعنى: اضطرب. ﴿مِنَ السَّمَآءِ بِمَا كَانُواْ يَفْسُقُونَ﴾ لكونهم يفسقون الفسق المعهود المستمر.

(نحو) وعادة الْمُفَسِّرِينَ يذكرون المصدر ممَّا بعد «كان» ويسقطونها كَأَنَّهَا زائدة، وَكَأَنَّهَا ليس لها مصدر إذا دخلت على المبتدأ والخبر، وعندي ليس كذلك، قال الشَّاعر: «وكونك إيَّاهُ عليك يسير»[1].

[قلت:] وفي تأويل المصدر منها فائدة فَاتَتْهُم، وهو الحكم على كونه يفعل زيادة على الحكم على الفعل، وذلك أبلغ، فاحفظ ذلك ولا تضيِّعه، واعمل به في القرآن الكريم وغيره.

١- أوَّله: «ببذل وحكم ساد في قومه الفتى». أورده في المعجم المفصَّل بلا نسبة. ج٣، ص٣٦٥.

﴿وَلَقَد تَّرَكْنَا مِنْهَآ ءَايَةً﴾ من القرية وهو ظاهر، وقيل: الفعلة التي فعلنا بهم، وأجاز الفرَّاء زيادة «مِن» في الإثبات ومع المعرفة، فجعل مدخولها مفعولا لـ«تَرَكْنَا»، فالمعنى: لقد تركناها آية، ﴿بَيِّنَةً﴾ فالقرية نفسها آية على قوله، كقولك: إنَّ في السماء آية، وتريد أنَّها آية، والصحيح ما ذكرت، والآية غيرها أو بعضها.

وهي آثار ديارها الخربة عند ابن عبَّاس، ومَاءٌ أسود على وجه الأرض عند مجاهد، والحجارة التي أمطرت عليهم عند قتادة، وقال: إنَّ أوائل هذه الأُمـــَّة أدركوها[1]، وكان أساسها أعلى وسقفها أسفل عند أبي سليمان الدمشقي، وحكايتها الشائعة عند بعض، وَالأَوَّل أولى، وقيل: «مِنْهَا» تجريدٌ، كقولك: رأيت من زيد أسدًا ﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم.

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا فَقَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱرْجُوا۟ ٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَلَا تَعْثَوْا۟ فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٣٦﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا۟ فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ ﴿٣٧﴾ وَعَادًا وَثَمُودَا۟ وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَكَانُوا۟ مُسْتَبْصِرِينَ ﴿٣٨﴾ وَقَٰرُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَٰمَٰنَ وَلَقَدْ جَآءَهُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كَانُوا۟ سَٰبِقِينَ ﴿٣٩﴾ فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٠﴾﴾

١- انظر قصص الأنبياء لابن كثير.

تكذيب بعض الأمم السابقة لرسلهم وعاقبة ذلك

﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ﴾ عطف على «إِلَىٰ قَوْمِهِ». ﴿أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾ الهاء لـ«مَدْيَنَ» لأنَّ «مدين» اسم لأهل تلك القرية لعلاقة الحلول، أو يقدَّر: وإلى أهل مدين، وأصل «مدين» اسم رجل.

﴿فَقَالَ﴾ لهم ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللَّهَ﴾ وحده ﴿وَارْجُواْ الْيَوْمَ الآخِرَ﴾ اعملوا صالحا سببا للرجاء، فعبَّر بالمسبَّب وهو الرجاء عن السبب وهو العمل الصَّالح، والمراد: ارجوا ثواب اليوم الآخر؛ أو الرجاء انتظار، أي توقَّعوا اليوم الآخر بما فيه من خير لمن قدَّمه من الدنيا، أو شرٌّ لمن لم يقدِّمه؛ أو الرجاء الخوف، خافوا عقاب اليوم الآخر إن لم تعبدوه ﴿وَلاَ تَعْثَوْاْ فِي الأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ حال مؤكِّدة لعاملها.

﴿فَكَذَّبُوهُ﴾ في الإخبار الذي تضمنه إنشاء الأمر والنهي، فإنَّهما تضمَّنا الإخبار بأنَّ عبادة الله وحده واجبة، وأنَّ يوم الجزاء آت، وأنَّ مخالفة ذلك معاقب عليها ﴿فَأَخَذَتْهُمُ﴾ لتكذيبهم ﴿الرَّجْفَةُ﴾ الزلزلة الشديدة الواقعة بصيحة جبريل، المموِّجة للهواء والأرض، المذكورة في قوله تعالى: ﴿وأَخَذَتِ الذِينَ ظَلَمُواْ الصَّيْحَةُ﴾ (سورة هود: ٩٤) ؛ أو الرَّجفة الصيحة على حقيقتها، أو على إرادة الزلزلة بها المسبَّبة عنها، وقيل: المراد رجفة القلوب ﴿فَأَصْبَحُواْ فِي دَارِهِمْ﴾ أي ديارهم، والإضافة للجنس فَعَمَّتْ، أو لَمَّا خرَّبت الرَّجفة جدرانهم صارت ديارهم كدار واحدة ومسكن واحد، أو ﴿دَارِهِمْ﴾: بلدهم، فإن الدار تطلق على البلد كما قيل للمدينة: دار الهجرة ﴿جَاثِمِينَ﴾ باركين على الركب لموتهم.

﴿وَعَادًا وَثَمُودًا﴾ وأهلكنا عادا وثمودا، أو اذكروا عادا وثمودا، والمراد قصَّتهم، أو اذكر يا محمَّد عادا وثمودا ﴿وَقَدْ تَبَيَّنَ لَكُم﴾ يا قوم محمَّد أو

يا محمَّد وقومه ﴿مِّن مَّسَاكِنِهِمْ﴾ الجملة حال من الكاف، أو واو «اذكروا»، أو ضمير «اذكر»، أو يقدَّر: قل لهم قد تَبَــيَّنَ لكم، وذلك التبيُّن في ذهابهم إلى الشَّام ورجوعهم، وفاعل «تَبَــيَّنَ» ضمير الإهلاك، أو الهلاك المدلول عليه، أو مساكنهم على زيادة «مِنْ» في الإثبات والمعرفة، ويدلُّ له قراءة الأعمش: «وَقَد تُبيِّنُ لَكُم مَّسَاكِنُهُمْ» بالرَّفع دون «مِنْ».

﴿وَزَيَّــنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ﴾ بالوَسْوسَةِ ﴿أَعْمَالَهُمْ﴾ الإشراك وسائر المعاصي ﴿فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ﴾ المعهود دين الله الحقّ ﴿وَكَانُواْ﴾ عاد وثمود ﴿مُسْتَبْصِرِينَ﴾ عقلاء مميِّزين بين الحقِّ والباطل في الجملة، لكن أغفلوا التمييز بين دين الله وغيره؛ أو مستبصرين يمكن استبصارهم؛ أو ميَّزوا أنَّ دين الله حقٌّ وكفروا عنادا؛ أو عالمين بأَنَّ العذاب يلحقهم بإخبار الرسل؛ أو كانوا على هدى في زعمهم واعتقادهم.

﴿وَقَارُونَ وَفِرْعَوْنَ وَهَامَانَ﴾ عطف على «عَادًا» أو على «ثَمُودًا» وقدَّم قارون لأنَّ قريشا وغيرهم كذَّبوه ﷺ حسدا كما كذَّب قارون موسى عليه السلام حسدا؛ أو قدَّمه لأنَّه أشرف من فرعون وهامان لإيمانه، ولو أفسده، ولعلمه بالتوراة، وقرابته من موسى، فإذا أهلك مع ذلك علم العاقل **أنَّ الشرف لا يفيد مع المعصية**؛ أو لأنَّه مستبصر كعاد وثمود لعلمه فلم يفده استبصاره، كما لم يفدهم؛ أو لأنَّه هلك قبل فرعون وهامان والمقام لذكر الهلاك.

﴿وَلَقَدْ جَآءَهُم﴾ جاء قارون وفرعون وهامان ﴿مُّوسَىٰ بِالْبَــيِّــنَاتِ﴾ اليد والعصا وغيرهما والتوراة ﴿فَاسْتَكْبَرُواْ﴾ عن الإيمان والطاعة وإيمان قارون غير تامٍّ ﴿فِي الاَرْضِ﴾ أرض مصر، والمراد التوسُّع في استكبارهم، ويقال: ذكر الأرض تلويحا بأنَّ من في الأرض لا يسوغ له الاستكبار لهوان الأرض، وأهل السماوات ملائكة لا يستكبرون، ولا كبرياء إلاَّ لله عز وجل . ﴿وَمَا كَانُواْ سَابِقِينَ﴾ لا يفوتون

حكم الله بإهكلاهم، أو لم يسبقوا الأمم في الكفر، بل كفرت أمم قبلهم، وأهلكهم الله سبحانه، فليخافوا الإهلاك كما أصاب الأمم على كفرهم.

﴿فَكُلاًّ﴾ من المذكورين، وهم قوم نوح ولو فصل ومن بعده **﴿اخَذْنَا بِذَنْبِه﴾** كلّ فرد من المذكورين عاقبنا بذنبه.

(بلاغة) وقدَّم المفعول به على طريق الاهتمام بالاستغراق وللحصر، ولا يقال: لفظ «كل» يفيد الحصر ولو تأخَّر، لأنَّ الكلِّية ليست حصرا، ففي قولك: «ما أخذنا إلاَّ كلاًّ» -بمعنى أخذنا كلاًّ لا بعضا- من التأكيد ما ليس في «أخذنا كلاًّ».

﴿فَمِنْهُم مَّنَ اَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا﴾ ريحا حاصبا يرميهم بالحصباء أو ملكا حاصبا يرميهم بها، أو سحابا حاصبا كقوم لوط، قيل: وعاد لأنَّهم أهلكوا بريح لا يخلو من حصباء، وذلك جائز احتمالا، والمشهور أنَّ الريح تلويهم وتكسرهم، كما يكسر العود، وتحملهم وتضرب بهم الأرض.

﴿وَمِنْهُم مَّنَ اَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ﴾ كمدين وثمود، والأنسب بما قبل وما بعد أن يقول: أخذناه بالصيحة، بإسناد الفعل إليه، و لم يقله دفعا لتوهُّم أن يقال: هو الصائح، حاشاه.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا به الاَرْضَ﴾ كقارون **﴿وَمِنْهُم مَّنَ اَغْرَقْنَا﴾** كقوم نوح وفرعون وقومه **﴿وَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ﴾** بالعذاب من غير جرم منهم، إذ ليس من عادته الجارية، وليس من الحكمة عقلا وشرعا أن يثيب العاصي ويعذّب المطيع، وأخطأت الأَشعَرِيَّة في إجازة هذا، ولو قالوا لم يقع.

﴿وَلَكِن كَانُواْ أَنفُسَهُمْ﴾ قدَّم المفعول للفاصلة **﴿يَظْلِمُونَ﴾** بالذنب والإصرار عليه.

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٤٢﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾

تشبيه عمل الكافر بنسيج العنكبوت

﴿**مَثَلُ**﴾ صفة أو شبه ﴿**الذينَ اتَّخَذُواْ من دُون الله أَوْلِيَآءَ**﴾ حيوانا أو جمادا للعبادة أو دونها، يعتمدون عليها مِمَّن ذكر وغيرهم ﴿**كَمَثَلِ**﴾ صفة أو شبه ﴿**الْعَنكَبُوت اتَّخَذَتْ بَيْتًا**﴾ في مجرَّد الحقارة والضعف، وليس المراد المساواة من كلِّ وجه، فإنَّ بيت العنكبوت ينفعها، وذكر أيضا أنَّـــهُ من الأدوية.

ونفع شيء شيئا آخر استقلالا عن الله سبحانه لا يُتَصَوَّرُ، فاتِّخاذهم أولياء من دون الله باطل، بخلاف اتِّخَاذ المؤمن الله وليًّا، فإنَّه أعظم من اتِّخَاذ بيت من حجر وجصٍّ، أو بيت منحوت في جبل. وجملة «اتَّخَذَت» نعت «الْعَنكَبُوت» ولو قرن بـــ«ال» لأنَّها للجنس، فجاز نعته بالجملة، لأنَّه كالنكرة لا حال، إلاَّ على قول مجيز الحال من المضاف إليه بلا شرط.

(صرف) والعنكبوت مفرد يؤنَّث، ولا يعارض إفراده بقوله: ﴿الذينَ﴾ لجواز تشبيه جماعة بواحد، بل قد علمت أنَّ المراد بالعنكبوت الجنس، ونونه زائدة كواوه وتائه، يجمع على عناكب، لجواز الجمع بالزائد، وهو مطَّرد كمفتاح ومفاتيح، وجمعه على عكاب يدلُّ على زيادتها، وكذا قول سيبويه في موضع من كتابه: «وزن عناكب فناعل» نصٌّ في زيادتها، ولكن قال في موضع آخر: «وزنه فعالل»، فهذا نصٌّ في أصالتها، ولعلَّ ذلك احتمالان عنده، أو لغتان في أصالتها وزيادتها، والظاهر الزيادة من العكب، وهو الغلظ أو شدَّة السير، فإنَّه يشتدُّ في وثوبه إلى الذباب وفي فراره.

﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ﴾ هذه الجملة حال من ضمير «اتَّخَذَتْ».

وفي مراسل أبي داود عن يزيد بن مرثد عنه ﷺ : «**العنكبوت شيطان مسخها الله ومن وجدها فليقتلها**» وهو ضعيف[1] مناف لرواية عليٍّ عنه ﷺ : «**دخلت أنا وأبو بكر الغار فاجتمعت العنكبوت فنسجت بالباب فلا تقتلوهنَّ**».

وفي هذا الحديث أَنَّ العنكبوت اسم جمع. ولعلَّ المراد بحديث قتلها عنكبوت آخر ذو سمٍّ يحفر في الأرض، ويخرج في الليل. ونسج العنكبوت طاهر والأصل الطهارة سواء من فيه كما هو الظاهر، أو من جلده، والمشاهد أنَّه من فيه، وإنَّه يدور به من فيه في بعض الأحيان على ذباب فيربطه به، أو [المراد] ببيت العنكبوت دينهم.

﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ شيئًا من دين الله لعلموا ما ذكرنا من أنَّ دينهم كنسج العنكبوت، أو مبالغة في استجهالهم حتَّى كأنَّهم لم يعلموا شيئًا مَّا ولو علموه لعلموا ما ذكر.

أو أغنى ما مرَّ عن جوابها لأنَّ ما قبلها بمترلة أنَّ الأمر ظاهر لهم لا يخفى، لو كانوا يعلمون؛ أو «لَوْ» للتَّمني والله مترّهٌ عنه، والرَّسول والمؤمنون لا يتمنَّون لهم العلم بل يلعنوهم، ولكن على معنى أنَّهم بصورة من يتمنَّى له، أو يراد بتمنِّيهم حُبُّ أن يعلموا والرَّغبة فيه. ﴿إِنَّ اللَّهَ﴾ قُل إنَّ الله، أو على طريق الالتفات،

١- رواه **أبو داود** في مراسيله، باب في الكتاب ملقى في الطريق، رقم ٥٠٠. كما أورده القطب في كتابه جامع الشمل: ج١، ص١١١، رقم ٢٩٣. وأشار إلى ضعفه.

والكلام تجهيل لهم وتوكيد للمثل ﴿**يَعْلَمُ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ**﴾ «مَا» نافية، و«مِنْ» الثّانية صلة في مفعول «تَدْعُو» والجملة معلّقٌ عنها «يَعْلَمُ» قائمة مقام مفعوليه، أي ما تدعون شيئًا نافعًا، أو كأنّه لبطلانه غير شيء، أو استفهاميّة مفعول مقدَّم لـ«تَدْعُونَ» والجملة معلّقٌ عنها كذلك «يَعْلَمُ»، ولا يخفى أنّ التّأكيد يلائم الإخبار، وأنّه ساغ هنا مع الاستفهام لأنّه إنكار في معنى النّفي، لا يقال: إنّ زيدا هَلْ قام، إلاّ بتأويل تقدير القول مثلا، أي: يقال فيه هل قام.

وأجيز أن تكون مَصدَرِيَّة فيكون «يَعْلَمُ» بمعنى يعرف، بناء على جواز وصف الله ﷻ بالمعرفة، أي يعرف دعاءكم شيئًا من دونه، فيكون الكلام وعيدًا كما إذا جُعلت اسما موصولا أو نكرة موصوفة، أي يعرف الذي تدعونه، أو شيئًا تدعونه دعوة شيئًا، أي حقيرة.

﴿**وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾ عطف على ﴿إِنَّ اللهَ...﴾ أو على «يَعْلَمُ»، أو حال، ومن أقبح الجهل أن يعبد جماد، دون [أن يعبد] الغالب لكلّ شيء الحكيم في شأنه.

﴿**وَتِلْكَ الاَمْثَالُ**﴾ هذا ونظائره في القرءان ﴿**نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ**﴾ تقريبًا للأفهام ﴿**وَمَا يَعْقِلُهَا**﴾ يدرك حسنها وبراعتها وفائدتها بعقله ﴿**إِلاَّ الْعَالِمُونَ**﴾ بالتّدبُّر على ما ينبغي.

قال جابر بن عبد الله: إنّه ﷺ قرأ هذه الآية وقال: «**العالم من عقل عن الله تعالى فعمل بطاعته واجتنب سخطه**»[1].

١- لم نقف على تخريجه ولكن أورده الألوسي في تفسير الآية: مج٧ ص١٦٣. وقال: رواه محي السنة بسنده عن جابر بن عبد الله.

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٤﴾ ٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ ﴿٤٥﴾﴾

آية خلق السّماوات والأرض والأمر بتلاوة القرآن وإقامة الصّلاة

﴿خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ حال من الفاعل والمفعول، ثابتا بالحقِّ مراعيا للحكم، أو ثابتة بالحقِّ منافعُ لكم في الدُّنيا، ودلائل على وَحْدَانيَّته **﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لأَيَةً لِّلْمُومِنِينَ﴾** وغيرهم، لكن خَصَّهم بالذِّكر لأنَّهم المنتفعون.

﴿اتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ﴾ دُم على تلاوته تقرُّبا إلى الله تعالى وتذكيرًا بها لغيرك، وتفكُّرا في معانيها **﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ﴾** دم على إقامتها **﴿إِنَّ الصَّلاَةَ﴾** فرضها ونفلَها، أداءَها وقضاءَها.

(فقه) ومن قضائِها تأخير سنَّة المغرب عن العشاء في حال الجمع بين المغرب والعشاء، وسنَّة الفجر عن فرضه إذا قدِّم عنها خوفا من طلوع الشمس، وإدراكها في الوقت، كما إذا فات وقت صلاة مسنونة، فإنَّ النَّفل يجوز قضاؤه، وقيل: يفوت وقتُه، وقيل: إن كان تابعا لفرض صحَّ قضاؤه كسُنَّة الفجر وسُنَّة المغرب وسُنَّة العشاء، وإلاَّ لم يَصِحَّ، وجاء في ذلك أحاديث. وذلك تعليل جمليٌّ لإقامتها.

﴿تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ﴾ لاشتمالها على قراءة القرآن والتَّكبير والتعظيم والسبيح والركوع والسجود فهي مشتملة على ما هو زجر ووعظ وتعظيم لله سبحانه ومُلَوِّحَةٌ بأَنَّ مَن شَأْنُه هكذا لا يعصي، فقد تُؤثِّرُ في المصلِّي وقد لا يتأثَّرُ بِهَا يصلِّي وهو فاسق.

وقيل: هي ناهية لمن فيها حتَّى يخرج منها، حضر قلبه أو لم يحضر، تأثَّر بها أو لم تؤثِّر فيه، فهي كالمُتكلِّم إذا فَرغَ منها فكمن سكت، ومن أخلَّ بها لُفَّت كما يُلفُّ الثَّوب الخلق ويُرمَى بها وَجْهُهُ، وتقول: «ضيَّعك الله كما ضيَّعتني»[1].

[قلت:] فالانتهاء عن الفحشاء والمُنكر علامة صحَّة الصَّلاة وقبولها، فمن أحبَّ أن يعلم هل قبلت فلينظر هل انتهى عن الفحشاء والمنكر، فالقبول على قدر ذلك، قال ﷺ : «**من لم تَنهَه صلاته عن الفحشاء والمنكر فلا صلاة له**»[2] رواه الطبري والبيهقي، ولفظ الطبراني عن ابن عبَّاس وابن مسعود موقوفا ومرفوعا: «**لم يزْدَدْ بها عن الله إلاَّ بعدا**» وعن الحسن وقتادة: «**فصلاته عليه وبال**»[3]. ومن داوم على صلاته جرته إلى ترك المعاصي كما قيل لابن مسعود: فلان يطيل الصلاة، فقال: إنَّ الصَّلاة لا تنفع إلاَّ من أطالها في نهيها.

كان فتًى من الأنصار يطيل الصلاة ولا يدع فاحشة، فقال ﷺ : «**ستنهاه صلاته**»[4]، فتاب عن قريب، ومثله قال في رجل يُصَلِّي الليل وإذا أصبح سرق.

وعن ابن عمر: الصلاة هنا القرآن، وقيل: الدُّعاء، **والصَّحيح ما مرَّ**، وعن أنس أنَّه كان يقرأ: «إنَّ الصلاة تأمر بالمعروف وتنهى عن الفحشاء والمنكر»، وذلك قراءة تفسير.

-- رواه **الطبراني** في الأوسط: ج٤، ص٨٦، رقم٣١١٩. من حديث أبي عبيدة. **والهندي** في الكتر: ج٧، ص٣١٦، رقم ١٩٠٥٢، من حديث أنس. في حديث طويل أوَّله: «من صَلَّى الصلوات لوقتها وأسبغ وضوءها...».

٢- رواه **الربيع** في مسنده، رقم ٩٥٤، ج٤، ص٢٧٠. مرسلا عن جابر بن زيد.

٣- رواه **الطبراني** في الكبير، ج١١، ص٤٦، رقم ١١٠٢٥.

٤- لم نقف على تخريجه، ولكن أورده الألوسي في تفسيره، مج٧، ص١٦٤. وقال معقبا على الحديث: «إلاَّ أنَّ ابن حجر ذكر أنَّه لم يجده في كتب الحديث».

﴿وَلَذِكْرُ اللهِ﴾ إيَّاكُم برحمته ومنها التوفيق للصلاة ﴿أَكْبَرُ﴾ من ذكر الله بطاعته، كذا عنه ﷺ من طريق ابن عبَّاس، ومنها الصلاة عند ابن عبَّاس وابن مسعود وابن عمر، وهو رواية عن سلمان وأبي الدرداء.

أو ذكر الله العبد في الصلاة أكبر من الصلاة، قاله أبو مالك الصحابي، أو أكبر من كلِّ شيء، أو ذكره العبد فيها أكبر من ذكره العبد خارجها، أو ذكر العبد الله أكبر من سائر أعماله.

قال معاذ مرفوعا: «ذكر العبد لله أنجى له من العذاب من الجهاد، ومن أن يضرب بسيفه في سبيل الله حتَّى ينقطع». وروي: «حتَّى يموت، ومن سائر أعماله». زاد أبو الدرداء: «ومن إعطاء الدنانير والدراهم». وزاد: «إنَّه أحبُّ إلى الله وأرفع لدرجاتكم»[1] وقرأ الآية، وكذا فسَّرها سلمان وابن عبَّاس في رواية عنهما.

وعن ابن عبَّاس: «أفضل الأعمال ذكر الله تعالى، ومن ذكروا الله في المسجد أظلَّتهم الملائكة بأجنحتها، وكانوا ضيف الله ما لم يفيضوا في غيره، ومن سلك طريقا إلى العلم سهَّل الله له طريقا إلى الجنَّة»[2].

أو ذكر الله الصلاة، وهي أكبر من سائر الطاعات سمَّاها ذكرا لاشتمالها على الذكر الزاجر، أو ذكر الله عند عروض المعصية بالخشية منه فتترك، أكبر

١-أورده **الألوسي** في تفسيره، مج٧، ص١٦٥. وقال: أخرجه ابن أبي شيبة وابن جرير عن أبي الدرداء.

٢-أورده **الألوسي** في تفسيره، مج٧، ص١٦٥. وقال: أخرجه سعيد بن منصور وابن أبي شيبة وابن المنذر، والحاكم والبيهقي في شعب الإيمان عن عشرة، قال: قلت لابن عبَّاس رضي الله عنهما: أي الأعمال أفضل؟... ثُمَّ ساق الحديث. و**السيوطي** في الدر، ج٥، ص١٥٩، بنفس السند. و**الربيع** بالاقتصار على الفقرة الأخيرة في مسنده (٤) باب في العلم وطلبه وفضله، رقم ٢٠ ، من حديث أبي هريرة.

من الصلاة في الزجر، أو ذكر الله أكبر من أن تبقى معه معصية، أو التخلُّف عن الناس بذكر الله تعالى لا يخلط به غيره.

﴿وَاللهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ من الخير فيجازيكم، لا تظنُّوا أنَّه يضيع شيء، فهذا وعد؛ أو من الخير والشرِّ، فهو وعد ووعيد.

﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ٤٦ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَۚ فَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَمِنۡ هَٰٓؤُلَآءِ مَن يُؤۡمِنُ بِهِۦۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلۡكَٰفِرُونَ ٤٧ وَمَا كُنتَ تَتۡلُواْ مِن قَبۡلِهِۦ مِن كِتَٰبٖ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَۖ إِذٗا لَّٱرۡتَابَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ ٤٨ بَلۡ هُوَ ءَايَٰتُۢ بَيِّنَٰتٞ فِي صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَۚ وَمَا يَجۡحَدُ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَّا ٱلظَّٰلِمُونَ ٤٩﴾

طريقة دعوة أهل الكتاب إلى الله

﴿وَلاَ تُجَادِلُواْ أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ اليهود والنصارى ودخل الصابون فيهم ﴿إِلاَّ بِالتِي﴾ استثناء من محذوف، أي بشيء إلاَّ بالخصلة أو بالمجادلة التي ﴿هِيَ أَحْسَنُ﴾ اللينُ والكظمُ والنصح.

﴿إِلاَّ الذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ بالإفراط في العناد ولم تنفع فيهم التي هي أحسن، فغلِّظوا عليهم باللِّسان ولو بعد الإذن بالقتال، وهذا استثناء من أهل الكتاب على عمومه.

وقيل: إنَّ المراد من قال بالولد لله والشَّريك، أو يد الله مغلولة، أو الله فقير أو آذوه ﷺ، وقيل: من نقض عهد الجزية والذِّمة فجَادِلُوهُم بالسَّيف، على أنَّ

الآية مَدَنيَّة وباقي الصورة مكيٌّ، أو مَكِّيــّة عند قرب هجرته أبِيح له القتال حينئذ في مَكّة و لم يقع، أو مَكِّيــّة بيان لِمَا يفعل في المدينة. والتِّي هي أحسن لا تنسخ بنزول القتال.

﴿وَقُولُوا﴾ لهم، أو احكوا لهم عن التَّوراة أو الإنجيل أو الزبور أو الصُّحف أو قرأوا لكم العبرانية وفسَّروها بِالعَرَبِــيَّة و لم تظهر لكم صِحَّة ما قالوا ولا كذبه، أو بان لكم صحَّته، أو إمكانه و لم تعلموا أنَّه منهم، أو من تلك الكتب.

﴿ءَامَنَّا بِالذي أُنزِلَ إِلَيْنَا﴾ على لسان نبيئنا ﷺ قرآنا أو غيره ﴿وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ﴾ على ألسنَة أنبيائكم كتابا أو غيره لا بما حرَّفتم، أي والذي أنزل إليكم، أو أريد بــ«الذي» المذكور الكلُّ. ﴿وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ وليس عزير إلهاً ولا عيسى إلهاً ولا غيرهما، لا إله إلاَّ الله.

﴿وَنَحْنُ﴾ لا أنتم لأنَّكم اتَّخذتم غير الله إلهًا كما مرَّ، وكاتِّخاذكم أحباركم ورهبانكم أربابا ﴿لَهُ﴾ لا لغيره ﴿مُسْلِمُونَ﴾ مذعنون له بالطَّاعة، وذلك نوع من المجادلة بالتي هي أحسن.

قال أبو هريرة: كان أهل الكتاب يقرؤون الكتاب بالعبرانيَّة ويفسِّرونها بالعَرَبــيَّة لأهل الإسلام، فقال الرسول ﷺ : «**لا تصدِّقوا أهل الكتاب ولا تكذِّبوهم وقولوا: آمنَّا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم**»[1] الآية وذلك فيما لم يَتَبَــيَّن كذبه وأبقوه على الاحتمال، والتَّصديق والتكذيب ضدَّان لا نقيضان فجاز ارتفاعهما.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ الإنزال البعيد مرتبة لارتفاعهما فوق كلِّ إنزال، والمراد الإنزال

١- رواه **البخاري** في كتاب التفسير باب قوله: {قولوا ءامنا بالله...} رقم ٤٢١٥ من حديث أبي هريرة.

المذكور بعده، أو كإنزال الكتب عليهم ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ مصدِّقا لكتبهم.

﴿فَالذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ جنس الكتاب ﴿يُومِنُونَ بِهِ﴾ المراد الجنس لا كلُّ فرد كما علم به، كعبد الله بن سلام، وقد تقدَّم ذكر جملة منهم آمنوا به، أو المراد في مثل هذا: آتيناهم ايتاء توفيق، وَالأَوَّل أولى، كأنَّه قيل: وجد الإيمان في أهل الكتاب، كما قابله بقوله:

﴿وَمِنْ هَؤُلآءِ﴾ أي من العرب، أو من أهل مَكَّة، أو «الذينَ آتيْنَاهُمُ الكِتَابَ»: مَن تقدَّم قبل عصره ﷺ، فإنَّهم يرونه في كتبهم، ولا يكفرون به، و«هَؤُلاَءِ»: مَن في عصره. ﴿مَنْ يُّومِنُ بِهِ﴾ والهاء في «بِهِ» في الموضعين له ﷺ، أو للكتاب الذي أنزل عليه، **وهو أولى**، ولأنَّ مقتضى عوده إليه أن يقال: يؤمنون بك ويؤمن بك، إلاَّ على الالتفات، والأصل خلافه.

ولا يخفى أنَّ نحو عبد الله بن سلام مدنيٌّ، والآية مكِّية فإذا فسِّرت الآية به فلعلَّها مَدَنِيَّة في سورة مكِّية، أو بيان لِمَا سيكون، والمضارع للاستقبال، وإن فسِّرت بمن مضى قبله ﷺ فلحكاية الله الحال الماضية وكذا فيمن في عصره إذ نزلت بعد إيمانه، وإلاَّ فللاستقبال، بمعنى: ومن هؤلاء من سيؤمن به.

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِئَايَاتِنَآ﴾ هي الكتاب المذكور، وهو القرآن، فمقتضى الظاهر: «وما يجحد به» لكن عبَّر عنه بـــ«آيات» ليذكره برسم الدلائل، وليفخِّمه بالإضافة إليه تعالى. والجحد: إنكار ما في القلب ثبوته، أو إثبات ما في القلب إنكاره، أو المراد مطلق النفي، وهو أولى لأنه أعمُّ. ﴿إِلاَّ الْكَافِرُونَ﴾ الرَّاسخون في الإصرار والعناد، حتَّى لا يؤثِّر [فيهم] ما هو أقوى دليل ككعب بن الأشرف وأصحابه ونحوهم.

﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِ﴾ من قبل الكتاب المنزَّل عليك ﴿مِن كِتَابٍ﴾

مكتوبا ما من الله ولا من غير الله، لأنّك لا تعرف قراءة الكتابة **﴿وَلاَ تَخُطُّهُ،﴾** أي لا تخطُّ كتابا، أي لا تحصِّل كتابا بخطِّك، والهاء لمطلق كتاب ولو عادت للكتاب المذكور على الاستخدام، أي لا تعرف أن تكتب، **﴿بِيَمِينِكَ﴾** فضلا عن أن يخطّه بيساره، وذلك تحقيق وتأكيد، كقولك: رأيته بعيني.

﴿إِذًا﴾ لو كان يتلو كتابا أو يكتبه **﴿لاَّرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾** مشركو مكّة وأهل الكتاب، فيقولون: لعلّه التقطه من كتب الأَوّلينَ، ولا يتصوَّر أيضا أن يتعلّمه أيضا من ألسن أهل الكتاب لأنّهم أعداؤه وقُلُّوا في مكّة، وهم يخطرون فيها خطرا ولا يشاهد معهم، وهو أيضا على استمرار وتفاصيل.

ولو كان يكتب ويقرأ الكتاب لقال أهل الكتاب: ليس بالنبيء المعهود في التوراة، لأنّ الذي فيها لا يكتب، وبقي على ذلك لا يكتب ولا يقرأ الكتب حتّى مات، لأنّ القرآن لم يزل يترل عليه حتّى مات.

ولو عرف الكتابة والقراءة ولو في آخر عمره لاتّهموه فيما نزل عليه فيه، وفيما قبله، فليس كما قيل: إنّه لَمَّا شهر الإسلام وظهر عرف الكتابة والقراءة، وأيضا المنكرون له باقون بعد شهرة الإسلام فيتّهمونه.

[قلت:] وقول ابن أبي شيبة والشّعبي قبله وغيرهما: إنّه ما مات حتّى عرفهما باطل، وأما قوله ﷺ : «**رأيت ليلة أسري بي مكتوبا على باب الجنّة الصدقة بعشر أمثالها، والقرض بثمانية عشر**»[1] وذلك إراءة منه، والقراءة تستلزم القدرة على الكتابة، فمعناه: إنّ الله أراه مكتوبا وقال له: إنّ في ذلك

١-رواه **ابن ماجه** في كتاب الصلاة باب القرض، رقم٢٤٣١. وأورده **المنذري** في الترغيب في القرض: ج٢، ص٤١، رقم٣. **والهندي** في الكتر: ج٦، ص٢١٠، رقم١٥٣٧٤. من حديث أنس.

المكتوب كذا وكذا، أو ذلك خاص بذلك الوقت.

(سيرة) أمـا حديث البخاري وغيره في صلح الحديبيـة، أخذ ﷺ الكتاب وليس يحسن الكتاب فكتب، فمعناه أخذ الكتاب وأمر بكتابته، ألا ترى أنَّه لَمَّا كتب عليٌّ: هذا ما قاضى به محمَّد رسول الله ﷺ...الخ، قال له أهل مَكَّة: لو كُنـا نعرفك رسول الله ما نازعناك، فامح الرسالة، قال لعليٍّ: أرني هذه الحروف لأمحوَها، فقال له: من هذا الموضع إلى هذا، فمحا، فهو لم يعرف. وقد قال أبو الوليد الباجي[1] بأنَّه عرفهما فخطَّأه العلماء على المنابر وروموه بالزندقة، ثمَّ جمع مجلسا بيد الأمير، وقد أجابه علماء الأشراف بما يوافقه، وقد أخطأ هو وهم، قيل:

برأت ممَّـن شرى دنيا بآخرة وقـال إنَّ رسول الله قد كتبا

[قلت:] وَاتَّفَقَ الناس أنَّه لا يكتب ولا يقرأ، ومن ادَّعَى ذلك له فليأت بحجَّة لا تحتمل، وثبت: «**إنَّا أمَّة لا نكتب ولا نحسب**»[2] ومن ادَّعَى ثبوت ذلك في نفسه ﷺ فليبـيِّن.

﴿**بَلْ هُوَ**﴾ الكتاب الذي أنزل عليك، إضراب عن ارتيابهم إلى أنَّه حقٌّ واضح ﴿**ءايَاتٌ بَـيِّـنَاتٌ**﴾ راسخات في الوضوح ﴿**فِي صُدُورِ الذينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ**﴾ من الله لا ملتقط، ولا يقبل التحريف كما حرِّف غيره، وجاء وصف هذه الأمَّة: «أناجيلهم في صدورهم».

١- هو سليمان بن خلف بن سعد أبو الوليد الباجي نسبة إلى باجة بالأندلس، من كبار المحدِّثين وفقهاء الْمَالكِيَّة، رحل إلى المشرق وعمره ١٣ سنة، ثمَّ عاد إلى بلاده ونشر الفقه والحديث. وكان بينه وبين ابن حزم مناظرات ومجادلات ومجالس وشهد له ابن حزم، وكان سببا في إحراق كتب ابن حزم، ولي القضاء في أنحاء الأندلس. من تصانيفه: الاستفتاء في شرح الموطأ، واختصره في المنتقى. توفي سنة ٤٧٤هـ، ولد سنة ٤٠٣هـ. الموسوعة الفِقْهيَّة الكويتيَّة، ج١، ص٣٤٢.

٢- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٥، ص٢٠٣.

وقيل: الضمير «هُوَ» للنبيء ﷺ ، أي النبيء وأموره آيات بَـيِّـنَات، وقيل: لكونه لا يقرأ ولا يكتب أي كونه كذلك علامات في صدور علماء أهل الكتاب، لأنَّهم وجدوه كذلك في التوراة وغيرها، والصحيح أنَّه للكتاب. والذين أوتوا العلم: الصحابة العلماء، أو هم والنبيء ﷺ ، ويدلُّ له قراءة: «بَلْ هِيَ آياتٌ بَـيِّـنَات».

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِئَايَاتِنَآ إِلاَّ الظَّالِمُونَ﴾ الراسخون في العناد، وإنَّما أذكر الرسوخ في مثل هذا لظهور الدلائل.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْبَٰطِلِ وَكَفَرُواْ بِٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٥٢﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَوْلَآ أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَآءَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ يَوْمَ يَغْشَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٥٥﴾﴾

بعض مطالب المشركين التعجيزية

﴿وَقَالُواْ﴾ كفَّار قريش بإيعاز أهل الكتاب، وقيل: الواو لأهل الكتاب ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَاتٌ مِّن رَّبِّـهِ﴾ كناقة صالح وعصا موسى ﴿قُلِ انَّمَا الاَيَاتُ عِندَ اللهِ﴾ لا يملكها سواه، وإنَّما ينزِّلها بحسب مشيئته ﴿وَإِنَّمَآ أَنَاْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ شاني الإنذار لا الإتيان بما شئتم من الآيات.

﴿أوَ لَمْ يَكْفِهِمْ،﴾ أقصر و لم يكفهم؟ والاستفهام إنكار ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا﴾ في تأويل مصدر فاعلُ «يَكْفِ» ﴿عَلَيْكَ الْكِتَابَ﴾ الكامل في البيان والتصديق لمَا قبله، وأنت لا تقرأ ولا تكتب، وبعيد عن دراسة الكتب ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ،﴾ مستمرًّا يتحدَّاهم، أو يتلى على أهل الكتاب على وفق ما في كتابهم من نعتك ودينك وغيرهما، على أنَّ واو «قَالُوا» لأهل الكتاب.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الكتاب أو الإنزال ﴿لَرَحْمَةً﴾ دينيَّة ودُنيويَّة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ تذكيرا ﴿لِقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾.

(سبب النزول) روى أبو داود وابن جرير وابن أبي حاتم عن يحيى بن جعدة أنَّه جاء ناس من المسلمين بكتاب كتبوا فيه بعض ما سمعوا من اليهود، فقال ﷺ : «**كفى بقوم عمى وضلالة أن يرغبوا عمَّا جاءهم به نبيئهم إلى ما جاء به غيره إلى غيرهم**» فنزلت الآية ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ،...﴾ تصديقا. ومثل هذا عن أبي هريرة.

وجاءت حفصة رضي الله عنها بكتاب فيه قصَّة يوسف فقرأته عليه ﷺ وغضب، وقال: «**لو حضر يوسف فاتَّبعتموه وتركتموني لضللتم، أنا حظُّكم من النبيئين، وأنتم حظِّي من الأمم**». وكذا جاء عمر بجلد مكتوب فيه كلام استحسنه، فجعل يقرأه عليه ﷺ فغضب فقال: «**لا يهلكنَّكم المتهوِّكون**» أي المتحيِّرون، أو الواقعون في أمر بلا رويَّة. وأهدى عبد الله بن عامر هديَّة إلى عائشة رضي الله عنها، فردَّتها تظنُّه ابن عمر، وقالت: إنَّه يتتبع الكتب، فقيل: من ابن عامر فقبلتها.

[قلت:] فالنهي عن النظر في التوراة ونحوها عامٌّ مستمرٌّ في زمان رسول الله ﷺ وبعده سدًّا للذريعة على الصحيح، وما بعد الآية وما قبلها في الكُفَّار، وهي

جواب لقولهم: «لَولاَ أُنزِلَ...».

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا﴾ عالما بتبليغي وصدقي وتكذيبكم لي، فأثاب وتعاقبون.

(نحو) فاعل «كَفَى» الله، والباء صلة على الصحيح لا ما صحَّحه ابن هشام من أنَّ الباء للتعدية، ومعنى «كَفَى» اكتف، لأنَّ كفى لا يرفع ضمير المخاطب الذي يرفعه الأمر، وقيل: فاعل «كَفَى» ضمير الاكتفاء المدلول عليه بـ«كَفَى»، ولا تتعلَّق الباء بالضمير لأنَّه مستتر ولو عند من أجاز إعمال الضمير الذي فيه معنى الحدث، فتعلَّق بمحذوف حال من ذلك الضمير.

﴿يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ جميعا، ومنه أموري وأموركم.

(سبب النزول) قيل: قال كعب بن الأشرف وأصحابه لرسول الله ﷺ: من يشهد برسالتك؟ فنزل ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ...﴾ الآية، ولو كان الكلام مع قريش لجواز اجتماع ذلك.

﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ بِالْبَاطِلِ﴾ عبادة عيسى والملائكة، أو الشيطان أو الصنم، ﴿وَكَفَرُواْ بِاللهِ﴾ مع كثرة الدلائل ووضوحها ﴿أُوْلَئِكَ هُمُ، الْخَاسِرُونَ﴾ لا المؤمنون، إذ لم يرجوا شيئا و لم ينجوا من النار، كمن تجر و لم يربح و لم يبق رأس ماله.

(بلاغة) وذلك استعارة تمثيلية شبَّه عملهم وما لزم عليه من العذاب بالتجر وما ترتَّب عليه من عدم الربح ورأس المال، أو استعارة مكنيَّة شبَّه استبدال الكفر بالإيمان الموجب للعقاب باشتراء ما فيه مضرَّة للمال، ورمز إليه بذكر الخسران، و لم يقل: أنتم المؤمنون بالباطل الكافرون بالله ليكون الجدال بالتي هي أحسن.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ﴾ أي أهل مَكّة ﴿بِالْعَذَابِ﴾ استهزاء ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ﴾ (سورة يونس: ١٤٨) ، ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَآءِ اَوِ ايتِنَا بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾ (سورة الأنفال: ٣٢) .

﴿وَلَوْلاَ أَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ قضاه الله لعذابهم لا يتقدَّم ولا يتأخَّر، ولا يتبدَّل وهو يوم بدر ﴿لَّجَآءَهُمُ الْعَذَابُ﴾ على كفرهم واستعجالهم، أيُّ عذاب شاءه الله وَعَجَلّ ، العذاب الذي عيَّنوه أو غيره، وقيل: الذي عيَّنوه كذا وكذا، أو العذاب تشديد الموت والقبر على سائر الموت والقبر على غيرهم، وقيل: يوم القيامة. قال ﷺ : «**اللهمَّ لا تستأصل قومي بالعذاب في الدنيا**»[1].

﴿وَلَيَاتِيَنَّهُم بَغْتَةً﴾ فجأة باغتا، أو ذا بغتة، أو «يَأْتِي» ضمِّن معنى يبغت ﴿وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ غافلون عن أن يأتيهم، كزيادة عذاب الموت والقبر ويوم بدر، إذ لا شعور لهم به حتَّى اتَّفَقَ أن وقع ولا يشعرون أنَّهم مغلوبون فيه، بل ظنُّوا أنَّهم غالبون، وكالقحط وأمَّا يوم القيامة فلا يحيطون به.

﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ﴾ كما قال النضر بن الحرث: «فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً»، وقيل: نزل ذلك في كعب بن الأشرف.

واندفع التكرير بهذا وبقوله مقيِّدا له: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ الواو للحال، أي من سفههم وركّة رأيهم استعجالهم عذاب الدنيا مع أنَّه يحيط

١- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ، وإنَّما أورده **الألوسي** في تفسيره: مج٧، ص٨، قولا لابن جبير عند شرحه للأجل، واستدلَّ بهذا. وقال: «المراد بالأجل: يوم القيامة، لِمَا روي أنَّه تعالى وعد رسوله ﷺ أن لا يعذب قومه بعذاب الاستئصال، وأن يؤخِّر عذابهم إلى يوم القيامة». وأورده **السيوطي** في الجامع الصغير بما يوافقه معنى، وقال: رواه أحمد ومسلم من حديث سعد بن أبي وقاص، وأوَّله قوله: «سألت الله في ثلاث...».

بهم عذاب لا عذاب فوقه وهو جهنَّم في الآخرة، أو بعذاب الآخرة وهو مهيَّأ لهم لا يفوتونه.

(بلاغة) و«مُحِيطَةٌ» للاستقبال حقيقة، أو للحال والمضيِّ مجازا لتحقُّق وقوعه كأنَّه حاضر، أو ماض به مستمرٌّ، أو كالمحيط بهم، أو جهنَّم مجاز على الكفر بالتشبيه أو بالتسبُّب أو اللزوم، أو الإسناد عقليٌّ، والحقيقة: أحاطت بهم أعمالهم. والكافرون الجنس، فيدخل المستعجلون بالأَولى، أو هم المراد وضعا للظاهر موضع المضمر ليذكرهم باسم الكفر الموجب.

﴿يَوْمَ يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ﴾ يغطِّيهم من جميع الجهات متعلِّق بـــ«مُحِيطَةٌ»، أو بمحذوف للتهويل، أي يكون ما لا يوصف **﴿مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾** خصَّ الجهتين بالذكر لأنَّهما أعظم، وما كان كذلك فأولى أن يحيط من سائر الجهات، كالإحاطة بالغدوِّ والآصال، والصباح والمساء.

﴿وَيَقُولُ﴾ الله بالملائكة، أو بخلق الكلام حيث شاء **﴿ذُوقُواْ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** جزاء ما تعملون في الدنيا من المعاصي، ومنها استعجالكم.

﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَٱعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٥٧﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ غُرَفًا تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا نِعْمَ أَجْرُ ٱلْعَٰمِلِينَ ﴿٥٨﴾ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٥٩﴾ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحْمِلُ رِزْقَهَا ٱللَّهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٦٠﴾﴾

الأمر بالهجرة عند تعذُّر إقامة الشعائر الدينيَّة

﴿**يَا عِبَادِيَ الذينَ ءَامَنُواْ إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ**﴾ محلاً ورزقًا والله يرزقكم، وليس المراد أرض الجنَّة كما قيل.

وهذا إيجاب للهجرة من مَكَّة على من بقي فيها من المؤمنين، ولو ضعفاء إن أطاقوا الهجرة، لا كمريض وامرأة لا تجد محرمًا أو زوجا أو أمينين، أو شيخ لا يطيق المشي ولا الرُّكوب، **هاجروا إلى أرض الإسلام أو حيث تقيمون دينكم، أو هاجروا إلى المدينة** ليتقوَّى الإسلام.

(فقه) وبعد فتح مكَّة يجوز لمن أسلم في بلده وهو بلد شرك أن يقيم فيه إن توصَّل إلى دينه ولو سرًّا، وقيل: إن جهرًا، وزعم قوم أنَّه لاَ بُدَّ من الهجرة ولو توصَّل إليه جهرًا، إلاَّ إن قَوِيَ المسلمون فيه بحيث يسمَّى بلد إسلام.

﴿**فَإِيَّايَ فَاعْبُدُون**﴾ في أرض تهاجرون إليها، الفاء الأولى عاطفة للإنشاء على الخبر، وهو قوله: ﴿إِنَّ أَرْضِي...﴾ ولا سيما أنَّه في معنى الأمر بالهجرة.

و«إِيَّايَ» منصوب على الاشتغال مع أن الشاغل محذوف وهو الياء لقيام نون الوقاية مقامه، كما لو حذف للساكن نحو: إِيَّاي أكرمني اليوم، ألا ترى أنَّه لا يصحُّ: اعبدون إِيَّاي، على أنَّ إياي مفعول اعبدوا، ولو ورد مثله لقيل: إِيَّاي بدل من المحذوف. والفاء الثَّانية صلة مؤكِّدَةٌ للأولى في التسبُّب والتفرُّع، وهكذا قُلْ، ولا تقدِّر شرطا مثل إن لم تخلُصُوا العبادة في أرض فاعبدوني في غيرها.

قال ﷺ : «**من فَرَّ بدينه من أرض إلى أرض ولو كان شبرا استوجب الجنَّة وكان رفيق إبراهيم ومحمَّد عليهما الصَّلاة والسَّلام**»[1].

﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ الْمَوْتِ**﴾ شَبَّهَ الموت بشيء كريه الطَّعم لا يؤكل منه أو

١- أورده الكشَّاف في تفسيره: ص٣٩٢. موسوعة أطراف الحديث النبوي.

يشرب منه إلاَّ قليل، والموت يستوي فيه كلُّ ذي روح يفارق روحه بدنه، ويجد مرارته. و«ذَائِقَةُ» أوكَدُ من «تَذُوقُ». ﴿ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ للجزاء فاعملوا ما ينفعكم من الإيمان والهجرة والطَّاعات، واجتناب المعاصي والتَّوبة منها ومن التقصير. و«ثُمَّ» للتَّراخي الزَّماني، فإنَّ بين الموت وقيام السَّاعة زمانًا طويلاً، والتَّراخي الرُّتبي فإنَّ رتبة البعث للجزاء أشدُّ من الموت.

﴿وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَنُبَوِّئَنَّهُم﴾ نُنزِّلنَّهم على وجه الإقامة، وجملة القسم وجوابه خبر المبتدأ ﴿مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ حال من قوله: ﴿غُرَفًا﴾ عوالي من درٍّ وزبرجد وياقوت وذهب وفضَّة، مفعول ثان. ﴿تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الاَنْهَارُ﴾ نعت «غُرَفًا» ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ في الغرف، أو في الجنَّة، وهو أولى، لأنَّهم يخرجون عن الغرف إلى حيث شاؤوا، إلاَّ أنَّه لَمَّا كان لاَ بُدَّ من رجوعهم إليها صحَّ إطلاق الخلود فيها ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ﴾ للطاعات، والمخصوص محذوف أي الغرف أو الأجر.

﴿الذِينَ صَبَرُواْ﴾ على أذى المشركين والبلاء ومشاقِّ العبادة والمصائب والهجرة، وعن المعاصي والشهوات، وهو نعت، وأيُّ دليل على أنَّه خبر لمحذوف أو مفعول لمحذوف؟ ﴿وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ لا على غيره يتوكَّلون ﴿وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ﴾ أراد ما يشمل الطائر، لأنَّه لا يخلو عن دبيب في الأرض ﴿لاَّ تَحْمِلُ رِزْقَهَا﴾ لا تتكفَّل برزقها بحيلة أو ادِّخار، تصبح ولا معيشة عندها. والجملة نعت «دَآبَّة» والخبر هو قوله تعالى: ﴿اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ﴾ لا رازق سواه، فقد استوى الناس كلُّهم والدوابُّ في أنَّها وإيَّاهم لا يملكون رزقا، والله خالق الأسباب فكيف يخاف الفقراء منكم من الهجرة بسبب الرِّزق؟.

(سبب النزول) أمر رسول الله ﷺ المؤمنين بالهجرة إلى المدينة فقالوا: كيف نهاجر إلى بلد لا معيشة فيه لنا ؟ فنزلت الآية.

قال ابن عيينة: لا يخبئ إلاّ الإنسان والنَّملة والفأرة، وزاد ابن عبَّاس رضي الله عنهما: العقعق، وقال: العقعق يخبِّئ وينسى ما يخبِّئ. ﴿**وَهُوَ السَّمِيعُ**﴾ لقولكم ﴿**الْعَلِيمُ**﴾ بما في قلوبكم وغيرها.

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾

اعتراف المشركين بالإله الخالق الرازق المحيي

﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم**﴾ سألت أهل مكّة ﴿**مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾ الله خلقهُنَّ أو خلقهنَّ الله يجزمون بذلك لما في عقولهم من أنَّ المخلوق لا يقدر على ذلك، ولا يخفى أنَّ الممكنات تنتهي إلى واحد واجب الوجود.

﴿**فَأَنَّىٰ يُوفَكُونَ**﴾ كيف؟ أو من أيِّ وجهٍ يصرفون عن توحيده مع إقرارهم بذلك؟ والتَّقدير: إذا كان الأمر كذلك فأنَّى يصرفون؟.

﴿**اللهُ**﴾ لا غيره ﴿**يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ أن يبسط له تارة ﴿**وَيَقْدِرُ لَهُ،**﴾ يضيِّق له تارة أخرى بعد البسط أو قبله، وهو إنسان واحد، أو الهاء عائدة إلى «مَنْ يَّشَاءُ»، بمعنى إنسان آخر على طريق الاستخدام، كدرهم

ونصفه، أي نصف درهم آخر. والآية تشمل الإنس والجن، وقد تشمل الحيوان كلّه، وإلاّ فسائر الحيوان معلوم كذلك بالتبع.

﴿**إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ يبسط للإنسان إذا كانت الحكمة البسط، ويضيِّق عليه إذا كان التضييق حكمة، ويبسط لهذا ويضيِّق على الآخر بحسب الحكمة.

﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ الاَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا**﴾ شبَّه كونها نابتة بحياة ذي الروح وكونها غير نابتة بموت ذي الروح ﴿**لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾ الله نزَّله فأحياها به، أو نزَّله الله فأحياها به، ومع ذلك الإقرار يشركون به غيره. والفاء تفريعيَّة وسببيَّة لا ترتيب باتِّصال.

﴿**قُلِ الْحَمْدُ للهِ**﴾ على إظهار الحجَّة واعترافهم بما هو حجَّة تلزمهم، وعلى عصمتك وعصمة من آمن بك من ضلالهم، كحمد الإنسان على ما أنعم الله عليه، وعلى معافاته ممَّا ابتلى به غيره.

﴿**بَلَ اَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ**﴾ ما يقولون ممَّا هو حجَّة عليهم، أو لا يعقلون شيئا فهم يعملون بما يخالف ما أقرُّوا به، والأكثر الكلُّ، أو فيهم بعض عقل وكفر عنادا، أو بعض قد آمن فهو من أصحابك.

﴿ وَمَا هَٰذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الْاخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الْفُلْكِ دَعَوُاْ اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّيٰهُمُ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ وَلِيَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمُ أَفَبِالْبَٰطِلِ يُومِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ ﴿٦٧﴾ وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا اَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ

لَمَّا جَآءَهُۥٓ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْكَـٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ وَالَّذِينَ جَـٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٦٩﴾﴾

بيان حال الدنيا واضطراب أوضاع الكفار فيها

﴿**وَمَا هَذِهِ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَآ**﴾ إشارة القرب لهوان الدنيا، قال ﷺ : «**لو كانت تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء**»[1] ويقال: إنَّ الدنيا أحقر عند الله من ذراع خنزير ميِّت بال عليه كلب بيد مجذوم. ﴿**إلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ**﴾ ما أمرها إلاَّ كلهو ولعب، أو ما هي إلاَّ شيء يلهى به ويلعب به ساعة، كما تفعل الصبيان ويتفرَّقون عنه بلا فائدة.

﴿**وَإِنَّ الدَّارَ الاَخِرَةَ**﴾ حياة الدار الآخرة ﴿**لَهِيَ الْحَيَوَانُ**﴾ الحياة التامَّة الحقيقة التي لا يعقبها موت، أو إنَّ الدار الآخرة لهي دار الحيوان، أو هي نفس الحياة مبالغة.

(صرف) والحيوان مصدر بمعنى الحياة، وجاء بوزن «فعلان» للتأكيد، لأنَّ «فعلان» للاضطراب اللازم للحركة، ولذلك ذكر في حياة الآخرة، وواوه عن ياء على خلاف القياس، والأصل «حييان» ويدلُّ له «حَيِيَ»، هذا مذهب سيبويه، وقيل: لام الحياة واو قلبت ألفا وأصل «حيي»: «حيو» قلبت ياءً لكسر ما قبلها، كشقي بدليل الآية، و«حِيْوَهْ» علم رجل، والصحيح مذهب سيبويه.

﴿**لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ**﴾ ما آثروا حياة الدنيا عليها، وتقدَّم مثله. ﴿**فَإِذَا رَكِبُواْ فِي الْفُلْكِ**﴾ عطف على محذوف، أي هم مصرُّون على الكفر فإذا ركبوا في

١- أورده أبو نعيم في الحلية: ج٣، ص٢٥٣. وابن عدي في الكامل: ج١، ص٢٤٩. من حديث سهل بن سعيد.

الفلك ﴿دَعَوُاْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ أي في صورة من أخلص الدين أي العبادة لله عز وجل، علما بأنَّه لا ينجِّيهم من الغرق إلاَّ هو، أو الدين التوحيد.

كانوا إذا ركبوا قالوا: أخلصوا، فيقولون: لا إله إلاَّ الله، وكان سبب إسلام بعض أراد الركوب فسمعهم يقولون: أخلصوا، فقال: لا إله إلاَّ الله محمَّد رسول الله ﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمُ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ من نعم النجاة ﴿وَلِيَتَمَتَّعُواْ﴾ بعبادة الأصنام وتوادِّهم عليها، واللام في الموضعين للعاقبة لا للتعليل، يقدِّمون الإشراك قبل الركوب في الفلك وبعده الكفر بالنعم والتمتُّع؛ أو للتعليل مبالغة فيهما، كأنَّه يوقعون الإشراك لأجلهما، وهو سببهما.

ويجوز أن تكون اللامان للأمر تهديدا، كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُواْ مَا شِئْــتُم﴾ (سورة فصلت: ٤٠) إن كان الخطاب فيه لِلْكُفَّارِ، وقولك لعاصيك: «اعمل ما شئت»، ويدلُّ له قراءة قالون عن نافع والكسائي وحمزة بإسكان الثانية، ولام التعليل أو العاقبة لا تسكَّن، والأولى متحرِّكة فتــتبع الثانية في أنَّها للأمر ليتَّفق العطف، وكونهما متخالفين عطف كلام على آخر مطلقا خلاف الأصل ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ تهديد بتعذيب يوم القيامة.

﴿أَوَلَمْ يَرَواْ﴾ ألم ينظروا بعقولهم ويروا بأبصارهم، فإنَّ أثر الأمن مشاهد بالعين كحضور الناس بلا سوء، أو الرؤية العلم ﴿أَنَّا جَعَلْنَا﴾ لهم أو جعلنا بلدهم ﴿حَرَمًا ــ امِنًا﴾ من النهب والقتال والتعدِّي، والعرب حوله تتناهب وتتناحر، وقد قيل: يتبع السبع الصيد وإذا دخل الحرم كفَّ عنه.

(بلاغة) والإسناد مجاز عقليٌّ، لأنَّ الآمن أهل البلد لا البلد، أو يقدَّر مضاف، أي آمنا أهله، حتَّى الطير والوحش فيه، [قلت:] ولعلَّه تعالى لم يقل:

جعلنا لهم، أو جعلنا بلدهم ليعمَّ الوحش والطير، ولو قال ذلك لَتُوُهِّم أنَّ الأمن لهم، وعلى كلٍّ حال ليس في الآية ما يمنع دخول الوحش والطير في الآية، ولو كانت الآية امتنانا على أهل مَكَّة بأن جعل بلدهم وما حوله آمنا عمَّ الناس مطلقا والوحش والطير بأمنه.

﴿**وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ**﴾ حول حرمهم خارج الحرم نهبا وقتلا وتعدِّيا.

(سبب النزول) وعن ابن عبَّاس: إنَّ أهل مَكَّة قالوا: لولا أن تتخطَّفنا العرب وهم أكثر منَّا ونحن فيهم أكلة رأس لدخلنا في دينك، فنزلت الآية.

﴿**أَفَبِالْبَاطِلِ**﴾ الشيطان، أو الصنم بعد ظهور الحقِّ ﴿**يُومِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللهِ**﴾ المستوجبة للإيمان ﴿**يَكْفُرُونَ**﴾ قدَّم «بِالْبَاطِلِ» و«بِنِعْمَةِ» على طريق الاهتمام، ﴿**وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا**﴾ بادِّعاء الشركة له ﴿**اَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ**﴾ الوحي مطلقا القرآن وغيره ممَّا يوحى إلى رسول الله ﷺ، أو الحقُّ رسول الله ﷺ، أو كلُّ ذلك ﴿**لَمَّا جَآءَهُ**﴾ حين جاءه بلا تأخير، وبلا تأمُّل، وذلك من شدَّة سفههم وخبثهم وحسدهم.

﴿**أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى**﴾ إقامة، أو مكان إقامة، أو زمان إقامة، أحقابا بعد أحقاب لا نهاية لها ﴿**لِّلْكَافِرِينَ**﴾ أي لهم لأجل كفرهم المذكور، وضع الظاهر موضع المضمر ليذكرهم باسم الكفر الموجب لجزائهم.

أو المراد الكُفَّار مطلقا، فيدخلون أوَّلا وبالذات، كالحجَّة عليهم، كأنَّه قيل: إذا استحقَّت جهنم للكفر فهم من أهلها، والاستفهام لنفي «لَيْسَ» فيثبت ما نفته، أو لإنكار عدم علمهم مبالغة واستبعاده كأنَّه قيل: ألم يعملوا بعلمهم أنَّ في

جهنَّم مثوى لمن كفر؟ وكأنَّهم علموا لوضوح الأدلّة، ومقتضى ما يصدر منهم أحيانا ممَّا يوافقها.

﴿**وَالذِينَ جَاهَدُواْ فِينَا**﴾ في أمرنا من الطاعة واجتناب المعاصي، وتقوية الإسلام والثبات على ذلك لا يمنعهم فقر ولا مصيبة ﴿**لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ تمام ما دخلوه وما قصدوه ونزيدهم قال الله ﷻ: ﴿وَالذِينَ اهْتَدَوْاْ زَادَهُمْ هُدًى﴾ (سورة محمَّد: ١٧) . قال رسول الله ﷺ : «**من عمل بما علم أورثه الله علم ما لم يعلم**»[1].

وقيل: الذين أرادوا الجهاد فينا هديناهم إلى ما أرادوا، وزعم بعضٌ أنَّ المراد: سبلنا إلى الجنَّة، وبعضٌ: إلى الموت موت الشهداء والمغفرة.

﴿**وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ المذكورين بالنصر والإعانة، فالأصل: وإنَّ الله معهم، فالظاهر ليصفهم بالإحسان المستوجب للمعيَّة، أو المراد جنس المحسنين، فيدخل هؤلاء بالأولى على طريق البرهان: من أحسن فمعه الله، فهو مع هؤلاء لأنَّهم أحسنوا.

والله الموفق المعين
ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٦، ص١٩٦.

تفسير سورة الروم وآياتها ٦٠

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ الرُّومُ ﴿٢﴾ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُم مِّن بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِي بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ الْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِن بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ اللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٥﴾ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦﴾ يَعْلَمُونَ ظَاهِرًا مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ ﴿٧﴾﴾

لا يتطاول المشركون بانتصارهم على أهل الإيمان فالعاقبة لهم أخيرا

﴿أَلَمِّ غُلِبَتِ الرُّومُ﴾ ذرِّيـَّة روم بن يونان بن علجان بن يافت بن نوح عليه السلام، أو روم بن يافان بن يافت، أو روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم غلبهم أهل فارس. **﴿فِي أَدْنَى الأَرْضِ﴾** في أقرب أرض الرُّوم إلى مَكَّة ورجَّحه ابن حجر، أو في أقرب أرض مَكَّة ونواحيها إلى الرُّوم، أو في أقرب أرض الرُّوم، أو فارس، لأنَّ الحرب وقعت بين أذرعات وبصرى، وقال ابن عبَّاس: في الأردن وفلسطين، وقيل: في جزيرة ابن عمر، تجري هذه الأقوال على ما مرَّ قبلها، وعبارة بعض: أدنى الأرض قرب أرض الشَّام إلى فارس، وقيل: أذرعات، وقيل: الأردن وقيل: الجزيرة[1].

﴿وَهُم مِّنْ بَعْدِ﴾ متعلِّق بالفعل بعده **﴿غَلَبِهِمْ﴾** من بعد أن كانوا مغلوبين، على أن الغلب مصدر من المبنيِّ للمفعول مضاف إلى نائب الفاعل، أو

١- راجع تفسير التحرير والتنوير، ج٢١، ص٤٢، لزيادة الإيضاح.

من بعد أن غلبهم فارس، فهو مصدر مضاف للفاعل، والأوَّل أولى لمناسبة ﴿غُلِبَتْ﴾ بالبناء للمفعول.

﴿سَيَغْلِبُونَ﴾ تكون الرُّوم غالبة لعدوِّهم فارس، وقال: «هُمْ» ولم يقل: ومن بعد غلبهم سيغلبون، لتأكيد غلبتهم لفارس.

(قصص) ويروى أنَّ كسرى بعث إلى أميره شهريار الذي ولاّه على محاربة الرُّوم أن اُقتل أخاك فرخان، لقوله: رأيتني في النَّوم جالسا على سرير كسرى فلم يقتله فراجع شهريار كسرى مرَّتين بعد الأوَّل قائلا: إنَّ فرخان يسعى في صلاحك فكيف أقتله؟ فبعث كسرى إلى فارس أنِّي عزلت شهريار، وجعلت مكانه أخاه فرخان، وأمره بقتل أخيه شهريار، فأطلع فرخان على ذلك المذكور من مراجعة شهريار كسرى بأن لا يقتل فرخان، فردَّ الملك لأخيه شهريار، وكتب شهريار إلى قيصر ملك الرُّوم فتعاونا على كسرى فغلبوه.

وقبل ذلك قتل الرُّوميون ملكهم وابنه بناطوس، وهرب ابنه الآخر إلى خسرو، وقد مضى من سلطنة خسرو أربع عشرة سنة، فبعث معه ثلاثة أمراء مع عسكر عظيم، فدخلوا الشَّام فأسروا من فلسطين وبيت المقدس من الأساقفة وغيرهم، وأرسلوا إلى خسرو الصَّليب المدفون في تابوت من ذهب، واستولوا على الإسكندرية وبلاد النوبة، ووصلوا إلى نواحي القسطنطينية، وهذه غلبة الفرس للرُّوم وهي الأولى، والغلبة الثَّانية غلبة الرُّوم لهم، وكلتاهما على عهد خسرو.

﴿فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ البضع ما بين الثَّلاث إلى العشر، أو ما بين الواحد إلى التسع، أو ما فوق الخمس إلى ما دون العشر، أو ما بين العقدين في جميع الأعداد.

(قصص) روي أن فارس غَزوا الرُّوم فغلبوهم في أذرعات وبصرى، وشقَّ ذلك على رسول الله ﷺ وهم في مكَّة، لأنَّ فارس ليسوا أهل كتاب وهم مجوس، وفرح المشركون وقالوا: نظهر عليكم ولسنا بأهل كتاب كما ظهر إخواننا على الرُّوم، فنزلت الآية، فقال أبو بكر: لا تفرحوا فوالله ليظهرنَّ الرُّوم على فارس، أخبرنا نبيئنا بذلك، فكذَّبه أُبي بن خلف فقال له أبو بكر ﵁ : أنت الكاذب تعال أُنَاحبكَ على عشر قلائص تعطينيها إن غلبت الرُّوم فارس وأعطيكها إن غلبتهم فارس إلى ثلاث سنين. والنَّحب: العطاء، ومراده: أراهنك بها.

فأخبروا رسول الله ﷺ فقال: إنَّما البضع ما بين الثلاث إلى التِّسع، فقيل: هكذا البضع أبدا، فقيل: بدخول التِّسع، وقيل: هذا في الآية، وأمَّا مطلقا فما بين العقدين، فزايَده في الأجل والقلائص، فجاءه فقال: أندمت يا أبا بكر؟ قال: لا لكن نزيد، فجعل الأجل تسع سنين والقلائص مائة، وَلَمَّا أراد الهجرة طلب منه أُبي الكَفيل، فكفله ابنه عبد الرَّحمن، ولَمَّا أراد الخروج للقتال لعنه الله طلب منه عبد الرَّحمن وهو يومئذ في مكَّة الكفيل، فأعطاه كفيلا ومات بجرح جرحه النبيء ﷺ . وظهرت الرُّوم في السنة السابعة، ويقال: يوم الحديبيَّة، وحسب رواية الترمذي: يوم بدر، وبه قال أبوسعيد الخدري.

فأخذ الصدِّيق القلائص من ورثة أُبي، فقال النبيء ﷺ : «**تصدَّق بها**»، وعن البراء: «**تصدَّق بها فإنها سحت**»، وذلك قبل تحريم القمار ونزول القتال والسَّبي، فهي حلال يومئذ قبل النَّسخ، ألا ترى أنَّه ﷺ لم ينهه عن المراهنة بل أثبتها وأمره بالمزايدة، وإنَّما أمره بالتصدُّق بها تتريها لمروءة الصِّدِّيق عنها، وتسميتها سحتا تشبيه لا حقيقة، وأسلم كثير من النَّاس لَمَّا صدق وعد رسول الله ﷺ ، وذلك من دلائله.

﴿لِلَّهِ﴾ لا لغيره ﴿الْأَمْرُ﴾ القضاء ﴿مِن قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ﴾ إذا قيل: من قبل الغلبة أي غلبة الفرس للرُّوم ومن بعدها لم يكن في الآية إلاَّ ذكر ذلك، فالأولى أنَّ المعنى: من قبل كون الرُّوم غالبين، وهذه الغلبة وقت كونهم مغلوبين، ومن بعد كونهم مغلوبين، وهذه البعدية وقت كونهم غالبين.

﴿وَيَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ يغلب الرُّوم الفرس، فـ«إذْ» هُنا للاستقبال. و«يَوْمَ» متعلق بما بعده، قُدِّم بطريق الاهتمام بوقت النصر، ويجوز عطفه على «قَبْلُ»، أو «بَعْدُ» فتتمُّ الأزمنة الثّلاثة: الماضي بقبلُ والمستقبل ببعد، والحاضر بيومئذ، فيستأنف على هذا قوله:

﴿يَفْرَحُ الْمُومِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ الرُّوم أهل كتاب مثلهم، على الفرس لا كتاب لهم كأهل مكَّة فيغتاظون. أو نصره تصديق المؤمنين في قولهم سيغلبون، أو إلقاء الفتنة بين الفرس حَتَّى أعان بعضهم الرُّوم كما مرَّ كذلك، يقال: والتَّحقيق أنَّ المراد نصر الله الرُّوم على فارس، والنصر متصوَّر بذلك على الإطلاق.

﴿يَنصُرُ مَنْ يَّشَآءُ﴾ نصره هؤلاء وغيرهم ﴿وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ (سورة آل عمران: ١٤٠) .

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ لا يعجزه عن النَّصر ولا يردُّ نصره شيء ﴿الرَّحِيمُ﴾ الرَّحمة الدُّنيَويَّة والكلام عليها، ويجوز العموم باعتبار أهل الأُخرَوِيَّة، وهو صفة مبالغة. وأمَّا العزيز فصفة مشبَّهة، لا صفة مبالغة، لكن فيها رسوخ وثبوت، كما هو شأن الصفة المشبَّهة.

﴿وَعْدَ اللَّهِ﴾ وعد الله ذلك وعدا، فحذف المفعول والعامل، وأضيف المصدر إلى الفاعل، ﴿لاَ يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ،﴾ أراد ما يشمل الوعيد وما يعمُّ

الدنيا والآخرة، وأظهر لفظ الجلالة للتَّأكيد والإيذان بأنَّ من هو إله لا يليق به إخلاف ما وعد، من خيرٍ أو شرٍّ فأيقنوا أن سيكون الرُّوم غالبين.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ومن يعلم الحقَّ قليل، فالأكثر لا يعلمون أنَّ الله لا يخلف الوعد، أو لا يعلمون ما سبق من شأنه في المؤمنين، والأنبياء مع الكفرة، أو لا يعلمون شيئًا من الحجج، أو ليسوا من أهل العلم، فلا يقدَّر له مفعول، أو كأنهم لا يعلمون شيئًا مَّا وذلك كلُّه لعدم استعمالهم عقولهم.

استثنى بقوله: ﴿يَعْلَمُونَ﴾ أي هؤلاء الأكثر ﴿ظَاهِرًا﴾ أمرًا حقيرًا ظاهرًا ﴿مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ من أمور الحياة الدنيا كالحرث والحصد والتصفية، والبناء والزخارف، والتوصُّل إلى أنواع الملاذ، وغير ذلك، ولو كان ممَّا يدرك باستعمال قوَّة العقل والجدِّ فيه بالفكر، وكلُّ ذلك ظاهر، ومقابله ما يعزب عن أمثاله من استعمال العقل في أمر الدِّين والآخرة، ومن حِذقهم -وهو من الظاهر- أن يضع أحدهم درهما على ظفره فيعلم كم يزن.

﴿وَهُمْ﴾ أي هؤلاء الأكثر ﴿عَنِ الاَخِرَةِ﴾ الحياة الآخرة نفسها، وما يصلح لها وما لايصلح لها، يَتَعلَّقُ بخبر خاصٍّ محذوف جوازًا، أي معرضون عن الآخرة ﴿هُمْ غَافِلُونَ﴾ مبتدأ وخبر، وأعاد «هُمْ» تأكيدًا في ذكرهم بالسوء، أو هم تأكيدًا للأول. و«عَنِ الاَخِرَةِ» متعلّق بـــ«غَافِلُونَ»، و«غَافِلُونَ» خبر الأوَّل.

ومن الغريب إجازة كون الضمير الثّاني بدلاً مع أنّه هو الأوَّل لفظًا ومعنًى دون أن يزاد فيه قيدٌ.

ذمَّهم الله ﷻ باشتغالهم بما يَضُرُّهم دنيا وأخرى، وبما لا نفع لهم فيه عن الآخرة التي هي الغاية في أن تقصد، وما خُلِقُوا إلاَّ لها.

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ۝٨ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُواْ ٱلْأَرْضَ وَعَمَرُوهَآ أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۝٩ ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾

الحثُّ على التفكُّر في المخلوقات الدالَّة على وجود الله ووحدانيَّته

﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُواْ﴾ أي أأهملوا عقولهم و لم يتفكّروا **﴿فِي أَنفُسِهِم﴾** وعلّق التفكُّر لأنَّه من معنى العلم بالنفي في قوله: **﴿مَّا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾** من أن يعبد فيهنَّ، ويثيب المطيع ويعاقب المسيء، ومن الاستدلال بها على وحدانيَّته وقدرته عزّ وجلّ.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً﴾ (سورة آل عمران: ١٩١) . والتفكّر لا يكون إلاَّ في النفس، فذكرها للتأكيد بتصوير التفكُّر فيها، كقولك: اعتقدتُّه في قلبي ورأيته بعيني.

ويجوز أن يفسّر الأنفس بأجسامهم، بمعنى أن يستدلُّوا بها، وبأحوالها على وحدانيَّته تعالى، لغرائب الحكم فيها، حتَّى تعلم أنَّها لم تخلق مهملة، بل للتعبُّد والجزاء في أجل كما قال: **﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾** يوم القيامة.

﴿وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ﴾ للحساب والجزاء بعد البعث **﴿لَكَافِرُونَ﴾** لإهمالهم التفكُّر في خلق السماوات والأرض وأنفسهم، فمن

قائلين: إن قامت الساعة لم نبعث فضلا عن الجزاء، ومن قائلين بدوام الدنيا، وهم الفلاسفة لعنهم الله عَزَّوَجَلَّ.

﴿**أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الاَرْضِ**﴾ أتهاونوا بالأمر، فلم يسيروا للاعتبار بعد هذه المواعظ والدلائل المزعجة. والاستفهام توبيخ، أو إبطال ﴿**فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ من الأمم المهلكة كعاد وثمود، يعني ساروا وشاهدوا و لم ينتفعوا.

﴿**كَانُواْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً**﴾ فهم أجمع للدنيا، وأقدر على التمتُّع بها ﴿**وَأَثَارُواْ الاَرْضَ**﴾ قلّبوها للحرث والغرس، واستخراج المعادن والمياه ﴿**وَعَمَرُوهَآ**﴾ بالنَّبات والبناء ﴿**أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا**﴾ ممَّا عمرها هؤلاء زمانا وكمًّا وكيفًا، أو العمارة: الإقامة فيها والسكنى، وما تقدَّم هو من لوازمها.

والتفضيل على بابه فلا تهكُّم إن أريد الإقامة، وعلى الأوَّل يمكن التهكُّم باستخراج المعادن فقط، بل ربَّما استخرج أهل مَكَّة معدنا ولو حجرا وترابا مخصوصا، فلا تهكُّم، بل يجوز التفضيل بما لم يكن للمفضَّل عليه، نحو: زيد أكثر منك مالا، لك بقر وله غنم وبقر، وكونهم بواد غير ذي زرع خائفين التخطُّف، فصار الإعمار لا يخرجهم عَمَّا تحقَّق منهم من بناء وحرث وغرس وانتفاع بماء مَّا.

﴿**وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ الآيات المتلوَّة والمعجزات، فكذَّبوهم، فأهلكهم الله لتكذيبهم لا ظلما، كما قال: ﴿فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ...﴾.

﴿**فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ**﴾ ليس أهلا للظلم، والإهلاكُ بلا جرمٍ ظلمٌ تعالى الله عنه، [قلت:] وله إهلاك من شاء بما شاء، من نار أو غيرها، ولا يكون ظلما، **وإنَّما الظلم أن يهلكهم إهلاك غضب وهجر.**

(أصول الدين) وإهلاك المطيع له إذا وافقه مع المغضوب عليهم واقع، وليس إهلاكه وإهلاكهم واحدًا إلاَّ صورة، ولا خلاف في ذلك، وإن هلك المطيع بهلاكهم لعدم أمره ونهيه فهو منهم لا من المسألة، وقال الأشعَرِيَّة: الإهلاك من غير جرم ليس ظلما، لأنَّ الله تعالى مالك يفعل في ملكه ما يشاء، فإن أرادوا غير ما ذكرت أخطأوا، لأنَّ ذلك غير حكمة، فلا يفعل في حكمه ما ليس بحكمة، فلو أدخل المطيع النار والعاصي الجنَّة لم يكن ذلك حكمة.

﴿وَلَكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ لا الرسل، فالتقديم للحصر والفاصلة ﴿يَظْلِمُونَ﴾ بفعل ما يوجب العذاب.

﴿ثُمَّ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ أَسَٰٓءُواْ﴾ في العمل، أي الذين من قبلهم، عبَّر عنهم بالموصول ليذكرهم بالإساءة، وبأنَّ الجزاء من جنس العمل كما قال: ﴿السُّوأَىٰٓ﴾ أي العقوبة السوأى، كالحسنى والفضلى.

(نحو) وهو اسم تفضيل مؤنَّث، ولا تكون بعده «مِن» التفضيلية، إنَّما تكون بعد مذكَّره كالأسوء والأفضل والأحسن. وهو خبر «كَانَ». و«ثُمَّ» للتراخي في الزمان على أصلها، أو في الرتبة، ومن أجاز استعمال اللفظ في حقيقته ومجازه أو باعتبار عموم المجاز أجاز شمولها لهما.

﴿أَن كَذَّبُواْ بِئَايَاتِ اللهِ﴾ أي لأن كذَّبوا، أو بأن كذَّبوا، وهذا التكذيب هو قوله: ﴿أَسَٰٓءُواْ﴾ بيَّنه به، فيجوز أن تكون «أَنْ» تفسيريَّة. ﴿وَكَانُواْ﴾ ولأن كانوا، أو بأن كانوا ﴿بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ﴾ عبَّر بالمضارع للاستمرار ولتصيير الماضي كالحاضر المشاهد.

(نحو) ويجوز أن يكون «السُّوأَى» مفعولا مطلقا اسم مصدر لـ«أساء»، أي أساءوا الإساءة، أو وصفا مفعولا به لـ«أَسَاءُوا» بمعنى اقترفوا،

أي اقترفوا الخطيئة السوأى، ولا بعد في جعله مفعولا مطلقا على معنى أساءوا الإساءة السوأى، أي الزائدة في القبح، وفي هذه الأوجه لا خبر لـ«كَانَ»، أو يكون خبرها «أَن كَذَّبوا»، أي كان عاقبتهم استمرارهم في التكذيب.

﴿ٱللَّهُ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿١١﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُبْلِسُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿١٢﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُم مِّن شُرَكَآئِهِمْ شُفَعَٰٓؤُا۟ وَكَانُوا۟ بِشُرَكَآئِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿١٣﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَهُمْ فِى رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآئِ ٱلْءَاخِرَةِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾

إثبات البعث والحشر وحالة الخلق يومئذ

﴿اللّهُ يَبْدَؤُا۟ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ بالبعث **﴿ثُمَّ إِلَيْهِ﴾** لا إلى غيره **﴿تُرْجَعُونَ﴾** للجزاء، والخطاب بعد الغيبة لتأكيد الوعيد، والتشديد بالمواجهة.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ بالبعث **﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾** يسكتون لانقطاع حجَّتهم وإيَّاسهم، وهم الذين أساءوا السوأى، وقيل: الإبلاس الحزن المعترض من شدَّة الإيَّاس، ومن شأنه السكوت.

﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُم﴾ يوم تقوم الساعة **﴿مِّن شُرَكَآئِهِمْ﴾** أوثانهم ورؤسائهم والملائكة والشياطين ونحوهم ممَّن أشركوه بالله في العبادة، أو الذين أشركوهم في أموالهم عبادة لهم **﴿شُفَعَآءُ﴾** من العذاب، كما طمعوا أن يشفعوا لهم منه.

﴿وَكَانُوا۟﴾ يوم تقوم الساعة **﴿بِشُرَكَآئِهِمْ كَافِرِينَ﴾** حين أيسوا من شفاعتهم لعجزهم عنها، وانقلاب ما رجوه بغضا لهم لكفرهم بالله عزَّ وجلَّ، والمضي في «لَمْ يَكُنْ» بلم وفي «كَانُوا» لتحقُّق الوقوع، والجملتان معطوفتان على ﴿يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ﴾. و﴿يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ ينسحب عليهما.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ متعلّق بـ«يَتَفَرَّقُ»، وأعيد لاستحضار تفظيع أمره في القلوب ﴿يَوْمَئِذٍ﴾ توكيدٌ -لأنَّ التقدير: يوم إذ تقوم الساعة- لا بدلٌ، إذ لو قلت: قام زيد زيد، لم يكن زيد الثاني بدلا من الأوَّل، وإن قدَّرت: يوم إذ يبلس المجرمون، كان بدل الشيء من الشيء، لأنَّ يوم القيامة هو نفس «يَوْمَئِذٍ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ»، لا بدل اشتمال، ولو قلت: قام زيد زيد ابن أخيك كان بدل الشيء من الشيء، ولو لم يكن في أحدهما ما لم يكن في الآخر لأنَّه نفسه.

﴿يَتَفَرَّقُونَ﴾ بعد تمام الحساب، أي الخلق المذكورون في قوله: ﴿اللَّهُ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ كما يدلُّ له التفصيل بقوله: ﴿فَأَمَّا الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ وقوله: ﴿وَأَمَّا الذِينَ كَفَرُواْ﴾ ولو أعيد الضمير إلى الشركاء وعابديها كان مناسبا لما قبله ولما بعده فإنَّ التفصيل لا ينافيه بل يناسبه ويتضمَّنه، ولا يضرُّ كون الطرف الأوَّل من التفصيل لا يناسبهم، ولا سيما أنَّ الإيمان يناسب الإشراك بالتضادِّ، وفي معنى التفسير الأوَّل عود الضمير إلى المسلمين والمجرمين كما هو قول، وقيل: الضمير للمجرمين.

﴿فَأَمَّا الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ﴾ يثبتون فيها في المستقبل، أو ثبتوا فيها بصورة الماضي للتحقُّق.

(لغة) والروضة: أرض مع ماء وشجر أو غيره من النبات، أو الكلُّ، وقيل: الخضرة، وقيل: البستان الحسن، وتقييده بالأنهار، أو النبات والشجر عرفيٌّ لا لغويٌّ، وفي المثل «أحسن من بيضة في روضة» وأراضَ الوادي واستراض: كثر ماؤه، وأراضهم: أرواهم بعض الري. والمراد في الآية الجنَّة.

﴿يُحْبَرُونَ﴾ تُزَيَّنُ وجوههم بالأفراح والإكرام والإنعام، والتيجان على الرؤوس، والحليِّ، وسماع الغناء، وفسَّره بعض باللذَّة وسماع الأغاني، وهو تمثيل لا تخصيص.

﴿**وَأَمَّا الذينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بئَايَاتنَا**﴾ ما يتلى، ومنه هذه الآيات وما يتلى من سائر المعجزات ﴿**وَلقَآءِ الاَخرَةِ**﴾ بالبعث خصَّه بالذكر مع اندراجه في التكذيب بالآيات على طريق الاهتمام ﴿**فَأُوْلَئكَ**﴾ البعداء في دركات الشر ﴿**في الْعَذَاب مُحْضَرُونَ**﴾ في الاستقبال أو في الحال، أو المضيِّ للتحقُّق، والمؤمنون في أعلى علِّـيِّين والكافرون في أسفل سافلين على الدوام لا يغيبون.

﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ ﴿١٨﴾ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَيُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ۚ وَكَذَٰلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾﴾

تنزيه الله تعالى وحمده في جميع الأحوال

﴿**فَسُبْحَانَ الله**﴾ سبِّحوا الله تسبيحا لتنجوا من العذاب وتنالوا الروضة، فجعل مكان تسبيحا سبحان، وأضيف للفظ الجلالة وحذف سبِّحوا. وقدَّم التسبيح على الحمد لأنَّ التخلية قبل التحلية، مع أنَّ تتريه الله عن الشركة وصفات الخلق أوَّل ما يدعى إليه الكافر.

(فضل التسبيح) وعنه ﷺ وعلى آله: «**من قال: سبحان الله وبحمده مائة مرَّة حطَّت خطاياه ولو كانت مثل زبد البحر**»[1]. «**ومن قال حين يصبح وحين يمسي: سبحان الله وبحمده مائة مرَّة لم يأت أحد يوم القيامة**

١- رواه **البخاري** في كتاب الدعوات (٦٥) باب فضل التسبيح، رقم ٦٤٠٥. **ومسلم** في كتاب الدعاء (١٠) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم ٢٨، في حديث طويل أوَّله: «من قال لا إله إلاَّ الله وحده...»، من حديث أبي هريرة.

بأفضل ممَّا جاء به، إلاَّ من زاد عليه»[١]. وقال ﷺ : «**كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم**»[٢]. وعنه ﷺ وعلى آله: «**أيعجز أحدكم أن يكتسب كلَّ يوم ألف حسنة؟**» فقيل: كيف ذلك؟ فقال ﷺ : «**يسبِّح الله مائة تسبيحة، فيكتب له ألف حسنة، ويحطُّ عنه ألف سيِّئة**»[٣]، ويروى «**أربعون ألفا**». وروي أنَّه قعدت جويرية زوجه ﷺ في مسجدها من صلاة الفجر إلى أن تعالى النهار، فقال: «**قلت بعدك، سبحان الله عدد خلقه ورضا نفسه وزنة عرشه، ومداد كلماته ثلاث مرَّات، وذلك يزن كلماتك**».

(بلاغة) والفاء لعطف الإنشاء على الإخبار، والفعليَّة على الاسميَّة، أو في جواب شرط: إذا عرفتم ذلك فسبِّحوا الله تسبيحا، ومتأخِّرا عن المعرفة متَّصلا بها، والإنشاء هنا أمر لا كبعت وأعتقت، والتمنِّي والترجِّي والاستفهام، والخطاب لِلْكُفَّارِ. والتسبيح: التنزيه بالقلب واللسان والعمل مطلقا في الأوقات كُلِّهَا في الصلاة وفي غيرها، وقيل: المراد الصلاة.

﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾ تدخلون في المساء، أي الغروب **﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾** تدخلون في الصباح وقت الفجر **﴿وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾** الثناء الحسن فيهنَّ على سبيل الوجوب والمقام له.

١-رواه **مسلم** في كتاب الدعاء (١٠) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم ٢٩، من حديث أبي هريرة.

٢-رواه **البخاري** في كتاب الدعوات (٦٥) باب فضل التسبيح، رقم ٦٤٠٦. **ومسلم** في كتاب الدعاء (١٠) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم ٣١. من حديث أبي هريرة.

٣-رواه **مسلم** في كتاب الدعاء (١٠) باب فضل التهليل والتسبيح والدعاء، رقم٣٧. من حديث مصعب بن سعد عن أبيه.

(نحو) والجملة في معنى الأمر، كالأمر في «سُبْحَانَ اللهِ»، وهي معطوفة على الجملة التي في «سُبْحَانَ اللهِ»، أو خبريَّة حال من لفظ الجلالة. و«في» يتعلّق بالحمد، أو بـ«لَهُ»، أو متعلّقه.

﴿وَعَشِيًّا﴾ عطف على «حِينَ» وهو وقت العصر ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ وقت الظهر.

وشهر أنَّ المراد بالتسبيح الصلاة، قال ابن عبَّاس: ﴿حِينَ تُمْسُونَ﴾: صلاة المغرب، ﴿وَحِينَ تُصْبِحُونَ﴾: صلاة الصبح، ﴿وَعَشِيًّا﴾: صلاة العصر، ﴿وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾: صلاة الظهر، والخامسة في قوله تعالى: ﴿وَمِنۢ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَآءِ﴾ (سورة النور: ٩٨) . والآية كالسورة مَكِّيــَّة، لأنَّ الخمس فرضت ليلة الإسراء، وهو في مكّة، وقبلهنَّ كان يصلّي ركعتين في اليوم متى شاء، وقيل: ولو في الليل، وهو أصحُّ، ونسختا بالخمس. والتنزيه المأمور به في كلِّ وقت كما علمت يكون بالجنان، وهو الأصل، وباللسان وهو ثمرة ما في الجنان، وبالأركان وهو الأعمال، وهي للسان برهان.

وزعم بعض أنَّ «عَشِيًّا» معطوف على محذوف متعلّق بـ«لَهُ»، أو بـ«الْحَمْدُ»، أي: وله الحمد كلَّ وقت وعشيا...الخ، عطف خاصٍّ على عامٍّ، وهو خلاف الظاهر.

وخصَّ الأوقات المذكورة بالذكر لظهور أثر القدرة والرحمة فيهنَّ.

(بلاغة) وقدَّم المساء لسبق الليل والظلمة، والعشيَّ على الإظهار لأنَّه بالنسبة إلى الإظهار كالإمساء بالنسبة إلى الإصباح، أو قوبل بالعشيِّ الإمساء وبالإظهار الإصباح لأنَّ كلاًّ يعقب بما قبله، فالعشيُّ يعقبه الإمساء، والإصباح يعقبه الإظهار، وأيضا قدَّم «عَشِيًّا» على الإظهار للفاصلة، لأنَّه لا يقال: تعشون.

(بلاغة) وأخَّر الإمساء في ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ (سورة الأحزاب: ٤٢) ، وقدِّم هنا لأنَّ أوَّل الكلام هنا على الحشر وكذا آخره، والإمساء آخر فذكر الآخر أوَّلا لتذكُّر الآخرة، وأيضا وقع ترتيب الآية على ما يظهر من التغيير كما في المساء والصباح، وأمَّا الظهر فمتغيِّر للتجرُّد من الثياب للقيلولة.

(فضل التسبيح) والتسبيح أفضل من الحمد فقدِّم، وفي الآية قال رسول الله ﷺ من طريق الطبراني عن معاذ بن أنس: «**ألا أخبركم لمَ سمَّى الله إبراهيم خليله الذي وفَّى؟ إنَّه يقول كلَّما أصبح وأمسى: سُبْحَانَ اللَّه حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ وَعَشِيـًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ**»[١].

ومن طريقه عن ابن عبَّاس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ : «**من قال حين يصبح: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ... تُخْرَجُونَ﴾، أدرك ما فاته في يومه، ومن قاله حين يمسي أدرك ما فاته في ليلته**»[٢]. ويروى: «من قال: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ... تُخْرَجُونَ﴾ بعد صلاته أو آخرها قبل التسليم، قُبلت وجَبَرَت خللا فيها ممَّا ليس ناقضا لها».

وفي الأثر: «من قرأ: ﴿فَسُبْحَانَ اللهِ حِينَ تُمْسُونَ...﴾ إلى الثلاث وآخر سورة الصافَّات دبر كلِّ صلاة كتب له من الحسنات عدد نجوم السماء وقطر الأمطار والنبات والتراب وبعد موته يجرى عليه بكلِّ حرف عشر حسنات»[٣].

١- رواه **أحمد** في مسند المكيين، رقم ١٥١٩٧، من حديث معاذ بن أنس.

٢- أورده **المنذري** في الترغيب، ج١، ص٤٤٨، باب الترغيب في آيات وأذكار يقولها إذا أصبح وإذا أمسى، رقم ٣، من حديث ابن عبَّاس.

٣- لمزيد من الأذكار وفضل التسبيح راجع المنذري في الترغيب والترهيب، ج١، ص٤٤٧ وما =

﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ﴾ الإنسان والحيوان والطائر ﴿مِنَ الْمَيِّتِ﴾ النطفة والبيضة ﴿وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ﴾ النطفة ﴿مِنَ الْحَيِّ﴾ الإنسان والحيوان، أو يخرج الحيَّ من إنسان مات قبله أو يموت، ويخرج من مات من حيٍّ، بمعنى تعاقب الحياة والموت، أو يخرج المؤمن من الكافر والكافر من المؤمن ﴿وَيُحْيِ الأَرْضَ﴾ بإخراج النبات بالماء ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ يبسها وخلوِّها من النبات ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ كما ذكر من الإخراجين ﴿تُخْرَجُونَ﴾ من قبوركم أحياء، للثواب والعقاب، فآمنوا بالبعث فإنَّ من قدر على الإخراجين يقدر على إحيائكم بعد موتكم.

﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ ۝٢٠ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٢١ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ۝٢٢ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبْتِغَآؤُكُم مِّن فَضْلِهِۦٓ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ۝٢٣ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَيُحْىِۦ بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٢٤ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ وَٱلْأَرْضُ بِأَمْرِهِۦ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ ٱلْأَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ ۝٢٥ وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ۝٢٦ وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُاْ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝٢٧﴾

=

بعدها. والنووي في كتابه الأذكار.

بعض أدلّة الوحدانيّة والقدرة والحشر

﴿وَمِنَ ـــ ايَاته﴾ دلائل وحدته وقدرته على البعث ﴿أَن خَلَقَكُم مِّن تُرَاب﴾ بخلق أبيكم منه، أو بخلقكم من مواد ترابية، لأنّ النطفة من طَعام والطّعام من الأرض، ولو لحما لأنّه من نباقما، أو يقدّر مضاف، أي: خلق أباكم، أو خلقكم من مواد تراب. ولا يقدح كون الماء غير تراب فكأنّه تراب لأنـــّهُ مخزون فيه، بل قيل: التُّراب مخلوق من الماء، ولا رائحة حياة ولا صفة من صفاتكم للتراب والماء، فكيف لا تبعثون بعد أن كنتم أحياء لبادي رأيكم؟ وكلّ ذلك سواء في قدرته تعالى.

﴿ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ﴾ عطف على ﴿وَمِنَ ـــ ايَاته أَنْ خَلَقَكُم﴾، و«أَنْ» مَصدَرِيَّة، أي: ومن آياته خَلْقُكم، أو [عطف] علَى خلقكم لأنّ انتشارهم من آياته، و«ثُمَّ» للتَّراخي الزماني، وهو الأصل، فالجمع بين الجملتين جمع بين متناسبين، كالجمع بين السمك والضفدع، كأنَّه قيل: تمضي مدّة فيفاجئكم انتشار، أي تَصرُّفٌ في الأرض بالمشي فيها لمصالحكم كالسَّفر، ويجوز أن تكون «ثمّ» للتَّراخي الرُّتبي، وهو ضعيف، لأنّ خلقهم من تراب أعلى رتبة من انتشارهم.

﴿وَمِنَ ـــ ايَاته أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنَ انفُسِكُمْ﴾ أَيـــُّهَا الرِّجال، أي من أجسادكم ﴿أَزْوَاجًا﴾ إناثا تتزوَّجونَهُنَّ بخلق حوَّاء لآدم من جسده، أو ﴿مِنَ انفُسِكُمْ﴾: **من جنسكم**، ويناسب كلاًّ من الوجهين قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِّـــتَسْكُنُواْ﴾ لتميلوا بقلوبكم وتتبعها الجوارح ﴿إِلَيْهَا﴾ إلى أزواجكم، لأنّ من خلق منك بخلقه من أبيك أنسب بأن تسكن إليه، ومن خلق من جنسكم أنسب بالميل إليه بخلاف ما لو كانت الأزواج من جنس البقر مثلا، والأوَّل أولى بالمساكنة ورجَّح بعضهم الثّاني.

﴿وَجَعَلَ بَيْنَكُم﴾ أيـــُّهَا الرِّجال وأزواجكم، والخطاب للكلِّ، وقيل: للرجال وحذف النِّساء، أي بينكم وبين الأزواج **﴿مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾** بالتَّزاوج ولو تباعد النَّسب، ولو لم تلتق معها إلاَّ في نوح، وقيل: بينكم أيـــُّهَا النَّاس بين رجل وآخر، وبين امرأة وأخرى، وبين امرأة ورجل لقرابة أو إحسان أو شفقة، أو ما شاء الله تعالى.

والمودَّة: الحبُّ والرحمة، ويقال: المودَّة والرحمة من الله، والفرك من الشيطان، أي البغض بين الزوجين. ويضعف أنَّ المودَّة كناية عن النكاح والرحمة كناية عن الولد، وكون المودَّة بمعنى المحبَّة كناية عن النكاح ظاهر للزومها له، وأمَّا كون الرحمة بمعنى الولد للزومها له فبعيد، وكأنَّ قائله راعى ورود الرحمة في القرآن لشان الولد، [قلت:] ويبعد أنَّ المودَّة للشابَّة والرحمة للعجوز، وأنَّ المودَّة للكبير من الناس والرحمة للصغير منهم، وأنَّهما اشتباك الرحم.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور البعيد رتبة من خلقكم من تراب، وخلق أزواجكم من أنفسكم، وإلقاء المودَّة والرحمة **﴿لَأيَاتٍ﴾** عظيمة **﴿لِّقَوْمٍ يَتفَكَّرُونَ﴾** في كلِّ واحدة، وفي الواحدة كفاية، [قلت:] وممَّا يؤدِّي إليه التفكُّر أنَّ خلق الأزواج والمودَّة والرحمة ليس لمجرَّد قضاء الشهوة كالبهيمة، بل لتولُّد من يعرف الله ويوحِّده ويعبده.

﴿وَمِنَ ـــ ايَاتِه خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ من الماء **﴿وَاخْتِلاَفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾** بحيث لا يوجد صوت أحد مساويا لصوت الآخر مع كثرة الناس، ولو اتَّفقت الصور أو الأصوات لتعطَّلت مصالح، ولو تكلَّمت جماعة من وراء الستر لميَّزت كلَّ واحد بصوته.

وهذا لأنَّه أعمُّ ومشاهد لكلِّ أحد أولى من تفسير الألسنة باللغات، كالعربيَّة والبربريَّة والفارسيَّة، وقد لا يعرف الإنسان أنَّ لغة غير لغته

موجودة، وأيضا اللغات بالتعلُّم، واختلاف الأصوات بالنغم أكثر، وبالطبع لا بالتعلُّم.

وعن وهب: اللغات اثنتان وسبعون في ولد حام سبع عشرة، وفي ولد سام تسع عشرة، وفي ولد يافث ست وثلاثون. ولو لم يعلِّم مولود لغة لنطق بما شاء الله، ونرى الأبكم يعالج النطق ونسمع عنه الصوت ولا نفهم منه إلاَّ بالإشارة.

﴿وَأَلْوَانِكُمْ﴾ بياض وحمرة وسواد ونحو ذلك، أو الألوان بمعنى الأنواع وهو مجاز، وخلاف الظاهر، وهو أعمُّ، فنوع أبيض ونوع أسود، ونوع أحمر ونوع طويل، ونوع قصير ونوع متوسِّط، ونحو ذلك من الاختلاف حتَّى لا تجد اثنين بلا تمايز مع كثرة الناس، ولو توأمين من بطن واحد.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من خلق السماوات والأرض، واختلاف الألسنة والألوان **﴿لَأَيَاتٍ﴾** عظيمة كثيرة **﴿لِّلْعَالَمِينَ﴾** لا تخفى على أحد منهم إلاَّ من أهمل عقله.

﴿وَمِنَ ـــ ايَاتِهِ مَنَامُكُم﴾ مصدر ميميٌّ، أي نومكم **﴿بِاللَّيْلِ﴾** وهو الأكثر **﴿وَالنَّهَارِ﴾** كنوم القائلة ونوم المريض ونوم الاستراحة، والنوم مطلقا يريح القوى النفسيَّة والطبعيَّة.

﴿وَابْتِغَآؤُكُم﴾ في الليل والنهار، طلبكم للمال والطعام والشراب، وسائر مصالحكم، كما ترى من رغب في شيء يستعمل نفسه فيه ليلا، ولا سيما إن طال الليل ولم يف نهاره بأشغاله، كالخياطة ليلا والكتابة وحراسة الأموال والأبواب، وقطع البراري في الأسفار، قال رسول الله ﷺ : «**إنَّ الأرض تطوى**

في الليل ما لا تطوى في النهار»[1].

وأصل الآية: «ومن آياته منامكم بالليل والنَّهار وابتغاؤكم فيهما»، فحذف «فيها» للدَّليل، و«باللَّيْلِ والنَّهَارِ» مُتَعَلِّقان بــ«مَنَام»، ويجوز عود النَّوم للَّيل فقط، والابتغاء للنَّهار فقط، فأصل الآية: «ومن آياته منامكم بالَّليل، وابتغاؤكم من فضله بالنَّهار»، أو «من آياته منامكم وابتغاؤكم بالليل والنَّهار» بعود الليل إلى المنام والنَّهار إلى الابتغاء.

(بلاغة) وقدَّم الليل والنَّهار معا على طريق الاعتناء بشأهما، لأنَّهما الآيتان لا النَّوم والابتغاء، وليجاور كلٌّ منهما ما وقع فيه، فــ«باللَّيْلِ وَالنَّهَارِ» متعلِّق بمحذوف حال من الضمير المستتر في «منَ ـــ ايَاته».

﴿مِّن فَضْلِه﴾ يتعلَّق بابتغاء، لينبِّه على أنَّ الرِّزق بفضله تعالى لا من حذق المبتغي، ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ لقوم شأهم السَّماع للتَّفهُّم. وفي لفظ «يَسْمَعُ» تلويح إلى أَنَّ مُجَرَّد السَّمع يكفى من له فهم بلا مشاهدة، ولا سيما مع المشاهدة وإلى أنَّه لا بدَّ من إلقاء السمع والتنبُّه للوعظ.

[قلت:] وتلوِّح إلى أن لا يكون الإنسان في الليل كالميِّت، وفي النَّهار كالبهيمة لا يدري فيما هو؟ ومَرُّ الليل وكَرُّ النَّهار يناديان بلسان الحال: الرَّحيل الرَّحيل من دار الغرور إلى دار القرار، كما قال ﷻ : ﴿وَهُوَ الذي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنَ اَرَادَ أنْ يَّذَّكَّرَ أَوَ اَرَادَ شُكُورًا﴾ (سورة الفرقان: ٦٢) .

﴿وَمِنَ ـــ ايَاته﴾ في الدَّلالة على القدرة. «مِنْ» للابتداء متعلِّقٌ بقوله: ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾ [قلت:] ظهر لي زيادة على الأوجه المشهورة فيه، ثم رأيته

١- رواه **أبو داود** في كتاب الجهاد، باب في الدلجة، رقم ٢٥٧١، من حديث أنس بدون لفظ: «ما لا تطوى في النهار».

وجها لبحر العلم أبي حيَّان في بحره إلاّ أنّ فيه مخالفة لنُظرائه مثل قوله ﷻ: ﴿وَمِنَ ـ ايَاته أَن تَقُومَ السَّمَآءُ والاَرْضُ﴾، ﴿وَمِنَ ـ ايَاته أَنْ يُّرْسِلَ الرِّيَـاحَ﴾ ولا بأس بمخالفة نظرائه للتَّفنُّن، وعلى المناظرة يجعل مرفوعا لفظًا منصوبًا بتقدير «أن»، أي: ومن آياته أن يريكم، فهو في تأويل مصدر مبتدأ خبره «مِنَ ـ ايَاته» و«مِنْ» التبعيض، ولكن تقدير «أن» يصرف الفعل للاستقبال وليس مرادًا بل للحال والاستمرار، اللَّهم إلاّ أن يراد: أن يريكم بعدما أراكم قبلُ وفي الحال.

(نحو) ويجوز أن يكون «يُرِيكُم» مبتدأ بلا تأويل مصدر، منزّلا منزلة الاسم، مستعملا في جزء معناه، وهو الحدث مقطوعا فيه عن الزمان، فهو اسم في صورة الفعل، ومعناه: الإراءة لا الرؤية، ويجوز أن يكون نعتًا لمبتدأ محذوف مع حذف الرابط، أي ومن آياته آية يريكم البرق فيها، أو بها وأن يكون من آياته حال من البرق، أو خبر لمحذوف أي ومن آياته البرق، أو ما يتلى عليكم، ثمّ استأنف ﴿يُرِيكُمُ الْبَرْقَ﴾.

(نحو) ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ مفعول من أجله باعتبار ما تضمَّنه ﴿يُرِيكُم﴾ لأنَّ المعنى: يصيِّركم رائين خوفا وطمعا، فقد اتَّحد الفاعل، لأنَّهم رَاؤُون خائفون طامعون، لكن يضعف معنى قولك: يصيِّركم رائين لأجل أن تروه خوفا وطمعًا ولو رؤية قَصد وتَوجُّه؛ أو مفعول من أجله للإراءة على أنَّهما اسما مصدرين، أي إخافة وإطماعًا، أو مصدرَانِ حال من الكاف لمبالغة؛ أو تأويل بذوي خوف وطمع، أو بخائفين وطامعين؛ أو اسما مصدر لتأويل ذوي إخافة وإطماع؛ أو مخيفين ومطمعين.

﴿وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَيُحْيِي بِهِ الاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ حكم الفعلين حكم «يُرِيكُم» لعطفهما عليه، شبَّه إنباتَ الأرض بإحياء الْمَيِّت، لجامع الإيجاد، وإعدامه بإماتة الحيِّ بجامع الإفناء.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم فيدركون أنّ إحياء الموتى المعقول وإنبات الأرض المحسوس معنى واحد، فهو تعالى قادر على البعث قدرته على الإنبات.

﴿وَمِنَ ـــ ايَاتِهِ أَن تَقُومَ السَّمَآءُ وَالاَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾ بأن يوحي إليهما بخلق العقل فيهما، أو بالملك أو ما شاء، أو أَمْرُه: إرادتُه أَو قضاؤُهُ، عَبَّر عن أحدهما بالأمر للدلالة على أنّه لا يحتاج إلى آلة.

ولا يخفى أنّ المضارع مستقبل، لأنّه منصوب مع أنّ قيامهما موجود لا مستقبل، فتأول الفعل بالبقاء بعدُ، أو بالدَّوام بمعنى أن يدوم قيامهما وهو بقاؤهما ووجودهما إلى ما شاء الله، أو كونهما بلا عمدة من فوق للسماء ولا من تحت للأرض، أو بلا عمد لهما من تحت ولا من فوق، كقوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ (سورة لقمان: ١٠) ، أو بقاؤهما: وقوفهما بلا نزول. وقيل: الاستقبال باعتبار أواخر البقاء.

﴿ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِّنَ الاَرْضِ إِذَآ أَنتُمْ تَخْرُجُونَ﴾ عطف على قوله: ﴿وَمِنَ ـــ ايَاتِهِ أَن تَقُومَ...﴾ فليست هذه الجملة من الآيات لأنّهَا لم توجد الآن بل إخبار بالبعث، وقيل: عطفت على «أَن تَقُومَ» على تأويلها بالمفرد، بمعنى: ومن آياته قيام السَّماوات والأرض بأمره، ثمّ خروجكم بسرعة من قبوركم إذا دعاكم، فيكون خروجهم متعقّبا للآية لا منها أو بفرض أنّه منها، ولو لم يوجد الآن ولم يقرُّوا به، لأنّه في نفسه متحقّق ظاهر ولو أنكروه. و«مِنْ» للابتداء، لأنّ معنى ﴿دَعَاكُمْ﴾: استخرجكم، تقول: دعوته من أسفل الوادي، أي استجلبته منه.

ومعنى دعاء الله لهم: قضاؤه أو خلقه لهم صوتا يسمعونه، أو قول ملك، أو بمعنى «في»، فتعلّق بمحذوف حال من الكاف، والموتى يدعون حقيقة للخروج

من القبور.

(بلاغة) أو شبَّه ترتُّب حصول الخروج على تعلُّق إرادته دون احتياج إلى عمل بترتُّب إجابة الداعي المطاع على دعائه، على الاستعارة التمثيليَّة؛ أو شبَّه الموتى بقوم يراد جمعهم إلى موضع على الاستعارة بالكناية، ورمز لذلك بالدعاء.

وذلك كلُّه غير نفخ إسرافيل، وإنَّما ينفخ في الصور قبله أو بعده، أو شبَّه قصد جمعهم بالدعاء على الاستعارة الأصلية واشتقَّ منه «دعا» على التبعيَّة. وثمَّ للترتيب الزماني أو الرتبي، فإنَّ إحياء الموتى أعظم من قيام السماوات والأرض، ولو كان أهون من البدء لبادئ الرأي، ولا سيما أنَّهما سواء في نفس الأمر، لا كما قال ابن المنير: إنَّ قيامهما أعلى من إحياء الموتى، ولا يصحُّ ما أجيب به من أنَّ كون المعطوف أعلى في الرتبة أغلبي لا لازم، إذ لا وجه لعكسه لأنَّه لا وجه لكون العطف رتبيًّا في العكس، بل يرجع إلى عطف قصَّة على أخرى دون تراخ رتبي، ويجوز حملها على مطلق البعد أو مطلقه والزماني بطريق عموم المجاز.

﴿وَلَهُ﴾ وحده **﴿مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾** من الملائكة والجنِّ والإنس خلقا وملكا وتصرُّفا.

[قلت:] ولا يجوز لمفسِّر الدخول على ألفاظ القرآن بما يغيِّر المعنى، أو الإعراب ولو محلاًّ بل يذكر اللفظ كما هو ثمَّ يفسِّره، فلو دخل بيَّن له.

﴿كُلٌّ لَّهُ﴾ وحده **﴿قَانِتُونَ﴾** مذعنون لما يتصرَّف به فيهم، لا يخرجون عمَّا يريده فيهم، أو أجسامهم منقادة لوحدانيَّة الله، ولو كان الكفر في القلب أو اللسان أو فيهما أو في الجوارح.

وفي كـــلِّ معبود سواك دلائل من الصنع تنبي أنَّه لك عابـــــــد

وهل في التي طاعوا لها وتـــعبَّدوا لأمرك عاص أو لحقك جاحد

وإن أريد بالقنوت الإخلاص فالمراد الملائكة ومن أخلص من الثقلين.

﴿وَهُوَ الذِي يَبْدَؤُاْ الْخَلْقَ﴾ بالإنشاء للعبادة ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُ،﴾ بالبعث للجزاء أعاده للتأكيد.

(صرف) ﴿وَهُوَ﴾ أي إعاده، أي إعادته، حذف التاء للإضافة، كما هو القاعدة الجائزة في مصدر «أفعل» المعل العين، كقوله: ﴿وَإِقَامِ الصَّلاَةِ﴾ بعده، ﴿وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾، ولو لم يشهر الإعاد بمعنى الإعادة، أو ذكره لتذكير الخبر قبل، أو تأويل الإعادة بالبعث، أو باعتبار «أن» والفعل فإنّ الخبر لهما لا يؤنَّث ولو أوِّلا بمصدر مؤنَّث، نحو أن تقيم حسن، لا تقول حسنة، ولو كان مصدر تقيم الإقامة، وأعجبني أن يستعاذ بالله، لا يجوز أعجبتني، ولو كان المقدَّر الاستعاذة.

﴿أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ أي على الله، و«أَهْوَنُ» اسم تفضيل بمعنى أسهل، خارج عن التفضيل، بمعنى الصفة المشبَّهة، أي هيِّن؛ أو باق على التفضيل باعتبار بادي الرأي للجاهل، فإنّ البعث أسهل من البدء في بادي الرأي والعقل، ولا سيما عقل المشرك لا في الحقيقة، فإنَّهما عند الله سواء، فمن ظنَّ أنَّ الإعادة أسهل من البدء أشرك، لأنَّه نسب إلى الله العجز، فإنّ ثقل الفعل عجز من الفاعل ولو فعله.

أو هاء «عَلَيْه» للخلق، بمعنى أنّ الإنسان مثلا يسهل عليه فعل الشيء بعدما فعله أوَّلاً إذا اعتاده وتعلَّمه، أو «عَلَيْه» بمعنى على اعتقاده، يعتقد أنّ بدء الخلق أصعب على الله، حاشاه، أو سهل له، وإعادته أسهل، أو سهل مع صعوبة البدء.

﴿وَلَهُ﴾ وحده تعالى ﴿الْمَثَلُ﴾ الوصف العجيب من القدرة والحكمة وسائر صفات الكمال ﴿الاَعْلَىٰ﴾ لا يدانى ولا يساوى.

(أصول الدين) ولو كان يدانى أو يساوى لكان نقصا، وتنزّه عن أن يكون شيء أسهل عنده من شيء، بل كلٌّ سهل عنده على حدٍّ سواء.

وقيل: ﴿الْمَثَلُ الاَعْلَىٰ﴾: ما ذكره من أنّ الإعادة أهون، وقيل: لا إله إلاّ الله، بمعنى الوصف بالوَحْدَانيَّة، ﴿فِي السَّمَاوَات وَالارْضِ﴾ متعلّق بـ«لَهُ»، أو بمتعلّقه، وعلّقه بعض بـ«الاَعْلَى»، أو بمحذوف حال من المستتر فيه، أو حال من «الاَعْلَى». ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القادر الذي لا يعجزه شيء من البدء والإعادة ﴿الْحَكِيمُ﴾ الجاري أفعاله على الحكمة.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنَ انفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتَ ايْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَالِكَ نُفَصِّلُ الاٰيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنَ اَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَالِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

إثبات الوحدانيّة من واقع البشر والأمر باتباع الإسلام لأنه دين الفطرة

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً﴾ في بطلان الشرك ﴿مِنَ انْفُسِكُمْ﴾ منتزعا من أنفسكم التي هي أقرب الأمور إليكم وأظهرها في الدلالة. و«مِنْ» للابتداء وفسّر المثل بقوله:

﴿هَل لَّكُم﴾ استفهام إنكار بمعنى النفي. و«لَكُمْ» خبر للمبتدأ المجرور بـ«مِن» الصلة، لتأكيد هذا النفي وهو شركاء ﴿مِّن مَّا مَلَكَتَ ايْمَانُكُم﴾ «مِنْ» للابتداء أيضا متعلّق بـ«لَكُمْ»، أو بمتعلّقه الاستقراري، لا تبعيضيّة متعلّقة بمحذوف حال من «شُرَكَاءَ»، لأنّ الصحيح أنّ الحال لا تجيء من

المبتدأ، لأنَّها لا تكون قيدا لعامله وهو الابتداء، ولا تأكيدا. وإن جعلنا «شُرَكَاءَ» فاعلا لـ«لَكُمْ» صحَّ أنَّها تبعيضيَّة، وجاز الابتدائيَّة أيضا. ﴿مِّنْ شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ متعلِّق بـ«شُرَكَاءَ» يتصرَّفون فيه كتصرُّفكم.

﴿فَأَنتُمْ﴾ أيُّها المالكون والمملوكون على تغليب الخطاب على الغيبة، أو الخطاب للمالكين فيقدَّر للغائبين ضمير الغيبة، أي فأنتم وهم ﴿فِيهِ سَوَآءٌ﴾ «فيه» متعلِّق بـ«سَوَاءٌ»، والفاء عاطفة للجملة بعدها على جملة الاستفهام قبلها.

﴿تَخَافُونَهُمْ﴾ خبر ثان لـ«أَنتُمْ»، أو حال من الضمير في «سَوَاءٌ»، أي مستوون ﴿كَخِيفَتِكُمْ، أَنفُسَكُمْ﴾ نعت لمفعول مطلق محذوف، أي تخافونهم أن تتصرَّفوا بلا إذن منهم فيما رزقناكم خيفة كائنة كخيفتكم الأحرار المشاركين لكم في ذلك الرزق، فالمراد مثل أنفسكم من الأحرار، وإذا لم ترضوا بذلك فأولى أن لا ترضوا الشركة لله ﷻ، وهو خالق الكلِّ ومالكه والرازق. وفي الآية إعمال المصدر النوعي المقرون بالتاء في المفعول به، فهو جائز.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثل هذا التفصيل ﴿نُفَصِّلُ الآيَاتِ﴾ نوضِّحها تصويرا للمعقول بصورة المحسوس لتدرك، فلا يبقى للكافر إلاَّ العناد ﴿لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يستعملون عقولهم في الأمور فيستعملونها في الأمثال الآتية من الله.

﴿بَلِ اتَّبَعَ الذِينَ ظَلَمُواْ﴾ الأصل: بل اتَّبعوا، ولكن ذكرهم باسم الظلم والغيبة ذمًّا لهم به، ووصفا لهم بوضع الشيء في غير موضعه، وتصريحا بموجب عذابهم، وإعراضا عن خطابهم لدخولهم في الكفر دخولا لا يعقبه رجوع عنه ﴿أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ فهم لا ينصرفون عن الكفر، إذ لو كان لهم علم بشيء من الدين محقَّق لأمكن رجوعهم إلى الحقِّ، فإنَّ الفاسق الجاهل المنهمك قد

يرجع عن السوء بعلمه، فاعترافهم بالله غير محقّق.

﴿فَمَنْ يَّهْدِي مَنَ اَضَلَّ اللهُ﴾ لا هادي له **﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ﴾** عائد إلى «مَنْ» باعتبار معناها، ويترجَّح بهذا تقدير رابط الموصول جمعا، أي فمن يهدي من أضلَّهم الله؟. و«نَاصِرِينَ» مبتدأ لقوله: ﴿لَهُمْ﴾، أو فاعله، و«مِنْ» صلة. والمراد: ناصرين من الضلال وعقابه، وهذا عموم، أو إظهار مقام ضمير الذين ظلموا وصفا لهم بضلال لا هداية له، فالأصل: فمن يهديهم.

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا﴾ والفاءان عاطفتان، والآيتان تسلية لرسول الله ﷺ ، وإيَّاس له من إيمانهم، ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ (سورة فاطر: ٨) ، فاشتغل بنفسك ومن تبعك.

ومعنى «أَقِمْ وَجْهَكَ»: أقبل على دين الإسلام واثبت عليه، ورتِّب أسبابه ولا تلتفت إلى غيره، **كمن اهتمَّ بشيء فلا يصرف وجهه ونظره عنه**، واللام للتعدية والملك، أو للتعليل، أو بمعنى إلى، و«حَنِيفًا» حال من ضمير «أَقِمْ»، أو من «وَجْهَكَ»، أو «الدِّينِ»؛ أو «لِلدِّينِ» متعلِّق بـ«حَنِيفًا»، أي مائلا إليه معرضا عن غيره.

(نحو) **﴿فِطْرَةَ اللهِ التِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾** منصوب على الإغراء، أي: الْزَموا فطرة الله، أو مفعول لـ«اتَّبعوا» محذوفا. و«مُنِيبِينَ» حال من واو الزموا، أو واو اتَّبعوا؛ أو «فِطْرَةَ» بدل من «وَجْهَكَ» على معنى طريقتك، أو بيان له، ولا يصحُّ أن يكون بدلا من «حَنِيفًا»، لأنَّ الحنيف وصف وقع حالا و«فِطْرَةَ» مصدر، والمعنى متغاير.

وهو «فِعْلَة» من الفَطْر بمعنى الخلق، وهو الابتداء والاختراع، وفسَّره ابن كثير بقابليَّة الحقِّ والتهيُّؤ لإدراكه، وفسَّروا لزومها أو اتِّـباعها بالجريان على

مقتضاها، وفسَّرها عبد الله بن المبارك بما خلق الله من السعادة والشقاوة في حديث: «**كلُّ مولود يولد على الفطرة**»[1].

[قلت:] والذي أقول به: إنَّها دين الإسلام التوحيد وتوابعه، فعن أنس عن رسول الله ﷺ: «**هي دين الإسلام**»، ومعنى فطرهم عليها خلق عقولهم قابلة لها لائقة، ولو لم يعلِّم الناسُ الصبيانَ الكفر لم يكفروا بعد البلوغ، بل يبلغون على الإسلام، وعنه ﷺ: «**يقول الله ﷻ إنِّي خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين عن دينهم**»[2]. روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ: «**ما من مولود يولد إلاَّ على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسُّون فيها من جدعاء**»[3] أي مقطوعة الأذن أو الأنف، وذلك شامل للجنِّ والإنس.

ولا يشكل بالغلام الذي قتله الخضر عليه السلام وأنَّ في كتفه مكتوبا هو كافر، لأنَّ المعنى أنَّه يكفر لو بلغ، وقيل: [الفطرة] هي إسلام يوم: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٢). والمراد بالناس العموم، ولا سيما على القول الأخير، لا كما قيل: المراد المؤمنون في غير هذا الأخير.

﴿**لاَ تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ**﴾ هو فطرة الله، عبَّر عنها بخلق الله وضعا للظاهر موضع المضمر، والمعنى: ذلك سنَّة الله ﷻ لا يبدِّلها بخلقهم، أو خلق بعضهم على الكفر لأنَّه خلاف الحكمة، والحكمة الإسلام.

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٥، ص٨٧.

٢- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٥، ص٨٧.

٣- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٥، ص٨٧.

أو المعنى: لا قدرة لأحد على أن تكون فطرتهم على الشرك، وقيل: لا قدرة لمخلوق أن يجعل الناس غير مملوكين لله بل أحرار لا يعبدونه مستقلُّون عنه، [قلت:] كما زعم بعض الكذّابين أنّ العبد إذا بلغ الكمال في العبادة سقطت عنه، وقد أخطأ في بلوغ الكمال الكلّي، إذ لا يتصوَّر، بل كلّما ازداد كمالا ازداد عُبُودِيَّة لازدياد نعم الله.

﴿**ذَالِكَ**﴾ الدين المذكور في قوله سبحانه: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ﴾ أو اللزوم أو الاتِّبَاع المقدَّرين على فطرة، أو الفطرة، وعليه فإشارة المذكّر لتذكير الخبر، أو التأويل بالإسلام ﴿**الدِّينُ الْقَيِّمُ**﴾ المستقيم الذي لا يخالطه سفه ولا مكروه، ولا لهو أو لعب، وما لا فائدة فيه، ولا معصية أو كفر.

﴿**وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ**﴾ من لدن آدم إلى قيام الساعة: وهكذا قل حيث يصحُّ في القرآن ولو لم أذكره، فإنّ أكثر الناس كفرة، وأهل التوحيد قليل، مع أنّ منهم موفّيا وغير موفٍّ، والموفي قليل ﴿**لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ ذلك، فهم يصدُّون، أو لا علم لهم بشيء تحقيقا من الدين ولو علموه لجرَّهم إلى الحقِّ.

﴿**مُنِيبِينَ إِلَيْهِ**﴾ مرَّ أنّه حال من واو الزموا فطرة الله، أو اتَّبعوا فطرة الله، وأجيز أن يكون حالا من الناس، أي راجعين إليه بالتوبة والإخلاص، كما سمِّي النحل نوبا لرجوعه إلى مقاره.

﴿**وَاتَّقُوهُ**﴾ احذروا عصيانه أو عقابه ﴿**وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَلاَ تَكُونُواْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ بمخالفة الفطرة بشيء، ودخلت الصلاة بالأولى، لأنّها تلي التوحيد وَتَتَّصِلُ به فيكون تركها يلي الشرك ﴿**مِنَ الذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ**﴾ بدل من قوله: ﴿مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾.

(نحو) ومن العجيب أنَّهم يقولون: المجرور دون جارِّه بدل من المجرور، وأعيد الجارُّ وكأنَّه لا يجوز إبدال الجارِّ والمجرور من الجارِّ والمجرور، وهو جائز قطعا. وتفريق دينهم اختلافهم في الأديان بحسب أهوائهم.

﴿وَكَانُواْ شِيَعًا﴾ أحزابا كلُّ حزب يشايع إمامه في دينه الباطل، أي يتابعه ﴿كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ﴾ عندهم ﴿فَرِحُونَ﴾ كلُّ حزب مسرورون بما اعتقدوه من الديانة الباطلة، يعدُّونها حقًّا، والجملة اعترض بها آخر الكلام لتقرير ما قبلها، وقيل: نعت «شيَعًا» والرابط «حزْب» بمعنى الضمير، أي كلُّهم بما لديهم فرحون، أو محذوف أي كلُّ حزبٍ منهم، أو «مِنَ الذينَ» خبر، و«كُلُّ» مبتدأ، و«فَرِحُونَ» نعت «كُلُّ»، وضعف بأنَّ الأكثر وصف ما أضيف إليه «كُلُّ».

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلنَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْاْ رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ٣٣ لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ٣٤ أَمْ أَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِۦ يُشْرِكُونَ ٣٥ وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً فَرِحُواْ بِهَا وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ ٣٦ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ٣٧ ﴾

تذبذب بعض الناس بين الكفر والإيمان

﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ﴾ المؤمنين والكافرين ﴿ضُرٌّ﴾ شدَّة مَّا ﴿دَعَوْاْ رَبَّهُم﴾ في إزالتها ﴿مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ راجعين، المؤمن يرجع عن زلَّته والمشرك عن شركه، ﴿ثُمَّ إِذَآ أَذَاقَهُم مِّنْهُ رَحْمَةً﴾ تخليصا من ذلك الضرِّ، أو رحمة مَّا لأنَّ الإنسان يطغى بالنعمة.

(نحو) و«مِنْهُ» متعلّق بـ«أَذَاقَ»، وفيه إعمال العامل في ضميرين لواحد لجوازه مطلقا، إذا كان أحدهما بحرف جرٍّ، وذلك كثير في القرآن فلا تهم، أو متعلّق بمحذوف حال من «رَحْمَةً».

﴿اِذَا فَرِيقٌ مِّنهُم﴾ وهم المشركون ﴿بِرَبِّـهِمْ يُشْرِكُونَ﴾ يرجعون إلى الشرك، والفريق الآخر مؤمن باق على إيمانه، وإن رجع إلى زلّته أشبه مشركا رجع إلى شركه. و«ثُمَّ» للتراخي رتبة أو زمانا على حدِّ ما مرَّ.

﴿لِيَكْفُرُواْ بِمَآ ءَاتَيْنَاهُمْ﴾ من النعم. واللام لام العاقبة، والكفر هنا زيادة الشرك، وإتيان الكبائر التي دونه، وهي كفر النعمة، أو لام الأمر على أنّه تهديد للكفرة -كقولك لعبدك العاصي: افعل ما شئت- على طريق الغيبة إعراضا عنهم وإهانة إذ لم يقل: اكفروا بما آتيناكم، ويقوِّي أنّها للأمر والتهديد قوله تعالى:

﴿فَتَمَتَّعُواْ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ وَبَالَ تمتُّعكم، فإنّه أمر تهديد لا ماض معطوف على «يُشْرِكُونَ» لمنافاة المضيِّ، لمفاجأة الإشراك لتسلُّط المفاجأة على الإشراك، فيلزم تسلُّطها على ما عطف عليه، وعلى أنّه أمر يكون بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب، سواء جعلت اللام للعاقبة أو للأمر.

﴿أَمَ اَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا﴾ بل أأنزلنا عليهم حجَّة ؟ وذلك بطريق الالتفات من الخطاب إلى الغيبة تهاونا بهم، وإعراضا عنهم، والإنزال مجاز عن التعليم أو الإعلام.

﴿فَهُوَ﴾ السلطان ﴿يَتَكَلَّمُ﴾ يدلُّ، استعمل لفظ الدلالة الخَاصَّة وهي الدلالة باللسان في المعنى العامِّ، وهو مطلق الدلالة.

(بلاغة) وذلك مجاز مرسل أصليٌّ لعلاقة الإطلاق والتقييد، واشتقَّ منه «يَتَكَلَّمُ» بمعنى يدلُّ، على طريق المجاز الإرسالي التبعي، أو شبَّه السلطان وهو

الحجَّة بالإنسان مثلا ورمز إليه بإثبات لازم الإنسان على الاستعارة بالكناية، وبسطت المسألة في فنِّ المعاني والبيان.

وإن جعلنا السلطان بمعنى الملك فالتكلُّم حقيق لا مجاز، إلاَّ أنَّ السلطان في الأصل الحجَّة، وهي من المعاني المَصدَرِيَّة، فهو مجاز لذلك حين استعمل بمعنى الذات، أو بتقدير: ذا سلطان، وشاع في الاستعمالات في معنى المالك القاهر على طريق الحقيقة العرفيَّة.

﴿**بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ**﴾ بالأمر الذي كانوا يشركون به، أي بسببه، أو الباء للآلة والهاء لـ«ما».

[قلت:] ولا يجوز جعلها مَصدَرِيَّة والهاء لله لكون المعنى حينئذ: يتكلَّم بكونهم يشركون بالله، وهو لا يصحُّ، وإنَّما المعنى الذي يصحُّ: يتكلَّم بإشراكهم بالله سبحانه، أي بتصويبه، وهو مستلزم لزيادة «كَانُوا» كما هو عادتهم في التفسير من التأويل بالمصدر ممَّا بعد الكون وإسقاط الكون على أنَّه لا يدلُّ على الحدث، وهو المشهور المخالف للصحيح.

﴿**وَإِذَآ أَذَقْنَا النَّاسَ**﴾ المشركين، ومقتضى الظاهر: وإذا أذقناهم، ووضع الظاهر موضع الضمير، أو أراد بالناس المؤمنين والمشركين. وأصل الإذاقة: الإطعام القليل، أو أوَّل الإطعام، واستعمل في مطلق الإنعام ﴿**رَحْمَةً**﴾ صحَّة بدن وسعة رزق وغير ذلك ﴿**فَرِحُواْ بِهَا**﴾ المشركون يفرحون بطرا أو أشرا، والمقام لذمِّهم بالفرح بها، أو فرحوا بنفس الرحمة، وأمَّا المؤمنون ففرحوا شكرا أو بكونها مضافة لله الرحمن الرحيم، فهو محمود وطاعة.

﴿**وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةُۢ**﴾ شدَّة مَّا، مع أنَّهم تسبَّبوا لها كما قال: ﴿**بِمَا قَدَّمَتَ اَيْدِيهِمُ،**﴾ من المعاصي ﴿**إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ**﴾ فاجأوا القنوط من زوالها

بالطبيعة، إلاَّ أنَّ المؤمن لا يدوم على ذلك، بل يعالج نفسه، وكثير من المؤمنين لا ينالهم قنوط مَّا، وقد لا يقنط المشرك ولا ينفعه في الآخرة عدم قنوطه.

وعبَّر في الرحمة بـ«إِذَا» الموضوعة للبناء على التحقيق لكثرتها وتحقُّقها، وفي السيِّئة بإن الموضوعة للبناء على الشكِّ، تعالى الله عنه لقلَّتها.

(أصول الدين) ونسب الرحمة لنفسه إذ قال: ﴿أَذَقْنَا﴾ دون السيِّئة، إذ لم يقل: وإن أصبناهم بسيِّئة تعليما للعبد أن يضيف إلى الله الخير، ولو كان كلٌّ من الخير والشرِّ منه عَزَّ وَجَلَّ، كما قال في الفاتحة: ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ ولم يقل: غير الذين غضبت عليهم. وذَكَر للسيئة سببا ولم يذكر للرحمة للإشارة إلى أنَّ الرحمة فضل، والعذاب على السيِّئة عدل. والمتبادر أنَّ القنوط بمرَّة، وذكر بعضٌ أنَّ المضارع للاستمرار فيه.

و﴿النَّاسَ﴾: فريق آخر غير الأوَّل، و«ال» للعهد، أو الجنس، أو الفريق الأوَّل، لكن ثبت الحكم الأوَّل لهم، في حال تدهشهم كمشاهدة الغرق، وهذا الحكم في حال آخر لهم، فلا مخالفة بين قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُم مُّنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ وقوله سبحانه: ﴿وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ بِمَا قَدَّمَتَ أَيْدِيهِمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ﴾ وهذا أولى من تكلُّف التوفيق بين الآيتين بأنَّ الدعاء اللساني جار على العادة فلا ينافي القنوط القلبي، فافهم روح معاني القرآن.

أو المراد بـ﴿يَقْنَطُونَ﴾ أنَّهم يفعلون فعل القانط كالاهتمام بالادِّخار حال الغلاء، لكن هذا فيه بعض منافرة للمفاجأة، وفيه أنَّ الأصل في الشيء إبقاؤه لا تأويله بالشبه مثلا.

﴿**أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ**﴾ ألم ينظروا ولم يشاهدوا أنَّ الله يبسط الرزق؟ ﴿**لِمَنْ يَشَاءُ**﴾ البسط له ﴿**وَيَقْدِرُ**﴾ يضيِّق على من يشاء التضييق عليه،

ما لهم لم يشكروا ويحتسبوا في السرَّاء والضرَّاء كالمؤمنين، وهذا هو المتبادر في القرآن، وهو أولى من أن يفسَّر بأنَّه يضيِّق على الإنسان تارة ويبسط له أخرى، أو يبسط له رزقا من نوع ويضيِّق عليه من آخر.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من البسط والتضييق ﴿لَأَيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾ بأنَّ **الأمر في الرزق وغيره راجع إلى حكمة الله، لا إلى قُوَّة العبد وعجزه في الكسب**. قيل شعرا:

نكد الأريب وطيب عيش الجاهل قد أرشداك إلى حكيم كامل

وقيل:

كم من أريب فهم قلبه مستكمل العقل مقلٌّ عديم
ومن جهول مكثر ماله ذلك تقدير العزيز العليم

﴿ فَـَٔاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٤٠﴾ ﴾

الترغيب في النَّفقة والنهي عن الربا وضمان الخلف من الله القدير

﴿فَئَات﴾ يا محمَّد ﷺ وأمَّا غيره فتبع له، وقال الحسن: الخطاب لكلِّ سامع، ويجوز أن يكون لمن بسط له الرِّزق. ووجه التَّفريع بالفاء أنَّ الرِّزق بمشيئة الله وكذا التَّضييق ولا ينقصه إنفاق على ذي القربى وغيره، ولا يزيده إمساك

فاغتنم الإنفاق، فإنّ امتثال أوامر الله واجتناب نواهيه ميسِّر للبسط، ومنه القناعة. قيل:

إذا جادت الدنيا عليك فَجُد بها على النَّاس طُرًّا إنَّها تتفلَّت
فلا الجود يفنيها إذا هي أقبلت ولا الشُّح يقيها إذا ما تولَّت

أو قل: «على النَّاس طُرًّا إنَّهَا تتقلَّبُ».

أو قل: «ولا البخل يبقيها إذا هي تذهَبُ».

﴿ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ صلةً وصدقةً وكفَّارةً وما للضعفاء وما للأغنياء بحسب الأمر ﴿وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ ما لهم من ذلك، وقيل: المراد بالحقِّ الزَّكاة، وردَّ بأنَّ السورة مَكِّيَّة والزَّكاة مَدَنيَّة، ودعوى أنَّ الآية مَدَنِيَّة في سورة مكيَّة أو مَكِّيَّة نزلت لِمَا سيفرض في المدينة من الزكاة خلاف الأصل، وأيضا لا نقل في ذلك ولا حجَّة، ويدلُّ لذلك أنَّه لم يذكر جميع أصحاب الزَّكاة المذكورين في غير السورة، قيل: ولو أريدت الزَّكاة لم يقدِّم ذوي القربى، وفيه أنَّه لا بأس بتقديمهم في أداء صاحب المال الفرض زيادة له في ثوابه إذ فيه أداء فرض وصلة رحم.

وقيل: ذوي القربى بنو هاشم وبنو المطَّلب، والخطاب لرسول الله ﷺ، والحقُّ: السَّهم من الغنيمة والفيء.

(سيرة) وعن أبي سعيد الخدري: أنَّه لَمَّا نزلت الآية أعطى رسول الله ﷺ فاطمة رضي الله عنها فَدَكًا، ويُنافيه ما روي أنَّها ادَّعت فَدَكًا بعد موته ﷺ بالإرث، وروي أنَّها ادَّعت الهبة وشهد لها عليٌّ والحسن والحسين وأمُّ أيمن، ورُدَّت بحنو الزوج وابنيها عليها وانفراد أمِّ أيمن، قيل: فادَّعت الإرث وردَّت

بقوله ﷺ : «**إنّا معشر الأنبياء لا نورث ما تركناه صدقة**»[1] والصدقة لا تَحلُّ لآل النبي ﷺ .

[قلت:] وَلَعَلَّ ذلك لا يصحُّ عنها كيف تتلون في الدعوى؟ وَلَعلَّهَا قالت: إن لم تعطوني بالهبة فاعطوني بالإرث، لكن هذا يحتاج إلى ثبوت فَدَكٍ ملكًا لَهُ وحده ﷺ ، وَلَعَلَّها ادَّعت سهمه.

﴿وَابْنَ السَّبِيلِ﴾ المنقطع عن ماله ضيفا أو غير ضيف، وقيل: الضيف، فيحسن إليه حتَّى يرتحل، وقيل: ثلاثة أيَّام انقطع عن ماله أو لم ينقطع.

(**فقه**) وقدَّم ذا القربى لعظم حقِّ القرابة ولاسيما الفقير، وقد أوجب أبو حنيفة إنفاق القرابة مطلقا بهذه الآية، وقيل عنه: القرابة بالمحارم، وزعمت الشَّافعيَّة أنَّه لا نفقة بالقرابة إلاَّ على الولد والوالدين، وممَّا يدلُّ على زيادة حقِّ القرابةَ أنَّه أضاف إليه الحقَّ ولم يضفه إلى ابن السَّبيل والمسكين، ولا جَمَعَ الثلاثةَ بالإضافة بأن يقول: «فآت ذا القربى والمسكين وابن السبيل حقَّهم». وقال: ﴿ذَا الْقُرْبَىٰ﴾ ولم يقل: «ذا المسكنة»، لأنَّ القرابة لا تزول ولا تتجدَّد بخلاف المسكنة، وَأَمَّا ابن السبيل فيكفي في تجدُّده إضافته للسبيل.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ الإيتاء ﴿**خَيْرٌ**﴾ منفعة، فليس وصفًا؛ أو أفضل، فهو وصف، اسم تفضيل خارج عن بابه، أو أفضل من الإمساك، فهو غير خارج، وفي الإمساك فضل بحسب الهوى، وفضل الإنفاق أفضل منه ﴿**لِلَّذِينَ يُرِيدُونَ**﴾ بالإيتاء ﴿**وَجْهَ اللهِ**﴾ يخلصون له تعالى لا يشوب إيتاءهم شيء. ووجه الله: جهة الله، بمعنى جهة التَّقرُّب إليه تعالى.

١- رواه **أحمد** في مسند المكثرين من الصحابة، باب تتمة مسند أبي هريرة ﷺ، رقم ٩٦٥٥، من حديث أبي هريرة.

﴿وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ لتحصيل النَّعيم الدائم بإنفاق فانٍ، والحصر إضافيٌّ بالنِّسبة إلى المُمْسِكين وهم الذين لا ينفقون، أي هم المُفلحون لا الممسكون، أو حقيقيٌّ علَى أنَّ الذين يريدون وجه الله بالإيتاء، قَدْ أتوا بسائر الفرائض أيضا من إقامة الصلاة وغيرها.

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا﴾ إلى ﴿...الْمُضْعِفُونَ﴾ مثل قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ (سورة البقرة: ٢٧٦) ، فهي تشعر بتحريم الربا مثل هذه الآية ﴿يَمْحَقُ اللهُ...﴾، وبه قال الحسن والسدِّي، كما روي عنه أنَّها نزلت في ثقيف وكانوا يربون، وكذا كانت قريش.

وعن ابن عبَّاس أنَّ المراد العطيَّة التي يرادُ بها مزيد المكافأة، وهو ربًا لغويٌّ، وهو الزِّيادة حقيقة لغويَّة مجاز شرعيٌّ، سُمِّيت لأنَّها سبب للزِّيادة، أو لأنَّها فضل لا يجب على المعطي. وعن ابن عبَّاس: نزلت في قوم يعطون قرابتهم وإخوانهم ليكونوا ذوي مال، لا لله، أو ليكونوا ذوي مال ويعود نفعها إليهم. و«مِنْ» للبيان في ذلك كلِّه.

﴿لِّتُرْبُوَاْ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ﴾ مناسب بظاهره للتفسير الأخير، أي لتوقعوا الزيادة في أموال النَّاس فيكونوا ذوي مال كثير، وأولى من هذا أنَّ المعنى: لتوقعوا الزيادة لأنفسكم في مال الناس بما يعطونكم زيادة على ما أعطيتموهم، والمراد: لتربوه في أموال النَّاس، والهمزة للتعدية؛ أو المراد: لتزيدوا أموال الناس، كقولهم: يجرح في عراقيبها نصلي، بمعنى يجرح عراقيبها نصلي، أو للصيرورة أي لتصيروا ذوي ربا في أموال النَّاس.

﴿فَلَا يَرْبُواْ عِندَ اللهِ﴾ لا يبارك فيه إذا لم يتقرَّبوا به إلى الله سبحانه، ولو لم يكن على جهة الرِّبا الشَّرعي، بأنَّ تعطيه ليكافئك بأزيد مِمَّا أعطيتهُ أو ليكون ذا مال كما مرَّ.

أو الآية في تحريم الرِّبا فيكون هذا مثل قوله تعالى: ﴿يَمْحَقُ اللهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ (سورة البقرة: ٢٧٤) ، ولا ثواب لك ولا له إذا أعطيته ليزيدك مكافأة لا على طريق الرِّبا الشَّرعي، ولا ذنب في ذلك عليك، ولا عليه، ولا يحلُّ ذلك للنبيء ﷺ لقوله تعالى: ﴿وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرِ﴾ (سورة المدثر: ٦) .

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللهِ﴾ حال من التَّاء، والرَّابط الواو، أو من «مَا»، على أنَّها شرطيَّة مفعول لـ«آتيْتُمْ» أو من رابط الموصول على أنَّها موصولة، أي: وما آتيتموه، فالرَّابط محذوف أي تريدون به.

والزَّكاة الصدقة غير الواجبة في المدينة، أو صدقة وجبت في مَكَّة مخصوصة نسخت بالواجبة في المدينة، كما قيل به في قوله تعالى: ﴿فَئَاتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ﴾ كما قيل: إنَّ حقَّ ذي القربى صلة الرَّحم بأنواعها، والحقُّ المعتبر في المسكين وابن السَّبيل إحدى هاتين الزَّكاتين، لكن يلزم عليه استعمال الأمر وهو «ءَاتِ» في النَّدب والوجوب، فيجاب بأنَّ إعطاء القرابة واجب هكذا بلا حدٍّ.

﴿فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ اسم فاعل أضعف بهمزة الصيرورة، أي صاروا ذوي ضعف أي يضاعف لهم ثواب ما أعطوه كأَقْوَى صار ذا قُوَّة، وأَيْسَرَ صَار ذا يُسرٍ، أو بهمزة التَّعدية أي صيَّروا ثوابهم كثيرًا ويدلُّ له قراءة أُبي بفتح العين.

ومقتضى الظاهر: يرْبُ، أو يرْبو عند الله، ليقابل قوله: ﴿فَلاَ يَرْبُواْ عِندَ اللهِ﴾ ولكن عبَّر بذلك ليثبت لهم المضاعفة التي هي أبلغ من الزِّيادة، وللتَّأكيد بالجملة الاسميَّة، وبضمير الفصل وبالحصر، وإشارة البعد لعلوِّ المرتبة، وبذكر ما أعطاهم اللهَ في الجواب من الأضعاف دون ما أنفقوا، أو بطريق الالتفات عن خطابهم إلى الغيبة بصرف الكلام إلى الملائكة وخواصِّ الخلق.

وإن أريد بأولئك هؤلاء وغيرهم مِمَّن يماثلهم في الإعطاء لوجه الله أي:

فمؤتُوه (بضمِّ التَّاء اسم فاعل لا بفتحها اسم مفعول) أُولئِكَ هُم المُضْعِفُونَ فلا التفات، **وما تَقَدَّمَ أولى.**

(نحو) واعلم أن الصَّحيح أنَّه لا يلزم إعادة الضَّمير من فعل الشرط إلى اسم الشرط لفظا أو تقديرًا، أي وما آتيتموه من زكاة، وأن الصَّحيح أنَّ خبر اسم الشرط جوابه لا جملة الشرط ولو قيل انَّ الصحيح عكس ذلك كُلِّه، ألا ترى أنَّ أيًّا مفعول مقدَّم في قوله تعالى: ﴿أَيًّا مَّا تَدْعُو﴾ (سورة الإسراء: ١١٠)، وما كان مفعولا مُقَدَّما فليس مبتدأ، وألاَ تَرى أنَّك تقول: بمن تمرُّ أمْرِرْ به وليست مَنْ مبتدأ بل مجرورة بحرف غير زائد، فـ«مَا» في الموضعين إن جعلت شرطيَّة مفعول مقدَّم لما بعدها، ولا يلزم جعلها مبتدأ.

﴿اللهُ الذي﴾ مبتدأ وخبر **﴿خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ﴾** المراد بالرِّزق ما بعد الولادة، ولذلك كان بـ«ثُمَّ» وإن فسِّر بما يتغذَّى به في البطن أيضا من حين نفخ فيه الرُّوح صحَّ التراخي أيضا.

﴿هَلْ﴾ إنكار ونفي **﴿مِن شُرَكَآئِكُم﴾** ما تعبدون من دون الله، و«مِنْ» للتبعيض يتعلَّق بمحذوف خبر لـ«مَنْ» في قوله: **﴿مَّنْ يَّفْعَلُ مِن ذَٰلِكُمْ﴾** ممَّا ذكر من الخلق والرِّزق والإماتة والإحياء. وعَظَهم بالإحياء بعد الموت ولو أنكروه، لأَنــَّهُ مثل ما لم ينكروه لوضوح أدلَّته. أو «مَنْ» فاعل لقوله: ﴿مِن شُرَكَآئِكُم﴾ و«مِنْ» للتبعيض أي بعض ذلكم، أو للبيان أي هو ذلكم، يتعلَّق بمحذوف حال من «شَيْءٍ»، ولو نكرة لتقدُّمه ولتقدُّم الاستفهام. **﴿مِّن شَيْءٍ﴾** مفعول لـ«يَفْعَلُ»، و«مِنْ» صلة لتأكيد الاستغراق.

(نحو) ويضعف جعل «الذي» نعتا والخبر «هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم...» إخبارًا بالاستفهام، مع أنَّهُ إنشاء لأنَّه بمعنى النفي، بل لا مانع من الإخبار

بالاستفهام ونحوه، نحو زيد من هو؟ والرابط «ذَلكُمْ» لأنَّه إشارة إلى أشياء تضاف إلى ضميره، فهو متضمِّن للضمير، كأنــهُ قيل: من يفعل من أفعاله المذكورة شيئا، وهو ضعيف.

﴿**سُبْحَانَهُ، وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ عمَّا يشركونه به، أو عن إشراكهم.

﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ ﴿٤٢﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ ٱلْقَيِّمِ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لَّا مَرَدَّ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ يَصَّدَّعُونَ ﴿٤٣﴾ مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُۥ وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ ﴿٤٤﴾ لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

عاقبة المفسدين في الأرض وجزاء المؤمنين

﴿**ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ**﴾ كالجذب وانقطاع مَادَّة النهر، وموت الحيوان، وكثرة الغرق والحرق، وخيبة الصائد للحوت والوحش والغائص على اللؤلؤ، وانتفاء البركة من الأشياء، وقلَّة المنافع وكثرة المضارِّ، وقلَّة المطر.

وعن مجاهد: البرُّ البلاد البعيدة عن البحر، والبحر السواحل والمدن التي على البحر والأنهار. وعن قتادة: البرُّ الفيافي ومواضع القبائل والصحاري، ومواضع العمود، والبحر المدن، كما قال سعد بن عبادة في عبد الله بن أبي بن سلول: لقد أجمع أهل هذه البحيرة يعني المدينة أن يتوِّجوه، **وأجيز أن يراد بالفساد المعاصي والظلم، والمعصية تجرُّ المعصية**. و«ال» في الكلِّ للجنس.

﴿بِمَا كَسَبَتَ اَيْدِي النَّاسِ﴾ بما كسبته أو بكسبها كأخذ الجلندى[1] كلّ سفينة غصبا، وذلك في البحر، وقتل قابيل هابيل، وهو أوَّل معصية في الأرض فيما قيل، وقد قيل: كانت الأرض روضة لا يأتي ابن آدم شجرة إلاَّ وجد عليها ثمرا، وماء البحر عذبا ولا يفترس الأسد البقر والذئب الغنم، ولا يضرُّ حيوان آخر، فلمَّا قُتل هابيل تغيَّر ذلك كلُّه. وإذا فسِّر الفساد بالمعاصي فالمراد كما مرَّ ازدادت، أو تصوير حصولها بكسبها.

﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الذِي عَمِلُواْ﴾ بعض جزاء ما عملوا في الدنيا، والبعض الآخر في الآخرة، ويعاقبهم بجميعها أيضا في الآخرة **﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾** عن عمل السوء.

وعن قتادة: كان الفساد قبل أن يبعث النبيء ﷺ ، ولَمَّا بعثه الله رجع بعض عن المعاصي. وأيضا كان في أوَّل البعثة قد أصرَّ قريش على الشرك والمعاصي وآذوه ﷺ ، فدعا عليهم فأقحطوا سبع سنين لعلَّهم يرجعون.

وحكم الآية باق إلى قيام الساعة، و[قيل:] من أذنب ذنبا خاصمه الثقلان والحيوانات برًّا وبحرا يوم القيامة بمنع المطر لشؤمه، ومن أكل الحرام فقد خان جميع الناس.

﴿قُلْ﴾ لقومك **﴿سِيرُواْ فِي الاَرْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلُ﴾** من الهلاك بالمعاصي، الشرك وما دونه **﴿كَانَ أَكْثَرُهُم مُّشْرِكِينَ﴾** أهلك

١- اسم ملك من ملوك عمان في القديم، قيل: إنَّه المقصود في قوله تعالى: {وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَاخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} (سورة الكهف: ٧٩) . وهي رواية مرجوحة عند الشيخ السالمي في تحفة الأعيان في سيرة أهل عمان، ج١، ص٢٧. وقد أورد الشيخ أقوالا في اسم هذا الملك في تفسير سورة الكهف، ج٨، ص٤٠٩.

أكثرهم بالإشراك، والقليل بما دونه، أو أهلكوا بكثرة الشرك، ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ (سورة الأنفال: ٢٥) .

﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ الْقَيِّمِ﴾ مثل ما مرَّ **﴿مِن قَبْلِ أَنْ يَّاتِيَ يَوْمٌ لاَّ مَرَدَّ لَهُ مِنَ اللهِ﴾** «لاَ مَرَدَّ لَهُ» خبر «لاَ»، و«مِنَ اللهِ» متعلّق بـــ«لَهُ»، أو بمتعلّقه، أو بمحذوف حال من الضمير المستتر في «لَهُ»، ويجوز تعليقه بـــ«مَرَدَّ».

و لم ينوِّن «مَرَدَّ» مع أنّه اسم «لاَ» مشبَّه بالمضاف للتعليق فيه تشبيها له بالمضاف، والمضاف لا ينوَّن فهو معرب منصوب، حذف تنوينه كما في شرح التسهيل لولد بن مالك، وذلك كثير كقوله ﷺ : «**لا مانع لِمَا أعطيت ولا معطي لِمَا منعت**»[1] وقولنا: «لا حولَ عن معاصي الله إلاّ بعصمةٍ من الله، ولا قوَّةَ على طاعة الله إلاّ بعون من الله».

ولك أن تعلّق الجارَّ في ذلك بمحذوف خبر أوّل أو ثان، ونَوِّنْ حولاً وقوَّةً، أو علِّق «مِنَ اللهِ» بـــ«يَاتِي» ولو مفصولا، أو بمحذوف نعت ثان لـــ«يَوْمٌ»، والمعنى: إذا لم يكن له ردٌّ من الله لم يكن من غيره.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ يوم إذ يأتي ذلك اليوم **﴿يَصَّدَّعُونَ﴾** يتصدَّعون، قلبت التاء صادا وأدغمت الصاد، ويتفرَّق بعض عن بعض تفرُّقا شبيها بتفرُّق الإناء وانشقاقه، مبالغة في التفرُّق ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ (سورة القارعة: ٤) ، كما يتبادر من التصدُّع، أو فريق في الجنَّة وفريق في السعير، كما هو المناسب لِمَا قبل وما بعد، لمبالغة ما بين المنزلتين حسًّا ومعنى.

﴿مَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ عقاب كفره، أو الكفر اسم للعقاب مجاز، إذ هو

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٧، ص١٩٤.

مسبِّب العقاب ولازمه، وروعي لفظ «مَنْ» فأفرد الضمير إهانة لهم، وإشارة إلى أن لا قَدْرَ لهم مع كثرتهم، وجمع في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِأَنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾ مراعاة لمعناها إلى كثرة قدْرهم عند الله وعِظَمِه مع قلَّتهم، وهو أنسب للفاصلة.

(بلاغة) شبَّه تقديم العمل الصالح في الدنيا للآخرة بتوطئة الفراش لجامع النفع على الاستعارة الأَصليَّة في المهد، واشتقَّ منه على التبعيَّة «يَمْهَدُ»، أو يشبِّه أحوال أحد الجانبين بأحوال الآخر، فتكون الاستعارة تمثيليَّة، أو يشبِّه عاملي الصالحات بالذين يرحمون أنفسهم بما أمكن في الدنيا، ورمز إلى ذلك بالتمهيد على الاستعارة بالكناية.

أو التمهيد: الشفقة، وذلك للقبر والآخرة معا، أو المراد لها، وتقديم «لأَنفُسِهِمْ» للفاصلة والاختصاص، ومقتضى قوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾ أن يقال: «ومن آمن فلأنفسهم...» ولكن ذكرهم بالعمل الصالح تنبيها على المعتبر من الإيمان ما عمل بمقتضاه من العمل الصالح، أو تنويها بشأن الإيمان بِأَنَّـــهُ عمل صالح على أنَّ المراد بالعمل الصالح عمل القلب والجوارح.

﴿لِيَجْزِيَ الذينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ مِن فَضْلِهِ﴾ تعليل لقوله: ﴿يَصَّدَّعُونَ﴾ على أنَّ التصدُّع تصدُّع فريق إلى الجنَّة وفريق إلى النار، فذكر فريق الجنَّة بهذا وفريق النار بقوله: ﴿إِنَّهُ، لاَ يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ فإنَّ عدم حبِّهم المراد به بغضهم، فكأنَّه قيل: وليعاقب الكافرين.

ويجوز أن يكون «لِيَجْزِيَ» تعليلا لــ«يَمْهَدُونَ» على وضع الظاهر موضع المضمر ليذكرهم بلفظ العمل الصالح، وليشير إلى أنَّه لا يفلح عند الله عز وجل إلاَّ ذو العمل الصالح، ولا عمل صالحا للكافر، وإن كان فكالعدم فلم يذكرهم به، كما ذكر المؤمنين بالعمل الصالح بل ذكرهم بالكفر.

وقدَّم الكافر حين أسند الكفر والإيمان إلى العبيد، وقدَّم المؤمن عند إسناد الجزاء لنفسه إذ قوله: ﴿مَن كَفَرَ﴾ تحذير للمكلَّف، وقوله: ﴿وَمَنْ عَمِلَ﴾ ترغيب، لأنَّ الإنقاذ مقدَّم عند الحكيم الرحيم، وعند الجزاء ابتدأ بالإحسان إظهارا للكرم، والإثابة تفضُّل محض من الله عَزَّوَجَلَّ ، وقيل: ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ من زيادته على ما يستحقُّه عمله.

﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن يُرْسِلَ ٱلرِّيَاحَ مُبَشِّرَٰتٍ وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَلِتَجْرِىَ ٱلْفُلْكُ بِأَمْرِهِۦ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٤٦﴾ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ وَلَئِنْ أَرْسَلْنَا رِيحًا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَّظَلُّوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ يَكْفُرُونَ ﴿٥١﴾ فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ ٱلْمَوْتَىٰ وَلَا تُسْمِعُ ٱلصُّمَّ ٱلدُّعَآءَ إِذَا وَلَّوْا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ ﴿٥٣﴾ ﴾

الاستدلال بالرياح والأمطار على قدرة الله وحدانيته

﴿وَمِنَ ــــ ايَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيَاحَ﴾ [قيل: ريح] الجنوب من سهيل إلى الثريا للإمطار والإنداء، والصبا منها إلى بنات نعش لإلقاح الشجر، والشمال

منها إلى النسر الطائر فإنَّها رياح الرحمة، والدبور منه إلى سهيل ريح العذاب والبلاء، وأهونه غبار قاصف يقذي العين وهي أقلُّها هبوبا.

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنه : كان رسول الله ﷺ يقول: «**اللهمَّ اجعلها رياحا ولا تجعلها ريحا**»[1] رواه الطبراني والبيهقي، فالرياح للرحمة والريح للعذاب، والعرب تقول: لا تلقح السحاب إلاَّ من رياح مختلفة، فكأنَّه ﷺ قال: اللهمَّ اجعلها لقاحا للسحاب ولا تجعلها عذابا.

والجمع يأتي في آيات الرحمة، والمفرد في العذاب كـ﴿الرِيحَ الْعَقِيمَ﴾ (سورة الذاريات: ٤١) ، و﴿رِيحًا صَرْصَرًا﴾ (سورة فصِّلت: ١٦) ، والريح الواحدة من جهة تهدُّ ما قابلت من حيوان ونبات، ويفوت الجانب الآخر حظُّه من الهواء.

ولكن جاء الإفراد في الخير أيضا: ﴿وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّـبَةٍ﴾ (سورة يونس: ٢٢) ، و﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِيحَ﴾ (سورة سبأ: ١٢) .

والحديث المذكور نسبه ابن حجر لأبي يعلى عن أنس مرفوعا، وقال: صحيح، وأمَّا ما مرَّ عن ابن عبَّاس فضعيف لحسين بن قيس في سنده، إذ هو متروك.

﴿**مُبَشِّرَاتٍ**﴾ بالمطر ﴿**وَلِيُذِيقَكُم مِّن رَّحْمَتِه**﴾ هي المنافع التابعة للرياح، كتذرية الحبوب وتجفيف العفونة، وسقي الأشجار، والخصب التابع، والرَّوْحِ مع هبوبها وغير ذلك.

(نحو) والواو عاطفة على محذوف، أي ليبشِّركم وليذيقكم، أو

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج١، ص٣٣٦.

عطفت محذوفا، أي ويرسلها ليذيقكم، وقيل: ويجري الرياح وليذيقكم، وهو بعيد، أو عطف على «مُبَشِّرَات» باعتبار معنى العلّة فيه، على معنى: يرسل الرياح ليبشّركم، كقولك: أكرمْ زيدا محسنا، على قصد معنى: أكرم زيدا لإحسانه، وزعم بعض أنّ الواو زائد، و«لِيُذِيقَ» متعلّق بـ«يُرْسِلَ» وهو عجز [أي ضعيف].

﴿وَلِتَجْرِيَ الْفُلْكُ﴾ في البحر ﴿بِأَمْرِهِ﴾ بقضائه على وجه يتأتّى بهبوبه المطلوب، وهبوبها مواتية أمر من الأمور التي لا يقدر عليها سواه تعالى ﴿وَلِتَبْتَغُواْ مِن فَضْلِهِ﴾ تطلبوا الرزق بالسفر فيها ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ إنعامه عليكم بذلكم.

وسلاّه ﷺ بالوعد له والوعيد على من عصاه، مع التحذير عن الإخلال بالشكر، في قوله: ﴿وَلَقَدَ اَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلاً اِلَىٰ قَوْمِهِمْ﴾ كما أرسلناك إلى قومك، والإضافة للجنس، فكأنّه قيل: إلى أقوامهم ﴿فَجَآءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ جاء كلُّ رسول قومه بالبيّنات كما جئت قومك بالبيّنات ﴿فَانتَقَمْنَا مِنَ الذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ أي كذّبوا، آمن بعض وكذّب بعض، فانتقمنا من الذين أجرموا، ورحمنا من آمن بالنصر دنيا وأخرى، كما قال:

﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُومِنِينَ﴾ نصر الرسل وأتباعهم على المجرمين، ويجوز أن يكون ﴿الذِينَ أَجْرَمُواْ﴾ موضوعا موضع المضمر للوصف بالإجرام الموجب للانتقام، على أنّ المراد المجموع لا الجميع، لأنّ فيهم من آمن، وكأنّه قيل: فانتقمنا منهم.

(بلاغة) وفي قوله: ﴿وَكَانَ حَقًّا...﴾ تشريف للمؤمنين إذ كان اللفظ بصورة من له حقٌّ على الله حاشاه، وإشعار بأنّ الانتقام من أجلهم، إذ عبّر بالنصر لهم على المجرمين، لأنّ النصر يتصوّر بين متقابلين.

قال أبو الدرداء: قال رسول الله ﷺ : «**ما من امرء مسلم يردُّ عن عرض أخيه إلاّ كان حقًّا على الله أن يردَّ عنه نار جهنَّم يوم القيامة**»[١] ثمَّ تلا هذه الآية، رواه الطبراني وغيره.

وقيل: المراد في الآية النصر في الدنيا، والآية تشمل المؤمنين بعد أنبيائهم إلى يوم القيامة.

(**نحو**) و«نَصْرُ» اسم كان، كما هو الظاهر، وكما هو في حديث أبي الدرداء، لا كما قيل: إنَّ اسمها ضمير فيها عائد للانتقام و«عَلَيْنَا» خبر مقدَّم و«نَصْرُ» مبتدأ مؤخَّر لأنَّه خلاف الظاهر. وأخَّر «نَصْرُ» لأنَّ الفاصلة تَتِمُّ بتأخيره على طريق الاعتناء بالحقِّـيَّة.

﴿**اللَّهُ الذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ**﴾ مبتدأ وخبر ﴿**فَتُثِيرُ**﴾ تنهض ﴿**سَحَابًا فَيَبْسُطُهُ**﴾ أيِ الله بسطا تامًّا متَّصلا ﴿**فِي السَّمَآءِ**﴾ في الهواء فوقكم تارة ﴿**كَيْفَ يَشَآءُ**﴾ غليظا أو رقيقا، سائرا أو واقفا، مطبق وغير مطبق، ومن أي جانب شاء، وليس «كَيْفَ» هنا للاستفهام، فليس ﴿كَيْفَ يَشَآءُ﴾ إنشاء بل معناه: بسطا شاءه، والجملة حال بلا تأويل.

﴿**وَيَجْعَلُهُ**﴾ تارة ﴿**كِسَفًا**﴾ قطعا ﴿**فَتَرَى**﴾ بعينك يا من يصلح للرؤية ﴿**الْوَدْقَ**﴾ المطر ﴿**يَخْرُجُ**﴾ في تارة بسطه وفي تارة جعله كسفا ﴿**مِنْ خِلاَلِهِ**﴾ فُرَجِهِ جمع فرجة، وجمع خلل والهاء للسحاب، لأنَّه يذكَّر ويؤنَّثُ لأنَّه اسم جنس.

﴿**فَإِذَآ أَصَابَ بِهِ**﴾ أي بالودق، أو بالسحاب ﴿**مَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ أصاب بلادهم ﴿**إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ**﴾ بإصابته أرضهم، لأنَّه

١-أورده **العراقي** في المغني: ج٢، ص٢٠٤، **والسيوطي** في الدر: ج٥، ص١٧١، من حديث أبي الدرداء.

يسقي حرثهم وأشجارهم ودوابّهم، أو بالخصب المترتِّب عليه بعد، طمعا في سعة الرحمة.

﴿وَإِن كَانُواْ﴾ إن مخفّفة من الثقيلة مهملة، وقيل: تعمل فيقدَّر لها ضمير الشأن أو ضميرٌ يليق بالمقام مثل: وإنَّهم. ﴿مِن قَبْلِ أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِ﴾ من قبل تنزيل الودق.

(بلاغة) أعاده للتأكيد رفعا للمجاز على ما شهر أنَّ المجاز لا يؤكَّد تأكيدا لفظيًّا وإن ورد فقليل، ولو لم يؤكَّد لجاز أن يتوهَّم أنَّ المراد بـ﴿مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ﴾ من قبل أن تحصل به الثمار، ورفعا للقبلية المنفصلة، لَمَّا قال: ﴿مِن قَبْلِهِ﴾ دلَّ على الاتِّصَال المتبادر من القبليَّة، فأكَّد لشدَّة الاتِّصَال، وقيل: أكَّد ليدلَّ على بعد عهدهم بالمطر فيفهم منه استحكام يأسهم، وقال قطرب: هاء «قَبْلِهِ» للودق فلا تأكيد، وفيه أنَّه يكون المعنى من قبل تنزيل الودق ومن قبل الودق، وهو معنى ضعيف لا يفسَّر به القرآن.

وقيل: الهاء للاستبشار المدلول عليه بـ«يَسْتَبْشِرُونَ» على أنَّ «مِنْ» متعلِّقة بـ«يُنَزَّلَ»، و«مِنْ» الأولى متعلِّقة بقوله: ﴿لَمُبْلِسِينَ﴾ أي آيسين، فيفيد سرعة تقلُّب قلوبهم من اليأس إلى الاستبشار، بالإشارة إلى تقارب زمانيهما، ببيان اتِّصَال اليأس بالتنزيل المتَّصل بالاستبشار، بشهادة «إِذَا» الفجائية.

(نحو) وقيل: الهاء للزرع الدالِّ عليه الودق، أي من قبل أن يزرعوا، واعترض بتعلُّق «مِنْ» الأولى بـ«مُبْلِسِينَ» والحرفان بمعنى واحد لا يتعلَّقان بعامل واحد، إلاَّ إن كان أحدهما تأكيدا أو في عطف أو إبدال، ويجاب بأنَّ التحقيق إن كان تدلُّ على الحدث فيتعلَّق به «مِنْ» الأولى.

[قلت:] ولا يصحُّ ما قيل: إنَّه بدل اشتمال، لأنَّ كون الزرع ناشئا عن التنزيل، والتنزيل مشتملا عليه لا يكفي في الاشتمال المطلوب للبدل.

قال المبرِّد: الهاء للسحاب، أي من قبل رؤية السحاب، لأنَّهم إذا رأوا السحاب رجوا الودق، فيعلّق «مِنْ» الأولى بـ«كَانَ» والثانية بـ«مُبْلسِينَ» وقيل: الضمير للإرسال، وقيل: للاستبشار لأنّه قرن بالإبلاس، و«مِنْ» الأولى متعلّق بـ«كَانَ» والثانية بـ«مُبْلسِينَ».

﴿فَانظُرِ﴾ الفاء للسببيَّة والدلالة على سرعة تأثُّر الأرض وشجرها ونباها، وثمارها بالودق، وكأنَّه متَّصل به بلا فصل مدَّة، والمراد بالأمر بالنظر التنبيهُ على عظم قدرته وسعة رحمته سبحانه وتعالى وعزّ وجلّ، مع التمهيد للاستدلال بالبعث.

﴿إِلَىٰٓ أَثَرِ رَحْمَتِ اللهِ﴾ من خروج النبات، واخضرار ما يبس، وقُوَّة ما ضعف، وازدياد ما قوي، وأحوال الثمار ﴿كَيْفَ يُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾ الجملة بدل من «أَثَرِ» معلّق عنه «انظُرْ» بـ«كَيْفَ» أي إلى إحيائه الأرض إحياء بديعا.

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ العليَّ الشأن، ﴿لَمُحْيِي الْمَوْتَىٰ﴾ من الثقلين وغيرهما، كما أحيا الأرض، سواء بقي بعض ذلك الفاني أو لم يبق، ولا يحتاج إلى آلة ولا عادة، ولا شيء يبني عليه ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ أراد فعله أو لم يفعله من الممكنات، وأمَّا المحال فهو تعالى الذي جعله محالا يتنزّه عنه.

﴿وَلَئِنَ اَرْسَلْنَا رِيحًا﴾ حارَّة أو باردة ضارَّة للنبات بعد اخضراره ﴿فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّواْ﴾ أي رأوا النبات المفهوم من المقام، أو المعبَّر عنه بالأثر، أو المدلول عليه به، قيل: أو السحاب، لأنَّه إذا اصفرَّ لم يمطر، أو الريح، والأخيران ضعيفان، والأخير أضعف.

والريح لا ترى بالعين بل ترى الصفرة معها في الأجسام، كالتراب الذي تثير، واللام دليل على قَسَم محذوف، أي ووالله، أو وبالله، أو وربِّنا، سدَّ مسدَّ

جواب «إنْ». وجواب الشرط مستقبل، وهو في معنى نون التوكيد من حيث إنَّه جواب للقسم، كأنَّه قيل: ليظللن.

﴿مِن بَعْدِه﴾ بعد الإرسال أو بعد اصفرار النبات، وقيل: بعد استبشارهم ﴿يَكْفُرُونَ﴾ سراعا ومصرِّحين لأنَّهم فرحوا جدًّا بالودق، وكأنَّهم جزموا بنفعه ولم يتوكَّلوا على الله عَزَّ وَجَلَّ، فاشتدَّ انقطاع النفع، على قدر شدَّة فرحهم وجزمهم، فهم أفرطوا في الفرح والجزع، **والواجب أن لا يشتدَّ فرحهم ولا يجزموا،** لأنَّ الأمر بيد الله تعالى، ولا يعلمون الغيب، فإن تخلَّف رجاؤهم استغفروا ورجوه بعد وبادروا الطاعة وصبروا.

﴿فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ أي لا بدَّ من كفرهم إذا رأوه مصفرًّا، أو مطلقًا، لأنَّك لا تسمع الموتى وهم كالموتى، أو لا تحزن لعدم اهتدائهم بالآيات لأنَّك لا تسمع الموتى وهم موتى القلوب.

﴿وَلاَ تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَآءَ﴾ لا تقدر أن تُصَيِّر الصُّمَ سامعين الدُّعاء ﴿إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾ عنك، وهم كالصمِّ المدبرين، والأصمُّ لا يسمع صوتك ولو أقبل لك فكيف لو أدبر؟ لا تؤثِّر فيهم الآيات التي تُذَكِّرهم بها كأنَّهم لا يسمعون البتَّة. و«مُدْبِرِينَ» حال مؤكِّدة لعاملها.

﴿وَمَآ أَنتَ بِهَادِي الْعُمْيِ﴾ عُمْيِ أعين الوجوه ﴿عَن ضَلاَلَتِهِمْ﴾ عن ذهابهم عن الطَّريق المطلوب في الأرض بكلامك في وصف الطَّريق لهم فيها، بل تهديهم بجبذك بيدك إلى الطَّريق، والجبذ كالإكراه على الإيمان، والله عَزَّ وَجَلَّ أمرهم بالإيمان اختيارا ولم يرد أن يخلق فيهم الإيمان إجبارًا.

[قلت:] والحقُّ أنَّ الْمَيِّت يسمع كلام الحيِّ بأن يردَّ إليه روحه لمن يشاء إذا شاء لا بلا ردِّ روح، ولا لكلِّ أحد ولا كُلَّ وقت، ففي الصَّحيحين عن أنس

عن أبي طلحة أنَّ رسول الله ﷺ نادى أربعة وعشرين يوم بدر في طوي واحد من أطواء بدر: «**يا أبا جهل بن هشام، يا أميَّة بن خلف، ياعتبة بن ربيعة أليس وجدتم ما وعدكم ربُّكم حقًّا؟ فإنِّي قد وجدت ما وعدني ربِّي حقًّا**» فقال عمر رضي الله عنه : يارسول الله تكلِّم أجسادًا لا روحَ لها؟ فقال ﷺ : «**والذي نفس محمد بيده ما أنتم بأسمع لما أقول منهم**»، زاد مسلم في رواية عن أنس: «**ولكنهم لا يقدرون أن يجيبوا**» [ثمَّ أمر بهم فألقوا في قليب بدر](١).

والظَّاهر أنَّ المراد: ليس كما تقول ياعمر بل رُدَّت إليهم أرواحهم فسمعوا، والمشهور أنَّهم سبعون أُلقُوا في طَوْيٍ واحد. وفي رواية: أقام على القليب في اليوم الثَّالث وفيه قتلى بدر، فقال لهم ما مرَّ، وقال: «إنَّهم الآن ليعلمون ما كنت أقول» وإذا علموا بكلامه ما قال فقد سمعوا، وفي الصَّحيحين: «**يسمع الْمَيِّت قرع نعال أصحابه إذا دفنوه وانصرفوا عنه**»(٢)، وما ذلك إلاَّ لرجوع روحه إليه أو إلى بعضه.

(سيرة) ومن الموتى من يجيب ومنهم من لا يجيب، كانت أمُّ محجن تقمُّ المسجد وماتت ولم يعلم بها ﷺ فمرَّ بقبر فقال: لمن؟ قالوا: لأمِّ محجن، فصلَّى عليها جماعة فقال لها: أيَّ الأعمال وجدت أفضل؟ فأجابته: قمُّ المسجد، ــ أي إزالة قمامته وهو ما لا يليق به من نحو وسخ وأعواد وليقات ــ فقالوا:

١- رواه **مسلم** في كتاب الجَنَّة (١٧) باب عرض مقعد الْمَيِّت من الجَنَّة أو النار... رقم٧٧. **والنسائي** في كتاب الجنائز (١١٧) باب أرواح المؤمنين وغيرهم، رقم٢٠٧٣. من حديث أنس بن مالك.

٢- رواه **البخاري** في كتاب الجنائز (٦٦) باب الْمَيِّت يسمع خفق النعال، رقم ١٢٧٣. ورواه **مسلم** في كتاب الجَنَّة (١٧) باب عرض مقعد الْمَيِّت من الجَنَّة أو النار... رقم ٧١، من حديث أنس بن مالك.

أتسمع؟ فقال ﷺ : «**ما أنتم بأسمع منها**».

(سيرة) قال أبو هريرة: وقف ﷺ على مصعب بن عمير وعلى أصحابه إذ رجع من أحد، فقال: «**أشهدكم أنّهم أحياء عند الله تعالى، فزوروهم وسلّموا عليهم، فوالذي نفسي بيده لا يسلّم عليهم أحد إلاّ ردُّوا عليه إلى يوم القيامة**»، رواه البيهقي والحاكم. وعن ابن عبَّاس عن رسول الله ﷺ : «**ما من أحد يمرُّ بقبر أخيه المؤمن كان يعرفه في الدنيا يسلّم عليه إلاّ عرفه وردَّ عليه**»[1] رواه ابن عبد البر، وعبد الحق الإشبيلي[2].

فمعنى: ﴿فَإِنَّكَ لاَ تُسْمِعُ الْمَوْتَىٰ﴾ لا تسمعهم بلا إسماع منّي، ولا كلّ ميِّت، ولا كلّما شئت، أو **إسماعًا نافعًا، وغير النافع كالعدم، أو لا تهديهم**، كما قال:

﴿**إِن تُسْمِعُ إِلاَّ مَنْ يُّومِنُ بِئَايَاتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ**﴾ وقد علمت عدم خصوصيَّته ﷺ لما علمت من وقوع ذلك لغيره أيضًا، [قلت:] والأصل عدم التَّأويل، ويقال: يسمع الميِّت ويجيب حيًّا في قبره سبعة أيّام من موته، مؤمنًا أو كافرًا، وقد يردُّ الروح الجواب ويسمع وهو بين الميِّت وكفنه، وقد كثر آثار السمع والردِّ، وقد ورد أنّهما للزَّائر ليلة الجمعة ويومها أو بكرة السبت، أو يوم الخميس ويوم الجمعة، ويوم السبت، وقيل: بل يسمع السَّلام ويردُّ كلّ وقت سُلِّم عليه، ولا نسمع ردَّهم، وما جاء في الأثر أنّهم لا يطيقون الردَّ محمول على الرَّدِّ الذي يسمع.

١- أورده **ابن كثير** في تفسيره: ج٦، ص٣٣٠. **والزبيدي** في الإتحاف: ج١٠، ص٣٦٥. من حديث ابن عبَّاس.

٢- هو عبد الحق بن عبد الرحمن الأزدي الإشبيلي المعروف بابن الخراط، من علماء الأندلس، كان فقيها حافظا عالما بالحديث، مشاركا في الأدب وقول الشعر له عدَّة كتب، منها كتاب كبير في غريب القرآن والحديث. أصابته محنة فتوفي على أثرها سنة ٥٨١ هـ ببجاية. الزركلي: الأعلام، ج٦، ص٢٨١.

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَٰكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾

أطوار حياة الإنسان وأحواله بعد البعث

﴿اللهُ الذي﴾ مبتدأ وخبر ﴿خَلَقَكُم مِّن ضُعْف﴾ جعل الضُّعف أساس أمركم، شبَّهه بالأساس وَالْمَادَّة على الاستعارة المكنيَّة، ولفظ «مِنْ» تخييل، وهي ابتدائيَّة، قال الله ﷻ: ﴿وَخُلِقَ الانسَانُ ضَعِيفًا﴾ (سورة النساء: ٢٨)، فيجوز أن يكون «ضُعْف» بمعنى ضعيف، أو ذي ضعف، أو مبالغة، على أنَّ المراد النطفة، كقوله تعالى: ﴿مِن مَّآءٍ مَّهِينٍ﴾ (سورة المرسلات: ٢٠).

﴿ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْد ضُعْف قُوَّةً﴾ بتعلُّق الروح بالبدن في البطن، أو ببلوغ الحلم ﴿ثمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْد قُوَّة ضُعْفًا وَشَيْبَةً﴾ المراد بضعف ابتدائه وبالشيبة ما بعد ذلك، ولهذا أخَّر الشيب، أو المراد بالضعف أعمُّ فذكر الشيبة للبيان، أو ليجمع في الذكر بين الضعف الباطن والظاهر إذ يرى بالشيب.

(لغة) والضعف بضمِّ الضاد لغة قريش وبفتحها لغة تميم، قرأ ابن عمر بالفتح فقال له ﷺ: «اقرأ يا بني الضُّعف لغة قومك» قرأ له بالضمِّ، وقومه قريش. وكلاهما في البدن والعقل لا كما قال كثير من اللغويين: الضمُّ في البدن والفتح في العقل.

(قراءة) وقرأ عاصم بالفتح وروي عنه بالضمِّ، وعنه الفتح في الأخير والضمُّ في الأوَّلين. وعن أبي عبد الرحمن والجحدري والضحَّاك ضمُّ الأوَّل

والفتح في الأخيرين، والضعف الثاني هو الأوَّل، وَالقُوَّة الثانية هي الأولى، وكون النكرة الثانية غير الأولى أغلبي، فالأصل: من بعد الضعف قُوَّة، ومن بعد القُوَّة ضعفا، ونكِّرا لمشاكلة النكرة، والضعف الثالث نكرة لأنَّه غير الأوَّلين، وهو ضعف الكبر. وقيل: الضعف الثاني ضعف آخر بعد الأوَّل، فالأوَّل ما قبل الولادة، والثاني ما بعدها إلى البلوغ، وَالقُوَّة الثانية ما بعد الأولى بحسب ما تفرض كقوَّة نفخ الروح، وَقُوَّة ما بعد إلى البلوغ، أو قُوَّة الشباب إلى أن تفنى، أو التنكير باعتبار محالِّهما من الأفراد.

﴿يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ﴾ خلقه من قُوَّة وضعف وغيرهما، وهذا أولى من أن يفسَّر بخلق أسبابهما أو محالِّهما ﴿وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ﴾ لا يعجزه شيء شاءه.

﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ﴾ أي تحضر وهي ساعة القيام من القبور، أو القيام في المحشر للحساب، وقيل: سمِّيت ساعة لأنَّها تقوم آخر ساعة من ساعات الدنيا، على أنَّ البرزخ من الدنيا، وهو ما بين موت الإنسان وبعثه، أو لأنَّها تقع بغتة فاللفظ علم بالغلبة.

﴿يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ﴾ بعد الموت ﴿غَيْرَ سَاعَةٍ﴾ قطعة من الزمان قليلة، وهي غير الساعة الأولى وهذا أولى ممَّا قيل عن قتادة: إنَّهم يعنون ما لبثوا في الدنيا غير ساعة، لأنَّ لبثهم مغيًّا بيوم القيامة كما يأتي، ولبثهم في الدنيا ليس كذلك، ووجهه أنَّه لم ينتفعوا به فهو كالعدم فهم متحسِّرون عليه.

وقيل: المراد ما بين نفخة الموت ونفخة البعث، وفيه ينقطع العذاب عن الموتى، أو هو أربعون سنة لا ترجع إليهم أرواحهم كأنَّهم نائمون، فيبعثون وهم في راحة كالنائم، ولا يعلمون كم مدَّة انقطع العذاب، وقيل: علموا أربعين واستقلُّوها كذبا، كما روي عن الكلبي، أو نسيانا لما عراهم من هول المحشر، على أنَّهم قالوا ذلك أوَّل المحشر أو في أثنائه، أو بعد دخول النار، أو استقلُّوا

المدَّة بالإضافة إلى مدَّة العذاب لعلمهم بها، ولو قبل حضوره، وقيل: لا تعلم تلك المدَّة.

(بلاغة) وبين «السَّاعَةُ» و«سَاعَة» جناس تامٌّ مماثل ولو اختلفا إعرابا وتعريفا وتنكيرا، ولو اتَّحَدَ مدلولهما في الأصل وهو المدَّة الزمنيَّة لاختلافهما في القصد، فإنَّ «الساعة» كالعَلَم، و«ساعة» غير ذلك، وكلا اللفظين حقيقة، ولا يقع الجناس بين حقيقة ومجاز، نحو لقيت حمارا وحمارا معمَّما، تعني بالثاني البليد مجازا بقرينة العمامة.

﴿كَذَالِكَ﴾ مثل ذلك الصرف عن الصواب **﴿كَانُواْ يُوفَكُونَ﴾** في الدنيا يأفكهم الله بالخذلان أو يأفكهم الهوى، أو الشيطان باختيارهم لا بإجبار، أي يصرفون عنه أو مثل ذلك الإفك كانوا يوفكون في الاغترار بما تبيَّن لهم الآن انقطاعه، وأنَّه قليل كالعدم. **وعظهم الله بذلك ليرجعوا إلى الحقِّ.**

﴿وَقَالَ الذينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ وَالايمَانَ﴾ يتبادر أنَّهم مؤمنون، ويحتمل الملائكة، ووجهه أنَّهم المتَّصفون يوم البعث بالكلام أكثر من الناس، وأنَّ الناس أشدُّ خوفا منهم في ذلك اليوم، وأنَّ لكلِّ إنسان ملكا أو أملاكا يقارنه في الدنيا، ويحتمل المؤمنين والملائكة بمرَّة أو انفراد.

﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ متعلِّق بلبث، أي في علمه أو قضائه، أو ما كتبه وعيَّنه سبحانه، أو اللوح المحفوظ أو القرآن، والمعنى: إن لبثكم ذلك مقرَّر فيما ذكر، ويبعد ما قيل الأصل: «وقال الذين أوتوا العلم والإيمان في كتاب الله لقد لبثتم». **﴿إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ﴾** والكلام ردٌّ لما قالوه، وتوبيخ وتهكُّم بهم **﴿فَهَذَا﴾** ترتيب ذكري، أو لأنَّ هذا **﴿يَوْمُ الْبَعْثِ﴾** عطف على **﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ...﴾** أو إن أنكرتم البعث فهذا يومه، وقد تبيَّن بطلان إنكاركم **﴿وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾** أنَّه حقٌّ لإهمالكم عقولكم عن النظر، حتَّى إنَّكم تستعجلون

به استهزاء، وقيل: ولكنَّكم كنتم لا تعلمون، فصار مصيركم إلى النار، ولا دليل على هذا، ولو كان حقًا في نفس الأمر، اللهمَّ إلاَّ إن روعيت له مناسبة من قوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ... يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لأنَّهم يعتذرون لئلاَّ يدخلوا النار، والمعنى: يوم إذ يقسم المجرمون ما لبثوا غير ساعة وقيل لهم: لقد لبثتم...الخ.

﴿لاَّ تَنفَعُ الذِينَ ظَلَمُواْ مَعْذِرَتُهُمْ﴾ أي عذرهم، أجرموا وأنكروا البعث، الأصل: لا تنفعهم، وأظهر ليصرِّح عليهم بعلَّة الظلم على موجب انتفاء النفع، وليعرض عن الخطاب إهانة لهم، كما قال: ﴿وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ لا يطلب منهم إزالة عتب الله، أي غضبه، بالتوبة والطاعة، وذلك كاستقردت البعير: أزلت قراده.

وذكرت في شرح اللامية أنَّ من معاني الاستفعال الإزالة، ولا يقال لهم: أرضوا ربَّكم بالتوبة والطاعة، كما يقال لهم في الدنيا.

والعتبى يطلق على الرضى، وكأنَّه قيل: ولا يطلب منهم أن يطلبوا العتبى، أي الرضى من الله ﷻ، وقيل: لا يعاتبون على ما فعلوا.

﴿ وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَلَئِن جِئْتَهُم بِآيَةٍ لَّيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ ۝٥٨ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝٥٩ فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ۝٦٠ ﴾

إعراض المشركين عن القرآن وأمر النبيء بالصبر على الأذى

﴿وَلَقَد ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ﴾ هو الكتاب المسمَّى بالقرآن، أولى من أن يقال المراد السورة هذه، وضرب المثل اتِّخاذه وصنعه، كضرب الخاتم واللبنة.

﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ «مِنْ» تبعيضية، أي بعض كُلِّ نوع من الأمثال، ويجوز أن تكون ابتدائية، كأنَّه قيل: أخذنا لهم من كلِّ نوع، ومن أجاز زيادة «مِنْ» في الإثبات أجازها هنا، ولا تنافي زيادهّا معنى تبعيضيتها في الوجه الآخر، لأنَّ معنى ضرب كلِّ مثل ضربُ كلِّ مثل لائق بهم، قضى الله به من جملة الأمثال الممكنة اللائقة أيضا.

وعلى كلِّ حال المثل الصفة العجيبة الشأن كصفة البعث، وما يقول المجرمون وما يقال لهم، وعدم انتفاع اعتذارهم وانتفاء استعتاهم مجازا عن الصفة الغريبة، أو عن كلام شبِّه مضربه بمورده.

وفسَّر بعضهم «ضربنا» بيَّـنَّا، والمثل كما مرَّ أي بيَّنا للناس من كلِّ مثل يخبرهم عن التوحيد والبعث، وصدق الرسول ﷺ.

﴿وَلَئِن جِئْـتَهُم بِئَايَةٍ﴾ مَّا من آياتنا العظام، أو معجزة مَّا من المعجزات التي طلبوها مع ضربنا الأمثال لهم كلَّها ﴿لَّيَقُولَنَّ الذينَ كَفَرُوٓاْ﴾ لرسوخهم في الإصرار والقسوة ﴿إِنَ اَنتُمُ،﴾ يا محمد وأتباعه ﴿إِلاَّ مُبْطِلُونَ﴾ آتون بالباطل من زور وكذب وأساطير الأَوَّلِينَ، والأصل: «ليقولُنَّ إن أنتم إلاَّ مبطلون» بضمِّ اللام في «يقولُنَّ»، ولكن أظهر ليذكرهم بالكفر الحامل لهم على قولهم «إِنَ اَنتُمُ، إِلاَّ مُبْطِلُونَ»، على أنَّ المراد قومه ﷺ. وأمَّا إن أريد به العموم المؤمنون والكفرة، فليس الذين كفروا من وضع الظاهر موضع المضمر.

وأفرد الخطاب في «جِئْتَهُم» وجمعه في «اَنتُم» ليدخل المؤمنون كلُّهم في خطاهم له، فلا يبقى له مؤمن يشهد بصدقه، وقيل: لأنَّ المراد: ولئن جئتهم بكلِّ آية جاءت بها الرسل، أو يمكن أن يجيئوا بها، قالوا: أنتم كلُّكم أَيــُّهَا المدَّعون الرسالة مبطلون، وهذا ــ ولو كان أبلغ في تكذيبهم للحقِّ ــ خلاف

الظاهر، ولا دليل على إرادته هنا، إذ لا ذكر للرسل هنا، ولأنّ «آية» مفردة في الإثبات، ليس معنى الجمع إلاّ على سبيل البدليَّة هذه أو هذه لا كلّ الآيات.

﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ مثل ذلك القول، وأولى منه: مثل ذلك الطبع كنظائره، ولأنَّه المذكور في قوله: ﴿**يَطْبَعُ اللهُ**﴾ يختم الله ﷻ ﴿**عَلَىٰ قُلُوبِ الذينَ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ ليس من شأنهم العلم، لأنَّهم لا يطلبونه ولا يقبلونه من معلِّم ولا يستعملون عقولهم فتجرَّهم إليه، ولا علموا أنَّهم جاهلون بل يدَّعون أنَّهم على علم، فجهلهم مركب. قلت:

قال حمار: راكبي جاهل جهلا مركبا وبي ساخر
وإنّ جهلي بسيط فإن أنصف أركبه ولا ناكر

وقيل: معنى ﴿لاَ يَعْلَمُونَ﴾ لا يطلبون العلم، لأنّ العلم ملزم للطلب، والطلب لازم له، فإنّ العادة أنّه من جهل شيئا يطلب علمه، أو بالعكس، فإنَّه من علم إنَّما يعلم غالبا بالطلب، و﴿الذينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ خصوص هؤلاء، وغيرهم تبع، أو عموم فيدخل الخصوص أوَّلا وبالذات.

﴿**فَاصْبِرْ**﴾ عطف إنشاء على إخبار، أو إذا علمت حالهم وطبع الله على قلوبهم فاصبر على تكذيبهم ﴿**إِنَّ وَعْدَ اللهِ**﴾ لك بالنصر عليهم دنيا وأخرى بإظهار الدين ﴿**حَقٌّ**﴾ لا يتخلّف.

﴿**وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ**﴾ لا يحملك على الخفّة والقلق بالاستعجال ﴿**الذينَ لاَ يُوقِنُونَ**﴾ الذين ضعف إيمانهم، أو المنافقون، أو لا يؤمنون، كما قالوا: «إِنَ انتُمُ، إِلاَّ مُبْطِلُونَ». واللفظ نهي للذين لا يوقنون.

والمراد: نهيه ﷺ عن أن يؤثّر فيه استخفافهم، تعبيرا بالسبب عن المسبَّب، فإنّ استخفافهم سبب لتأثّره به حاشاه، أو عن اللازم بالملزوم.

روى البيهقي والحاكم وغيرهما[1] أنّ رجلا على رأي الصفريَّة نادى عليًّا في صلاة الفجر وقال: ﴿وَلَقَدْ اوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الذينَ مِن قَبْلكَ لَئِنَ اشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ، وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة الزمر: ٦٥)، فأجابه من الصلاة: ﴿فَاصْبِرِ انَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلاَ يَسْتَخِفَّنَّكَ الذينَ لاَ يُوقِنُونَ﴾.

(أصول الدين) وذلك أنّ الصُّفْرِيَّة يقولون إنّ الذنب مطلقا أو الكبيرة إشراك، وأخطأوا في ذلك، ولا يصحُّ أن يجيبهم من الصلاة، وإن صحّ فنسيان، وإنَّما أجابهم بآية في أهل الشرك، لأنّه أراد ظاهر الوعظ أوعموم لفظها، أو فسَّرها بمن ضعف إيمانه، أو لأنّ عنده من نسب موحدا إلى إشراك مشرك، ولا يسبى ولا يغنم كما هو قول في كتب الفقه.

ولاحول ولاقوة إلاّ بالله العلي العظيم
وصلّى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

١- في كتاب مسند ابن الجعد ذكر القصَّة ونسبها إلى رجل من الخوارج الغلاة كما في السنن الكبرى للبيهقي، رقم ٣٤١٦، في كتاب الصلاة، باب ما يجوز من قراءة... رواية عن حكيم بن سعد. والصفريَّة لم يظهروا بعد في زمن علي رضي الله عنه .

تفسير سورة لقمان وآياتها ٣٤

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ① تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْحَكِيمِ ② هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ ③ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ④ أُو۟لَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ⑤﴾

خصائص القرآن وأوصاف المؤمنين به

﴿أَلَمِّ تِلْكَ ءَايَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾ إسناد الحكمة إلى الكتاب مجاز عقليٌّ وحقيقته لله، وكان إلى الكتاب لأنَّه من الله، أو المعنى: للكتاب ذي الحكمة لاشتماله عليها، وكأنَّه تملَّكها، أو هو كَلاَبِن وتَامر، أو الحكيم منزِّلُهُ فحذف المضاف وهو «منزِّل» فناب عنه المضاف إليه في الرَّفع وهو الهاء فخلفها ضمير رفع واستتر.

(بلاغة) أو بمعنى حاكم على المكلَّفين بما فيه، أو شبَّه الكتاب بإنسان حاكم ولم يذكر المشبَّه به ورمز إليه بلازمه وهو الحُكم، فذلك استعارة بالكناية.

﴿هُدًى وَرَحْمَةً لِّلْمُحْسِنِينَ﴾ حال من «آياتُ» المخبر به عن اسم الإشارة، فالعامل فيه معنى الإشارة على حذف مضاف، أي ذوات هدى ورحمة، أو هاديات وراحمات على المجاز، أو نفس الهدى والرَّحمة مبالغة. و«لِلْمُحْسِنِينَ» نعت لهما، أي للعاملين ما يستحسنه الشَّرع.

﴿الذينَ يُقيمُونَ الصَّلَوٰةَ وَيُؤتُونَ الزَّكَوٰةَ وَهُم بِالاَخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ﴾ تقدَّم مثل هذا [في أَوَّل سورة البقرة]. و«الذينَ» نعت كاشف للمحسنين، لأنَّ الإقامة والإيتاء والإيقان إحسان، والأولى أنَّه غير كاشف وأنَّ الإحسان أعمُّ من

ذلك، ومن العجيب جعله خبرًا لمحذوف أي هم، اعتبارًا لصحَّته في المعنى، أو منصوب بمحذوف كذلك بلا دليل يَدُلُّ على الحذف.

﴿أُوْلَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ استئناف، ويجوز أن يكون «الذينَ» مبتدأ خبره «أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ» وما بعده عطف على الخبر.

﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ۞٦ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا كَأَنَّ فِي أُذُنَيْهِ وَقْرًا فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ۞٧ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ ۞٨ خَالِدِينَ فِيهَا وَعْدَ اللَّهِ حَقًّا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۞٩﴾

إعراض الكافرين عن القرآن واستبداله باللهو

﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ «مِنْ» للتَّبعيض، وجعل بعضهم «مِنْ» التبعيضيَّة اسما مضافًا لما بعدها ﴿مَنْ يَّشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيث لِيُضِلَّ﴾ غيره ﴿عَنْ سَبِيلِ اللهِ﴾ أي دين الله، أي يثبته في الضَّلال سواء كان فيه من قبل أو يجرُّه إليه، والعطف على ما قبل، وكأنَّه قيل: من النَّاس مهتد هادٍ ومنهم ضالٌّ مضلٌّ. واللاَّم للتَّعليل لا للعاقبة.

و﴿لَهْوَ الْحَدِيث﴾: ما أشْغَلَ عن عبادة الله تعالى من التَّحدث ليلا أو نهارًا بما ليس طاعة ولا لفائدة مباحة، ومن الأضاحيك والخرافات والغناء ونحو ذلك، والنَّميمة والغيبة إذا لهي بهما تَفكُّهًا، وكالكلام في المسجد، فقد روي: «الكلام في المسجد -أي بغير ما لابدَّ منه ولا عبادة- يأكل الحسنات كما تأكل النَّار الحطب اليابس». ويروى: «كما تأكل الدَّابة الحشيش». وعن الضَّحاك: ﴿لَهْوَ الْحَدِيث﴾: الشِّرك، وقيل: السِّحر، ولا يحسن هذان التفسيران، **والأخير أبعد.**

والاشتراء الاختيار والاستبدال عن القرآن والذِّكر على سبيل الاستعارة، وقيل: الشِّراء حقيقة، يشتري بماله عبدا يغنِّي له، أو أمة أو آلة الغناء أو يعطي الأجرة لمن يغنِّي، أي يشتري آلة لهو وهي الأمة أو العبدُ أو المزمار، ولا يمنع من كون الإنسان آلة، فصاحب الأمة مثلا يتَوَصَّلُ بها إلى حصول الغناء.

(سبب النزول) روي أنَّ النضر بن الحارث اشترى مغنية وكلُّ من أراد الإسلام أتاها به، وقال: غنِّي له وأطعميه وأسقيه، وقال له: هذا خير لك من الصلاة والصَّوم والقتال بين يدي محمَّد ﷺ . وكان يسافر إلى فارس فيشتري كتب أخبار العجم فيحدِّث بها قريشًا ويقول: محمَّد يحدِّثكم عن عاد وثمود وأنا أحدِّثكم بحديث رستم واسْفَنْدِيَار والأكاسرة، فيميلون إليه عن استماع القرآن. واشترى ابن أخطل جارية تغنِّي بالسبِّ، فنزلت الآية فيهما، وفي أمثالهما.

و الجمع في ﴿اوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ مناسب لتلك الجماعة، بل لا ينافي الإفراد كالنَّضْرِ وحده، أو كابن أخطل وحده، لأنَّ الله تعالى يشير في القرآن إلى النَّوع ولو لم يكن إلاَّ فردٌ واحد منه، وأيضا لذلك الفرد جماعة تقبل قوله فهم مثله، وفي مسند البيهقي عن ابن مسعود: «**إذا ركب الرَّجل الدَّابة ولم يُسَمِّ رَدَفَهُ شيطان، فقال تَغَنَّهْ، وإن لم يحسن قال تَمَنَّهْ**».

(**فقه**) وسأل رجل القاسم بن محمَّد[1] عن الغناء أهو حرام؟ فقال: انظر يا أخي اذا ميَّز الله تعالى الحقَّ والباطل في أيِّهما يكون؟. وعنه: «لعن الله

١- هو القاسم بن محمَّد بن أبي بكر الصديق أحد الفقهاء السبعة في المدينة المنوَّرة، توفي بقديد بين مَكَّة والمدينة محرما، وكان صالحا ثقة من سادات التابعين، توفي سنة ١٠٧ هـ. الزركلي: الأعلام، ج٥، ص١٨١.

المُغَنِّي والمُغَنَّى لَهُ». وفي مسند أبي داود عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ : «**الغناء ينبت النِّفاق في القلب كما ينبت الماء البقل**». وروى ابن أبي الدنيا وابن مردويه عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ : «**ما رفع أحد صوته بغناء إلاّ بعث الله إليه شيطانين يجلسان على منكبيه يضربان بأعقابهما على صدره حتَّى يمسك**»[١].

(**فقه**) وروى ابن ماجه والترمذي والطبري والطبراني عن أبي أمامة عن رسول الله ﷺ : «**لا تبيعوا القينات ولا تشتروهنَّ ولا تعلِّموهنَّ، ولا خير في تجارة فيهنَّ وثمنهنَّ حرام**»[٢]. ومثله عن عائشة، وفي رواية: «الاستماع إليهنَّ حرام»، وما لا يجوز يحرم الاستماع إليه، وعن ابن مسعود: «والله إنَّ لَهْوَ الحديث هو الغناء» قاله ثلاثًا، وعن مكحول: «من اشترى أَمَةً للغناء ومات لم أُصَلِّ عليه».

وقد يجوز للإنسان أن يغنِّي بشعر وحده لإزالة الوحشة، قال عمر: إذا خلونا قلنا ما يقول النَّاس، وقد تغنَّى بقوله:

وكيف ثوائي بالمدينة بعدما قضى وطرا منها جميل بن مَعْمَرِ

وهذا لغيره [لأنَّ جميل بثينة كان بعد عمر]، وقيل: أراد به جميل الجمحي وكان خَاصًّا به. وعنه ﷺ : «**ليس منَّا من لم يتغنَّ بالقرآن**»[٣]. ومن معاني هذا: من لم يستغن بالقرآن عن غيره.

١- أورده **السيوطي** في الدر: ج٥، ص١٧٣. **وابن أبي الدنيا** في ذم الملاهي، ج١، ص١٥٣. من حديث أبي أمامة.

٢- رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (٥) باب من سورة لقمان، رقم٣١٩٥. **والتبريزي** في كتاب البيوع (١) رقم ٢٧٨٠. من حديث أبي أمامة.

٣- رواه **البخاري** في كتاب التوحيد (٤٤) باب قوله تعالى: {وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ...}. وأورده صاحب الحاشية على مسند الربيع في شرح الحديث رقم ٤ من عدَّة روايات مع بحث مستفيض.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ مع غير علم، حال من الضمير في «يَشْتَرِي»، أو متعلّق بـ«يَشْتَرِي»، أي بغير علم بحال ما يشتريه أنّه لا ينفعه بل يضرُّه، أو بغير علم بطريق التجر إذ باع نافعا بضرٍّ: الهدى بالضلال، أو متعلّق بـ«يُضِلَّ» أي جاهلا أنّ ما يدعو إليه رسول الله ﷺ هو سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، أو جاهلا أنّه يضلُّ، أو جاهلا للحقِّ.

﴿وَيَتَّخِذُهَا﴾ أي السبيل، عطف على «يَشْتَرِي» ﴿هُزُؤًا﴾ مهزوءا بها، والسبيل يذكَّر ويؤنَّث ﴿اولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ لهم لأجل اتِّصافهم بإهانة الحقِّ، وترغيب الناس في خلافه، وإشارة البعد لبعد مرتبتهم في الضلال، والجمع باعتبار معنى «مَنْ» بعد اعتبار لفظها بالإفراد.

واعتبر لفظها في قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ءَايَاتُنَا﴾ روعي لفظها ثمّ معناها ثمّ لفظها، كقوله تعالى في سورة الطلاق: ﴿وَمَنْ يُّومِنْ بِاللهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا...﴾ [آية ١١]. ﴿وَلَّىٰ﴾ أعرض عنها ﴿مُسْتَكْبِرًا﴾ متكبِّرا جدًّا ﴿كَأَن﴾ أي كأنّه، أي ذلك المستكبر، أو كأنّه أي الشأن، وقيل: يجوز أن لا يقدَّر ضمير ﴿لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾ جملة «كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا» حال من المستتر في «وَلَّىٰ» أو في «مُسْتَكْبِرًا»، أو مستأنفة.

عاب الله عليه لمَ لم يتأثَّر بسماعها مع عظم شأنها في التأثير؟ أو أراد مطلق التشبيه ﴿كَأَنَّ فِي أُذْنَيْهِ وَقْرًا﴾ صمما مانعا من السمع، وذلك حقيقة بالشيوع، وأصله الحمل الثقيل، أو فسَّره بثقل السمع لا بانتفائه البتَّة، والأوَّل أولى لأنّ كفرهم كلّي.

(نحو) والجملة حال بعد حال ممَّا مرّ، أو حال من المستتر في «يَسْمَعْ»، أو مستأنفة لا بدل كلٍّ من كلٍّ من قوله: ﴿كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾، ولا عطف بيان له، لأنّ انتفاء السمع ليس هو ثبوت الصمم في أذنيه بل لازمه

ومسبّبه، فيصحُّ أن يكون بدل اشتمال. والجملتان على الترقّي في البعد عن القبول، وشدّدت «كَأَنَّ» في الثانية للمناسبة لهذا الترقّي، ولمناسبة التشديد لثقل الوقر في معناه.

﴿فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ اَلِيمٍ﴾ مفرط في الإيلام تبشيرا تهكُّميًّا.

﴿إِنَّ الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَهُمْ﴾ لإيمانهم وعملهم ﴿جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ بساتين، جنس النعمة أضيفت للنعيم لاشتمالها عليه.

(بلاغة) وذلك أبلغ من نعيم الجنَّات، لأنَّه أفاد أنَّ لهم نفس الجنَّة ونعيمها ممَّا لم يدخل في نفسها، ولا يتوهَّم أنَّ لهم نفسها دون نعيمها، وأمَّا نعيم الجنَّات فيصدق بأنَّ لهم نعيمها دونها يؤتى إليهم به فيها، كما يسكن الإنسان دار ويتنعَّم بها وليست ملكا له، ولا يصحُّ ما قيل: إنَّه أبلغ من حيث جعل النعيم أصلا ميِّزت به الجَنـــَّات، فيفيد كثرة النعيم، وذلك على ظاهره.

وقيل عن مالك بن دينار رحمه الله: «جنَّات النعيم بين جنَّات الفردوس، وجنَّات عدن فيها جوار خلقن من ورد الجنَّة» قيل: ومن يسكنها؟ قال: «الذين همُّوا بالمعاصي فلمَّا ذكروا عظمة الله راقبوه، والذين انثنت أصلابهم في خشيته» أي انعطفت، قال بعض المحقِّقين: والله أعلم بصحَّة الخبر.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ حال من الهاء، أو من ضمير الاستقرار في «لَهُمْ»، لأنَّ «لَهُمْ» خبر لقوله: ﴿جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ أولى من جعله خبرا لـــ«إِنَّ»، و«جَنَّاتُ» فاعله.

﴿وَعْدَ اللهِ﴾ وعد الله ذلك وعدا، وأضيف المصدر للفظ الجلالة وحذف «وعد» و«ذلك». ﴿حَقًّا﴾ مصدر لمحذوف أي حقَّ ذلك، أو حقَّ الوعد حقًّا مؤكّد لغيره، وهو وعد الله، وهو كقولك: أنت ابني حقًّا، وليس «حقًّا» هو

نفس قوله: ﴿وَعْدَ اللهِ﴾ فإنَّ وعد الله لا يلزم أن يكون في اللغة حقًّا بل في الشرع والعقل.

(نحو) وزعم بعض أنَّه مؤكِّد لنفسه، بمعنى أنَّه مؤكِّد لجملة قبله هي نفسه، نحو: له عليَّ ألف اعترافا، لدلالة الجملة قبله على الحقِّية من أوجه، **وليس كذلك**، لأنَّ هذه الدلالات على الحقِّية ليس من العبارة بل من خارج، وإنَّما يعلم عدم البطلان من العقل، ومن غير ذلك من الدلائل.

﴿**وَهُوَ الْعَزِيزُ**﴾ الغالب الذي لا يعجزه شيء ولا يصرفه عن الوفاء بالوعد ﴿**الْحَكِيمُ**﴾ الذي عظمت حكمته بحيث لا يخرج عنها فعل من أفعاله أو قول أو قضاء.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ رَوَٰسِىَ أَن تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿١٠﴾ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ۚ بَلِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿١١﴾﴾

الاستدلال بخلق السَّماوات والأرض على وحدانيَّة الله

﴿**خَلَقَ السَّمَاوَاتِ**﴾ السَّبع، فكيف لا تؤمنون به ﴿**بِغَيْرِ عَمَدٍ**﴾ جمع عِمَاد كإهاب مفرد الأَهَبِ، وهو ما يعمد به أي يسند إليه الشَّيء، وجمع عماد لتعدُّد السَّماوات، كلٌّ واحدة بلا عماد لا من فوقها تتعمَّد عليه بالتعلُّق، ولا من تحتها تتعمَّد عليه بالتمكُّن فيه.

«تَرَوْنَهَا» نعت لـــ«عَمَدٍ» في حيِّز النفي بـــ«غَيْرِ»، بمعنى أنَّ العمد غير موجودة لا كالأشياء التي تعمدً فترون عمدها، أو لو كانت لرأيتم عماد السَّماء الدُّنيا، فتقيسون عليها غيرها من بقيَّة السَّماوات، كقولك: لا ترى زيدًا في

السُّوق، بمعنى أنَّه لا يكون فيها فلا تراه فيها، أو «ترى» بمعنى تعلم، لو كانت لأخبرتكم بها كما أخبرتكم بغيب السَّماوات لتعتبروا، أو احتراز عن عمد موجودة لا تُرى، وهي عمد القدرة.

﴿وَأَلْقَىٰ فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ﴾ جبالاً مرتفعات أو ثوابت ﴿أَن تَمِيدَ﴾ كراهة أن تميد، أو لئَلاَّ تميد، أي تضطرب ﴿بِكُمْ﴾ للمياه المحيطة بها الغامرة لأكثرها المقتضية لتحريكها، والرِّياح العواصف المقتضية له.

[قلت:] على أنَّها كروية الشكل لا بسيطة كما قال القليل، ولو كانت بسيطة لم تمد، ولو لم تكن الجبال، كذا قيل، وعدم ظهور كريَّتها إنَّما هو لعظم جرمها، وكذلك خلق الله الأرض وأرضين تحتها بلا عمد من قوق ولا تحت، ولو كان للسماوات أو للأرضين عمد لاحتاجت العمد إلى عمد أخرى، فيتسلسل، وما ورد من عمد إذا صحَّ ينتهي إلى غير عمد بقدرة الله، وإذا كان عمد بلا عمد تحتها فذلك نفس القدرة على عدم العمد.

﴿وَبَثَّ﴾ فرَّق ونشر ﴿فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ﴾ نوع كُلِّ دَابَّة، وذلك مستلزم لإيجَاده إيَّاها، فكأنَّه قيل: أوجدها فيها وبثَّها، ويجوز أن يكون ﴿بَثَّ﴾ بمعنى خلق وأوجد، فعبَّر بالملزوم عن اللازم فإنَّه يلزم من البثِّ أنَّها موجودة مخلوقة.

﴿وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَآءِ﴾ جهات العلوِّ أو السَّحاب لا من السَّماء إحدى السَّبع، أو الجنس لعدم ظهوره، لَكِنَّ الله قادر، ولكن نشاهد أمطارًا مادَّتها من البحر والعيون ﴿مَآءً﴾ مطرًا.

﴿فَأَنبَتْنَا فِيهَا﴾ في الأرض بذلك الماء ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾ والمفعول محذوف، أي ما شئنا، أو أنواعا من كُلِّ صنف ﴿كَرِيمٍ﴾ شريف كثير المنفعة، والتكلُّم بعد الغيبة لإظهار مزيد الاعتناء بإنزال الماء والإنبات لتكرُّرهما مع استقامة حال الحيوان وعمارة الأرض بهما.

﴿هَذَا﴾ ما ذكر من السَّماوات والأرض والماء والنَّبات ﴿خَلْقُ اللهِ﴾ مخلوقه ﴿فَأَرُونِي﴾ عطف إنشاء على إخبار، أو إذا علمتم ذلك فأروني، أي أعلموني، لا أظْهِرُوا لي، لأنَّ الإظهار ليس قلبيًّا، فلا يتعلّق بالاستفهام بعدُ. ﴿مَاذَا خَلَقَ الذينَ مِن دُونِه﴾ أي الأصنام، وجمع العقلاء مجاراةً على مقتضى زعمهم، أو تغليب للعقلاء مِمَّن عبد من دون الله، كالملائكة وعزير وعيسى.

(نحو) و«مَاذَا» اسم واحد مفعول لـ«خَلَقَ» وجملة «خَلَقَ الذينَ» معلّق عنها «أَرُوا» بالاستفهام، أو «مَا» مبتدأ و«ذَا» خبر، أو بالعكس و«خَلَقَ» صلة «ذَا» وهو اسم موصول والجملة معلّق عنها، وأجاز بعض أنّ «مَاذَا» اسم واحد موصول بجملة «خَلَقَ الذينَ» مفعول ثان، وهو سهو لخروجه عن الصدر، وهو مفرد لا جملة معلّق عنها.

﴿بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ الظَّالمون مطلقًا، فيدخل هؤلاء بالأولى، أو هم المراد وضعا للظاهر موضعَ المضمر، ليذمَّهم باسم الظلم ويزجرهم وغيرهم بذكره.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ

أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾

لقمان الحكيم ووصاياه لابنه

﴿وَلَقَدَ ـــ اتَيْنا﴾ أعطينا بإلهام أو بوحيٍ أو بتعليم ﴿لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ لفظ عجميٌّ، وقيل: عربيٌّ من «لقم»، لأنَّ العرب قد تسمِّي بأسماء غيرها، وغيرُها قد يسمُّون بأسمائها قصدًا إليها، ولِعَاد لقمان آخَر، وهم عرب، فهو من «اللّقم»، فليكن الذي في السورة كذلك.

[قيل:] هو لقمان بن باعوراء بن ناحور بن تارخ وهو آزر، فهو من أولاد آزر، وقيل: ابن أخت أيُّـوب عند وهب، أو ابن خالته، وبه قال مقاتل، وقال السُّهيلي: ابن عنقا بن سرون، قيل: عاش ألف سنة، وأدرك دواد عليه السلام وأخذ منه العلم، وكان يفتي، ولَمَّا بعث داود عليه السلام ترك الإفتاء فقيل له؟ فقال: ألا أكتفي إذا كفيت؟ وكان قاضيا في بني إسرائيل.

(قصص) وروي أنَّه نودي في نومه نصف الليل: هل لك يا لقمان أن أجعلك خليفة للحكم بين الناس؟ فقال: إن خيَّرني ربِّي قبلت العافية، وإن عزم عليَّ فسمعًا وطاعةً، وإنِّي أعلم أنَّ الله تعالى يُسَدِّدُني، فقالت الملائكة: لم امتنعت من الحكم؟ فقال: لأنَّ الحاكم يغشاه الظُّلم من كلِّ مكان فيخطأ طريق الجنَّة، ومن اختار شرف الدنيا فاته شرفها وشرف الآخرة، وعجبوا من كلامه، ونام

نومة فأصبح ينطق بالحكمة، ونودي داود بعده فقبلها فأخطأ مرارا وعفا الله تعالى عنه.

وقيل: كان بين عيسى ومحمّد ﷺ ، والأكثر أنّه كان في زمان داود ، وليس نبيئا خلافا لعكرمة والشعبي، والأكثر أنّه عبد، والعبد لا يكون نبيئا، فعن ابن عبّاس: عبد حبشي.

وأخرج ابن مردويه عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ : «**أنّه عبد حبشي**». وعن جابر بن عبد الله: إنّه من النوبة، وعن سعيد بن المسيب: إنّه من سودان مصر، قال خالد بن الربيع: كان نجّارا (بالراء المهملة)، وقال الزجاج: كان نجادا (بالدال المهملة) وهو من يعالج الفرش والوسائد ويخيطهما، وقيل: خياطا، وهو أعمُّ، وبه قال ابن المسيب، وقيل: عبد لبلخشخاش يرعى الغنم، وعن ابن عبّاس: كان راعيا، وقيل: حطّابا يحتطب كلّ يوم حزمة لمولاه.

(ماهية الحكمة) والحكمة: العقل والفهم والإصابة في القول، وعن ابن عبّاس: العقل والفهم والفطنة، وقيل: معرفة الموجودات وفعل الخيرات، وقيل: توفيق العمل بالعلم، وقيل: حصول العمل على وفق المعلوم، وهذا شامل لحكمة الله وحكمة المخلوق.

وقيل: الكلام الذي يتّعظ به وينقل لذلك، وقيل: إتقان الشيء علما وعملا، وقيل: كمال حاصل باستكمال النفس الإنسَانيَّة باقتباس العلوم النَّظَرِيَّة، واكتساب الملكة التَّامَّة على الأفعال الفاضلة على قدر طاقتها، وقيل: شيء ينوِّر الله عز وجل به القلب كما ينوِّر البصر فيدرك المبصر، وقيل: معرفة حقائق الأشياء على ما هي عليه بقدر الطاقة البَشَرِيَّة.

(من حكم لقمان) **ومن حكمة لقمان:** «من يصحب صاحب السوء لم يسلم، ومن يدخل مدخل السوء يتَّهم، ومن لا يملك لسانه يندم»[1].

وقد روي هذا حديثا عن رسول الله ﷺ بهذا اللفظ، وهو موافق أيضا لقوله تعالى: ﴿أَنِ اذَا سَمِعْتُمُ، ءَايَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلاَ تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ (سورة النساء: ١٤٠) .

﴿أَنُ اشْكُرْ لِلهِ﴾ «أَنْ» تفسيرية لقوله: ﴿ءَاتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ﴾ **واعتقاد وجوب شكر الله والأمر به حكمة،** لا مَصدَرِيَّة بتقدير لام العلّة، أو بجعل المصدر بدلا من الحكمة، لأنّه لا خارج للأمر يعلَّل به الإيتاء كما مرَّ تحقيقه.

(نحو) وحكاية سيبويه: كتبت عليه بأن قم شاذة ضعيفة لا يخرج عليها القرآن، مع أنَّها أيضا تحتمل أنَّ المراد كتبت إليه بهذه الحروف، أو بهذا اللفظ بعد تقدُّم ما فيه معنى القول فهي تفسيريَّة.

﴿وَمَنْ يَّشْكُرْ﴾ له سبحانه **﴿فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ﴾** لأنَّ شكره يثبت له الموجود وينفي عنه عقاب عدم شكره، ويجلب المفقود والفوز بالجنَّة.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ فما ضرَّ إلاَّ نفسه، أو فما منع النفع إلاَّ عن نفسه، أو فإنَّما يكفر على نفسه، وأغنى عن هذا الجواب تعليله لقوله: **﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ﴾** عن إزالة الضرِّ أو جلب النفع، لأنَّه خالق للأضرار والمنافع **﴿حَمِيدٌ﴾** أي حقيق بأن يحمده خلقه، ولو لم يحمده أحد، أو محمود عند الملائكة والمؤمنين من الثقلين وعند الأجسام كلِّها ولو لم تحمده قلوب الكُفَّار، واستعملوا أجسادهم الجامدة في الكفر.

١- ذكره البيهقي صاحب **شعب الإيمان** في الكتاب الرابع والأربعين في تحريم أعراض الناس... باب: فصل في من أبعد نفسه عن مواضع التهم، رقم٦٨٠٢ ج٥، ص٣٢٢. رواية للربيع بن أنس.

ولم يذكر الشكر مع أنَّه مذكور قبل بل ذكر الحمد لتضمُّنه الشكر وهو رأسه، قال ﷺ : «**الحمد رأس الشكر**»[1]، ولم يشكر الله تعالى عبد لم يحمده، وإنَّما قال: ﴿وَمَن كَفَرَ﴾ بصيغة الماضي ولم يقل: «ومن يكفر» إشارة إلى قبح الكفر، وأنَّ من شأنه أن لا يقع منه إلاَّ ما مضى منه من إبليس، أو قابيل أو نحوهما.

وقيل: إشارة إلى أنَّه كثير متحقِّق بخلاف الشكر، ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سورة سبأ: ١٣) ، على الفرق بين الحمد والشكر، أو على أنَّ الشكر ولو تضمَّنه الحمد لكنَّه قد يقع بلا شكر.

﴿**وَإِذْ**﴾ اذكر إذ، أو ظرف لـ«آتَيْنَا» على طريق العطف وحذف المعطوف، أي آتيناه الحكمة إذ ﴿**قَالَ لُقْمَانُ لابْنِه**﴾ تاران، قاله الطبري وابن قتيبة، وقيل: اسمه ماثان (بثاء مثلَّثة)، وقيل: أَنعَم (بفتح الهمزة والعين)، وقيل: أَشكَر (بفتح الهمزة والكاف)، وقيل: مَشكَم (بفتح الميم والكاف). ﴿**وَهُوَ يَعِظُهُ**﴾ حال من «لُقْمَانُ» أولى من «ابْنِهِ». والوعظ: زجر بتخويف، أو جلب بذكر الخوف، أو زجر وجلب معا.

(أصول الدين) ﴿**يَابُنَيِّ**﴾ تصغير حبٍّ وشفقة ﴿**لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ**﴾ غيره في عبادة ولا غيره بشيء اختصَّ بالله عَزَّ وَجَلَّ ، [قلت:] كمن قال: إنَّ سيِّدنا محمَّدًا ﷺ أحاط بعلم الله كلِّه لا فرق بينهما إلاَّ أنَّ علمه حادث ومظروف وغير ذاتيٍّ، وعلم الله قديم وذاتيٌّ، وليس تعالى ظرفا له، ومن قال ذلك أشرك.

١-رواه **عبد الرزاق** في مصنفه، كتاب الجامع، باب شكر الطعام، ج١٠، ص٤٢٤، رقم١٩٧٥. من حديث ابن عمر.

(قصص) وكان ابن لقمان مشركا فكان ينهاه عن الشرك حتَّى أسلم، وكذا امرأته، وزعموا أنَّ لقمان وضع جرابا من خردل فكلَّما وعظه أخرج خردلة حتَّى نفد الخردل، فقال: «يا بني وعظتك موعظة لو وعظتها جبلا لتفطَّر» فتفطَّر، ولعلَّ هذا كما قيل: لم يزل يعظه حتَّى مات، أي مات الابن، ولعلَّه ابن آخر له غير الذي أسلم، وقيل: **ابنه مسلم ونهيه عن الشرك تحذير له.** وقيل: الباء للقسم والجواب قوله: ﴿**إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ**﴾ وما تقدَّم هو المتبادر.

وعلى كلِّ حال إنَّ هذه الجملة من كلام لقمان تعليل للنهي عن الشرك الموجود أو عن الوقوع فيه أو في قسم منه، وَادَّعَى بعض أنَّها من الله عَزَّوَجَلَّ .

(من حكمة لقمان) **ومن حكمته قوله:** «يا بني إنَّ الدنيا بحر عميق وقد غرق فيها ناس كثير، فاجعل سفينتك فيها تقوى الله تعالى، وحشوها الإيمان، وشراعها التوكُّل على الله تعالى لعلَّك تنجو ولا أراك ناجيا». **وقوله:** «يا بني إِيَّاكَ والدَّيْن فإنَّه ذلٌّ النهار وهمٌّ الليل». **وقوله:** «يا بني ارجُ الله رجاء لا يجرُّك إلى معصيته تعالى، وخف الله تعالى خوفا لا يؤيِّسك من رحمته تعالى شأنه». **وقوله:** «يا بني حملت الجندل والحديد وكلَّ شيء ثقيل فلم أحمل شيئا هو أثقل من جار السوء، وذقت المرار فلم أذق شيئا هو أمرُّ من الفقر». **وقوله:** «يا بني لا ترسل رسولا جاهلا فإن لم تجد حكيما فكن رسول نفسك، يا بني إِيَّاكَ والكذب فإنَّه شهيٌّ كلحم العصفور عَمَّا قليل يقلى صاحبه، يا بني احضر الجنازة ولا تحضر العرس، فإنَّ الجنائز تذكِّرك الآخرة والعرس يشهِّيك الدنيا، يا بني لا تأكل شبعا على شبع فإنَّ إلقاءك إِيَّاهُ للكلب خير لك من أن تأكله، يا بني لا تكن حلوا فتبلع ولا مرًّا فتلفظ». **وقوله لابنه:** «لا يأكل طعامك إلاَّ الأتقياء، وشاور في أمورك العلماء». **وقوله:** «لا خير في أن تتعلَّم ما لم تعلم وَلَمَّا تعمل بما قد علمت، فإنَّ مثل ذلك مثل رجل احتطب حطبا فحمل حزمة

وعجز عن حملها فضمَّ إليها أخرى». **وقوله:** «يا بني إذا أردت أن تؤاخي رجلا فأغضبه، فإن أنصفك في غضبه وإلاَّ فاحذره». **وقوله:** «لتكن كلمتك طيِّبة، وليكن وجهك بسطا، تكن أحبَّ إلى الناس مِمَّن يعطيهم العطاء». **وقوله:** «يا بني أنزل نفسك من صاحبك منزلة من لا حاجة له بك ولا بدَّ لك منه». **وقوله:** «يا بني كن مِمَّن لا يبتغي محمدة الناس ولا يكسب ذمَّهم، فنفسه منه في عناء والناس منه في راحة». **وقوله:** «يا بني امتنع مِمَّا يخرج من فيك فإنَّك ما سكتَّ سالم وإنَّما ينبغي لك من القول ما ينفعك». ومن حكمته **قوله:** «من له من نفسه واعظ كمن له من الله عَزَّ وَجَلَّ حافظ». و«من أنصف النَّاس من نفسه زاده الله بذلك عزًّا. والذلُّ في طاعة الله تبارك وتعالى أقرب من التعزُّز بالمعصية». **وقوله:** «ضرب الوالد لولده كالسَّماد للزَّرع». **وقوله:** «من كذب ذهب ماء وجهه، ومن ساء خلقه كثر غمُّه». و«نقل الصُّخور من مواضعها أيسر من إفهام من لا يفهم».

وشهد داود عَلَيْهِ السَّلَامُ يسرد الدِّرع شهرًا ولَمَّا تمَّت لبسها وقال: نعم لبوس الحرب أنت، فقال: نعم الصُّمت حكمة، صبرت عن السؤال عنها حَتَّى نطق داود بأنَّها للقتال. وسأله داود: كيف أصبحت؟ فقال: أصبحت يد غيري.

وأمره سيِّده أن يأتي له بأطيب ما في الشَّاة فأتاه باللِّسان والقلب، ثمَّ أمره أن يأتي بأخبث ما فيها فأتاه بهما، وقال: هما أطيب شيء إذا طابا وأخبث شيء إذا خبثا، فأعتقه لذلك.

ولا تناقض في قوله: «كن عالما أو متعلِّمًا، ولا تكن ثالثهما فتهلك»، وقوله: «كن عالماً أو متعلِّمًا أو مستمعًا ولا تكن رابعًا فتهلك»، **وقوله:** «كن عالماً أو متعلِّمًا أو مستمعًا أو محبيًا ولا تكن خامسًا فتهلك» بل ذلك إجمال مُعَقَّب بتفصيل، فإنَّ المستمع والمحيب داخلان في عالم، والعالم والمتعلِّم يتَصَوَّران

بالاستماع، والمجيب أراد به المجيب بالعلم، وأيضًا لا عالم إلاَّ بتعلُّم ولا تعلُّمَ إلاَّ بخطاب معلِّم ومواجهته، أو بسماع معلِّم بلا مواجهة، ولا يَتصَوَّرُ مجاوبة شَرعيَّة بلا علم.

وقال: لا مال كصحَّة، ولا نعيم كطيب نفس، وشرُّ النَّاس الذي لا يبالي أن يراه النَّاس مُسيئًا. وعن وهب: أنَّ لقمان تكلَّم باثني عشر ألف باب من الحكمة أدخلها النَّاس في كلامهم وقضائهم.

﴿وَوَصَّيْنَا الانسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾ هذا كلام من الله تعالى أكَّد به كلام لقمان إذ قال بعد: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ...﴾ شدَّد في حقِّ الوالدين فقال: مع شدَّة حقِّهما يحرم مطاوعتهما في الإشراك، وقيل: المراد إنَّا قلنا له: «اشْكُرْ لِي» وقلنا له: «وَوَصَّيْنَا الانسَانَ»، وقيل: هذا من كلام لقمان أخبرنا الله أنَّه أوصى به ابنه.

﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ، وَهْنًا﴾ ضعفا ﴿عَلَى وَهْنٍ﴾ تعليل للوصيَّة. و«وَهْنًا» حال من «أُمُّهُ» أي ذات وهنٍ على وهنٍ، ولا يصحُّ تأويله بواهنةٍ، لأنَّ الثَّاني لا يصحُّ فيه هذا، لا يقال: واهنةً على واهنة، اللهمَّ مع بقاء الثَّاني على مصدريَّته بمعنى واهنة على وهن سابق أو لاحق.

والوهنان منها، والمراد: التكرار لا اثنان فقط، لأنَّ الوهن يتزايد إلى النِّفاس؛ وقيل: ضعف الحمل وضعف الطلق، وضعف النِّفاس بعد الولادة. أو [وَهْنًا] حال من الهاء في «حَمَلَتْهُ»، فذلك وهنه ووهنها، كما قال مجاهد: وهن الولد على وهن الوالدة وضعفها، وليس الوهنان منه فقط لأنَّه يتزايد قُوَّة. أو مفعول مطلق، أي تهن وهنا. و«عَلَى وَهْنٍ» نعت «وَهْنًا».

(فقه) ﴿وَفِصَالُهُ،﴾ انقطاعه عن الرَّضاع ﴿فِي عَامَيْنِ﴾ أي في تمام عامين، فأقصى مدَّة الرَّضاع عامان عند الجمهور، وعن أبي حنيفة: الرَّضاع الذي يَتعلَّقُ به التَّحريم ثلاثون شهرًا، لقوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُ، وَفِصَالُهُ، ثَلاَثُونَ

شَهْرًا﴾ (سورة الأحقاف: ١٥) ، وجاء حديث «**لا رضاع بعد عامين**».

(نحو) ﴿**أَنُ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ**﴾ «أَنْ» تفسيريَّة لـ«وَصَّيْنَا» لا مَصدَرِيَّة بتقدير لام التَّعليل، وهو خطأ، لأنَّه لا خارج للأمر، وإلاّ جاز: «أشرت إليك أن قُم والمشي»، أي بالقيَّام والمشي، و«أعجبني أن قُم» أي قيامُك، بالرَّفع على الفاعليَّة، ونحو ذلك وهو لا يجوز.

وذكر شكر الله لأنَّ شكرهما لا ينفع بدون شكره، وكذا عكسه، وفي مسند أحمد عنه ﷺ : « **لا يشكر الله من لا يشكر الناس**» رواه الترمذي وأبو داود عن بهز بن حاكم عن أبيه عن جدِّه عنه ﷺ : أنَّه سأله رجل: «**من أبرُّ؟ فقال: أمَّكَ، فقال: ثمَّ من؟ قال: أمَّكَ، قال: ثمَّ من؟ قال: أمَّكَ**»[1].

ومعنى **شكر الله: أداء فرائضه وترك معاصيه واستشعار نعمه، وشكر الوالدين: الإحسان إليهما وترك ما يكرهان، واستشعار نفعهما له**، ومثَّل ابن عيينة لشكر الله بالصَّلوات الخمس ولبرِّهما بالدُّعاء لهما أدبارها.

﴿**إِلَيَّ**﴾ لا لغيري ﴿**الْمَصِيرُ**﴾ الرُّجوع لأثيبكم على شكري وشكرهما، أو أعاقبكم على التَّقصير في ذلك ﴿**وَإِن جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَن تُشْرِكَ بِي**﴾ في العبادة أو الدُّعاء أو ما اختصَّ به ﴿**مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ**﴾ الباء متعلِّق بقوله: ﴿**عِلْمٌ**﴾.

(نحو) و«مَا» واقعة على الشَّيء، أو شيء مفعول به، أو على إشراك، أو الإشراك مفعول مطلق، أي الإشراك الذي ليس لك به علم، أو إشراكا ليس لك به علم.

١-رواه **أبو داود** في كتاب الأدب، باب في برِّ الوالدين، رقم٥١٣٩. **والترمذي** في كتاب البر والصلة، باب في ما جاء في برِّ الوالدين، رقم١٨٧٩.

وليس ذلك قيدًا، فإنَّه لا يوجد علم يبيح الإشراك، فنفي العلم بذلك نفي لوجوده، على حدِّ قوله تعالى: ﴿تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٢) ، والعلم به غير شيء، فلا يَتَعلَّقُ العلم به، أو على طريق نفي الشَّيء بنفي لازمه، فإنَّه إذا لم يوجد معلوم لم يوجد علم، كقولك: لا أراك هنا، أي لا تكن هنا فضلاً عن أن أراك، وقولِه: «على لاحب لا يهتدي بمناره» أي لا منار له فيهتدي به، أو العلم به مفقود على فرض وجوده فلا عبرة به.

وإنَّما قدَّم «بِهِ» على «عِلْم» مع أنَّ معمول المصدر لا يَتَقَدَّمُه، لأنَّه ليس المعنى على انسباكه بالفعل وحرف المصدر، ليس المعنى: ما ليس لك أن تعلم به، ويجوز تعليقه بــ«لَكَ» أو متعلَّقه على أنَّ الباء بمعنى في.

﴿فَلاَ تُطِعْهُمَا﴾ في الإشراك، وكذا كُلُّ معصية لا طاعة لمخلوق فيها. ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا﴾ في حياتك وحياتهما، وعبَّر بالدنيا تلويحا بقصَر عمر الدنيا كُلِّهَا فكيف بعضها؟ لا يثقل عليك الإحسان إليهما ولو مدَّة الدنيا بل مدَّة باقيها، أو تلويحا بانصرام أَيــَّام الحياة فلا يثقلان عليك، أو احتراز بذكر الدنيا عن الدِّين، فإنَّ المعتبر هو الدين ولا بدَّ منه، ولا يعتبر عليك منهما ما يخالفه ﴿مَعْرُوفًا﴾ مفعول مطلق، أي صِحَابًا معروفًا (بكسر الصَّاد) وهو المصاحبة بالكرم والجود والمروءة والإطعام والكسوة وعدم ما يَضُرُّهما كالانتهار ونحو ذلك، في صحَّتهما ومرضهما.

وما أحسن قول بعض:

لأمِّك حــقٌّ لو علــمت كبير	كثيرك يا هذا لديه يســـير
فكم لــيلة باتت بثقلك تشتكي	لها مِن حواها أنَّةٌ وزفـــير
وفي الوضع لو تدري عليها مشــقَّة	فكم غصص منها الفؤاد يطيرُ
وكم غسلت منك الأذى بيمينهـــا	وما حجرها إلاَّ لديك سرير

وتفديك عما تشتكـــيه بنفسهـــا ومن ثديها شرب لديك نمير
وكم مرّة جاعت وأعطتك قوتَها حنوًا وإشفاقًا وأنت صغـــير
وآهًا لذي عقل ويتّبـــع الهوى وآهًا لأعمى القلب وهو بصير
فدونك فارغب في عميم دعـــائها فـــأنت لما تدعو به لــــفقير

ولا يخفى أنّ حقّ الأمّ أعظم لأمثال هذه المشاقّ والصّبر عليها، وعدم الملل منه.

وقيل: ذكر الله تعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ مقابلة لقوله تعالى: ﴿**وَاتَّبِعْ**﴾ في الدين ﴿**سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ**﴾ رجع إليّ بالتوحيد والإخلاص في العمل، لاسبيلهما في دعائهما لك للإشراك.

(سبب النزول) قال سعد بن أبي وقّاص: كنت بَرًّا بأمّي وأسلمت فقالت: لا آكُل ولا أشرب حَـــتّى تكفر أو أموت، فتُعيَّر بي يا قاتل أمّه، فَلَم تأكل يومًا وليلة فأجهدت ــ وروي ثلاث ليال ــ فقلت لها: لا أكفر ولو كانت لك مائة نفس فخرجت واحدة بعد واحدة، فكلي واشربي أو اتركي، ونزل فيّ: ﴿وَإِن جَاهَدَاكَ...﴾ رواه الطبراني وغيره[١].

﴿**ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ**﴾ رجوعك ورجوعهما، قيل: رجوع من أناب إليّ، وفي ذلك خطاب بعد غيبة لتأكيد الزجر عن المخالفة ﴿**فَأُنَـــبِّـــئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ من وفاء أو تقصير، عَبَّر عن الجزاء بالإخبار لا يخفى عَنّـــي عملكم فأنا أجازيكم بمقتضاه.

وذكر بعض أنّ قوله: ﴿وَوَصَّيْنَا﴾ إلى هنا نزل في سعد بن أبي وقّاص، ولذلك أفرد، لأنّ الصّدّيق آمن فآمن سعد بسبب إسلامه؛ وقيل عن ابن عبّاس: إنّ من أناب هو الصدّيق لَمَّا أسلم تبعه سعد وعبد الرحمن بن

١- انظر ما تَقَدَّمَ في سورة العنكبوت في آية ٨ {وَوَصَّيْنَا الانسَانَ...}.

عوف وسعيد بن زيد، وعثمان وطلحة والزبير؛ وقيل: من أناب محمَّد ﷺ ، **والصحيح العموم.**

﴿يَا بُنَيِّ إِنَّهَا﴾ أي القصَّة **﴿إِن تَكُ مِثْــقَالُ﴾** فاعل «تَكُ»، ولا خبر لـــ«تَكُ». وأنَّث «مِثْقَالُ» لأنَّه بمعنى الزنة أو الحسنة والسيِّئة، أو لإضافته لمؤنَّث وهو قوله: **﴿حَبَّةٍ﴾** أي ما يساويها في الثقل من حسنة أو سيِّئة، أو المراد بالمثقال الموزون المتعارف به **﴿مِنْ خَرْدَلٍ﴾** حبٌّ معروف.

﴿فَتَكُن فِي صَخْرَةٍ﴾ في داخلها **﴿أَوْ فِي السَّمَاوَاتِ﴾** في داخل إحدى السماوات، أو المراد بالذات السماء السابعة لأنَّ ما فيها هو فيهنَّ **﴿أَوْ فِي الاَرْضِ﴾** أي في داخلها، ويحتمل الجنس الشامل لسبع أرضين على حدِّ ما مرَّ في السماوات من التضمين، أو أراد السابعة.

والمقام **للمبالغة فلا يبعد أن يراد أخفى موضع في ذلك،** كمحدودب السماوات ومقعر الأرض السابعة.

وذكر الصخرة لمشاهدتها مع عسر الإخراج منها ثمَّ السماوات لبعدها بالعلوِّ، وهي أشدُّ امتناعا من الصخرة، ثمَّ كونه في ظلمة بعض الأرض لِقُوَّة الظلمة، حتَّى لو حضر أحد في بطنها لم ير ما فيه، فكيف وقد احتجب؟ فذلك على سبيل الترقِّي.

قلت: والمراد مطلق الصخرة لا صخرة تحت الأرض عليها الأرض كما يقال، ولا صخرة عليها بحر عليه نون، والصخرة على ثور والثور على الثرى، والماء أخضر لخضرة تلك الصخرة **فإنَّا لا نعلم صحَّة ذلك.** وخضرة الماء إنَّما هو لتراكمه، وإن كانت فلم اخضرَّ الماء وحده منها؟ ولم لا يخضرُّ من فيه؟ ولم كان يخضرُّ وهو لا يقابلها؟.

﴿يَأْتِ بِهَا اللَّهُ﴾ يحضرها ويحاسب عليها فاعلها، والمراد بإحضارها المعبر عنه بالإتيان بها إخبار فاعلها بها فيقرُّ، ومن زعم أنَّ الأفعال تجسَّم يوم القيامة فالإحضار على ظاهره، إلاَّ أنَّه أيضا يقرُّ فاعلها بها، أو المراد نفس الحبَّة الممثَّل بها للحسنة والسيِّئة.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ﴾ دقيق علمه يشمل كلَّ خفيٍّ ﴿خَبِيرٌ﴾ عالم بكنه كلِّ خفيٍّ، أو يعلم محلَّ تلك الحبَّة الممثَّل بها.

ويقال: هذه الكلمة آخر كلمة قالها فانشقَّت مرارته من هبتها وعظمتها ومات، ويروى أنَّه لَمَّا وعظ لقمان ابنه بقوله: ﴿يَا بُنَيِّ إِنَّهَآ إِن تَكُ...﴾ الآية أخذ حبَّة من الخردل فألقاها في عرض اليرموك واد بالشام، ومكث ما شاء الله عز وجل ثُمَّ ذكرها وبسط يده لحاجة، أو طلبا لها، فأقبل بها ذباب فوضعها في راحته.

﴿يَا بُنَيِّ أَقِمِ الصَّلاَةَ﴾ تكميلا لنفسك الناقصة، فكمال الإنسان بكمالها ونقصه بنقصها، قيل: قال له إذا جاء وقت الصلاة فلا تؤخِّرها صلِّها واسترح منها فإنَّها دين، **وصلِّ في جماعة ولو على رأس زجٍّ**.

﴿وَأْمُرْ﴾ الناس ﴿بِالْمَعْرُوفِ﴾ في الأثر: كُلُّ بلد فيها أربعة أهلها معصومون من البلاء: إمام عادل ــ أي أو من يقوم مقامه ــ لا يظلمهم شيئا، وعالم على سبيل الهدى، ومشايخ يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، ويحرصون على تعليم العلم والقرآن، ونساء مستورات لا يتبرَّجن. قال الله عز وجل: ﴿لَوْلاَ يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالاَحْبَارُ...﴾ (سورة المائدة: ٦٣)، وقال عز وجل: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ...﴾ (سورة آل عمران: ١١٠)، قال صلى الله عليه وسلم: «**لتأمرُنَّ بالمعروف ولتنهوُنَّ عَنِ المنكر، أو ليسلطنَّ الله عليكم شراركم ثمَّ يدعو خياركم فلا يستجاب لهم**»[1].

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٢، ص٤٢٥.

[قلت:] وإذا كان الآمر الناهي يقذف ويشتم أو يضرب فتركهم أفضل، وإن علم أنَّه إن ضربوه أو شتموه لم يصبر فتقع الفتنة فليتركهم، وإن علم من نفسه الصبر ولا يشكو فلا بأس، وعمله عمل الأنبياء، وإن علم أنَّهم لا يقبلون ولا يخاف ضربا ولا شتما فالأمر أفضل.

﴿وَانْهَ﴾ الناس ﴿عَنِ الْمُنكَرِ﴾ تكميلا لغيرك، وهما على العموم، [وهذا] أولى من قول ابن جبير: المعروف التوحيد والمنكر الشرك، ولعلَّه اعتبر أنَّ الأصل ذلك، أو أراد التمثيل. ﴿وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ من الشدائد والمحن من شدَّة إقامة الصلاة، فإنَّ إقامتها شديد، وإنَّها لكبيرة إلاَّ على الخاشعين، ومن مضارِّ الناس عليك لأمرك ونهيك، وعداوتهم لك على ذلك، وشهر أنَّه الإصابة على الأمر والنهي، وهو المتبادر، وهو قول سعيد بن جبير[1].

﴿إِنَّ ذَٰلِكَ﴾ أي الصبر على شدائد إقامة الصلاة وشدائد الأمر والنهي، أو إنَّ الصبر على الأمر والنهي، أو على ما أصابك بهما، أو إنَّ ما ذكر من نفس إقامة الصلاة والأمر والنهي، **وإشارة البعد في كلِّ ذلك لعلوِّه.**

﴿مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ من قطع الأمور أي من الأمور المقطوع بها من الله إيجابا، ولم يجعلها ندبا أو اختيارا منكم. فـ«عَزْمٌ» مصدر بمعنى «مفعول»، من إضافة النعت إلى المنعوت، أي من معزومة الأمور، أي من الأمور المعزومة من أهل الحزم السالكين طريق النجاة، أي المعزوم عليه، وقد قيل: العزم الحزم.

(بلاغة) ويجوز أن يكون على الإسناد المجازي، أي من عازمة الأمور، أي الأمور العازمة، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ الاَمْرُ﴾ (سورة القتال: ٢١) ، ويجوز

١- وهذا ما فعله سعيد فقتله الحجَّاج سنة ٩٥هـ.

أن تكون الإضافة بمعنى في، على غير الوجه الأخير. والجملة تعليل لِمَا قبلها، أو مستأنفة للتأكيد، وهو أولى.

﴿وَلاَ تُصَاعِرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ لا تمله للناس مواجهة به لهم تكبُّرًا عن أن تواجههم بوجهك، وقيل: اللام للتعليل، وقيل: لا تمله للذلّ والحياء من الناس، **والصحيح الأوّل لأنّه موافق لما بعده في الزجر عن التكبُّر.**

[قلت:] ومن العجيب تفسير الآية بإعراضك عن رجل بينك وبينه محبَّة إذا لقيك، وكأنّ قائله أراد النهي عن القطع بعد الوصل، وتفسيرها بأن يسلّم عليك أحد فتلوي وجهك تكبُّرا. وفسَّرها بعض باحتقار الفقراء، **والعموم هو الحقُّ.**

﴿وَلاَ تَمْشِ فِي الاَرْضِ مَرَحًا﴾ فرحا معجبا بحالك، أنت من أهل الأرض فمالك والمشي مرحا؟ لو حلّ المرح لمشاه أهل السماوات، والأرض خلقت للعبادة.

(نحو) و«مَرَحًا» حال، أي ذا مرح، أو «مرِحا» بكسر الراء. قيل: أو مبالغة، وفيه أن يقال كأنّه أجاز له ما دون المبالغة في المرح وهو لا يجوز، ويجاب بأنّه أراد السلب الكلّي، أو يباح القليل الذي لا يخلو منه الإنسان، أو مفعول مطلق لتمرح محذوفا حالا، أو لتمش مضمَّنا تمرح، أو مفعول من أجله، وذلك أنّ الإنسان تارة يمشي ويخطر له المرح، وتارة يستأنف المشي ليمرح، **وما تقدَّم أولى لعموم التارتين،** ويدلّ على الحال قراءة بعض بكسر الراء.

﴿إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ تعليل لما قبله، والاختيال التبختر في المشي كبرا، ومنه سمِّيت الخيل لاختيالها في مشيها طبعًا، أو توهَّم الناس أنَّها تختال، وقد قيل: لا يركب إنسان الفرس إلاّ وجد في نفسه نخوة.

وقد قيل: الاختيال التكبُّر الناشئ عن تخيُّل فضيلة تراءت للإنسان من نفسه. والفخر: المباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان، كالمال والجاه والأولاد والنسب، وغير الخارجة كالجمال والفصاحة وقد يعدُّ منها النسب.

[قلت:] ومن عدَّ ماله أو نحوه على جهة الشكر فليس فخورا إلاَّ إن عنى العلوَّ على غيره ففخر، ولو ادَّعَى الشكر، وقد أبطل ما توهَّمه شكرا، ومن عدَّ ذلك و لم يقصد علوًّا ولا شكرا فليس مفتخرا.

والنفي هنا لعموم السلب لا لسلب العموم، فإنَّه لا يحبُّ بعضا ولا كلاًّ، وكذا في «فَخُورٍ» الذي هو صفة مبالغة، فإنَّه لا يحبُّ المبالغ في الفخر ولا المفاخر الذي لم يبالغ فيه، اللهمَّ إلاَّ أن يتسامح في قليل الفخر الذي لا يخلو منه الإنسان، وما كان من الفخر أو المرح لوجه الله أحبَّه الله عَزَّ وَجَلَّ، كالمرح في صفِّ الجهاد، وكالافتخار بالمال على عدوِّ الدين.

(بلاغة) والاختيال يناسب الكبر والعجب، والفخر يناسب المشي مرحا على اللف والنشر المرتَّب، وإن قابلنا الماشي مرحا بالمختال والمصاعر بالفخور كانا لفًّا ونشرا معكوسا، وقيل: الفخور مقابل للمصاعر والمختال للماشي، وأخِّر للفاصلة.

﴿وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ﴾ توسَّط فيه لا تسرع إلاَّ لغرض صحيح، ولا تتباطأ كذلك، قال ﷺ : «**سرعة المشي تذهب بهاء المؤمن**» أي هيبته وجماله، وذلك أنَّه يعدُّ ذلك منه خفَّة، ولو لم تكن فيه، فيحتقر، وقد يتغيَّر البدن بالسرعة فيزول بهاؤه.

قال ابن مسعود: «كانوا ينهون عن خبيب اليهود ودبيب النصارى». ورأى عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رجلا متماوتا فقال: «لا تمت علينا دِيننا أماتك الله تعالى». ورأى رجلا متطأطأ رأسه، فقال: «ارفع رأسك فإنَّ الإسلام ليس بمريض». ورأت عائشة رضي الله عنها رجلا كاد يموت تخافتا فقالت: ما لهذا؟ فقيل: إنَّه

من القرَّاء، فقالت: كان عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ سيِّد القرَّاء، وكان إذا مشى أسرع، وإذا قال أسمع، وإذا ضرب أوجع. وقد نهى ﷺ عن الإسراع ولو لإدراك الإمام، وقال: «**ما أدركتم فصلُّوا ومافاتكم فاقضوه...**»[1].

﴿**وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ**﴾ أنقص من صوتك الجهير، فتعدَّى بـ«مِنْ» على التضمين والتأويل، ويتعدَّى أيضا بنفسه وهو الأصل، ومنه قوله تعالى: ﴿يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ﴾ (سورة الحجرات: ٠٣)، فلا يبالغ في الجهر إلاَّ لغرض صحيح، ومنه الأذان والإنذار من العدوِّ، ويقال: رفع الصوت في غاية الكراهة.

ويروى أنَّه كان رسول الله ﷺ وعلى آله: «**يعجبه أن يكون الرجل خفيض الصوت، ويكره أن يكون جهير الصوت**»، ويظهر أنَّ المبالغة في الجهر تشوِّه الوجه فيذهب بهاؤه، وتركه أوقر للمتكلِّم وأبسط لنفس السامع وفهمه.

[قلت:] والآية شاملة للعطاس فإنَّ ما يسمع منه صوت فينبغي خفضه ما أمكن، كما نهى رسول الله ﷺ عن رفع الصوت بالعطاس[2]، وذكر الغضَّ بعد القصد في المشي لأنَّه يتوصَّل برفع الصوت إذا عجز عن التوصُّل إلى المطلوب بالمشي، فليتوصَّل إليه بالمشي إلاَّ ما خيف فوته، أو ما دعا إليه غرض صحيح.

﴿**إِنَّ أَنكَرَ الاَصْوَاتِ**﴾ لأنَّ أنكر أصوات الحيوانات، اسم تفضيل من المبني للفاعل كما هو الشائع المقيس، من معنى قولك: نكُر الشيء (بضمِّ الكاف):

١-رواه **الربيع** في كتاب الصلاة (٣٦) باب في صلاة الجماعة والقضاء، رقم٢١٧. مع زيادة في آخره، وأَوَّلُه قوله ﷺ: «ألا إذا ثوِّب للصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون...»، من حديث أنس بن مالك. و**البخاري** في كتاب الأذان (٢٠) باب قول الرجل: فاتتنا الصلاة، رقم٦٣٥ من حديث عبد الله بن أبي قتادة عن أبيه.

٢-لعلَّ الشيخ يشير إلى الحديث الذي رواه الترمذي في كتاب الأدب، رقم ٢٧٤٥، عن أبي هريرة وهو قوله: «كان النبيء ﷺ إذا عطس غطَّى وجهه بيده أو ثوبه وغضَّ بها صوته».

صعب، أي إنّ أصعب الأصوات على القلوب والأسماع، كما قال الله تعالى: ﴿يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِي إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾ (سورة القمر: ٦) ، والجهر يضرُّ سمع السامع، وأمَّا إن قلنا: من نُكر بالبناء للمفعول، أو من أنكر كذلك بالهمزة، بمعنى أقبح الأصوات فشاذٌّ، حيث بني من المبني للمفعول، أو من الرباعي المبني أيضا للمفعول.

﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾ اسم جمع، كما قال السهيلي: لا جمع كما قال غيره، فرافع الصوت في غير محلِّ الرفع كالحمار في القبح، ولا استعارة في ذلك.

(بلاغة) وإن أريد بصوت الحمير أصوات الرَّافعين لا صوت الحمير كانت الاستعارة، أي أنكر الأصوات أصوات هؤلاء الرَّافعين أصواتهم، وسمَّاهم حميرًا، ومقتضى الظَّاهر: إنَّ أنكر الأصوات لأصوات الحمير، بجمعهما، أو أنكر الصوت لصوت الحمار، بإفرادهما، ولكن قال: «صَوْتُ الْحَمِيرِ» إشارة إلى أنَّ أصوات الحمير كصوت واحد لِقُوَّة تشابهها، ولأنَّ المراد بيان صوت هذا الجنس لا صوت كُلِّ فرد منه.

وجمع الحمار مع هذا مبالغة في التَّنفير، فإنَّ صوت حُمُر بمرَّة أشدُّ قبحًا، ولا يخفى أنَّ المنكر صوت ذلك الجنس ولو من فَردٍ منه.

والجملة من كلام لقمان، وقيل: من كلام الله سبحانه وتعالى ، ردًّا على المشركين إذ يتفاخرون بجهر الصوت، كما قال شاعرهم:

جهير الكلام جهـير العطـاس جهير الرواء جهير النغم
ويخطو على العم خطو الظلـيم ويعلو الرجال بخلق عمم[1]

قال سفيان الثَّوري: صياح كُلِّ شيء تسبيح إلاَّ صوت الحمار، فأنَّه يصيح لرؤية الشيطان، وكثيرًا ما يرى يصيح عند رؤية حمار، لَعَلَّ مع الحمار الذي يرى

١- البيت يذكر في شواهد البلاغة و لم ينسبه صاحب المعجم المفصَّل في شواهد اللغة، ج٧، ص٢٥.

شيطانًا، أو تارة لحمار وتارة لشيطان.

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾

إصرار المشركين على الشرك رغم مشاهدة دلائل القدرة الإلهيَّة

﴿أَلَمْ تَرَوَا انَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الاَرْضِ﴾ رجوع إلى خطاب المشركين على إصرارهم بعد ذكر وعظ لقمان، والتسخير: التسهيل والإذلال للشيء إلى المطلوب، سواء كان الشيء حيًّا يمكن امتناعهُ أم لا، كالحيوانات والملائكة النَّافعين بسوق المطر مثلا والمعادن والشمس والقمر والنُّجوم والرياح والليل والنَّهار.

﴿وَأَسْبَغَ﴾ أوسع **﴿عَلَيْكُمْ﴾** لكم، أو أكثر نعمه حتَّى صارت كالشيء المستعلي فوقنا بعد التجلل من جوانبنا **﴿نِعَمَهُ﴾** ما أنعم عليكم به، والمفرد نعمة، وأصله المعنى المصدري وهو للتلذُّذ، وأطلق اسم المسبَّب على السبب، فإنَّ ما أنعم به علينا سبب للتلذُّذ.

[قلت:] والنعمة بمعنى ما أنعم به هي شيء ينتفع به ويستلذُّ، ولم أقل: أمرٌ ينتفع به ليشمل الشيء ما هو جسم، والأمر لا يشمله إلاَّ مجازًا، ولم أزد: تحمد عاقبته كما زاده بعض لأنَّ ما ينتفع به نعمة، سواءً حُمدت عاقبته بأن شُكرَت مثلاً ولم تضرَّ، أو لم تُحمد بأن كانت تَضُرُّ بعدُ أو كُفرت، فالماء أو اللَّبن المستلذُّ نعمة ولو كان يتضرَّر به بدن شاربه أحيانا.

قلت: والنعمة التي لم تشكر يعاقب عليها ولا يخرجها العقاب عن كونها نعمة، وإنَّما ذلك أمر شرعيٌّ، فالكُفَّار منعم عليهم كما هو نصوص القرآن، ومن اشترط أن تكون العاقبة محمودة قال: هم غير منعم عليهم، وهو خطأ، وقال بعض: النعمة المنفعة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، وقال بعض: المنفعة الحسنة المفعولة على جهة الإحسان إلى الغير، قال بعض الْمُحَقِّقِينَ: الأولى إسقاط لفظ الحسنة لجواز أن يستحقَّ الشكر [المنعم] بالإحسان وإن كان فعله محظورًا، لأنَّ جهة الشكر كونه إحسانًا، وجهة الذمِّ والعقاب الحظر، فالفاسق يستحقُّ الشكر لإحسانه والذمَّ لمعصية الله تعالى.

﴿ظَاهِرَةً﴾ محسوسة معروفة كقوَّة البدن، وكالأموال والأولاد، وظهور الإسلام والنَّصر على الأعداء، وحسن الصورة وامتداد القامة، وتسوية الأعضاء، والسَّمع والبصر، وغير ذلك من نعم الدنيا، ﴿وَبَاطِنَةً﴾ كالإمداد من الملائكة، ومعرفة الله تعالى، والقلب والعقل والفهم ونعم الآخرة.

وقيل: الظاهرة إرسال الرسل وإنزال الكتب والتوفيق للإسلام والثبات عليه، والباطنة: ما أصاب الأرواح في عالم الذرِّ من النور. وعن عليٍّ: سألت رسول الله ﷺ فقال: «**الظَّاهرة ما سوَّى من خلقك، والباطنة ما ستر من عورتك**»، والمراد التمثيل كما يدلُّ له ما في البيهقي عن ابن عبَّاس: سألت رسول الله ﷺ فقال: «**الظاهرة: الإسلام وما سوَّى من خلقك ورزقك، والباطنة: ما ستر من مساوئ عملك**» والمراد أيضًا التمثيل.

ومعنى قوله: «ما ستر من مساوي عملك» ستر ما ستر من مساويه، أو ما مَصدَرِيَّة، أي ستره من مساويه، أي الواقع منها، ويدلُّ لهذا ما فيه من طريق مقاتل: «الظاهرة الإسلام، والباطنة ستر المعاصي»، وفي رواية: «أمَّا ما بطن فستر مساوي عملك». وفي دعاء موسى عليه السلام: «إلهي دلَّني على أخفى

نعمك، فقال تعالى: أخفاها النَّفس»، وقيل: أخفاها تخفيف الشرائع وإكثار الثواب، وصرفُ البلاء، وقبول الخلق، ورضى الرَّبِّ.

﴿**وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُّجَادِلُ فِي اللهِ**﴾ في شأن الله عَزَّ وَجَلَّ من وَحْدَانيَّة وقدرة على البعث وغيره، ينكرون ذلك على الرسول ﷺ كالنَّضر بن الحارث وأُبي بن خلف.

(لغة) و الجدال: الكلام على طريق المغالبة، من معنى الجدال الذي هو المطارحة على الجدالة، وهي الأرض، وإذا غلبه بالكلام فكأنَّه طرحه على الأرض، أو من معنى الجدال الذي هو المغالبة في إحكام حبله بالفتل، فكلٌّ منهما يريد أن يكون أشدَّ إحكامًا لحبله، وكلٌّ من المتغالبين بالكلام يريد أن يكون كلامه أثبت من كلام الآخر.

وأظهر لفظ الجلالة مع تقدُّمه وتقدُّم الإضمار له تهويلا لأمر الجدال فيه تعالى.

﴿**بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ بدليل عقليٍّ ﴿**وَلاَ هُدًى**﴾ ولا دليل شرعي من رسول ﴿**وَلاَ كِتَابٍ مُّنِيرٍ**﴾ واضح الدلالة منقذ من ظلمة الجهل، بل يجادلون بِمُجَرَّدِ ما يشتهون وَبِمُجَرَّدِ التقليد.

﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ**﴾ أي لمن يجادل مراعاة لمعناه، وهو الجمع كما أفرد لمراعاة لفظه ﴿**اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءابَآءَنَآ**﴾ من الكلام والاعتقاد والمعاصي، وعبادةِ غير الله عَزَّ وَجَلَّ .

(أصول الدين) [قلت:] والتَّقليد في الأصول جائز ومجزٍ إذا كان مصدِّقا لمن أفتى له، واطمأنَّ إليه قلبه إذا وافق الحقَّ ولو امرأة، ولا يخلو عن ذلك عامَّة الموحِّدين، حتَّى قال بعض: إنَّ النظر فيها حرام، **وهو باطل،** والصواب جوازه بل وجوبه لمن قدر، وقيل: لا يجوز التقليد في الأصول ومن قلَّد وأصاب أجزاه توحيده وعصى بعدم النظر.

﴿أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ﴾ بما يأمرهم به من الضلال **﴿إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾** أي يتبعون ما وجدوا عليه آباءهم ولو كان الشيطان يدعو آباءهم إلى عذاب السعير.

وبَّخهم على اتِّـبَاع آبائهم مع أنَّ ما عليه آباؤهم قد أخذه آباؤهم من الشيطان الداعي إلى العذاب الدائم الذي هو عذاب النار. ﴿السَّعِيرِ﴾: المسعورة، كالمراة الكحيل بمعنى المكحولة، فالهاء عائدة إلى الآباء لا إلى القائلين: ﴿بَلْ نَـتَّبِعُ﴾، كما قال عز وجل: ﴿أَوَ لَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة: ١٧٠) بعد قوله: ﴿بَلْ نَـتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا﴾ نعم يمكن رجوعها إلى القائلين وآبائهم.

ولا جواب لـ«لَوْ» كإن الوصلية، وقيل: لهما جواب يقدَّر، والواو حالية، وقيل: عاطفة على محذوف، أي يتبعونهم لو لم يكن الشيطان يدعوهم ولو كان يدعوهم، فلو وإن الوصليتان خارجتان عن الشرط، وبخروجهما تمكن الحالية.

﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾ وَمَن كَفَرَ فَلَا يَحْزُنكَ كُفْرُهُۥٓ إِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٢٣﴾ نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٢٤﴾﴾

سلامة منهج المؤمن وسوء طريقة الكافر

﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ، إِلَى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ في أعماله، يخلص قلبه وجسده، ويحسن عمله، أو قل: باطنه وظاهره، بالتفويض إليه في أموره، كما هو أنسب بقوله: **﴿فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾** والأولى أنَّ التفويض لا يذكر هنا، وقد تضمَّنه الكلام، والمعنى: **من أقبل على الله إقبالا تامًّا وجد الله**

ملجأ له.

(بلاغة) والعروة الوثقى استعارة، شبَّه الإقبال عليه بها، وأولى من هذا أن تجعل الاستعارة مركّبة تمثيليَّة، فعندهم إذا أمكنت بلا ضعف لم يعدل عنها إلى المفردة، فنقول: شبَّه الإقبال عليه بالكلّية والإحسان في العمل بالترقّي إلى عال، والتمسُّك في ترقّيه بما يأمن من اختلاله.

﴿وَإِلَى اللَّهِ﴾ لا إلى آلهتهم ولا إلى غيرها، ﴿عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ كلّها ومنها البعث، وإثابة مسلم الوجه إلى الله تعالى بأحسن الجزاء، ومعاقبة المجادل في الله عَزَّ وَجَلَّ بالسعير. وكون «ال» للاستغراق كما رأيت أولى من أن تكون للعهد بالجدال، واتّباع ما وجدوا عليه آباءهم، ومنها إسلام الوجه إلى الله.

وعاقبة الأمور: آخرها وهو الجزاء، أو الأمور: العاقبة، فيكون من إضافة الصفة للموصوف.

﴿وَمَن كَفَرَ فَلاَ يُحْزِنْكَ كُفْرُهُ،﴾ لأنّه لا يضرُّك كفره في الدنيا ولا في الآخرة، لأنّك لم تقصِّر في التبليغ ﴿إِلَيْنَا﴾ لا إلى غيرنا ﴿مَرْجِعُهُمْ﴾ رجوعهم بالبعث، والجملة تعليل إن لم نقدِّر التعليل المذكور، إن قدَّرناه فهذا مستأنف، ويجوز أنّه تعليل آخر لجواز تعدُّده إذا كان بالجملة، ولو بلا تبعيَّة، نحو: أكرم زيدا لأنّه برٌّ إنّه متّق لله، أو أكرمه هو ابني هو متّق لله تعالى، هو مستعدٌّ للبعث.

﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ﴾ بما عملوه، أو بعملهم، وقد ينكّر تهويلا، أي بأشياء عظام عملوها، وتنبئتهم بما عملوا كناية عن عقابهم به، وقيل: إلينا مرجعهم في الدارين نهلكهم في الدنيا ونعذّبهم في الآخرة، وهو غير متبادر هنا ولا في مثله، ولا يناسب ﴿فَنُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُواْ﴾ لأنّ هذه التنبئة في الآخرة فقط.

﴿إِنَّ اللهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ تعليل لقوله: ﴿فَنُنَبِّئُهُم﴾، أي لأنَّه لا يخفى عليه ما في الصدور، كما لا يخفى عليه ما في الخارج على حدٍّ سواء.

﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلاً﴾ تمتيعا قليلا أو زمانا قليلا، والأوَّل أولى لأنَّ الزمان ولو جاز وصفه بالقلَّة لكن وصفه بالقصر أولى ﴿ثُمَّ نَضْطَرُّهُمُ، إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ نلجئهم قهرا إلى عذاب عظيم جدًّا كالشيء الغليظ الذي لا يطاق حمله كالجبل، ولا ينفكُّون عنه بقوَّة ولا بشافع.

والاضطرار: الافتعال من الضرِّ، أي نلجئهم إلى ضرٍّ، تشتدُّ عليهم النار فيتمنَّون البرد فيرسل عليهم البرد الشديد المسمَّى بالزمهرير، فيكون أشدَّ عليهم من النار فيطلبونها، فيعادون إليها اختيارا عن اضطرار وهذا اضطرار.

وقيل: ﴿نَضْطَرُّهُمُ، إِلَىٰ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾: نضمُّ إلى الإحراق الضغط والتضييق، ولا يصحُّ هذا، وإنَّما يصحُّ لو ذكرت النار قبل هذا قريبا، وإنَّما الذي يلي التمتيع القليل النار بعد مدَّة، لا الضغط.

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِن بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٣٠﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُم مِّنْ آيَاتِهِ

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣١﴾ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾﴾

إثبات وجود الله وسعة علمه وشمول قدرته

﴿**وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ**﴾ خلقهنَّ الله أو الله خالقهنَّ، أو خالقهنَّ الله، والأوَّل أولى لوروده مذكورا كذلك في آية أخرى [الزمر آية ٣٨]، ولو قيل: من خالق السماوات والأرض؟ كان الأولى تقدير: الخالق لهنَّ الله. اعترفوا بقدرته على خلقهنَّ، وأبوا أن يعترفوا بردِّ الأموات أحياء، وهذا عجيب.

﴿**قُلِ الْحَمْدُ للهِ**﴾ على اعترافهم بما يوجب بطلان إشراكهم، فإنَّ آلهتهم لا تقدر على خلق شيء، ولا يستحقُّ العبادة غير الخالق، وبما يوجب الإقرار بحقِّية البعث، وعلى قيام دلائل الوَحْدَانِيَّة.

﴿**بَلَ اَكْثَرُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ**﴾ أنَّ الإقرار بأنَّه الخالق لهنَّ ملزم لبطلان ما هم عليه، أو لا يعلمون أنَّ الحمد لله.

﴿**للهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ**﴾ هو الذي خلق ما فيهنَّ وإياهنَّ، فكلُّ ذلك ملك له يتصرَّف فيه بما يشاء، فكيف يستحقُّ المملوك ما هو للمالك؟ فلا يستحقُّ العبادة غيره ولا يشاركه فيها.

﴿**إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ**﴾ عَمَّن سواهُ ﴿**الْحَمِيدُ**﴾ مستحقُّ الحمد بالذات ولو لم يحمده أحد لكن قد حمده المؤمنون والملائكة والحيوانات، أو المحمود بالفعل، حمده كلُّ شيء حتَّى أبدان المشركين تحمده كحمد الجبال والشجر، والله مستغن عن عبادة المؤمنين والملائكة وغيرهم، وإنَّه غنيٌّ عَمَّن سواه، وإنَّه المحمود

على المنافع لأنَّه الخالق لها.

(نحو) ﴿وَلَوَ انَّمَا فِي الارْضِ مِن شَجَرَةٍ اَقْلاَمٌ﴾ المصدر المؤوَّل فاعل لــ«ثبت» محذوفا، وهو مصدر من خارج، إذ ليس في خبر «أَنَّ» بل يجاء بالكون أو بالفعل المفيد معنى الكون من خبرها، أي لو ثبت كون ما في الأرض أقلاما، وأقلاما خبر الكون في التأويل، وخبر «أَنَّ» قبل التأويل، أو لو ثبتت قلمية ما في الأرض، وذلك أنَّه لا بدَّ لــ«لَوْ» من فعل ولا بدَّ من التأويل بالمصدر مع «أَنَّ» المفتوحة.

وقال سيبويه: لا يقدَّر الفعل والمصدر مبتدأ بلا خبر، لوجود المسند والمسند إليه قبل التأويل، وقدَّر بعضهم خبره قبله، وبعض بعده. وفي الآية مجيء خبر «أَنَّ» بعد «لَوْ» اسما كقوله:

ولو أنَّها عصفــورة لحســبتها مسوَّمة تدعو عبيدا وأزنما[1]

وقوله:

ما أطيب العيش لو أنَّ الفتى حجر تنبو الحوادث عنه وهو ملمــوم[2]

(نحو) لا كما قال الزمخشري: من منع ذلك غفلة منه، إذ لم يقل: إنَّما يكون الخبر بعدها اسما جامدا أو فعلا لا اسما مشتقًّا، فلا يجاب عنه بأنَّه أراد: لا يكون فعلا إذا لم يكن اسما مشتقًّا، ثمَّ إنَّه إذا لم يكن فعلا فهب أنَّه اسم جامد أو مشتقٌّ.

١- البيت من الشواهد، ونسبه بعض إلى جرير في ديوانه ص٣٢٣، ونسبه في اللسان إلى العوام بن شوذب الشيباني، وأزنم بطن من بني يربوع. بديع يعقوب: المعجم المفصل في الشواهد، ج٧، ص١٠١.

٢- البيت من الشواهد أيضا، ونسب لابن مقبل في ديوانه ص٢٧٣. بديع يعقوب: المعجم المفصَّل في الشواهد، ج٧، ص١٠١.

و«مِنْ» متعلّق بمحذوف حال من المستتر في قوله: ﴿فِي الأَرْضِ﴾. و«شَجَرَةٍ» نكرة عَامَّة في الإثبات، كقوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ﴾ (سورة الانفطار: ٥) . ومن الجائز تقدير مضاف عام في ذلك ونحوه، أي: «علمت كلُّ نفس» و«من كلِّ شجرة»، واسم الشرط يعمُّ مع أنَّه نكرة في الإثبات لشبهه بالنفي، وهنا قوي جانب العموم بـــ«لو» لأنَّها حرف شرط.

[قلت:] وحكمة إفراد «شَجَرَةٍ» وتنكيرها دفع ما يتوهَّم لو جمعت من التوزيع بأنَّ كلَّ شجرة على حدة قلم، وليس ذلك مرادا بل المراد أنَّ كلَّ عود من كلِّ شجرة ولو دقَّ قلم، والعود الغليظ أو الطويل تكون منه أقلام متعدَّدة كالأقلام التي عهدناها مع أنَّها يقدر لها البري إلى حدٍّ ما يمكن أيضا.

﴿وَالْبَحْرُ﴾ المحيط، و«ال» للعهد، لأنَّه المتبادر والفرد الكامل، وأجيز إرادة الجنس، أو الاستغراق، والعهد والاستغراق أولى من الجنس، وذلك إن أريد الجنس جاز أن يراد غير المحيط والمقام للمبالغة ﴿يَمُدُّهُ،﴾ يصير مدادا لما في الدنيا من الأشجار الواقع كلُّ عود منها قلما، على حدِّ ما ذكرت آنفا.

والمدُّ الزيادة، أي تضمُّ إلى الأقلام، ومدَّ الدواة زاد فيها ما يكتب به من المداد، وجملة «الْبَحْرُ يَمُدُّهُ» حال من المستتر في قوله: ﴿فِي الأَرْضِ﴾ ولو فصل بينهما.

﴿مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾ حال من المستتر في «يَمُدُّ»، والمراد بسبعة أبحر مفروضة كلُّ واحد كالمحيط، أو كلُّ واحد كالبحور الموجودة كلِّها، على جعل «ال» للاستغراق.

روى الطبراني وابن المنذر عن ابن عبَّاس: «إنَّه خلق الله تعالى من وراء هذه الأرض بحرا محيطا بها، ومن وراء ذلك جبلا محيطا بها يقال له قاف، وخلق من

وراء ذلك الجبل أرضا مثل تلك الأرض سبع مَرَّات، وخلق من وراء ذلك بحرا محيطا بها، ثمَّ خلق وراء ذلك جبلا يقال له قاف، السماء الثانية مترفرفة عليه»، حتَّى عدَّ سبع أرضين وسبعة أبحر وسبعة أجبل، وذلك قوله تعالى: ﴿وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ﴾.

(نقد الرواية) [قلت:] والله أعلم بِصِحَّة ذلك، والله تعالى قادر على ما لا يحصى من ذلك، وهبْ أنَّه ذكره كعب الأحبار رضي الله عنه ، لكن لعلَّه أخذه من كتب الإسرائيلِّين، وهو في نفسه ثقة، ويبحث بأنَّه إذا كان ثقة لم يرو إلاَّ ما صحَّ، فيجاب بأنَّه رواه ظَانًّا أنَّه صحيح مع أنَّه ليس مِمَّا يقطع فيه العذر.

والمراد **بالسبعة تكثير العدد ولو آلاف بحر من بعده**، وخصَّت لأنَّها عدد تامٌّ، كما ذكرته في سورة البقرة[1] وشرح القلصادي، وكثير من المعدودات التي لها شأن يقال فيها سبع، كسبع سماوات وسبع أرضين، والكواكب السيَّارة، والأقاليم والأيَّام.

ومقتضى الظاهر: «والبَحْرَ مِدَادُهُ» بنصب البحر كما قال: ﴿وَلَوَ اَنَّمَآ فِي الاَرْضِ مِن شَجَرَةٍ اَقلاَمٌ﴾ ولكن قال: ﴿والبَحرُ يَمُدُّهُ﴾ لأنَّ «يَمُدُّهُ» يغني عن ذكر المداد، ويزيد عليه بالاستمرار التَّجدُّدي تصريحًا كما هو المراد بصيغة المضارع، أي لا يزال يصبُّ فيه، وليس هذا في لفظ مداد.

﴿مَّا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللهِ﴾ ما انقضت معلوماتهُ إن كتبت بتلك الأقلام، وتلك البحور، وحذف هذا الشَّرط، وإن شئت فقدِّر: «من بعده سبعة أبحر، وكتب بتلك الأقلام وبذلك المداد كلمات الله، ما نفدت

١- انظر: ج١، ص٤٣٥، وقد تعرَّض إلى ذكر بعض خواصِّ الأعداد.

كلمات الله أو علمه».

(سبب النزول) قالت اليهود بعد هجرته ﷺ : على أنَّ الآية مَدَنيَّة، أو أمَرُوا قريشا بالقول: تزعم يا محمَّد أنَّا لم نؤت من العلم إلاَّ قليلا ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنَ اَمرِ رَبِّي وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً﴾ (سورة الإسراء: ٨٥) ، وقد أوتينا التوراة وهي الحكمة، ﴿وَمَنْ يُّوتَ الْحِكْمَةَ فَقَدُ اوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (سورة البقرة: ٢٦٩) ، فنزل: ﴿وَلَوَ اَنَّمَا فِي الاَرْضِ مِن شَجَرَةٍ...﴾ فكثيرُكُم قليل بالنِّسبة إلى سعة علمه تعالى.

وروي أنَّهم قالوا: من عنيت بقولك: «وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إلاَّ قَلِيلاً» إيَّانا أو قومك؟ فقال: كُلاًّ عنيت، قالوا: ألست تتلو أنَّنا أوتينا التوراة وفيها علم كلِّ شيء؟ فقال ﷺ : هي في علم الله قليل، فقالوا: ألست تتلو: ﴿وَمَنْ يُّوتَ الْحِكْمَةَ فَقَدُ اوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾؟ فقال ﷺ : «هذا علم قليل، وخير كثير»، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوَ اَنَّمَا فِي الاَرْضِ...﴾. وروي أنَّ المشركين قالوا: إنَّ هذا كلامٌ يوشك أن ينفد فأنزل الله ﴿وَلَوَ اَنَّمَا فِي الاَرْضِ...﴾.

(بلاغة) وقيل: كلماته مقدِّراته، من إطلاق اسم السبب على المسبب، إذ يقول لشيء: كن، فيكون. واختار كلمات وهو جمع قلَّة على كَلِم الله وهو جمع كثرة تلويحًا بأنَّ كلماته لا تفي بها البحار والشجر فكيف بكَلِمه؟.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ﴾ لا يغلبه شيء كما أراد ولا يعجزه شيء، ﴿حَكِيمٌ﴾ لا يخرج عن علمه وحكمته شيء ﴿مَّا خَلْقُكُمْ وَلاَ بَعْثُكُمُ، إلاَّ كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ وكذا الخلق كلُّه في السهولة لكمال قدرته، وعَدَم احتياجه إلى آلة أو كسب ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعُۢ﴾ عليم بكلِّ صوت ﴿بَصِيرٌ﴾ عليم بكل شيء من المبصرات،

أو بِكُلِّ شيء، وقد علم قريش ذلك.

وإنَّما كانوا يقولون إذا أرادوا الطَّعن في الدِّين: أسرُّوا قولكم لِئَلاَّ يسمع إله محمَّد، حمقًا وعنَادًا وفيه نزل: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوْلَكُمُۥ أَوِ اجْهَرُواْ بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (سورة الملك: ١٣) . وقيل: نزلت الآية في أُبي بن خلف، ونبيه ومنبه ابني الحجاج وغيرهم من قريش، إذ قالوا: إنَّ الله خلقنا نطفًا وعلقًا ومضغًا فكيف يبعثنا خلقا جديدا في ساعة واحدة؟.

﴿**أَلَمْ تَرَ**﴾ يا محمَّد، أو يا من يصلح للرُّؤية مطلقًا، وهو أولى ﴿**أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ**﴾ يُدخِلُ كُلاًّ في الآخر بالنقص منه وزيادة ما نقص منه في الآخر، ولم يقل: يولج أحد المَلَوينِ في الآخر مع أنَّه أقلُّ لفظًا لصلوحه بحسب ظاهره بأن يكون يولج أحدهما في الآخر ولا يولج الآخر فيه، ولم يقل: يولج كُلاًّ من المَلَوْين في الآخر ليصرِّح في التفصيل بالدَّلالة على استقلال كلٍّ منهما في الدلالة على كمال القدرة. وقدَّمَ «الليل» لتقدُّم الظلمة، إذ كان العالم مظلمًا ثمَّ خلق الله نور محمَّد ﷺ مضيئًا، وخلق الشمس والقمر والنُّجوم.

﴿**وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ**﴾ قدَّمها مع تقديم الليل الذي يكون فيه ضوء القمر على النَّهار الذي يكون فيه نور الشمس، لأنَّها كالمبتدإ للقمر أعظم، وتسخيرها مع عظمها أعظم من تسخير القمر، وأيضًا تأثير الشمس في العالم من الشجر والنَّبات وغيرهما أعظم من تأثير القمر فيه، ولأنَّ نور القمر بها فإنَّه أطلس، وما قابلها منه استضاء.

(**بلاغة**) وذكر الإيلاج بالمضارع لتجدُّده والتسخير بالماضي لأنَّه أمر لا تعدُّد فيه، وإنَّما التعدُّد في أثره، ومنه الجري إلى أجل مسمًّى في قوله تعالى: ﴿**كُلٌّ**﴾ كلُّ واحد من الشمس والقمر ﴿**يَجْرِي**﴾ على استمرار ﴿**إِلَىٰٓ**

أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ سمَّاهُ الله وعيَّنه، وهو يوم القيامة، يكفُّهما الله سبحانه عن الجري ويزيل نورهما فتقوم السَّاعة عقب ذلك.

(فلك) وحركتهما هي بواسطة حركة الفلك الأعظم، وبها حركة سائر الأفلاك وكواكبها، وتسمَّى حركة الكلّ والحركة اليومية والحركة السَّريعة والحركة الأولى، والحركة على خلاف التَّوالي، والحركة الشَّرْقيَّة وبعض يسميها الحركة الغَربيَّة.

وقيل: ما يعمُّ حركته وحركتهما الخاصَّة بهما وهي حركتهما بواسطة فلكيهما على التَّوالي من المغرب إلى المشرق، وهي للقمر أسرع منها للشَّمس، وقيل: جريهما عبارة عن حركتهما الخاصَّة بهما.

[وقيل:] والأجل المسمَّى لجري الشمس آخر السنة المسمَّاة بالسَّنة الشمسية، وهي زمان مفارقة الشمس موضعا ما من فلك البروج إلى عودها إليه بحركتها الخَاصَّة، ولكن جعلوا ابتداءها من حين حلول الشمس رأس الحمل، وذلك ثلاث مائة وخمسة وَستُّونَ يوما بليلته وربع يوم كذلك.

وقال بطليموس: ثلاث مائة وخمسة وَستُّونَ يوما وخمس ساعات وستٌّ أو خمس وخمسون دقيقة، واثنتا عشرة ثانية، وعند بعض الْمُتأَخِّرين: ثلاث مائة وخمس وَستُّونَ يوما وخمس ساعات وستٌّ وأربعون دقيقة وأربع وعشرون ثانية، ولجري القمر آخر الشهر القمري وهو زمان مفارقة القمر أي وضع يعرض له من الشمس إلى عوده إليه، وذلك في السنة الحَقيقيَّة والشهر الحقيقي.

وَأَمَّا السنة الاصطلاحيَّة فاعتبرها بعض كالروم والأقدمين من الفرس ثلاث مائة وخمس وَستِّينَ يوما بليلته وربع يوم كذلك، وأخذ الكسر ربعا تَامًّا، إلاَّ أنَّ الرُّوم يجعلون ثلاث سنين ثلاث مائة وخمسة وَستِّينَ يوما ويكبسون في الرابعة بيوم، والفرس يكبسون في مائة وعشرين سنة بشهر، وأما الشهر غير الحقيقي

فالمعتبر فيه الهلال ويختلف ما بين زمان الهلالين.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ عطف على ﴿أنَّ اللهَ يُولِجُ...﴾ داخل في حيِّز الرؤية فمن شاهد الإيلاج وما بعده لا يغفل على أنَّ الله أحاط علمُه بكلِّ شيء.

﴿ذَٰلِكَ﴾ المذكور في هؤلاء الآيات ﴿بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ الواجب الوجود ثابت بسبب أنَّ الله هو الحقُّ تعالى شأنه، لأنَّ كونه تعالى وَحْدَهُ واجبَ الوجودِ يُوجب أنَّه المُوجِد لغيره، وأنَّه كامل العلم.

﴿وَأَنَّ مَا تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ تسمُّونه إلهًا أو تعبدونه ﴿الْبَاطِلُ﴾ غير المعتبر لأنَّه ممكن لا يوجد إلاَّ بِمُوجِدٍ، أي وبسبب بطلان ما يدعونه، لأنَّ إمكانه قد شاركه فيه غيره مما لم يدعوه، فانحصر وجوب الوجود لله تعالى **فلزم أن لا خالق سواه وأنَّه وحده إلهٌ** ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ﴾ على ما سواه ﴿الْكَبِيرُ﴾ المتنزِّه عن الشركة وصفات الخلق.

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ يا من يصلح للرؤية ببصره، أو ألم تعلم يامحمَّد ﴿أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ﴾ بإحسانه في إيجاد أسباب الجري من الريح وتسخيرها والباء للتعدية أو السَّـببِـيَّة، أو تجري بما أنعم الله به عليكم من طعام ومتاع وغيرهما، مما يحمل في الفلك، فالباء للمصاحبة مُتَعَلِّق بمحذوف حال من ضمير «تَجْرِي» والآية استشهادٌ على بَاهِر قدرته.

﴿لِيُرِيَكُم مِّنَ ـــ ايَاته﴾ بعض آياته الدالَّة على كمال قدرته، واختصاصه بالوحدانيَّة والألوهيَّة ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على المصائب والطَّاعات وعن الشَّهوات ﴿شَكُورٍ﴾ لنعمه في السرَّاء والضرَّاء.

والصبر والشُّكر عمدة الإيمان لأنَّ الإيمان وما يتوقف عليه الإيمان إمَّا ترك للمألوف غالبًا وهو بالصبر، أو فعل لما يتقرَّب به وهو شكر، لأنَّه يَعُمُّ اللِّسان والجوارح والقلب، كما ورد.

[قلت:] نصف الإيمان صبر ونصف شكر، وراكب الفلك لا يخلو عنهما ولذلك ــ والله أعلم ــ جيء بهما بعد ذكر الفلك، ولا دليل لمن فسَّر الصبَّار بالصبَّار على التعب في كسب الأدلَّة من الأنفس والآفاق، ولا يتبادر.

(بلاغة) وقدَّم «صبَّار» للفاصلة، ولأنَّه فعَّال أبلغ من فعول لزيادة حروفه، ولأنَّ قليل الصبر لشدَّة مرارته كثير، ولذلك اختار منه فعَّال ولو أخَّره وقال: صبور (بالواو) لصحَّت الفاصلة، لكن يفوت ما ذكر من المناسبة.

﴿وَإِذَا غَشِيَهُم﴾ علا أطرافهم فوق رؤوسهم دون غرق، أو كاد يغشاهم غشاء مهلكا فيغرقوا به، أو ﴿غَشِيَهُمْ﴾: أتاهم، والهاء لمطلق راكبي الفلك، وإن عادت للمخاطبين قبلُ فعلى طريق الالتفات. **﴿مَّوْجٌ﴾** ماء متحرِّك يتعالى بعضه على بعض **﴿كَالظُّلَلِ﴾** جمع ظُلَّة، كغرفة وغرف، وهي ما علاك ومن شأنه أن يلقي عليك ظلَّه كالظلَّة المعمولة للشمس، أو للمطر، وكالسحابة وكالجبل، فمن الموج ما يعلوك فوق رأسك، ومنه ما يعلو دون ذلك كالجبل يطول عليك.

﴿دَعَوُاْ اللهَ﴾ وحده، «يا ربَّنا نجِّنا من الغرق»! ولا يدعون آلهتهم، كما قال: **﴿مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾** العبادة أو الدعاء، ففي حال الموج لا يعبدون غير الله ولا يذكرونه.

(نحو) **﴿فَلَمَّا نَجَّاهُمْ، إِلَى الْبَرِّ﴾** الجواب محذوف أي انقسموا قسمين، دلَّ عليه قوله **﴿فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾** وهذا أولى من قول ابن مالك بجواز

إجابة «لَمَّا» بالجملة الاسميَّة المقرونة بالفاء وجعله «مِنْهُم مُّقْتَصِدٌ» جوابها، وهذا قسم من القسمين والثاني محذوف دلَّ عليه قوله تعالى:

﴿وَمَا يَجْحَدُ بِئَايَاتِنَآ إِلاَّ كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ﴾ أي فمنهم مقتصد ومنهم جاحد، وما يجحد بآياتنا إلاَّ كلُّ ختار كفور.

والمقتصد: سالك القصد، وهو الطريق في الأرض الذي لا عوج فيه ولا خشونة ولا معطِّل، والمراد هنا: التوحيد، مجازا استعاريا، والمراد: مقيم على التوحيد الذي وحَّده في الفلك، وأمَّا لواحقه فمستتبعة بأن يؤمن برسول الله ﷺ ويتبعه فيثاب، أو متروكة فيعاقب، وهو غير مشرك إن آمن برسول الله ﷺ وإلاَّ فمشرك.

أو المراد: يقتصد بعد الخروج من الفلك، وتوحيده فيه بأن يؤدِّي الفرائض ويترك الحرام ويؤمن برسول الله ﷺ، فيجوز تفسير الاقتصاد بالوفاء بمضمون ما قال في الفلك، سواء جعل على نفسه عهدا أو لم يجعل.

(سيرة) لَمَّا فتح رسول الله ﷺ مكَّة أمر أن لا يقتل أحد إلاَّ عكرمة بن أبي جهل وعبد الله بن خطل وقيس بن ضبابة وعبد الله بن أبي سرح، هرب عكرمة وركب البحر فأصابتهم ريح عاصفة، فقال أهل السفينة: «أخلصوا فإنَّ آلهتكم لا تغني عنكم شيئا هنا»، توهَّموا أنَّها قد تغني في غير البحر، فقال: لئن لم ينجني في البحر إلاَّ الإخلاص ما ينجيني في البرِّ غيره، اللهمَّ لك عليَّ عهد إن أنجيتني لآتين مُحَمَّدًا ﷺ حتَّى أضع يدي في يده فلأجدنَّه عفوًّا كريما، فأسلم.

أو الاقتصاد: التوسُّط في الكفر لزوال بعض كفره بما شاهد، أو التوسُّط في الإخلاص، لأنَّ ما في الخوف يكون عظيما وإذا زال الخوف نقص. و«الختَّار»: الغدَّار، وقيل: أشدُّ من الغدَّار المطلق، كقولهم: «لا تمدُّ لنا شبرا من غدر إلاَّ

مددنا لك باعا من ختر»، ويناسبه أنَّ من معنى الختر الضعف، فسمِّي «ختَّارا» لاجتهاده في الغدر حتَّى يضعف ويتكسَّر.

ووجه الشدَّة ـــ قيل ـــ أنَّ كفره نقض للعهد الفطري، والظاهر أنَّ وجهها نقض عهده الذي عهده في الفلك، أو مع عهده الفطري، وإلاَّ فكلٌّ كافر ناقض للفطري. و«كَفُورٍ»: مبالغ في كفر النعمة، ضدُّ شكور، فهو مقابل له، كما أنَّ «ختَّارا» مقابل لـــ«صبَّار».

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿٣٤﴾﴾

الأمر بتقوى الله واختصاصه تعالى بعلم الغيب

﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمْ﴾ احذروا عقابه على الإشراك فاتركوا الإشراك **﴿وَاخْشَوْا يَوْمًا﴾** خافوا هوله واستعدُّوا له بالتوحيد والعمل الصالح **﴿لاَّ يَجْزِي وَالِدٌ﴾** إنسان والد، ذكرا أو أنثى، كما في مولود ووالد بعد.

(نحو) وفي قوله: **﴿عَنْ وَّلَدِهِ﴾** الجملة نعت لـــ«يَوْمًا»، والرابط محذوف، أي لا يجزي فيه، وقيل: حذف «في» وانتصب محل الهاء على نزع الجارِّ، فصار: لا يجزيه، على معنى لا يجزي فيه، وصار كرابط الموصول المنصوب بالمتعدِّي على المفعوليَّة، وحذفه مقيس فصار هذا كالمقيس، **والأوَّل أولى لأنَّ هذا تكلُّف**، ما أوصل إلاَّ إلى الشبه.

(نحو) **﴿وَلاَ مَوْلُودٌ﴾** مبتدأ **﴿هُوَ جَازٍ عَنْ وَّالِدِهِ شَيْئًا﴾** خبر،

والجملة معطوفة على الأولى، والرابط محذوف، أي ولا مولود هو جاز فيه، ولا يحسن تقديره مرَّة واحدة، ويتنازع فيه «يَجْزِي»، و«جَازٍ». و«شَيْئًا» مفعول به لـ«جَازٍ»، ويقدَّر ضميره لـ«يَجْزِي»، ولا يثبت، لأنَّه فضلة عمل فيه الأوَّل، وكذا إن جعلنا «شَيْئًا» بمعنى جزاء مفعولا مطلقا يتنازعاه.

والجزاء في الموضعين القضاء، لا يدفع أحدهما عن الآخر تباعة أو عذابا. أو «مَوْلُودٌ» معطوف على «وَالِدٌ» وجملة «هُوَ جَازٍ...» نعت «مَوْلُودٌ» مثبتة لا منفية كما نفيت في الإعراب الأوَّل فيكون الجزاء المثبت في هذا النعت وهو قوله: ﴿هُوَ جَازٍ﴾ واقعا في الدنيا.

أو معناه: إنَّ من شأنه الجزاء لوالده لعظم حقِّ الوالد، والجزاء المنفيُّ بقوله: ﴿وَلاَ مَوْلُودٌ﴾ الجزاء في الآخرة، ويجوز أن يكون ﴿لاَ يَجْزِي﴾ بمعنى لا يقبل، وأكّد في قوله: ﴿وَلاَ مَوْلُودٌ...﴾ ما لم يؤكّد قبله دفعا لما يتوهَّم الناس، أو الوالد الذي يدَّخر الولد للنفع أنَّ الولد يجزي عن والده شيئا يوم القيامة كما يكفي عنه السوء في الدنيا، لعظم حقّه عليه، أو أكّد فيه ما يتوهَّم أنَّ المسلم يشفع لأبيه الكافر على عهد رسول الله ﷺ أو بعده.

و﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب لمن في عهده ﷺ ولمن بعده إلى يوم القيامة، وهكذا في غير هذا الموضع مما لا مانع فيه، فذلك تبليغ من مبلِّغ بعد مبلِّغ، [قلت:] ومن الخطإ قول من قال: خطاب لمن في عهده فقط، أمَّا غيره فبالإعلام. أو أكّد الكلام أيضا بلفظ مولود لأنَّه ولد الصلب بخلاف الولد فإنَّه يشمل ولد الولد، فإذا كان ولد الصلب لا يجزي فأولى أن لا يجزي ولد الولد.

وقال بعض أيضا: الولد حقيقة في ولد الصلب، والمولود في الآية الكبير، فإنَّه الذي يتوهَّم منه النفع والقدرة على النفع، أو يراد الصغير فإنَّه مع عدم اشتغاله بنفسه عن أبيه في الدنيا لا يدفع عنه في الآخرة، فأولى أن لا يدفع عنه

الكبير المشتغل بنفسه.

وجاء أَنَّ الصبيَّ يشفع لأبيه المؤمن، وليس بجزاء فلا ينافي الآية، وإن قلنا: إنَّه جزاء فلا بأس أيضا لتوقُّفه على القبول، والمنفيُّ في الآية على إطلاقه دون توقُّف على قبول.

﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ﴾ بالثواب والعقاب والخير، ويوم لا يجزي والد عن ولده، والوعيد يخصُّ العذاب والسوء ﴿حَقٌّ﴾ ثابت لا يتخلَّف الثواب ولا العقاب، ولا الخير الموعود به مطلقا، ولا اليوم الموعود بأنَّه لا يجزي فيه والد عن ولده.

﴿فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا﴾ بلذَّتها والرغبة في صحبة الأشرار وموافقتهم ﴿وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ﴾ عن الله، يُعدَّى بعن لأنَّه بمعنى: لا يلهكم، فالباء بمعنى عن، أو هي للبدلِ ﴿الْغَرُورُ﴾ الشيطان، بأن يحملكم على الكفر والإصرار، وسائر المعاصي، وتسويف التوبة وترجية المغفرة للتوحيد ولو بلا وفاء، [كما يقول البعض] وبالإيئاس، أو الباء للآلة أو السَّببِيَّة، أي بذكر شيء من شأنه يجسركم عن المعصية، أو الإصرار.

وقيل: «الغرور» **كلُّ ما غرَّك حتَّى عصيت الله سبحانه**، كمالٍ وجاه وشيطان الجنِّ أو الإنس، وقيل: الدنيا.

﴿إِنَّ اللهَ عِندَهُ، عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ في أيِّ سنة وفي أيِّ شهر وفي أيِّ يوم أو ليلة، وليس علمه بأشراطها وعلمه بقربها علما بها، كما قال عليه السلام: «**بعثت أنا والساعة كهاتين**»[1].

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٥، ص٢٤٨.

(سبب النزول) قال عكرمة: قال الوارث بن عمرو: يا محمَّد متى قيام الساعة؟ وقد أجدبت بلادنا فمتى تخصب؟ وتركت امرأتي حبلى فما تلد؟ وقد علمت ما كسبت اليوم فماذا أكسب غدا؟ وقد علمت بأي أرض ولدت فبأي أرض أموت؟ فترل: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ...﴾ الآية.

(بلاغة) ولم يقل: إنَّ علم الساعة عند الله مع أنَّه أقلُّ لفظا إجلالا لاسم الله بالتقديم، ولإفادة الحصر بتقديم «عِندَهُ» على مبتَدَئه وتكرير الإسناد، لأنَّ فيه إسنادا إلى العلم وإسنادا إلى الله سبحانه.

﴿وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ﴾ عطف على ﴿عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ المخبر به عن لفظ الجلالة، والمراد: يترِّل الغيث في وقته المؤقَّت له، بلا تقديم ولا تأخير، على من شاء بمقدار مخصوص، كلُّ ذلك بحسب الحكمة لا بإهمال أو مخالفة لها، ولهذه القيود المرادة في الآية تطابق قول السائل: متى تخصب أرضنا؟.

﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ﴾ أذكر هو أم أنثى أم خنثى؟ أتامٌّ أم ناقص؟ وما لونه وما أحواله.

(بلاغة) وجاء بالفعلتين للتجدُّد، بخلاف علم الساعة، ولا تجدُّد في علم ما في الأرحام، وعلم الله لا يتجدَّد لكن يتجدَّد متعلَّقه، وهو ما في الأرحام. ولم يقل: ويعلم الغيث لأنَّ المراد الرحمة بتتريله مع مطابقة السؤال، وذكر تتريل الغيث بعد ذكر الساعة لأنَّ الأرض تحيا به، كما أنَّ الموتى يحيون، وذلك بقدرة الله لا باحتياج إلى شيء، ولما روي أنَّ السماء تمطر ماء كالمني فيحيون.

ويجوز عطف «يُنَزِّلُ» و«يَعْلَمُ» على «عِلْمُ السَّاعَةِ» مؤوَّلين بالمصدر، فالمعطوف المصدر على تقدير «أَنْ» المصدرية، أي وعنده علم الساعة وتتريل الغيث وعلم ما في الأرحام.

﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا﴾ أي لا يعلم أحد ما يفعله غدا، من خير أو شرٍّ، وما كَيفيَّة فعله؟ وما هو؟ أقليل أم كثير؟ إلى غير ذلك من أحواله، وربَّما عزم على فعل و لم يفعله، أو على فعل خير فعمل شرًّا وبالعكس: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ﴾ مَّا بارَّة أو فاجرة، عالمة أو جاهلة ﴿بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾.

(لغة) أصل الدراية العلم باحتيال وأصلها من درى الدِّرية «ولقد أراني على الرماح دريئة»[1] وهي ما ينصب ويتعلّم الرمي بها.

والناقة تسيَّب ليأنس الوحش بها ويستتر بها صاحبها فيرميه، ولذلك لا تسند إلى الله سبحانه إلاَّ قليلا، على معنى مطلق العلم. روي عنه ﷺ : «**خمس لا يدريهنَّ إلاَّ الله...**» وهنَّ ما في هذه الآية، والرواية الأخرى: «**لا يعلمهنَّ إلاَّ الله**»[2] وقيل: يجوز مع غيره كهذا الحديث وللمشاكلة كقوله:

لا هُمَّ لا أدرِي وأنت الـدَّاري كلُّ امرئ منك على مقـدار[3]

والعطف على ﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ ويروى: «**لا يدريهنَّ ملك مقرَّب ولا نبيء مصطفى**».

(قصص) وقد ردَّ أبو حنيفة بهذه الآية على من قال للمنصور: تعيش خمس سنوات وخمسة أشهر وخمسة أيَّام، حين رأى صورة ملك الموت في النوم، وسأله عن باقي عمره فأشار إليه بأصابعه الخمس.

١- تمام البيت: «من عن يميني تارة وأمامي»، والبيت لقطري بن الفجاءة في ديوانه. المعجم المفصل في الشواهد، ج٧، ص٣٠٣. والدريئة: الحلقة التي يتعلّم عليها الرمي.

٢- رواه **البخاري** في كتاب الاستسقاء باب (٢٨) لا يدري متى يجيء المطر إلاَّ الله رقم ٩٩٢ من حديث ابن عمر بلفظ مفتاح الغيب خمس.

٣- أوره صاحب اللسان بلا نسبة. ابن منظور لسان العرب ج٤ ص٣٤٢. مادة «دري».

وروي أنّ ملك الموت أدام النظر إلى وجه رجل في مجلس سليمان عليه السلام وهو ظاهر في صورة الإنسان، فقال الرجل: من ذاك الرجل الذي أدام النظر إليّ؟ فقال سليمان: هو ملك الموت، فقال: كأنّه يريدني، فمر الريح أن تحملني إلى الهند، فقال ملك الموت لسليمان: أدمت النظر إليه لأنّ الله أمرني أن أقبض روحه في الهند، وهو عندك فقبض روحه في الهند.

وأراد بالأرض ما يشمل البحر، فإنَّه كالأرض وأيضا أسفل الماء أرض. ﴿**إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ**﴾ بكلِّ شيء ﴿**خَبِيرٌ**﴾ عليم ببواطن الأمور كظواهرها.

والله أعلم وهو الموفق

وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلم

تفسير سورة السجدة وآياتها ٣٠

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝٢ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۚ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّا أَتَاهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ۝٣﴾

إثبات رسالة سيّدنا محمّد عليه السلام

﴿الَمِّ تَنزِيلُ الْكِتَابِ﴾ مبتدأ خبره قوله عزّ وجلّ: ﴿لاَ رَيْبَ فيه﴾ أو هذا معترض، أو حال من «الْكِتَابِ» والخبر قوله عزّ وجلّ: ﴿من رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾ أو هما خبران، أو «تَنزِيلُ» خبر لمحذوف، أي هذا تنزيل، ولا يتعلّق «مِنْ» بـ«تَنزِيلُ» لأنّ المصدر ومعموله كالاسم الواحد، فلا يفصل عنه بخبره، أو «الْكِتَابِ» منعوت في الأصل و«تَنزِيلُ» نعت بمعنى منزّل، والأصل: الكتاب المنزّل، أو «لاَ رَيْبَ فِيهِ» الخبر و«مِن رَّبِّ» حال.

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ﴾ إضراب إبطالي متعلّق بقوله: ﴿لاَ رَيْبَ فيه﴾ فإنّهم أثبتوا الريب في الكتاب، وقالوا: إنّه ليس من الله، ونفى الله عزّ وجلّ أن يكون أهلا للريب، أي لا ريب في كونه منزّلا من ربّ العالمين.

﴿بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّـكَ﴾ عجز البلغاء عن الإتيان بسورة منه ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا﴾ يتعلّق بمحذوف، أي أنزله لتنذر، أو بما يتعلّق به «مِن رَّبِّ»، وهو استقرار الخبر أو الحال، أو بـ«تَنزِيلُ» على جواز الإخبار عن المصدر قبل تمام معموله للتوسُّع في الظروف، على أنّ «تَنزِيلُ» مبتدأ باق على المَصدَرِيَّة، أي لتنذر عقابا، على تعدِّيه لاثنين، كقوله: ﴿هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة

الحشر: ٢٢) ، ﴿فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا﴾ (سورة الليل: ١٤) ، أو يقدَّرُ: لتنذر بالعقاب. والقوم قريش.

﴿مَّآ أَتَاهُم﴾ صلة في الفاعل ﴿مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ﴾ والجملة نعت «قَوْمًا»، والنذير الرَّسول لا مطلق المنذر، كالعالِم ولو غير رسول، لأنَّ قريشا لا تخلو من منذر منهم أو من غيرهم، وأمَّا الرسول فلا رسول منهم متصدِّيا إليهم قبل سيِّدنا محمَّد ﷺ ، وكانوا متعبَّدين بشرائع مَن قبله، و لم يهتدوا، وقصَّروا في البحث عمَّا تعبَّدهم الله به.

وعلى أنَّ موسى وعيسى لم يرسلا إلى الناس كلِّهم يكونون متعبَّدين بشريعة إبراهيم وإسماعيل، وقد قيل: لم يزالوا عليها إلى أن فشت عبادة الأصنام التي أحدثها عمرو بن لحي الخزاعي لعنه الله، و لم يبق فيهم إلاَّ أقلُّ قليل، فدخلوا في قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّنُ امَّة الاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (سورة فاطر: ٢٤) ، أي منهم، أو من غيرهم وانقطع الإنذار كما تقرَّر عنهم.

قلت: إنَّ حكم نبوءة كلِّ نبيء ينقطع إلاَّ نبوءة نبيئنا ﷺ ، وقيل: تنقطع أيضا عند قرب قيام الساعة حتَّى لا يوجد من يقول لا إله إلاَّ الله، والذي يظهر أنَّه لا تنقطع دعوة نبيء بل لا بدَّ من بقاء منذر، ولو قليلا في أهل الفترات.

وقد روي أنَّ زيد بن عمرو[1] بن نفيل من بني عدي من قريش والد سعيد

١-زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى القرشي العدوي نصير المرأة في الجَاهليَّة وأحد الحكماء، وهو ابن عمِّ عمر بن الخطَّاب، لم يدرك الإسلام، مات قبل البعثة بخمس سنين، وكان يكره عبادة الأصنام ولا يأكل ما ذبح لها، ويكره وأد البنات رحل إلى الشام باحثا عن عبادات أهلها فلم تسعه اليهوديَّة ولا النصرانيَّة فعاد إلى مَكَّة يعبد الله على دين إبراهيم فأخرج من مَكَّة، وكان لا يدخلها إلاَّ سرًّا. سئل عنه رسول الله فقال: «إنَّه سيبعث أمَّة وحده». الزركلي: ج٣، ص٦٠.

اجتمع بالنبيء ﷺ قبل نبوءته، وآمن بنبوءته قبل مجيئها، لعلم بها حصل له، أو كان على دين إبراهيم وصاحب رسول الله ﷺ ومات قبل النبوءة بخمس سنين، وقريش تبني الكعبة، قالت أسماء بنت أبي بكر: لقد رأيت زيد بن عمرو بن نفيل مسندا ظهره إلى الكعبة يقول: يا معشر قريش والذي نفسي بيده ما أصبح منكم أحد على دين إبراهيم غيري.

وكان يقول: اللهمَّ لو أنّي أعلم أحبَّ الوجوه إليك عبدتك به، ولكنّي لا أعلم، ثمَّ يسجد على راحلته، وكان يعيب على قريش ذبحهم لغير الله تعالى، و لم يأكل ممَّا ذبحوا لغير الله.

قال ابنه سعيد: قلت لرسول الله ﷺ : «إنَّ أبي كان كما رأيت وكما بلغك أفأستغفر له؟» قال: «**نعم فإنَّه يبعث أمَّة وحده**» أي انفرد في عصره بالإيمان، وليس نبيئا كما زعم بعض.

[قلت:] ويشكل على أنَّه يبعث أمَّة وحده بقس بن ساعدة الإيادي، ولعلَّه باعتبار انفراده في قومه، أو قال ﷺ ذلك قبل أن يعلم بقس فإنَّه مؤمن بالله داع إلى دينه، وصاحب رسول الله ﷺ ومات قبل البعثة، وقيل: عمره ثلاثمائة وثمانون سنة، وقيل: ستُّمائة، والله أعلم بالحقيقة.

ولا إشكال إذا أريد بقريش من كان منهم حين بعث ﷺ ، وقريش هم ولد النضر، وقيل: ولد قصي، وقيل: ولد فهر.

(لغة) وقيل: القوم في الآية العرب، قريش وغيرهم، لم يخلوا من نذير، ولو إسرائيليًّا و لم يتقدَّم منهم نبيء، وخالد بن سنان العبسي ليس نبيئا عند الأكثر، وما يروى من أنَّه ﷺ قال لابنته عجوزا: «مرحبا بابنة نبيء ضيَّعه قومه» فيه مقال.

وقيل: القوم في الآية أهل الفترة العرب وغيرهم، حتَّى بنو إسرائيل، أي ما أتاهم نذير بعد ضلالهم أيُّ رسول، ويجوز كون «نَذِيرٍ» بمعنى إنذار، ويبعد أن تكون «مَا» واقعة على العقاب، مفعولا ثانيا لـ«تُنذِرَ»، أي لتنذر قوما عقابا أتاهم من نذير من قبلك، أو لتنذر قوما العقاب الذي أتاهم من نذير. و«مِنْ» غير زائدة بل للابتداء متعلّقة بـ«أَتَى». ﴿**لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ**﴾ ليهتدوا بإنذارك أو حال كونك راجيا لاهتدائهم.

﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿٦﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ﴿٩﴾﴾

من دلائل التوحيد و القدرة الإلهية

﴿**اللهُ الذي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي ستَّة أَيَّامٍ**﴾ لحكمته ﴿**ثُمَّ اَسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ**﴾ بالخلق، ولو شاء لخلقهنَّ في أقلّ من لحظة، فهل معبوداتكم تخلق ذرَّةً ؟ ﴿**مَا لَكُم مِّن دُونِه مِنْ وَّلِيٍّ وَلاَ شَفِيعٍ**﴾ ما لكم قريب بالنَّسب أو المصاحبة يليكم بالدَّفع عنكم، ولا ذو جاه يرقُّ عليكم فيشفع لكم. و«مِن دُونه» حال من الكاف أي من دون رضى الله عزّ وجلّ ، وإن جعلناه حالا من المستتر في «لَكُمْ» وجعلنا «وَلِيٌّ» مبتدأ؛ أو حالا من «وَلِيٌّ» و«وَلِيٌّ» فاعل «لَكُمْ» فالمعنى: ما لكم شفيع إلاَّ الله، فيلزم وصف الله بالشَّفاعة لأنَّها من الأدنى

إلى الأعلى، كما استشفع أعرابيٌّ رسول الله ﷺ بالله إليه، فنهاه، فيحتاج إلى أن نقول: وجه المنع على بقائه بظاهره وهنا نؤوِّله بناصر، فيجوز.

ويجوز أن يكون للمشاكلة لأنَّ المشركين ينسبون الشَّفاعة لآلهتهم كذا قيل، قلت: ما فيه إشكال لا يجوز حمل القرآن عليه بالتَّأويل، مع أنَّه غير محتاج إليه، وإنَّما نقبل إشكالا ظاهرًا في لفظ القرآن فنؤوِّله، وهنا وجهٌ آخر لا يلزم عليه وصف الله بالشَّفاعة، وهو أنَّ من دونه جار على الواقع فإنَّه لا شفيع إلاَّ وهو غير الله تعالى لأنَّه لا يوصف بالشَّفاعة، نقول: مالك فرس غير أشهب، مع أنَّه لا فرس لمخاطبك البتَّة.

﴿**أَفَلاَ تَتَذَكَّرُونَ**﴾ إن قلنا الهمزة مما بعد الفاء لتمام صدارتها فلا تقدير، وإلاَّ قدَّرنا معطوفا عليه، أي ألا تسمعون المواعظ البتَّة فلا تتذكَّرون؟ أو أتسمعونها فلا تتذكَّرون بها؟.

﴿**يُدَبِّرُ الاَمْرَ**﴾ أمر الدنيا وشؤونها، أي يتقن الأمور، شبَّه الإتقان من أوَّل بإحكام الإنسان أمرًا بعد نظَر فيه، لأنَّ أصل التَّدبير النظر في دابر الأمر، أي عاقبته ليجيء محمودًا.

(**بلاغة**) ففي «يُدَبِّرُ» استعارة تبعيَّة، أو عبَّر بالسبب وهو النظر في العاقبة عن المسبّب وهو الإتقان، ولو كان الله لا يوصف بذلك السبب. ولتضمينه معنى الإنزال عدَّاه بـ«مِنْ» الابتدائيَّة، وبـ«إِلَى» في قوله عز وجل: ﴿**مِنَ السَّمَآءِ الَى الاَرْضِ**﴾ وذلك التنزيل بأسباب ما ينتقل من السَّماء إلى الأرض، ويوصف الأمر بالتحيُّز والانتقال كالملائكة عليهم السلام.

﴿**ثُمَّ يَعْرُجُ**﴾ الأمر ﴿**إِلَيْهِ**﴾ يثبت في علمه تعالى ثبوتًا كثبوت ما يعرج أي يصعد، وذلك الثبوت موافقة العلم الأزلي.

(أصول الدين) وغيرنا يثبتون علمًا تنجيزيا موافقا للقديم يتعلّق بالحوادث وقت حدوثها، ويكفي أن نقول: علمه أزلي منسحب على الحوادث، إذ لا يمكن أن نقول: غفل عنها، ولا أن نقول: لا يعلمها حين وقَعَتْ.

أو المراد: يعرج إلى صحف الملائكة بأن يكتبوه فيها بإذنه تعالى، فيكون فيها بعد كتابته، أو يصعد المَلكُ به إلى حيث يريد الله.

﴿فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ، أَلْفَ سَنَة مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ نعت «أَلْفَ» أو «سَنَة»، وتنازع «يُدبِّرُ» و «يَعْرُجُ» في قوله: ﴿فِي يَوْمٍ﴾ وأعمل الثاني وأضمر لِلأَوَّلِ، أي يدبَّر فيه، أي فِي يَوْمٍ كَانَ...

وقيل: **المراد العروج في يوم، لا التدبير** في يوم، فيتعلّق بـ«يَعْرُجُ» ولا يقدَّر لـ«يُدبِّرُ»، والمراد بالألف المدَّة الطويلة لا نفس الألف، وقيل: الألف نفسه، وعلى كُلِّ حال خُصَّ لأنَّه أقصى المراتب لا مرتبة بعده، إلاَّ ما يتفرَّع عليه، وذلك أنَّه يقدِّم للشيء ما ينبني عليه من أسباب أو كتابة أو نحو ذلك، ثمَّ يُوجده بعد طول مدَّة.

فالإرادة نوعان قديمة عمَّت كُلَّ شيء بخصوصه، وإرادة كالتوجُّه إلى إيجاده، ولا بأس بذلك، ألا ترى إلى قوله تعالى :﴿إِنَّمَا قَولُنَا لِشَيْءٍ اذَآ أَرَدْنَاهُ﴾ (سورة النحل: ٤٠) . [وقيل:] وبين الأرض ومحدودب السماء خمس مائة عام، وغلظها خمس مائة عام، والملك يقطع ذلك في زمان يسير.

وذلك تمثيل بأنَّه لو فُوِّض إلى البشر لدبَّره في ألف سنة ولو عرج به لوصل بألف عام، وإلاَّ فزمان التدبير والعروج يسير.

وقيل: المعنى يدبِّر أمر الدنيا بإظهاره في اللَّوح المحفوظ فيترل الملك الموكَّلُ به من السَّماء إلى الأرض ثمَّ يعرج الملك أو الأمر مع الملك إليه تعالى، في زمان كألف سنة

(أصول الدين) وسمِّيت تلك المواطن ملاقاة لله تعالى لأنَّه حضر منه تعالى فيها ما لم يكن من قبل، وعبارة بعض: ملاقاتهم إيَّاهُ الإقبال عليه بالكُلِّـيَّةِ، والله هو المسلِّم عليهم في بعض تلك الأوجه، وفي بعضها الملائكة.

وقيل: يسلِّم بعض المؤمنين على بعض إذا دخلوا الجنَّة، فإضافة «تحيَّة» إضافة إلى الفاعل، إمَّا على أن كلّ واحد يسلِّم على غيره، ويسلِّم عليه غيره، فذكر كونه مسلِّما على غيره، ولم يذكر كونه سلّم عليه غيره.

وإمَّا أنَّ بعضا يسلِّم على بعض، وهذا البعض لا يسلِّم بل يردُّ السلام، وذكر هذا الذي يسلِّم على غيره، والواضح كما يتبادر **أنَّ الله هو المسلِّم عليهم إذا دخلوا الجنَّة تكريما لهم وتشريفًا.**

﴿وأَعَدَّ لَهُم، أجْرًا كَرِيمًا﴾ في قضائه أو في اللوح المحفوظ، أو عند خلق الجنَّة، والأجر الكريم هو ما لهم فيها، ويقال بعد دخولها وبعد التَّحيَّة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

مهام بعثة النبيء ﷺ

﴿يَآ أَيـُّهَا النَّبيءُ انَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا﴾ على من بعثت إليهم، عاصرتهم بتصديقهم وتكذيبهم وأعمالهم وأقوالهم، والحال مقدَّرة، سواء فسِّرت بتحملها لأنَّ تحملها بعد الإرسال، أو بأدائها يوم القيامة.

وقيل: يُعْلِمُه الله بأسماء من بعدَهُ وتصديقهم وتكذيبهم وأفعالهم، وبأحوال الصحابة بعد موته، وقيل: تعرض عليه أحوال أمَّته كلّ أسبوع

وقيل: المعنى يترل الوحي مع جبريل عليه السلام في يوم كان مقداره ألف سنة هبوطًا وصعودًا، فالأمر بمعنى الوحي كقوله تعالى: ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنَ اَمْرِهِ﴾ (سورة غافر: ١٥) ، والعروج عبارة عن خبر القبول والرد مع عروج جبريل، والعروج والتدبير في اليوم، وهذا العروج إلى العرش.

وقيل: الأمر المأمور به من العبادة والعروج صعودها مخلصة بعد مدَّة طويلة بين مخلص ومخلص له، وليس المراد بالألف هذا العدد.

وقيل: المعنى يدبِّر أمر الشمس في طلوعها وغروبها إلى أن ترجع إلى مطلعها مسيرة ألف سنة في اليوم والليل، والآية من المتشابه.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الموصوف بالصفات المقتضية للقدرة التَّامة سبحانه وتعالى ، **﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾** عالم ذي الغيب، أو الغائب عن المخلوق في الدُّنيا والآخرة **﴿وَالشَّهَادَةِ﴾** ذي الشَّهادة أو الشَّاهد الحاضر للمخلوق فيهما **﴿الْعَزِيزُ﴾** الغالب الذي لا يذلُّ ولا يعجز عَمَّا أراد **﴿الرَّحِيمُ﴾** لعباده.

﴿الذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُۥ﴾ هذه أربعة أخبار لاسم الإشارة، ولا يجوز جعل «العَزِيزِ» نعتا لـ«عَالِمُ»، أو ما بعده أيضًا نعوت لـ«عَالِمُ»، أو كلّ واحد نعتا لما قبله، لأنَّ الأصل في الصِّفة أنَّ لا تنعت، وإنَّما ينعت الجامد.

(نحو) [قلت:] ومن العجب جعل «الذي» خبراً لمحذوف، أو منصوبا بمحذوف على المدح، وإنَّما يصار إلى ذلك إذا دعا إليه داعٍ كتَغَاير الإعراب، فيقدَّر ما يناسب.

وجملة «خَلَقَهُ» نعت «شَيْءٍ»، أو «كُلَّ»، وكلُّ المخلوقات حسنة، بمعنى أنَّهنَّ صنعة عجيبة لا يقدر عليها غيره تعالى، وكانت على الحكمة ولو تفاوتت بزيادة البهاء أو القُوَّة و﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ﴾ (سورة الملك: ٣)

نفي للتَّفاوت بأن يكون وجه إنسان مثلا وجه حمار مثلا، أو يده مثلا حجرا أو شجرًا مثلا.

﴿**وَبَدَأَ خَلْقَ الانسَانِ**﴾ آدم ﴿**من طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ،**﴾ ذرِّيته، سمِّيت لأَنَّها تسلُّ منه أي تفصل ﴿**مِن سُلاَلَةٍ**﴾ خلاصة مصفَّاة تفصل، ونعته بقوله: ﴿**من مَّآءٍ**﴾ نطفة ﴿**مَّهِينٍ**﴾ محتقر لنـــتنه وضعفه وموته وقلَّته، لا يعقل أحد أنَّه يتولَّد منه الإنسان، لولا أنَّ الله يخلقه منه.

﴿**ثُمَّ سَوَّاهُ**﴾ عدَّله في الرَّحم بتكميل الأعضاء وتصويرها، وأصل التَّسوية جعل الأجزاء أو الأشياء متساوية، ونأخذ من ذلك أنَّ أعضاءه متساوية في مطلق النَّفع بها والإحساس. و«ثمَّ» للتَّرتيب الرُّتبي، فإنَّ تسويته أعلى رتبة ممَّا قبلها أو للتَّرتيب الذِّكري أو الزَّماني.

﴿**وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ**﴾ بعض روحه، أو «مِن» للابتداء، أي من الرُّوح الذي هو ملك له، وهذه الإضافة تشريف بأنَّه خلق عجيب كناقة الله.

(أصول الدين) ونفخ الروح فيه مجاز عن تعليقها بالبدن، ويلزم من ذلك أنَّها متجرِّدة عن البدن، كما هو رأي الفلاسفة وبعض المتكلِّمين كالغزالي، وقيل: النَّفخ حقيقة، وهو من الملَك، ولا مجاز، وفي قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فيه مِن رُّوحِنَا﴾ (سورة التحريم: ١٢) مجاز في الإسناد، أو يقدَّر مضاف، إلاَّ أن يقال: الأصل هنا: ونفخ الله فيه من روحه بدليل: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ فيكون البناء للمفعول مأخوذًا من مجاز الإسناد.

[قلت:] والصواب أنَّ الروح داخلة في البدن كابتلال التُّراب بالماء، وكالماء في العود الأخضر، و كالنَّار في الجمر، وذلك معقول لنا كالمشاهد، وهو **الذي دلَّت عليه الأحاديث والأخبار وظاهر الآيات.**

﴿وَجَعَلَ﴾ خلق ﴿لَكُمُ﴾ خاطب بعد الغيبة ليناسب تشريف الرُّوح بأنَّها تعقل وتفهم الخطاب في جسد كان قبلها كجماد، وقُدِّم على طريقة الاعتناء بالمُقَدَّم والتَّشويق إلى المؤخَّر، وقدَّم قوله: ﴿السَّمْعَ﴾ لأنَّ أكثر أمور الدِّين بالاستماع والتعلُّم به، وكذا الدنيا، وأفرد لأنَّ أصله مصدر، وهو الآن بمعنى الأذنين، ليوافق الأبصار والأفئدة، فإنَّ المراد العيون والقلوب.

ولا مانع من إبقائه على المعنى المصدري كما يناسبه الإفراد، أو أفرد لأنَّ أصله المصدر، فنقول: أفرد لذلك، ولكون مدرَكه واحدًا وهو الصَّوت.

﴿وَالاَبْصَارَ﴾ مُدْرَكُ البصر مُتَعَدِّد، يدرك اللَّون والضَّوء والشَّكل والحَرَكَة والسُّكون والطول والعرض.

﴿وَالاَفْئِدَةَ﴾ مدرَكُه متعدِّد، يدرك كلَّ ما تدركه الحواس بواسطة الحواس وتزيد عليها وتتصرَّف.

خلق ذلك لكم لتنتفعوا به وتشكروا نعمته، وتستدلُّوا به على وَحْدَانيَّة الله ﷻ وقدرته، فتستمعوا القرآن وتعملوا به بعد فهمه، وتَرَوْا بأعينكم ما يَدُلُّكم [عليه] وتعتقدوا بأفئدتكم ما أدَّت إليه أسْمَاعُكُم وأبصاركم، ﴿قَلِيلاً﴾ شكرًا قليلاً، أو زمانا قليلاً ﴿مَّا تَشْكُرُونَ﴾ «مَا» صلة لتأكيد القلَّة، وقد يقع بعض صور الشُّكر من مشرك ولا ينفعه. قيل: القلَّة النَّفي.

﴿وَقَالُوٓاْ أَ۬ذَا ضَلَلْنَا فِے اِ۬لَارْضِ إِنَّا لَفِے خَلْقٖ جَدِيدِۭ بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَٰفِرُونَ ١٠ قُلْ يَتَوَفّ۪يٰكُم مَّلَكُ اُ۬لْمَوْتِ اِ۬لذِے وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَيٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ١١ وَلَوْ تَرَيٰٓ إِذِ اِ۬لْمُجْرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ١٢ وَلَوْ شِئْنَا

لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١٣﴾ فَذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾

إثبات البعث وحال الكفار يوم القيامة

﴿**وَقَالُواْ**﴾ إنكارًا للبعث، والقائل أُبي، وجُمعَ لرضى الباقين، بل رضاهم قَوْلٌ أي اعتقاد ﴿**أَ.ذَا ضَلَلْنَا**﴾ تلفنا بالتَّفتُّت والتَّلف، والاختلاط بالتُّراب، والغيبة ﴿**فِي الاَرْضِ**﴾ وجواب «إِذَا» محذوف، أي نبعث، أو يجدَّد خلقنا ؟ كما قال: ﴿إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ . والاستفهام الإنكاري محذوف، أي أئنَّا لفي خلق جديد؟ أو يقدَّر ما حذفَ: من قولنا نبعث، أو يجدَّد خلقنا، مُقَدَّمًا مغنيًا عن الجواب.

ويجوز أن لا يقدَّر الاستفهام، أقرُّوا بذلك تهكُّمًا. أو يقدَّر: إنَّا لفي خلق جديد عندكم، ودلَّ على ذلك المحذوف من قوله: نبعث أو يُجدَّد خلقُنا المقام، وقوله: ﴿**إِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**﴾ على تقدير الاستفهام.

﴿**بَلْ هُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ**﴾ إضراب انتقالي من ذكر إنكارهم للبعث بطريق الاستفهام إلى ذكرهم إنكارهم للبعث بطريق الجزم، أو المراد بلقاء ربِّهم لقاء ملائكته للشَّهادة عليهم يوم القيامة بما عملوا لإنكارهم البعث البتَّة، أو لقاء ملائكته عند الموت وفي القبر و ما بعد.

﴿**قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ**﴾ يأخذكم إنسانًا إنسانًا وجماعات جماعات في مواضع متعدِّدة، متقاربة أو متباعدة، حتَّى يستوفي عدَّتكم، وتكون وافيةً كاملة، أو يستكمل أنفاسكم، ولا يبقي نَفَسًا (بفتح الفاء) ولا بعضَها.

والمَتوفِّي والقابضُ للرُّوح الله عِندَنَا، لَكِنَّ ملك الموت يباشر عصر الرُّوح، ولو شاء الله تعالى لانفلتت من موضع إلى موضع فلم تخرج، جاء: ﴿اللَّهُ يَتَوَفَّى

الاَنفُسَ﴾ (سورة الزمر: ٤٢) ، وبه نقول، وجاء: ﴿تَوَفَّـتْهُ رُسُلُنَا﴾ (سورة الأنعام: ٦١) ، وجاء: ﴿تَتَوفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ (سورة النحل: ٢٨) ، نسب الله التَّوفِّي إلى الملائكة لأنَّهم مباشرون. قيل لَملك الموت أعوان، حتَّى قيل: إنَّ المراد بملك الموت في الآية جنس ملائكة الموت.

وزعم بعض قومنا أنَّ بعض النَّاس يتوفَّاه الله وبعضًا يتوفَّاه غيره كما روي حديثا. وجاء: «**إنَّ ملك الموت موكَّل بتوفِّي الأرواح وقبضها إلاَّ شهداء البحر فإنَّ الله يقبض أرواحهم**» رواه ابن ماجه عن أبي أمامة، وجاء في خبر: «إنَّ ملك موت الإنسان غير ملك موت الجنِّ والحيوانات». وعن ابن عبَّاس: «للنَّاس ملك، وللجنِّ ملك، وللشَّياطين ملك، ولسائر الحيوانات ملك». ويقبض ملك الموت الملائكة يوم القيامة ويأمره الله بالاضطراب بين الجَنَّة والنَّار فيموت، وهو الذي يقبض أرواح الحور والولدان إن قلنا بوجودهم الآن.

وعكس بعض ما قلنا وقال المتوفِّى القابض هو المَلَكُ، وإذا نسب إلى الله فلأنَّ ذلك بأمره، ولأنَّ أفعال العباد مخلوقة لله ﷻ ، وجاء: «إنَّ الملائكة يعالجون الرُّوح فإذا قَرُبَ خروجها قَبَضَها ملك الموت». والصَّحيح وعليه الجمهور أنَّ ملك الموت عزرائيل وحده يتلقَّى الأرواح كلَّها أعطاه الله قُوَّة على ذلك.

ومعنى قوله:﴿**الذِي وُكِّلَ بِكُمْ**﴾ جعل عليكم رقيبًا يتلقَّاكم ويعرف آجالكم، دخل رسول الله ﷺ على رجل من الأنصار يعوده فإذا ملك الموت عند رأسه، فقال رسول الله ﷺ : «**يا ملك الموت ارفق بصاحبي فهو مؤمن**» فقال: «أبشر يا محمَّد فإنِّي بكلِّ مؤمنٍ رفيق، واعلم يا محمَّد أنِّي لأقبض روح ابن آدم، فيصرخ أهله، فأقوم في جانب من الدَّار، فأقول والله مابي من ذنب وإنَّ لي لعودةً، وعودةً، الحذرَ الحذرَ وما خلق الله تعالى من أهل بيت مدر ولا شعر ولا وبر في بر ولا في بحر إلاَّ وأنا أتصفَّحهم فيهم كلَّ يوم وليلة خمس مرَّات،

حتَّى أنّي لأعرف بصغيرهم وكبيرهم منهم، والله يا محمَّد إنّي لا أقدر أن أقبض روح بعوضة حتَّى يأمرني الله تبارك وتعالى».

﴿ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ بالبعث بعد ذلك التوفّي، أو بعد لقاء ملك الموت والقبر وما فيه.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا محمَّد أو يا من يصلح للرؤية مطلقا لأنَّ حالهم الفظيعة لا تخفى فلا يختصُّ بها راء دون راء، ولا يختصُّ باستغرابها والتعجُّب منها أحد حال نكس رؤوسهم، وقولهم: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا...﴾ حتَّى إنَّ المراد صدور الرؤية هكذا كاف في ذلك، ولا يقدَّر لها مفعول، وجواب «لو» محذوف، يقدَّر بعد «مُوقِنُونَ» أي لرأيت ما لا يوصف، أو «لَوْ» للتَّمنية أو للترجية، ويجوز تقدير المفعول لـ«تَرَى»: ولو ترى نكس المجرمين رءوسهم.

﴿إِذِ الْمُجْرِمُونَ﴾ القائلون: ﴿أَ.ذَا ضَلَلْنَا﴾، أو المجرمون مطلقا فيدخل هؤلاء ﴿نَاكِسُواْ﴾ مطرقوا إلى الأرض ﴿رُءُوسِهِمْ﴾ من الحياء والذلّ ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ حين الحساب لظهور قبائحهم عند أنفسهم، وعند كلّ من يراهم، ولا أحد يعذرهم أو يستحسنها، كما وجدوا في الدنيا من أنفسهم ومن غيرهم استحسانا.

﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا﴾ مفعول لخبر ثان مقدَّر أي قائلون: ﴿رَبَّنَا...﴾ أي شاهدنا الحقَّ الآن بأبصارنا وأسماعنا، وليس الخبر كالعيان، وأبصرنا وسمعنا الآن ومن قبل كُنَّا عميا وصمًّا، ولا مفعول لهما، أو أبصرنا الآن البعث الذي ننكره في الدنيا، وسمعنا تصديقك لرسلك الآن، أو أبصرنا البعث، وأذعنَّا الآن لقول رسلك، أو أبصرنا قبح أعمالنا وسمعنا قول الملائكة: إنَّ مردَّكم إلى النار.

﴿فَارْجِعْنَا﴾ إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ﴾ بأسماعنا وأبصارنا وأفئدتنا ﴿صَالِحًا﴾ من التوحيد وما يقتضيه من البعث وغيره، وأداء الفرائض ﴿إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ تأكيد

على طريق التعليل، أو استــئناف للتأكيد، ولذلك لم يقل: وآمنا، وقدَّر بعضهم: أبصرنا رسلك في الدنيا وآياتك، وسمعنا كلامهم وآياتك المتلوَّة، فلك الحجَّة علينا، **وهو ضعيف**، لأنَّ ثبوت الحجَّة لله تعالى ينافي طلب الرجوع إلى الدنيا.

﴿وَلَوْ شِئْنَا لَأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا﴾ في الدنيا فلا يكفر أحد. والجملة عطف قصَّة على أخرى، أو على محذوف، أي: قضينا ذلك ﴿وَلَوْ شِئْنَا...﴾. وقدَّر بعضهم قولا هكذا: وقلنا لو شئنا، أو هكذا: ونقول لو شئنا، وعطفه على يقولون قدَّره قبل قوله: ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا...﴾ وجعله جوابا لقولهم أرجعنا، ولذا أخَّره ويفيد أنَّهم لو رجعوا لعادوا لما نهوا عنه وإنَّهم ممَّن لم يشأ الله هداهم.

ومعنى ﴿هُدَاهَا﴾ ما تهتدي به إلى الإيمان والعمل الصالح، وفسَّره بعض بهما **﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾** سبق قضائي الأزلي بلا أوْل أن يكون المطيع والعاصي إذا خلقت المكلَّفين، وأنَّ المطيع في الجنَّة والعاصي في النار وسبق قولي لإبليس ﴿فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ منكَ وَمِمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ، أَجْمَعِينَ﴾ (سورة ص: ٨٤-٨٥) جوابا لقوله لعنه الله: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ، أَجْمَعِينَ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ (سورة ص: ٨٢).

(بلاغة) وقدَّم «الجنَّة» لتقدُّمهم خلقةً ولتقدُّم إبليس أعاذنا الله منه في قوله: ﴿منكَ وممَّن تَبعَكَ﴾ ولأنَّ الجنَّة أكثر من النَّاس في النَّار، وقدِّم في ﴿منكَ وممَّن تَبعَكَ﴾ تحقيرًا له وتغليظًا لأنَّه السبب في هلاك غيره، ولم يقل: حقَّ القول منَّا بالجمع، كما قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ لأنَّ قوله: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ بالإفراد ردٌّ لقول اللعين: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمْ،...﴾ بإفراد الضمير، أو قال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا﴾ ليطابق الكثرة في قوله: ﴿كُلَّ نَفْسٍ﴾، وقال: ﴿مِنِّي﴾ ليوافق ما دون

تلك الكثرة الدَّال عليه من الجِنَّة والنَّاس، أو قال: ﴿مِنِّي﴾ في وعيد المشركين لئلاَّ يتوهَّم نوع من أنواع الشركة أصلاً، وليوافق التَّوحيد الذي عدلوا عنه إلى ما أوجب لهم الوعيد.

ووحَّد الضمير أيضًا في «لَأَمْلأَنَّ» لأنَّ الملأ لا تعدُّد فيه، وكذا في «مِنِّي» لأنَّ القول لا يحقُّ إلاَّ منه، والإيتاء يتعدَّد بتعدُّد من يؤتى الهدى.

ومعنى ﴿أَجْمَعِينَ﴾: أنَّه يجعل في جَهَنَّم نصيبًا من الجِنَّة ونصيبًا من النَّاس لا من الجِنَّة وحدهم، أو من النَّاس وحدهم، ولم يقل: كليهما بدل «أَجْمَعِينَ» لأنَّ الأصل في «كِلاَ» أن تقع على فردين لا نوعين، فالآية كقولك: ملأت الكيس من الدَّنانير والدراهم جميعًا.

أو المراد **بالجِنَّة والنَّاس الأشقياء خصوصًا.** و«من» بمعنى الباء، أو للابتداء، ولا يلزم من الابتداء بقاء الشيء، ألا ترى إلى قوله: ﴿لَأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ﴾ فالآية مثل هذه، وكأنَّه قيل: لأملأنَّ جهنَّم بالأشقياء أجمعين من الجنِّ والإنس، وفرَّع على نفي الرجع إلى الدُّنيا المعلوم ممَّا مرَّ، أو على قوله: ﴿وَلَكِن حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي﴾ بقوله:

﴿**فَذُوقُواْ**﴾ أي العذاب، وقدَّر بعض: إذا أيستُم من الرَّجع أو إذا حقَّ القول فذوقوا، والأمر تهديد ﴿**بِمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَذَآ**﴾ أي بسبب نسيانكم لقاء يومكم هذا، ولفظ «هَذَا» بدل «يَوْمِ»، أو عطف بيان، أو نعت جيء به تهويلا، وهو واقع على اليوم، ولك أن تجعله مفعولا به لـ«ذُوقُوا» واقعًا على العذاب، فلا يقدَّر العذاب له كما قدَّرته آنفا، **وما تقدَّم أولى.** ونسيانهم لقاء اليوم تركُ الاستعداد له عمدًا لإنكارهم له.

﴿**إِنَّا نَسِينَاكُمْ**﴾ تركناكم في العذاب، على أنَّه يقال لهم ذلك بعد دخول جهنَّم، وإن كان قبلها فالعذاب يعمُّ ما هم فيه قبلها، ولا يزول

عنهم بل يزداد بدخول جهنَّم، فهم متروكون في العذاب المطلق، أو أردنا ترككم في جهنَّم إذا دخلتموها.

أو تركنا في الوعيد لا نخلفه عنكم، وفيه المشاكلة لما قبله، لأنَّ كلاًّ من النسيانين ترك، ويجوز أن يكون الأوَّل الزوال من الحافظة مجازا، تركوا الاستعداد للقاء، كأنَّهم اعترفوا ثمَّ نسوه، نزَّلوا الاستعداد له كالشيء المنسيِّ والمشاكلة يجوز وقوعها بين المجاز والحقيقة، مع أنَّه يجوز أن يكون الثاني كذلك مجازا لا حقيقة.

﴿**وَذُوقُواْ عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ**﴾ تكرار للأوَّل للتأكيد، ولبيان ما لم يذكر في الأوَّل وهو العذاب، وأنَّه دائم، ولبيان أنَّهم يستحقُّون العذاب بما كانوا يعملون من المعاصي، كما استحقُّوه بترك التوحيد، على أنَّ نسيان لقاء اليوم هو ترك التوحيد أو إنكار البعث، والظاهر **أنَّ المراد بنسيان اللقاء هو ما كانوا يعلمون**، فلا يزيد الثاني إلاَّ بذكر عذاب الخلد.

﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿١٥﴾ تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٧﴾﴾

حال المؤمنين في الدنيا وجزاؤهم عند ربِّهم في الآخرة

﴿**إِنَّمَا يُومِنُ بِئَايَاتِنَا**﴾ إنَّما يؤمن بآياتنا المتجدِّدة، كالإيمان بالسابقة ﴿**الذينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾ لا أنتم، ولو رجعناكم إلى الدنيا، وهذا يقال لهم في يوم القيامة باعتبار ما في الدنيا كأنَّهم فيها، ويجوز أن يكون قيل لهم هذا في الدنيا وذكِّروا بآيتنا وعظوا بها.

و﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾: أسرعوا إلى السجود على الأرض كالشيء الساقط الذي لا يتمالك لِقُوَّة خوفهم وتواضعهم، وهذه آية يسجد عندها إذا تليت.

وعن ابن عبَّاس: السجود الركوع، وزعم بعض عنه: إنَّ قارئ آية السجود يركع ثمَّ يسجد، لقوله تعالى: ﴿وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (سورة ص: ٢٤).

قلت: لا دليل في الآية، لأنَّه ﷺ يسجد للتلاوة بلا ركوع. ﴿وَسَبَّحُوا﴾: عظِّموا الله عن صفات الخلق والنقص، والشركة والعجز عن البعث.

(نحو) والباء للملابسة متعلِّقة بمحذوف أي ثابتين مع حمد ربِّهم، أو ملتبسين بحمده من حيث إنَّه الرب المنعم. والحمد على النعم ومنها إيتاهم الهدى. وجملة «وَهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ» عطف على «إِذَا ذُكِّرُواْ» إلى قوله: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ﴾ لأنَّ المجموع صلة أو حال من واو «سَبَّحُوا»، قيل: أو من واو «خَرُّوا»، قيل: أو عطفت على «خَرُّوا» أو على «سَبَّحُواْ».

﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ مستأنفة لبيان بَقِيَّة محاسنهم، أو حال من واو «لاَ يَسْتَكْبِرُونَ» أي لا يستكبرون وهم متَّصفون بتجافي الجنوب، أو حال من واو «سَبَّحُواْ»، أو خبر ثان لقوله: ﴿هُمْ﴾.

والتجافي: التباعد جدًّا. والجنب: الشقُّ الأيمن والشقُّ الأيسر، لأنَّ الغالب النوم عليهما، لا على الظهر ولا على البطن، وإن شئت فكأنَّ جنوبهم جفت المضاجع، كأنَّها تعاديها.

والمضاجع: مواضع الضجع، أي الامتداد للنوم، وذلك كناية عن ترك النوم إلى الاشتغال بصلاة النفل ليلا، قال معاذ: كنت مع النبيء ﷺ في سفر فأصبحت يوما قريبا منه ونحن نسير، فقلت: يا نبيء الله أخبرني بعمل يدخلني الجنَّة ويباعدني من النار، قال: «**لقد سألت عن عظيم، وإنَّه ليسير على من**

يسَّره الله له، تعبد الله ولا تشرك به شيئا، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحجُّ البيت» ثمَّ قال: «**ألا أدلُّك على أبواب الخير؟ الصوم جنَّة، والصدقة تطفئ الخطيئة، وصلاة الرجل في جوف الليل**»[١] ثمَّ قرأ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ... يَعْمَلُونَ﴾... إلى آخر الحديث. رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجه والطبري والحاكم والبيهقي، وفيه: «**إنَّ عمود الإسلام الصلاة، وذروته الجهاد**».

ويورى عنه ﷺ قال: «**عليكم بقيام الليل فإنَّه دأب الصالحين قبلكم، وقربة إلى ربِّكم، وتكفير للسيِّئات، ومنهاة عن الآثام، ومطردة الداء عن الجسد**»[٢]. وعن أبي الدرداء: «الآية أن يُصلَّى العشاء والصبح في جماعة». وعن الحسن: «أن لا ينام حتَّى يصلِّي العشاء» كما روي عن أنس: «إنَّها انتظار صلاة العشاء». وعنه: «كُنـــَّا معشر الأنصار نصلِّي المغرب مع رسول الله ﷺ فلا نرجع إلى رحالنا حتَّى نصلِّي العشاء مع النبيء ﷺ ».

وقيل: أن يصلِّي بعد المغرب إلى العشاء، وعن أنس: نزلت في المهاجرين الأوَّلين يصلُّون من المغرب إلى العشاء. رواه مالك بن دينار رضي الله عنه عن أنس، وعن ابن عبَّاس: إنَّ الملائكة ليحفُّون بمن يصلِّي بين المغرب والعشاء، وإنَّها صلاة الأوَّابين، وفي الصحيحين: «**لو علموا ما في العتمة والصبح** -أي بالجماعة-

---

١-رواه **الحاكم** في كتاب التفسير (٣٢) تفسير سورة السجدة رقم ٣٥٤٨ (٦٨٥) من حديث معاذ بن جبل، ورواه **أحمد** في مسند الأنصار، رقم ٢١٥١١.

٢-رواه **الترمذي** في كتاب الدعوات (١٠٢) باب في دعاء النبيء ﷺ ، رقم ٣٥٤٩، من حديث بلال. ورواه **الحاكم** في كتاب صلاة التطوُّع (٨) ومن كتاب صلاة التطوُّع، رقم ١١٥٦ (٦) من حديث أبي أمامة الباهلي.

لأتوهما ولو حبوا»[1]. وروي أنَّها نزلت في قوم من الأنصار يصلُّون من المغرب إلى العشاء.

﴿**يَدْعُونَ رَبَّهُمْ**﴾ يسألونه المغفرة والجنَّة، وقيل: «يصلُّون»، خبر آخر، أو حال، أو مستأنف ﴿**خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾ خائفين وطامعين، أو ذوي خوف وطمع، أو لأجل خوف وطمع، أو يخافون خوفا ويطمعون طمعا، أو خائفين خوفا وطامعين طمعا.

﴿**وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ**﴾ من المال وصحَّة البدن والعلم والجاه ﴿**يُنفِقُونَ**﴾ في كلِّ وجه من وجوه الخير بحسب ما أمكن لهم.

﴿**فَلاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ**﴾ مَّا من النفوس، ولو ملكا مقرَّبا أو نبيئا مرسلا، والفاء عاطفة على محذوف أي أعطوا فوق رجائهم فلا تعلم، ويجوز أن يراد بالنفس هؤلاء المطيعون، فمقتضى الظاهر: فلا يعلمون، وعدل إلى: ﴿لاَ تَعْلَمُ نَفْسٌ﴾ لتعظيم الجزاء.

﴿**مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ**﴾ مِمَّا تقرُّ به العيون، أي تبرد لعدم الحزن، والمراد: مِمَّا يفرحون به، ولم يخصَّ أعينهم إشارة إلى أنَّه مِمَّا تقرُّ به العين مطلقا لعظم شأنه وكونه في غاية الحسن.

ثمَّ إنَّه لم يقل: «الأعين» بـ«ال» الجنسيَّة أو الاستغراقيَّة فالظاهر: أعين مخصوصة معظَّمة بالتنكير كأعين الملائكة، تفرح للمطيعين، وكأعين الأنبياء وغيرها من باب أولى أن تقرَّ به لهم، أو **استعمل النكرة للعموم في الإثبات،**

١- رواه **النسائي** في كتاب المواقيت باب الرخصة أن يقال للعشاء العتمة رقم٥٤٠. **وابن خزيمة** في كتاب الصلاة، باب ذكر الحضِّ على شهود صلاة العشاء، رقم ١٤٧٥. من حديث أبي هريرة.

كما مرَّ وروده قليلا، ويجوز أن يراد: أعين هؤلاء المطيعين، نكَّرها للتعظيم، فالمراد: ما أخفي لهم من قرَّة أعينهم.

وعن أبي هريرة عنه ﷺ يقول الله تعالى: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، بله ما أطلعتكم عليه، اقرأوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾**»[1] رواه مسلم والبخاري وغيرهما. وعن ابن مسعود: إنَّه لمكتوب في التوراة: «لقد أعدَّ الله تعالى للذين تتجافى جنوبهم عن المضاجع ما لم تر عين، ولم تسمع أذن، ولم يخطر على قلب بشر، ولا يعلم ملك مقرَّب ولا نبيء مرسل»، وإنَّه لفي القرآن: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾.

ومعنى «بله ما أطلعتكم عليه» اتركوا توهُّم أنَّه هو الذي أطلعتكم عليه فإنَّه فوق ذلك.

﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ مفعول مطلق لمحذوف، أي جوزوا جزاء، على أنَّ «جَزَآءً» اسم مصدر للرباعي، أو جزوا، على أنَّه مصدر الثلاثي لا مفعول ثان لـ«تَعْلَمُ»، لأنَّ الناس لا يعلمون بوجود نفس هذا الذي أخفي، فيبقى أنَّه لا يعلمون أنَّه جزاء هؤلاء، نعم يجوز أن يكونوا عالمين به على فرض التوسعة، فيخبرون كإخبار من علم وجوده بأنَّه جزاؤهم.

﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ ۝١٨ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٩ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن

١- رواه **البخاري** في كتاب بدء الخلق (٨) باب ما جاء في صفة الجنَّة أنَّها مخلوقة، رقم٣٠٧٢. ورواه **الترمذي** في كتاب التفسير (٣٣) باب ومن سورة السجدة، رقم١٩٧، من حديث أبي هريرة.

يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ إِنَّا مِنَ ٱلْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ ﴿٢٢﴾ ﴾

الفرق بين جزاء المؤمنين وجزاء الفاسقين

﴿**أَفَمَن كَانَ مُومِنًا**﴾ مُوحِّدا موفِّيا كما ذكر ﴿**كَمَن كَانَ فَاسِقًا**﴾ مشركا ذا أعمال قبيحة، وأصل الفسق الخروج، فسقت الثمرة: خرجت عن قشرها، والمشرك خارج عن دين الله تعالى.

(أصول الدين) والفسق أعمُّ من الشرك، يطلق عليه وعلى ما دونه من الكبائر، كقوله تعالى: ﴿وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (سورة النور: ٥٥) وكذا الكفر، وشهر استعماله في الشرك، والمراد هنا الشرك، لقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾ وأكَّدَ ذلك بقوله: ﴿**لاَّ يَسْتَوُونَ**﴾ لأنَّ الاستفهام إنكار وهو نفي، والجمع لمعنى «مَن» وقيل: بمعنى الاثنين المؤمن والكافر.

﴿**أَمَّا الذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَىٰ**﴾ تفصيل لقوله: ﴿لاَ يَسْتَوُونَ﴾ وقوله: ﴿أَفَمَن كَانَ...﴾، وقيل: لذكر أحوالهم في الدنيا، وأضيفت الجنَّات إلى مأوى **إشارة إلى أنَّ الدنيا ليست مأوى يُتَبَوَّأ بل موضع الارتحال**، يرتحل منها إلى ما هو المسكن الحقيق، كمن في سفر يرتحل إلى بلده.

والجنَّات كلُّها جنَّات المأوى، وقد يرد لفظ «جَنَّة المأوى» لنوع منها يختصُّ به نوع من المؤمنين، كما جاء أيضا أنَّها عن يمين العرش، تأوي إليها أرواح الشهداء.

﴿نُزُلاً﴾ حال من المستتر في «لَهُمْ»، أو في متعلّقه، ومعناه ثوابا على أعمالهم، وأصله ما يعدُّ للنازل من طعام وشراب، ويجوز أن تكون «الجنَّات» لأهلها كالنزل للنازل، باعتبار ما يزاد لهم في الجنَّات، فإنّ خيراتها لا تزال تزداد، ومن الزيادة قوله تعالى: «إنِّي راض عنكم». وإن جعلنا «نُزُلاً» جمع نازل فهو حال من الهاء. **﴿بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾** متعلّق بـ«لَهُمْ» لنيابته عَمَّا صحَّ التعليق به، أو بما تعلَّق به «لَهُمْ»، أو بمحذوف نعت لـ«نُزُلاً» بمعنى ثواب.

والباء للسببية أو المعاوضة. ولا ينافي المعاوضة أو السَّببيَّة قوله ﷺ: «**لن يدخل أحدكم الجنَّة بعمله**»[1] استحقاقا وأمَّا بفضل الله فقد جعلها لهم عوضا ومسبَّبة لأعمالهم.

﴿وَأَمَّا الذينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ﴾ مثل ما مرَّ، ويجوز أن يعتبر في المأوى معنى ما يلجأ إليه للاستراحة، كان لأهل الجنَّة حقيقة، ولأهل النار تهكُّما بهم على الاستعارة، ومشاكلة لذكره في أهل الجنَّة.

﴿كُلَّمَآ أَرَادُواْ﴾ إذا دخلوها، أو المضي للتحقُّق **﴿أَنْ يَّخْرُجُواْ منْهَآ﴾** «كلُّ» ظرف زمان لإضافته إلى المصدر المستعمل في الزمان متعلّق بقوله: **﴿أُعِيدُواْ فِيهَا﴾** وفيه معنى الشرط، كمتى.

(نحو) و«مَا» مَصدَرِيَّة، والمصدر مِمَّا بعدها نائب عن اسم الزمان، أي أعيدوا فيها إرادة أن يخرجوا، أي وقت إرادة خروجهم، كجئت طلوع الشمس، أي وقت طلوعها، فأضيف كلٌّ إلى إرادة.

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٥، ص٦٢.

يطلعهم لهبها إلى قرب الباب فيعيدهم اللهب فيها، أي في قعرها الذي كانوا فيه، وتارة يفتح لهم باب فيقصدوه للخروج، فيغلق فتردُّهم الملائكة إلى حيث كانوا، ويفتح أيضا ويقصدونه، ويردُّون وهكذا إلى أن ييئسوا، حتَّى يفتح فلا يقصدونه، والمراد أن يخرجوا منها كلِّها فلا يجدونه، ويردُّونَ إلى مواضعهم، أو يريدون الخروج من معظمها فيعادون فيها أي في معظمها، ويجوز أن يكون المعنى: كلَّما أرادوا أن يخرجوا منها فتحرَّكوا إليه أثبتوا فيها.

﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ﴾ على الاستمرار الدائم **﴿عَذَابَ النَّارِ الذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾** في الدنيا على استمراركم فيها، و لم يضمر للنار لزيادة التخويف.

﴿وَلَنُذِيقَنَّهُم﴾ في الدنيا **﴿مِّنَ الْعَذَابِ الاَدْنَىٰ﴾** كقحط سبع سنين، حتَّى أكلوا العظام والجيف والكلاب والجلود، وقتل بدر في الذين على عهده ﷺ، والأمراض ومصائب الدنيا لهم ولمن بعدهم إلى يوم القيامة.

[قلت:] لا عذاب القبر كما زعم بعض، لقوله تعالى: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فإنَّ الميِّت لا يرجع إلى الدنيا فيرجع إلى الإيمان، وإذا قلنا بقتل بدر فالمقتول أيضا لا يرجع، لكن لعلَّ باقيهم يرجع. وإن كان المراد: لعلَّهم يرجعون بالندم، شملت القتلى وأصحاب عذاب القبر.

وعن عبادة بن الصامت: سألت رسول الله ﷺ فقال: «**المصائب والأسقام**» **ف**قلت: فما هي لنا؟ فقال: «**زكاة وطهور**» وعن ابن عبَّاس: الحدود، وعن ابن مسعود: قتل بدر وسِنُو القحط، وعن أُبي بن كعب: مصائب الدنيا والروم والبطشة والدخان، فذلك منهم تمثيل.

﴿دُونَ الْعَذَابِ الاَكْبَرِ﴾ هو عذاب الآخرة ومبدأه عذاب القبر، بل عذاب الموت لأنَّ الموت للكافر قبض وعذاب، وللمؤمن قبض يتألَّم به، وقيل: العذاب

الأكبر عذاب يوم القيامة، وقيل: القتل والسبي والأسر، والأدنى ما دونهنَّ، وقيل: الأكبر الدَّابَّة والدجال، وقيل: خروج المهدي بالسيف فكلا العذابين في الدنيا على هذه الأقوال الثلاثة.

(بلاغة) ولم يقل «الأبعد» في مقابلة «الأدْنى»، ولا قال: الأصغر في مقابلة «الأكْبَر» للتهديد، فإنَّه يحصل بالقرب لا بالصغر، وبالكبر لا بالبعد، والأدنى يتضمَّن الأصغر لأنَّه ينقضي بموت المعذَّب، والأكبر يتضمَّن الأَبعد لأنَّه في الآخرة لا ينقطع.

﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ إن لم يموتوا أو يرجع من حيي، أو لعلّهم يريدون الرجوع فتشمل الأموات، والرجوع تارة الرجوع إلى الإيمان، وتارة الرجوع إلى الدنيا. ولعلَّ للترجية أو للتعليل.

﴿وَمَنَ اَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِئَايَاتِ رَبِّـــهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَآ﴾ أي هو أظلم ظالم. و«ثُمَّ» للترتيب الرتبي لاستبعاد الإعراض عن آيات الله عقلا، لغاية وضوحها وإرشادها إلى سعادة الدارين ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ﴾ أصحاب الكبائر ولو موحِّدين فكيف بهؤلاء الذين أعرضوا ﴿مُنتَقِمُونَ﴾ أو إنَّا منهم، فوضع الظاهر موضع المضمر ليصفهم بالإجرام الموجب للانتقام.

﴿وَلَقَدَ ـ اتَيْنَا مُوسَى الْكِتَٰبَ فَلَا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَآئِهِ وَجَعَلْنَٰهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَآءِيلَ ﴿٢٣﴾ وَجَعَلْنَا مِنْهُمُ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ ﴿٢٤﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿٢٥﴾﴾

حال بني إسرائيل من رسالة موسى

﴿وَلَقَدَ ـــ اتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ جنس الكتاب التوراة والصحف، أو

المعهود وهو التوراة ﴿فَلَا تَكُن﴾ يا محمَّد ﴿فِي مِرْيَةٍ﴾ شكٍّ ﴿مِن لِّقَآئِه﴾ الهاء لموسى الْتَلِيِّكِلاِ، وقيل: للكتاب أي من لقاء موسى للكتاب، أو بالعكس أي من لقاء الكتاب موسى، والأول أولى لأنَّ الإضافة إلى الفاعل أولى منها للمفعول، ولأنَّ إسناد اللِّقاء إلى العاقل أن يلقى غير العاقل أولى من العكس.

وقيل: المراد بالكتاب الجنس هكذا الشَّامل للتوراة والقرآن على التَّوزيع بحسب ما لِكُلٍّ، والهاء عائدة إلى الكتاب على معنى الجنس، أضيف إليها «لقاء» إضافة مصدر لمفعوله، والفاعل محذوف ضمير يعود سيدنا محمَّد ﷺ، أي من لقائك يا محمَّد جنس الكتاب في ضمن فرد هو القرآن، كما آتيناه موسى في ضمن فرد هو التوراة.

وقيل: الكتاب التوراة والهاء عائدة إليه بمعنى التوراة، على حذف مضاف أي من لقاء مثله أو على الاستخدام ترجع إلى الكتاب لا بمعناه الذي هو التوراة، بل بمعنى القرآن، أو عادت إلى القرآن المفهوم من العبارة، والظَّاهر ما تقدَّم.

ومعنى التفريع أن إيتاء موسى الكتاب يكون معرفتك به سببا في إزالة الرَّيب عنك في أمر إيتائك القرآن، والمراد نَهي أمَّته، أو من تعرض، وأنت تدري أنَّ المراد لقاؤك الكتاب، أي القرآن، أو لقاء القرآن لك.

[قلت:] ويبعد أنَّ الهاء لموسى على الفاعليَّة والمفعول محذوف، أي من لقائه الشدائد من قومه في تبليغ كتابه فاصبر على ما أصابك من قومك في تبليغ القرآن.

وقيل: الهاء لموسى على المفعوليَّة، والفاعل محذوف، أي من لقائك يا محمَّد موسى ليلة الإسراء، ورواه البخاري ومسلم، وهو: «إنِّي رأيت موسى رجلا آدم طُوَالاً جعدًا كأنَّه من رجال شنوءة». «ورأيت عيسى رجلا مربوعًا مربوع الخلق، إلى الحمرة وإلى البياض، سبط الشَّعر». «ورأيت مالك خازن النَّار

والدَّجال»[١]. وفي حديث: «إنَّ من في السماء مثل عيسى وإدريس يلهمون التَّسبيح كالملائكة ولا يأكلون ولا يشربون»[٢].

﴿**وَجَعَلْنَاهُ**﴾ أي كتاب موسى وقال قتادة: جعنا موسى. ﴿**هُدًى لِّبَنِي إِسْرَآئِيلَ**﴾ خصُّوا بالذِّكر لأنَّه لم يُبعث إلى بني إسماعيل، وقيل بعث: إلى النَّاس كلِّهم.

﴿**وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ**﴾ من بني إسرآئيل ﴿**أَئِمَّةً**﴾ خيارًا يقتدى بهم في الدِّين وليس المراد هنا أنبياء بني إسرائيل خلافًا لبعض ﴿**يَهْدُونَ**﴾ بَقيَّة بني إسرآئيل ومن وحَّدوه بأحكام التَّوراة والصُّحف وغيرهما ﴿**بِأَمْرِنَا**﴾ على ألسنَة أنبيائهم إيَّاهم بأن يهتدوا كقوله تعالى لهذه الأمَّة: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ....﴾ (سورة آل عمران: ١٠٤) وإن كان الأيمة أنبياء فلا إشكال. والأمر ضدُّ النَّهي، ويجوز أن يكون واحد الأمور وهو التوفيق ﴿**لَمَّا صَبَرُواْ**﴾ حين صبروا، وجوابها أغنى عنه ما قبلها، أي جعناهم أئمة لَمَّا صبروا عن الدُّنيا وعلى مشاقِّ نصرة الدِّين، أو لَمَّا صبروا جعلناهم أَئِمَّة، وقيل: يهدون حين صبروا.

﴿**وَكَانُواْ بِئَايَاتِنَا**﴾ أي ما أنزلنا من التوراة وغيرها، ودلائلنا المعجزات ﴿**يُوقِنُونَ**﴾ لإمعانهم النَّظر فيها.

[قلت:] وعبدة الأصنام الآن أقرب من أهل الكتاب إلى قبول الحقِّ لو وجدوا من يعتني بهم لخُلُوِّ قلوبهم من العناد الذي في قلوب أهل الكتاب.

١- رواه **البخاري** في كتاب بدء الخلق (٧) باب إذا قال أحدكم: آمين والملائكة في السماء... رقم ٣٢٣٩. ورواه **مسلم** في كتاب الإيمان (٧٤) باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات، رقم٢٦٧، من حديث ابن عبَّاس.

٢- لم نقف على تخريجه.

والعطف على «صَبَرُوا» أو على «جَعَلْنَا» ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ﴾ يقضي ﴿بَيْنَهُمْ﴾ بين المؤمنين و المشركين، وقيل: بين الأنبياء من بني إسرآئيل ومن غيرهم وبين أممهم، والمقام صالح لذلك.

ويجوز أن يكون المعنى: يفصل بين الأئمَّة الإسرائيليِّين وغيرهم ممَّن لم يتَّبعهم، سواء كانوا أنبياء أو غيرهم. ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ بنصر المؤمنين والأنبياء على من خالفهم، وبإظهار أنَّهم على الحقِّ وغيرهم على الباطل ﴿فِيمَا كَانُواْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ من أمر الدِّين.

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَالِكَ لَآيَاتٍ أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿٢٦﴾ أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ ﴿٢٧﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَاذَا الْفَتْحُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٨﴾ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنفَعُ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴿٢٩﴾ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانتَظِرْ إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ ﴿٣٠﴾﴾

التذكير ببعض آيات القدرة

﴿أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ﴾ إذا جعلنا الهمزة داخلة على محذوف، و لم نجعلها ممَّا بعد الواو قدَّرناه هكذا: أأهملهم الله و لم يهدلهم؟ أي لم يبيِّن أو لم يعطهم هداية، وهي هنا الإعلام، والفاعل ضمير عائد إلى الله ﴿كَم﴾ استفهام بمعنى التكثير مفعول مقدَّم لقوله: ﴿اهْلَكْنَا﴾ والجملة مفعول لـ«يَهْدِ» علِّق عنها يهدي بالاستفهام ﴿مِن قَبْلِهِم﴾ متعلِّق بـ«أَهْلَكْنَا» أي قبل زمانهم ﴿مِّنَ الْقُرُونِ﴾ نعت لـ«لَكُمْ»، ويدلُّ على أنَّ فاعل «يَهْدِ» ضميرٌ لله عَزَّ وَجَلَّ قراءة زيد: «نَهْدِ»

بالنون، أو مفعول «يَهْدِ» محذوف، أي طريق الحقِّ، أو مآلَ أمرهم وجملة ﴿كَمَ اَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ مستأنفة.

﴿يَمْشُونَ﴾ الواو عائد إلى من عاد إليه هاء «لَهُمْ» وهم الكُفَّار ﴿فِي مَسَاكِنِهِمُ﴾ أي في مساكن القرون المهلكة، أي يمشون في مساكن القرون المهلكة إذا سافروا ويعاينون آثارهم، والجملة حال من هاء «لَهُمْ» لا من «الْقُرُونِ» لأنَّ المشي ليس حال الإهلاك، اللهمَّ إلاَّ أن يراد حال ثبوت الإهلاك.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الإهلاك والمساكن ﴿لَآيَاتٍ﴾ عظيمة كثيرة ﴿أَفَلاَ يَسْمَعُونَ﴾ أصمُّوا فلا يسمعون؟ أو أسمعوا بآذانهم فلا يسمعون بقلوبهم سماع تدبُّرٍ؟.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ﴾ أعَمَوْا ولم يروا ﴿أَنَّا نَسُوقُ الْمَآءَ﴾ بسوق السَّحاب فيمطر أو نمطره من السَّحاب، أو نسوقه بالسيول أو بإجرائه من العيون ﴿اِلَى الاَرْضِ الْجُرُزِ﴾ أي التي كان فيها نبات فَجُرِز أي قُطِع بالأخذ أو أكل الدوابِّ، أو بانقطاع الماء، والجرز: القطع، وقيل: المراد التي قطع نباتها أي زال بعدم الماء، والمراد أيَّ أرض كانت.

وعن الحسن: أراضٍ بين اليمن والشَّام، وعن ابن عبَّاس: أرض باليمن، أمرهم الله أن يعتبروا بهنَّ، **والصحيح العموم**، ليعتبروا بأيِّ أرض جرز من شأنها أن تنبت.

﴿فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا﴾ أصله مصدر، والمراد المزروع، زرعه الله ببذر ذلك النَّبات، أو زرعه النَّاس ببذرهم، وقد يفسَّر به خَاصَّةً لأنَّه أشرف كالبرِّ والشَّعير، **والعموم أولى**، لأَّن أهل البدو محتاجون إلى النَّبات مطلقًا، وهم أيضًا يزرعون الحبوب ألا ترى إلى قوله: ﴿تَاكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنفُسُهُمْ،﴾ فإنَّ غالب

قوتها مطلق النبات البدوي؟ ويشاركوننا في ورق النَّبات الذي نزرع، وغصونه كالتبن والقصيل وبعض الحبوب المخصوصة.

وألا ترى كيف قدَّمها؟ والقرى تعمر بالبدو، والأنعام تتغذى بذلك، والإنسان يتغذَّى أحيانا في بعض المواضع بغير النَّبات، بل وبغير ما يخرج من النَّبات وينمو به كلحم الحوت. وألا ترى أنها تأكل من النّبات قبل أن يثمر أيضًا، فلتلك الأمور قدَّم الأنعام.

(بلاغة) وقيل: قدَّمها للترقِّي إلى الأشرف وهو ابن آدم؛ أو قدِّمت لكثرتها. ﴿أَفَلاَ يُبْصِرُونَ﴾ أعَمَوْا فلا يبصرون؟ أو أيُبْصرون بأعينهم فلا يبصرون بقلوبهم؟ وجعل الفاصلة «يُبْصِرُونَ» لمناسبة بدئها بالرؤية، ولمقابلة الفاصلة قبلها التي بالسمع، وترقِّيًا في الوعظ، فإنَّ الإبصار أعظم من السمع لما فيه من المشاهدة.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ يقول المشركون للنبيء ﷺ والمؤمنين على الإنكار والتكذيب: ﴿مَتَىٰ هَذَا الْفَتْحُ﴾؟ الفصل، وهو الحكم بيننا وبينكم، إذ سمعوا قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ (سورة السجدة: ٢٥)، أنكروا يوم القيامة، وقالوا: إن صحَّ فمتى هو؟.

أو الفتح: النصر، سمعوا المؤمنين يقولون: إنَّ لنا يوما ننتصر فيه، فقالوا: متى هو؟ وهو يوم القيامة، فإنَّ فلاح المؤمنين وإهلاك الكفرة نصر لهم على الكفرة، أو النصر في الدنيا يوم بدر، وقيل: يوم فتح مَكّة. ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ في دعوى الفتح، فنزلت الآية في ذلك.

﴿قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ﴾ متعلّق بقوله: ﴿لاَ يَنفَعُ﴾ على أنْ لا صدر لـ«لاَ» إن لم تعمل ﴿الذِينَ كَفَرُواْ إِيمَانُهُمْ وَلاَ هُمْ يُنظَرُونَ﴾ فيه، والذين كفروا هؤلاء

المكذّبون لم يضمر لهم ليذكرهم بالكفر الموجب للدمار، أو المراد أعمّ، **فيدخلون بالأولى والبرهان**، لا ينفع إيمان يوم القيامة، ولا إيمان قتلى بدر مثلا إذ عاينوا الموت، أو في القبر، وكذا من قتل يوم فتح مَكّة، وأمَّا من لم يقتل في يوم بدر أو يوم فتح مَكّة فليس مرادا في الآية فإنَّه يقبل إيمانه.

أو المراد بعدم نفع إيمانهم أَنّهم لا يؤمنون، وكذا المقتولون على الكفر مطلقا، إلاّ أنّ المقتولين يوم فتح مَكّة قليل جدًّا، ولا يَضُرُّنا ذلك، والسورة مَكِّيـــّة وبدر مدني، ولعلّ الآية على التفسير ببدر مَدَنِيَّة جعلت في سورة مَكِّيـــّة.

﴿**فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ**﴾ لا تشتغل بجدالهم، ولا تبال بتكذيبهم، وهذا ممَّا يؤمر به ولو بعد الأمر بالقتال، فلا حاجة إلى أنّه منسوخ بآية القتال ﴿**وَانتَظِرْ**﴾ أن تنصر عليهم، ويهلكوا أو انتظر عذابنا لهم ﴿**إِنَّهُم مُّنتَظِرُونَ**﴾ النصرة عليكم ﴿فَتَرَبَّصُواْ إِنَّا مَعَكُم مُّتَرَ بِّصُونَ﴾ (سورة التوبة: ٥٢) ، أو منتظرون هلاككم، أي هو عليهم آت ولا بدَّ، ولو لم يعرفوا به ولم يؤمنوا به، كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ أَنْ يَّاتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ...﴾ (سورة البقرة: ٢١٠) الآية، أو ينزّل استعجالهم منزلة الانتظار.

والله الموفّق

وصلى الله على سيّدنا محمد وآله وصحبه وسلم

تفسير سورة الأحزاب وآياتها ٧٣

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ① وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ② وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا ③ ﴾

الأمر بتقوى الله واتباع الوحي

(أدب كتابة البسملة) [قلت:] إذا أراد أحد أن يكتب إلى أحد بدأ بالبسملة والصلاة على رسول الله وآله وصحبه بعدها في سطر واحد بلفظ ﷺ أولى من الجملة الاسميَّة، وكذا الأولى أن يقدَّر للبسملة فعل، وعلى ذلك جرى كتَّاب المصاحف وغيرها، ويكتب السطر الآخر تحتهما على اتِّصَال، لأنَّ المقصود التَّبرُّك بالمكتوب، لا كما قيل: تكتب البسملة منفردة في طَرَفٍ ما من أوَّل الورقة، وإن تكتب وحدها فلا يفوقها السطر تحتها طولا، فإن كانت السُّطور طوالاً مدَّت البسملة وقد جاء مدُّ ميم الرحمن مطلقًا، وان ترك مقدار سطر أو أكثر تحتها وتحت الصلاة والسَّلام في المصحف فلزيادة بيان أنَّهما ليستا من المصحف المكتوب، بل زيادة.

(من أدب الكتَّاب) ويقدِّم الكاتب اسمه على اسم المكتوب إليه، ولو كان أفضل من الكاتب، كما كانت الصَّحابة يكتبون أسماءهم قبل اسم رسول الله ﷺ إذا كتبوا إليه، فذلك هو السنَّة، وجاز تقديم اسم المكتوب إليه إجماعا، ولا سيما إذا احتيج إلى التقيَّة، ووجه تقديم اسم الكاتب أنَّ للمكتوب إليه اشتياقًا إلى معرفة الكاتب.

﴿يَآ أَيــُّهَا النَّبِيءُ﴾ تارة يناديه بالنُّبوءة أو الرِّسالة زيادة لتحقيقهما، وتفخيما له ﷺ ، وتارة يذكر اسمه محَمَّدًا أو أحمد مع ذكر الرِّسالة، أو الإنزال عليه، فيعلم أنَّه المراد بالنبوءة والرِّسالة حيث لم يذكر معهما، وقد قيل:

صلُّوا على المختــتار فهو شفــيعكم   في يوم يبعث كل طفــل أشيــبا

وقيل:

يا أمَّة المصطفى يا أشرف الأمــم   هذا نبيئكم المخصـــوص بالكرم

وقيل:

يا مؤمنين بخير الخلق كلِّــهم   صلُّوا على المصطفى يا سادة الأمم

﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ بترك المعاصي ومتابعة قومك، أي دم على ذلك، وهو تأكيد له ولمن معه، أو بترك نقض العهد بينك وبين قومك ﴿وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ﴾ المشركين ﴿وَالْمُنَافِقِينَ﴾ الذين وحَّدوا بألسنتهم وأضمروا الشِّرك، فإنَّ النِّفاق يطلق على ذلك، ويطلق على فعل الموحِّد من قلبه ولسانه الكبيرة، وكلاهما واقع في زمانه ﷺ .

(سبب النزول) روي أنَّ الوليد بن المغيرة وشيبة بن ربيعة وأبا سفيان بن حرب وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور عمرو بن سفيان السلمي، قدموا المدينة بعد أُحُد، وقد أعطاهم النبيء ﷺ الأمان على أن يكلِّموه، ونزلوا على ابن أُبي رأس المنافقين، وقام معهم عبد الله بن سعد بن أبي سرح، وطعمة بن أُبَيْرق، وقالوا للرسول ﷺ : «اترك ما تدعونا إليه نعطك شطر أموالنا»، قال شيبة: وأزوِّجك بنتي، وخوَّفه اليهود والمنافقون في المدينة، بأنَّه إن لم يرجع قتلوه، فنزلت الآية.

وروي أنَّ أبا سفيان وعكرمة بن أبي جهل وأبا الأعور واسمه عمرو بن أبي سفيان السلمي قدموا إليه في زمان المعاهدة، وقام معهم من أهل المدينة عبد الله بن أبي، ومعتب بن قشير، والجد بن قيس، فقالوا: لا تذكر آلهتنا بسوء، وقل إنَّها تشفع وتنفع وتشفي، وندعك وربَّك، وشقَّ ذلك على النبيء ﷺ والمؤمنين حتَّى همُّوا بقتلهم، فنزلت الآية نهيًا لهم عن قتلهم، وقال عمر: دعني يا رسول الله أقتلهم، فقال ﷺ : قد أعطيتهم الأمان، وقال عمر : اخرجوا في لعنة الله وغضبه!، وقد أمره أن يخرجهم من المدينة.

وقيل: نزلت في وفد ثقيف إذْ طلبوا منه أن يُسلموا على أن يمتِّعهم باللاَّتِ والعزّى سنة، قالوا: لتعلم قريش فَضلَنَا.

وقدَّم الأمر بالتَّقوى لأنَّ المؤمنين همُّوا بالقتل لا بالاطاعة، وأكَّد ذلك تأكيدًا جمليًّا بقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا**﴾ عظيم العلم والحكمة وكثيرهما، فلا يَأمُركَ أو ينهَاك إلاَّ على الوجه الحقِّ.

﴿**وَاتَّبِعْ**﴾ أنت وأصحابك ﴿**مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ**﴾ مرادف في المعنى لقوله: ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾، إلاَّ إن فُسِّر ﴿اتَّقِ اللَّهَ﴾ بترك نقض العهد، فيكون هذا أعمَّ، وعلَّل ذلك بقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا**﴾ الخطاب له ﷺ ، والجمع تعظيم أي فهو يرشدك إلى ما فيه الصَّلاح، فلا بدَّ من اتِّبَاع الوحي، أو له ولأصحابه، لأنَّ المراد بقوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿اتَّبِعْ﴾ هو والصَّحابة.

أو الخطاب للكافرين والمنافقين على طريق الالتفات، أي خبيرًا بمكرهم فَخَالفهُم باتِّباع الوحي، أو لهم وللنبيء ﷺ والمؤمنين تغليبًا للخطاب، أي خبيرًا بِعَمَلكُم وعَمَلِهم فَيُخبركَ بكَيدهم، ويأمُرك بمخالفته باتِّباع الوحي، ويدلُّ له قراءة أبي عمرو بالمثنَّاة التحتيَّة.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ فوِّض إليه أمورك كلَّها فإنَّه ﷻ قد قضى ما تجري عليه، ولا يتبدَّل قضاؤه، فهو إن شاء يوقعها على وفق ما تحبُّ ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ﴾ أي به، ولكن أظهر للتعظيم، ولتستقلَّ الجملة كالمثل، لا تحتاج إلى تفسير الضَّمير ﴿وَكِيلاً﴾ موكولاً إليه الأمور، حافظًا لها.

﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ﴿٤﴾ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾﴾

نفي ما يتوهَّمه الكفَّار في الظهار والتبني كاستحالة تعدُّد القلب

﴿مَّا جَعَلَ﴾ خلق ﴿اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ﴾ قيل: لأنَّه لا يخلو إمَّا أن يفعل بهذا القلب كلَّ ما يفعل بالآخر فأحدهما لا حاجة إليه، وإمَّا أن يفعل به ما لا يفعل بالآخر فيكون راضيًا كارهًا جاهلاً عالمًا، بخلاف اليدين مثلا فإنَّه يحتاج إليهما معا في العمل الواحد من الأعمال.

وذكر القلب يُغني عن ذكر الجوف، لكن ذُكِرَ لتأكيد التَّصوير كأنَّه مشاهد، كقوله تعالى: ﴿وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ التِي فِي الصُّدُورِ﴾ (سورة الحج: ٤٦) . و«مِنْ» صلة في المفعول به، وإذا لم يكن للرَّجل قلبان فأولى أن لا يكونا للمرأة والصبيِّ قبل كِبَره.

(سبب النزول) نزلت في أنَّه ﷺ سهى في صلاته، وقال كلمة بلا عمد، فقال من يصلِّي معه من المنافقين: لَهُ قلبان قلب معكم، وقلب مع

أصحابه، ألا تَرَونَ إلى كلامه في الصَّلاة ؟ روى مثله أحمد والترمذي والطبري عن ابن عبَّاس.

أو نزلت في أبي معمر الفهري، يقول أهل مكَّة: له قلبان لقُوَّة حفظه، وهو جميل بن أسد أو ابن أُسَيْد بالتصغير، وسمَّاه ابن دريد عبد الله بن وهب بن حذافة بن جمح الجمحي، وقيل: حارثة بن حذافة، وكان أبو معمر يقول: إنَّ لي قلبين أفهم بأحدهما أكثر ممَّا يفهم محمَّد ﷺ ، ومرَّ منهزمًا يوم بدر بأبي سفيان، فسأله فقال: إنَّ الناس ما بين مقتول أو منهزم، وقال: ما بال إحدى نعليك في رجلك وأخرى بيدك؟ فقال: ماظننتهما إلاَّ في رجلي، فأكذب الله قولَه وقَولَهم فيه وأسلم بعدُ.

أو نزلت في جماعة يقولون: لي نفس تأمرني ونفس تنهاني، أو نزلت في هؤلاء كُلِّهم.

وقيل: من حقِّ التقوى التي أُمرتَ بها أن لا يكون في قلبك تقوى غير الله تعالى، لأنَّه ليس للمرء قلبان يتَّقي بواحد ربًّا والآخر غيره، وقيل: **مثال بأن لا يكون لرجل أُمَّانِ ولا يكون رجل واحدٌ ابنًا لرجلين، كما لا يكون له قلبان، فذلك نهي عن الظهار.**

﴿وَمَا جَعَلَ﴾ صيَّر **﴿أَزْوَاجَكُمُ الآئي تَظَّهَّرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ﴾** الأصل: «تتظاهرون»، أُبدلت التَّاء الثَّانية ظاء، وأدغمت في الظَّاء، ومعنى تظاهر: أي [قال:] أنتِ كظهر أمِّي مثلا، كأفّف قال: أفٍّ، ولبَّى قال: لبَّـيْكَ.

وكان الظهار طلاق الجَاهليَّة، والظهر في كلامهم ذلك بحسب الأصل مجاز عن البطن، لأنَّ الجماع من جهة البطن، والعلاقة الجوار، ولأنَّ الظهر عمود البطن، أو ذكروا الظهر لأنَّه محلُّ الركوب. والمعنى: أنت محرَّمة عليَّ لا أركبك

كما لا أركب ظهر الأمِّ، أو لأنَّ جماع المرأة في قُبُلها من ظهرها حرام عندهم، وقيل: كنُّوا بالظهر عن البطن لأنَّهم يستقبحون ذكر الفرج وما يقرب منه، ولا سيما في الأمِّ، ويقال: ظاهرها وظاهر منها. وقيل: «مِنْ» في «مِنْهُنَّ» لتضمُّن معنى التباعد.

﴿وَمَا جَعَلَ﴾ صيَّر ﴿أَدْعِيَآءَكُمْ﴾ الصبيان الذين تدَّعون أنَّهم أبناؤكم عمدًا على معرفة من الناس أنَّهُم ليسوا أبنائكم، وتحكمون لهم بأحكام الابن في الإرث والتزوُّج والتَّزويج والإنفاق، وغير ذلك.

(صرف) والمفرد: «دعي»، والقياس: «دعوى»، كجريح وجرحى، وَلَكِنَّهُ أشبه «فعيل» بمعنى «فاعل» من معل اللام، فجمع جمعه، كولي وأولياء وتقي وأتقياء، وأصله «دَعِيْوٌ» (بكسر العين وإسكان الياء) قلبت الواو ياء، وأدغمت الياء في الياء، «فعيل» بمعنى «مفعول».

﴿أَبْنَآءَكُمْ﴾ كأبنائكم، وكانوا يتبنَّون في الجَاهِلِيَّة وصدر الإسلام كما تبنَّى رسول الله ﷺ قبل البعثة تحقيقًا زيد بن حارثة، فيدعى زيد بن محمَّد، والخَطَّاب عامر بن ربيعة، وأبو حذيفة سالما مولاه، **ونزلت الآية عامَّة**، وقيل: نزلت في زيد بن حارثة والحكم عامٌّ، ونهاهم الله عزَّ وجلَّ عن التَّسمية وما ينبني عليها لا على ما ينبني عليها فقط.

(سبب النزول) وروى مسلم والبخاري والترمذي والنسائي بإسنادهم مُتَّصِلاً إلى ابن عمر أنَّ زيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ ما كُنَّا ندعوه إلاَّ زيد بن محمَّد ﷺ، حتَّى نزل القرآن: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ...﴾ فقال النبيء ﷺ: «**أنت زيد بن حارثة بن شراحيل الكلبي**»، ومن قال لعبده: أنت ابني فقد أعتقه.

[قلت:] وكانت كتب الحديث غير موجودة في مضاب ورأى مالكيٌّ عالمٌ من أهل مكّة مضابيًا ينسخ شرح النِّيل في مَكّة ولم يجد فيه الحديث كثيرًا، فأعطاني البخاري ومسلمًا والترمذي وابن ماجه والنسائي وأبا داود وغير ذلك، وأنا حاضر في مَكّة، فانتفعت بتلك الكتب كما انتفعت بصحيح الرَّبيع بن حبيب، فجمعت منها «وفاء الضمانة» و«جامع الشمل في حديث خير الرسل» وما خالفونا فيه أوّلته وإن كان هو الحقُّ أبقيته وصحّحته، ولا حقّ مع من خالفنا في الأصول، والشيء بالشيء يذكر لَمَّا ذَكرت ذلك المالكي تذكّرت أنّ جابر بن زيد قيل له: إنّ أنس بن مالك رأى الهلال وحده في جملة الناس، فقال: لعلّ على حاجبيه شيئا فامسحوا حاجبيه: فمسحوهما، وقالوا: انظر فنظر، وقال: لم أره.

﴿ذَٰلِكُمْ﴾ ما ذكر من جعل الأدعياء أبناء، أو هذا وجعل الأزواج أُمَّهَات، أو هذان وجعل قلبين في جوف رجل واحد، وهو أعمُّ فائدة، والوجه الثاني أنسب بِالأَوَّلِ، لأنّ فيه التَّسمية متبادرة، نعم هي في الثالث إلاّ أنّها غير مذكورة ولا متبادرة، بل يقال خارجًا: فلان ذو قلبين، وَالأَوَّل أظهر لقوله بعد ذلك: ﴿ادْعُوهُمْ لِأَبَآئِهِمْ﴾ وقوله: ﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓاْ ءَابَآءَهُمْ﴾. ﴿قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ﴾ لا حقيقة له، فلا ينبني عليه حكم إرث وما ذكر بعده.

(سيرة) أوصت خديجة رضي الله عنها حكيم بن حزام بن خويلد أن يشتري لها غلامًا ظريفًا عربيًّا، فاشترى لها زيدًا من عكاظ، وقال: إن لم يعجبك فهو لي فأعجبها فتزوّجها ﷺ، فاستوهبها فوهبته على أنّ لها الولاء إن أعتقه فأبى، فوهبته بلا شرط.

فشبَّ عنده ﷺ، فرآه عمَّهُ في إبل مرَّ بها إلى الشَّام لأبي طالب في أرض قومه، فسأله مستقصيًا فقال: «أنا مملوك لمحمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب،

وعمُّه عربيٌّ من كلب من بني عبْدُود، فقال له: أنا ابن حارثة بن شراحيل، أصبت في أخوالي طيء واسم أُمـــِّي سعدى»، فقال لحارثة: هذا ابنك؟ فقال له: كيف مولاك؟ قال: يقدِّمُني على عياله وولده.

فركب أبوه وعمُّه وأخوه إليه ﷺ فقال: «يا محمَّد، أنتم أهل حرم الله وبيته وجيرانه، تفكُّون العاني، وتطعمون الأسير، هذا ابني عندك، وأنت ابنُ سيِّدِ قومه، نُفديه منك بما أحببت» فقال ﷺ : «خير من ذلك أن يختاركم فتأخذوه بلا فداء إن اختاركم، يا زيد من هؤلاء؟» فقال: هذا أبي وهذا عمِّي وهذا أخي، ولا أختار أحدًا عليك، أنت مقام أبي وعمِّي، فقالا: أتختار العُبُوديَّة؟ قال: نعم، فقال ﷺ لحرصهما: «أُشهدكم أنَّه حرٌّ يرثني وأرثه، وأنَّه ابني»، فطابا نفسا، وقيل: سمعا به في مكَّة فجاؤوا لذلك.

﴿وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ﴾ الثَّابت في نفس الأمر، فدعوا قولكم إليه ﴿وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ﴾ الحقَّ، يهيِّئه لمن يشاء.

﴿ادْعُوهُمْ﴾ أنسبوا أدعيائكم ﴿لِآبَائِهِمْ﴾ من ولدهم خاصَّةً ﴿هُوَ﴾ أي دعاؤهم لآبائهم ﴿أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ﴾ خارج عن التَّفضيل، أي عدل بليغ في الصِّدق عند الله، أو باق عليه على وجه التَّهكُّم بهم، إنَّ دعاءهم لأنفسهم عدل ولآبائهم أعدل.

﴿فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ﴾ فلم تجدوا دعاءهم إليهم ﴿فَإِخْوَانُكُمْ﴾ فهم إخوانكم، فقد علمتم أنَّهم إخوانكم ﴿فِي الدِّينِ﴾ فسمُّوهم بالأخوَّة فيه [قولوا مثلا:] فعل كَذا أخي في الدِّين فُلانٌ، أو جاء فلان أخي في الدِّين، ويا فلان أخي في الدِّين، ونحو ذلك. ﴿وَمَوَالِيكُمْ﴾ أولياؤكم فيه، كأن تقولوا: جاء مولاي فلان، أي أخي فيه، لا بمعنى العُبُوديَّة والعتق، وبعد نزول الآية يقولون

مثلاً: سالم مولى حذيفة، قيل: ﴿مَوَالِيكُمْ﴾: بنوا أعمامكم، وقيل: معتوقوكم، وزيادة الأخوَّة والمولويَّة على اسمهم تطييب لأنفسهم. ولم أسمع بصبيَّة أو امرأة تُبُـنِّـيَتْ.

﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ إثم **﴿فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِ﴾** من تسميتهم بأبنائكم قبل نزول التَّحريم، ولا إثم على مسلم فيما فعل قبل نزول تحريمه مِمَّا لا يعلم من الدين بالضرورة **﴿وَلَكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ﴾** بعد النهي.

(نحو) و«مَا» موصولة، أو شرطيَّة، يقدَّر: «فعليه فيه جناح»، ولا يجوز أن تكون معطوفة بـ«لَكِنْ» لأنَّها لا تكون عاطفة بعد الواو، لا بالواو، ولأنَّها لا تكون عاطفة قبل «لكن».

(فقه) وخرج بالتَّعمُّد النسيان والغلط، فلا جناح فيهما، والتعمُّد الذي ليس على ما وردت عليه الآية كقولك لصغير السنِّ: يا بنيَّ، حيث لا يتوهَّم هو أو غيره أنَّك أبوه، وهو صحيح، ومنعه بعض وكرهه بعض، وكقولك لإنسان: يابنيَّ تظنُّه ابنك، أو يا ابن فلان، تظنُّه ابنه.

قال ﷺ: « **لست أخاف عليكم الخطأ ولكن أخاف عليكم العمد**»[1] رواه ابن مردويه. وقال ﷺ: «**رُفع عن أمَّتي الخطأ والنِّسيان وما أكرهوا عليه**»[2] رواه ابن ماجه. فَلوْ أكره جبَّارٌ أحدا أن يقول في غير ابنه إنَّه ابني، أو في غير ابن فلان إنَّه ابن فلان، لَجَازَ أن يقول.

١- أورده **السيوطي** في الدر: ج٥، ص١٩٨. من حديث عائشة.

٢- رواه **الربيع** في مسنده ج٣، ص٣٠١، رقم ٧٩٤ من حديث ابن عبَّاس، **وابن ماجه** في كتاب الطلاق (١٦) باب طلاق المكره والناسي، رقم ٢٠٧٣ و٢٠٧٥، من حديث أبي ذر بلفظ: «إنَّ الله تجاوز عن أمـتي...».

﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا﴾ للعامد التَّائب ﴿رَحِيمًا﴾ به إذْ غَفَرَ له، أو ينعم عليه زيادة على المغفرة، والمغفرة على الذَّنب، وهو هنا كبير.

(فقه) فيكفر كفر فسق من ادَّعى غير ولده، ويكفر ذلك الولد إن بلغ وقبل، قال رسول الله ﷺ : «**كفر بكُم نسبتكم إلى غير آبائكم**»[1]، وكان يتلى قرآنًا ثمَّ نسخ لفظه لا حكمه. وقال ﷺ : «**كَفَر من تبرَّأ من نسب وإن دَقَّ، أو ادَّعَى نسبًا لا يعرف**»[2] رواه الطبراني.

﴿ ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ ۗ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا ۝٦ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۖ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا ۝٧ لِّيَسْـَٔلَ ٱلصَّٰدِقِينَ عَن صِدْقِهِمْ ۚ وَأَعَدَّ لِلْكَٰفِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ۝٨ ﴾

مكانة النبي ﷺ ومهمَّته وأولويَّة أولي الأرحام في الميراث

﴿النَّبِيءُ اَوْلَى﴾ أحقُّ ﴿بِالْمُومِنِينَ﴾ من الصَّحابة ومن بعدهم ومن قبلهم من الأمم من الإناث والذكور ﴿مِنَ اَنفُسِهِمْ﴾ يطعمونه أو يسقونه ويموتون جوعا أو عطشًا، ويفدونه ولو بهلاك نفوسهم، وينصرونه بما يلحقهم به ضُرٌّ،

١- رواه **البخاري** في كتاب الحدود، باب رجم الحبلى إذا زنت، رقم ٦٤٤٢، في حديث طويل. و**أحمد** في مسند العشرة المبشَّرين بالجنَّة، رقم ٣٣٣. من حديث عمر رضي الله عنه . بلفظ: «فإنَّه كفر بكم أن ترغبوا عن آبائكم».

٢- رواه **الطبراني** في الأوسط: ج٣ ص٣٢٠ رقم٢٨٣٩. من حديث أبي بكر الصديق.

وقبل: نَصر أنفسهم لأنَّه يدعوهم إلى ما هو حقٌّ من الله ﷻ ، وصلاح لهم دنيًا وأخرى.

قال رسول الله ﷺ : «**ما من مؤمنٍ إلاَّ وأنا أولى به في الدُّنيا والآخرة، اقرأوا إن شئتم: ﴿النَّبِيءُ أَوْلَىٰ بِالْمُومِنِينَ مِنَ اَنفُسِهِمْ﴾ فأيُّما مؤمنٍ مات وترك مالاً فَلْيرثه عصبته من كانوا، أو من ترك دَيْنًا أو ضياعًا** -أي عيالا ضياعًا- **فليأتني فأنا مولاه**»[1]، وخصَّ العصبة بالذِّكر لأنَّه لو ورثه رسول الله ﷺ لورثه بالتَّعصيب.

(سبب النزول) روي أنَّه ﷺ أمر بالخروج إلى تبوك فقال أناس: نستأذن آباءنا وأمَّهاتنا، فنزلت الآية.

وقد دخل آباؤهم وأمَّهاتهم في «الْمُومِنِينَ» وفي «اَنفُسِهِمْ»، ولا دليل ولا يتبادر على أنَّ المراد بالأنفُس النَّبيء كما قيل: إنَّه المراد، وإنَّ المعنى أنَّه أحقُّ بهم أكثر مِمَّا هو أحقُّ بنفسه.

﴿**وَأَزْوَاجُهُ، أُمَّهَاتُهُمْ**﴾ كأمَّهاتهم في تحريم النِّكاح وفي استحقاق التَّعظيم، لا في الخلوة بهنَّ والنَّظر إليهنَّ وإرثهنَّ ونحو ذلك، فهنَّ كالأجنبيَّات، فلا يقال لأخواتهنَّ خالات المؤمنين، ولا لإخوانهنَّ أخوال المؤمنين على الأصحِّ.

[قلت:] وزعم بعض أنَّه يجوز النظر إليهنَّ بلا شهوة، ولا يصحُّ ما يروي عن جابر بن زيد أنَّه خلا بعائشة رضي الله عنها، أو لم يخل بها، وأنَّه سألها حاشاها وحاشاه عن كلِّ ما بدَا له حتَّى سألَهَا عن كَيفيَّة جماع النَّبيء ﷺ ، كيف يجسر على ذلك؟ وكيف ترضى له هذا السؤال؟ وكيف

١- رواه **البخاري** في كتاب الاستقراض (١١) باب الصلاة على من ترك دينا. رقم ٢٣٩٩. وأورده **الهندي** في الكتر: ج١١، ص١٢. رقم ٣٠٤١١. من حديث أبي هريرة.

تجيبه مع نهيه ﷺ عن أن يصف الرَّجل أو المرأة ما فعل أحدهما مع الآخر في الجماع.

وإن قيل: سألها عن جماعه هكذا لا بقيد أنَّه معها، فجسارة أيضًا، حاشاه عنها، مع أنَّ ما تخبره به إمَّا عنها فهو ما تقدَّم، وإمَّا مع غيرها فإنَّها لا تراه مع غيرها ولا يُخبِرَانِهَا، وإن قيل: عن الجماع ما أوصى به فلم يثبت أنَّه أوصى بِكَيْفِيَّةٍ، وإن أوصى فذلك منه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جسارة حاشاه عنها.

[قلت:] وقد روى مثل ذلك وأعظم عن غير جابر بن زيد في كتب قومنا. وليس منه أنَّ الصحابة اختلفوا هل يجب الغسل بالوطء بلا إنزال فسألوها، فقالت: فعل ذلك رسول الله ﷺ وقمنا واغتسلنا معًا بلا إنزال، لأنَّ هذا أمر سهل لأنَّه تبليغ شرع لا بيان كَيفِيَّة، فهو واجب، وعلى كلٍّ حال لم تجبه ببيان ما يفعل معها رسول الله ﷺ ، **ووالله ما أجابته** إن شاء الله تعالى، ولو قال لها ما السُّنة ؟ وأخبرته بدون أن تقول: فعلته معه، لجاز مع كراهة، لأنَّ بيان ذلك قد يحصل من امرأة تسألها فتجيبها بأنَّ السُّنة كذا، فتخبر المرأة جابرًا مثلاً.

وروي أنَّ امرأة قالت لها: يا أمَّاه، فقالت: «أنا أمُّ الرِّجال لا النِّساء» رواه الطبراني وغيره، قلت: لعلَّ مرادها أنـــَّهَا أمُّ الرِّجال في تحريم تزوُّجها، والمرأة لا تَتَزَوَّجُ أخرى فهي أمُّهنَّ أيضًا في التَّعظيم، ويدلُّ له ما روي عن أمِّ سلمة رضي الله عنها: «أنا أمُّ الرِّجال منكم والنِّساء».

(فقه) وحكم الآية جار على من طلَّقها، وقيل: لا كالتِّي أرادها فقالت: أعوذ بالله منك، ولم تقصد سوءًا ولكن غَرَّها أحدٌ بأن تقول ذلك فطلَّقها، وكالتي رأى في كشحها برصًا فطلقها. وقيل :لا تجري الآية إلاَّ على المدخول بها. تَزَوَّجَ الأشعت تلك المستعيذة فَهَمَّ عمر برجمهما، فقالا: إنَّه لم يدخل ﷺ بهَا، وقالت أيضًا ما سُمِّيت أمًّا إذ لم يدخل، فتركها، واختلف فيمن

اختارت نفسها، قلت: الظّاهر أنّه لا احترام لها لتركها إيّاه، ولو على القول بتحريم تزوُّجها.

وزعم الشيعة أنّه ﷺ أمر عليًّا أن يطلق من شاء منهنَّ بعد موته، وأنّه طلق عائشة يوم الجمل، وذلك كذب عنه ﷺ وعن عليٍّ، ويجوز نكاح أزواج الأنبياء قبله. وعن مجاهد: كلُّ نبيء أب لأمّته لأنّه سبب الحياة الأبديّة، كما قال لوط في نساء أمّته: ﴿هَؤُلَآءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ﴾ (سورة هود: ٧٨) في أحد أوجه. وفي مصحف أُبي: «وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبٌ لَهُمْ»، وعن عكرمة في النُّسخة الأولى: «وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ وَهُوَ أَبوهُمْ»، ويلزم من الأبوّة أخوّة المؤمنين والمؤمنات.

﴿**وَأُولُواْ الاَرْحَامِ**﴾ أصحاب الأرحام ﴿**بَعْضُهُمُ، أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ**﴾ في النَّفع مطلقًا، وفي الإرث على التّرتيب، فالعصبة تقدَّم وهم من ذوي الأرحام أي القرابة، وبعدهم ذوو الأرحام الذين ليسوا عصبة، كالخالة وبنت البنت. ﴿**فِي كِتَابِ اللهِ**﴾ متعلّق بـ«أَوْلَىٰ» أو حال من الضمير في «أَوْلَىٰ». و﴿كِتَابِ اللهِ﴾: اللوح المحفوظ أو قضاؤه سبحانه، ومن لم يورِّث نحو الخال إذا لم يكن فارض أو عاصب، قال: ﴿كِتَابِ اللهِ﴾: القرآن، والمراد: **آيات الإرث في سورة النساء** [الآيات: ١١-١٢ و١٧٦].

﴿**مِنَ الْمُومِنِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ**﴾ بيان لأولي الأرحام، وفيه مجيء الحال من المبتدأ، أو «مِنْ» تفضيلية متعلّقة بـ«أَوْلَىٰ»، وهذا أولى. وكان التوارث بالهجرة والموالاة في المدينة، ونسخ بآخر الأنفال أو بهذه الآية.

﴿**إِلَّآ أَن تَفْعَلُواْ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم**﴾ عدِّي بـ«إِلَىٰ» لتضمُّن معنى الإيصال ﴿**مَّعْرُوفًا**﴾ إلاّ فعلكم إلى أوليائكم معروفا. والاستثناء منقطع. والأولياء: القرابة الذين لا يرثون. والمعروف: ما يعطون في الحياة، وما يوصى إليهم لما بعد الموت

وما قبل، إلاّ في الإرث والذين يرثون.

(فقه) فيجوز الإيصاء لمشرك قريب، أو أجنبيٍّ ولمن لم يهاجر ولمن تبنَّاه، فلهم ذلك بالإيصاء لا بالإرث.

وقيل: الأولياء: من يلونه بقرابة أو صحبة ممَّن ليس بوارث، لجواز الوَصيَّة للمشرك أو الإعطاء له في الحياة، وذلك لا ينافي النهي عن اتِّخَاذ الكُفَّار أولياء، وشمل ذلك من ليس بوارث من المؤمنين والمهاجرين والأنصار.

وعن مجاهد: المراد من والى بينهم النبيء ﷺ من المهاجرين والأنصار، وقيل: المراد اليهود والنصارى، وقيل: القرابة من المشركين، وأجازت الإماميَّة الوَصيَّة للمشرك إن كان أبا أو أمًّا أو ولدا فقط.

ويجوز أن يكون الاستثناء متَّصلا، والمستثنى منه محذوف، لجواز حذفه، ولو في غير التفريغ، نحو: ﴿وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً الاَّ عَلَى الذينَ هَدَى اللهُ﴾ (سورة البقرة: ١٤٣) ، إلاَّ إن اعتبر في الكبر معنى الامتناع، فيكون التفريغ والتقدير: أولوا الأرحام أولى بالإرث وكلٌّ نفع في الحياة إلاَّ **فعل الخير بالوصيَّة فيختصُّ بغير الوارث.**

﴿كَانَ ذَالِكَ﴾ ما ذكر من دعائهم إلى آبائهم، وأولويَّة النبيء ﷺ من أنفسهم، أو ما سبق من أوَّل السورة إلى هنا **﴿فِي الْكِتَابِ﴾** اللوح المحفوظ أو القضاء أو التوراة **﴿مَسْطُورًا﴾** مثبَّتا بالأسطار، أو مكتوبا في الأسطار، أي في مواضع معتبرة بالامتداد والتعدُّد والتتابع، يكتب فيها، ويناسبهما قراءة بعض: كان ذلك عند الله مكتوبا أن لا يرث المشرك المؤمن.

﴿وَإِذَ اَخَذْنَا مِنَ النَّبِيئِينَ مِيثَاقَهُمْ﴾ «إِذْ» مفعول به، أي واذكر إذ أخذنا، والعطف عطف قصَّة على أخرى، أو على «اتَّقِ»، أو على «تَوَكَّلْ»، أو ظرف متعلِّق بمعطوف على «مَسْطُورًا»، أي وثابتا إذ أخذنا من النبيئين، والوقت في

جميع الأوجه وقت استخراج ذرِّيـــة آدم منه كالذرِّ.

﴿وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ﴾ عطف ذلك كلّه على «النَّبِيئِينَ» عطف خاصٍّ على عامٍّ، فالهاء في «مِيثَاقَهُمْ» قبل ذكرهم عائدة إليهم، لأنَّ في النية التقديم، كما عادت إلى «النَّبِيئِينَ»، أو يقدَّر: لهم ميثاقا، عطفا على معمولي عامل، أي وَمِنْكَ وَمِن نُّوحٍ... ميثاقهم، أو ميثاقا. وخصُّوا بالذكر لزيادة التشريف، وهم أولوا العزم مع نبيئنا ﷺ، كما قُدِّم مع أنَّه آخرهم لزيادة التشريف له عليهم، وأيضا هو مقدَّم عليهم خلقا لروحه ونوره، وإثباتا لنبوءته في اللوح.

وفي الضياء[1] عن أُبي بن كعب عن النبيء ﷺ: «**بدئ بي الخلق، وأنا أخيرهم**». وعن أبي هريرة عنه ﷺ: «**بدئ بي الخلق، وأنا أخير الأنبياء في البعث**». وأمَّا قوله ﷺ: «**كنت نبيئا وآدم بين الروح والجسد**» فلا دليل فيه على تقديم نبوءته.

﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم﴾ من نوح ومن بعده في الآية، أو من النبيئين عُمُومًا ومَن ذُكِر خُصُوصًا ﴿مِّيثَاقًا غَلِيظًا﴾ عظيم الشأن قويًّا، وهذا الأخذ وقت الخروج كالذرِّ، وهذا تأكيد لِلأَوَّلِ، وسوَّغ العطف تنزيل التغاير بذكر الوصف منزلة التغاير الذاتي، لَمَّا وصفه بالغلظ كان كغير الأوَّل، كما قال: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا...﴾ وقال: ﴿وَنَجَّـيْـنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ (سورة هود: ٥٨).

وقيل: الميثاق الغليظ اليمين، فهو غير الميثاق الأوَّل، زائد عليه، وعلى كلٍّ

١- الضياء كتاب يقع في ٢٤ جزءا من أُمَّهَات التراث الإباضي في الفقه، مؤلِّفه هو الشيخ أبو المنذر سلمة بن مسلم الصحاري العوتبي، من أعلام القرن الخامس، نشر أخيرًا من قِبل وزارة التراث والثقافة بعُمان. الجيطالي: قواعد الإسلام، ج١، ص١٩٥.

حال أخذ الله على الأنبياء أن يؤمن كلٌّ بالآخر، ويتابعه، وبأن يؤمنوا بأن محمَّدًا ﷺ رسول الله، وأنَّه لا نبيء بعده.

﴿لِّيَسْئَلَ﴾ الله يوم القيامة ﴿الصَّادقِينَ عَن صدْقِهِمْ﴾ علَّة لمحذوف: أي فعلنا ذلك ليسئل، لا علَّة لـ«أَخَذْنَا»، لأنَّ المراد تذكير نفس الميثاق. و﴿الصَّادقِينَ﴾: الأنبياء المأخوذ ميثاقهم، ولم يضمر لهم ليذكرهم باسم الصدق، فيما سئلوا عنه وأجابوا، والصدق في قوله: ﴿عَن صدْقِهِمْ﴾ فعلٌ للصادقين أيضا، أي عن صدقهم الذي بلَّغوا لأقوامهم مضمونه.

أو بمعنى التصديق فهو اسم مصدر فعل لأقوامهم، وذلك تبكيت لأقوامهم، كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَجْمَعُ اللهُ الرُّسُلَ فَيَقُولُ مَاذَآ أُجِبْتُمْ...﴾ (سورة المائدة: ١٠٩) ، أو ﴿الصَّادقِينَ﴾: من صدقوا في شأن أنبيائهم، ويسألهم عن صدقهم، أي تصديقهم، ومصدِّق الصادق صادق، وتصديق الصادق صدق، فيجوز إبقاء «صدْق» على ظاهره، وقيل: يقال هل تصديقكم لوجه الله؟ ويضعف أنَّ المعنى: يُسأل الصادقون في عهدهم الأوَّل الواقع إذ خرجوا كالذَّرِّ، لأنَّ المقام كما مرَّ لتذكير ميثاق النبيئين.

(نحو) ﴿وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا اَلِيمًا﴾ عطف على المحذوف الذي تعلَّق به «لِيَسْأَلَ»، أي فعل ذلك لِيَسْأَلَ وأعدَّ، أو على محذوف تقديره: أثاب المؤمنين وأعدَّ للكافرين، دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿لِّيَسْئَلَ﴾؛ أو على «أَخَذْنَا»، لأنَّ حاصله أكدنا، كأنَّه قيل: أكَّد على النبيئين لإثابة المؤمنين وأعدَّ للكافرين، أو على «يَسْأَلَ»، والمراد: ويُعِدَّ، لَكِنَّ الماضي للتحقُّق، أو حذف في كلٍّ ما ثبت في الآخر احتباكا.

و«الصادقين» أعمُّ من الأنبياء، أو هم المراد، أي ليسئل الصادقين عن صدقهم وأعدَّ لهم ثوابا عظيما، والكاذبين عن كذبهم وأعدَّ لهم عذابا أليما.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ
رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ
مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾
هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم
مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا
مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ
إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا
تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ﴿١٤﴾ وَلَقَدْ كَانُوا۟ عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ مِن قَبْلُ لَا يُوَلُّونَ ٱلْأَدْبَـٰرَ ۚ وَكَانَ
عَهْدُ ٱللَّهِ مَسْـُٔولًا ﴿١٥﴾ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا
لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٦﴾ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ
بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧﴾ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ
وَٱلْقَآئِلِينَ لِإِخْوَٰنِهِمْ هَلُمَّ إِلَيْنَا ۖ وَلَا يَأْتُونَ ٱلْبَأْسَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٨﴾ أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ ۖ فَإِذَا
جَآءَ ٱلْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَٱلَّذِى يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ ۖ فَإِذَا
ذَهَبَ ٱلْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى ٱلْخَيْرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا۟ فَأَحْبَطَ
ٱللَّهُ أَعْمَـٰلَهُمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿١٩﴾ يَحْسَبُونَ ٱلْأَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُوا۟ ۖ وَإِن يَأْتِ
ٱلْأَحْزَابُ يَوَدُّوا۟ لَوْ أَنَّهُم بَادُونَ فِى ٱلْأَعْرَابِ يَسْـَٔلُونَ عَنْ أَنۢبَآئِكُمْ ۖ وَلَوْ كَانُوا۟ فِيكُم
مَّا قَـٰتَلُوٓا۟ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٢٠﴾ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا

ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ لِّيَجْزِىَ ٱللَّهُ ٱلصَّٰدِقِينَ بِصِدْقِهِمْ وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ إِن شَآءَ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٤﴾ وَرَدَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا۟ خَيْرًا ۚ وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ ﴾

غزوة الأحزاب أو الخندق

﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءَامَنُواْ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ،﴾ حال من نعمة، بمعنى نفس الشيء المنعَم به، أو متعلّق به على المعنى المصدري، أي الإنعام عليكم، وكذا قوله: ﴿إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ﴾ أو مُتَعلّق بمحذوف، حال من المستتر في «عَلَيْكُمْ» إذَا جعلنا «عَلَيْكُمْ» حالاً، أو خارج عن الظرفيَّة إلى معنى المفعول، على أنَّه بدل من المفعول به وهو «نِعْمَةَ» بدل اشتمال.

(سيرة) ووقت مجيء الجنود وقت الأحزاب، وهم: قريش يقودهم أبو سفيان، وبنوا أسد بطليحة، وغطفان بعيينة، وبنو عامر بعامر بن الطفيل، وبنو سليم بأبي الأعور السلمي، وبنو النضير بحيي بن أخطل، وأبناء أبي الحقيق، وبنو قريظة بكعب بن أسد، كان بينهم وبينه ﷺ عهد فنبذه بما فعل حي من السَّعي، وهم عشرة آلاف، أو اثنا عشر، أو خمسة عشر، أقوال.

(سيرة) سمع ﷺ بهم فأحاط المدينة بخندق بإشارة من سلمان إلى ما يفعلون بفارس، أمر ﷺ بأربعين ذرعًا لِكُلِّ عشرة، وعسكر ﷺ بثلاثة الآف، وجعل النِّساء والذراري في الآطام، ومضى قريب من شهر لا حرب إلا بنبل وحجارة، وبينهم الخندق.

(سيرة) وأقحم عمرو بن عبدود وكان يعد بألف فارس وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطّاب، وهبيرة بن أبي وهب، ونوفل بن عبد الله وجدُّه، ومنبه بن عثمان بن عبد الدار ونحوهم خيُولهم مِن مَكَان ضيِّق، فدخلت فأخذه علي ونَفَرٌ وقَتَلَ عمرًا وَقَتَلُوا مُنبه بن عثمان، ونوفلاً وجَدَّ نَوفَلٍ في الخندق، إذْ هَرَبُوا بالحجارة، إذ قال جدُّه: أولى من هذا أن ينزل إلّي بعضكم فأقاتله، فنزل إليه الزبير بن العوام فقتله، وقيل: طعنه علي في ترقوته حتَّى أخرجها من مراقه، ومات فاشتروا جيفته بعشرة آلاف، فقال ﷺ: « **هي لكم لا نأكل ثمن الموتى**» وسيأتي أنَّه قُتل من الأحزاب أربعة، ومن المؤمنين ستَّة، وأنزل الله لهم النَّصر كما قال:

﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا**﴾ ريح صَبَا باردةً في ليلة ﴿**وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا**﴾ أبردهم الرِّيح وسَفَّت التُّراب في وجوههم، وقلعت الأوتاد، وقطعت الأطناب، وأطفأت الرِّيح النِّيران، وكفأت القدور، وماج بعض الخيل في بعض، وكَبَّرت الملائكة في جوانب العسكر، فقال طلحة بن خويلد: بدأكم محمَّد بالسِّحر، النَّجاء النَّجاء!.

ودنا حذيفة منهم ليأتي بخبرهم فما وجد الرِّيح جاوزهم شبرًا، ورأى رجلا أدْهم ضَخْمًا يقول ويده على النار ويمسح خاصرته، ويقول: الرَّحيل الرَّحيل لا مَقَامَ لَكُم! قال: والله إنِّي لأَسْمَع ضَربَ الحِجَارة في رحالهم وضرب الرِّيح لهم، فرجعت إلى النَّبيء ﷺ، وَلَمَّا بلغت نصف الطَّريق إذا بأربعين فارسًا متعمِّمين، فقالوا: أخبر صاحبك أنَّ الله تعالى كفاه القوم، وهم ملائكة.

﴿**وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ من حفر الخندق وترتيب مبادئ الحرب والْتجائكُم إلى الله تعالى، ورجائكم من فضله. وزلزال المؤمنين لا ينافي إرادة إعلاء الدين. والالتجاء إليه تعالى رجاء فضله وأيضًا التزلزل حادث، بل يأتي تفسيره إن شاء الله. ﴿**بَصِيرًا**﴾ ولذلك نصركم.

﴿إذْ﴾ بدل كلٍّ من «إذْ» ومتعلقٌ بـ«بَصيرًا» أو بـ«تَعْمَلُونَ».

﴿جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ﴾ من أعلى الوادي، ونسبة الفوقيَّة إليهم للملاسبة، وإنَّما الفوقيَّة لبعض الوادي على بعض، أو يقدَّر: من فوق واديكم، والذين جاءوا منه غطفان ومن تابعهم من أهل نجد، وبنو قريظة وبنو النضير.

﴿وَمِنَ اَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ مثل الذي قبله، وذلك من قبل المغرب، والذين جاءوا منه قريش ومن تابعهم من الأحابيش وبني كنانة وأهل تهامة، وقيل: من فوق بنو قريظة، ومن أسفل قريش وأسد وغطفان وسليم.

أو **المراد بالجهتين الإحاطة من كلِّ جانب،** كقوله تعالى: ﴿يَغْشَاهُمُ الْعَذَابُ مِن فَوْقِهِمْ وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ﴾ (سورة العنكبوت: ٥٥) .

﴿وَإذْ﴾ عطف على «إذ» السَّابقة ﴿زَاغَت﴾ مالت عن منظرها حيرةً وعن كلِّ شيء إلاَّ عدُوَّها ﴿الاَبْصَارُ﴾ العيون ﴿وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ﴾ خافوا خوفًا شديدًا مُعَبَّرًا عنه ببلوغ الحناجر، إذ لو تحرَّكت عن موضعها لماتوا فيما قيل.

وقيل: القلب يندفع عند الغضب، وعند الخوف يجتمع ويلتحق بالحنجرة فإن سدَّها مات صاحبه، إذ لا يقدر على التَّنفُّس، وقيل: تنتفخ الرِّئة من شدَّة الفزع والغضب والغمِّ، فيرتفع القلب بارتفاعها إلى الحنجرة.

قال قتادة: «تحرَّكت عن مكانها ولولا ضيق الحنجرة لدخلتها» روى أحمد بن أبي سعيد الخدري: «هل من شيء نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر»؟ قال: «نعم، **اللهمَّ استُر عوراتنا وآمن روعاتنا**»، فهزموا بالرِّيح والجنود كما في الآية.

﴿وَتَظُنُّونَ بِاللهِ الظُّنُونَا﴾ خطاب لِكُلِّ من يظهر الإيمان، الظنُّ يصلح للقليل والكثير لأَنَّه مصدر، إلاَّ أنَّه جُمعَ دلالة به على الأنواع المختلفة، فمنها

ظنُّ المخلصين أن ينصرهم الله مع ذلك الهول، كما قالوا: ﴿هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ...﴾ على ما سيأتي.

ومنها ظنُّ المخلصين أن يمتحنهم فلا يتحمَّلون فيزلُّوا، وذلك لا ينافي الإخلاص، ومنها ظنُّ المنافقين أنَّ محمَّدًا وأصحابه يستأصلون، ومنها ظنُّ المؤمنين أن النصر على الكفَّار من غير أن يكون لهم استيلاء عليهم أوَّلاً، ومنها ظنُّ المؤمنين أن ينصر العدوُّ عليهم ثمَّ ينصروا عليه، ومنها ظنُّ المؤمنين أنَّ العدوَّ يستأصل المدينة فترجع الجَاهليَّة.

يخطر لهم هذا عجلة على طبيعة البشر عند الشِّدة مع علمهم بوعد النصر، ولا يعاقبون لضرورة الطبع، ومنها ظنُّ المؤمنين النصر بدون أن ينال العدوُّ منهم شيئا، أو بعض ظنَّ شيئًا وبعض ظنَّ شيئًا آخر.

والمتبادر أنَّ الخطاب للمؤمنين وحدهم، كما استأنف للمنافقين بقوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ والعطف على «زَاغَتِ الاَبصَارُ» أو على «بَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرِ»، فمقتضى الظاهر: وظننتم، فالمضارع لاستحضار ظنِّهم الماضي بمضارع الحال.

(قراءة) والوقف على ألف «الظُّنُونَا» لثبوتها في الإمام، وتثبت أيضًا في الوصل، قلت: يجب الوقف ولا يجوز الوصل لأنَّها قرئت ألفًا وكتبت، كما قيل في ﴿اقْتَدِهْ﴾ (سورة الأنعام: ٩٠) ، ثُمَّ رأيته لأبي عبيد، وكذا ﴿السَّبِيلاَ﴾ و﴿الرَّسُولاَ﴾ (سورة الأحزاب: ٦٦ و٦٧) ، وحذفها أبو عمرو وصلا ووقفًا، وحذفها ابن كثير والكسائي وحفص وصلا.

﴿هُنَالِكَ﴾ أي ذلك المكان على الحقيقة في «هنا»، أو ذلك الزمَان على المجاز فيها، وهو أولى هنا، ووجه المكان أنَّ له ذكر بقوله: ﴿مِّن فَوْقِكُم وَمِنَ

اَسْفَلَ مِنكُمْ﴾ وهو مُتَعَلِّق بقوله تعالى: ﴿ابْتُلِيَ الْمُومِنُونَ﴾ اختبرهم الله، أي عاملهم معاملة المختبر، فيظهر اختلافهم في الإخلاص، ويظهر زلل من زلَّ، ويظهر نفاق المنافق على شمول الخطاب لهم، وذلك بالمضارِّ. وقيل: بالصبر على الإيمان وقيل: بالجوع.

﴿وَزُلْزِلُواْ زِلْزَالاً شَدِيدًا﴾ حرَّك الله قلوبهم بالفزع الشديد من كثرة الأعداء، وقيل: حرّكوا عن أماكنهم حتَّى لم يكن لهم إلاَّ موضع الخندق، وقيل: حرِّكوا بالافتتان عن الدين فعصموا.

﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ﴾ عطف على «إِذْ زَاغَت»، والأصل: وإذ قال، والمضارع للاستحضار ﴿وَالذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ الشكُّ في الإيمان بوسوسة المنافقين، أو ضعف الإيمان لقرب عهدهم به، أو المنافقون، وعليه فالعطف تنزيل لتغاير الصفات لذات واحدة منزلة تغاير الذات وتعدُّدها، أي القوم المتَّصفون بالنفاق ومرض القلوب.

﴿مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ، إِلاَّ غُرُورًا﴾ من نصر وإعلاء الدين، أي وعد غرور، وهو القول الباطل الكاذب الموقع فيما يضرُّنا، تعالى الله عن ذلك.

(سيرة) عرضت في الخندق صخرة شديدة بيضاء مدوَّرة يعجزون عنها، فأخذ ﷺ المعول عن سلمان فضربها ثلاثا مع كلِّ واحدة برقت برقة تضيء ما بين لابتي المدينة أي جبليها كمصباح في ليل، تغلب ضوء الشمس، ويكبِّر معها، والمسلمون، فقال: «**أضاء لي بالأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنياب الكلاب، وبالثانية قصور الروم كذلك، وبالثالثة قصور صنعاء كذلك، وأخبرني جبريل أنَّ أمتك ستظهر على ذلك، وتملكه فأبشروا بالنصر**» فاستبشروا، فقال معتب بن قشير منافق من الأنصار، وتابعه بالقول

بعض المنافقين ومن التحق بهم، ورضي باقيهم: «يدَّعي محمَّد رؤية تلك الأماكن وهو معكم، ووعدكم ملك ذلك مع أنَّه لا يجد أحدكم قضاء حاجته بعد الخندق إلاَّ قتل!» فترلت الآية.

ونسبتهم الوعد لله والتسمية بالرسول مع أنَّهم لم يؤمنوا بأنَّ ذلك وعد الله ولا بالرسالة مماشاة له ولأصحابه ﷺ ، أو استهزاء، أو لم يعلموا أنَّ الوعد من الله ولا نسبوه إليه ولا إلى رسوله لكن لَمَّا كان من الله ورسوله نسبه الله إلى الله ورسوله، أو قالوا ذلك تقيَّة.

﴿وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ﴾ من المنافقين على المتبادر، لأَنَّهُم الرؤساء في السوء، أو منهم ومن الذين في قلوبهم مرض لذكرهم جميعا، والطائفة عبد الله بن أُبي بن سلول وأصحابه عند السدِّي، وبنو سلمة عند مقاتل، وأوس بن قيضي وأصحابه بنو حارثة عند أوس بن رومان.

﴿يَآ أَهْلَ يَثْرِبَ﴾ أصله اسم رجل من العمالقة سمِّيت به المدينة المنورة، أو سمِّيت به أرضها، أو سمِّيت به بقعة بجانبها، أقوال.

ويقال لها أيضا: أثرب وطابة وطيبة، والدار، والسكينة، وجائزة، والمجبورة، والمحبَّة، والمحبوبة، والعذراء، والمرحومة، والقاصمة، ويندد.

ولعلَّهم ذكروها باسم يثرب لعلمهم أنَّه ﷺ يكره تسميتها به، فقيل: كراهة تتريه، وقيل: تحريم، ويدلُّ له قوله ﷺ : «**من سمَّى المدينة يثرب فليستغفر الله، هي طيبة، هي طيبة، هي طيبة**»[1] رواه أحمد عن البراء بن عازب، وقول ابن عبَّاس رضي الله عنه ﷺ : «**لا تدعوها يثرب فإنَّها طَيِّبة** (بفتح

١- أورده **الهندي** في الكتر: ج١٢، ص٢٣٨، رقم٣٤٨٤١، من حديث البراء.

الطاء وشدِّ الياء مكسورة) **من قال يثرب فليستغفر الله**»[1] قال ثلاث مَرَّات: «هي طيبة هي طيبة هي طيبة» بإسكان الياء فِيهِنَّ.

(**فقه**) والأصل في النهي التحريم، ويجب الاستغفار للذنب، إلاَّ أنَّه قد يكون للمكروه، ووجه الكراهة بوجهَيْهَا أنَّ الثرب من الفساد وما يعاتب عليه، كما صرَّح به في أَوَّل هذا الحديث، إذ قال: «فإنَّها طيِّبة» (بشدِّ الياء) في مقابلة دعائها يثرب.

وأضافوا الأهل إليها ترشيحا لطلب الرجوع إليها، فإنَّ الإنسان يرجع إلى ما هو أهله، كما قال: ﴿**لاَ مَقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُواْ**﴾.

(**صرف**) و«مَقَام» مصدر ميميٌّ بمعنى قيام، أي سكنى ولبْثٌ بها، أو اسم مكان ميميٌّ، أي لا مسكن لكم هنا، أو اسم زمان ميميٌّ، أي لا وقت قيام لكم هنا.

فارجعوا إلى المدينة فتسلموا من القتل، وتكون لكم يد عند الأحزاب بخذلان محمَّد بالفرار عنه، ولو لم يعبِّروا بالفرار بل بالرجوع ترويجا لقولهم ومداراة؛ أو لا مقام لكم في دين محمَّد لغلبة المشركين فارجعوا إليهم، وهم إخوانكم في الدين من قبل؛ أو ارجعوا عن محمَّد إليهم لِئَلاَّ يقتلوكم، أو يخرجوكم من دياركم؛ أو قد ظهر نفاقكم لمحمَّد فإن نُصِر قَتَلَكم فارجعوا إليهم، واخذلوه، أو اتَّفِقوا معهم على قتاله وارجعوا عن دينه، أو لا مقام لكم في الدنيا إن لم ترجعوا إليهم، والثلاثة الأخيرة بعيدة **والأوَّل أصح وأنسب** بقوله:

﴿**وَيَسْتَاذِنُ**﴾ الأصل: واستأذن، والعطف على «قَالَت طَّآئِفَةٌ»، وَلَكِنَّ

١- أورده **أبو نعيم** في تاريخ أصبهان: ج٢، ص٣٧٥ (م.أ.ح.ن).

المضارع للاستحضار ﴿فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيءَ﴾ هم بنو حارثة بن الحرث عند ابن عبَّاس، وجابر بن عبد الله، وقيل: بنو حارثة وبنو سلمة. أرسل بنو حارثة أوس بن قيظي كما قالا، ومعه أبو عرابة بن أوس كما قال السدِّي إلى النبيء ﷺ .

﴿يَقُولُونَ﴾ بدل من «يَسْتَاذِنُ» أو حال من ضميره ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ﴾ خسيسة لقصر حيطانها وتهدُّمها وتطرُّفها وقلَّة من يحفظها، فخفنا على أهلنا وأموالنا فيها، فكذَّبهم الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ﴾ الجملة حال ﴿اِنْ﴾ ما ﴿يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ من القتل ومن نصر دين الله، وزعم بعض أنَّ المعنى: إلاَّ فرارا من الدين، وهو في نفسه صحيح لأنَّ الفرار من القتل في دين الله ومن نصره فرار منه، لكن لا يتبادر تفسيرا.

﴿وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم﴾ للفساد وإهلاكهم، أي لو دخلت البيوت التي ذكروها، أو مطلق بيوت المدينة، كما أنَّه يجوز أن يقال: **لو دخلت المدينة، وهو المتبادر لي** ثمَّ رأيته لابن عطيَّة وهو من علماء أندلس[1]، كما يؤيِّده الجمع في قوله: ﴿مِّنَ اَقْطَارِهَا﴾ جهاتها ﴿ثُمَّ سُئِلُواْ الْفِتْنَةَ﴾ سألهم غير الداخلين قتال محمَّد ﴿لأَتَوْهَا﴾ فعلوا الفتنة، واشتغلوا بقتاله، وغفلوا عن إفساد الداخلين عليهم لإضرارهم.

والصحيح عند غيري أنَّ المراد: لو دخلت بيوتهم وهم فيها للفساد، ثمَّ سألهم طائفة أخرى قتال محمَّد ﷺ لقاتلوه معها. ﴿وَمَا تَلَبَّثُواْ بِهَآ﴾ أي

١-عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عطية المحاربي الغرناطي مفسِّر، قاض، عارف بالأحكام والحديث، من فقهاء الْمَالكيَّة، ولي قضاء المرية سنة ٥٢٩هـ، كان يكثر الغزوات في جيوش المرابطين. من كتبه: المحرَّر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، قال صاحب كشف الظنون: ابن عطيَّة أجلُّ من صنف في علم التفسير. توفي سنة٥٤٢هـ. معجم الْمُفَسِّرِينَ، ج١، ص٢٥٧.

عنها، أو ما تأخَّروا بها، ما تركوا قتاله ﷺ ﴿إِلاَّ يَسِيرًا﴾ إلاّ تلبُّثا يسيرا، أو زمانا يسيرا قدر ما يأخذون سلاحهم، أو يهيِّئونه، أو يجيبون سائلهم، أو يدبِّرون معه الأمر. وقد أعلمتك أنَّ الباء بمعنى عن أو للتعدية، ومجرورها يعود للفتنة، ويجوز كونها بمعنى في، ومجرورها للمدينة أو للبيوت.

وعن الحسن ومجاهد: الفتنة الشرك، مثل ما قيل: إنَّها الردَّة وإظهار الشرك، وما يلبثون بعد ذلك إلاَّ يسيرا فيهلكهم الله، أو يخرجهم منها بالمؤمنين.

ويجوز أن يكون المعنى: إنَّهم لم يظهروا الفتنة، وهي الشرك خوفا منكم، ولو دخلت المدينة بالغلبة لسارعوا إلى إظهاره، ويجوز أن يكون الداخل السائل هم الأحزاب.

﴿وَلَقَدْ كَانُواْ﴾ أي المستأذنون عند الأكثر، ﴿عَاهَدُواْ اللهَ مِن قَبْلُ﴾ قبل الأحزاب ﴿لاَ يُوَلُّونَ الاَدْبَارَ﴾ لا يفرُّون من الحرب، جبنوا يوم أحد وتابوا أن لا يفرُّوا بعد.

وقيل: قوم غابوا عن بدر وندموا لما فاتهم من فضلها، وشرف أهلها، وحلفوا أن يقاتلوا بعدها إن كان قتال، ولا بدَّ أنهم ممَّن استأذنوا، لأنَّ الكلام فيهم، وهم منافقون ومرضى القلوب، وقيل عن ابن عبَّاس: إنَّهم قوم من أهل المدينة عاهدوه بمَكَّةَ ليلة العقبة أن يمنعوه ممَّا يمنعون أنفسهم، و لم يفعلوا[1].

﴿وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولاً﴾ مطلوبا من صاحبه أن يوفِّي به في الدنيا، أو مسؤولا يوم القيامة هل وفَّى به؟ فيجازى به، وإن لم يوفِّ عوقب.

﴿قُل لَّنْ يَّنفَعَكُمُ الْفِرَارُ﴾ بدفع الموت بلا قتل أو بالقتل ﴿إِن فَرَرْتُم مِّنَ

١- انظر التفاصيل الواردة في تفسير الشيخ ابن عاشور التحرير التنوير.

﴿الْمَوْتِ﴾ بلا قتل ﴿أَوِ الْقَتْلِ﴾. «مِنْ» متعلّق بـ«فَرَرْتُم» للابتداء، أو للتعليل، وإن علّق بالفرار لم يقدَّر له محذوف وهو قولي: بدفع للموت...الخ. و«مِنْ» على حالها أو البدليَّة.

﴿وَإِذًا﴾ أي إن نفعكم الفرار لعدم حضور أجلكم ﴿لاَّ تُمَتَّعُونَ﴾ بالحياة ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ تمتيعا قليلا، أوزمانا قليلا فتموتون، أو تقتلون [حسب ما تظنّون]، أو المعنى لا ينفعكم نفعا تامًّا وهو الدوام إذ لا بُدَّ من الموت أو القتل. مرَّ رجل عن حائط مائل وأسرع فتليت له هذه الآية فقال: ذلك القليل نطلب. و«إِذًا» تهمل بعد العاطف كما هنا، وتعمل كما قرئ: «وَإِذًا لاَّ يُمَتَّعُوا» بالتحتية.

﴿قُلْ مَن ذَا الذِي﴾ استفهام نفي ﴿يَعْصِمُكُم مِّنَ اللهِ﴾ من إرادته ﴿إِنَ اَرَادَ بِكُمْ سُوءًا﴾ شرًّا ﴿اَوَ ارَادَ بِكُمْ رَحْمَةً﴾ خيرًا، أو ﴿يَعْصِمُكُمْ﴾: يمنعكم مجاز مرسل لعلاقة الإطلاق والتقييد، فإنَّ العصمة منع مِمَّا يكره، فاستعملت في المنع مطلقًا، بدليل ذكر الرحمة.

(بلاغة) ومن أجاز استعمال الكلمة في حقيقتها ومجازها وفي معنيين أجاز أنَّ العصمة على ظاهرها باعتبار السوء، وبالمنع هكذا باعتبار الرحمة، وذلك ـ لعدم الحذف ـ أولى من تقدير: أو يصيبكم بسوء إن أراد بكم رحمة، أو بعدم الرحمة إن أراد بكم رحمة، أو من ذا الذي يمنع رحمة الله منكم إن أراد بكم رحمة.

﴿وَلاَ يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ اللهِ وَلِيًّا﴾ ينفعهم ﴿وَلاَ نَصِيرًا﴾ يدفع عنهم الضرَّ.

﴿قَدْ يَعْلَمُ اللهُ الْمُعَوِّقِينَ﴾ المعَطِّلين للناس عن اتِّباع رسول الله ﷺ ﴿مِنكُمْ﴾ حال من «ال»، أو من المستتر في «مُعَوِّقِينَ» ﴿وَالْقَآئِلِينَ لِإِخْوَانِهِمْ﴾ في الكفر فالفريقان كُفَّار ﴿هَلُمَّ إِلَيْنَا﴾ اسم فعل بمعنى أقبلُوا، أو قَرِّبوا أنفسكم،

فحذف مفعوله.

(قصص) كان عبد الله بن أُبي ومعتب بن قشير ومن معهما ممَّن رجع من الخندق من المنافقين، إذا رأوا منافقا أو من ضعف إيمانه قالوا له: ويحك اقعد ولا تخرج، أو هلمَّ إلى رأينا، أو إلى موضعنا البعيد عن وصول السهام، فذلك تعويق، ويكتبون إلى إخوانهم أخوالهم في الصحبة أو النسب في الأحزاب، أو إلى الأحزاب مطلقا لأخوَّةٍ في الدين: أقبلوا فَإِنـَّـا قد خذلنا مُحَمَّدًا وننتظركم، فهذا قول «هَلُمَّ».

أو الإخوان الأخوَّة في النسب وهم مسلمون، والمعوِّقون والقائلون: هلمَّ كُفَّار، كان المنافقون يقولون للمخلصين من أهل المدينة: «اقعدوا ما محمَّد وأصحابه إلاَّ أكلة رأس» (بفتح الهمزة والكاف) جمع آكل، أي عدد قليل يكفيهم رأس، أو بضمِّ الهمزة وإسكان الكاف أي مقدار رأس مأكول لو كانوا لحما لأكلهم أبو سفيان وأصحابه.

وعن ابن زيد: انصرف رجل من الخندق إلى أخيه الشقيق فوجد عنده نبيذا وشواء، فقال: أنت هاهنا ورسول الله ﷺ بين الرماح والسيوف، فقال: «هلمَّ إليَّ فقد أحيط بك وبصاحبك، والذي يحلف به لا يستقبلها محمَّد أبدا» أي لا يرجع إلى المدينة، فقال: «كذبت، والذي يحلف به لأخبرنَّه بأمرك» فرجع فوجد جبريل قد نزل بهذه الآية. فالأخوَّة أخوَّة النسب، والعائق والقائل هلمَّ كافر. والجمع لأنَّ له أعوانا راضين بقوله. لهم إخوان مسلمون يقولون لهم مثل ذلك، أو يصوِّبون القول لهم، **وتحتمل الآية ذلك كلَّه.**

وقيل: المعوِّقون والقائلون اليهود وإخوانهم المنافقون من أهل المدينة، فالأخوَّة في الكفر والجوار.

[قلت:] وهذا مردود بقوله تعالى: ﴿وَلاَ يَاتُونَ الْبَأْسَ﴾ الحرب، عطف على

صلة «ال» وهي «قائلين»، فما بعدها أجزاء لها. ﴿**إِلاَّ قَلِيلاً**﴾ زمانا قليلا، أو إتيانا قليلا، أو بأسا قليلا، فإنَّ اليهود لا يقاتلون من جهة النبيء ﷺ كثيرا ولا قليلا، **وإنَّما ذلك شأن المنافقين لا يأتون الحرب** إلاَّ إن لم يجدوا بدًّا من إتيانها، وأيضا إذا جاءوا ورأى الناس وجوههم رجعوا إذا وجدوا الغفلة، ولا يحضرون البأس الكثير، ويعتذرون فيه بما وجدوا، أو إتيان البأس القتال، أي لا يقاتلون إلاَّ قتالا قليلا، كقوله تعالى: ﴿مَا قَاتَلُواْ إلاَّ قَلِيلاً﴾، بل يكفُّون أيديهم ويكونون من وراء.

(صرف) ﴿**اَشِحَّةً**﴾ جمع شحيح، فصيح استعمالا شاذٌّ قياسا، لأنَّ قياس جمع «فعيل» للوصف المضاعف كخليل «أفعلاء»، مثل أخلاَّء، وسمع أيضا «أشحَّاء» على القياس.

(نحو) «اَشِحَّة» حال من واو «يَاتُونَ» أي تركوا الإتيان أشحَّة، قاله الزجاج، وفيه أنَّ عامله لا النافية والمعنى صحيح، لكن مقتضى كون صاحب الحال الواو أن يكون عامله «يَاتي» لأنَّه العامل في الواو، فيتغيَّر المعنى، لأنَّ المعنى حينئذ: إتيانهم أشحَّة منتف، فلعلَّه حال من محذوف مثبت، أي يأتون أشحَّة، أو من «ال» في «قائلين»، أو من ضميره في «قائلين»، وعليه لا يضرُّ الفصل بأجزاء الصلة.

﴿**عَلَيْكُمْ**﴾ أي عنكم بالخير كلِّه، كالنفقة والنصرة والغنيمة والنفع بأبدانهم، وكلِّ منفعة، لا يحبُّون للمؤمنين نفعا مَّا، وهذا هو المناسب لحالهم من حبِّ الشرِّ للمؤمنين. وقيل: هذا حبُّ خير للمؤمنين من غلبة وبقاء، لأنَّهم لو كانوا مغلوبين لم يجدوا من يمنع الأحزاب عنهم، فيقتلون أو تؤخذ أموالهم وهو المناسب لقوله تعالى: ﴿اَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ ولأنَّ تعدية الشحِّ بـــ«عَلَى» إنَّما هو في حبِّ بقاء الشيء، وفي الوجه الأوَّل وعليه

الجمهور فسَّرها بعن.

﴿فَإِذَا جَآءَ الْخَوْفُ﴾ من العدوِّ ﴿رَأَيْتَهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾ أي أحداقها من شدَّة الخوف. والجملة حال من واو «يَنظُرُونَ». ﴿كَالذِي يُغْشَىٰ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ﴾ لأجل الموت، أو بسببه، أي ينظرون نظرا ثابتا كنظر الذي، أو تدور أعينهم دورانًا ثابتا كدوران الذي؛ أو حال من «أَعْيُنُهُمْ» أي كعين الذي، أو هذا النظر تملُّق إذا رأوا نجاة المؤمنين، أو أمارة النصر، أو رأوهم غالبين، لا كما قيل: نظر خيانة لعلَّهم يجدون مضربا.

﴿فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُم بِأَلْسِنَةٍ﴾ آذوكم ببسط ألسنتهم في الذمِّ وما دونه، كقولهم: أعطونا من الغنيمة، فلستم بأحقَّ بها منَّا، والطعن في الدين، قيل: أصل السلق بسط العضو إلى أحد بالقهر ﴿حِدَادٍ﴾ شداد في الشرِّ كالسيوف الحديدة.

(بلاغة) ويحتمل أنَّه شبَّه ألسنتهم بالسيوف على الاستعارة المكنية؛ بل الاستعارة على تناسي التشبيه، ورمز إليها بلازمها، وهي الحدَّة ولازمها الآخر وهو السلق، على أنَّه بمعنى الضرب، فهما أو إثباتهما استعارتان تخييليتان، ويقال أيضا: السلق البلاغة في الخطبة وجهر الصوت، فهم يفعلون ذلك بالسوء جرأة، قال ﷺ: «**ليس منَّا من سلق أو حلق**»[1]، أي من رفع صوته جزعا من المصيبة، أو حلق ما لا يحلق.

﴿أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ﴾ كلِّه كما مرَّ مستبقين له لأنفسهم، فهم يطلبون من الغنيمة ويمسكون أموالهم لا ينفقونها في سبيل الله، أو «عَلَى» بمعنى عن، أي

١- رواه **أبو داود** في كتاب الجنائز، باب في النوح، رقم ٣١٣٠، **والنسائي** في كتاب الجنائز (١٨) باب السلق، رقم ١٨٦٠، من حديث أبي موسى.

يخلون عن الخير ولا ينفعون الإسلام، أو أهله بشيء، على أنّه قد يقال: لا تختصُّ «على» في الشحِّ بالاستبقاء، ولا بأس بالتكرار تأكيدا ولا سيما أنّه تجدَّد العامل هنا وهو سلق.

و«أَشحَّةً» حال من فاعله، وفرَّق بعض بأنّ «أَشحَّةً» هنالك في معاونة المؤمنين، والنصر والإنفاق في سبيل الله تعالى، وما هنا في مال الغنيمة، وبعض بأنّ ما هنالك تحبُّب إلى المؤمنين واستبقاء لهم، وما هنا جرأة عليهم بالسلق إذ ذهب ما يتخوَّفونه، وبعض بأنّ ما هنالك شحٌّ منهم عن المؤمنين، وما هنا شحٌّ عن كلّ أحد.

﴿أُوْلَئِكَ لَمْ يُومِنُواْ﴾ من قلوبهم بل بألسنتهم فقط **﴿فَأَحْبَطَ اللهُ أَعْمَالَهُمْ﴾** حين عملوها لشركهم حين عملوا، كما دلّت عليه الفاء، فإنَّها سَبَبِـيَّة، والمراد: لم يقبلها من أوَّل مرَّة وليس المراد أنَّها صحَّت ثُمَّ أبطلت، كما يتبادر من الإحباط، فذلك تشبيه أو إطلاق للمقيَّد على المطلق.

ولكون المراد بطلانها من أوَّل قيل: المعنى: أظهر بطلانها. والأعمال: العبادات المأمور بها، وإن فسِّر بما عملوه نفاقا وتصنُّعا وليس عبادة في قصدهم فإحباطه عدم النفع به في الدنيا، ولاحظّ لهم في الآخرة.

وقيل: الأعمال عبادة الله، والإحباط على ظاهره، وإنَّها نزلت في مؤمن مخلص شهد بدرا ونافق بعد، ويردُّ هذا بقوله: ﴿لَمْ يُومِنُواْ﴾ وبصيغة الجمع، ويجاب بأنّــهُ لم يؤمن من نافق، وأنّه قد يكون معه في ذلك اثنان أو أكثر، ويبحث بأنّ الإشارة إلى عموم المنافقين المذكورين قبل، ويجاب بجواز الإشارة إلى العموم لخصوص من فعل ذلك منهم.

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الإحباط **﴿عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾** هيِّنا لا يبالي به، أو كان ذلك الشحُّ عن المؤمنين سهلا عند الله عَزَّلَّ، لأنّه ينصر المؤمنين، ويغنيهم

بغيرهم، ولا يكون سببا لخذلانهم.

﴿يَحْسِبُونَ الاَحْزَابَ لَمْ يَذْهَبُواْ﴾ لفرط خوفهم ودهشهم بهم، وقد ذهبوا بهزم الله لهم، حتَّى إنَّهم رجعوا إلى المدينة من الخندق خوفا منهم بعد الذهاب الذي لم يعلموا به، ومع أنَّهم خرجوا عن معسكر رسول الله ﷺ إلى ما يلي جهة المدينة.

﴿وَإِنْ يَّاتِ الاَحْزَابُ﴾ مرَّة ثانية ﴿يَوَدُّواْ لَوَ اَنَّهُم بَادُونَ فِي الاَعْرَابِ﴾ يتمنَّوا أنَّهم نازلون في البدو مع الأعراب، وهم عرب الصحراء لا عرب المدينة، لئلاَّ يصيبهم قتل وجرح وسلب أو نحو ذلك.

(نحو) و«لو» حرف تمنٍّ مؤكِّد لـ«يَوَدُّ» و لم تدخل على الجملة فإنَّ ما بعدها في تأويل مصدر مفعول به لـ«يَوَدُّ»، أو الودُّ: مطلق الحبِّ وخصوص التمنِّي مدلول عليه بـ«لَوْ»، أو يقدَّر الفعل فتكون مَصدَرِيَّة، والمصدر من «بَادُونَ» فاعل للفعل المقدَّر، والفعل المقدَّر في تأويل مصدر مفعول «يَوَدُّ» أي يودُّوا لو ثبت أنَّهم بادون، أي يودُّوا لو ثبت بدوُّهم، أي يودُّوا ثبوت بدوِّهم.

﴿يَسْئَلُونَ﴾ في البدوِّ كلَّ من قدم من جهة المدينة ﴿عَنَ اَنبَآئِكُمْ﴾ أخباركم ماذا جرى لكم مع الأحزاب ؟ والجملة حال من المستتر في «بَادُونَ» أو خبر ثان، لـ«أنَّ» والمعنى: يتمنَّون أنَّ لهم سؤالا عن أخباركم لا مشاهدة.

﴿وَلَوْ كَانُواْ فِيكُم﴾ حين جاءتكم الأحزاب، وتضاربتم معهم بالحجارة والنبل، أو حين كانوا في البدو ولو كانوا فيه لو جاءت الأحزاب مرَّة ثانية وقاتلوكم ﴿مَّا قَاتَلُواْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ زمانا قليلا، أو قتالا قليلا، خوفا وخذلانا لكم، وذلك القليل يصدر منهم مداراة لكم وخوفا من التعيير.

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ الخطاب على العموم وقوله: ﴿لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الاَخِرَ﴾ بدل بعضٍ، أعني لـ«من»، والرابط

محذوف أي لمن كان منكم.

(نحو) [قلت:] ومن العجيب إخراج الجارِّ عن الإبدال، وجعل الإبدال للفظ «من» وحدها من الكاف، وأي مانع من جعل الجارِّ والمجرور بدلا من الجارِّ والمجرور. وخصَّ ﴿لِمَن كَانَ يَرْجُو...﴾ لأنَّه المنتفع كما قيل الخطاب للمؤمنين، و«لِمَنْ» بدل كلٍّ، و«لَكُمْ» متعلّق بـ«كَانَ» ولا خبر لها، وكذا «فِي»، أو تعلّق بمحذوف حال من فاعل «كَانَ» وهو «إِسْوَةٌ»، أو «لَكُمْ» خبر «كَانَ» و«فِي» متعلّق به، أو بالاستقرار، أو بمحذوف حال من «إِسْوَةٌ»، أو بمحذوف خبر «كَانَ» و«لَكُمْ» متعلّق بها.

والإسوة: الخصلة التي يقتدى بها، أو هي هو ﷺ على التجريد، كقولك: في هذا المتاع قنطار، أي هو نفسه قنطار، وإن قدِّر: وزن قنطار، فلا تجريد، ونحو: رأيت من زيد أسدا وبحرا.

أمرنا الله أن نقتدي برسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله، وما أخبرنا به من اعتقاد ممَّا هو عبادة أو مباح، إلاَّ ما خصَّ به ﷺ ، قال حفص[1] لابن عمر: «ما رأيتك تصلِّي في السفر قبل المكتوبة ولا بعدها»، فقال: سافرت كذا وكذا مرَّة معه ﷺ فلم أره يفعل، ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ إِسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾[2]. وهمَّ عمر أن ينهى عن لبس الحبرة، فقال له رجل: كان رسول الله ﷺ يلبسها ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ...﴾ فلم ينه عنها. وقال ابن عبَّاس قال ﷺ :

١- حفص بن عاصم بن عمر بن الخطَّاب القرشي المدني الفقيه، حدَّث عن أبيه وعمِّه عبد الله بن عمر وأبي هريرة وابن عيينة وغيرهم، وروى عنه بنوه: عمر ويحيى ورباح، وجماعة، مُتــَّفق على الاحتجاج به. توفي في حدود سنة ٩٠ هــ. تهذيب أعلام النبلاء، ج١، ص١٤١.

٢- رواه **ابن ماجه**: كتاب إقامة الصلاة، باب ٧٥ التطوُّع في السفر، رقم١٠٧١. من حديث ابن عمر.

«**إذا حرَّم الرجل عليه امرأته فكفَّارة يمين،** ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ...**﴾»[1].

(بلاغة) وخرج بـ﴿مَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَاليَوْمَ الاَخِرَ﴾ من أنكر اليوم الآخر، وكذا إن قلنا اليوم الآخر عبارة عن الثواب تسمية للحال باسم المحلِّ، وهو زمانه، وقولك: أرجو الله وثوابه، أبلغ من قولك: أرجو ثواب الله، تقول: أرجو كرم زيد، وإذا بالغت قلت: أرجو زيدا وكرمه.

ويجوز تقدير: يرجو رضا الله وثواب اليوم الآخر. وقال مقاتل: الرجاء هنا بمعنى الخوف، ووجهه أنَّ المقام للتهديد، ويبعد تقدير: أيَّـام الله، أي حروبا ينصر فيها، ويبعد تفسير اليوم الآخر بيوم الموت.

﴿**وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا**﴾ ذكرا كثيرا، أو زمانا كثيرا أسوة برسول الله ﷺ .

وذكر النووي أنَّ ذكر الله بلا جملة لا ثواب فيه، مثل أن يقول: «الله» أو «رحمن»، إلاَّ إن نوى ما تمَّت به جملة، قلت: بل على ذلك ثواب، إن قصد أمرا أخرويًّا كمدح الله بذلك الاسم، وذكر هو أو غيره أنَّه لا ثواب لذكر لم يستحضر معناه إجماعا.

[قلت:] وهذا كما جاء أنَّه لا يكتب للمصلِّي إلاَّ ما عقل من صلاته، أرجو من سعة رحمة الله أن يكتب له من الذكر ما غفل عن استحضار معناه مع اجتهاد ونية أَوَّل الذكر، قدر طاقته، وقدر رغبته، حتَّى إنَّ عزوب قلبه كالأمر الضروري، فيقيَّد الحديث بهذا لأنَّ العمل على النية، وللقارئ في جماعة ما سبقه غيره لسكوته لمعنى، أو عياء، أو لنومه غلبة.

ونصَّ ابن الصيفي اليمني إنَّ لقارئ القرآن في غير الصلاة ثواب ما قرأ ولو

١-رواه **البخاري** في كتاب الطلاق (٨) باب قوله تعالى: {لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ اللهُ لَكَ} رقم٥٢٦٦. من حديث ابن عبَّاس.

لم يحضر قلبه أو نيته.

﴿وَلَمَّا رَءَا الْمُومِنُونَ الاَحْزَابَ قَالُواْ هَذَا﴾ أي هذا الذي رأينا من إتيان الأحزاب، أو هذا البلاء **﴿مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ،﴾** أي ما وعدناه الله ورسوله.

ومن العجيب جعل «مَا» مَصدَرِيَّة ثمّ يؤوَّل المصدر وهو الوعد بالموعود الذي هو ما وعدناه الله، فلبيق بلا مصدرية ويقدَّر الهاء كما رأيت.

والموعود قوله في سورة البقرة: ﴿أَمْ حَسِبْتُمُ، أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَاتِكُم مَّثَلُ الذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَآءُ وَالضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولُ الرَّسُولُ وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ﴾ [آية: ٢١٤] وهي نزلت قبل نزول الأحزاب على المدينة بعام. وأيضا الموعود قوله ﷺ: «**إنّ الأحزاب سائرون إليكم تسعا أو عشرا**» أي آخر تسع أو عشر، أي من وقت الإخبار أو من غرَّة الشهر، وآية البقرة في ذلك أولى من هذا، لأنَّه لم يجئ حديثا.

﴿وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ،﴾ داخل في القول عطف على جملة «هَذَا مَا...». ولا يجوز عطفه على «وَعَدَنَا اللهُ» إذ لا رابط في هذا المعطوف يعود إلى «مَا» إلاّ أنْ يقدَّر: وصدق الله ورسوله فيه. و لم يضمر لأنَّه لو قال وصدقا لَجَمَع الله وغيره في ضمير، ومرَّ كلام في سورة المائدة على ذلك[1].

﴿وَمَا زَادَهُمُ،﴾ فاعل «زَادَ» ضمير الرأي مصدر «رأى» بلا تاء، أو ضمير الشهود مصدر «شهد»، أو ضمير البلاء، وذلك أولى من رجوعه إلى الوعد المفهوم من المقام، لأنَّ حضور الموعود أحقُّ من نفس الوعد بأن يزيدهم

١- انظر: ج ٣، ص٥٢٢.

الإيمان ﴿إِلاَّ إِيمَانًا﴾ بالله أنّه إله حقٌّ، إذ وعد الغيب الذي لا يعلمه غيره فوقع، وهذا أولى من تقدير: إيمانا بالله وبمواعيده.

[قلت:] والتحقيق أنّ الإيمان يزداد لزيادة الأدلّة وللفكر فيها بمعنى يرسخ بعد أن ثبت أصله. ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ لقضائه.

﴿مِنَ الْمُومِنِينَ﴾ المخلصين مطلقا لا الذين ذكر الله محاسنهم خاصّةً. ونصَّ بعض أصحابنا على أنّه لا يقال: «حكى الله عن غيره» بل «ذكر الله». ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَاهَدُواْ اللهَ عَلَيْهِ﴾ من الثبات مع رسول الله ﷺ ، والمقاتلة للأعداء، وقيل: من الطاعات مطلقا فيدخل الثبات المذكور بالأولى.

قال أنس: غاب عمّي أنس بن النضر عن بدر فشقّ ذلك عليه، فقال: أوّل مشهد شهده رسول الله ﷺ غبت عنه لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله ﷺ بعدُ ليرينَّ الله تعالى ما أصنع، فشهد يوم أحد فاستقبله سعد بن معاذ رضي الله عنه ، فقال: يا أبا عمرو أين؟ قال: واها لريح الجنّة أجدها دون أحد؟ فقاتل حتّى قتل، فوجد في جسده بضع وثمانون من ضربة وطعنة ورمية.

وفيه وفي أصحابه نزلت الآية، وهو في الولاية للشهرة بأنّه صحابيٌّ، لم يذكر عنه ما يختلف فيه، ولأنّه كلٌّ من عرفه عرفه بخير، ومن جهله جهله بالكلّية، ولا سيما أنّه مات قبل الفتنة.

[قلت:] والذي أقول به إنّه من توقّف من الصحابة في شأن فتنتهم لا يبرأ منه، بل يتولّى لأنّه وقف من حيث إِنّهُ لم يدرك الحقّ، وليسوا يرجعون إلى الوقوف إذا زلّ إمام هم تحته، إذ لا وجه لرجوع المتولّى لذاته بزلّة إمامه، وإنّما يرجع إليه من تولّي تبعا له، وكان قبل في الوقوف، وأيضا نصّ ﷺ على ولايتهم فهي ولاية دائمة حتّى يصدر منهم موجب البراءة، لم يزل إمامهم أو زلّ.

وقيل: المراد بالآية أهل العقبة السبعون، وقيل: بنو حارثة. و«مَا» مفعول به جعل ما عاهدوا عليه كشخص معاهد على الاستعارة المكنيَّة، ورمز إلى ذلك بإثبات المصدوقيَّة، الذي هو تخييل، وعلى الإسناد المجازي، يقال: صدقني، أي أخبرني بصدق، أو يقدَّر: صدقوا الله فيما عاهدوا الله عليه، أو صدقوا فيما عاهدوا...الخ و لم يكذبوا فيه، ﴿**فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ**﴾ أدَّى نذره أي فعله، ووفَّى به.

(بلاغة) شبَّه النذر بالموت لجامع وجوب الوقوع، أي لزومه في الذمَّة، وذلك استعارة تصريحيَّة، والقرينة حاليَّة، و«قضى» ترشيح، وقد شهر: قضى نحبه في معنى مات، أو قضاء النحب مستعار، قال ﷺ : «**طلحة ممَّن قضى نحبه**»[1]، رواه قومنا وجعلوه طلحة الذي عاش بعده ﷺ وخلط[2]، وفسَّروا قضى النحب بالوفاء بالوعد لا خصوص الموت، وقالوا: ثبت يوم أحد حتَّى قطعت يده.

كما فسَّر مجاهد قضاء النحب بالوفاء بالعهد أن يجاهد ولا يفرَّ.

﴿**وَمِنهُم مَّن يَنتَظِرُ**﴾ أي ينتظر أن يموت على الوفاء بما عاهد عليه من الخير، وقد علم الله أنَّه يموت عليه فصدق عليه قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ﴾، أو ينتظر حربا يجتهد فيها ويخلص، وعلم الله تعالى أنَّه سيفعل فصدق عليه ﴿رِجَالٌ صَدَقُواْ﴾، وقيل: المراد بالصدق مطابقة ما في ألسنتهم لقلوبهم والمراد: يصدقون فعبَّر بالماضي للتحقُّق.

﴿**وَمَا بَدَّلُواْ**﴾ عهدهم كما بدَّل المنافقون، والواو للقاضين والمنتظرين،

١- رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (٣٤) باب: ومن سورة الأحزاب، رقم٣٢٠٢. **وابن ماجه** في المقَدِّمَة (١١) باب في فضائل أصحاب رسول الله ﷺ ، رقم ١٢٦. من حديث موسى بن طلحة.

٢- يشير إلى طلحة بن عبيد الله صاحب الزبير في قعة الجمل، والمراد بالخلط الوقوع في الفتنة.

وأجيز عوده للمنتظرين خَاصَّةً، لأنَّ حالهم هي المحتاجة إلى بيان أنَّها صحَّت أو لم تَصِحَّ. ﴿تَبْدِيلاً﴾ الجملة معطوفة على «صَدَقُوا» ووجه التأكيد بـــ«تَبْدِيلاً» رجوعه إلى النفي، أي انتفى التبديل انتفاءً بليغًا، وإن شئت فالتوكيد تعريض بمن بدَّل تبديلا عظيمًا، وهم هؤلاء المنافقون، ولا مفهوم بأنَّ هؤلاء الصادقين بدَّلوا بعض تبديل.

﴿لِّـيَجْزِيَ﴾ أي قضى الله ما ذُكر من صدق من صَدقوا ونفاق من نَافقوا «لِيَجْزِيَ» ﴿اللهُ الصَّادقينَ﴾ فيما عاهدوا ﴿بِصِدْقِهِمْ﴾ بثواب صدقهم، أو الصدق الثواب تسمية للمسبَّب باسم السبب، والصادق مشتقٌّ يؤذن بعلِّية ما منه الاشتقاق، ومع ذلك ذكر ما منه الاشتقاق وهو صدق للتأكيد، وهذا إذا جعلنا الباء سَبَبِـيَّة.

﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافقِينَ﴾ بالنار لنفاقهم ﴿إِن شَآءَ﴾ تعذيبهم بأن يموتوا على الكفر ﴿اَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمُ،﴾ يوفِّقهم إلى إخلاص الإيمان فلا يعذِّبهم، ولا إشكال في هذا، فلا حاجة إلى دعوى أنَّ المراد: يعذِّبهم في الدنيا، أو يتوب عليهم بترك التعذيب، ولا تتبادر التوبة في ترك عذاب الدنيا ولو وقعت في بعض المواضع على احتمال ﴿إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ لمن تاب.

﴿وَرَدَّ اللهُ الذينَ كَفَرُواْ﴾ عن المدينة إلى بلادهم، العطف على «أَرْسَلْنَا» أي فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها وَرَدَّ الله الذين كفروا، أو معطوف على «قضى» المقدَّر الذي تَعَلَّقَ به «لِيَجْزِيَ» ﴿بِغَيْظِهِمْ﴾ حال من «الذينَ» أي ثابتين مع غيظهم، أو يقدَّر كون خاصٌّ، أي ملتبسين بغيظهم.

﴿لَمْ يَنَالُواْ خَيْرًا﴾ الجملة حال ثانية من «الذينَ»، أو من ضمير الاستقرار في «بِغَيْظِهِمْ» إذا قدِّر بالكون العامِّ، والمعنى: لم ينالوا شيئًا يحسبونه خيرًا من مال، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ (سورة العاديات: ٨) ، ومن

قَتْلِ النبيء، أو كثير من الصحابة.

(شهداء الصحابة) فَإِنَّهُم قتلوا ستَّة فقط: سعد بن معاذ إلاَّ أنه تحامل الرمية ومات بها بعد مُدَّة رضي الله عنه، وأنس بن أويس بن عتيك، وعبد الله بن سهل، وهم من بني عبد الأشهل، والطفيل بن النعمان، وثعلبة بن عثمة وهما من بني جشم بن الخزرج من بني سلمة، وكعب بن زيد من بني النجَّار، إلاَّ أنَّهم ردَّهم الله غير عالمين بموت هؤلاء، فلم يلتذُّوا بموتهم حين ردَّهم الله، بل ذهبوا مغتمِّين بمن قتل منهم.

وهم أربعة: عمرو بن عبدود، وهم يعدونه بألف، قتله عليٌّ في الخندق، فهذه ألف، وهو من بني مالك بن حسل من بني عامر بن لؤي، ونوفل بن عبد الله بن المغيرة في الخندق وهو من بني مخزوم بن يقظة، ومنبه بن عثمان بن عبيد بن السباق بن عبد الدار أصابه سهم غرب، أي لا يدرى من رماه، إلاَّ أنَّه تحامل به إلى مكَّة ومات فيها، وهو من بني عبد الدَّار بن قصي، وحسل، وهو ابن عمرو المذكور آنفًا.

﴿**وَكَفَى اللَّهُ الْمُومِنِينَ الْقِتَالَ**﴾ بالرِّيح والجنود، وقيل: بقتل عمرو بن عبدود، والصحيح الأَوَّل، فإنَّهم ذهبوا بهما لا بقتله. «كَفَى» يتعدَّى لاثنين كما في الآية، وفي قوله تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ﴾ (سورة البقرة: ١٣٧) ، والمراد: كفاهم القتال الشديد بالتلاقي بالسيوف، والرماح والسهام، والخناجر، وهو القتال الذي يقتضيه تحزُّبهم، أو المراد: رَّدهم الله وقطع القتال بعدُ، فإنَّ قريشًا لم تغزهم بعد ذلك. ﴿**وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا**﴾ على كلِّ ما أراد ﴿**عَزِيزًا**﴾ على كلِّ شيء.

﴿ وَأَنزَلَ ٱلَّذِينَ ظَٰهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾

غزوة بني قريظة

﴿وَأَنزَلَ الذِينَ ظَاهَرُوهُمْ﴾ أعانوا الأحزاب ﴿مِنَ اَهْلِ الْكِتَابِ﴾ المراد بني قريظة عند الجمهور، وهو الصحيح، وقيل: بنو النضير ﴿مِن صَيَاصِيهِمْ﴾ حصوهم، استعار لها الصَّياصي الموضوع لكلِّ ما يمتنع به، كالقرن للثور والظبـــي، وشوكة الديك في رجله، لجامع الامتناع. ﴿وَقَذَفَ﴾ ألقى ﴿فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾ الخوف الشديد حَـــتَّى أسلموا أنفسهم بلا امتناع ولا مخالفة للقتل، وأموالهم للسلب وأهلهم وأولادهم للأسر، كما قال: ﴿فَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ وهم الرِّجال، ﴿وَتَاسِرُونَ فَرِيقًا﴾ النساء والصبيان.

(بلاغة) وإنزالهم من الصياصي عبارة عن إذلالهم على طريق الاستعارة التبعيَّة، وقذف الرُّعب سببٌ له، وأخَّره لأنَّ السُّرورَ بإنزالهم أكثر، فالإخبار به أهمُّ للمؤمنين، كما أنَّ القتل للرجال أهمُّ فقدِّم على عامله وعلى الأسر، ولأنَّهم مساق التفصيل، وقدَّم الأسر على «فَرِيقًا» لأنَّه أهمُّ، ولو قَدَّمَ «فَرِيقًا» لتُوهِّم قبل ذكر «تَاسِرُونَ» أنَّه يقال في القراءة بعد ذلك: تهزمون، وللفاصلة وليتَّصل القتل والأسر بلا فصل.

(سيرة) روي أنَّ جبريل عليه السلام جاء صبح يوم الانهزام أو ظهره رسول الله ﷺ عند زينب وقد غسلت نصف رأسه معتجرًا بعمامة استبرق على بغلة فوقها قطيفة ديباج، وقال: هل وضعت السلاح يارسول الله؟ قال: نعم، فقال: عفا الله عنك ما وضعت الملائكة وما رجعَتْ إلى الآن من طلب القوم، وإنَّ الله يأمرك بالمسير إلى قريظة، وإني أزلزل حصونهم.

فأذِّن أن لا تصلوا العصر إلاَّ في قريظة، واستخلف ابن أمِّ مكتوم على المدينة، وأعطى عليًّا الرَّاية، وأسرع الناس إليه، وَلَمَّا دنَا عليٌّ من الحصن سمع

فحشًا عليه ﷺ فرجع إليه، فقال: يا رسول الله ما عليك أن تدنوا من هؤلاء الأخابيث فقال: «لعلّك سمعت أذى»؟ قال: نعم يا رسول الله، قال: «**لو رأوني لم يقولوا**» فدنا فقال: «**يا إخوان القردة هل أخزاكم الله وانتقم منكم؟**» قالوا: يا أبا القاسم ما كنت فحَّاشًا، ويروى: ما كنت جهولا.

(سيرة) وقد مرَّ بنفر من أصحابه فقال: هل مرَّ بكم أحد؟ قالوا: «يا رسول الله دحية الكلبي على بغلة بيضاء عليها قطيفة ديباج» فقال: «**ذلك جبريل يزلزل بقريظة ويرعبهم**». ونزل على بئر يقال لها: «أنّى» بناحية أموالهم، ولحقه رجال بعد العشاء ولم يصلُّوا العصر لقوله: «صلوا العصر في قريظة»، وقد اشتغلوا جهدهم بأمر السير للحرب، فصلّوها ولم يعاتبهم، وحاصرهم خمسًا وعشرين ليلة، وقيل: إحدى وعشرين، وقيل: خمسة عشر، واشتدَّ خوفهم.

وفيهم حي بن أخطب وفاء لعهده لكعب بن أسد، وقد أيقنوا أن لا ينصرف رسول الله ﷺ، فقال كعب: تابعوا الرجل فو الله لقد تبيَّن لكم أنّه نبيء مرسل في كتابكم لِتَأمنوا، فقالوا: لا نفارق التوراة، فقال: اقتلوا أبناءكم ونساءكم، فنخرج إليه غير خائفين عليهم إن متنَا، وإن ظفرنا اتَّخَذنا نساءً وأولادًا، فقالوا: لا خير في العيش بعد هؤلاء، قال: فقاتلوه الليلة غافلا يَظُنُّ أنّا لا نقاتل ليلة السبت، فقالوا: لا نُحدثُ في السبت، فيصيبنا ما أصاب من أحدث فيه، فقال: لا حزم فيكم، ضيَّعتم الحزم.

فبعثوا إليه ﷺ أن أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر، أخا بني عمرو بن عوف حلفاء الأوس نستشره، فلمَّا جاءهم بكت إليه النساء والصبيان فرَقَّ لهم، وقال له الرجال: أنتزل على حكم محمَّد؟ فأشار بيده إلى حلقه أنّه الذبح، فرجع إلى المدينة لا إليه ﷺ لخيانته، فربط نفسه بجذع في المسجد وكانت سواريه

جذوع النخل، حتَّى نزلت توبته رضي الله عنه ، فاستنزله ﷺ ، فقال الأوس: يا رسول الله هم موالينا فَهبهم لَنا كما وهبت للخزرج مواليهم بني قينقاع، فقال: ألا ترضون بحكم رجل منكم ؟ قالوا: بلى، قال: فذاك سعد بن معاذ، وكان في خيمة في المسجد تداويه امرأة من أسلم، يقال لها رفيدة محتسبة في مداواة الجرحى وخدمتهم، من جرح أصابه يوم الخندق في أكحله من قريشي يقال له ابن العرقة، وقد دعا الله: لا تُمِتْنِي حتى تقرَّ عيني من قريظة، وقريظة اختاروا حكمه فحمله قومه إلى رسول الله ﷺ ، على حمار موطئ له بأدم، وكان جسيمًا وسيما، وهم يقولون: أحسن إلى مواليك فإنّ رسول الله ﷺ حَكّمكَ لتحسن إليهم، وأكثروا فقال: لا تأخذني في الله لومه لائم، فذهب بعض من سمعه من قومه إلى بني الأشهل ينعي إليهم قريظة، ولَمَّا وصل سعد إلى رسول الله ﷺ قال: قوموا إلى سيِّدكم، فقال: المهاجرون يريد الأنصار، وقال الأنصار: عمَّ المؤمنين فقام الأنصار، وقالوا: يا أبا عمرو حَكّمكَ ﷺ لتحسن إليهم، فقال: عليكم عهد الله أنّكم رضيتم بحكمي؟ قالوا: نعم، والتفت إلى ناحية فيها رسول الله ﷺ وهو معرِّض به ﷺ ، فقال: نعم، قال: تقتل الرجال وتقسم الأموال، وتسبي الذراري والنساء، فقال ﷺ : والله لقد حكمت بحكم الله من فوق سبع أرقعة، وأعطى المهاجرين ديارهم، فقالت: الأنصار ماذا ؟ فقال: لكم ديار ولا ديار لهم، فقال ﷺ : نعم لكم منازلكم، وأمر بحفر خنادق في المدينة يقتلهم فيها أرسالا، وهم ستُّمائة أو سبعمائة، أو ما بين ثمانمائة وتسعمائة، وفيهم حي وكعب رئيسا القوم، فقالوا له: إلى م يذهب بهم؟ فقال: أفي كلّ موطن لا تعقلون؟ يذهب بهم إلى الموت، ألا ترون أنّهم لا يرجعون؟ وَلَمَّا فرغ منهم أتى بحي في حلّة تفاحيَّة قد شقت عليه في كُلّ ناحية قدر أنملة لئلاَّ يُسْلَبَها مجموعة يداه إلى عنقه بحبل، لَمَّا نظر إلى رسول الله ﷺ قال: أما والله ما لُمتُ نفسي في

عداوتك، ولكن من خذل الله يُخذلُ، وقال: أيُّها الناس لا بأس قضاء الله وقدره، وملحمة على بني اسرائيل، ثمَّ جلس وضربت عنقه وكان عظيم الكبر، وضلَّ عمَّا قيل:

تواضع تكن كالبدر يبدو لناظــر على صفحات الماء وهو رفيــع
ولا تك كــالدخان يعلــو بنفسه على طبقــات الجوِّ وهو وضيع

وعمَّا قيل:

أما ترى البحر تعلــو فوقه جيف وتستقــرُّ بأقصى قعره الدرَرُ

واستوهب ثابت بن قيس بن الشماس الزبير بن باطي القرظي لأنَّه مَنَّ عليه يوم بعاث في الجَاهليَّة، فوهبه له رسول الله ﷺ ، فأخبره فقال: أنا شيخ كبير ما أصنع بالحياة ولا أهل ولا ولد؟ فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره فاستوهب أهله وولده فوهبهما فأخبره، فقال: هم أهل بيت بالحجاز، لا مال لهم فاستوهب ماله فوهبه ﷺ ، له فأخبره فقال: يا ثابت ما فعل الذي كان وجهه مرآة صينية يتمرَّأ فيها عذارى الحي كعب بن أسد، قال: قتل، قال: فما فعل مقدمتنا إذا شددنا وحاميتنا إذا فررنا عزال بن شموال؟ قال: قتل، قال: فما فعل المجلسان يعني بني كعب بن قريظة وبني عمرو بن قريظة؟ قال: قتلوا، قال: فإنِّي أسألك يا ثابت بيدي -أي منِّتي عندك- إلاَّ ألحقتني بالقوم فو الله ما بالعيش بعد هؤلاء من خير؟ فما أنا بصابر حتَّى ألقى الأحبَّة، فقدمه ثابت فضرب عنقه، ولَمَّا بلغ أبا بكر قوله: «ألقى الأحبَّة» قال: يلقاهم والله في جهنَّم خالدين مخلدين.

[قلت:] وإنَّما قتل وهو شيخ لأنَّه ليس بالشيخ الفاني بل فيه صلاح لحضور القتال. قيل:

طلب المحال من الضـــلال فإن ترد أن لا تطاع فمر بما لا يمكن

فخرج من الدنيا بلا مال ولا خير إلى النار بلا كفن لسوء اختياره وقد قيل:

إِنِّي خرجت من الدنيا وليـــس معي من كُلِّ ما ملكت كفِّي سوى كفني

وقيل:

ومن سرَّه أن لا يرى ما يســوءه فلا يَــتَّخِذ شيئا يسوء به فقدا[1]

واستوهبت سلمى بنت قيس خالة رسول الله ﷺ رفاعة بن شموال القرظي، وقالت: أنّه قال سيصلي ويأكل لحم الجمل، فوهبه لها. قيل:

ازرع جميلا ولو في غير موضعه ما خاب قطُّ جمـــيل أينما زرعا

وقتل من أنبت من الذكور، ولم يقتل امرأة إلاّ لبانة زوج الحكم القرظي، إذ طرحت في هذه الغزوة الرحى على خلاد بن سويد الخزرجي فقتلته واقفا تحت حائط من حيطان قريظة، قال ﷺ : «له أجر شهيدين»، قال عروة بن الزبير: عن عائشة: والله إنّ هذه المرأة لعندي تحدِّث معي وتضحك ظهرا وبطنًا، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها بالسيوف إذ هتف هاتف باسمها أين فلانة ؟ قالت: أنا والله، قلت لها: ويلك ما لك؟ قالت: أُقْــتَل، قلت: ولِمَ ؟ قالت: لحدث أحدثته، فانطلق بها فضرب عنقها، كانت عائشة رضي الله عنها تقول: «والله ما أنسى عجبًا منها طيب نفسها وكثرة ضحكها وقد عرفت أنَّها تقتل، زيَّن لها الشيطان مدخلا سهلا ومتعسر المخرج». قيل:

١-البيت بلا نسبة، كذا أورده صاحب المعجم المفصَّل، ج٢، ص١٩٨، نقلا عن كتاب تاج العروس.

وأحزم الناس من لو مات من عطش لا يقرب الورد حــتَّى يعرف الصدرا

(سيرة) وقسَّم رسول الله ﷺ أموالهم ونساءهم وأولادهم، للفارس سهم ولفرسه سهمان، وللراجل سهم. والخيل في هذه الغزوة ستٌّ وثلاثون فرسًا، وهو أوَّل فيء وقع فيه السَّهمان وأخرج منه الخمس. وبعث رسول الله ﷺ سعد بن زيد الأنصاري أخا بني عبد الأشهل بسبايا من سبايا القوم، والسبايا كلُّها سبع مائة وخمسون إلى نجد، فابتاع لهم بها خيلاً وسلاحًا.

(اختيار الرسول لريحانة) واختار ﷺ ريحانة بنت عمرو، فكانت في ملكه حَــتَّى مات، وعرض عليها أن يَتزَوَّجها، ويضرب عليها الحجاب، فقالت: يا رسول الله بل تتركني في ملكك فهو أخفُّ عليك وعليَّ، وحين سباها أبت إلاَّ اليهوديَّة فعزلها، ووجد في نفسه ذلك، فبينما هو مع أصحابه إذ سمع وقع نعلين خلفه، فقال: إنَّ هذا لَنَعْلا ابن شعبة جاء يُبشِّرني بإسلام ريحانة، فجاءه فقال: يا رسول الله قد أسلمت ريحانة، فسرَّه إسلامُها.

والغزوتان آخر ذي القعدة، لا كما قيل: كلٌّ في سنة. وَلَمَّا انقضى شأن قريظة انفجر جرح سعد فمات شهيدًا.

وما اهتز عرش الله من أجل هالك سمعــنا به إلاَّ لسعد أبي عمرو[1]

﴿وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ﴾ أرض الحرث والنخل والشجر، وقُدِّمت لكثرة المنفعة، وأسند التمليك إلى الله، وكان بلفظ الإيراث، ولم يقل: ملكتم أو ورثتم أو أعطيتكم لأنَّ فعل الله أقوى والإرث أثبت، لا يقبل فسخًا ولا رجوعًا بشرطٍ ولا إِقَالَةً، ويثبت بلا قبول له ومع ردٍّ.

١- البيت لحسَّان بن ثابت في مرثية لسعد، وهو من الشواهد في كتاب أوضح المسالك. انظر: المعجم، ج٣، ص٤٥٠.

﴿وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ﴾ أي الدنانير والدراهم والحيوان وسائر العروض ﴿وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا﴾ لم تكونوا عليها بأقدامكم، خيبر عند مقاتل فتحت بعد قريظة، ومكّة عند قتادة، والروم وفارس عند الحسن، وقيل: اليمن، وما يفتح إلى يوم القيامة عند عكرمة وعروة. والعطف على «أَرْضَهُمْ»، و«لَمْ تَطَؤُوهَا» نعت «أَرْضًا». و«أَوْرَثَكُم» بمعنى قضى لكم، فيصلح لما مضى وما يأتي، والخطاب للحاضرين والآتين، أو يقدَّر: ويورث أمّتك بعدك أرضًا لم تطؤوها، وزعم بعض أنّ «أَرْضًا» النساء مجازًا والوطء الجماع، أو وطء الأرض عبارة عنه، قيل:

بذا قضت الأيّام ما بين أهلها مصائب قوم عند قوم فوائد

﴿وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ بلا علاج ولا كلفة، ومن قدرته أنّه يجعل الزمان الواحد طويلاً في شأن أحد قصيرًا في شأن أحد، كزمان القيامة قصيرًا في زمان المؤمن طويلاً في زمان الكافر. وكما روي أنّ شيخًا أدخل تلميذه في خلوة أوّل النهار، فأقام عند أمّه وأهله سبعة أيّام لأنّه اشتاق إليهم، وخرج وقت عصر ذلك اليوم ولم يسلّم عليه أحد سلام راجع من السفر، ولم يقل له أحد ما هذه الغيبة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٢٨﴾ وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلدَّارَ ٱلْـَٔاخِرَةَ فَإِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْمُحْسِنَٰتِ مِنكُنَّ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٢٩﴾ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾ وَمَن يَقْنُتْ مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتَعْمَلْ صَٰلِحًا نُّؤْتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا ﴿٣١﴾﴾

تخيير زوجات النبيء ﷺ بين الدنيا والآخرة

وما لهنَّ من الجزاء في الآخرة

﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَوٰةَ الدُّنْيَا﴾ توسيع التنعُّم فيها ﴿وَزِينَتَهَا﴾ من الحليِّ والحُلَل وسائر الزَّخارف، عطف خاصٌّ على عامٍّ. ﴿فَتَعَالَيْنَ﴾ أقبلن إليَّ بقلوبكنَّ.

(لغة) وهذا كما تقول: أقْبَلَ يخاصمُني وذهب يكلِّمني، وقام يأمر وينهى، وجاء يقول، ولم ترد حقيقة القيام، وأصل «تعالَ» عَالِج الصعودَ إلى موضع عال أو بالغ فيه.

﴿أُمَتِّعْكُنَّ﴾ مجزوم في جواب فعل الأمر، و«تَعَالَيْنَ» جواب «إِنْ»، أو «أُمَتِّعْ» جوابها «فَتَعَالَيْنَ» اعتراض مقرون بالفاء كقوله:

واعلم فَعِلْمُ المرءِ ينفعُه أن سوف يأتي كلُّ ما قُدرا[1]

(نحو) قلت: وعندي أنَّه لا تثبت واو الاعتراض ولا فاء الاعتراض، لأنَّ الاعتراض ليس معنى يوضع له حرف، وما أُوهم ثبوتُهما فإنَّه يُؤَوَّلُ بأنَّهما للعطف، ولو قبل تمام المعطوف عليه، كقولك: إن قام ويقعدا أخواك، فإن يقعدا ليس معطوفًا على قام، بل على قام أخواك، أو يؤوَّلُ الواو بواو الحال أو بالعطف على محذوف مُجَرَّد من عاطف، أو تؤوَّل الفاء بأنَّها في جواب شرط، أو بأنَّها عاطفة على محذوف مجرَّد من واوٍ أو فاء أو عاطف، وكذلك لا تثبت واوُ الاستئناف لأنَّ الاستئناف ليس معنى يوضع له الحرف.

١- البيت بلا نسبة حسب قول صاحب المعجم: ج٣، ص١٠٧.

(تأكيد القضية) وإن أبيت إلاَّ العناد فقد اطَّلَعْتُ بعد قولي بذلك على أنَّ ابن هشام قال: إنَّ الاستفتاح ليس معنًى، ومعنى ألاَ الاستفتاحيَّة التأكيد والتَّنبيه، ومعنى لام الابتداء التأكيدُ، ومعنى من الابتدائيَّة أنَّ الفعل مبتدأه كذا من زمان أو مكان.

(فقه) والتمتيع واجب عندنا وعند أبي حنيفة للتي طلَّقت قبل المسِّ ولم يفرض لها، ومُستحبٌ للْمَمْسُوسَةِ، والتي فرض لها، وعن سعيد بن جبير: المتعة واجبةٌ لِكُلِّ مطلَّقة إلاَّ المفتدية والملاعنَة، وهي دِرع وملحفة وخمار، والبسط في الفروع كشرح النِّيل[1].

﴿وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا﴾ تسريحًا ﴿جَمِيلاً﴾ شرعيًّا لا ضرر فيه ولا بدعة، وهو الطلاق الذي هو كذلك، وبلا خصام، والتسريح سبب للتمتيع، فالأصل تقديمه، ولكن قَدَّمَ التمتيع إيناسًا لَهنَّ، وجبرًا لانكسارهنَّ، وقطعًا لعذرهنَّ من أوَّل الأمر، ولِمُنَاسبَةِ ما قبله من الدُّنيا، ولأنَّه لَو قُدِّمَ التسريحُ لكان كالانتقام، فلا يخلو الاختيار عن شائبة الإكراه.

(بلاغة) كما أنَّه وصف التسريح بالجميل للإبعاد عن تلك الشائبة، ولا يتبادر أنَّ إرادة الدنيا كالطلاق فيكون قد قدَّم الطلاق على التمتيع.

(سيرة) وَلَمَّا فتح الله ﷻ -وهوالفتَّاح العليم- قريظة والنضير ظنَّت نساء رسول الله ﷺ أنَّه اختصَّ بنفائس اليهود وذخائرها، فقعدن حوله وقلن: يا رسول الله، بنات كسرى وقيصر في الحليِّ والحلل والإماء والخول، ونحن على ما نراه من الضيق والفاقة، وظنَّ أنَّه يعاملهنَّ معاملة الملوك، وتألَّم بذلك وسكت، ودخل الصديق وعمر، قال [في نفسه:] أكلِّم بما يضحِكُ رسول الله

١- راجع الجزء ٧ ، ص ٣٨٤ وما بعدها.

ﷺ ، فقال: «يارسول الله لو رأيت ابنة زيد زوجي، سألتني النفقة ءانفًا فوجأت عنقها» فضحك النبيء ﷺ حتَّى بدت نواجذه، فقال: «هنَّ حولي يسألنني النفقة» فقام يضرب بنته حفصة، وقام الصديق ليضرب بنته عائشة، فنهاهما رسول الله ﷺ عن ضربهما، وقالا: كيف تسألن رسول الله ﷺ ما ليس عنده؟ فحلفن بالله لا يسألنه بعد هذا المجلس أبدًا ما ليس عنده.

وبدأ بعائشة عند نزول الآية وقال: «إنِّي أذكر لك أمرًا فلا تعجلي حَـتَّى تستأمري أبويك»، فقرأ الآية فقالت: «اختار الله ورسوله ولا أستأمر أحدًا» وفرح ﷺ بذلك، وقد خاف أن لا تفعل، وقالت: اكتم عليَّ، فقال: «لا إنَّما بعثت مُبَلِّغًا لا يسألني أحد إلاَّ أخبرته» فتتابعن على ذلك، فجازاهنَّ الله تعالى بأن لا يَتزَوَّج عليهنَّ.

(أسماء زوجات النبيء) وهنَّ تسع، خمس من قريش: عائشة وحفصة وأمُّ حبيبة بنت أبي سفيان، وسودة بنت زمعة، وأمُّ سلمة بنت أبي أميَّة، وأربع من غيرهم: صفيَّة بنت حيي الخيبريَّة، وميمونة بنت الحرث الهلاليَّة، وزينب بنت جحش الأسديَّة، وجويريَّة بنت الحرث المصطلقيَّة، إلاَّ العامريَّة الحميريَّة الكلابيَّة فاطمة بنت الضحَّاك بن سفيان اختارت نفسها وقومها، فابتليت بالفقر وذهاب العقل، وصارت كالمجنونة فكانت تلتقط البعر وتبيعه، وتستأذن على نساء النبيء ﷺ وتقول: أنا الشقيَّة اخترت نفسي.

(سيرة) وهذا التخيير بعد أن هاجرهنَّ تسعة وعشرين يومًا، ولا ينافي هذا ما روي أنَّه أقسم لا يدخل عليهنَّ شهرًا لأنَّه دخل على عائشة بعد تسعة وعشرين يوما، وقالت رضي الله عنها: يا رسول الله أقسمت على شهر وهذه تسعة وعشرون أعدُّهُنَّ، فقال ﷺ : «الشهر تسعة وعشرون». وذلك في صحيح مسلم عن الزهري عن عروة عن عائشة.

﴿وَإِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَالدَّارَ الآخِرَةَ﴾ أخَّر هذا مع أنَّه أعظم لأنَّ سبب النزول طلبهنَّ الدنيا، ولأنَّه ﷺ لا يلتفت إلى الدنيا، فبُدِئَ له بطرحها، والمراد: وإن كنتنَّ تردن رسوله، لأنَّ الكلام في تخييرهنَّ فيه، ولكن ذكر الله إجلالاً له ﷺ ، والمراد بالدار الآخرة نعيمها الدائم ﴿فَإِنَّ اللهَ أَعَدَّ﴾ هيَّأ ﴿لِلْمُحْسِنَاتِ﴾ جزاء لإحسانهنَّ ﴿منكُنَّ﴾ بيان لهنَّ، لأنَّهنَّ كلُّهن محسنات، أو تبعيض اعتبارًا للعامريَّة ﴿أَجْرًا﴾ كثيرًا ﴿عَظِيمًا﴾ في نفسه.

(نحو) والجملة جواب الشرط أو علَّة لجوابه محذوفًا، أي يُثبكُنَّ الله تعالى، أو تنلن خيرًا لأنَّ ﴿اللهَ أعَدَّ...﴾ ولم يذكر الثواب في قوله: ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ الْحَيَوٰةَ اَلدُّنْيَا﴾ لأنَّه لا يستَحقُّ على الدنيا، ولا الوعيد ليخلو التخيير عن شائبة الإكراه.

(فقه) والظاهر أنَّ اختيارهنَّ طلاق لو اخترن، بدليل أنَّه لم يطلِّق العامريَّة بل اكتفى باختيارها نفسها، وقيل: غير طلاق بل موجب له، لأنَّه ﷺ لا يخلف الوعد، ولقوله: ﴿أُسَرِّحْكُنَّ﴾ وعليه الجمهور والحسن، وأجيب بأنَّ التسريح هنا تكميل اختيارهنَّ برضاه به، وطيب النفس.

(فقه) وإن خيَّر الرجل زوجه فاختارت فطلاق بائن واحد لا رجعة فيه إلاَّ برضاها، وعن عمر وابن عبَّاس وابن مسعود: واحد رجعي، وقال زيد بن ثابت والحسن ومالك: إن اختارت الزوج فواحدة رجعيَّة، وإن اختارت نفسها فثلاث، وعن عليٍّ: إن اختارت زوجها فواحدة رجعيَّة، وإن اختارت نفسها فواحدة بائنة، وعند الجمهور غير واقع حتَّى يطلِّق، ولها الخيار ما دامت في المجلس، وعليه عمر وعثمان وابن مسعود وجابر بن عبد الله، وحكاه البعض عن جابر بن زيد وهؤلاء، وقال الزهري وقتادة: لها الخيار بعد الخروج عن المجلس فإن عطَّلت أجبرت أن تختار أو تترك.

[قلت:] والحقُّ أن لا طلاق إن اختارت الزوج كما في الصحيحين عن مسروق أنّه قال: «ما أبالي خيَّرت امرأتي واحدةً أو مائة أو ألفًا بعد أن تختارني» ولقد سئلت عائشة رضي الله عنها فقالت: خيَّرنا رسول الله ﷺ فاخترناه، فما كان طلاقًا و لم يعد ذلك شيئًا.

﴿يَا نِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ﴾ ناداهنَّ بالنساء لا بالأزواج لأنّهنَّ يضفن إليه، حتّى كأنّهن مملوكات له، ولو بلا تزوُّج، وكنساء الجنَّة هنَّ لأهلهَا بلا عقد نكاح، والله أعلم وهو الموفّق.

﴿مَن يَأْتِ﴾ ذكَّر الضمير للفظ «مَنْ» ﴿مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ﴾ ذنب كبير ودخل فيها عصيان النبيء ﷺ، وأن يُسألَ ما يشُقُّ عليه، أو ما ليس عنده، فإنّ تخييرهن تحريم ذلك السؤال، ولا يراد الزنى لأنّه لا يُتصَوَّرُ منهنَّ، ولقوله: ﴿مُّبَيِّنَةٍ﴾ ظاهرة جدًّا كما يدلُّ له التشديد، والزنى لا يظهر كذلك، يستعمل أبانَ وبيَّن بالشدِّ لازمًا كما هنا ومتعدِّيًا.

﴿يُضَاعَفْ لَهَا﴾ أُنِّثَ الضميرُ باعتبار معنى «مَنْ» ﴿ٱلْعَذَابُ﴾ يوم القيامة، أو فيه وفي الدنيا ﴿ضِعْفَيْنِ﴾ يكون ذنبها كذنبين، فيكون لها حدَّان على ذنب واحد، وقال أبو عمرو وأبو عبيدة: الضعفان أن يجعل الواحد ثلاثة فيكون عليها ثلاثة حدود فيما فيه حدٌّ، والصحيح الأوَّل.

[قلت:] ووجه ذلك فضلُهنَّ وفضلُ النبيء ﷺ والنعمةُ عَلَيهِنَّ، كما جعل إرث الرجل وديَّته وما دونها ضعفُ ما للمرأة، ودية الوجه ضعف ما للرأس، ودية الرأس ضعف ما لسائر البدن، والعقابُ على الذنب الواقع في الوقت الأفضل أو المكان الأفضل كالجمعة، ورمضان، والمسجد أعظم من العقاب على الذنب الموقع في غيره، وعُدَّ ذنبًا في حقِّ الأنبياء ما لم يعد في غيرهم، وقيل لزين

العابدين[1]: «إنَّكم أهل بيت مغفورٌ لهم» فغضب فقال: «لمسيئنا ضعفان من العذاب، كنساء النبيء، ولمحسننا ضعفان من الأجر مثلهنَّ».

﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الضعاف ﴿عَلَى اللهِ يَسِيرًا﴾ لا يمنعه عنكنَّ كونكنَّ نساء للنبيء ﷺ ، بل هو سبب للضعاف لأنَّه نعمة عظيمة عليكنَّ، ولأنَّ فعل الكبيرة خيانة له ﷺ .

﴿وَمَنْ يَّقْـنُتْ﴾ يخضع بالإيمان ﴿مِنكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا﴾ عملاً صالحًا كصلاة وصوم وزكاة، وذلك غير القنوت، وإن فسَّرنا القنوت بالطاعة فهي طاعة رسوله بحسن العشرة، والإحسان إليه، فالمعنى: من يطع الله بالعمل الصالح ورسوله بالإحسان إليه، وقيل: القنوت له ﷺ بالخضوع والعمل الصالح له أيضًا، وهو القيام بمصالحه، وخدمة البيت، وإنَّما ذكر الله تعظيمًا له ﷺ ، وقيل: إنَّ القنوت السكوت عن طلب ما ليس عنده والعمل الصالح طاعة الله عزَّ وجلَّ .

﴿نُّوتِهَآ أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ﴾ فما فيه عشر حسنات لغيرها فلها فيه عشرون وما فيه خمس وعشرون فلها فيه خمسون، فذلك في الآخرة وذلك لمزيد كرمهنَّ على الله، وسواء ما عملنه في حياته ﷺ وما عملنه بعد موته.

وقيل: سبب التضعيف أنَّهنَّ يعملن لرضى الله ويعملن لرضى رسوله ﷺ ، وفي قلوبهنَّ أن يعملن لرضاه ولو عاش إلى يوم القيامة، فلا ينقص عملهنَّ لرضاه

١- زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب مولده سنة ٣٨هـ في المدينة المنوَّرة، رابع الأئمَّة الاثني عشر عند الإماميَّة، ويقال له علي الأصغر وأخوه علي الأكبر، مات في وقعت كربلاء سنة ٦١هـ. وكان ورعا سَخيًّا حليما ولم يكن للحسين عقب إلاَّ منه مات سنة ٩٤هـ. الأعلام للزركلي، ج٤، ص٢٩٧.

بموته، ويضعف ما قيل: إنَّ أحد الضعفين في الدنيا والآخر في الآخرة، وأحد الأجرين في الدنيا والآخر في الآخرة.

﴿**وَأَعْتَدْنَا لَهَا**﴾ في الآخرة زيادة على الأجرين الشاملين لرزق سائر أهل الجنَّة الذي تناله ﴿**رِزْقًا كَرِيمًا**﴾ عظيم القدر، وإن فسِّر بمطلق رزق الجنَّة المشترك فيه أهل الجَنــَّة فإنَّما ذكره في مقابلة طلبهنَّ رزق الدنيا، وكَرَمُه أنَّه ليس كرزق الدنيا، وأنَّه لا آفة فيه بزواله أو نقصه أو كسبه أو التضرُّر به في البطن.

وقيل: الرزق الكريم في الدنيا، وذكره في مقابلة أَنَّ سبب النزول طلب الرزق، كذا قيل، لكن المطلوب مع ما في الآخرة.

﴿يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾ وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا ﴿٣٤﴾﴾

خصائص أهل النبوءة

﴿**يَا نِسَآءَ النَّبِيءِ لَسْتُنَّ كَأَحَد مِّنَ النِّسَآءِ**﴾ ليست إحداكنَّ كشخص من النساء غيركنَّ من أهل زمانكنَّ أو بعده، لا تساوي امرأة من غيركنَّ امرأة منكنَّ لشرف الزَّوجيَّة لرسول الله ﷺ، وأمومة المؤمنين، والتقدير: ليست أحدكنَّ، كما قال: ﴿كَأَحَد﴾، وإنَّما لم يُؤنَّث لأنَّ المراد كشخص أحد، بتنوين شخص، ونعته بـ«أَحَدٍ».

أو «كَأَحَد» بمعنى جماعة فيقدَّر مضاف، أي من جماعات النساء، فالمعنى: ليست جماعتكنَّ كجماعة من جماعات النساء، كما استعمل للمتعدِّد في قوله تعالى: ﴿لاَ نُفَرِّق بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ﴾ (سورة البقرة: ٢٨٥) إذا لم نقدِّر: بين أَحَدٍ وأَحَدٍ.

ولا يعترض على الوجهين بفاطمة، فإنَّ كلَّ واحدة من نسائه ﷺ أفضل منها في جهة، وفاطمة أفضل في أخرى، فإنَّ كلَّ واحدة أفضل من جهة الزَّوجيَّة والأمومة، وفاطمة أفضل من جهة أنَّها بضعة من النبيء ﷺ .

وذكر الشريف الرضي أنَّ همزة «أَحَد» عن واو في كلِّ موضع، وقال الفارسي: إنَّ المستعمل في النفي العامِّ همزته همزة أصل مختصٌّ بالعاقل، وإنَّ غيره عن واو.

﴿ ان اتَّقَيْــتُنَّ ﴾ حذرتنَّ مخالفة حكم الله ورضى رسوله ﷺ ، والاتِّقاء موجود منهنَّ فالمراد بالشرط المبالغة في التحضيض كأنَّ الحاصل غير موجود، أو يقدَّر: إن دمتنَّ، أو يترَّل وجوده كالعدم تتريلا لميلهنَّ إلى الدنيا، في سؤالهنَّ له ﷺ التوسعة كالملوك، متزلة الخروج من التقوى لعظم شأنهنَّ.

سواء في هذه الأوجه جعلناه قيدا لِلَّيْسيَّة المغنية عن جوابه كما هو الظاهر، و«لاَ تَخْضَعْنَ» تفريعا، أم جعلنا جوابه في قوله: ﴿فَلاَ تَخْضَعْنَ﴾ للأجانب من الرجال ﴿بِالْقَوْلِ﴾ لا تلنَّ به بل غلِّظنه حفظا لحرمته، **وذلك من محاسن النساء وهكذا السنَّة إلى الآن** ﴿فَيَطْمَعَ﴾ فيكنَّ ﴿الذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ حبَّ الزنى.

﴿وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفًا﴾ في الشرع لبعده عن الريبة والأطماع، وعن تمريض القلوب بالمبالغة في التغليظ.

وقال الضحَّاك: قولا عنيفا، فيكون تفسيرا للنهي عن الخضوع بالقول، ولكن كيف يكون العنف معروفا في الشرع ولم يتقدَّم قبل ما هنا أنَّه معروف.

والتفسير بقول: أذن لكنَّ فيه هكذا على الإطلاق، أو بذكر الله وما يحتاج إليه من الكلام خروج عن المقام.

[قلت:] بقي ما إذا لم تلن المرأة و لم تغلظ الجواب أنَّ نفس الرجل مائلة إلى المرأة، فإذا لم تغلِّظ عدَّه لينا فهي تعتاد الغلظة لكلِّ رجل، لئَلاَّ توافق من في قلبه مرض أو من ليس في قلبه، فإنَّها تخاف أن يجلب اللين المرض إليه ولا بأس أن تلين لمن لا اشتهاء له.

﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ اثبتن فيها، بمعنى لا تخرجن منها إلاَّ لضرورة أو ما لابدَّ منه، وأمَّا فيها فلهنَّ التحرُّك.

(صرف) والأصل: «اقررن» (بفتح الراء الأولى) مضارع «قرَّ» الذي أصله «قرِر» بكسرها، نقلت فتحة الراء إلى القاف، فسقطت همزة الوصل لتحرُّك ما بعدها.

قال ابن مسعود: قال رسول الله ﷺ : «**إنَّ المرأة عورة فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان، وأقرب ما تكون من رحمة ربِّها وهي في قعر بيتها**»[١] رواه الترمذي.

وعن أنس: جاءت النساء إلى رسول الله ﷺ فقلن: يا رسول الله ذهب الرجال بالفضل والجهاد في سبيل الله تعالى، فهل لنا عمل ندرك به فضل المجاهد في سبيل الله تعالى؟ فقال عليه السلام : «**من قعد منكنَّ في بيتها فإنَّها تدرك عمل المجاهدين في سبيل الله تعالى**»[٢] رواه البزار. وعنه ﷺ : «**خير الرجال من لا**

١- الشطر الأول منه رواه **الترمذي** في كتاب الرضاع (١٦) باب رقم١١٧٣. ورواه **ابن حبَّان** في صحيحه، باب ذكر الأمر للمرأة بلزوم قعر بيتها، رقم٥٥٧٠. من حديث ابن مسعود.

٢- أورده **ابن كثير** في تفسيره، ج٦، ص٤٠٥. **والسيوطي** في الدر: ج٥، ص١٩٧. من حديث أنس.

يلقى النساء، وخيرهنَّ من لا تلقاهم».

وظاهر إضافة البيوت لهنَّ أنَّها إملاك لهنَّ، ويدلُّ له أنَّها أثبتت لهنَّ بعد موته ﷺ بلا إرث، والأنبياء لا تورث، وأنَّ عمر رضي الله عنه استأذن عائشة أن يدفن في بيتها فأذنت له، ولو كان لبيت المال لم يستأذن و لم تأذن له ولأنكر الصحابة.

﴿وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الأُولَىٰ﴾ الأصل: لا تتبرَّجن، حذفت إحدى التاءين، أي لا تظهرن محاسنكنَّ من تبختر، وتحسين المشية، واللباس الحسن، وجمع الشعر خلف الرأس متكعِّبًا، وظهور القرط والقلادة والعنق والزينة في الوجه كالنقط فيه، وامتداد القامة بقصد.

والمراد: **مثلَ تبرج الجَاهليَّة**، و«الْجَاهلِيَّة» نعت لمحذوف تقديره: الأزمنة الجَاهليَّة، أو الأَيَّـــام الجَاهليَّة، والجَاهليَّة نسب إلى الجاهلين بحذف علامة الجمع، أو إلى الجهلاء بحذف زنة الجمع، أي الأزمنة التي أهلها جهلاء، أي تبرُّج نساء الأزمنة الجَاهليَّة.

وهي ما بين نوح وإدريس عليهم السلام، كان نساء السهل صباحًا يتبرَّجن ورجاله قباحًا عكس أهل الجبل، فشهد نساءهم في عيد رجل من أهل الجبل فأخبر قومه فاختلطوا فظهر الفحش. وعن الحكم بن عيينة: بين آدم ونوح ثمان مائة سنة رجالهم حسان ونساؤهم قباح، وكنَّ يراودْنَهُم وذلك الجَاهليَّة الأولى. وقال الكلبي: ما بين نوح وإبراهيم هي الجَاهليَّة الأولى فعند من أثبت ما قبل فهذه الثانية، وكذا نقول فيما يأتي.

فقد قيل: الأولى زمان نمرود، تلبس ثوبًا رقيقًا وتبرز في الطريق، وقيل: زمان إبراهيم، والثانية: زمان سَـــيِّدنَا محمَّد ﷺ قبل بعثه، وقيل: زمن داود وسليمان تلبس ثوبًا جانباه مفترقان. وقال المبرِّد: يكون **لزوج المرأة نصفها الأسفل ولخدنها الأعلى**. وقيل: ما بين موسى وعيسى. وقيل: ما بين عيسى وسيِّدنا محمَّد ﷺ .

ويجوز أن تكون الأولى ما قبل الإسلام والثانية أهل الفسق في الإسلام، وقيل: قوم في آخر الزمان[1]. وقيل: **قد تذكر الأولى وإن لم تكن لها أخرى كأنَّه قيل الجَاهليَّة المتقدِّمة**، ولا يلزم من تَقَدُّم الشيء وجود مثله بعده.

﴿وَأَقِمْنَ الصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ الزَّكَوٰةَ﴾ خَصَّهما بالذكر ترغيبًا فيهما ولأنَّهما أساس العبادات البدنيَّة والماليَّة. **﴿وَأَطِعْنَ اللهَ وَرَسُولَهُۥ﴾** في كلِّ فعل وترك ممَّا يعمُّ الناس أو النساء، ولا سيما ما أُمِرتُنَّ به أو نُهيتُنَّ عنه بخصوصكنَّ.

﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾ إنَّما أراد الله ذلك لا عكسه، ولا عبثًا ولا إضلالاً فَجدُّوا فإنَّ الأمر جدٌّ.

[قلت:] والرجس يشمل السوء من الذنب والشرك والشيطان والشكِّ والبخل والطَّمع والهوَى والبدعة والعذاب وغير ذلك، و«الـ» للجنس أو للاستغراق، والتطهير التحلية بالتقوى، أو تأكيد لِلإذْهَاب، أو الصون البليغ عن المعصية بَعْدُ.

(نحو) واللام للتأكيد والمصدر ممَّا بعدها مفعول به، إنَّما يريد الله إذهابه الرِّجس وتطهيركم، أو للتعليل والمفعول محذوف، إنَّما يريد الله أمركم ونهيكم ليذهب، أو إنَّما يريد الله منكم التوبة. و«أَهْلَ» منادى بحرف محذوف، أو مفعول به لـ«أعني»، أو منصوب على الاختصاص.

و«ال» في «الْبَيْت» للعهد، أو عوض عن المضاف إليه، أي بيت النبيء ﷺ، وهو بيت البناء للسكنى لا بيت القرابة والنسب، ولا المسجد النبوي كما قيل، فالمراد بـ﴿أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ نساؤه ﷺ ورضي الله عنهنَّ، لأنَّ المراد قبلُ وبعدُ في الآيات هُنَّ.

١- لعل هذا هو الصحيح فنساء زماننا هُنَّ كما قال المبرِّد.

أخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن عكرمة عن ابن عبَّاس: نزلت في نساء النبيء ﷺ خاصَّة، قال عكرمة: من شاء باهلتُه إنَّها في أزواج النبيء ﷺ، وأخرج الطبري وابن مردويه عن عكرمة: إنَّ الآية في أزواج النبيء ﷺ لا في قرابته الذين تذهبون إليهم، وكان عكرمة ينادي في السوق: إنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ﴾ إنَّما نزل في أزواج النبيء ﷺ، وكذا أخرج سعد عن عروة.

و«ال» في «الْبَيْت» لجنس بيوت النبيء ﷺ، وهنَّ بيوت أزواجه التي بنى لهنَّ، ولا بيت له سواهُنَّ، أو كأنَّهن بيت واحد باعتبار سكناهُنَّ، وقد جمع في قوله: ﴿لَا تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيءِ﴾ (سورة الأحزاب: ٥٣) لِئلاَّ يتوهَّم بيت زينب خاصَّة إذ نزل في شأنه.

وإنَّما كان الضمير ضمير الذكور نظرًا إلى لفظ «أَهْلَ»، ولتعظيمنَّ، أو لتغليبه ﷺ لشمول الأهل له، وذلك كما قال إبراهيم لسارة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنَ امْرِ اللهِ، رَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكَاتُهُ، عَلَيْكُمُ، أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ، حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ (سورة هود: ٧٣)، على أنَّ هذا من كلام إبراهيم عليه السلام. وقال موسى لزوجه: ﴿امْكُثُوا إِنِّيَ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ (سورة القصص: ٢٩). وقد قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ ءَايَاتِ اللهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ كما قال عكرمة ومقاتل.

(سيرة) وروى بعض عن أبي سعيد الخدري وقتادة ومجاهد أنَّهم عليٌّ وفاطمة والحسن والحسين، وأنَّه ﷺ أدخل فاطمة تحت ثوب من شعر أسود مُرَحَّل (بحاء مهملة) أي صُوِّر فيه صُور الرِّحَال، أو بالجيم أي صور فيه صور الرجال، لعلَّها بلا رؤوس، أو قبل تحريم الصور في الثياب وغيرها، فجاء عليٌّ فأدخله، فالحسن فأدخله، فالحسين فأدخله فقرأ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ﴾. وعن أنس: أنَّ رسول الله ﷺ وعلى آله يذهب تسعة أشهر إلى صلاة الفجر،

ويمرُّ على باب فاطمة ويقرأ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾.

وقال زيد بن أرقم: أهل البيت آل عليٍّ وآل عقيل وآل جعفر وآل عبَّاس. وأحاديث غيرنا في هذ الشأن كثيرة صارفة إلى قرابته في النسب.

﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُنَّ مِنَ ـــ ايَاتِ اللهِ﴾ القرآن **﴿وَالْحِكْمَةِ﴾** السنَّة. اذكرن ذلك للناس تذكيرًا أو وعظًا ولا تنسينهُ. وعن ابن عبَّاس: كان في المصحف «السنَّة» بدل «الحكمة». ولم يقل: ما يترل في بيوتكن ليشمل ما نزل في غير بيوقمنَّ، ويتلى فيهنَّ تعليمًا أو تعلُّمًا، وأيضًا تارة يترل في بيت هذه وتارة في بيت هذه.

وقيل: **المراد بالحكمة القرآن أيضًا فإنَّهُ آيات وحكمة،** [قلت:] ويتقوَّى هذا بأَنَّ التلاوة لم تعرف للسنَّة بل للقرآن، والآية تذكير لَهُنَّ بنعمة الله عزَّ وجلَّ، إذ جعل بيوقمنَّ مهبطًا للوحي.

﴿إِنَّ اللهَ كَانَ لَطِيفًا﴾ يتصرَّف في الأمور والأشياء الدقيقة بالإيجاد والإعدام والزيد والنقص، أو رحيمًا بعباده **﴿خَبِيرًا﴾** عليما بالأمور والأشياء الدقيقة، ومن ذلك علمُه بمن يصلح للنبوءة، وبمن يتأهَّل لأن يكون من أهل بيته، وقيل: ﴿لَطِيفًا﴾: ناظر للآيات لدقَّة إعجازها، و﴿خَبِيرًا﴾ ناظر للحكمة لمناسبتها للخبرة.

﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾﴾

ما أعدّه الله من الكرامة للصالحين والصالحات

(سبب النزول) ﴿إنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ﴾ قالت أمُّ سلمة ــ كما لأحمد والنسائي ــ للنبيء ﷺ: «ما لنا لا نذكر في القرآن كما تذكر الرجال»؟ ولغير أحمد: قالت ذلك نساء النبيء ﷺ وعلى آله، ولغيره أيضا: قالت ذلك أمُّ سلمة وأنيسة بنت كعب الأنصاريَّة، وقالت أمُّ عمارة الأنصاريَّة، كما لابن جرير والترمذي: «يا رسول الله، ما أرى كلَّ شيء إلاَّ للرجال؟ وما أرى النساء يذكرن بشيء».

ودخلت نساء على نساء النبيء ﷺ ــ كما لابن جرير ــ فقلن: «قد ذكركنَّ الله تعالى في القرآن، وما يذكرنا بشيء، أما فينا ما يذكر»؟. وفي رواية: لَمَّا ذكر أزواج النبيء ﷺ قالت النساء: «لو كان فينا خير لذكرنا». وفي رواية: إنَّ أسماء بنت عميس قالت ذلك حين رجعت من الحبشة مع زوجها جعفر بن أبي طالب، فأجابهنَّ الله، وأجاب أسماء وأنيسة وأمَّ سلمة وأمَّ عمارة بإنزال قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ... عَظِيمًا﴾ والمعنى: من انقاد من الذكور والإناث لحكم الله تعالى، أو من فوَّض أمره إلى الله عَزَّ وَجَلَّ .

[قلت:] واعلم أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ ذكر النساء إجمالا في القرآن، وخصَّ أزواج النبيء ﷺ بسورة هي سورة التحريم، وخاطب فيها حفصة وعائشة في قوله عَزَّ وَجَلَّ : ﴿إِن تَتُوبَآ إِلَى اللهِ...﴾ (سورة التحريم: ٤) ، وذكرن أيضا خُصُوصًا لا إجمالا في هذه السورة في آيات مثل قوله تعالى: ﴿يَا نِسَآءَ النَّبِيءِ﴾، وَقوله: ﴿قُلِّ لأَزْوَاجِكَ﴾.

﴿وَالْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ﴾ أخَّره إيذانا بأنَّ الانقياد للأحكام لا ينفع إلاَّ مع التصديق بكلِّ ما يجب التصديق به. ﴿وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ﴾ القنوت المداومة

على الطاعة ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ﴾ في الأقوال والأفعال، وعن سعيد بن جبير: في إيمانهم ﴿وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ على المصائب والمكاره، ومشاقّ العبادة وعن الشهوات ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾ الخشوع التواضع لله بالقلوب والجوارح مع إعظام وخوف.

[قلت:] ويتفاوت الناس فيه حتَّى إنَّ منهم من لا يعرف في صلاته هل كان أحد في يمينه أو شماله، كما روي أنَّ عبد الله بن الزبير رضي الله عنه صبَّ على رأسه ماء حارٌّ في سجوده ولم يشعر حتَّى فرغ ورأى الأثر.

﴿وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ﴾ لوجه الله تعالى فرضا ونفلا بما لهم، وأبدانهم بالخدمة والنفع بالألسنة ﴿وَالصَّآئِمِينَ وَالصَّآئِمَاتِ﴾ فرضا ونفلا، وعن عكرمة الفرض، فيناسبه أن يفسَّر الصدقة بالفرض كرمضان، ويقال: من تصدَّق كلَّ أسبوع بدرهم، وصام من كلِّ شهر أيـّـام البيض، فهو من المتصدِّقين والصائمين أو من المتصدِّقات والصائمات.

﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾ عن الانكشاف بها في غير ما بين الأزواج والسيِّد والسريَّة.

[قلت:] وعن وصفها ومسِّها ولو من فوق الثوب وعن التلذُّذ بمسِّها، ولو من فوق الثوب، والتلذُّذ بالنظر إليها من نفس الإنسان، ولذلك ولكون الفرج مركب الشهوات التي لا يكاد أحد يغلبها إلاَّ من حفظه الله ذكرها بالحفظ لا بالستر.

﴿وَالذَّاكِرِينَ اللهَ كَثِيرًا﴾ ذكرا كثيرا، أو زمانا كثيرا، ويؤيِّد الأَوَّل قوله تعالى: ﴿اذْكُرُواْ اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ (سورة الأحزاب: ٤١) ، فقس على هذا. ﴿وَالذَّاكِرَاتِ﴾ أخَّره ليكون على وزان ما سبق، وهو في نية التقديم على قوله:

﴿اللهَ كَثِيرًا﴾، أو يقدَّر له والذاكرات الله كثيرا، كما أخَّر «الْحَافِظَات» لذلك، وهو في نية التقديم، وضمير الذكور للتغليب، أو يقدَّر: والحافظات فروجهنَّ.

وختم بالذكر لشرفه، ﴿وَلَذِكْرُ اللهِ أَكْبَرُ﴾ (سورة العنكبوت: ٤٥) ، وهو ذكر باللسان والقلب معا، أو بالقلب، وعن مجاهد لا يكتب الرجل من الذاكرين الله كثيرا حتَّى يذكر الله قائما وقاعدا ومضطجعا، **ومراده الإكثار** وليس في قُوَّة البشر اتِّصَال ذلك، ويقال: مدار الكثرة على العرف، وعن أبي سعيد الخدري عن رسول الله ﷺ : «**من أيقظ أهله وصلّيا ركعتين، كتبا في تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات**». وعن عكرمة وغيره: ذكر الله شكر نعمه، وهو خلاف الظاهر.

﴿**أَعَدَّ اللهُ لَهُم**﴾ لأجل تلك الصفات ﴿**مَّغْفِرَةً**﴾ لذنوبهم ﴿**وَأَجْرًا عَظِيمًا**﴾ وهو الجنَّة وما فيها لأعمالهم، وعن عطاء: دخل في ﴿الْمُسْلِمِينَ...﴾ من فوَّض أمره إلى الله، وفي ﴿الْمُومِنِينَ...﴾ من أقرَّ بالله ورسوله موقنا، وفي ﴿الْقَانِتِينَ...﴾ من أدَّى الفرض وَالسُّنَّة، وفي ﴿الصَّادِقِينَ﴾ من لا يكذب، وفي ﴿الصَّابِرِينَ...﴾ من صبر على الطاعة والمصيبة وعن المعصية، وفي ﴿الْخَاشِعِينَ...﴾ من لا يعرف من بجانبه في الصلاة، وفي ﴿الْمُتَصَدِّقِينَ...﴾ من تصدَّق في كلِّ أسبوع بدرهم، وفي ﴿الصَّائِمِينَ...﴾ من صام أيَّام البيض، وفي ﴿الْحَافِظِينَ...﴾ من حفظ فرجه عمَّا لا يحلُّ، وفي ﴿الذَّاكِرِينَ...﴾ من صلَّى الخمس.

﴿وَمَا كَانَ لِمُومِنٍ وَلَا مُومِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ

وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴿٣٩﴾ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٤٠﴾﴾

حكمة زواج الرسول بزينب بنت جحش

﴿**وَمَا كَانَ لِمُومِنٍ وَلاَ مُومِنَةٍ**﴾ فاعل كان المصدر من قوله: ﴿أَن تَكُونَ﴾ ولا خبر لها، لكن لا مانع من أن يكون ذلك المصدر اسمها و«لِمُومِنٍ» خبرها، وفي «تَكُونَ» الوجهان. ﴿**اذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ، أَمْرًا**﴾ أوجبه، أو حرَّمه، أو كرهه، أو ندب إليه، أو أباحه، وإنَّما ذكر رسوله لأنَّ القضاء يُوحى إليه ولتعظيمه، وللإشعار بأنَّ ما قاله لكم هو من الله، فصدِّقوه، لأنَّه لا يكذب، ولا يقول من نفسه، ويجوز أن يكون أصل الكلام: إذا قضى رسوله أي حكم عليكم أو لكم، فذكر الله تقوية له كقوله تعالى: ﴿فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ، ولِلرَّسُولِ﴾ (سورة الأنفال: ٤١) في تفسير.

﴿**اَن تَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ**﴾ ماهم إلاَّ الاتِّبَاع، وهو اسم مصدر لـ«تخيَّر»، كالطيرة لتطيُّر، قيل: ولا ثالث لهما. وضمير الجماعة في «لَهُمْ» لمؤمن ومؤمنة لأنَّهما نكرتان بعد السلب، والعطف بالواو لا بـ«أو».

﴿**مِنَ اَمْرِهِمْ**﴾ متعلِّق بـ«الْخِيَرَة»، أي أن يكون لهم الاختيار في أمرهم، أو متعلِّق بحال من «الْخِيَرَة» أي ناشئة من أمرهم، و«مِن» للابتداء، والهاء في

«أَمْرِهِمْ» عائدة إلى «مُومِنٍ» و«مُومِنَةٍ» والإضافة للجنس، أي من أمورهم السائقة إلى المخالفة؛ أو «مِن» بمعنى في، كالوجه الأوَّل، و«أمر» هو أمر الله المقضي، والهاء لهما أيضا.

(نحو) وأضيف أمر الله إليهم لأنَّهم أمروا به، وإن أعيد الهاء إلى الله ورسوله ففيه جمع الله وغيره في ضمير، ومرَّ أنَّه لا يحسن[1]، وفيه تفكيك الضمائر، ومن الجائز أن تردَّه إلى الله وحده على سبيل التعظيم، وهو خلاف الظاهر، ولو كان المراد هنالك الله وحده أو رسوله وحده. [قلت:] ولا نسلِّم أنَّ الأصل إفراد الضمير في «لَهُمْ» فضلا عن أن يقال: إنَّه عدل عنه ليفيد أنَّ الجماعة لا تجد الاختيار فكيف يجده الواحد؟ وإنَّ ضمير الجمع في «لَهُمْ» تابع لذلك.

﴿وَمَنْ يَّعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ،﴾ في الأمر أو النهي ﴿فَقَد ضَّلَّ﴾ حاد عن الصواب ﴿ضَلَالاً مُّبِينًا﴾ ظاهرا.

(سبب النزول) قال رسول الله ﷺ لزينب بنت جحش، وهي بنت عمَّته أميمة بنت عبد المطلب: «تزوَّجي زيد بن حارثة قد رضيته لك»، فقالت: لكنِّي لا أرضاه، إنِّي أيِّم قومي وبنت عمَّتك وحسبي أفضل وهو عبد، ووافقها أخوها عبد الله، فنزلت الآية فتزوَّجته، وأصدقها عشرة دنانير وستِّين درهما وخمارا ودرعا وملحفة وخمسين صاعا من طعام — أي بُرٌّ — وثلاثين من تمر.

وقيل: نزلت في أمِّ مكتوم بنت عقبة بن معيط، أوَّل امرأة هاجرت وهبت نفسها للنبيء ﷺ ، فزوَّجها زيد بن حارثة، فقالت: أردت رسول الله ﷺ فزوَّجني عبده، والصحيح في زينب بنت جحش إذ زوَّجها بزيد

١- انظر: تيسير التفسير، ج٣، ص٥٢٢، سورة المائدة آية رقم ٢٤.

وهي تكرهه.

﴿وَإِذْ تَقُولُ﴾ اذكر إذ تقول ﴿لِلذي أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ﴾ بالإسلام زيد بن حارثة ﴿وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ﴾ بالإعتاق وحسن التربية، والتبنِّي والتعليم رضي الله عنه، وذكره بهذه الأوصاف لبيان منافاة حاله لإظهاره ﷺ خلاف ما أضمر، لكن على وجه جائز، وذلك أنَّه لإنعامه على زيد لا يستحيي من تزوُّج زوجه زينب، ولا سيما وقد كرهها زيد بعد تزوُّجه بها للسانها، أو كرهها ليتمتَّع بها رسول الله ﷺ ، والناس في غيظ منه إذ تزوَّج زوج متبنَّاه.

﴿أَمسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ﴾ عدَّاه بـ«عَلَى» لتضمُّن معنى احبس، أي احبس على نفسك، وهذا ممَّا عمل فيه عامل ضميرين لمسمًّى واحد، وهو جائز في كلِّ فعل، لأنَّ أحدهما بحرف جرٍّ، وهو كثير في القرآن، ولكون أحدهما بحرف جرٍّ، وغلط من قال بخلاف ذلك وتأوَّل.

وزوجه زينب بنت جحش تستعلي عليه بنسبها وتضرُّه بلسانها، فقال: يا رسول الله اشتدَّ عليَّ لسان زينب واستعلاؤها عليَّ بشرفها، وأردت طلاقها ؟ فقال ﷺ : امسك عليك زوجك ﴿وَاتَّقِ اللهَ﴾ في حقِّها واصبر لها.

﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيه﴾ مظهره، والعطف على «تَقُولُ»، والذي يخفيه والله يبديه أنَّه أوحى الله تعالى إليه أنَّ زيدا سيطلِّقها وتتزوَّجها، وقال قتادة: إنَّه ﷺ يخفي إرادة طلاقها، وقيل: إرادة نكاحها، وقيل: أخفى نكاحها لو طلَّقها زيد.

[قلت:] وحبُّه مجرَّد خطور بباله ﷺ وليس ذلك رغبة في زهرة الدنيا، بل من الأمر الذي طبع عليه البشر، ولا سيما أنَّ ذلك بعد العلم بأنَّ زيدا

يريد فراقها.

وقيل: أتى ﷺ بيتها فرآها تسحق طيبا بفهر، فقال: «سبحان الله خالق النور تبارك الله أحسن الخالقين»، وقيل: أتى زيدا لحاجة فأبصر زينب في درع وخمار وكانت بيضاء جميلة ذات خلق من أتمّ نساء قريش، فأعجبته فقال: «سبحان الله مقلّب القلوب»، وسمعته فأخبرت زيدا بذلك حين جاء ولا بأس بنظر الفجأة، وقيل: جاء إلى زيد فلم يجده في بيته فعرضت عليه الدخول فلم يدخل وسمعته يقول: «سبحان الله العظيم سبحان مصرف القلوب» فأخبرته بما قال ﷺ فجاءه، فقال: هلا دخلت يا رسول الله لعلّها أعجبتك فأطلّقها لتتزوَّجها، فقال: امسك، وقال لها: أطلّقك ليتزوَّجك، فقالت: أخشى أن تطلّقني ولا يتزوَّجني، **وأنكر العلماء القولين جدًّا.**

ولا أرى فيهما بأسا لأنّ ذلك بأمر الله تعالى، ولأنّ الأنصار يطلّقون بعض نسائهم ليتزوَّجهنّ المهاجرون، ويجوز الآن مثل ما فعلوا، وإنّما المحرَّم أن يطلب الرجل ذات زوج فترضى.

﴿وَتَخْشَى النَّاسَ﴾ مطلقا المنافقين وغيرهم، لا كلّ فرد خاف أن يقولوا تزوّج امرأة ابنه، أو يقولوا أمره بطلاقها ليتزوَّجها، عاتبه الله على قوله: «اَمْسِكْ...» مع علمه بقوله تعالى: ستكون من أزواجك.

فكان الأولى أن يسكت أو يقول له: نعم إن شئت فطلّقها، وكان الواجب المبادرة عند بعض، والأمر كذلك على الوجه الجائز ولا سيما إن لم يبادر بعد طلاقها وعدَّتها، ففيه عتاب إذ أراد الله أن يتزوَّجها لينسخ تحريم زوج المتبنّى بناء على أنّه قد كان تزوُّجها حراما، وقيل: لم يكن حراما.

﴿وَاللهُ﴾ وحده، والعطف على «تَقُولُ» **﴿أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ﴾** حال من ضمير «تَخْشَى». قال عمر وابن مسعود وعائشة: لو كان رسول الله ﷺ يكتم

شيئا من الوحي لكتم هذه الآية، وكانت النساء لا يحتجبن، ولم يزل ﷺ يراها لا رؤية تشهٍّ.

﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا﴾ حاجة مهمَّة وهي ما قضى من صحبتها ولم يبق له ميل إليها، وفي الكلام حذف هكذا: وطرا وطلَّقها، واعتدَّت، وقيل: قضاء الوطر التطليق، وكأنَّ التطليق حاجة قصدها وأحبَّه لشدَّة لسانها، فيقدَّر: واعتدت بعد قوله: ﴿وَطَرًا﴾.

وإن شئت فقدِّر العدَّة بعد قوله: ﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾، أي زوجناكها بعد العدَّة، وقد قيل: بعد مرور النبيء بها لم يستطع زيد من نفسه سبيلا إليها، وقالت: ما كنت امتنع منه، ولكن الله منعني منه، وروي أنَّه لم يتمكَّن من الاستمتاع منها ويريد القرب فيتعطَّل من نفسه.

﴿زَوَّجْنَاكَهَا﴾ من عندنا بلا وليٍّ ولا شهود، ولا عقد ولا صداق، وكانت تفتخر على سائر أزواجه ﷺ بأنَّكنَّ زوَّجكنَّ أولياؤكنَّ وأنا زوَّجَنِي ربِّي، وإنَّ جدِّي وجدَّه واحد، والسفير جبريل بين الله عز وجل وبينه ﷺ .

فقيل: لَمَّا انقضت عدَّتها أمر أنسا أن يذكره عندها أنَّه ﷺ يذكرك، فقالت: أو أمر ربِّي فقامت لمسجدها ونزل القرآن، فدخل عليها بلا إذن، وهي منكشفة الرأس، فقالت: هذا من الله بلا خطبة ولا شهادة ؟ فقال: الله تعالى المزوِّج، وجبريل الشاهد، وهذا نفس ما تقدَّم، فإنَّه أرسل أنسا تمهيدا لتزويج الله الموحى إليه بالوعد، وبعد إرساله أنسا أنجز الله الوعد، وذلك هو الصحيح.

وقيل: معنى زوَّجناك بمعنى أمرناك بتزوُّجها فتزوَّجها بلا وليٍّ ولا شهود ولا صداق، وقيل: لَمَّا انقضت عدَّتها أمر زوجها زيدا أن يقول لها: قد ذكرك رسول الله ﷺ ، ففعل وما كاد بنظر إليها إجلالا له ﷺ إذ خطبها، وَلَمَّا قال

لها ذلك قالت: أو أمر رَبـــيِّ؟ على حدِّ ما مرَّ آنفا، ولَمَّا تزوَّجها أولَمَ بشاةٍ وخبزٍ، وأكل الناس وأفضلوا.

﴿لِكَيْ لاَ يَكُونَ عَلَى الْمُومِنِينَ حَرَجٌ﴾ ضيق بتحريم زوج المتبنَّى، أو إثم، أو كلاهما بناء على جواز استعمال الكلمة في معنييها مطلقًا، أو في السلب، والبسط في أصول الفقه. ﴿فِي أَزْوَاجِ﴾ في تزوُّج أزواج ﴿أَدْعِيَآئِهِمْ، إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًا﴾ تمَّت حاجتهم منهنَّ وطلَّقوهنَّ، أو قضاء الوطر الطلاق ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ﴾ ما أراده من وقوع أو عدم ﴿مَفْعُولاً﴾ لا محالة ﴿مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيءِ﴾ ﷺ ﴿مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ،﴾ قطعه له وجعله نصيبًا، يقال: قطع له السلطان كذا وفرضه له. وذلك كنكاح تسع وتزوُّج بلا صداق ولا وليٍّ ولا شهود، وحسدوه، قيل:

وأظلم خلق الله من بات حاسدًا لمن كان في نعمائه يتقــلَّب

(نحو) ﴿سُنَّةَ اللهِ﴾ مفعول مطلق، أي سَنَّ الله ذلك سنَّة، أو منصوب على الإغراء بالخطاب، أي الزم سنَّة الله، أو عليك سنَّة الله، ولا تقدَّر عليه سنَّة بالنصب بـــ«عليه» على الإغراء، بمعنى لِيَلزَمْ، لأنَّ إغراء الغائب ضعيف كقولهم: عليه رجلا ليسني، وقيل: اسم الفعل لا يعمل محذوفًا ﴿فِي الذِينَ خَلَوْاْ﴾ مضوا من الأنبياء ﴿مِن قَبْلُ﴾ من قبلك كما كان لداود مائة امرأة وثلاثمائة سرية، ولسليمان ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية، وأخرج ابن سعد عن محمَّد بن كعب القرظي أنَّ له ألف امراة، ولعلَّ الألف ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية. و«في» متعلق بـــ«سُنَّةَ» أو بعامله المحذوف ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا﴾ ذَا قَدَرٍ، أو عن قدر ﴿مَّقْدُورًا﴾ تأكيد وهو نعت، كظلٍّ ظَليلٍ وليل أَلْيَلُ ويوم أيْوَم.

والقدر ما في الخارج والقضاء في الأزل، والأولى أنَّ القدر هنا بمعنى القضاء،

إذ يكون كلٌّ بمعنى الآخر، والأمر واحد الأمور لا يتخلَّف وقد فضاه الله عَزَّوَجَلَّ ، أو ضدُّ النهي فاتبعه ولا تخالف، ومعنى اتِّبَاع من قبله ولزُوم طريقهم أن يعتقد أنَّ لَه ما لهم من التوسعة.

﴿**الذينَ**﴾ نعت، ولا دليل على القطع إلى الرفع أو النَّصب ﴿**يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ**﴾ إلى عباده ﴿**وَيَخْشَوْنَهُ**﴾ يخافونه مع تعظيم له وحده، كما قال: ﴿**وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا الاَّ اللهَ**﴾ ولا سيما في التبليغ، فبلَّغ بلا خشية أحدٍ كما بلَّغوا كذلك.

﴿**وَكَفَىٰ بِاللهِ حَسِيبًا**﴾ كافيًا للمكاره، فلا تخف مكروهًا من أحد، أو محاسبا على الذنوب، تهديدًا عليها.

(**فقه**) وتجوز التقيَّة عندنا عن الموت وما دونه من تلف عضو أو منفعته، وعن المال والعرض بحيث لا يَضُرُّ غيره بتقيَّة، كَبَهتٍ، وبلا معصية فلا يزني تقيَّةً، والبسط في الفروع.

ومنعت الصُّفْرِيَّة والأزارقة والنجديَّة التقيَّة في الدِّين عن النفس والعرض والمال وأباحوا المال والقتل بالذنب، وأوجبوا الهجرة بدل التقيَّة.

(**فقه**) ولنا توسيع: أكبره أن يقيم في بلد الشرك من أسلم فيه إن عَلِم دين الإسلام ووصل إليه ولو سرًّا. ولهم [أي الخوارج] تشديدات، وشتموا بريدة الأسلمي الصحابي لكونه يحافظ على فرسه وهو في الصلاة خوفًا من هروبه، وأخطأوا في ذلك، والحقُّ معه، يجوز له أن يمسك عنانها وهو يُصَلِّي إذا لم يجد إلاَّ ذلك.

(**فقه**) ومن المذهب أن تذهب من الصلاة لتخلِّص لَحمًا عن الهرِّ وشعيرًا عن الدَّابــَّة، ويبنى على ما مضى.

ولا تجوز التقيَّة للأنبياء في أمر الدين للآية، وقيل: بجوازها إلاَّ في التبليغ، وليس من التقيَّة قصَّة رسول الله ﷺ في شأن زوج زيد بل عرضٌ طبيعي، وَأَمَّا قول موسى: ﴿إِنَّنا نَخَافُ أَنْ يَّفْرُطَ....﴾ (سورة طه: ٤٥)، فكلام منه مع الله لا تقيَّة، وأيضا الذي في الآية الخشية وهي الخوف الشديد، أو الخوف مع تعظيم، فهي أخصُّ، ولا يلزم من نفي الأخصِّ نفي الأعمِّ، أو خاف القتل قبل أن يودِّي، وأمَّا ﴿لاَ يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ (سورة النمل: ١٠) فمعناه: لا يلحقهم خوف يعطِّلهم عن الطاعة والحقِّ.

﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ﴾ [قلت:] إذا كان الناس يقرأون القرآن وقرأوا لفظ محمَّد أو لفظ أحمد وجب عليهم في الأصحِّ أن يصلُّوا عليه، لأنَّ كلَّ واحد قد سمعه من غيره، والصلاة واجبة على من سمع ذكره، وفيه أقوال، وعلى كُلِّ حال أخطأ من ينهي الناس عن الصلاة عليه في سماعه من القارئ، أو يقول ليس بشرع.

ومعلوم أنَّ الصلاة عليه حينئذ ليست من القرآن، كما علم أنَّ «بلى» بعد ﴿أَلَيْسَ اللهُ بِأَحْكَمِ الْحَاكِمِينَ﴾ (سورة التين: ٨) ليس من القرآن، وقد أمر به ﷺ.

[قلت:] ومن الجهالة أن يسبقوا الداعي بالصلاة والسلام ويسمعون الاسم من الداعي بعد فراغهم، فلا يصلُّون ولا يسلِّمون استغناء بالنفل عن الفرض، لأنَّهما يفرضان عند ذكره، ومن أنكر جواز الصلاة والسلام عليه عند سماعه في القرآن فقد ضلَّ، ويصلِّي ويسلم عليه بصوت دون صوت القرآن إذا سمعوه في القرآن، ولا يتوهَّم أحدٌ أنَّ الصلاة والسلام عليه آية من القرآن، ولو خيف التوهُّم أُخبِر أنَّهما ليسا من القرآن.

﴿اَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾ ذكر الرجال دون الأبناء لأنَّ الكلام في زوج زيد زينب، وهو يومئذ رجل، وأيضا يلزم من نفي أن يكون أبا لرجل أن يكون أبا

لطفل، لأنَّ الرجوليَّة عن الطفوليَّة، بخلاف الطفوليَّة، فلا يلزم عنها أن يكون رجلاً، لأنَّه يمكن أن يموت قبل أن يكونه.

ولا حاجة إلى جعل الرجل من إطلاق الخاصِّ على العامِّ الذي هو الابن، ولا إلى قول: إنَّ الرجل من حين يولد، وإنَّما ذلك في مثل قوله تعالى: ﴿وَلِلرِّجَالِ نَصِيبٌ﴾ (سورة النساء: ٧) ، ﴿وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ...﴾ (سورة النساء: ١٢) ، وقوله ﷺ : «**فلأولى رجل ذكر**»[1].

والأبوَّة المنفيَّة شَرعيَّة ولغويَّة أَصليَّة، وهي بنوَّة الولادة أو الرضاع، وشهر أنه لا بنوَّة بالرضاع في اللغة، ومعلوم أنَّ زيدًا ابنٌ لحَارثَة وأنَّه لا مُراضعة بينه وبين رسول الله ﷺ ، فأخبرهم الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ التبنِّي لا يعتبر في النكاح ولا في غيره، ولا يثبت بنوَّة شَرعيَّة. ولم يقل: أبا أحد من الرِّجال أو أبا أحد منكم، لأنَّهم يعدون زيدًا منهم للمخالطة والسكنى.

وَأَمَّا أولاده ﷺ فماتوا في مَكَّة قبل البلوغ، كالقاسم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، وإبراهيم ولد في المدينة بعد نزول الآية، وهو ﷺ أبٌ أيضًا لابنه البالغ لو كان، فإنَّهم يعدُّونه من رجالهم.

ولا يبحث ببنوَّة الحسن والحسين له ﷺ لأنَّهما طفلان، وللعلم بأنَّ أباهما عليٌّ، وقد علمت أن المَنفيَّ أبوَّة الولادة والرضاع، فلا يشكل أَنَّهُ ﷺ أبو المؤمنين، نصَّ عليه الشافعيُّ وعليٌّ. وقرئ «وَأزوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُم وهو أبٌ لهم»، وعنه ﷺ أنَّه قال لعليٍّ: «أنا وأنت أبو هذه الأُمَّة» وذلك في التعظيم والشفقة،

١- قال ﷺ : «ألحقوا الفرائض بأهلها، فما بقي فللأولى رجل ذكر». رواه **البخاري** في كتاب الفرائض (٩) باب ميراث مع الأب والإخوة، رقم٦٧٣٧. ورواه **مسلم** في كتاب الفرائض (١) باب ألحقوا الفرائض بأهلها، رقم ٢ (١٦١٥). من حديث ابن عبَّاس.

وَكُلُّ نبيء أبٌ لأمَّته لذلك.

(سيرة) وإنَّما هو أبو ثلاثة بنين وأربع بنات، أوَّلهم القاسم وبه يكنَّى، ثمَّ زينب، ثمَّ عبد الله واسمه طاهر، ولد بعد نزول الوحي، ولذا سمِّي طاهرًا، ثمَّ أمُّ كلثوم ثمَّ فاطمة ثمَّ رقية ولدهم خديجة في مَكَّة، ثمَّ ابنه إبراهيم من سريَّته مارية القبطيَّة، وكلُّهم ماتوا قبله إلاَّ فاطمة فبعده بستَّة أشهر. وكلُّ نسائه ثيِّبات إلاَّ عائشة، ويروى عن الشعبي عن أبي جحيفة عن عليٍّ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إذا كان يوم القيامة نادى مناد من وراء حجاب يقول غضُّوا أبصاركم عن فاطمة بنت رسول الله ﷺ حتَّى تمرَّ إلى الجَنَّة**»[1].

﴿**وَلَكِن رَّسُولَ اللهِ**﴾ لكن كان رسول الله، قال هذا ليكون قد أثبت ما نفوه، ونفى ما أثبتوه، وكأنَّه قيل: لكن ثبتت له الرسالة التي هي كالأبوَّة الحقيقة في تعظيم المومنين له، وفي شفقته ونفعه لهم.

﴿**وَخَاتِمَ النَّبِيئِينَ**﴾ أكَّد به الرسالة المتضمِّنة للأبوَّة التعظيميَّة والشفقيَّة، لطول ما بينه وبين يوم القيامة، فذلك طول للأبوَّة المذكورة، بخلاف أبوَّة الأنبياء قبله فدون تلك المدَّة أيضًا، وقد يتكلَّم في الزيادة عمَّا هم عليه من تلك الشفقة على من يأتي بعدهم من الأنبياء، لعلمهم بأنَّهم يأتون بعدهم.

وأمَّا عيسى ﷺ فإذا نزل نزل بشريعة محمَّد ﷺ، يلهمه الله إيَّاها أو علَّمه إيَّاهَا ﷺ ليلة الإسراء، أو في غيرها كما روى أنَّه يسلِّم [بروحه] على عيسى في الطواف، ومن الشريعة إذا نزل عيسى أن لا تقبل الجزية بل الإيمان أو القتل.

١- أورده **ابن الجوزي** في الموضوعات، ج٢، ص٢٢٩، كتاب الفضائل والمثالب (٤٤) باب ذكر تزويج فاطمة بعلي، رقم ٧٨٣. **والهندي** في الكنز، ج١٢، ص١٠٨، رقم ٣٤٢١٩. من حديث علي.

قال ﷺ : «**إنَّ مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بنيانًا فأحسنه وأجمله إلاَّ موضع لبنة من زاوية من زواياه فجعل الناس يطوفون ويتعجَّبون له، ويقولون هلاَّ وضعت هذه اللَّبنة ؟ فأنا اللَّبنة، وأنا الخاتم للنبوءة، جئت فتمَّمت الأنبياء**»[1].

قال ﷺ : «**أنا محمَّد وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب**»[2]، والعاقب: أي الذي ليس بعده نبيء. ويروى: «**أنا محمَّد وأنا أحمد وأنا المقفَّى وأنا الماحي، ونبيء التوبة ونبيء الرحمة**»[3]، والمقفَّى: المجعول آخرًا.

﴿**وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا**﴾ من ذلك عمله بحكمة كونه خاتم النبيئين وإذا نزل عيسى عمل بسنَّته، وحجَّ وتزوَّج فهو من أمَّته، إلاَّ أنَّه لا يقبل الجزية عن أهل الكتاب المجوس، بل إن لم يؤمنوا قتلهم، وهذا دين سَيِّدنَا محمَّد إذا نزل عيسى، ويُصَلِّي إلى الكعبة.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا ﴿٤١﴾ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ﴿٤٢﴾ هُوَ ٱلَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ وَكَانَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا ﴿٤٣﴾ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُۥ سَلَٰمٌ ۚ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا ﴿٤٤﴾﴾

١- أورده **ابن الجوزي** في تفسيره: ج٦، ص٣٩٤. و**الزبيدي** في الإتحاف: ج٢، ص٣٠٢.

٢- رواه **البخاري** في كتاب المناقب، باب في أسماء الرسول ﷺ ، رقم٣٣٣٩. ورواه **مسلم** في كتاب الفضائل (٣٤) باب في أسمائه ﷺ . رقم ١٢٤ (٢٣٥٤). من حديث جبير بن مطعم عن أبيه.

٣- رواه **مسلم** في كتاب الفضائل (٣٤) باب في أسمائه ﷺ ، رقم ١٢٦ (٢٣٥٥) من حديث أبي موسى الأشعري. و**الهندي** في الكتر: ج١١، ص٤٦٣، رقم٣٢١٧٣، من حديث حذيفة.

الأمر بتعظيم الله تعالى وإجلاله بالأذكار والتسابيح الكثيرة

﴿يَآ أَيُّهَا اَلذِينَ ءامَنُواْ اذْكُرُواْ اللَّهَ﴾ باللِّسان والقلب أو بالقلب ﴿ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ بما هو أهله من التهليل والتحميد والتنزيه عن صفات الخلق، وبأسمائه الحسنى.

[قلت:] وكثرة الذكر أن يكون غالب أحواله، أو يكون له اهتمام به في النية والفعل، إلاَّ ما يغفل بطبع البشر.

(من أحسن الذكر) وذكر أنَّه من قال: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر»، ثلاثين مرَّة فقد ذكر الله كثيرًا. وعن ابن عبَّاس: قال جبريل: يا محمَّد، من قال: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر ولا حول ولا قُوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم، عَدَدَ مَا عَلِمَ، وَزِنَةَ مَا عَلِمَ، وَمِلْءَ مَا عَلِمَ»، كُتب من الذاكرين الله كثيراً، وكان أفضل ما ذكره بالليل والنهار، وكان له غرسًا في الجَنَّة، وسقطت عنه خطاياه كما يسقط ورق الشجرة اليابسة، وينظر الله إليه، ومن نظر إليه سعد. والله الموفِّق.

﴿وَسَبِّحُوهُ﴾ نزِّهوه عَمَّا لا يليق به مطلقًا لا خصوص صلاة ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ أوَّل النهار وآخره، خصَّهما لحضور ملائكة النهار والليل صبحًا، وحضورهم في الغروب، أو عبَّر بهما عن النهار كُلِّه إذ هما طَرَفاه.

وقيل: ﴿اذْكُرُواْ اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ مُتَعَلِّق أيضًا بـ«بُكْرَةً وَأَصِيلاً» ولو فسِّر بأغلب الأوقات، ووجهه أن يقصد إلى الوقتين فيجعلا من غالب ذكره، وعن ابن عبَّاس: التسبيح بكرة وأصيلا: صلاة الفجر وصلاة العشاء، بأن سَمَّى الكُلَّ باسم الجزء، والأولى صلاة الفجر وصلاة العصر، أوالتسبيح في الصلاتين، وقيل: ﴿بُكْرَةً﴾: صلاة الفجر، ﴿وَأَصِيلاً﴾: صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء.

وقيل: تعميم الأوقات بقولنا: «سبحان الله والحمد لله ولا إله إلاَّ الله والله أكبر ولا حول ولا قُوَّة إلاَّ بالله العليِّ العظيم»، فعبَّر بلفظ التسبيح على أخواته، أو أريد معناه الشامل لذلك.

(فقه) [قلت:] وهنَّ كلمات يقولهنَّ الجنب والحائض والنفساء ومن ليس على طهر وما وافق من ذلك، أو من سائر الأذكار لفظ القرآن، فالأولى أن يقصده على أنَّه من القرآن ليزداد الأجر، وإن كان حائضًا أو نفساء أو جنبًا قصد به غير القرآن، أو قصد جواز القليل لهم منه، والبسط في الفروع.

﴿**هُوَ اَلذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلآئِكَتُهُ،**﴾ عطف على الضمير في «يُصَلِّي» فيكون عبَّر بلفظ واحد عن معنيين مختلفين، لأنَّ صلاة الله غير صلاة الملائكة، قال ابن عبَّاس: هي الرحمة، وصلاة الملائكة الاستغفار، وصلاة الجنِّ والإنس الدعاء.

وقيل: صلاة الله على العبد إشاعة الذكر له في عباده والثناء عليه، أو أن نحمل الكلمة على استعمالها في معنييها كما أجاز بعض، مجازين أو حقيقين، أو أحدهما حقيق والآخر مجاز، أو على عموم المجاز، أو يقدَّر: وملائكته يُصَلُّون عليكم، وعموم المجاز أن يقصد المعنى الموجود في المشبَّه والمشبَّه به مثلاً معًا، كالنفع أو الصلاح الموجود في صلاة الله، وصلاة الملائكة وصلاة الثقلين.

[قلت:] والصلاة حقيقة في الرحمة والاستغفار مجاز في الدعاء، والذي لي أنَّ الاستغفار دعاء، والمجاز استعارة لجامع إرادة الخير بين الدعاء والاعتناء، أو مجاز مرسل، لأنَّ الاعتناء سبب الدعاء، واستغفار الملائكة تَرَحُّم.

﴿**لِيُخْرِجَكُم**﴾ بصلاته وصلاة الملائكة، وإن قدِّر: وملائكته يصلُّون، قدِّر مثله له هكذا: وملائكته يصلُّون عليكم ليخرجكم بصلاتهم ﴿**مِّنَ الظُّلُمَاتِ**﴾

مضرَّة المعاصي الشبيهة بالظلمات ﴿**إِلَى النُّورِ**﴾ إلى منافع الطاعة الشبيهة بالنور، أو ﴿مِنَ الظُّلُمَاتِ﴾: بمعنى من الجهل بالله ودينه إلى المعرفة، أو من الضلالة إلى الهدى، أو من الكفر إلى الإيمان، وقيل: من استحقاق النار إلى استحقاق الجنَّة، **والحمل على أسبابها أولى.** ولَمَّا نزل ﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ﴾ وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلاَئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيءِ﴾ قال أبو بكر: ما خصَّك الله تعالى بشرف إلاَّ أشركنا فيه.

﴿**وَكَانَ بِالْمُومِنِينَ رَحِيمًا**﴾ عُمُومًا، فيدخل المخاطبون بالأولى، فشمل من حضر الوحي ومن يجيء بعد، لم يقل: وكان بكم، فوضع الظاهر ليصرِّح بموجب الرحمة، وهو الإيمان الذي هو سبب الرحمة لغيرهم أيضًا.

﴿**تَحِيَّتُهُمْ**﴾ شروع في الأحكام الآجلة بعد العاجلة، والمعنى التَّحيَّة التي يحيِّيهم الله بها، وهو من إضافة المصدر إلى المفعول، وذلك من حيَّاك الله: جعل لك حياة زائدة أو مستقبلة، ﴿**يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ،**﴾ بالموت ﴿**سَلاَمٌ**﴾ قال ابن مسعود: إذا جاء ملك الموت لقبض روح المؤمن قال له: ربُّك يقرئك السلام، ومثله عن البراء بن عازب.

أو المراد: يوم يلقونه بالبعث إذا خرجُواْ من القبور تسلِّم عليهم الملائكة، وتبشِّرهم بالجنَّة، أو بدخول الجنَّة، كما قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَالْمَلاَئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ سَلاَمٌ عَلَيْكُمْ﴾ (سورة الرعد: ٢٣) .

ويقول الله تعالى إذا دخلوها: «السلام عليكم مرحبًا بعبادي المؤمنين، الذين أرضوني في دار الدنيا باتِّباع أمري». وروي: «سلام عليكم عبادي أنا عنكم راض فهل أنتم عنِّي راضون؟» فيقولون جميعًا: يا ربَّنا إنَّا راضون كلَّ الرضى. والهاء لله في قول ابن مسعود وغيره.

(أصول الدين) وسمِّيت تلك المواطن ملاقاة لله تعالى لأنَّه حضر منه تعالى فيها ما لم يكن من قبل، وعبارة بعض: ملاقاتهم إِيَّاهُ الإقبال عليه بالكُلِّـيَّةِ، والله هو المسلِّم عليهم في بعض تلك الأوجه، وفي بعضها الملائكة.

وقيل: يسلِّم بعض المؤمنين على بعض إذا دخلوا الجنَّة، فإضافة «تحيَّة» إضافة إلى الفاعل، إمَّا على أن كلّ واحد يسلِّم على غيره، ويسلِّم عليه غيره، فذكر كونه مسلِّما على غيره، و لم يذكر كونه سلَّم عليه غيره.

وإمَّا أنَّ بعضا يسلِّم على بعض، وهذا البعض لا يسلِّم بل يردُّ السلام، وذكر هذا الذي يسلِّم على غيره، والواضح كما يتبادر **أنَّ الله هو المسلِّم عليهم إذا دخلوا الجنَّة تكريما لهم وتشريفًا.**

﴿**وَأَعَدَّ لَهُم، أَجْرًا كَرِيمًا**﴾ في قضائه أو في اللوح المحفوظ، أو عند خلق الجنَّة، والأجر الكريم هو ما لهم فيها، ويقال بعد دخولها وبعد التَّحيَّة.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَـٰكَ شَـٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴿٤٧﴾ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَٱلْمُنَـٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿٤٨﴾ ﴾

مهام بعثة النبيء ﷺ

﴿**يَآ أَيُّـــهَا النَّبِيءُ اِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا**﴾ على من بعثت إليهم، عاصرتهم بتصديقهم وتكذيبهم وأعمالهم وأقوالهم، والحال مقدَّرة، سواء فسِّرت بتحملها لأنَّ تحملها بعد الإرسال، أو بأدائها يوم القيامة.

وقيل: يُعْلِمُه الله بأسماء من بعدَهُ وتصديقهم وتكذيبهم وأفعالهم، وبأحوال الصحابة بعد موته، وقيل: تعرض عليه أحوال أمَّته كلَّ أسبوع

وأقلّ وأكثر، وقيل: تعرض عليه في قبره، وقيل: شاهد بتبليغ الرسل وتصديق أممهم وتكذيبها.

[قلت:] والصحيح أنّه يشهد على من شاهده وبعض من أخبره الله عزّ وجلّ عنه، ولا عموم له ولا سيما ما بعد موته، قال ﷺ: «**ليردَنَّ عليَّ ناسٌ من أصحابي الحوض حتّى إذا رأيتهم وعرفتهم اختلجوا دُوني، فأقول: يارب أصحابي أصحابي، فيقول: إنّك لا تدري ما أحدثوا بعدك**»[1] رواه أبو بكر وأنس وحذيفة وسمرة وأبو الدرداء، **ويجمع بأنّه تعرض عليه أعمال أمّته لا بأعيان الطائعين والعاصين.**

﴿**وَمُبَشِّرًا**﴾ للطائعين بالجنّة ﴿**وَنَذِيرًا**﴾ للعاصين بالنار، ولا مبالغة في «نَذيرًا» لأنّه نائب عن منذر، ولا مبالغة في منذر، كما يؤتى للرباعي بالزيادة فصاعدًا بمصدر الثلاثي، وقدّم «مُبَشِّرًا» لفضلِ التبشير وأهله، وللفاصلة، ولأنّ الطاعة والتبشير عليهما هما الأصل، وهو ﷺ رحمة للعالمين، ومن عصى فخارج عن الأصل.

﴿**وَدَاعِيًا اِلَى اللهِ**﴾ إلى توحيده وعبادته في إخلاص ﴿**بِإِذْنِه**﴾ بتيسيره، وأصل الإذن إباحة فعل شيء أو تركه، أطلق على التيسير لأنّ التيسير مسبّبه، وهذه الكلمة تستعمل في مقام التبريك والتبرُّك، ويناسبهما صعوبة الدعاء إلى خلاف المأنوس والهواء.

﴿**وَسِرَاجًا**﴾ هؤلاء الأحوال المعطوفة كلُّها مقدَّرة حتّى الأخير، لأنّ كونه سراجًا يتصوَّر مع التبليغ وبعد التبليغ، لأنّه قبل التبليغ لا يظهر للناس هداه. و لم

١- رواه **الربيع** ضمن حديث طويل بلفظ: «وليذاذنّ رجال عن حوضي» (٦) باب في الأُمّة رقم ٤٣، من حديث أبي هريرة. ورواه **البخاري** في كتاب الرقاق (٥٣) باب في الحوض، رقم ٦٢١١، من حديث أنس.

يقل: شمسًا، مع أنَّ الشمس أقوى ضوءا من السراج المنير لأنَّ السراج يؤخذ منه أضواء كثيرة ولا يؤخذ من الشمس ضوء.

﴿مُّنِيرًا﴾ وصف السراج بمنير، لأنه ليس كُلُّ سراج منيرًا، لأنَّ الذي قَلَّ زيته أو دَقَّت فتيله يقلُّ ضوءه، وأنت تشاهد الآن سرجًا منيرةً بلا زيت بل بمائع مخصوص، وسرجا بلا زيت ولا فتيلة بل بمائع تقدُ النار به نفسه.

(أصول الدين) خلق الله ذلك لأوانه، وهوعالم به في أزليَّته، وأفهم أهلَ ذَلكَ الزمان استخراجه وصنعته، فالآية شاملة لسرج هذا الزمان التي بغير زيت، كما أنَّه عالم بسفن النار في الأزل وألْهَمَ إليها في هذه الأعصار.

(نحو) وكان [سِرَاجًا] حالا مع جموده لتقدير مضاف، أي مماثلَ سراجٍ، أو لأنَّه نعت بمشتقٍّ، أو ينصب على أنَّه مفعول بحال محذوف معطوف على «شَاهِدًا»، أي وقارئا سراجا، أي قرآنا كسراج، أو سراجا قرآنا معطوف على كاف «أَرْسَلْنَاكَ»، والمعنى أنَّه أرسل القرآن على التبعيَّة، أو على تقدير: ومُنَزِّلاً سراجًا، واقتصر في اللفظ على الإرسال. ﴿وَبَشِّرِ الْمُومِنِينَ﴾ عطف على «إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ» عطف إنشاء على إخبار، وقصَّة على قِصَّة أخرى، أو على محذوف مُجَرَّد عن العاطف، أي رَاقب أحوال الناس وبشِّر المؤمنين ﴿بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيرًا﴾ الفضل ما يُتَفضَّل به، خارجًا عن المَصدَرِيَّة كالنعمة بمعنى ما ينعم به.

والمراد: الجَنـــّة وما لهم فيها كقوله تعالى: ﴿وَالذينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ فِي رَوْضَاتِ الْجَنَّاتِ لَّهُم مَّا يَشَآؤُونَ عِندَ رَبِّهِم ذَلِكَ هُو الفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (سورة الشورى: ٢٢) ، أو هو باق على المعنى المصدريِّ، أي بأَنَّ لهم من الله زيادة على مؤمني سائر الأمم في الرتبة، أو زيادة على أجور أعمالهم، أو زيادة على أجور أعمالهم بالتَّفضُّل والإحسان.

روى الطبريُّ عن الحسن: لَمَّا نزل قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ...﴾ (سورة الفتح: ٢) قال المسلمون فما لنا ؟ فنزل: ﴿وَبَشِّرِ...﴾.

﴿وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ دم على ما أنت عليه من عدم إطاعتهم، أو ذلك نهي عمَّا يكون في الطبع، أو الغفلة من إلانة، فعدَّها الله عليه بأنَّها كإطاعتهم، أو ذلك على طريق الإلهاب، أو المراد المؤمنون، كقولهم : إيَّاك أعني واسمعي ياجارة، أو الخطاب لِكُلٍّ من يصلح له.

﴿وَدَعَ اَذَاهُمْ﴾ اطرح عن قلبك الأذى الذي يؤذونك به، بسبب تبليغك إليهم، كقوله تعالى: ﴿وَامُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ﴾ (سورة لقمان: ١٧) وقد مرَّت الآية، فالأذى مضاف إلى الفاعل، أي على إيذائهم إيَّاكَ.

وعن مجاهد والكلبي: اترك أن تؤذيهم، فالإضافة إلى المفعول، وفيه أنَّه ﷺ بعيد عن أن يؤذيهم، فالنهي عن أن يؤذيهم بعيد، وكذا أصحابه، وإن أريد بالإيذاء القتال ثمَّ ينسخ تركه بعدُ فبعيدٌ أيضًا، لأنَّه لم يُعرف تسمية القتال إيذاءً، فلا يتمُّ أيضًا أن يراد: اطرح عن قلبك حبَّ إيذائهم أي حبَّ قتلهم.

﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ﴾ في أمر الدين والدنيا ﴿وَكَفَىٰ بِاللهِ وَكِيلاً﴾ أي موكُولاً إليه، ولم يقل: وكفى به، للتأكيد.

قال عطاء بن يسار: قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ ، قال: والله إنَّه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن، «يَا أَيُّهَا النَبِيءُ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَحرزًا للأمِّيين، أنت عبدي ورسولي، سمَّيتك المتوكِّل، ليس بفظٍّ ولا غَلِيظ ولا صخَّابٍ في الأسواق، ولا يدفع بالسيِّئة السَّيِّئَة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه

الله حتَّى يقيم به الملَّة العوجاء، ويفتح به أعينًا عُميًا، وآذانًا صُمًّا، وقلوبًا غلفًا». ولفظ البخاري وأحمد: «وحرزًا للمؤمنين»، اللَّهم إلاَّ أن يكون كذلك، أو هذا التغيير من الناسخ.

﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُومِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾﴾

تمتيع المطلقات

﴿يَآ أَيـــُّهَا الَذِينَ ءامَنُواْ إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُومِنَاتِ﴾ أو الكتابيات، واقتصرت الآية على المؤمنات لأَنَّهنَّ أليق بالنكاح وأشرف، أي إذا تَزَوَّجتموهنَّ، وهكذا النكاح في الشرع التزوُّج، وهو العقد.

(لغة) والنكاح هو حقيقة لغوية في العقد، وقيل: في الوطء، وقيل: مشترك بينهما اشتراكًا معنويًا، فإنَّ في كلٍّ من العقد والوطء الضَّمٌّ، وقيل: لفظيًّا، وأصله: الجمع والضمُّ، وحقيقة شَرعيَّة في العقد.

ولم يجئ في القرآن إلاَّ بمعنى العقد، وأمَّا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُ﴾ (سورةالبقرة: ٢٣٠) فقيل: بمعنى العقد، وبيَّنت السنَّة أنَّه لا بدَّ معه من الوطء، وقيل: هو بمعنى الوطء، ومَرَّ كلام فيه.

﴿ثُمَّ طَلَّقْــتُمُوهُنَّ﴾ «ثُمَّ» للترتيب الذكري، فيشمل الطلاق ولو عقب العقد، وإن شئت فللترتيب الرتبي، فإنَّ الطلاق منافٍ للتزوُّج، لأَنَّه الوصلة والحبُّ والأنس والألفة والنَفع، والطلاق عكس ذلك، وَقَطْعٌ للنسل.

قال ﷺ : «**أبغض الحلال إلى الله الطلاق**»[١] رواه ابن ماجه وأبو داود عن عبد الله بن عمر، وفي رواية لأبي داود: «**ما أحلَّ الله شيئًا أبغض إليه من الطلاق**»[٢].

(**فقه**) وهو مكروه، بل قيل: ممنوع، وإن وقع صَحَّ إلاَّ لِدَاعٍ فلا كراهة مثل أن تكرهه مطلقًا، أو لعدم قدرته على الوطء، وإن ادَّعت مسًّا ونفاه حَلَفَ ما مَسَّ وأعطى نصف الصداق. ولا تَــتَــزَوَّجُ إلاَّ بعد العدَّة. وإن ادَّعت انتفاء وَادَّعَى الثبوت، أو اتَّفَقَا على النفي فلها النصف، ولا تَــتَــزَوَّجُ إلاَّ بعد العدَّة، وعلى ذلك يفسَّر قوله تعالى:

(**فقه**) ﴿**مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ**﴾ كناية عن الوطء، ونَزَّل بعضٌ نَظَرَ فَرجِهَا وعدم غيوب الحشفة منزلةَ المسِّ، وشهر في الفروع أنَّه إذا أمكن المَسُّ حكم به في شأن الصداق.

﴿**فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا**﴾ مطاوع «عدَّ»، أي تستوفونها موجودة تامَّة، أو بمعنى الثلاثي.

(**فقه**) والآية نصٌّ في أنَّ العدَّة حقٌّ للرجل، بمعنى أنَّه لا تَفُوتُه رَجعَتُهَا إن أَرَادَهَا وَبَقَاء حرمته عليها، وإذا لم تكن رجعة فبقاء هذه الحرمة، وإذا رَضِيا معًا أن تعتدَّ في غير بيته جاز.

وإن مسَّهَا وطَلَّقهَا وراجعها أو تزوَّجها بدل الرجعة أو تَزَوَّجَها في عدَّة البائن الذي تصحُّ فيه الرجعةُ وطلَّقها قبل المسِّ من الرجعة أو النكاح الثاني

١- رواه **ابن ماجه** في كتاب الطلاق (١) باب حدثنا سويد بن سعيد، رقم ٢٠١٨. **وأبو داود** في كتاب الطلاق (٣) باب في كراهية الطلاق، رقم ٢١٨٥ و٢١٨٧. من حديث ابن عمر.

٢- رواه **أبو داود** في كتاب الطلاق (٣) باب في كراهية الطلاق، رقم ٢١٧٧، من حديث محارب.

أتمَّت العدَّة الأولى عند بعض، وقيل: تستأنف من الثاني، والظاهر بناؤها على ما مضى في مسألة الرجعة، والاستئناف في مسألة التزوُّج الثاني، ولها نصف الصداق بالثاني إن لم يمسَّها فيه.

﴿فَمَتِّعُوهُنَّ﴾ أعطوهنَّ شيئًا يتمتَّعن به، وذلك مقيَّد بعدم الفرض، فإنَّ المفروض لها نصف مَا فَرَضَ بدليل آية البقرة [رقم ٢٣٦]، والذي يتمتَّعن به: قميص وخمار وملحفة، وهي ما تستتر به رأسها وقَدَمَهَا وما بينهما، وعلى الموسع قدره في تجويد ذلك، وعلى المقتر قدره في الرداءة، فمتوسط بين ذلك، وذلك أدنى ما تخرج به إذا خرجت.

[قلت:] وينبغي أن يعتبر العرف وحال الزوج في المال، وقالوا: هي أقلُّ من نصف صداق المثل، ولا تنقص عن خمسة دراهم.

(فقه) والأمر للوجوب، واستحبَّ بعضهم المتعة ولو للمفروض لها والممسوسة التي لم يفرض لها زيادة على صداق المثل، وذكروا عن الحسن: إنَّ لكل مطلَّقة متعة دخل بها أو لم يدخل، فرض لها أو لم يفرض.

(نحو) والفاء عاطفة على الجواب، عطف إنشاء على إخبار هو في معنى الطلب، فإنَّ معنى ﴿مَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ...﴾: لا تُطَالبُوهُنَّ بعدَّة، أو في جواب شرط مقدر إذ عرفتم ذلك، أو إذا كان الأمر ذلك فمتعوهن.

﴿وَسَرِّحُوهُنَّ﴾ أخرجوهنَّ من منازلكم، لأنَّهنَّ لَسْنَ بأزواجٍ لكم ولا محارم، تستريحوا من فتنة الانكشاف والسماع، وأصل التسريح: إرعاء الإبل السرح، وهو شجر مخصوص له ثمار، ثمَّ استعمل للرعي مطلقًا ثمَّ لكلِّ إرسال.

﴿سَرَاحًا﴾ تسريحًا ﴿جَمِيلاً﴾ بكلامٍ طيِّب، وبلا منع من واجب قبل، ولا مطالبة بحقٍّ عليها، ونحو ذلك ممَّا يجب عليه أو يستحبُّ، وفيه استعمال الأمر في الوجوب وغيره.

[قلت:] الأَولى حمله على أداء الواجب لها، وعلى عدم منع ما وجب لها، وعلى الكلام الطيِّب، وعدم تعييرها وتنقيصها إلى الناس.

﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيءُ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُومِنَةً اِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيءِ اِنَ اَرَادَ النَّبِيءُ أَنْ يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِن دُونِ الْمُومِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠) تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُئْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ اِبْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَالِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَلِيمًا (٥١) لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنَ اَزْوَاجٍ وَلَوَ اَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا (٥٢)﴾

النساء اللاتي أحلَّ الله للنبيء ﷺ زواجهنَّ

﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ اِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللاَّتِي ءَاتَيْتَ أُجُورَهُنَّ﴾ مُهُورَهُنَّ، كعائشة وحفصة وسودة، لأنَّ المهر كالأجرة على الوطء وسائر الاستمتاع، وليس تعجيل المهور أو نقدها شرطًا في الإحلال له، بل اختيار لما هو أفضل له فله الوطء قبل الإعطاء، ولا ينافي هذا ما شهر أنَّه يحل له التزوُّج بلا صداق، لأنَّ المراد جوازه بلا صداق فيما أجازه الله تعالى، كزينب التي زوَّجه الله بها، وكالتي وهبن له أنفسهنَّ، كما يأتي بعدُ إن شاء الله تعالى.

وقد قيل: ذكر المهور وإيتاءَها بناء على الواقع لا شرط، ولو تزوجهنَّ بلا مهر لجاز، وأخذ بعض من الآية أنَّه لا يجوز له ﷺ التزوُّج إلاَّ بصداق منقودٍ حَاضِرٍ.

(سيرة: زوجاته عليه السلام) مات ﷺ عن تسع نسوة، وجميع ما تزوَّج أربع عشرة: خديجة بنت خويلد وهي ثيب له وهو بكر لها، ثمَّ سودة بنت زمعة، ثمَّ عائشة بِمَكَّةَ، ثمَّ حفصة، ثمَّ أمُّ سلمة بنت أبي أميَّة، وأمُّ حبيبة بنت أبي سفيان في المدينة، والستُّ من قريش، وجويرة من بني المصطلق، وصفيَّة بنت حيي بن أخطب الإسرائيليَّة، وزينب بنت جحش امرأة زيد بن حارثة، وزينب بنت خزيمة أمُّ المساكين، وكانت تأويهم، وهي أوَّل من ماتت بعده من نسائه، وميمونة بنت الحارث الأسلميَّة، خالة ابن عبَّاس، وامرأة من بني هلال وهبت نفسها للنبيء ﷺ، وامرأة من كندة، وهي التي استعاذت منه فطلَّقها، وامرأة من كلب وهذا اختصار، والبسط في محلّه.

﴿**وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ**﴾ من الإماء كجويرة وريحانة وزليخاء ﴿**مِمَّآ أَفَآءَ اللهُ عَلَيْكَ**﴾ ردَّه إليك من السبي، يختار من شاء منهنَّ، ويتسرَّاها بعد إسلامها، أو المراد ما يشمل الإهداء، كَمَارية بنت شمعون رضي الله عنها أهداها إليه ملك الإسكندرية ومصر القبطي جريج بن مينا.

(فقه) وهدايا أهل الحرب للإمام لها حكم السبي، ووهبت له ﷺ زينب بنت جحش أمةً وتسرَّاها مع أنَّه لم يشاهد سبْيَهَا، وَلَعَلَّهُ اكتفى بتحقُّق عُبُودِيَّتها، أو بإقرارها، أو كانت مِمَّا أفاء الله عليه، تملَّكتها زينب ثمَّ وهبتها له، وكذا أخت مارية شيرين (بالشِّين المعجمة أو المهملة) أهداها إليه الملك المذكور المقوقس مع مارية، ولو أسلمت قبل مارية لَتَسرَّاها لرغبته فيها، والله أعلم، وَلَمَّا تأخَّر إسلامها أعطاها رَجُلاً، هو حسان بن ثابت.

﴿**وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاَتِكَ اللاَّتِي**

هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ لأنّهنَّ أفضل من غيرهنَّ للنسب والهجرة. ومعنى المعيَّة أنّهنَّ هاجرن كما هاجر، وليس المراد أنّهنَّ هاجرن معه في وقت واحد.

(فقه) واختلف فيمن آمن و لم يهاجر، وقد قَدرَ على الهجرة إلاَّ من عذره ﷺ ، فقيل: مشرك، فلا تحلُّ من لم تهاجر مع القدرة، ويدلُّ لذلك أنّه خَطَبَ أمَّ هانئ فاعتذرت فَعَذَرَها، قالت: فترل ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ اِنَّآ أَحْلَلْنَا لَك... اللاَّتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾ فلم أك أحلُّ له لأنِّي لم أهاجر، وقول الصحابيَّة حجَّة، وبُحثَ بأنَّها لم تسنده رواية، ولَعلَّهُ مفهومها من الآية والحال.

ويتقوَّى ما ذكرت بما روي أنَّها بعدما اعتذرت رجعت إليه فقال: «أمَّا الآن فلاَ لأنَّك لم تهاجري والله تعالى أنزل إليّ: ﴿يَآ أَيُّهَا النَّبِيءُ اِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ... هَاجَرْنَ مَعَكَ﴾» ويبعد ما قيل من أنَّه لعلَّه لم يرد الحرمة بل أراد الأفضل.

وقيل: منافق، وقيل: الهجرة شرط عليه ﷺ في قراباته المذكورة فقط، وقيل: نسخ تحريم من لم تهاجر، وقيل: معنى ﴿هَاجَرْنَ﴾: أسلمن.

والمراد ببنات عمِّه وبنات عمَّاته بنات القريشيِّين، وبنات القريشيَّات، فإنَّه يقال للقريشيِّين أعمامه ولو بعدوا، وللقريشيَّات عمَّاته ولو بعدن.

والمراد ببني خاله وبنات خالاته بنات بني زهرة، ذكورهم وإناثهم، وشاع في العرف ببنات، وكثر في الاستعمال إطلاق الأعمام والعمَّات على أقارب الشخص من جهة أبيه ذكور وإناث، قربوا أو بعدوا، والأخوال والخالات على أقارب الشخص من جهة أمِّه كذلك.

(سيرة) ودخل على ستٍّ من القريشيَّات: عائشة وحفصة وسودة

وخديجة وأمِّ حبيبة بنت أبي سفيان وأمِّ سلمة، و لم أقف على أنَّه تَزَوَّجَ امرأة من أخواله بني زهرة، **والآية للجواز لا لوقوع تزوُّجه منهم.**

(صرف) وأفرد العمَّ والخال وجمع العمَّة والخالة ــ قيل ــ لأنَّ العمَّ والخال بوزن المصدر كالنصر والفرح، وأصل الخال خول (بفتح الخاء والواو) بخلاف العمَّة والخالة، فإنَّهما ولو كانا بوزن المصدر لَكنَّ المصدر أصل تائه أن لا تلزم، ومن شأنها أن تدلَّ على الوحدة أو الهيئة، ولا يتبدل المعنى بحذفها إلاَّ الوحدة والهيئة. وقيل: لم يجمعا ليعمَّا بالإضافة، والتاء تدلُّ على الوحدة، والعموم ممتنع معها ظاهرًا، ولو جاز حقيقة. وجمع العمَّ في سورة النور [آية: ٦١] على الأصل.

وقيل: أعمامه العَبَّاس وحمزة وهما أخواه من الرضاع، لا تحلُّ له بناتهما، وأبو طالب بنته أمُّ هانئ لم تهاجر، وهو قول لا يتَّجه. وقيل: أفرد العمَّ لأنَّ العمَّ بمنزلة الأب وهو لاَ يتعدَّد، ويقال: للعمِّ أبٌ، ومنه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ ءَازَرَ﴾ (سورة الأنعام: ٧٤) ، ومنه: تسمية إسماعيل أبًا مع إسحاق، و[في الآية رقم ١٣٣ من سورة البقرة] إنَّما هو عمٌّ، وجمع العمَّة على الأصل وإلاَّ فهي كالأمِّ والأمُّ لا تتعدَّد.

(بلاغة) وأفرد الخال ليكون على وفقه العمُّ، وجمع الخالة مع أنَّها كالأمِّ لتكون على وفق العمَّات، وقيل: أفرد الذكر لقلَّة الذكور، والنساءُ أكثر كما في الأثر، وقيل: بين العمِّ والعمَّات والخال والخالات نوع من الجناس، وأيضًا أعمامه اثنا عشر وعمَّاته ستٌّ، ولو قيل: أعمامك لتوهِّم أنَّهم أقلُّ من اثني عشر، لأنَّه جمع قلَّة، وجمع القلَّة عشرة أو تسعة، ولو قيل: عمَّتك لم تتحقَّق الإشارة إلى قِلَّتهنَّ، وقيل: خالك وخالاتك ليوافق ما قبلُ.

(لغة) وقيل: جرى عرف اللغة على إفراد العمِّ والخال وجمع العمَّة والخالة، و لم تر العمَّ مضافًا إليه ابن أو ابنة بالإفراد أو بنون أو بنات بالجميع إلاَّ مفردًا كقوله:

وقيل: ﴿الْمَثَلُ الاَعْلَى﴾: ما ذكره من أنَّ الإعادة أهون، وقيل: لا إله إلاَّ الله، بمعنى الوصف بالوَحْدَانيَّة، ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَالارْضِ﴾ متعلِّق بـ«لَهُ»، أو بمتعلَّقه، وعلَّقه بعض بـ«الاَعْلَى»، أو بمحذوف حال من المستتر فيه، أو حال من «الاَعْلَى». ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ القادر الذي لا يعجزه شيء من البدء والإعادة ﴿الْحَكِيمُ﴾ الجاري أفعاله على الحكمة.

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن شُرَكَاءَ فِي مَا رَزَقْنَاكُمْ فَأَنتُمْ فِيهِ سَوَاءٌ تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنفُسَكُمْ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾ بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَن يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴿٣٢﴾﴾

إثبات الوحدانيَّة من واقع البشر والأمر باتباع الإسلام لأنه دين الفطرة

﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلاً﴾ في بطلان الشرك ﴿مِنَ انْفُسِكُمْ﴾ منتزعا من أنفسكم التي هي أقرب الأمور إليكم وأظهرها في الدلالة. و«مِنْ» للابتداء وفسَّر المثل بقوله:

﴿هَل لَّكُم﴾ استفهام إنكار بمعنى النفي. و«لَكُمْ» خبر للمبتدأ المجرور بـ«من» الصلة، لتأكيد هذا النفي وهو شركاء ﴿مِّن مَّا مَلَكَتَ ايْمَانُكُم﴾ «مِنْ» للابتداء أيضا متعلِّق بـ«لَكُمْ»، أو بمتعلَّقه الاستقراري، لا تبعيضيَّة متعلِّقة بمحذوف حال من «شُرَكَاءَ»، لأنَّ الصحيح أنَّ الحال لا تجيء من

كلاب بن مرَّة، بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان.

وعنه ﷺ : «**لا ترفعوني فوق عدنان**»[1]. وأقول: رفعه إلى ما لم يتحقق أنَّه أبوه نقض لمعرفته. وعن ابن مسعود: كذب النسَّابون، قال الله تعالى: ﴿وَقُرُوناً بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ (سورة الفرقان: ٣٨) ، وقال: ﴿وَالذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لاَ يَعْلَمُهُمْ، إلاَّ اللهُ﴾ (سورة إبراهيم: ٩) . ويقال: عدنان بن أدَّ بن أدَدَ بن اليسع بن الهميسع بن نبت بن سلامان، بن محل بن قيدار بن إسماعيل بن إبراهيم، بن آزر بن تارخ بن ناخور، بن أشرع بن أرغو بن فالغ، بن أرفخشد، بن سام بن نوح، بن لامك بن متوشلخ، بن أخنوخ وهو إدريس، بن بُرد بن مَهْلاَليل بن أنوش بن شِيْث بن آدم (بكسر شين وإسْكان يائه بعدها ثاء مثلثة).

﴿**وَامْرَأَةً مُّومِنَةً**﴾ عطف على «أَزْوَاجَكَ»، ولا يشكل على ذلك تقييد الامرأة المؤمنة، لأنَّه قيد لها خاصَّة، كما تقول: أَكْرِم الزيدين وعمرًا إن جاء، تريد: أكرم الزيدين مطلقًا جاء عمرو أو لم يجئ، وأكرم عَمرا إن جاء لا إن لم يجئ.

﴿**إِنْ وَّهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيءِ**﴾ مقتضى الظاهر: إن وهبت نفسها لك، لكن قال: ﴿لِلنَّبِيءِ﴾ ليدلَّ على أنَّ شرف النبوءة أباح كفاية الهبة، كأنَّها أمة وهبها مالكها، وزاد له تشريفًا بأن لا يلزمه قبولها، فإن شاء ردَّهَا، وبأنَّه يقبلُها بلا مهر، وذلك في قوله: ﴿إِنْ وَّهَبَتْ﴾ وفي قوله: ﴿**انَ ارَادَ النَّبِيءُ اَنْ يَّسْتَنكِحَهَا**﴾ يملكها بلا مهر ويلحقها بأزواجه. والاستفعال بمعنى الفعل، أي أن ينكحها. والإرادة بمعنى القبول أو للطلب، والإرادة على ظاهرها، وجوابه أغنى

١- لم نقف على تخريجه.

عنه «وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيءِ»، فالإرادة شرط لصحَّة الهبة، فإن لم تكن تعطلَّت الهبة، وكانت كالعدم.

(نحو) ويجوز تقدير الجواب: أي إن أراد النبيء أن يستنكحها نكحها، وإذا اجتمع شرطان فالثاني قيد لِلأَوَّلِ، ولا يلزم تقدُّمه خارجًا على الأَوَّل نحو: أكرم زيدًا إن جاء إن سلَّم في حضوره، فالتسليم قيد في مجيئه، والآية كهذا المثال. ويجوز تقدُّمه خارجًا، نحو: أكرم زيدًا إن جاء إن كان قد أرضى والديه في المجيء.

(سيرة) وهذه الامرأة الواهبة: ميمونة بنت الحارث، امرأة من بني هلال، خطبها ﷺ ووصلتها الهبة التي أباح الله تعالى، فوهبت له نفسها، وهي فوق بعير، فقالت: البعير وما عليه لله ولرسوله، فبنى بها على عشرة أميال من مَكَّة، وقيل: أمُّ شريك بنت جابر بن حكيم الدوسية، وعليه الجمهور، ولم يقبلها فلم تَتَزَوَّج حَتَّى ماتت رضي الله عنها. وقال منير بن عبد الله الدوسي: قبلها. وقيل: زينب بنت خزيمة الأنصاريَّة أمُّ المساكين، كانت تطعمهم في الجَاهليَّة وبعدها، وبقيت عنده ﷺ ثلاث سنين، وماتت. وعن عائشة: خولة بنت حكَيم، ولم يقبلها، وَتَزَوَّجَها عثمان بن مظعون، وقيل: ليلى بنت الحطيم، ولا مانع من أن يكنَّ كلُّهنَّ وهبن أنفسهنَّ، ففي البخاري ومسلم عن عروة بن الزبير: كانت خولة بنت حكيم من اللاتي وهبن أنفسهنَّ للنبيء ﷺ ، ودلَّ هذا على تعدُّد الواهبة، والجمهور على وقوع الهبة وقبول بَعْض، وزعم بعض أنَّه لم تقع، وبعض أنَّه لم يقع القبول.

﴿خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُومِنِينَ﴾ حال من «امْرَأَةً»، أو نعت، أو حال من ضمير «وَهَبَتْ»، أو نعت لمصدر محذوف، أي هبةً خالصة، أو هو مصدر بوزن اسم الفاعل، فهو مفعول مطلق، أي خلصت لك

خلوصًا، **لا يجوز لغيرك النكاح بلا مهر ولا بلفظ الهبة**، وأجازه بعض بلفظ الهبة إذا قصد معنى التزويج وفهم، وذكر أنَّ الأصل عدم الخصوصيَّة، وانتفاء الصداق عنه ﷺ من لفظ الهبة.

﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتَ اَيْمَانُهُمْ﴾ أنَّه الحكمة فيرتضيه المؤمن، من الاقتصار على أربع، ووجوب العدل بينهنَّ، ولا تجب العدالة عليك، ولك ولهم ما تزوَّج أدعياؤُهم وما تَسَرَّوْه إذا فارقوهُنَّ، ووجوب المهر وعدم جواز الهبة لهم.

﴿لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ﴾ فعلنا ذلك وأنزلناه لكيلا يكون عليك ضيق، بقول الناس: إنَّه فعل ما لا يجوز من كثرة الأزواج، والتزوُّج بالهبة، وبلا صداق؛ أو لكيلا يكون عليك ضيق في دينك، وفي ذاك ردٌّ على النصارى واليهود القائلين: لو كان نبيئًا لم يفعل ما لا يجوز لأمَّته، ولو كان نبيئًا لم يكن له غرض في كثرة الزوجات، واتِّباع ما يشتهي، ووجه الردِّ أنَّ الله عَزَّ وَجَلَّ أباح له ذلك، كما أباح لداود وسليمان كثرة الأزواج، وقد أقام له دلائل النبوءة والرسالة، فلا يقدح فيه عاقل بشيء بعد ذلك.

﴿وَكَانَ اللهُ غَفُورًا﴾ عظيم المغفرة، أو كثيرها، أو عظيمها وكثيرها على القول بجواز استعمال الكلمة في معنيين، وهما هنا الكمُّ والكيف، ولك جمعهما بكامل الغفران، والله سبحانه يغفر الذنوب. **﴿رَّحِيمًا﴾** يُبيح ما يَعسُر التحرُّزُ عنه.

﴿تُرْجِي﴾ تؤخِّر **﴿مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ﴾** من نسائك، بترك مضاجعتها أو وطئها، وبالطلاق والوطء وعدم الطلاق. **﴿وَتُـــئْوِي﴾** تضمُّ **﴿إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾** منهنَّ بالمضاجعة والوطء وعدم الطلاق.

وقيل: الهاء لنساء أمَّته، أي لك تزوُّج من شئت منهنَّ، ولا يحلُّ لها الامتناع، وذلك قوله: ﴿وَتُـــئْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ﴾ ولك ترك تزوُّج من شئت، وذلك قوله: ﴿تُرْجِي﴾، إمَّا على معنى: لا يجب عليك تزوُّج من تطمع في تزوُّجك لقرابة أو غيرها، ولا قبول من وهبت نفسها لك، وإمَّا على معنى البسط في التوسعة بذكر ما ليس من شأنه أن يحقَّ ذكره.

وقيل: الهاء للواهبات، له قبول من شاء وترك من شاء، وله وطء من شاء ممَّن قَبلهنَّ، وترك وطء من شاء ممَّن قبلهنَّ. وروي أنَّه همَّ بطلاق بعض نسائه الواهبات وغيرهنَّ، فأتينه وقلن له: لا تطلِّق وأنت في حلٍّ ممَّا لنا. ويقال أرجى ميمونة وجويرة وأمَّ حبيبة، وصفيَّة وسودة، وآوى عائشة وحفصة وأمَّ سلمة وزينب.

[قلت:] والواهبات إنَّما وهبن تقرُّبـــًا إلى الله تعالى بخدمة رسوله ونفعه، والفوز برضاه، لا لغرض دنيوي.

وَلَمَّا نزل ﴿تُرْجِي...﴾ قالت عائشة: «يا رسول الله ما أرى ربَّك إلاَّ يسارع لك في هواك»؟ وقد قالت قبل ذلك وبعد وقوع الهبة: «أما تستحي المرأة أن تهب للرَّجل نفسها»؟ وقالت: «ما في امرأة وهبت نفسها لرجل خير»، وإنَّما قالت ذلك قبل أن تسمع أنَّه ﷺ قَبِلَ الهبة أو أجازها، وذلك غيرة منها، وزَجَرَها بأنَّ التي وهبت نفسها إنَّما قصدت بابًا من الخير، وهو أن تكون في الجنَّة معي، وأُمًّا للمؤمنين. ﴿**وَمَنِ ابْتَغَيْتَ**﴾ طلبت أن تراجعها ﴿**مِمَّنْ عَزَلْتَ**﴾ طلَّقت، أو من تريد وصلها بعد هجرها.

(**نحو**) و«مَنْ» شرطيَّة، مفعول لشرطها، أو اسم موصول شبيه باسم الشرط مبتدأ، والجواب أو الخبر في قوله: ﴿**فَلاَ جُنَاحَ**﴾ لا إثم ﴿**عَلَيْكَ**﴾ في شأنها. أو اسم موصول معطوف على «مَن تَشَآءُ» الثاني، والمراد غير المطلقة. وقيل «مِنْ» الجارَّة للبدليَّة، و«مَنِ ابْتَغَيْتَ» واقع على من يريد أن يتزوَّجها.

والعزل: الفراق بالموت أو الطلاق، أي من ابتغيت تزوُّجها بدلا ممَّن مات أو طلقت فلا جناح عليك، ولا يخفى بُعد إطلاق الموت على العزل، لأنَّ الموت ليس فعلا منه يُسَمَّى عزلاً، وكذلك يبعد أن يراد: عزلت جماعها لموتها، إذ لا يتوهَّم بقاؤها.

﴿ذَٰلِكَ﴾ التفويض فيهنَّ، أو ذلك الإيواء، وهو أولى، لأنَّ قرَّة أعينهنَّ بالذات إنَّما هي بالإيواء لأنَّه محبوب طبعًا، ولو ضمَّ إليه غيره بالكسب. أو ﴿ذَٰلِكَ﴾: العلم بأنَّ لك الإيواء، أو بأنَّه لك بعد العزل ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أقرب ﴿أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ﴾ أي إلى أن تقرَّ، أو من أن تقرَّ، بتقدير «إلى» أو «من» التي ليست للتفضيل.

﴿وَلَا يَحْزَنَّ﴾ لعلمهنَّ بأنهنَّ لم تطلقهنَّ، وبأنَّ ذلك إباحة من الله لا جُورٌ منك ولا حيفٌ، ويفرحن بالإيواء ﴿وَيَرْضَيْنَ بِمَآ ءَاتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ﴾ توكيد لنون «يَرْضَيْنَ». ومعنى ﴿ءَاتَيْتَهُنَّ﴾ أعطيتهنَّ من المضاجعة والإيواء والمساواة وترك ذلك.

وأصل الرضا أن يكون بما فيه شدَّة أو نقصان، وغُلِّبَ هنا على ما ليس فيه ذلك، أو المراد: يرضين بما فيه ذلك، وما فيه بعض خير ولم يتمَّ، أو المراد بما فعلت معهنَّ ممَّا فيه ذلك.

(صرف) وعيونهنَّ أكثر من تسع أعين أو عشر، ومع ذلك عبَّر بجمع القلَّة لأنَّهنَّ تسع، وهو لجمع القلَّة، وأيضا ليس المراد حقيقة العينين ولذلك يفرد كما جاء: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ﴾ و﴿تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ [في سورة القصص آية ٩ و١٣].

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ﴾ الخطاب لرسول الله ﷺ وأزواجه، تغليبًا للذكر على الإناث، أي ما في قلبك من الميل إلى بعضهنَّ، وما في قلوبكنَّ من الرضا بما أباح الله تعالى له، وكراهته بالطبيعة، أو الخطاب لهنَّ بالذات، وخلط

معهنَّ النبيء ﷺ تطييبًا لنفوسهنَّ، وتنبيهًا له ﷺ على الشكر، أو الخطاب للمؤمنين، أو لهم وللنبيء ﷺ ، ويضعف أن يكون لهنَّ ولهم.

[قلت:] وفي ذلك على كُلِّ حال وعيدٌ لمن لم يرض بما فرض الله تعالى أو أباحه، وبعثٌ على تحسين القلوب. ولا يدخل ﷺ في الوعيد، لأنَّ المقام لذكر التيسير له ﷺ . ﴿**وَكَانَ اللهُ عَلِيمًا**﴾ غاية العلم بكلِّ شيء ﴿**حَلِيمًا**﴾ عظيم الحلم بتأخير العقاب عَمَّن خالفه، وتأخير العتاب، وبالصفح عمَّا يغلب على القلب من الميل ونحوه.

[قلت:] ومع إباحة الله تعالى له ﷺ عدم العدل بينهنَّ دام على العدل بعد نزول التخيير حتَّى مات، ضبطًا لنفسه، وأخذًا بالأفضل، وروي أنَّ سودة قالت له قبل نزول وجوب إمساكهنَّ: وهبت ليلتي لعائشة، وقالت: لا تطلِّقني لأحشر في زمرة نسائك.

وذكر الزهري أنَّه ما أرجى منهنَّ شيئا ولا عزل بعدما خُـيِّرن فاخترنه. وعن عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله ﷺ يستأذن في يوم المرأة منَّا بعد أن نزل ﴿تُرْجِي مَن تَشَآءُ...﴾ فقيل: ما كُنت تقولين؟ قالت: «أقول إن كان ذلك إِلَيَّ فإنِّي لا أريد أن أوثر عليك أحدًا»، وهذا لا ينافي ما مرَّ من أنَّه ما أرجى بعد التخيير، ولا عزل أحدًا، لأنَّ معنى الآية أن لا يرجي أو يعزل قهرًا بنفسه، أمَّا برضى صاحبة الحقِّ فلا بأس بترك ليلتها مثلاً لأحد، وهذا كالنصِّ عن عائشة رضي الله عنها أنَّ الله تعالى أباح له أن يستأذن بعد نزول الآية، وأمَّا قبلها فكان يفعل بلا استـــئذان.

﴿**لاَ يَحِلُّ لَكَ**﴾ لم يكن بالفوقيَّة [أي لا تحلّ] لأنَّ المراد بالنساء الحقيقة، ولا أنثى للحقيقة، وإنَّما الأنثى للأفراد، وأيضًا الفصل يقوِّي التذكير، وأيضا المراد: لا يحلُّ نكاح النساء، لأنَّ الحكم لا يكون بالذات، وعبارة بعض

الْمُحَقِّقِينَ تأنيث الجمع غير حقيق. ﴿النِّسَآءُ﴾ هنَّ الحرائر في العرف، أي لا يحلُّ لك تزوُّجهنَّ ﴿مِنۢ بَعْدُ﴾ بعد التسع اللاتي تحتك اليوم، كما قال عكرمة، أو من بعد هذا الوقت، أو من بعد نزول الآية، والمعنى واحد، حبسه الله تعالى عليهنَّ كما حبسهنَّ عليه.

وقيل: من بعد اختيارهنَّ لك إذ خُيِّرنَ، فذلك جزاء لهنَّ، وشكر لاختيارهنَّ، فهذا ناسخ لما قبل ذلك من التوسعة في تزوُّج النساء وفي الطلاق.

وقيل: من بعد التسع، بمعنى: إنَّ نصابك من النساء تسع لا أزيد، كما أنَّ نصاب أمَّتك منهنَّ أربع لا أزيد، وذلك مذهب الجمهور، وفي الترمذي والنسائي عن عائشة رضي الله عنها: «ما مات رسول الله ﷺ وعلى آله حَـتَّى أحلَّ له النساء»، ولفظ النسائي: «حَـتَّى أحلَّ له أن يتزوَّج من النساء ما شاء». وأمَّا لو متن فعن أُبي بن كعب: يَتَزَوَّجُ، ولا يعارضه: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنَ اَزْوَاجٍ﴾ لأنَّ التبديل يتَصَوَّرُ مع وجودهنَّ، بل لو نقصن عن تسع لجاز له إتمام التسع في قول بعض، وعن أنس: مات على التحريم.

وقيل: لا يحلُّ لك الكتابيات بعد المسلمات، ولا تكون المشركة أمَّ المؤمنين. ومات عن عائشة وحفصة وأمِّ حبيبة وسودة وأمِّ سلمة وصفيَّة وميمونة وزينب بنت جحش وجويريَّة.

﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ﴾ أصله: تتبدَّل ﴿بِهِنَّ مِنَ اَزْوَاجٍ﴾ بأن تطلِّق واحدة وَتَتَزَوَّج أخرى بدلَهَا، والحاصل أنَّه لا يجوز له أن يَتَزَوَّج زائدة على التسع، ولا أن يطلِّق واحدة منهنَّ، أو يفارقها بوجه مَّا، فلو ماتت إحداهنَّ لم يجز له تزوُّج غيرها، وكذا ما فوق الواحدة، وكذا لو متن جميعا لم يحلَّ له التزوُّج، وذلك قوله تعالى: ﴿لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَآءُ﴾ بمعنى لا يحلُّ لك في الدنيا إلاَّ هؤلاء.

والتبدُّل عن غير عمد وعن عمد، وحاصله الإتيان بالبدل، وقيل: التبدُّل

بعمد واختيار، أمَّا لو ماتت واحدة فصاعدًا أو كلُّهنَّ لحلَّ له إتمام التسع، ولا سيما إن متن، ففي التبديل عَمَّن ماتت إدخال الرَّوع على من لم يمت.

وقيل: حرّم عليه التبديل، أمَّا الزيادة على التسع فجائز، إلاَّ أنَّه لا يحلُّ له من غير ما ذكر له، كالبدويَّات والغرائب، ومن الغريب قيل: المعنى لا تعط رجلاً زوجك فيعطيك زوجه كالجاهليَّة.

﴿وَلَوَ اَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ﴾ أي حسن النساء اللاتي نفى الله عز وجل عنهنَّ الحلَّ، والأزواج اللاتي نهي أن يتبدَّل عن أزواجه اللاتي عنده.

(سيرة) ومن النساء اللاتي يعجبه حسنهنَّ أسماء بنت عميس الخثعميَّة، امرأة جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه ، إذ مات وأحَبَّ أن يتزوَّجها، وربَّما مال قلبه صلى الله عليه وسلم بالطبع إلى امرأة عيينة بن حصن، إذ قال: يا رسول الله إن شئت نزلت لك عن سَيِّدة نساء العرب جمالاً ونسبًا، وقد رأى عنده عائشة رضي الله عنها واستحقرها لصغر سنِّها إذ كانت صبيَّة.

وقيل: لزوم هؤلاء التسع منسوخ. روى أبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم عن عائشة أنَّه صلى الله عليه وسلم «لم يمت حَــتَّى أحلَّ الله عز وجل أن يتزوَّج من النساء ما شاء، إلاَّ ذات محرم» والناسخ ﴿تُرْجي مَن تَشَآءُ....﴾ أي عمومًا في الموجودات تحته والمحدثات، على أنَّ قوله: ﴿لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَآءُ...﴾ متقدِّم نزولاً عن ذلك مُتَأَخِّر تلاوة.

﴿إلاَّ مَا مَلَكَتْ يَمينُكَ﴾ استثناء منقطع، والمستثنى منه هو قوله: ﴿النِّسَآءُ﴾ لأنَّهنَّ بالتزوُّج، وما ملكت اليمين بالتسرِّي، ولا يستثنى ما بالتسرِّي مِمَّا بالتزوُّج، ولو لم يكن عرف، فَكَيْفَ والعرف مُعِينٌ لذلك في

أنَّ النساء هنَّ الحرائر، وأيضًا قوله: ﴿وَلَآ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنَ ازْوَاجٍ﴾ كالنصِّ أو نصٌّ في أنَّهنَّ للتزوُّج.

[قلت:] فالقول بأنَّ الاستثناء مُـتَّصل لأنَّ النساء في أصل اللغة يشمل الحرائر والإماء ضعيف. ﴿وَكَانَ اللهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ رَقِيبًا﴾ مُطَّلعًا. ومراقبة الشيء سبب للاطِّلاع، وملزوم له، فعبَّر بها عن الاطِّلاع، فاحذروه فإنَّه لا يخفى عنه ما فعلتم، ولا يفوته عقابكم.

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾ إِن تُبْدُوا۟ شَيْـًٔا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٥٤﴾ لَّا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِىٓ ءَابَآئِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآئِهِنَّ وَلَآ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ إِخْوَٰنِهِنَّ وَلَآ أَبْنَآءِ أَخَوَٰتِهِنَّ وَلَا نِسَآئِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُنَّ وَٱتَّقِينَ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدًا ﴿٥٥﴾﴾

آداب دخول البيت النبوي واحتجاب نسائه

﴿يَآ أَيُّـــهَا الذِينَ ءَامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيءِ الاَّ أَنْ يُّوذَنَ لَكُمُ، إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ﴾ نزلت الآية في شيء مخصوص يفعلونه فنهاهم عنه، وهو أنَّهم يدخلون بلا إذن بيت رسول الله ﷺ وقت الطَّبخ، فينتظرون تمام طبخه

ليأكلوا. ويدخل من يدخل بإذن، يأذن له وهو يظنُّ أن لا يلبث، فيلبث إلى أن يتمَّ الطبخ يأكل.

وأمَّا أن يأذن له النبيء ﷺ في وقت الطبخ ويأمره باللّبث حَتَّى يتمَّ، أو في غير وقت الطبخ بإذن لحاجة فيخرج بعدها، كان الطبخ أو لم يكن، أو دخل بإذن وقعد بإذن بعد الأكل لحاجة، أو أذن بعد تمامه، فلا يحرم ذلك.

وعن ابن عبَّاس رضي الله عنهما: نزلت في ناس من المسلمين يتحيَّنون طعام النبيء ﷺ فيدخلون عليه قبل الإدراك، ثمَّ يأكلون ولا يخرجون، ويتأذَّى ﷺ بذلك.

(سبب النزول) ويروى أنّه أطعم ﷺ على زينب بنت جحش تمرًا وشاة. قال أنس: هاجر النبيء ﷺ وأنا ابن عشر، ومات وأنا ابن عشرين، وأمرني أن أدعو الناس ففعلت حَتَّى لا أجد من أدعو، وبقي ثلاثة رجال يتحدَّثون بعد الأكل، فخرج النبيء ﷺ ليخرجوا، وخرجت معه حَتَّى أتى باب عائشة، فرجع إلى باب زينب ولم يخرجوا، ثمَّ رجع إلى باب عائشة ورجعت معه، ثمَّ رجع فوجدهم خرجوا، فدخل ودخلت معه فأرخى الستر، وهو يقول: ﴿يَآ أَيُّهَا اَلذينَ ءَامَنُواْ لاَ تَدْخُلُواْ بُيُوتَ النَّبِيءِ الآَّ أَنْ يُّوذَنَ لَكُمُ،.... يَسْتَحْيِي مِنَ اَلْحَقِّ﴾.

(نحو) ويقدَّر الحرف قبل «أَنْ»، أي إلاَّ بأن يؤذن، أو لأن يؤذن؛ أو يقدر مضاف، أي إلاَّ وقت أن يؤذن، فالمصدر المؤوَّل يقدَّر منصوبا على النيابة عن المضاف، لا على الظرفيَّة، كجيئت طلوع الشمس، لأنَّ نصب المصدر على الظرفيَّة مشروط فيه أن يكون صريحًا، وأجازه بعض ولو غير صريح كالآية، وعليه الزمخشري، وهو محجوج بالذوق، وبعَدَمِ السَّمَاعِ.

(نحو) [قلت:] وكونه إماما في العَرَبِيَّة لا يدفع ذلك عنه، ولو سمع: جئت أن طلعت الشمس، لقدِّر المضاف، أو لاَمَ التوقيت، أي وقت أن طلعت، أو سُمِعَ: أجيء أن تطلع، لَقُدِّر وقت أن تطلع، أو لأن تطلع. واستثناء شيئين فصاعدًا بأداة واحدة بلا عطف ولا إبدال غيرُ جائز، نحو: ما جاء أحد إلا زيد عمرو، ولو سمع نحوً: ما أعطيت أحدا شيئاً إلازيدًا ءانفا، لقدِّر عامل، أي أعطيته آنفًا، وأجاز بعضٌ هذا المثال ونحوه فقط، ولو سمع: ما ضرب زيد إلاَّ عمرا بلا موجب، لقُدِّر: ضربه بلا موجب.

(نحو) وليست الآية من استثناء متعدِّد، فإنَّ «إِلَى طَعَامٍ» متعلِّق بـ«يُوذَنَ» وغير حال من الكاف. و«إِنَاهُ» مفعول لـ«نَاظِرِ»، وليست مستثنيات. وعُدِّيَ «يُوذَنَ» بـ«إِلَى» لتضمُّنه معنى الدعاء، ولاَ يعارض أنَّ «دَعَا» يتعدَّى بنفسه، و«أذن» تعدَّى باللام. و﴿إِنَاهُ﴾: اسم زمان مفعول به، فقيل هو مقلوب «آن»، وقيل: ﴿إِنَاهُ﴾ غايته وتمامه.

﴿**وَلَكِنِ اذَا دُعِيتُمْ**﴾ إلى الطعام، نهاهم أن يأتوا طعامًا لم يُدْعَوْا له، ولا سيما إن كان الدخول بغير إذن، ويحتمل العموم، أي إذا دعيتم لطعام أو غيره ﴿**فَادْخُلُواْ**﴾ إن كان لطعام فالبثوا حَتَّى تأكلوا ولو بانتظار إناه وإن لغيره، فإذا تمَّ ما دعيتم إليه فاخرجوا ولا تنتظروه، إلاَّ إن أمركم، وإذا لم يتبيَّن لكم سبب الدعاء فاقعدوا حتَّى يأذن لكم بالخروج.

﴿**فَإِذَا طَعِمْتُمْ**﴾ أكلتم، وأطعَمْتُهُ صيَّرتُه طاعمًا، أي آكلاً. ﴿**فَانتَشِرُواْ**﴾ تفرَّقوا عن البيت وأهله، ولا تلبثوا، وليس المراد أن يتفرَّق الطاعمون بعض عن بعض، وإن أذن لكم في اللبث فلا بأس ﴿**وَلاَ مُسْتَانِسِينَ لِحَدِيثٍ**﴾ عطف على «نَاظِرِينَ» فالمعنى: غير منتظرين إناه، وغير مستأنسين لحديثٍ، أي طالبين الأنس، واللاَّم للتعليل. أو مستمعين، واللام للتقوية. والمراد: حديث بعض لبعضٍ، أو حديث أهل البيت.

(نحو) ومعنى قولهم إنّ «لاَ» زائدة في مثل هذا أنّ الكلام يتمّ بدونها، إذ ليست عاطفة ولا داخلة على الجملة، لكن جيء بها للنصِّ على عموم السلب، ولا يصحُّ العطف على «غَيْر»، إلاّ إن جعلت «لاَ» اسما معطوفا بالواو مضافا لما بعده.

﴿انَّ ذَالِكُمْ﴾ أي ما ذكر من اللبث والاستئناس والنظر والدخول بلا إذن، كُلٌّ واحد من ذلكم. واختار بعض أنّ الإشارة للّبث. ﴿كَانَ يُوذِي﴾ يضرُّ ﴿النَّبِيءَ﴾ ﷺ إذ يفاجئه أو يفاجئ أهله أو كليهما الداخلُ بلا إذن على حال لا تشاهد، وإذْ يضيق عليه المنزل، وإذ يريد الخلوة لطعام أو كلام أو غيره، فيمتنع لأجل الداخل، وإذ قد يسمعون ما لا يحبُّ أن يسمعوه، أو يرونَ ما لا يحبُّ أن يروه.

﴿فَيَسْتَحْيِي منكُمْ﴾ أن يخرجكم أو يمنعكم عمَّا يؤذيه ﴿وَاللهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ اَلْحَقِّ﴾ وهو إخراجُهم أو منعهم عَمَّا يؤذي، والأكل أو الشرب بلا مناولة للداخل، فإنّه لا حقَّ له فيهما، وهو ﷺ يناولهم ولو لم تطب نفسه لقلّةٍ أو غيرها.

والتعبير بعدم استحيائه تعالى للمشاكلة، والمعنى أن الله عز وجل لم يترك الحقَّ وأمركم بالخروج وتركِ الدخول بوجه غير جائز، والاستحياء في الجملة سبب للترك وملزوم له.

﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ﴾ طلبتم نساء النبيء ﷺ ورضي عَنهُنَّ، المدلول عَلَيهِنَّ بذكر البيوت وبالمقام ﴿مَتَاعًا﴾ شيئًا يتمتَّع به ككوز وإبريق وقصعة، والمراد: إذا أردتم سؤالهنَّ متاعًا ﴿فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَّرَآءِ حِجَابٍ﴾ سترٍ بلا نظر لأشخاصهنَّ، ولو من فوق ثيابهنَّ ﴿ذَالِكُمُ،﴾ ما ذكر من السؤال من وراء حجاب، أو مع

الدخول بإذن وترك الاستـئناس ﴿أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ عَمَّا يخطر للرجال في أمر النساء، ولهنَّ في أمرهم من الطبع والشيطان بواسطة الرؤية والسمع.

وقد وصفهم وإيَّاهنَّ اللهُ بحصول الطُّهر عن ذلك، ولكن أمر الكلِّ بالازدياد فيه لأنَّ «أَطْهَر» اسم تفضيل، والنظر سهم مسموم من سهام إبليس.

(سبب النزول) قال عمر رضي الله عنه: «يارسول الله: يدخل عليك البرُّ والفاجر، فلو أمرت أُمَّهَات المؤمنين بالحجاب» فنزلت آية الحجاب. رواه البخاري والطبري عن أنس. وروى الطبري أَنَّ أزواج النبيء ﷺ يخرجن لقضاء حاجة الإنسان ليلا قبل أن تتَّخذ الكُنُف في البيوت، وكان عمر رضي الله عنه يقول: «يا رسول الله، احجب نساءك» ولا يفعل انتظارًا للوحي، وخرجت سودة ليلا وكانت طويلة فناداها عمر بأعلى صوته: «قد عرفناك ياسودة»، فنزلت آية الحجاب. [قلت:] وقد أحسن رضي الله عنه في ذلك، ولو خجلت سودة، لأنَّ ذلك سعي في صلاحها، ولو كان ظلمًا لنهاه النبيء ﷺ.

قال عمر: وافقت رَبِّـي في ثلاث: قلت: يارسول الله لو اتَّخَذت من مقام إبراهيم مصلًّى، فنزل: ﴿وَاتَّخَذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (سورة البقرة: ١٢٥)، وقلت: يارسول الله، يدخل على نسائك البرُّ والفاجر، فلو أمرتهنَّ بالحجاب، فنزلت آية الحجاب. واجتمعت نساء النبيء ﷺ في الغيرة فقلت: ﴿عَسَىٰ رَبُّـهُ، إِن طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُّـبَدِّ لَهُ، أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ﴾ (سورة التحريم: ٥) فنزلت كذلك.

وفي البخاري والنسائي عن عائشة رضي الله عنها أنَّها كانت تأكل معه ﷺ، وكان يأكل معهما بعض أصحابه، فأصابت يد رجل يدها فكره النبيء

ﷺ ذلك، فنزلت آية الحجاب، ولعلّ الرجل عمر، لمَا روى مجاهد عن عائشة أنَّها كانت تأكل مع رسول الله ﷺ حيسًا في قعب، فمرَّ عمر، فأمر النبيء ﷺ أن يأكل معهما، فأصابت إصبعه إصبعها، فقال: يا رسول الله لو حجبت نساءك ؟ فنزلت آية الحجاب، ولعلّ الآية نزلت لذلك كلّه.

﴿وَمَا كَانَ لَكُمُ، أَن تُوذُواْ رَسُولَ اللهِ﴾ ﷺ في حياته بالدخول بلا إذن واللبث والاستـــئناس، والنظر، وذكره بالرسالة لمزيد قبح ذلك بشأن الرسالة، ولا بعد موته كما قال: ﴿وَلَآ أَن تَنكِحُواْ﴾ تَـــتَـــزَوَّجُوا ولو بلا مَسٍّ ﴿أَزْوَاجَهُ، مِنۢ بَعْدِهِ أَبَدًا﴾ أي من بعد موته.

فإنَّ الرجل تلحقه الغيرة بتزوُّج امرأته ولو بعد موته، يكره في حياته أن يكون ذلك بعد موته، وربَّما كره أيضًا بعد موته، ولا سيما العرب لأنَّهم أشدُّ غيرة، حتَّى إنَّ فتى منهم قتل جارية له يحِبُّها خوفًا أن تقع في يد غيره بعد موته.

وقيل: المراد من بعد تزوُّجه، كان حيًّا أو ميِّـــتًا، فقيل: كُلُّ من كانت زوجًا له لا تَحلُّ في حياته أو بعد موته، فارقها أو أمسكها، مَسَّها أو لم يَمسَّها، كالتي قالت: أعوذ بالله منك، والعامريَّة التي اختارت نفسها، والتي رأى بياضًا بكشحها فقال لها: الحقي بأهلك.

وعلى أنَّ المراد من بعد موته قيل: تحرم أزواجه التسع، أو هنَّ الأزواج له إذ مات عنهنَّ، وأجيب بأنَّ المراد مطلق من تسمَّى زوجًا له، وإذا حَرُمْنَ من بعد موته فأولى في حياته.

(سيرة) وروي أنَّ عمر هَمَّ برجم الأشعت إذ تَزَوَّجَ المستعيذة فأُخبر أنَّها لم يدخل ﷺ بها فتركه. وَتَزَوَّجَ عكرمة بن أبي جهل قتيلة بنت قيس أخت الأشعت، فاهْتَمَّ الصدِّيق أن يحرق عليها بيتها اذ زَوَّجَها أخوها برسول الله ﷺ

وارتدَّ أخوها وحملها إلى حضرموت، فقال عمر: ليست من أزواجه، التي دخل بهنَّ، ولا ضرب عليها حجابًا، فتركها، وقيل: لأنَّها ارتدَّت ثمَّ أسلمت فلم تكن من أزواجه فتركها. ولا يشكُّ عاقلٌ أنَّ سراريه يحرمن على غيره كأزواجه.

﴿ اِنَّ ذَالِكُمْ ﴾ ما تقدَّم من إيذائه ونكاح أزواجه من بعده. وإشارة البعد لشدَّة قبح ذلك ﴿كَانَ عِندَ اللهِ عَظِيمًا﴾ لعظم شأن رسول الله ﷺ حيًّا وميِّتًا، وزاد تأكيدًا بقوله:

﴿ اِن تُبْدُواْ﴾ تُظهروا بألسنتكم ﴿شَيْئًا﴾ من قصد نكاحهنَّ أو تمنِّيه ﴿اَوْ تُخْفُوهُ﴾ في صدوركم، الجواب محذوف تقديره: يعاقبكم، ونابت عنه علَّته في قوله: ﴿فَإِنَّ﴾ لأنَّ ﴿اللهَ كَانَ بكُلِّ شَيْءٍ﴾ أُبْدي أو أُخْفيَ ﴿عَليمًا﴾ غاية العلم، وإن ضمِّن قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ معنى أخبركم الله به جاز أن يكون جوابًا، لكن ضعيف المعنى، والمعنى القويُّ ما ذكرتُ، وأمَّا على معنى: أخبركم أنَّ الله...الخ فهو أشدُّ ضعفًا. والإخبار أيضًا مسبَّب عن العلم وتلويح بالعقاب.

(سبب النزول) لَمَّا نزل الحجاب قال رجل: أننهى أن نكلِّم بنات عمِّنا إلاَّ من وراء حجاب؟ لئن مات ﷺ لنتزوَّجن نساءه، وروي لتزوَّجت عائشة، أو أمَّ سلمة، وكلَّم رجل ابنة عمِّه منهُنَّ فنهاه ﷺ، فقال: إنَّها ابنة عمِّي وما قلت منكرا ولا قالت، فقال: «قد علمت، ولا أحد أغير من الله ولا مِنـــيِّ»، ومضى وقال: عنَّفني من كلام ابنة عمِّي، لئن مات لأتزوَّجنَّها.

وعن قتادة أنَّ طلحة بن عبيد الله قال: إن مات ﷺ تزوَّجت عائشة، وندم ندما عظيما، وقيل: القائل طلحة آخر، وقال منافق ــ بعدما تزوَّج ﷺ حفصة

بعد خنيس بن حذافة، وأمَّ سلمة بعد أبي سلمة ـــ : ما بال محمَّد يتزوَّج نساءنا ؟ لئن مات لأجلنا السهام على نسائه، فنزل لقول هؤلاء كلِّهم: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُوذُواْ...﴾ الآية.

فأعتق الذي قال: عنَّفني على كلام ابنة عمِّي...الخ رقبةً، وحمل على عشرة أبعرة في سبيل الله، وحجَّ ماشيا لذلك.

(سبب النزول) ولَمَّا نزلت، قال الآباء والأبناء ونحوهم: ما نفعل يا رسول الله؟ فنزل قوله تعالى: ﴿**لاَّ جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي ءابَآئِهِنَّ وَلاَ أَبْنَآئِهِنَّ وَلاَ إِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَآءِ اِخْوَانِهِنَّ وَلاَ أَبْنَآءِ اَخَوَاتِهِنَّ**﴾ في أن يكلِّموهنَّ بلا حجاب. وقال الزهري: في أن يبدين زينتهنَّ لهم. وفي حكمهم كلُّ ذي رحم محرم، من نسب أو رحم، والأخوال والأعمام.

ولم يذكرهما الله عَزَّ وَجَلَّ لأنَّهم كالوالدين، ولذكر أبناء الإخوة وبنات الأخوات، لأنَّ علَّتهم عين ما بينهنَّ وبين العمِّ والخال من العمومة والخؤولة، فإنَّهنَّ عمَّات لأبناء الإخوة، وخالات لأبناء الأخوات. ونقول: الآية تمثيل لا حصر، وقد سمَّى الله تعالى إسماعيل أبا وهو عمٌّ في قوله تعالى: ﴿وَإِلَهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ﴾ (سورة البقرة: ١٣٣) .

﴿**وَلاَ نِسَآئِهِنَّ**﴾ أي الموحِّدات فيحتجبن عن المشركات، ولو كتابيات. قال كثير: وعن الموحِّدات الزواني، وعمَّن يصفهنَّ للرجال بلا قصد تزوُّج لمن لا زوج لها ﴿**وَلاَ مَا مَلَكَتَ اَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللهَ**﴾ في كلِّ ما تأتين وما تذرن، ولا سيما عين ما أمرتنَّ به، أو نهيتنَّ عنه، وأكِّد عليهنَّ بالخطاب بعد الغيبة.

﴿**إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا**﴾ حاضرا بعلمه.

[قلت:] ولا يجوز نظر الكفِّ والوجه منهنَّ ولو بلا زينة، ويجوز بروز أشخاصهنَّ مستترات لحاجة، كالسفر للحجِّ والطواف، وكما يسمع الصحابة والتابعون منهنَّ باديات الأشخاص مستترات.

(سيرة) ولَمَّا ماتت زينب بنت جحش رضي الله عنها، نادى عمر أن لا يحضر جنازتها إلاّ ذو محرم لها، مراعاة للحجاب، فدلّته أسماء بنت عميس على قبّة توضع على النعش، كما رأت في الحبشة، ففعل فحضرها الناس مطلقا، وصنعها أيضا لفاطمة رضي الله عنها، وذلك مستحبٌّ، وظاهر كلام عمر الوجوب، ولا بأس به لأنّه يقول به ما أمكن، وإذا لم يمكن كالحجّ والطواف لم يقل به، إلاّ أنّه يشكل عليه ظهور أشخاصهنّ للسائلين من الصحابة والتابعين، فقد يقال: لا تظهرن لهم، يكلّمنهم من وراء حجاب.

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ۚ يَٰٓأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٥٦﴾ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْءَاخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا ﴿٥٧﴾ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾ ﴾

تعظيم النبيء ﷺ والتحذير من إيذائه وإيذاء المؤمنين

﴿ انَّ اللهَ وَمَلآئِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيءِ﴾ قال حسّان بن ثابت:

صلّى الإله ومن يحفُّ بعرشه والطّيّبون على الرسول محمّدا

والنبيء المعهود هو محمّد ﷺ، جمع بين ضميره وضمير الملائكة، لأنّه محض تشريف، أو يقدَّر: إنّ الله يصلّي، فيعطف ملائكته على لفظ الجلالة، و«يُصَلُّونَ» على «يُصَلِّي»، ومرَّ كلام في قوله تعالى: ﴿اذْهَبَ انتَ وَرَبُّكَ فَقَاتلاَ﴾ (سورة المائدة: ٢٤)، وتقدَّم كلام في قوله تعالى: ﴿هَوَ الذي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلآئِكَتُهُ﴾ (سورة الأحزاب: ٤٣)، ووجه اتِّصَال الآية بما قبلها زيادة التشريف: كيف تؤذونه أو تكلّمون نساءه بلا حجاب ؟ أو تتزوّجوهنَّ مع أنّه

تعالى يصلّي وملائكته يصلُّون عليه، وهو أهل لفضل الله، ولو كان نبيئا فقط فكيف وهو نبيء رسول؟ فلذلك ذكره بالنبوءة، وفي ذكره بالنبيء على وجه المعاهد أو الغلبة حتَّى إِنَّهُ المراد تشريف أيضا.

وشرَّفه أيضا بأنَّ الملائكة كلّهم يصلُّون عليه مع كثرتهم، فالإضافة للاستغراق بإضافتهم إليه تعالى. وصلاته تعالى رحمته بالثناء عليه عند الملائكة، وفي الكتب السابقة والأنبياء، وتفضيله على الخلق كلِّهم، وتشفيعه، والمقام المحمود، والوسيلة، وعدم نسخ شرعه بشرع بعده.

﴿يَآ أَيُّهَا الذِينَ ءَامَنُواْ﴾ نادى المؤمنين في الصلاة والسلام عليه تأكيدا بهما وحثًّا، وخصَّهم لأنَّ فضلهما لا يناله المشرك، وهما وسيلة ولا وسيلة له، ولأنَّ شأن المشرك أن يخاطب بالتوحيد ونوابعه لا بالفروع، وقد اختلف في عقابهم على الفروع.

﴿صَلُّواْ عَلَيْهِ﴾ أثنوا عليه بخير، وَلَمَّا عجزنا عن حقيقة ذلك سألنا الله أن يصلّي عليه، والاعتراف بالعجز عن الإدراك إدراك، وكان هذا السؤال صلاةً مِنَّا فنقول:

(**صيغ من الصلاة عليه**) «اللهمَّ صلِّ على محمَّد وعلى آل محمَّد كما صلّيت على إبراهيم وآل إبراهيم إنَّك حميد مجيد، اللهمَّ بارك على محمَّد وعلى آل محمَّد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنَّك حميد مجيد»، رواه كعب بن عجرة.

أو نقول: «اللهمَّ صلِّ على محمَّد وأزواجه وذريَّته كما صلّيت على آل إبراهيم، وبارك على محمَّد وأزواجه وذريَّته كما باركت على آل ابراهيم، إنَّك حميد مجيد»، رواه أبو حميد الساعدي.

أو «اللّهمّ صلّ على محمَّد عبدك ورسولك كما صلّيت على إبراهيم، وبارك على محمَّد وعلى آل محمَّد كما باركت على إبراهيم وآل إبراهيم»، رواه أبو سعيد الخدري.

أو «اللّهُمَّ صلّ على محمَّد وعلى آل محمَّد، وبارك على محمَّد وعلى آل محمَّد كما صلّيت وباركت على إبراهيم وآل إبراهيم في العالمين إنَّك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم»[1].

أو «اللّهُمَّ اجعل صلواتك ورحمتك وبركاتك على محمَّد وعلى آل محمَّد كما جعلتها على إبراهيم إنَّك حميد مجيد»، رواه ابن بريدة إلى غيرذلك، فعلمنا أنَّ المراد التمثيل لا التخصيص.

وفي قوله: «كما صلّيت على إبراهيم» تشبيه الأعلى بالأدنى، وهو جائز، كقوله تعالى: ﴿مَثَلُ نورِهِ﴾ (سورة النور: ٣٥) ، وقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (سورة الرحمن: ٥٨) . ولا يطّرد جعل «كما صلّيت على إبراهيم» راجعًا إلى الصلاة على الآل فيكون تشبيه الأدنى بالأعلى، لأنَّه لا يتمُّ في الرِّوايات التي لم يذكر فيها الآلُ، وقد يُقال: ذلك التشبيه قبل أن يعلم أنَّه أفضل من إبراهيم وغيره، وَلَمَّا عُلِمَ أنَّه أفضل لم يترك ذلك التَّشبيه لما علمت من جواز تشبيه الفاضل بالمفضول، أو وَكِلَ تركه إلى الإخبار بأنَّه أفضل.

ويجزي الاقتصار على صلّى الله عليه وسلّم، أو صلى الله على سَيِّدنَا محمَّد وسلّم، كما ورد في روايات بلا ذكر آل وصحب وأزواج وذرِّيـة، ولا ذكر إبراهيم.

١-رواه **الربيع** في كتاب الأذكار (٢٣) باب في التسبيح والصلاة على رسول الله ﷺ ، رقم ٥٠٥. من حديث ابن مسعود. ورواه **البخاري** في الدعوات (٣١) باب الصلاة على النبيء ﷺ ، رقم٥٩٩٦. من حديث كعب بن عجرة.

(فقه) والأوسط من الأقوال: وجوب الصلاة عليه إذا ذكر، لنحو حديث: «**من ذُكِرْتَ عنده ولم يُصَلِّ عليك أبعدهُ الله**»[١]، وهو شامل لما إذا سَمِعهُ قارئ من قارئ في مجلس القراءة. والمصلِّي في الآية هو الله سبحانه وتعالى، وتجوز بصيغة الإخبار المراد به الطلبُ، بأن تقول: صلَّى الله على محمَّد...إلخ.

قال في بغية المسترشدين: إذا قال الشخص: اللّهُمَّ صلِّ وسلِّم على سَـيِّدنَا محمَّد، أو سبحان الله أَلْفَ مَرَّة، أو عَدَدَ خَلْقه، فقد جاء في الأحاديث ما يفيد حُصُول ذلك الثواب المُرتَّبِ على العدد المذكور، كما صرَّح بذلك ابن حجر، وتردَّد فيه محمَّد الرملي[٢]، وليس هذا من باب: لك الأجر على قدر نصَبِكَ، بل هو من باب زيادة الفضل الواسع والجُود العظيم.

وقال الشيخ سليمان[٣] جمل في حاشيته على المنهج: قال بعض مشايخنا عند قول الفاكهاني[٤] في شرح القطر: صلوات الله عدد حبَّات الأرض وقطر الندى،

١- أورده **الهيثمي** في المجمع: ج١٠، ص١٦٥، **والنووي** في الأذكار، ص١٠٧، **والطبري** في الكبير: ج١٩، ص٢٩١، رقم٦٤٩. بلفظ: «من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك فأبعده الله قل: آمين، فقلت: آمين». وَأَوَّله: «إنَّ رسول الله ﷺ رقى عتبة المنبر فقال...» من حديث مالك بن الحويرث عن أبيه عن جدِّه.

٢- هو محمَّد بن أحمد بن حمزة الرملي الشافعي: فقيه الديار المصرية، يقال له: الشافعي الصغير، ولد بالقاهرة سنة ٩١٩هـ. وله شروح وحواش كثيرة، منها: نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج في فقه الشَّافعيَّة، توفي سنة ١٠٠٤هـ. الزركلي: الأعلام، ج٦، ص٧.

٣- سليمان بن منصور العجيلي الأزهري المصري: فاضل من أهل منية عجيل، انتقل إلى القاهرة، له مُؤَلَّفَات منها: حاشيته على تفسير الجلالين، توفي سنة١٢٠٤هـ. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص١٣١.

٤- الفاكهاني المكي أبو السعادات: فقيه حنبليٌّ، ولد بِمَكَّةَ سنة ٩٢٣هـ عارف بالآداب، وترك كتبا كثيرة، وله رسالة في اللغة. توفي بالهند سنة ٩٩٢هـ. الزركلي: الأعلام، ج٦، ص٧.

فإن قلت: هل يكتب بهذا اللفظ صلوات عَدَدَ حبَّات الأرض وقطر الندى؟ قلت: أخرج ابن بَشْكَوَال أنَّه ﷺ قال: «**من صلَّى عليَّ في يوم خمسين مرَّة صافحتُه يوم القيامة**». وذكر أبو الفرج عبدوس رواية عن أبي المظَفر أنَّه سأل عن كَيفيَّة ذلك فقال: «إنْ قال: اللهم صلِّ على محمَّد خمسين مَرَّة أجزاه إن شاء الله تعالى، وإن كرَّر ذلك فهو أحسن».

ويؤيده أنَّه ﷺ لَمَّا دخل على بعض نسائه فرآها تُسبِّح وتعدُّ بالحَصَى قال: «**لقد قلتُ كلمةً عدلت بها جميع ما قلت: سبحان الله وبحمده عدد خلقه، ورضا نفسه، وزنة عرشة، ومداد كلماته...**»[1] الحديث، فإنَّه نصٌّ في أنَّه من قال: اللهمَّ صلِّ على محمَّد ألف مَرَّة أو عدَدَ خلقك يكتب له بهذا اللفظ صلوات عدد الألف والخلق. انتهى.

﴿**وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا**﴾ ادعوا لَهُ بالسلامة من النقائص والآفات، تقول: اللهمَّ سلِّم على النبيء، أو السلام عليك أيُّها النبيء، أي السلامة، أو السلام اسم لله عز وجل، أي السلام مُداوِمٌ على حفظك، أو حفظ السلام ثابت عليك، أو السلام الانقياد من الناس والإقبال وعدم المخالفة لك.

ومعنى قول الله عز وجل: السلام عليك، إخبار بالخير، أو بمعنى أريدُ لك الخير، ومعنى «اللَّهُمَّ سَلِّم على النبيء»: اللَّهُمَّ قُل السَّلام على النبيء، أو أوْجد السلامة له، أو سَلِّمْه عن النقائص، أو مِمَّا يكره، ولا يلزم أن نقول في تسليمنا «تَسْلِيمًا» بل ذكره الله عز وجل تأكيد علينا، لا لنذكره تأكيدًا له تعالى.

١- رواه **مسلم** في كتاب الذكر والدعاء (١٩) باب التسبيح أَوَّل النهار وعند النوم، رقم ٧٩ (٢٧٢٦) بنفس المعنى وزيادة، وَأَوَّله هو: «أنَّ النبيء ﷺ خرج من عندها (جويرة) بكرة...». و**النسائي** في كتاب عمل اليوم والليلة، ص١٦١-١٦٢، و**أحمد** في مسنده: ج٦، ص٣٢٥ و٤٢٩. من حديث ابن عبَّاس.

وذكر في شرح دلائل الخيرات قولين في ذكر «تَسْلِيمًا» في صلاتنا عليه ﷺ . ولم يُؤكِّد الصلاة لأنَّ في صلاة الله عليه وملائكته، والتأكيد بـ«إنَّ»، والجملة الاسميَّة، وتجدُّد الخبر فيها، تأكيدًا عظيمًا.

وقيل: حذف من كُلٍّ ما ثبت في الآخر، على طريق الاحتباك، أي صلُّوا عليه تصلية، وَسلِّموا عليه تسليمًا، ولفظ تصلية ليس حرامًا ولا خروجًا عن العَرَبيَّة، وقد ورد قليلا، ولا يتوهَّم الإحراق، فقله ولا بأس.

[قلت:] وجعل الله عز وجل ﴿صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ بوزن شطر بيت من الكامل، بدون أن يقرأ بوزن الشعر، وذلك إعظام له ﷺ ، وذكر بعض قومنا وأقرَّه السخاوي في القول البديع، أنَّ الصلاة والسلام عليه ﷺ أفضلُ من زكاة المال الواجبة لأنَّهما فعلهما الله تعالى وأمر بهما ملائكته، وسائر عباده عمومًا، والزكاة أوجبها على عبده وَحْدَهُ إذا كان له نِصاب، **ولهما فضل لا ينتهي.**

فمعنى الصلاة عليه أن تزاد له الرحمة، كما قال: «**اسألوا لي الوَسِيلة**»[1]. فهو ﷺ ينتفع بالصلاة عليه، وأخطأ من قال غير ذلك، لأنَّ المصلِّي عليه يقول: يارَبِّ افعل له كذا، وكيف يأمرنا أن نقول ذلك بدون أن يفْعَلَ لَهُ ذلك؟ بل جميع أعمال أمَّته في صحيفته دون أن ينقص عنهم الأجر.

[قلت:] وللشيخ ما يفعل التلميذ، ولشيخ الشيخ مثلاه، وللثالث أربعة، وللرابع ثمانية، وللخامس ستَّة عشر، وهكذا فللسَّلف فضل على الخلف، وإذا فرضت المراتب عشرا بعده ﷺ كان له ألف وأربعة وعشرون، وإذا اهتدى بالعاشر حادي عشر صار له ﷺ ألفان وثمانية وأربعون. قال بعض:

فلا حُسْنَ إلاَّ من مَحَاسِنِ حُسْنِه ... ولا مُحْسِـنٌ إلاَّ لَهُ حَسَـنَاتُهُ

١- رواه أحمد في مسنده: ج٢، ص٣٦٥.

وجرت عادة أهل هذه البلاد أن يقتصروا على ذكر المهاجرين والأنصار بعد ذكره ﷺ ، ورأيت في الحديث ما يدلُّ على أنَّه كناية عن جميع الصحابة، وليقصد المصلِّي هذا العموم.

[قلت:] ولا يجب ذكر الصحب والأزواج والذرِّيـــَّة وإبراهيم وآله والبركة، وذلك استحباب لا وجوبٌ ولو فسِّرت به الآية، ويجب ذكر الآلِ لقوله ﷺ : «**لا تصلُّوا عليَّ الصلاة البتراء** -بترك ذكر الآلِ- **بل قولوا: اللَّهُمَّ صلِّ وسلِّم على محمَّد وعلى آل محمَّد**»[1] ويجزي الإضمار.

أخرج الحاكم [رقم٧٢٥٦] وصحَّحه عن كعب بن عجرة رضي الله عنه ، قال: قال رسول الله ﷺ : «**احضروا المنبر**»، فحضرناه، فلمَّا ارتقى درجة قال: «**آمين**»، فلمَّا ارتقى الدرجة الثانية قال: «**آمين**» فلمَّا ارتقى الدرجة الثالثة قال: «**آمين**» فلمَّا نزل قلنا: يا رسول الله لقد سمعنا منك اليوم شيئًا ما كُنـــَّا نسمعه؟ قال: «**إنَّ جبريل عرض لي فقال : بَعُدَ من أدركَ رمضان فلم يغفر له، قلت: آمين، فلمَّا رقيت الثانية قال: بَعُدَ من ذكرت عنده فلم يُصلِّ عليك، قلت: آمين، فلمَّا رقيت الثالثة قال: بعُدَ من أدْرَك أبويه الكبر عنده أو أحدهما فلم يدخلاه الجَنـــَّة، قلت: آمين**».

وابن حبَّان في صحيحه [رقم٤٠٩]: صعد رسول الله ﷺ المنبر فَلَمَّا رقى عتبة قال: «**آمين**»، ثمَّ رقى أخرى فقال: «**آمين**»، ثمَّ رقى عتبة ثالثة فقال: «**آمين**»، ثمَّ قال: «**أتاني جبريل فقال: يا محمَّد من أدرك رمضان ولم يغفر له، فأبعده الله، قلت: آمين، ومن أدرك والديه أو أحدَهُمَا فدخل النار فأبعده الله، فقلت: آمين، ومن ذكرت عنده فلم يُصَلِّ عليكَ فأبعده الله، قلت: آمين**».

١- انظر تخريجه ص٣٣٧.

و الطبراني بسندين أنَّه ﷺ ارتقى المنبر فأمَّن ثلاث مَرَّات، ثمَّ قال: **أتدرون لم أمَّنت؟»** قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**جاءني جبريل** عليه السلام **فقال: أنَّه من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك فأبعده الله وأسحقه، قلت**: آمين، **ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يَبَرَّهُمَا دَخل النار فأبعده الله وأسحقه، قلت**: آمين، **ومن أدرك رمضان فلم يغفر له دخل النار فأبعده الله وأسحقه، قلت**: آمين».

و البزار [رقم٢٤٠] والطبراني أنَّه ﷺ دخل المسجد وصعد المنبر فقال: «**آمين آمين آمين**»، فلمَّا انصرف قيل: يا رسول الله رأيناك صنعت شيئًا ما كنت تصنعه، فقال: «**إنَّ جبريل تبدَّى لي في أَوَّل درجة فقال يا محمَّد، من أدرك والديه فلم يدخلاه الجَنَّة فأبعده الله، ثمَّ أبعده، فقلت**: آمين، **ثمَّ قال لي في الدرجة الثانية: ومن أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فأبعده الله ثمَّ أبعده، ثمَّ تبدَّى لي في الدرجة الثالثة فقال: ومن ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك فأبعده الله ثمَّ أبعده، فقلت آمين**».

وابنا خزيمة وحبَّان [رقم ٩٠٧] في صحيحه واللفظ له أنَّه ﷺ صعد المنبر فقال: «**آمين آمين آمين**»، قيل: يا رسول الله، إنَّك صعدت المنبر فقلت: آمين آمين آمين، فقال: «**إنَّ جبريل** عليه السلام **أتاني فقال: من أدرك شهر رمضان فلم يغفر له فدخل النار فأبعده الله، قُلْ** آمين، **فقلت**: آمين، **ومن أدرك أبويه أو أحدهما فلم يبرَّهما فمات فدخل النار فأبعده الله، قل** آمين، **فقلت**: آمين، **ومن ذكرت عنده فلم يصلِّ عليك فمات فدخل النَّار فأبعده الله، قل** آمين، **فقلت**: آمين».

والترمذي [رقم ٣٥٤] وقال: حسن غريب: «**رَغَمَ** (أي بفتح المعجمة ذُلَّ، أو بكسرها لَصِقَ بالرغام، وهو التراب ذُلاًّ وَهَوَانًا) **أنْفُ من ذكرت عنده لم**

يصلِّ عليك، ورغم أنف رجل دخل عليه رمضان ثمَّ انسلخ قبل أن يغفر له، ورغم أنف رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجَنَّة».

والطبراني عن حسين بن علي قال: قال رسول الله ﷺ : «**من ذكرت عنده فَخَطِئَ الصلاة عليَّ خَطِئَ طريقَ الجَنَّة**». وروي مرسلا عن محمَّد بن الحنفيَّة، قال الحافظ المنذري: وهو أشبه، وفي رواية لابن أبي عاصم عن محمَّد بن الحنفيَّة، قال: قال رسول الله ﷺ : «**من ذكرت عنده فنسي الصلاة عليَّ خَطِئَ طريقَ الجَنَّة**» وابن ماجه والطبراني وغيرهما بسند فيه مختلف فيه: «**من نسي الصلاة عليَّ خَطِئَ طريقَ الجَنَّة**».

والنسائي وابن حبَّان [رقم٩٠٣] في صحيحه والحاكم [رقم٢٠١٥] وصحَّحه عن الحسين عن النبيء ﷺ ، والترمذي [رقم٣٥٤٦] وزاد في سنده علي بن أبي طالب وقال: حسن صحيح غريب: «**البخيل من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ**». وابن أبي عاصم: «**ألا أخبركم بأبخل الناس**»؟ قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ فذلك أبخل الناس**».

[قلت:] **تنبيه:** عدَّ هذا هو صريح هذه الأحاديث، لأنَّه ﷺ ذكر فيها وعيدًا شديدًا كدخول النار وتكرار الدعاء من جبريل، والنبيء ﷺ بالبعد، والسحق، ومن النبيء ﷺ بالذل والهوان، والوصف بالبخل، بل بكونه أبخل الناس، وهذا كله وعيد شديد جدًّا فاقتضى أنَّ ذلك كبيرة، لكن هذا إنَّما يأتي على القول الذي قال به جمع من الشَّافعيَّة والْمَالكيَّة وَالحَنفيَّة والحنابلة أنَّه تجب الصلاة عليه ﷺ كلمَّا ذُكر، وهو صريح هذه الأَحاديث، وهو صحيح.

ولا يقال: إنَّه مخالف للإجماع قبل هؤلاء على أنَّها لا تجب مطلقًا في غير الصلاة، إذ لا إجماع في ذلك، ومن ادَّعاه فقد أخطأ، بل الإجماع على

وجوب الصلاة والسلام، فمن قائل: كما ذُكر، ومن قائل: في الصلاة، ومن قائل ومن قائل...

(فقه) فعلى القول بالوجوب يمكن أن يقال: إنَّ ترك الصلاة عليه ﷺ عند سماع ذكره كبيرة، ولا يصحُّ ما قيل: الأكثرون على عدم الوجوب، فهو مشكل مع هذه الأحاديث الصحيحة، اللَّهمَّ إلا أن يحمل الوعيد فيها على من ترك الصلاة على وجه يشعر بعدم تعظيمه ﷺ، كأن يتركها لاشتغاله بلهو ولعب محرَّمٍ، فهذه الهيئة الاجتمَاعيَّة لا يبعد أن يقال: إنَّ حقَّها من القبح والاستهانة بحقه ﷺ ما اقتضى أنَّ الترك حينئذ لما اقترن به كبيرة مُفَسِّق، وحينئذ يتَّضح أنَّه لا معارضة بين هذه الأحاديث وما قاله الأَئمَّة من عدم الوجوب بالكُلِّـيَّة، **فتأمَّل ذلك فَإِنَّهُ مهمٌّ، ولم أر من نبَّه على شيء منه ولا بأدنى إشارة**، قاله ابن حجر.

وما ادُّعيَ من الإجماع على عدم الوجوب عند سماع ذكره دَعْوَىَ بلا دليل، فهي باطلة، والوجوب باق. كيف تجمع على بطلان ما وجب في الأحاديث الصحاح، وإنَّما ذلك غفلة ممَّن لا يُصَلِّي عليه، وَمِمَّن لا يأمر بها، أو تقليد لقول من يقول: تجب مرَّة في العمر، وعند الصلاة، أو يوم الجمعة، أو في كذا أو في كذا فقط.

وقد ضعَّف ابن حجر دعوى ذلك الإجماع بقوله: «وإن قيل (بصيغة التمريض مع أداة الشرط، وكذا دعوى) : إنَّ الوعيد إنَّما هو على من تركها اشتغالا بلهو ولعب دعوى لا دليل عليها فهي باطلة»وعلى كُلِّ حال يشرك من الجهلاء من حرَّم الصلاة عليه عند سماعه في التلاوة وَمِمَّن يقرأ معه.

وفي الأثر: بلغنا عن النبيء ﷺ كان يطلع درجات منبره وهنَّ ثلاث درجات، فأوَّل درجة طلعها قال: «آمين»، فطلع الثانية، فقال: «آمين»، فطلع

الثالثة، فقال: «آمين»، فَلَمَّا انصرف قيل: يا رسول الله حَدِّثنا على ماذا قلت آمين ثلاث مرَّات؟ فقال: «**سمعت الملائكة يَتَكَلَّمُون في السماء يقولون: من ذكرت عنده يامحمَّد ولم يصلِّ عليك فجزاؤه جهنَّم، ومن أدرك أحد والديه أو كليهما ولم يدخل به الجَنَّة فجزاؤه جهنَّم، ومن أدرك رمضان في أهله ولم يدخل به الجنَّة فجزاؤه جهنَّم، ولذلك أمَّنت ثلاثًا**».

ويقال: ثلاثة تتعجَّب منهم الملائكة: من ذكر عنده لا إله إلاَّ الله و لم يذكره هو، ومن صلِّيَ على محمَّد عنده و لم يصلِّ هو عليه، ومن مَرَّ على أخيه المسلم و لم يسلم عليه بالكبر.

﴿ **انَّ الذينَ يُوذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ،** ﴾ الإيذاء الإيجاع، والله متزّه عنه، فإمَّا أن تستعمل الكلمة في معنييها الحقيقي والمجازي، الإيجاع له ﷺ والمخالفة له تعالى، لأنَّها في الجملة سبب للوجع ومَلْزُومَةٌ له، وإمَّا أن يحمل على عموم المجاز، وهو فعل ما لا يُحبُّ الله ورسوله، وقد قيل: تَعَدُّدُ المعمول بمترلة تعدُّدِ العامل، كَأَنـــَّهُ قيل: يوجعُون الرسُولَ ويخالفون الله، وهذا يقوِّي ما ذكرت من الجمع بين الحقيقة والمجاز.

وإمَّا أن يراد الرسول فقط، وذكر الله تعظيمًا لَه ﷺ، كأنَّ مُؤذيه مؤذٍ لله تعالى عن هذا المستحيل وغيره. وإمَّا أن يقدَّر: يؤذون أولياء الله ورسوله، وفيه ضعف، وكُلُّ ما يؤذي الله يؤذي الرسول، وما يؤذيه ﷺ يؤذي الله تعالى، وهو المعصية مطلقًا.

ويجوز إرادة المناسبة بأنَّ إيذاء الله تعالى جعل الشَّريك له، وجعل الملائكة بَنَاته، وقول اليهود: «يد الله مغلولة»، والنصارى: «المسيح ابن الله»، وإلحاد الملحدين في أسمائه، وتصوير المصورين.

وفي الحديث القدسي: «**كذَّبني ابن آدم ولم يكن له ذلك، يقول: لن يعيدني، وما بَدْؤُهُ بأهون من إعَادته، ويشتُمُني ولم يكن له ذلك، يقول: اتَّخَذَ الله ولدًا، وأنا الأحد الصَّمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفؤًا أحد**»[1]. ويروى: «**من أظلَمُ ممَّن ذهب يخلق كخلقي؟ فلْيخْلُقُوا ذَرَّةً أو حبَّةً أو شعيرة**»[2]. ويروى: «**يؤذيني ابن آدم بسبِّ الدَّهر وأنا الدَّهرُ، بِيَدِي أُقلِّبُ الليل والنهار**»[3] أي ينسبون الأمور للدَّهر وأنا الفعَّال لاَ الدَّهر.

وإيذاء الرسول: تكذيبه، وقولهم: شاعرٌ ومجنونٌ وساحرٌ، حاشاهُ، وكسر رَبَاعيَّته، وشجُّ وجهه في أحد، والطعنُ في نكاح صفيَّة بنت حيي، وفي تزوُّجه زوج متبنَّاه، وإعطائه أشراف العرب كثيرًا، والأقرع وعيينة مائة مائة من الإبل، حتَّى قالوا: «هذه قسمة ما أريد الله تعالى بها».

﴿**لَعَنَهُمُ اللهُ**﴾ أبعدهم ﴿**فِي الدُّنْيَا**﴾ عن الهُدَى ﴿**وَالاَخِرَةِ**﴾ عن الجنَّة، يبقى لعلَّهم لاَ ينالوها بل يموتون أو يحيون في غير النار، فقال: بل يحيون في النار، وهو قوله تعالى: ﴿**وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا**﴾ في الآخرة.

﴿**وَالذِينَ يُوذُونَ الْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ**﴾ في قول أو فعل ﴿**بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا**﴾ بلا جناية اكتسبوها موجبة للإيذاء، فإنَّ المؤمن والمؤمنة قد يصدر منهما ما يوجب الإيذاء، بخلاف الله ورسوله.

١- رواه **البخاري** في كتاب التفسير (١١٢) باب تفسير الإخلاص، رقم ٤٩٧٤، من حديث أبي هريرة. و**المناوي** في الإتحافات: ص٥٥، رقم١٢٠. من حديث ابن عبَّاس.

٢- أورده **ابن حجر** في الفتح: ج١٠، ص٣٨٥. و**البيهقي** في كتاب الأسماء والصفات، ص٢٠٨. (م.أ.ح).

٣- رواه **البخاري** في كتاب التفسير (٤٥) باب تفسير سورة حم (الجاثية)، رقم ٤٨٢٦. و**المناوي** في الإتحافات، ص٨٨، رقم٢٠٦. من حديث أبي هريرة.

قال عمر ﷺ لأُبي بن كعب في شأن قوله تعالى: ﴿وَالذينَ يُوذُونَ...﴾: يا أبا المنذر، قرأت البارحة آية من كتاب الله تعالى، فوقعت فيَّ كُلَّ موقع، يعني لَعَلَّهُ ضرب أو حدَّ أو كلَّم بسوء من لا يتأهَّلُ لذلك عند الله، بتقصير منه، فقال: **لست من أهلها وإنَّما أنت مُعلِّم ومُقوِّم** بحسب ما ظهر لك، ولا يكلِّفك الله الغيب. ويروى أنَّه قال: والله إِنِّي لأعاقبُهم وأضربهم، فقال: لست منهم.

﴿**فَقَدِ احْتَمَلُواْ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا**﴾ خبر «الذينَ»، وقُرن بالفاء تشبيها له باسم الشرط في العموم المراد، ولو كان سبب النزول مخصوصين، فيدخلون أوَّلاً، وهم: عبد الله بن أُبي وناس معه، قذفوا عائشة رضي الله عنها، فخطب رسول الله ﷺ ، وقال: «من يعذرني من رجل يؤذيني، ويجمع في بيته من يؤذيني». وقوم طعنوا في أخذ النبيء ﷺ صفيَّة بنت حيي رضي لله عنها، وزناة بتعرَّضون للإماء إذا خرجن ليلاً لقضاء حاجة الإنسان، وَرُبَّمَا تعرضوا للحرائر جهلا أو تجاهلاً، والمرجفون.

وعن مجاهد: يلقى الجَرَبُ على أهل النار فيَحُكُّون حَتَّى تبدو عظامهم، فيقولون: «يا ربَّنا بم أصابنَا هذا؟» فيقال: بإيذائكم المسلمين. قالت عائشة رضي الله عنها: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أيُّ الرِّبا أربى عند الله؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**أربى الرِّبا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم**» ثمَّ قرأ الآية. وفي الحديث القدسي: «**من آذى لي وَلِيًّا فقد آذنته بحرب، ومن أهان لي وليًّا فقد بارزني بالمحاربة**»[1].

١-روى أبو يعلى في مسنده ما يقاربه لفظا في كتاب حديث ميمونة زوج النبيء ﷺ ، رقم٢ ٥٠.

وقيل: نزلت الآية في عليٍّ كانوا يؤذونه ويُسْمِعُونه، وقيل: في عائشة وما قذفت به. ومعنى ﴿احْتَمَلُوا﴾: تكلَّفوا فعل البهتان، شبيهًا بتكليف حمل الشيء الثقيل، وذلك في نفس الأمر، وأمَّا عندهم فَسَهلٌ مشتهى. والبهتان كذب فظيعٌ يُبْهِت المكذوب عليه.

وقد قيل: نزلت في من يتتبَّع الإماء للزنى إذا خرجن ليلاً لقضاء حاجة الإنسان، وربَّما وافقوا الحرائر فيمتنعن ويشكون إلى أزواجهنَّ، فنهى الله الناس عن التطلُّع والإيذاء وأمر النِّساء بالستر فقال:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾

الأمر للنساء بالستر والحجاب

﴿يَآ أَيـُّهَا النَّبِيءُ قُل لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ﴾ فاطمة ورقيَّة وأمِّ كلثوم **﴿وَنِسَآءِ الْمُومِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلاَبِيبِهِنَّ﴾** معنى إدناء الجلباب تقريبه من رأسها وجسدها، بحيث يسترهنَّ، بحيث لا يبقى هواء ينكشفن عنه. وعدِّي بـــ«على» لتضمُّن معنى الإرخاء.

(لغة) والجلباب: ثوب يسترها من فوق لأسفل، ويسمَّى الملحفة، وقيل: المِقْنَعَة وهي لباس الرأس وما يليه، وقيل: ثوب أوسع من الخمار ودون الرداء. والحاصل: الأمر بستر ما يبدو من أبدانهنَّ أو من ثياب زينتهنَّ.

قال ابن سيرين عن عبيدة السلماني في هذه الآية: تستر رأسها ووجهها كلَّه إلاَّ عينها اليسرى، قال السُّدِّي: أو عينها اليمنى، وهو رواية عن ابن عبَّاس، وفي أخرى عنه: أو عينيها، وذلك ردٌّ على ما في بعض الكتب من أنَّ ذلك فعل

الفاسقات، وأنَّ غيرهنَّ تستر الوجه كلَّه، ولعلَّه أريد أنَّ الفاسقات في بلدة من البلدان يفعلن ذلك و لم يرد التحريم.

وعن سعيد بن جبير: يرخين الثوب على الوجه كلِّه وينظرن أسفل، وما يبدو من نساء الجَاهلِيَّة إلاَّ الوجه فأمر الله بستره أيضا.

(فقه) وأنت خبير بأنَّ الوجه ليس عورة، قيل: مطلقا، وقيل: إن لم تكن فيه زينة، فليس مرادا بالآية، إلاَّ أنَّ السنَّة ستره، ويجوز النظر إليه بلا شهوة.

(نحو) والفعل في «يُدْنِينَ» مجزوم المحلِّ في جواب الأمر. ومفعول «قُلْ» محذوف، ومعناه: اذكرْ، أي اذكر لهنَّ وجوب الستر يدنين. أو «يُدْنِينَ» إخبار ومعناه الأمر، أي قل: أدنين. و«جَلاَبِيب» مفعول به لـ«يُدْنِي»، و«مِنْ» صلة في الإيجاب والمعرفة، عند مجيز ذلك، أو المفعول محذوف منعوت بـ«مِن جَلاَبِيبِهِنَّ» أي شيئا من جلابيبهن، وهو بعض من كلِّ جلباب.

﴿ذَٰلِكَ﴾ الإدناء ﴿أَدْنَىٰٓ﴾ أقرب ﴿أَنْ يُّعْرَفْنَ﴾ إلى أن يعرفن فلا يقربهنَّ أحد كما يقرب أهل الريبة الإماء، كما قال: ﴿فَلاَ يُوذَيْنَ﴾ كما تؤذى الأَمَة والمتبرجة المطموع فيها، وذلك إزالة لبعض الشرِّ، وبعض الشرِّ أهون من بعض، ولا عذر لهم في الإماء.

ونهوا عن الزنى ومقدِّماته مطلقا بالحرائر والإماء.

[قلت:] ويجوز بلا ترفُّع ولا رئاء أن يلبس العالم ما يميِّزه ليؤخذ بقوله، وليترك المنكر، وكان عمر رضي الله عنه يضرب الأَمَة بدرَّته إذا تشبَّهت بالحرَّة، ورأى أَمَة مقنَّعة فضربها، فقال: ألقي القناع لا تتشبَّهي بالحرائر. ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا﴾ لمن عصى وتاب أو عصى و لم يعتقد الإصرار، وقد دان بالتوبة وذلك في النظر وعدم التستُّر بعد نزول الآية ﴿رَّحِيمًا﴾ للتائب والتائبة، أو ﴿غَفُورًا رَّحِيمًا﴾

مطلقا لمن تاب، ودخل هؤلاء وغيرهم، أو ﴿رَحِيمًا﴾ بعباده إذ راعى في مصالحهم أمثال هذه الجزئيات.

(فقه) والتوبة أربعة أقسام: الأوَّل التوبة أن يتوب ويستقيم على العبادة ولا يحدِّث نفسه بالعود إلاَّ ما لا ينفكُّ عنه البشر إلى أن مات، ولو كان ذلك في آخر عمره، وصاحبها ذو النفس المطمئنَّة تبدَّل سيِّئاته حسنات.

الثاني: أن يتوب ويستقيم على الطاعة وكلَّما فعل ذنبا تاب وتأسَّف ولام نفسه وعزم أن لا يعود، وصاحبها ذو النفس اللوَّامة، وفي الحديث: «**المؤمن واه راقع**»[1] أي ضعيف بالذنوب، «راقع» أي بالتوبة.

الثالث: أن يتوب ويستقيم على الطاعة إلاَّ أنَّ نفسه تغلبه في بعض الذنوب، يستمرُّ عليه ويندم إذا فعله ولا يقهر نفسه بالعزم على عدم العود وهو يطمع في التوبة.

الرابع: أن يتوب ويستقيم ثمَّ يذنب ولا يحدِّث نفسه بالتوبة إلى الموت.

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾

١- أورده **الهيثمي** في المجمع: ج١٠، ص٢٠١. و**المنذري** في الترغيب ج٤، ص٩٠، رقم ٩، مع زيادة: «فسعيد من هلك على رقعة». و**ابن الجوزي** في العلل المتناهية: ج٢، ص٢٠٤، من حديث جابر بن عبد الله.

تهديد المنافقين وجزاؤهم

﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ﴾ عن إظهار النفاق والإيذاء، ﴿وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ عن إظهار مرضهم، وما يتولَّد منه من التأثُّر بكلام المنافقين ووسوستهم، وهم قوم ضعف إيمانهم، استعار لذلك الضعف اسم المرض، ﴿وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ﴾ عن الإرجاف، وهم اليهود المحرِّكون لقلوب المؤمنين بالتخويف، بنشر أخبار السوء الكاذبة عن سرايا المسلمين، أو الآتون بالأخبار المتحرِّكة، أي المضطربة غير الثابتة، وأصل الإرجاف: التحريك للجسم، استعير لذلك التغيير، واشتقَّ منه على التبعيَّة: مرجف.

وعن عكرمة وعطاء: المرض حبُّ الزنى، وقيل: الثلاثة واحد، أي لئن لم ينته الجامعون بين النفاق ومرض القلب، والإرجاف في المدينة.

﴿لَنُغْرِيَنَّكَ﴾ لنلصقنَّك، أي نحرِّشنَّك ﴿بِهِمْ﴾ لا تفارقهم حتَّى تهلكهم بما ذكر بعد، وذلك مأخوذ من الغراء، وهو ما يلصق به الشيء، والمراد التحضيض، استعير له الإغراء، واشتقَّ منه: نُغري.

﴿ثُمَّ لاَ يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ﴾ «ثُمَّ» للترتيب الرتبي، فإنَّ الخروج عن المدينة أعظم شيء عليهم، لشدَّة مفارقة الوطن، وشدَّة مفارقة الرسول، لا لحبِّهم له، لأنَّهم لا يحبُّونه بل للإهانة تلحقهم بالطرد عنها ﴿إِلاَّ قَلِيلاً﴾ زمانا قليلا، أو جوارا قليلا قدر ما يتبيَّن أنَّهم تابوا أو أصرُّوا، وما يجمعون مالهم وعيالهم ورحالهم، ولا ينظرون إلى أن يجدوا مترلا آخر.

(فقه) كما ينظر من لزمه الخروج من دار سكنها بوجه شرعيٍّ إذا تمَّ أجل السكنى أو سكنها بهبة وبلا أجل فأرادها صاحبها ولمالكها أجرة ما زاد بالسكنى على الكراء.

(نحو) ﴿مَّلْعُونِينَ﴾ يتخرَّج عن استثناء شيئين بأداة واحدة، وبلا عطف ولا إبدال بنصبه على الذمِّ، أو بتقدير كلام مستأنف، أي يجاورونك ملعونين، أو بجعله حالا من فاعل «يُجَاوِرُ» لازمة لا تسلَّط عليها القلَّة، ولو قيل: المعنى لا يجاورونك فيها إلاَّ قليلا إلاَّ ملعونين كان من استثناء شيئين بأداة واحدة لأَنَّهُ لم يذكر إلاَّ مرة. ويتخرَّج عن ذلك أيضا بجعله حالا من واو قوله تعالى: ﴿أَيْنَمَا ثُقِفُواْ﴾ أو واو قوله تعالى: ﴿أُخِذُواْ﴾ على قول جواز تقديم معمول أداة الشرط عليها، والصحيح المنع.

(نحو) وأمَّا تقديم معمول الجواب عليه فجائز، نحو: إن جاء زيد اليوم غدا أكرمه، أو بالمال أكرمه، وإن قرن بالفاء فخلاف. وجاز أن يكون بدلا من «قَلِيلاً»، والبدل بالمشتقِّ قليل، قيل: أو نعتا لـ«قَلِيلاً» وأنت خبير أنَّ ما يتوهَّم أنَّه نعت للوصف التحقيق فيه أن يجعل نعتا ثانيا لموصوفه، وقيل بجواز أن يستثنى بأداة واحدة شيئان إن صحَّ عمل العامل فيهما بدون استثناء، نحو: ما أعطيت أحدا شيئا إلاَّ عمرا دانقا، لجواز: ما أعطيت عمرا دانقا، نحو: ما ضرب إلاَّ زيد عمرا، لجواز: ما ضرب زيد عمرا، بخلاف: ما ضربت إلاَّ زيدا عمرا، لأنَّ «ضرب» لا ينصب مفعولين، ولا: ما قام إلاَّ زيد بكر، لأنَّ الفعل لا يرفع فاعلين، واختاره بعض، والحقُّ إطلاق ابن مالك المنع.

ومعنى ﴿ثُقِفُوا﴾: أحصروا، ومعنى ﴿أُخِذُوا﴾: أسروا، ويقال للأسير «أخيذ». ﴿وَقُتِّلُواْ تَقْتِيلاً﴾ ذلك قتل عظيم، وذلك بالإهانة وبكلِّ ما أمكن غير النار، وبلا تعذيب.

﴿سُنَّةَ اللهِ فِي الذِينَ خَلَوْاْ﴾ مضوا ﴿مِن قَبْلُ﴾ في الأزمنة المتقدِّمة، أي سنَّ الله ذلك سنَّة في الذين خلوا، وحذف «سنَّ» وأضيف «سُنَّةَ» إلى «اللهِ»، وهي تقتيلهم وإجلاؤهم.

﴿وَلَن تَجِدَ﴾ يا محمَّد، أو يا من يصلح للخطاب. قلت: بل يا محمَّد لأنَّ الخطاب قبل وبعد له ﷺ ﴿لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ لابتنائها على الحكمة، وغير الحكمة سفهٌ تعالى الله عنه، لا يبدِّلها الله ولا يقدر أحد على تغيــيرها، فلا يطمع في غير ذلك أحد برقة الطبع.

قلت: هؤلاء المنافقون والمرجفون والذين في قلوبهم مرض كفُّوا عمَّا هم عليه من إظهار ما لا يحسن لئلاَّ يُغرى بهم، ولذلك لم يغره الله تعالى بقتلهم، وإجلائهم، والله لا يخلف الوعيد، كما لا يخلف الوعد، فالقول بأنَّهم لم يكفُّوا ولم يغر بهم باطل، وكذا القول بأنَّهم لم يكفُّوا وأغري بهم إذ قال: ﴿جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ (سورة التحريم: ٩) باطل لأنَّه لم يقع قتلهم ولا إجلاؤهم، ولا قتل المشركين، لأنَّ المراد جاهدهم بالأمر والنهي، ولا يكفي في الإجلاء ما قيل: إنَّه أخرجهم من المسجد، ونهى عن الصلاة عليهم مع أنَّهم لم يقتلوا.

﴿يَسْـَٔلُكَ ٱلنَّاسُ عَنِ ٱلسَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ ٱلسَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَعَنَ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا ﴿٦٤﴾ خَـٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا لَّا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٦٥﴾ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَـٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾﴾

ترهيب الكفار بقرب الساعة وما ينتظرهم من الوعيد

﴿يَسْئَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ﴾ المشركون استهزاء بقيام الساعة وإنكارًا، والمنافقون تعنُّــتًا، واليهود امتحانًا لعلمهم من التوراة أنَّــها ممَّا أخفى الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿قُلِ انَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللهِ﴾ لا عند مَلَكٍ مقرَّب ولا نبيءٍ مُرسَل، وذلك إثبات

لها على منكريها، وإقناط لليهود عن أن يَتَكَلَّم فيها بشيء يخالف الإخفاء، فيقولوا: لو كنت نبيئًا لم تَتَكَلَّم فيها.

﴿وَمَا يُدْرِيكَ﴾ ما يُصَيِّرُكَ دَارِيًّا عالمًا بوقتها، والاستفهام بمعنى النفي وعلّق «يُدْرِي» عن العمل بالترجية في قوله: ﴿لَعَلَّ اَلسَّاعَةَ﴾ لم يقل: لَعَلَّهَا للتهويل، وزيادة التقرير ﴿تَكُونُ﴾ تحدث، ولا خبر للكون ﴿قَرِيبًا﴾ زمانًا قريبًا، أي في زمان قريب، مُتَعَلِّق بـ«تَكُونُ»، أَوْ لَهُ خَبَرٌ هو «قَرِيبًا»، أي قريبة، ولم يؤنَّث لأنَّه على وزن «فعيل» كوزن المصدر من الصوت والسير كصهيل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة الأعراف: ٥٦) ، أو يقدَّر: شيئًا قريبًا، وكذا في ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللهِ﴾، أَو ذُكِّرَ لتضمُّن معنى المُذَكَّر كالوقت ويوم القيامة.

﴿انَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾ كُلَّهم أي طردهم عن خير الدنيا إذ لا ذكر لهم فيها إلاَّ بالذمِّ والقتل لأوانه، وعَن خير الآخرة إذ مَالهم إلاَّ العذاب من حين ماتوا ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا﴾ نارًا سعيرًا، أي مسعورة، أي موقدة كامرأة كحيل، أي مكحولة، وليست صفة مبالغة إلاَّ أنَّه على وزنه.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ حال مقدَّرة من الهاء، أو نعت سببيٌّ لـ«سَعِيرًا» ولم يبرز الضمير لأَمْنِ اللبس، أي خالدين هم، و«هم» فاعل خَلَفَه ضمير مستتر، ﴿لاَّ يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يمنعهم من دخولها ﴿وَلاَ نَصِيرًا﴾ يخرجهم منها.

﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ «يَوْمَ» مُتَعَلِّق بـ«يَجِدُونَ» لصحَّة معنى قولك: وجودُ وَلِيٍّ ونصير يومَ تقلَّب منتف، فلا حاجة إلى تعليقه بـ«لاَ» لتضمُّنه معنى الانتفاء، كأنَّه قيل: «انتفى يوم تقلَّب...إلخ وجود وليٍّ ونصيرٍ»، ولا إلى نَصبه على أنَّه مفعول لـ«اذْكُرْ».

ومعنى تقليب وجوههم في النار تصريفها من جهة إلى جهة، كلحم يشوى يحرَّك في النار من كلِّ جهاته، وكلحم يطبخ يصرفه الغليان، أو تغيير وجوههم في النار إلى الأحوال القبيحة، أو تلقى في النار منكوسة، وإذا وقع ذلك للوجوه وهي أعزُّ فأولى بسائر الجسد، أو الوجوه عبارة عن الكلِّ.

﴿**يَقُولُونَ**﴾ حال من الهاء، أو من الوجوه بمعنى الأجساد، أو على ظاهره، فيكون من إسناد ما للكلِّ إلى الجزء، أو مستأنف ﴿**يَا لَيْتَنَآ أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ**﴾ فننجو من النار، وهذا قول منهم يتجدَّد ﴿**وَقَالُواْ**﴾ تارة لا قولا مستمرًّا، ولذلك ولتحقُّق الوقوع كان بصيغة الماضي، وذلك للتشفِّي من كبرائهم وساداتهم الموقعين لهم في هذا المورد الوخيم، لا لرجاء الخلاص، ألا ترى إلى قولهم: ﴿رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾. ﴿**رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا**﴾ أمراءنا وملوكنا المتولِّين لأمر العامَّة ﴿**وَكُبَرَآءَنَا**﴾ رؤساءنا الذين دونهم، الذين أخذنا عنهم فنون المعاصي والإشراك، وذلك مقابلة لقولهم: ﴿يَا لَيْتَنَآ أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ﴾ قابلوا الله عزّ وجلّ بساداتهم والرسول بكبرائهم، وذكروهم في مقام الهوان والتحقير بالسيادة والرياسة، الواقعين في الدنيا، تقويةً لاعتذارهم بأنَّهم قادرون علينا يُصرِّفُونَنَا حيث أرادوا.

والآية في أهل الشرك، وفيها زجر لأهل التوحيد عن طاعة أميرهم في المعصية، فعن نافع[1] عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ: «**السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحبَّ أو كره ما لم يؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع**

١- نافع بن مالك بن أبي عامر أبو سهل الإصبعي المدني، الإمام الفقيه، حدَّث عن ابن عمر، وسهل بن سعد، وأنس بن مالك وسعيد بن المسيب، وغيرهم، وروى عنه ابن أخيه الإمام مالك بن أنس وابن شهاب الزهري وغيرهم، توفي سنة ١٣٠هـ. تهذيب سير أعلام النبلاء، ج١، ص١٩٣.

ولا طاعة»[١]. وروي أنَّه ﷺ أمَّر رجلا على جيش وغضب عليهم فأوقد نارًا فقال: ادخلوها، فأراد بعض أن يدخلها وقال بعض: لا إنَّما فررنا منها، فقال ﷺ: **«لو دخلوها ما خرجوا منها أبدًا لا طاعة لمخلوق في معصية الله، إنَّما الطاعة في المعروف»**[٢].

وعن أَيُّــوب[٣] بن خالد عنه ﷺ: **«سيكون عليكم بعدي أمراء يعملون ما ينكرون ويأمرونكم بما لا يعملون، أولئك لا طاعة لهم»**[٤]. وروي: **«لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق»**[٥]. وعن ابن عبَّاس عنه ﷺ: **«من رأى من أميره شيئًا يكرهه فيصْبِر فإنَّه ليس أحد يفارق الجماعة شِبْرًا فيموت إلاَّ مات موتة جاهليَّة»**[٦].

[قلت:] والمعنى: يصبر ولا يطيعه في المعصية، وينهاه إن قدر وإلاَّ جاز له المقام معه ولا يُعِينُه، وإن كان قتاله يجرُّ إلى شرٍّ من ذلك فلا يقاتله.

١-رواه **البخاري** في كتاب الأحكام (٤) باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم ٧١٤٤. **وأبو داود** في كتاب الجهاد، باب في الطاعة، رقم ٢٦٢٦. من حديث عبد الله.

٢-رواه **البخاري** في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم ٦٧٢٦، وأورده **أبو نعيم** في الحلية: ج٤، ص٣٨. من حديث علي.

٣-أيوب بن خالد بن صفوان الأنصاري المدني نزيل «برقة» ويعرف بأيوب بن خالد بن أبي أَيُّــوب جدِّه لأمِّه، وذكره ابن حبَّان في الثقات، توفي بعد المائة للهجرة. ابن حجر: تقريب التهذيب، ج١، ص٩٩.

٤- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ.

٥-ورد بلفظ: «لا طاعة في معصية الله تبارك وتعالى»، قال الهيثمي: «رواه أحمد بألفاظ، والطبراني باختصار، وفي بعض طرقه: «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» ورجال أحمد رجال الصحيح». الهيثمي: مجمع الزوائد، ج٥، ص٢٢٦. (برنامج المكتبة الألفية).

٦-رواه **البخاري** في كتاب الأحكام (٤) باب السمع والطاعة للإمام ما لم تكن معصية، رقم ٧١٤٣. ورواه **الطبراني** في الكبير: ج١٢، ص١٢٤، رقم١٢٧٥٩، من حديث ابن عبَّاس.

وقدَّموا ذكر السادات لأنَّهم أقوى والمالكون على الكبراء، وذلك أولى من أن يقال: هم نوع واحد، يقال لهم سادات وكبراء، أو مُـتَّصِفون بالسيادة والكبر.

(صرف) والسادة جمع سيِّد شذوذًا، لأنَّ «فعيلاً» لاَ يُجمع على «فَعَلَة»، فأصل سَيِّد: «سويد» قلبت الواو ياءً وأُدْغمَت في الياء، وأصل سادة «سودة» بفتح الواو قلبت ألفا لتحرُّكها بعد فتح، وإن كان جمعًا لسائد المقدَّر فشاذٌّ أيضًا، لأنَّ «فعلة» لا يكون جمعًا لفاعل المعل. أو سادة اسم جمع.

﴿فَأَضَلُّونَا﴾ صيَّرونا بوسوستهم بالكفر ضَالِّين عن اتِّـبَاع السبيل الحقِّ، سبيل الله ورسوله كما قال: ﴿السَّبِيلاَ﴾ الواضح. وألف «الرَّسُولاَ» و«السَّبِيلاَ» للإطلاق، والوقف عليها لا بحذفها وإسكان ما قبلها على الصحيح. وإنَّما عدِّي [أضلُّونا] لاثنين لتضمُّنه معنى صيَّرونا مخالفين السبيل، وهذا أولى من ادِّعاء أنَّ السبيل منصوب على نزع عن.

﴿رَبَّـنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ﴾ عذابين من جملة العذاب: عذابًا لضلالهم وعذابًا لإضلالهم لنا، وضعف الشيء اثنان مثله، دون أن يضمَّا إليه، فذلك اثنان لا ثلاثة، لأنَّ كلاًّ منهما ضعف الآخر، أي مطابقه ﴿وَالْعَنْهُمْ﴾ اذممهم واشتمهم ﴿لَعْنًا كَثِيرًا﴾ وَكُرِّرَ النداء بالدعاء زيادة في المبالغة بالخضوع حيث لا ينفع.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾

تحريم الإيذاء والسفه والأمر بالتقوى والصلاح

﴿**يآ أَيـــُّهَا الذينَ ءامَنُواْ**﴾ إيمانًا ضعيفًا، أو آمنوا بألسنتهم، فكانوا يؤذون رسول الله ﷺ بما لم يكن ﴿**لاَ تَكُونُواْ كَالذِينَ ءَاذَوْا مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ اللهُ ممَّا قَالُواْ**﴾ أي قالوه.

(**نحو**) ومن العجيب أنَّهم يذكرون جواز جعل «مَا» مَصدَرِيَّة ويؤوِّلون المصدر بالمفعول، مع أنَّ ذلك المفعول هو نفس الموصول الاسمي، فليبق «مَا» على ظاهرها من الموصوليَّة الاسميَّة، ويقدَّر لها رابط، وإنَّما يصار إلى المَصدَرِيَّة حيث يكون حذف الرابط على خلاف القياس، نحو: أعجبني ما مررت، أي ما مررت به، فيعدل إلى المَصدَرِيَّة بلا تقدير رابط، أي مرورك، أو نحو ذلك من الموانع.

وذلك أنَّهم آذوا رسول الله ﷺ في تزوُّجه بزينب بنت جحش وهو بريء ممَّا يعدونه سوءا في تزوُّجه بها، لأَنـــَّهَا كانت زوج ابنه زيد، كما أن موسى عليه السلام أوذي بما لم يكن فبرَّأه الله أي أظهر براءته. وإنَّما فسَّرت «بَرَّأَ» بأظهر براءته لأنَّ ما عيب به ليس فيه، ثمَّ أزاله الله.

وقيل: برَّأه الله بمعنى قطع ما قالوه عنه، بأن نفاه، فَلَمَّا نفاه علموا أنَّه لم يكن قطُّ، ولا إشكال في هذا ولا بحْث.

قيل: كان حيًّا يستر بدنه، فقال بنو اسرائيل: ما حافظ على السِّتر إلاَّ كونه أبرص أو لانتفاخ بيضتيه أو لآفة، وكانوا يغتسلون عراة ينظر بعض بعضًا فوضع ثوبه على حجر ليغتسل وحده فاغتسل فمرَّ به الحجر فاتَّبعه يقول: ثوبي يا حجر، وهو عريان حَـــتَّى رأوه سالمًا عن البرص والآفات، فقالوا: والله ما بموسى من بأس، فأخذ ثوبه فلبسه، فطفق يضرب الحجر. رواه البخاري

والترمذي[١] وأحمد عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ . وأخرج الطبري والحاكم عن ابن عبَّاس عن عليٍّ موقوفًا أنَّه صعد الجبل مع هارون فمات، فقالوا قتلته حسدًا لأنَّه أشدُّ حبًا لنا، وألين، فأمر الله الملائكة فحملوه فمرُّوا به على بني إسرائيل يقولون مات بلا قتل فدفنوه، وأخفى الله قبره، ولم يعرف إلاَّ الرخم فأصمَّها الله وأبكمها، كذا يقال.

(قصص) وعن ابن عبَّاس وغيره: أوحى الله إلى موسى إنِّي متوفٍّ هارون فأت به جبل كذا، فانطلقا نحو الجبل، فإذا هما بشجرة، وبيت فيه سرير عليه فرش وريح طيب، فقال: يا موسى إنِّي أحبُّ أن أنام على هذا السرير، قال: نَمْ، قال: نم معي، فمات فرفع على السرير إلى السماء، وذهبت الشجرة، فقالوا: قتله حسدًا، قال: كيف أقتل أخي؟ وَلَمَّا أكثروا القول صَلَّى ركعتين، ثمَّ دعا الله ﷻ فترل على السرير حتَّى رأوهُ في الهواء فصدَّقوهُ[٢].

وروي أنَّ قارون أرشى زانية بمال عظيم أن ترميه بنفسها، فأخبرهم، ويبعد هذا القول بصيغة الجمع، إلاَّ أن يقال: إنَّه لرضى قارون وأتباعه. وقيل: رموه بالجنون والسحر، وقيل: المراد قولهم: ﴿اذْهَبَ اَنتَ وَرَبُّكَ﴾ (سورة المائدة: ٢٤) ، وقولهم: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾ (سورة البقرة: ٦١) ، وقولهم: ﴿لَن نُّومِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ (سورة البقرة: ٥٥) ، وغير ذلك ممَّا يتأذَّى به، **ولا مانع من حمل الآية على ذلك كُلِّه.**

﴿وَكَانَ عندَ اللهِ وَجِيهًا﴾ ذا جاه ومترلةٍ ورفعةِ قدرٍ وقبولٍ، مستجابَ الدعاء، كليمَ الله.

١- رواه **البخاري** في كتاب أحاديث الأنبياء (٢٧) باب حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، رقم ٣٤٠٤. **والترمذي** في كتاب تفسير القرآن (٣٤) باب ومن سورة الأحزاب، رقم ٣٢٢١. من حديث أبي هريرة.

٢- لا يخفى عليك ما في هذه النقول من الإسرائيليات.

﴿يَآ أَيُّهَا الذينَ ءامَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ﴾ في كلِّ ما تفعلون أو تتركون، فلا تؤذوا حبيبه ﷺ . **﴿وَقُولُواْ﴾** في حقِّه **﴿قَوْلاً سَدِيدًا﴾** مصيبًا للحقِّ مخالفا لقولكم فيه، وفي زينب، وفي زيد، وقيل: هو لا إله إلا الله، وقيل: ما يوافق ظاهره باطنه، وقيل: ما فيه صلاح.

[قلت:] والظاهر الأَوَّل، لأنَّ الكلام في النَّهي عن الإيذاء، ولو كان يحتمل أنَّ الخطاب لمن ضعف إيمانه فيأمره بإخلاص لا إله إلاَّ الله.

[قلت:] **وكذا يجب القول السديد، في حقِّ غير موسى،** ويُجتَنَبُ السفه مطلقًا، ومن السفه قول بعض أهل هذه البلاد: كذا وكذا مثل ذكر في أنثى، ويريدون ذكرًا في فرج أنثى، يقولون ذلك تارة بحضرة من يستحيى منه ويقولون مطلقًا، وهو لفظ فُحْشٍ.

﴿يُصْلِحْ لَكُمُ، أَعْمَالَكُمْ﴾ يجعلها صالحة بالتوفيق إلى الصلاح، ومن لاَزِمِ صلاحها قَبولُها والثَّواب عليها. رتَّب الله عز وجل صلاح الأفعال من الجوارح على صلاح القول باللسان الصادق الصادر من القلب، ومعنى ﴿يُصْلِحْ لَكُم، أَعْمَالَكُمْ﴾: يقبلها ويثيب عليها، وذلك تفسير باللازم **﴿وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾** يسترها بانتفاء العقاب عليها كأنَّها لم تكن. **﴿وَمَنْ يُّطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ،﴾** في الأمر والنهي **﴿فَقَدْ فَازَ﴾** حصل الفوز لنفسه في الدنيا والآخرة **﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾** لا يعلم قدره إلاَّ الله عز وجل .

﴿إِنَّا عَرَضْنَا اَلاَمَانَةَ عَلَى اَلسَّمَوَٰتِ وَالاَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَّحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا اَلِانسَانُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ لِّيُعَذِّبَ اَللَّهُ اُلْمُنَٰفِقِينَ وَالْمُنَٰفِقَٰتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ اَللَّهُ عَلَى اَلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَٰتِ وَكَانَ اَللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٣﴾﴾

أمانة التكاليف وأثرها في جزاء المكلَّفين

﴿إِنَّا عَرَضْنَا اَلاَمَانَةَ﴾ ما يجب فعله وما يجب تركه، وجاء في الحديث عن زيد بن أسلم عنه ﷺ: «**الأمانة ثلاث: الصلاة والصيام والغسل من الجنابة**»[1] قلنا: هذا تمثيل لا حصر، وهذا هو الصحيح، وقيل: «لا إله إلاَّ الله» لأنَّ الأعمال تتوقَّف على التوحيد، ويضعف تفسيرها بالأعضاء، ومثَّل لها ابن عمر موقوفًا بالفرج، وشهر هذا عن عمرو بن العاصي، وقال: أوَّل ما خلق الله من الإنسان الفرج، وقال هذه أمانتي عندك فلا تضعها إلاَّ في حقِّهَا، والسمع أيضًا أمانة، والبصر أمانة. وقيل: أمانات الناس والوفاء بالعهود. وقيل: أن لا تغشَّ أحدًا. وإذا حملنا الأقوال على التمثيل عدنا إلى ما فسرَّت به أَوَّلاً من الواجب فعلا أو تركًا.

﴿عَلَى اَلسَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ المراد الأرضون ﴿وَالْجِبَالِ﴾ أي أهلهنَّ، ولَمَّا حذف قال: «أَبَيْنَ» و«يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ»، ولم يقل: أبوا أن يحملوها وأشفقوا. وقيل: خلق فيهنَّ العقل، وخيَّرهنَّ في القبول على الثواب والعقاب، وقلن: نخاف العقاب ولا نحتاج إلى الثواب، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَأَبَيْنَ﴾ امتنعن منها، ولولا التخيير لم يمتنعن ﴿أَنْ يَّحْمِلْنَهَا﴾ مفعول به، أي منعن حملها عن أنفسهنَّ، أي لم يقبلنه وكرهنه، أو امتنعن من أن يحملنها.

﴿وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا﴾ اشتدَّ خوفهنَّ للعقاب على عدم الوفاء، أو معنى عرضها عَلَيهِنَّ وإبائهنَّ خلقهنَّ على وجه لا يقبل التكليف بها لعدم العقل، وعدم تصوُّر ما يتصوَّر من الانسان منهنَّ، أو المعنى: لو **عرضناها عليهنَّ لأبين بعقل أو دونه على حدِّ ما مرَّ.**

١- أورده **السيوطي** في الدر: ج٣، ص٢٢٦. من حديث زيد بن أسلم.

﴿وَحَمَلَهَا الانسَانُ﴾ أي خلقناه على وجه تتصَوَّرُ هي منه، وكذا الجنُّ والملائكة، إلاَّ أنَّهم لا تشقُّ عليهم، وهي العبادة، لأنَّها من جنس ما طبعوا عليه، ومع ذلك لهم اختيار مُدِحُوا به.

والجنُّ كالإنسان، إلاَّ أنَّهم لم يُذكروا لأنَّ الكلام في الإنسان وإيذائه للرسول، والمراد جنس الإنسان. وحمله لها: كونه على وجه يتصوَّر معه أداؤها، أو نطقه بأدائها يوم ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ (سورة الأعراف: ١٧٢) ، وكذا أقرَّ آدم.

وقيل: الإنسان آدم، خلق الله تعالى صخرة عجزت عنها السماوات والأرض والجبال، وقد عرضت عليهنَّ فحرَّكها آدم، وقال: لو شئت لحملتها فحملها إلى حقويه ثمَّ إلى عاتقه، وأراد وضعها فنودي كما أنت، قد لزمتك وذرِّيتك إلى يوم القيامة، أي قف كما أنت لا تضعها، وفيه أنَّ تسمية آدم بما قال الله تعالى: ﴿إِنَّهُ، كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً﴾ بعيدة، لأنَّه وليٌّ له لا يسمِّيه بذلك، ولو كان المعنى: أنَّه ظلوم لنفسه جهول لأمر الله أي بعاقبة حملها، ولو قيل بأنَّ من شأنه ذلك لولا أنَّ الله وفَّقه، أو قيل: ظلوم جهول في حساب الملائكة، ثمَّ علموا غير ذلك. قيل: ما بين حملها وخروجه من الجَنَّة بالزلَّة إلاَّ قدر ما بين الظهر والعصر، ويقال: قال: أحملها إجلالاً لك، فقال: وجلالي لأعينَّنكَ.

والصحيح أنَّ الإنسان الجنس، والمبالغة في الظلم والجهل باعتبار غالب الأفراد، وكذا تظنُّهم الملائكة يوم أن قالوا: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُّفْسِدُ فِيهَا﴾ (سورة البقرة: ٣٠) .

﴿لِّيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ﴾ اللام للعاقبة متعلِّقة بـ«حَمَلَهَا» وإنَّما قلت ذلك لأنَّ الإنسان لا يقصد بحملها التعذيب. ويجوز أن تكون للتعليل مُتَعَلِّقَة بـ«عَرَضْنَا»، أي عرضناها حتَّى أفضى العرض إلى قبول الإنسان لها ليعذِّب. أو بمحذوف، أي فعلنا ذلك

ليعذّب.

وأظهر لفظ الجلالة بعد التكلُّم في «عَرَضْنَا» للتهويل. وقدَّم «الْمُنَافقِينَ وَالْمُنَافقَاتِ» على «الْمُشْرِكِينَ» لأنَّ المراد بهم من أظهر التوحيد وأضمر الشرك، وهو الذي في الدرك الأسفل من النار، لا من فعل كبيرة ووحَّد بقلبه ولسانه المسمَّى أيضًا في عرفنا منافقًا، وهذا أيضا يدخل النار إن أصرَّ.

﴿**وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى اَلْمُومِنِينَ وَالْمُومِنَاتِ**﴾ يرجع إليهم بالثواب أو التوفيق، إذ خروجهم عن الأمانة أحيانًا موجبٌ لإعراض الله عنهم، أي كراهته لذلك الخروج، وقبول توبتهم ترك للإعراض، ﴿**وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَّحِيمًا**﴾ إذ غفر ذنوبهم وأثابهم بالنجاة من النار والفوز بالجنَّة.

وَمِمَّا يحضُّ على ترك الذنوب ما روي عن سعيد بن جبير: «إنَّ الموتى لتأتيهم أخبار الأحياء، فما من أحد له قريب إلاَّ ويأتيه خبر أقاربه، فإن كان خيرًا سرَّ به وفرح، وإن كان شرًّا عبس له وحزن». وقال عن أبي الدرداء: «اللّهُمَّ إنِّي أعوذ بك أن أعمل عملاً تخزي به أمواتي». وقال وهب بن منبه: «إنَّ الله تعالى بنى داراً في السماء السابعة يقال لها البيضاء تجتمع فيها أرواح المؤمنين، فإذا مات الْمَيِّت من أهل الدنيا تلقَّـتْهُ الأرواح، فيسألونه عن أخبار الدنيا كما يسأل الغائب أهله إذا قدم من سفر عليهم». رواه أبو نعيم. قال: وروي: «إنَّ الأموات يسألون القادم عليهم عن أهل البيت كلّهم ما فعل فلان؟ وهل تزوَّج فلان؟ أو تزوَّجت فلانة؟» ونحو ذلك.

وَمِمَّا يحضُّ على ترك الذنوب عَرْض الأعمال على الله عزّ وجلّ وتعالى، وعلى النبيء ﷺ ، وعلى المؤمنين.

يا أرحم الراحمين ارحمنا

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

تفسير سورة سبأ وآياتها ٥٤

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ ① يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ②﴾

الملك والقدرة والعلم لله تعالى وحده

﴿**الْحَمْدُ للهِ الذى لَهُ، مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ**﴾ من أجزاء أنفسهما، ومنافع أجزائهما، وما فيهما من غيرهما، وما في هوائهما، إيجادًا وإعدامًا وملكًا وتصرُّفًا، والموصول كالمشتقِّ تؤذن صلته بالعلِّية، فكون ذلك له ولا سيما مع اشتماله على المنافع موجبٌ لأن يحمده من في الدنيا، وموجب لحقيقة الحمد التي لا تتناهى أفرادُها، وإن شئت فطاعات المطيعين داخلة في ذلك، فهو بالذات، -كما يأتي قريبًا- أهلٌ للعبادة.

﴿**وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ**﴾ أيضًا على نعَمها وعلى رضى الله عنهم وتوفيقهم إليها، فهم فيها يُلهَمُونَ التسبيح كالنَفَس بلا تكليف، كما ألهمه الملائكة في كلِّ زمان، لأنَّه لا تكليف في الآخرة.

(بلاغة) أو ذَكَرَ الحمدَ في الآخرة وحذف أنَّ لَهُ ما فيها وذكر أنَّ له ما في السماوات وما في الأرض ولم يذكر أنَّ الحمد له في الدنيا، فذكر في كلِّ واحدة ما حذف من الأخرى، أو قل: حذف في كُلِّ واحدة ما ذكر في الأخرى، وذلك احتباك. وأصله: الحمد لله...إلخ في الدنيا، وله ما في الآخرة والحمد فيها، إلاَّ أنَّ تعليل الحمد بِأَنَّ ﴿لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ...﴾ كالنصِّ في ذكر أنَّ الحمد في الدنيا.

[قلت:] لا مانع من أنَّه أطلق الحمد أوَّلاً ولم يقيِّده بزمان ليَعمَّ الحمد في الدنيا على نعم الآخرة، وفيه أنَّ ذكر الدنيا لا يوجب أنَّ الحمد فيها على نعمها فقط، بل قابل للحمد فيها على نعم الآخرة وعلى ما يوصل إليها.

ويجوز أن يكون المعنى: هو المحمود على نعم الدنيا كما هو المحمود على نعم الآخرة. وقُدِّم «لَهُ» للحصر، لأنَّ نعم الدنيا قد تكون بواسطة من يستَحقُّ الحمد لأجلها، بخلاف إعطاء نعم الآخرة، وإحضارها في يد أهلها، أي لاَ حَمْدَ إلاَّ لَهُ في الآخرة لأنَّه لا مُحْضِرَ للنعم فيها لأهلها إلاَّ هو بلا واسطة، أو بواسطة الملائكة، وإن اعتبرت أسبابها وأنَّها تكون بواسطة مرشدك إلى ما هو عبادة، فالتقديم للاعتناء بنعم الآخرة وشأن الآخرة، وهكذا قُلْ، لا ما تجده مخالفًا له من أنَّ اللام تفيد الحصر والتقديم مؤكِّد لهذا الحصر.

﴿**وَهُوَ اَلْحَكِيمُ**﴾ الذي أتقن أمر الدارين بحيث إِنَّهُ لا نقص بما لم يفعل، ولا زيادة على ما فعل. ﴿**الْخَبِيرُ**﴾ بدقائق الأشياء كظواهرها فهو محمود بالصفات كما هو محمود بالأفعال، كإنعامه كما مرَّ قريبًا لأنَّ الحكمة والخبرة ذاتيتان.

﴿**يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي اِلاَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ اَلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا**﴾ بيان لبعض جزئيات خبرته مستأنف، أو حال من الهاء في ﴿لَهُ، مَا فِي السَّمَاوَاتِ﴾ أي ما يدخل في الأرض من مياه وأموات، وما يغيب فيها بدفن أو غيره، أو بالحفر للسكنى وما يخرج منها من النباتات، ونحو المعادن والحيوانات إذْ خلقهنَّ من التراب، والموتى يبعثون منها.

وما ينزل من السماء من الملائكة والمطر والثلج والبرد والصواعق والمقادير، ونحو ذلك على العموم، بحيث يفسَّر السماء بجهة العلوِّ مطلقًا، وما يعرج إليها من الملائكة ومن الجنِّ لاستراق السمع، والأبخرة والأدخنة، وأعمال العباد وأدعيتهم. و«في» الأخيرة بمعنى إلى.

وترتيب الآية كما هي تَرقٍّ في المدح، فإنّ العلم بما كان خفيًّا في الأرض أقوى من العلم بما كان ظاهرا ثمَّ خفي، وما يعرج إليها أظهر ممَّا فيها ونَزَلَ، وذلك لبادئ الرأي وفي الجملة، وأَمَّا في علم الله فسواء ذلك كلُّه، ويعلمه قبل وقوعه، وبعد وقوعه ومع وقوعه، ﴿وَهُوَ اَلرَّحِيمُ الْغَفُورُ﴾ للعصاة إن تابوا.

﴿وَقَالَ ٱلذِينَ كَفَرُواْ لَا تَاتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّے لَتَاتِيَنَّكُمْ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِے ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِے ٱلَارْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِے كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝٣ لِّيَجْزِيَ ٱلذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝٤ وَالذِينَ سَعَوْ فِے ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ اَلِيمٌ ۝٥ وَيَرَى ٱلذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلذِے أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِے إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝٦﴾

موقف الناس من آيات الله وجزاء الملحدين

﴿وَقَالَ اَلذِينَ كَفَرُواْ لاَ تَاتِينَا﴾ معشر الخلق ﴿اَلسَّاعَةُ﴾ يوم القيامة، وأرادوا بنفي إتيانها نفي أن توجد بعدُ، وعدمُ الوجود موجبٌ لعدم الإتيان، ففي ذلك تعبير بالمسبَّب واللازم عن السبب والملزوم.

واختاروا هذا مقابلة لقول من قال: تأتي، وقيل استبطاء لإتيانها على طريق الهزء، وهو ضعيف، لأنَّه لم يقل: ألا تأتينا الآن؟ بالاستفهام، كما في ﴿مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾؟ (سورة الأنبياء: ٣٨) ، ويجوز توجيهه بأنَّه كما يرجو الإنسان شيئًا ويقول على طريق الضجر: لا يأتي، وهم بهذه الصورة على طريق الهزء. والعطف عطف قِصَّة على أخرى.

﴿قُلْ﴾ لهم ردًّا عليهم ﴿بَلَىٰ﴾ أي ليست لا تأتي، وأكَّدَ هذا بقوله: ﴿وَرَبِّي لَتَاتِيَنَّكُمْ﴾ ذكر الربّ بالإضافة للإشارة إلى الانتصار بمن هو ربُّه تعالى ينصره على من خالفه في قوله، لا للإشارة إلى أنَّ إتيانها من شأن الرُّبُوبِيَّة، والقسم بمربِّيه تشديدٌ للقسم.

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ﴾ هو عالم الغيب، أو مبتدأ خبره قوله: ﴿لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ﴾ وذكر علم الغيب تأكيدًا لقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا يَلِجُ...﴾. وأجزاء الميِّت المتفرِّقة لا تخفى فكيف لا يقدر على بعثه مع قدرته على الخلق من العدم؟.

(أصول الدين) والقرآن والأحاديث كالنصوص في ردِّ ما فني البتَّة حتَّى كان لا وجود له فنقلدهما في ذلك، والمفهوم ردُّ الموجود، وقد صرَّح الحديث والآثار بردِّ الشعور والجلود وغيرها من الأجزاء من أوَّل خلقة الإنسان إلى موته، حتَّى قيل: تردُّ الأعراض والأزمنة مع الأجسام أيضًا.

وفي ذكر عَالِم الغَيْب مناسبة لكون إتيانها من الغيب الذي اختصَّ الله به عَزَّ وَجَلَّ، وهم عالمون أنَّه ﷺ صادق في الجملة متنزِّه عن الكذب، وإنَّما كذَّبوهُ عِنادًا وتكبُّراً عن أن يتَّبعوه.

(بلاغة) وأمره الله عَزَّ وَجَلَّ باليمين مجاراة على ظاهر إنكارهم، وَإلاَّ فالمناسب إذ علموا ذلك أن لا يقسم لهم، لكن أقسم لأنَّهم لم يجزموا في نفس البعث بأنَّه صادق فيه، والمناسب للمنكر أن يجاب بالقسم ونحوه من التأكيد إلاَّ لغرض آخر، مثل أن تيأس منه فتردُّ كلامه بلا تأكيد، كأنَّك تقول: هذا ثابت لا يحتاج إلى تأكيد صدَّقت أو كذَّبت.

و﴿لَا يَعْزُبُ﴾: لا يبعد، ومن شأن البعيد أن يغيب، فالمعنى: لا يغيب عن علمه مثقال ذَرَّة، وهو ما يوازن الدقيقة الواحدة التي ترى في الشمس من كوة،

أو نملة صغيرة في الثقل، وقوله: ﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الاَرْضِ﴾ نعت لـــ«ذَرَّة». والمراد بالأرض في هذه المواضع ونحوها الأرضون، ولو لم أنبِّه عليه في كلِّ موضع ما لم يَدُلَّ دليل على هذه الأرض.

﴿وَلآ أَصْغَرُ مِن ذَالِكَ﴾ المثقال ﴿وَلآ أَكْبَرُ﴾ منه وأكبريَّة الذرَّة نسبيَّة، فإنَّ الذرَّة مثلا أكبر ممَّا على عشرها، أو أقلّ أو أكثر. و«أَصْغَرُ» مبتدأ خبره في قوله: ﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾ اللوح المحفوظ أو الضبط، وكونهما في اللوح المحفوظ موجب لكونهما معلومين لله تعالى، ويدلُّ لذلك قراءة أخرى لنافع بفتح الرَّائين على أنَّ «لاَ» عاملة عمل إنَّ، وخبرُها «فِي كِتَابٍ». ويجوز عطف «أَكْبَرُ» و«أَصْغَرُ» على «مِثْقَالُ» بالرفع، وعطفهما مع فتح الرائين على «ذَرَّة»، وعلى هذين الوجهين يكون الاستثناء منقطعًا، والتقدير: لكن ما ذكر ثابت في اللوح المحفوظ

﴿لِّيَجْزِيَ اَلذِينَ ءامَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ﴾ بثواب إيمانهم وعملهم، مُتَعَلِّق بـــ«تَاتِي» من قوله: ﴿لَتَاتِيَنَّكُمْ﴾، أي تأتيكم الساعة ولا بدَّ للجزاء، واعترض بأنَّه لا عقل للساعة تقصد به التعليل بالجزاء، فيجاب بأنَّ المراد يحضرها الله للجزاء، أو تأتيكم بإذن الله للجزاء، والمعلِّل هو الله تعالى، ويجوز تعليقه بما تَعَلَّقَ به «فِي كِتَابٍ» على وجه اتِّصَال الاستثناء وانقطاعه، والمعنى: ثابت أو مثبَّت في كتاب مبين ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصَّالحات.

﴿أُوْلَئِكَ﴾ العالُون منزلةً باتِّصَافهم بالإيمان وعمل الصالحات ﴿لَهُمْ﴾ بسبب الإيمان والعمل الصالح ﴿مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم، إذ لا يخلون منها، وقد تابوا ﴿وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ لاَ مَنَّ فيه ولا تعب، ولا فضلة ولا ثقل ولا انقطاع ولا تكدير بآفة.

﴿وَالذينَ سَعَوْ﴾ اجتهدوا ﴿فِي ءَايَاتنَا﴾ آيات القرآن، أو هي وسائر المعجزات، والأوَّل هو المتبادر، ويدلُّ له مقابله: ﴿وَيَرَى اَلذينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ﴾، وذلك بالصدِّ عنها والقدح فيها ﴿مُعَاجزِينَ﴾ مجتهدين في أن يفوتونا بمرادهم ﴿أُوْلَئِكَ﴾ البعداء أي في منازل السوء ﴿لَهُمْ﴾ بسعيهم ومعاجزتهم ﴿عَذَابٌ﴾ عظيم ﴿مِّن رِّجْزٍ﴾ أشدّ عذاب. و«مِنْ» للبيان، أو هو من ذلك النوع فتكون للتبعيض ﴿اَلِيمٍ﴾ مؤلم، نعت مؤكِّد.

وإن قلنا: الرِّجز مطلق العذاب فنعت مؤسِّس، كذا قيل، وفيه أنَّ ما حكم عليه أنَّه عذاب لا يكون إلاَّ مؤلماً فالنعت مؤكِّد أيضاً. و«الذينَ» مبتدأ، خبره ما بعده، أو عطف على «الذينَ»، والمعنى: ليجزي الذين آمنوا وعملوا الصالحات والذين سعوا...إلخ و«أُولَئكَ...» مستأنف.

﴿وَيَرَى﴾ يعلم ﴿الذينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ﴾ من أهل الكتاب، كعبد الله بن سَلاَّم، وكعب الأحبار، وأصحاب الرسول ﷺ والتابعين، وهكذا. والمشركون يُعتبرون مؤمني أهل الكتاب، لأنَّهم يحكون لهم عن التوراة والإنجيل تصديق النبي ﷺ والقرآن.

وأجاز بعض أن يراد بـ﴿الذينَ أُوتُواْ الْعِلْمَ﴾ الأحبار الذين لم يؤمنوا، أي ليعلموا يومئذ أنَّ القرآن ومحمَّدًا حقٌّ، فيزدادوا حسرة، ويردُّه أنَّ أولي العلم مدح، وأجيب بأنَّهم علموا من التوراة والإنجيل أنَّهما حقٌّ وأنكروا، ولا مدح في ذلك، **إلاَّ أنَّه بعيد،** وأيضا المقابلة به للذين كفروا يقتضي الحمل على المؤمنين.

وكعب الأحبار مؤمن على عهد رسول الله ﷺ ولم يظهر إيمانه فليس صحابيًّا، وقيل: آمن بعد موته ﷺ ، وعلى كلِّ حال هو من التابعين.

﴿الذي أُنزلَ إِلَيْكَ﴾ القرآن الذي، أو الكلام الذي أنزل إليك ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ الناصر لك ﴿هُوَ﴾ ضمير فصل لا إعراب له.

(نحو) ﴿الْحَقَّ﴾ مفعول ثان، وَالأَوَّل «الذي»، والمشهور عن نافع الرفع على أنَّه خبر «هُوَ»، وورش يقرأ بالنصب. والجملة مفعول ثان.

والعطف في قوله: ﴿وَيَرَى...﴾ على قوله: ﴿وَالذينَ سَعَوْ فِي ءَايَاتِنَا...﴾ عطف فِعْلِيَّة على اسْمِيَّة استشهادًا بأولي العلم على الجهلة الساعين في الآيات، أو عطف على ﴿قَالَ الذينَ كَفَرُواْ﴾، وفيه بُعدٌ وطُولُ الفصل، والمعنى: «قال الذين كفروا: لا ساعة، وقال الذين أوتوا العلم: ثابتة، لأنَّها في القرآن الحقّ».

واعترض بِأَنَّ الآية تدلُّ على أنَّ المقام للاهتمام بشأن القرآن، وذكرت الساعة استطرادًا، وأجيب بأنَّ المقام للساعة وذكر القرآن استطرادا، والمقصود بالذات الساعة، ألا ترى إلى قوله: ﴿وَقَالَ الذينَ كَفَرُواْ هَلْ نَدُلُّكُمْ...﴾. ويضعف العطف على «يَجْزِي» بمعنى لتأتيكم الساعة ليجزي المؤمنين وليرى أولوا العلم المؤمنون بها الحقَّ الذي هو الساعة، فيحتجُّوا على من نفاها. ﴿وَالذينَ سَعَوْ﴾ معطوف على «الذينَ»، أو مبتدأ والجملة معترضة.

﴿وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَٰطِ﴾ بالتوحيد والتقوى ﴿الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ القاهر لكلِّ ما سواه، المحمود في ذاته وصفاته وأفعاله. وفاعل «يَهْدِي» ضمير الله، أو «الذي». والعطف على «أُنزِلَ» إذا جعلنا الضمير للذي، وإذا جعلنا الضمير لله فذلك وضع للظاهر موضع المضمر.

(نحو) ويجوز العطف على «الْحَقَّ»، أي يرونه حقًّا وهاديًا على أنَّه مفعول ثان مع فاعله بعد مفعول ثان، أو عطف عليه لأنَّه وصف كقوله تعالى: ﴿فَوْقَهُمْ صَآفَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾ (سورة الملك: ١٩)، كَأَنَّهُ قيل: هو يحقُّ ويهدي.

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝٧ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۝٨ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٩﴾

استبعاد الكفار للبعث
واستهزاؤهم بالرسول ﷺ والردُّ عليهم

﴿وَقَالَ الذينَ كَفَرُواْ﴾ قريش يخاطب بعضهم بعضًا استهزاء به ﷺ **﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ﴾** يعنون رسول الله ﷺ ونكّروه للتحقير كأنّهم لم يعرفوا منه إلاّ أنّه رجلٌ متّصف بقول كذا، مع أنّه أظهر من الشمس وفي قلوبهم وصفُه بالكمال، ولقد أحسن القائل:

وليس قولك مَن هذا بضائره العرب تعرف من أنكرت والعجم[1]

ونعتوه بقولهم: **﴿يُنَبِّئُكُمْ، إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾** جواب «إذَا» محذوف، أي تُبعثونَ، وتعلّق به، أو يقدر: تبعثون قبلها وتُعَلَّقُ به خارجة عن الشرط والصدر، والمجموع على كلِّ حال مفعول به لقوله: «يُنبِّئُ» محكيٌّ، لأنَّ معناه: يقول.

وذكرت الحكاية على طريق النحو، ولا يقدح فيه منع لأصحابنا رحمهم الله أن يقال: حكى الله، إذ لا معنى في ذلك محذور، لأنَّ المراد أنَّ الله تعالى ذكر عنهم كذا.

١- من قصيدة للفرزدق في مدح زين العابدين.

(نحو) ولا يعلّق بـ«خَلْقٍ» أو بـ«جَدِيد»، أو في استقرار في قوله: ﴿فِي خَلْقٍ﴾ على أنَّ الجملة جواب «إِذَا» لأنَّها لو كانت جواب إذا لقيل: فإنَّكم بالفاء، ولأنَّ معمول خبر «إِنَّ» ومتعلّقاته لا يتقدَّم على «إِنَّ»، و«جَدِيد» نعت، ومعمول النعت لا يتقدَّم على المنعوت.

(نحو) ولا يتعلّق بـ«نَدُلُّ» أو «يُنَبِّئُ» لأنَّ الدلالة والتنبئة حال كلامهم، لا تعتبران بوقت التمزيق. والتمزيق: التفريق. و«كُلَّ» مفعول مطلق، و«مُمَزَّق» مصدر ميميٌّ بمعنى التمزيق، وأجيز أن يكون «كُلَّ» ظرف مكان، و«مُمَزَّق» اسم مكان ميميٌّ، أي مزِّقتم في كلِّ موضع تمزيق.

﴿إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ تأكيد لجواب «إِذَا» المقدَّر، ويجوز أن يكون مفعولا ثانيا لـ«يُنَبِّئُ» في نية التقديم على «إِذَا» معلَّقًا عنه باللام، فيكون «إِذَا» ومتعلّقها تأكيدًا لهذه الجملة، ويقدَّر خبر «إِنَّ» مستقبلاً على كلِّ حال، ويجوز تقديره ماضيا لتحقُّق الوقوع.

﴿اَفْتَرَىٰ عَلَى اَللَّهِ كَذِبًا اَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ هذا من كلام بعض لبعض، فهو من جملة ما حكي بقوله: ﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ ويجوز أن يكون كلام سامع مجيب لمن قال: «هَلْ نَدُلُّكُمْ». والهمزة مفتوحة ثابتة للاستفهام، وهمزة الوصل المكسورة محذوفة لفظًا وخطًّا.

والمعنى: أكذب على الله فأخبر بثبوت البعث عمدًا أم لم يكذب ؟ أي لم يخبر به عمدًا بل أخبر به لجنون فيه، ولا عمد لهُ وأَخْطَأَ.

(بلاغة) وما وافق الواقع أو خالفه بلا عمد ليس صدقًا ولا كذبًا، وما وافقه بعمد صدق، أو خالفه بعمد كذب، والبسط في المعاني، وقد يطلق الصدق على الموافقة والكذب على المخالفة بلا عمد.

وليس قوله: ﴿أَم بِهِ جِنَّةٌ﴾ أي جنون قسيمًا لقولهم: «اَفْتَرَى» إلاَّ باعتبار اللزوم لزوم العمد للافتراء، ولزوم عدمه للجنون.

و«أَمْ» متَّصلة، والمعنى: أتعمَّد الخطأ أم لم يتعمَّده؟ وقيل: منقطعة للإضراب الإبطالي بلا همزة، أي بل به جنون، عدلوا عن الافتراء إلى ما هو أغلظ وهو الجنَّة، فإنَّ الجنون خروج عن العقل، والمفتري عاقل والعاقل أفضل من المجنون في العرف.

﴿**بَلِ الذينَ لاَ يُومِنُونَ بِالاَخِرَةِ**﴾ للقضاء عليهم بالشقوة ﴿**فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ**﴾ إبطال لدعوى الافتراء، ولِدَعْوَى الجنون، وإثبات للانتقام منهم على ذلك بالعذاب الأخروي الدائم، وإخبار بأنَّهم في ضلال بعيد عن الحقِّ.

(بلاغة) وقدَّم «العذاب» على سببه الذي هو «الضلال البعيد» مسارعةً إلى ما يسوؤهم، وإشارة إلى أنَّه مسارع إليهم، والثبوت المقدَّر الذي تعلَّق به «فِي الْعَذَابِ» مستعمل في الزمان المستمر، وهو زمان الضلال، وفي الزمان المستقبل وهو زمان العذاب، فيكون ثابتًا أو ثَبتَ مستعملاً في الاستمرار والاستقبال استعمالاً للكلمة في معنيين.

﴿**أَفَلَمْ يَرَوْاْ**﴾ أعَمَوا فَلَمْ يروا ﴿**اِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ اَلسَّمَآءِ وَالاَرْضِ**﴾ المراد بـ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما يشهدونه من السماء والأرض، فشمل ما تحتهم من الأرض، وما فوقهم من السماء إذا نظروا إلى ما فوقهم، والمراد بـ﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾ منهما: ما لا يرونه لجعلهم إيَّاهُ خلفهم، وإذا استقبلوه كان بين أيديهم، وغيره خلفهم، أو ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما يرون و﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾: ما لا يرونه من أطراف الأرض والسماء، أعني ما لا يرونه كأرض مَكَّة وهم في المدينة، وأرض المدينة وهم في مَكَّة، وسماء ذلك. و«مِنْ» للتبعيض.

أي كيف ينكرون القدرة على البعث ممَّن خلق السماء والأرض وهما أقوى منهم، وأكثر أجزاء؟!. واختار ﴿مَا خَلْفَهُمْ﴾ و﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ ليدلَّ على أنَّهم في كلِّ موضع تكون السماء والأرض بين أيديهم وخلفهم لاتِّساعهما، فلم يقل: أفلم يروا إلى السماء والأرض. وقدَّم ﴿مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾ لأنَّ المشاهد أولى من غيره.

﴿إِن نَّشَأْ﴾ خسفَ الأرض بهم أو إسقاط كسف عليهم ﴿**نَخْسِفْ بِهِمُ اَلاَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسْفًا**﴾ قطعًا ﴿**مِّنَ اَلسَّمَآءِ**﴾ هذا داخل في الاستدلال مثل ما قبله، ووجه ارتباطه به أنَّهم مُقِرُّون بخسف الأرض بمن قبلهم، وإسقاط الكسف عليهم، أو هو ممكن عندهم، أي كيف نسبوا العجز عن البعث إلى من سماؤه وأرضه الأقويان محيطتان بهم؟ وإلى من قدرعلى الخسف بهم وإسقاط الكسف عليهم؟.

وذلك أولى من أن يقال تحذيرًا: أفلا يرونَ إلى ما يحيط بهم من سماء وأرض مقهورًا تحت قدرتنا نتصرَّف فيه إن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ...؟ ومن أن يقال على وجه التحذير كذلك: أفلا يرون إلى ما بين أيديهم وما خلفهم محيطًا بهم وهم مقهورون بينهما إن نشأ...؟ ومن أن يقال تحذيرًا أيضا: أفلم يروا إلى قدرة الله فلم يخافوا أن ينتقم منهم على تكذيبه ﷺ وشتمه بالافتراء والجنون؟.

﴿**انَّ فِي ذَٰلِكَ**﴾ أي ما ذكر ممَّا بين الأيدي وما خلفهم، والقدرة على الخسف وإسقاط الكسف، أو إنَّ فيما ذكر من الرؤية، وذكَّرها للتأويل بما ذكر، أو بالفكر أو في ذلك الرأي فإنَّه كما يقال رأى رؤية يقال رأى رأيًا، ﴿**لَأَيَةً**﴾ دلالة واضحة على قدرة الله على البعث، أو على قدرته على الانتقام للتكذيب، كما انتقم ممَّن قبلكم بالخسف والكسف ﴿**لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ**﴾ راجع إلى ربِّه بالتوبة والطاعة، ومن شأن من كان كذلك التفكُّر في الدلائل.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَٰجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُۥ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَٰلِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾ وَلِسُلَيْمَٰنَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴿١٣﴾ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِۦ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُۥ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾

نعم الله على داود وابنه سليمان عليهما السلام

﴿**وَلَقَدَ ــ اتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً**﴾ «مِنْ» للابتداء مُتعلّق بـ«ءَاتَيْنَا»، أو بمحذوف حال من «فَضْلاً». والفضل: زيادة الخير الديني والدنيوي على ما عنده قبله، وليس المراد تفضيله على غيره. ونُكّر «فَضْلاً» للتعظيم، وذكر «مِنَّا» مع أنّه يغني عنه «ءَاتَيْنَا» لتفخيم ما أوتي بأنّه بلا واسطة، كقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَاهُ من لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ (سورة الكهف: ٦٥) ، وقدّم «مِنَّا» على «فَضْلاً» على طريق الاعتناء به والاهتمام، وللتشويق إلى المؤخّر ليزداد تمكُّنه في النفس عند وروده.

وأقول: لا يسند الاعتناء والاهتمام إلى الله سبحانه، ولذلك كنت أقول: على طريق الاهتمام والاعتناء، لأنّ في أصلهما علاجًا وكسبًا وتعبًا، وما ذكرتُه أولى من أن يقال: فَضْلاً على من قبله من النبيئين، كالمُلك والصوت الحسن، أو على أنبياء بني إسرائيل، أو على الأنبياء غير نبيئنا ﷺ ، أو عليه أيضا من حيث إنَّهُ قد يكون للمفضول شيء ليس للفاضل.

وذكر هنا شؤون داود وسليمان لمناسبة ﴿عَبْدٍ مُّنِيبٍ﴾، ولأنَّ ما أعطاهما مستحيل عادةً فكذلك يقدر على البعث الذي تعدُّونه مستحيلا، وللزجر عن أن يستبعدوا ما أعطي ﷺ ، فإنَّه قد أعطى داود وسليمان ما أعطى، **وما أوتي نبيء فضيلة إلاَّ أوتي نبيئنا مثلها بالفعل، أو تمكَّن منها واختار عدم إظهارها** ﷺ .

﴿يَاجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُ﴾ بيان للفضل، والتأويبُ التسبيح، كما قال ابن عبَّاس، وهو لفظ عربيٌّ لا كما قال الطبري عن أبي ميسرة أنَّه بلغة الحبشة، وقيل: بمعنى رَجِّعي معه التسبيح، أي ردِّديه، فيكون بينكما، يُسبِّح وتسبِّحين. والتشديد للمبالغة.

(صرف) وأصل «أَوِّبي» أوبي (بإسكان الواو بعد ضمَّة) كما قرأ به ابن عبَّاس والحسن وقتادة، أي ارجعي معه إلى التسبيح، وليس تفسيره بالمتعدِّي موجبًا لأن يكون متعدِّياً كما قالوا هنا معناه: رَجِّعي معه التسبيح، فإنَّه إنَّما هذا بيان لكون التسبيح في ضمنه، كما تقول: معنى ذهب زيد: نقل زيد نفسه، وإلاَّ قيل: أوِّبي التسبيحَ، وهم لم يقولوه.

[قلت:] والجبال تسبِّح بصوت يسمع بقدرة الله، وخلق فيها الفهم، وأمرها كما يؤمر العاقل، وناداها كما ينادى العاقل، وقد سبَّح الحصى في يد رسول الله ﷺ ، ووضعها في يد الصديق فسبَّحت، وليس المعنى حملُها إيَّاهُ بالتفكُّر في شأنها على التسبيح لأنَّه قال: ﴿أَوِّبي﴾ بصيغة الأمر، لا أَوِّبْــتُه، ولأنَّه قال: ﴿مَعَهُ﴾، ولأنَّ كلَّ من تأمَّل في الجبال أدَّاه تأمُّله إلى التسبيح لا داود فقط، فلا يكون معجزة له ولا مفضَّلا به.

وقيل: تأويبها ردُّ صدَاهُ إذا سبَّح نائحاً على نفسه، ويبحث بِأَنَّ الصدى بأثر صوت الصائت، لا صوت وفعل لنحو الجبل، والله أمرها أن تفعل الصوت،

ولأنّ الصدى يرجع أيضا لكلّ أحد، اللهمَّ إلاّ أن يقال: تردُّ له الصدى بأمر الله سبحانه ولو لم يشدِّد الصوت.

وقيل: سيري حيث سار، وهو خلاف الظاهر أيضا، لأنّها تقارع الناس وغيرهم، ولأنّها أوتاد الأرض، وأيضا أتبقى أو ترجع لأماكنها ؟ أو تسير في رجوعه معه إلى جهة مسكنه وترجع إلى أماكنها، ولو كان الله قادرًا أن يمسك الأرض بدونها.

وقيل: المعنى أطيعيه فيما أراد فيك من حفر، واستنباط عينٍ ومعدن، ووَضْعِ طريق، وفيه أنّه خلاف الظاهر، ومشارَكٌ فيه.

(نحو) وضمير المفرد المؤنّث لجماعة جبال مخصوصة، وهي جبال أرض هو فيها من الشام، لأنّ اللفظ نكرة مقصودة، وذلك مفعول لحال محذوف من فاعل «ءَاتَيْنَا»، أي قائلين: يا جبال. ﴿وَالطَّيْرَ﴾ عطف على محلّ المنادى عند سيبويه، ولو كان حرف النداء لا يدخل على المعرَّف بـ«ال»، وربَّ شيء يَصِحُّ تبعًا لا استقلالا، قال الشاعر:

ألا يا زيد والضحاكَ سيرا فقد جاوزتما خمر الطريق[1]

بنصب الضحاك، أو يعطف على «فَضْلاً»، أو يقدَّر: وسخَّرنا له الطير، وهو في التسخير أظهر، وهو أوضح من الاقتصار في اللفظ على إيتائها في العطف على «فَضْلاً».

(نحو) وعطفه الكسائي على «فَضْلاً» وقدَّر مضافًا، أي وتسبيح الطير، وهو تقدير أظهر في الإيتاء من مطلق الإيتاء، وقال الزجاج: مفعول معه،

١- البيت من الشواهد وقال صاحب المعجم شواهد اللغة ج٥ ص٢٤٥ أنّه ذكر في عدّة مراجع بدون نسبة.

ورُدَّ بأنَّه يتكرَّر مع قوله: «مَعَهُ» بلا عطف ولا إبدال، وهو ردٌّ متَّجه، سواء علّق «مَعَهُ» بـــ«أَوِّبِي» أو بمحذوف حال من الياء، والمعتبر المعنى لا خصوص لفظ «مَعَ»، فإنّ واو المعيَّة مثله، نعم قد يجوز في الحالية لمغايرة لفظ الاستقرار المقدَّر للعامل. والمراد بـــ«الطَّيْر» الجنس.

﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ﴾ كالطين والشمع، يصرفه إلى أيِّ صورة شاء بلا نار ومطرقة، وقيل: إنَّ المعنى جعلنا الحديد بالنسبة إلى قُوَّته التي آتيناه إيـــَّاهَا لَـــيِّـــنًا كالشمع بالنسبة إلى قوى سائر البشر، وهذا ضعيف، لأنَّه يفيد أنَّه يعالج قُوَّة الحديد وتسهل عليه، ونحن نقول: لا علاج قُوَّةٍ له بل وضع له اللين في الحديد وإن لم يرد هذه المعالجة، كما دلَّ له التشبيه الذي يقدِّرون في الآية، كما قدَّرتُه، فهو القول الأَوَّل.

﴿أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ﴾ دروعا سابغات، أي واسعات، وَادَّعَى بعض الْمُحَقِّقِينَ أَنَّ السابغات اسم لتلك الدروع بلا تقدير موصوف. و«أَنْ» مفسِّرة لقوله: «أَلَنَّا» لتضمُّنه معنى القول دون حروفه، كقولك: وضعت لزيد الطعام أنْ كُلْ. لَمَّا كانت الإلانة ظاهرة له عليه السلام في عمل السلاح، وهو في معرض القتال، والله حكيم صار بمنزلة قلنا له: اعمل، لا مَصدَرِيَّة، إذ لا خارج للأمر يؤخذ منه المصدر، ولو قالوا ما قالوا، والاعتذار عن الذنب أشدُّ من الذنب.

﴿وَقَدِّرْ﴾ وسِّطْ واقتصد ﴿فِي السَّرْدِ﴾ نسج الحديد بعض ببعض، استعارة من نسج الثوب، وقيل: اتِّـــبَاع شيء بمثله من جنسه، وأنَّه حقيقة، أي اجعل حلق الدروع متناسبة على مقدار مُعَيـــَّن دِقَّةً أو غلظةً، أو متناسبة بين الضيق وغيره، لِئَلاَّ ينال السلاح من الواسعة، ولا تثقل من شِدَّة الضيق، وكانت الدرع قبل داود صفائح.

وقيل: معنى تقدير السرد عدمُ صرف أوقاته في عمل الدروع، بل اعمل مقدار القوت، وما فضل عن القوت فاعمل فيه العبادة، وقيل: لا تجعل مسامير حلق الدرع رقاقا فتفلت، ولا غلاظا فتكسر الحلق.

وكان الطِّنِينُ يسأل الناس متنكِّرًا عن حال داود ليجتنب ما يعاب، فيثنون عليه خيرًا فأرسل الله إليه ملكًا فسأله فقال: نِعْمَ العَبد لولا أنَّه يأكل من بيت المال لا من كسبه، فسأل الله مكسبًا فألانَ الله تعالى له الحديد.

(قصص) يعمل الدرع في بعض يوم، أو بعض ليل وثمنها ألف درهم، وقيل: أربعة آلاف يصرف ثلث ثمنها في مصالح الإسلام، ويطعم المساكين، ويروى أنَّه يبيع الدرع بستَّة آلاف درهم ألفان له، ولأهله، وأربعة آلاف يطعم بها بني إسرائيل الخبز الحُوَّارى. ويُرْوَى: يتصدَّق به على الفقراء.

﴿وَاعْمَلُواْ صَالِحًا﴾ خطاب لداود وآله ولو لم يَجْرِ لَهُمْ ذكر لدلالة ذكره عليهم، أو خطاب لهم كقوله تعالى: ﴿اعْمَلُواْ ءَالَ دَاوُودَ شُكْراً﴾، أو خطاب له بصيغة الجماعة تعظيمًا، والعطف على «اعْمَلْ سَابِغَاتٍ»، فالجملة داخلة في التفسير.

[قلت:] وما للنبيء من المَنَّة منَّة لأمَّته، ولو اختصَّ بها عنهم، وإلاَنَةُ الحديد له تشير إلى أن يعملوا صالحًا، إذ يجاهدون بالدروع، والمراد **بعمل الصالح عمل العبادات مطلقًا لا خصُوص عمل الدرع خالية عن عيب،** كما قد يقال، فيخصُّ بداود الطِّنِينُ.

﴿إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ فأجازيكم عليه، وذلك تعليل للأمر في قوله: ﴿وَاعْمَلُواْ صَالِحاً﴾ لا لوجوب الأمر، كما قال بعض الْمُحَقِّقِينَ، لأنَّه لم يخبرنا أنَّ الأمر واجب.

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ﴾ عطف على «دَاوُدَ» و«فَضْلاً» إلاَّ أنَّه ذكر اللام لطول الفصل، وكأنَّه قيل: آتينا منَّا داود فضلا وسليمان الريح، عطفًا على معمولي عامل، وكما يقال: آتيته يقال: آتيت له؛ أو عطف على «أَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ»، كذلك وألنَّا لسليمان الريح، بمعنى سخَّرناها له، لا تعصيه ولا يتضرَّر بها.

وقدَّر بعض: سخَّرنا لسليمان الريح، وقيل: منصوب بسخَّر محذوفًا، والعطف عطف على «لَقَدَ ـــ اتَيْنَا» عطف قصَّة على أخرى، كأنَّه أراد العطف على القسم المقدَّر وجوابه، وأوْلى من هذا عطفه على مدخول «قَدْ»، فيتسلَّط عليه تأكيد القسم وتأكيد قد.

﴿غُدُوُّهَا شَهْرٌ﴾ حال من الريح، أو مستأنفة ﴿وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ قيل: غدوُّها مسير شهر، ورواحها مسير شهر، والمسير المقدَّر اسم زمان ميمي، والغُدُوُّ والروَاحُ اسمان للزمان، وأصلهما المصدر، أي زمان سير شهر، أي السير في ذلك كالسير في شهر، أو قدِّر: مسير غدوِّها مسير شهر، ومسير رواحها مسير شهر، والمسير في هذا الوجه مصدر.

وأسهل من ذلك أنَّ الغدو والرواح سيران صبحًا ومساءً، فيقدَّر سير قَدْرَ شهر في الموضعين. قيل: أعاد ذكر شهر لأنَّ المقام بيان للمقادير، والمقادير يغلب فيها الإظهار، تقول: وزن هذا قنطار ووزن ذلك قنطار، ولو أضمر كان استخداماً، كقوله تعالى: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلاَ يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ (سورة فاطر: ١١) أي من معمر المعمر، وليس المعمر الثاني هو الأوَّل مع ردِّ الضمير للأوَّل.

(قصص) روى أحمد عن الحسن أنَّه يغدو من بيت المقدس فَيَقِيلُ في اصطخر، ويروح من اصطخر ويَقِيلُ بقلعة خراسان، وذلك شهران للراكب المجدِّ في يوم واحد، ويقال: يسير من دمشق ويقيل باصطخر، ويسير من

اصطخر ويبيت بكابل، مسيرة شهرين كذلك، ويقال: يتغذّى بالري ويتعشى بسمرقند، واصطخر من بلاد فارس[1].

﴿وَأَسَلْنَا لَهُ، عَيْنَ اَلْقِطْرِ﴾ صيَّرنا له عين القطر سائلا كما يسيل الماء من العين، وسمَّى ما في الأرض أو الجبل من الحديد والنحاس وهو جامد عينًا على الاستعارة، ورشَّحها بـ«أَسَلْنَا»، والقرينة «الْقِطْر»، وهو النحاس والحديد وغيرهما، وسمَّاه قطراً على طريق مجاز الأَوْل من معنى قولك : «قطر الماء قطرًا»، ولا مجاز في الإسالة لأنَّها حقيقة في كلّ مائع.

وقيل: ﴿عَيْنَ﴾: بمعنى نفس الشيء، و﴿الْقِطْرِ﴾: اسم للنحاس، كما تقول: ذات الشيء، والمعنى على كلّ حال: أسلنا له ذلك كلّما شاء، وفي كلّ موضع أراد، فيكون ما سال كالشمع يعمل فيه ما شاء، فيرجع معموله إلى أصله من الصلابة، كما ألاَنَ الحديد لأبيه داود، وإن أراد تصرُّفا في معموله بالنقص أو الزيد، أو التوسيع أو التضييق، أو التغليظ أو الترقيق، أو نحو ذلك كان لَيِّنًا أيضا، فإذا عمل ما أراد رجع صلبًا.

﴿وَمِنَ اَلْجِنِّ مَنْ يَّعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّـهِ﴾ أي يعمل له بأمر رَبِّـه ما يشاء ومتى شاء، أو لا مفعول له وإنَّما المراد: جعلنا له عمَّالا أو عملة من الجنِّ كما تكون من الإنس.

(نحو) والعطف على «عَيْنَ الْقِطْرِ» على حدِّ: «علفتها تبنا وماء باردًا»، فإمَّا أن يقدَّر: وسخَّرنا له من الجنِّ من يعمل، أو يضمَّن «أَسَلْنَا» معنى

١- يذكر الشيخ الطاهر بن عاشور في تفسيره للآية: ومعنى تسخيره الريح: خلق ريح تلائم سير سفنه للغزو والتجارة، فجعل الله لمراسيه في شطوط فلسطين رياحا موسمية تهبُّ شهرا مشرقة، وتهبُّ شهرا مغربة لترجع بسفنه إلى شواطئ فلسطين كما قال تعالى: {وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الاَرْضِ التِي بَارَكْنَا فِيهَا} في سورة الأنبياء.

سخَّرنا، أو يسَّرنا، وهذا لقربه أولى من العطف على «سُلَيْمَانَ الرِّيحَ»، أو على «ءَاتَيْنَا». ويجوز أن يكون «مِنَ الْجِنِّ» خبرا و«مَنْ» مبتدأ أو حالا من «مَنْ»، و«مَنْ» معطوفة على الريح أو غيره ممَّا مرَّ، واقتصر بعض الْمُحَقِّقِينَ على عطفه على «سُلَيْمَانَ الرِّيحَ». وذكر «بَيْنَ يَدَيْهِ» إشارة إلى انقيادهم وعدم غيبتهم عَمَّا يريد منهم.

﴿**وَمَنْ يَّزِغْ**﴾ يَمِلْ ﴿**مِنْهُمْ عَنَ اَمْرِنَا**﴾ عن أمرنا إِيَّاهُ بالعمل لسليمان، أو عن شأننا في طاعته له ﴿**نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ**﴾ شيئًا من عذاب السعير النار الدُّنيوِيَّة في الدنيا، كما يحرق على زيغه بنار الآخرة في الآخرة.

(قصص) قال السدِّي: بيد سليمان سوط من نار يضرب به من عصاه من الجنِّ، وإنَّما يهلك الجنيُّ بالنار، مع أنَّه نار لشدَّة هذه النار على ناره، ولأنَّه ليس ناراً محضة بل هي أغلب عناصره، وقال الأكثر: المراد نار الآخرة.

﴿**يَعْمَلُونَ لَهُ، مَا يَشَآءُ**﴾ تفصيل بعد إجمال ﴿**مِن مَّحَارِيبَ**﴾ جمع محراب، والمحراب صفة مبالغة من الحرب، بمعنى كثير الحرب، أو عظيمه سُمِّيَ به القصر لأنَّ صاحبَه صيَّره في حمايته كقوله:

جمع الشجاعة والخشـــوع لربِّه ما أحسن المحراب في محـــرابه

ويطلق على ما يبنى في قبلة المسجد يقف فيه الإمام، واستحسن أن يقف خارجه.

وقيل: المحاريب المساكن؛ وقيل: ما يصعد إليه بالدرج كالغرف؛ وقال مجاهد: المساكن؛ وقيل: المساجد سُمِّيت باسم بعضها وهو محراب الصلاة أو حجرة فيها يعبد الله تعالى فيها. وكانت مساجد هذه الأُمـــَّة المحَمَّدِيَّة خالية عن المحاريب، وأُحْدِثَتْ تبعًا لأهل الكتاب. وفسَّرها قتادة بالقصور والمساجد معًا.

(قصص) ويروى أنّ داود بنى بيت المقدس قدر قامة، فأوحى الله تعالى إليه أَنــِّي قضيت إتمامه على يد ابنك سليمان فَكَفَّ داود، وَلَمَّا كان سليمان خليفة بعد موت أبيه استعمل طائفة من الجنِّ بعد بناء بيت المقدس في تحصيل الذهب والفضة من معادنها، وطائفة في تحصيل اليواقيت والجواهر والدرِّ الصافي، وطائفة بالمسك والعنبر، وأمر بإصلاح ذلك ألواحًا وثقب ما يحتاج للثقب، وركَّب ذلك كُلَّه على بيت المقدس، بعد أن بناه بالرخام الأبيض والأصفر والأخضر، وقيل: جعل عمده من البلور الصافي، وسقفه من الجواهر الثمينة، وأرضه من الفيروزج، فهو يضيء كالقمر ليلة البدر، وَإِنَّمَا بنى المسجد بعد بناء المدينة كلِّها بالرخام الجيِّد، وجعلها اثني عشر ربضًا أنزل في كُلِّ ربض سبطًا، وَلَمَّا غزا «بخت نصَّر» الشام أخذ ذلك كلَّه إلى العراق، وبنى الجنُّ لسليمان أيضًا في اليمن قصورًا وحصونا من الصخر عجيبة.

﴿وَتَمَاثِيلَ﴾ جمع تمثال، وهي صور الملائكة والأنبياء والصلحاء، تصوَّر في المساجد ليتذكَّروا عبادتهم فيجتهدوا، وتصوير الحيوان في شرعهم جائز، وكانت بالنحاس والزجاج والرخام، وعن الضحاك: صوَّر حيوانات لمنع البعوض والذباب أو غير ذلك، حتَّى لا يتجاوز الموضع جنس ذلك الممَثَّل به، وتوهَّم بعض أنَّ تصوير الحيوان محرَّم في شرعهم، فأوَّله بأنَّه لا رأس له، وليس كذلك فإنَّه حلال فيه ولو مع الرأس.

(قصص) ويروى أنَّه صوَّروا له أسدين تحت كرسيه يبسطان ذراعيهما اذا أراد الصعود، ونسرين فوقه يظلاَّنه إذا جلس بأجنحتهما، والطواويس والعقبان والنسور على درجاته، وفوقه ليهابه من أراد الدنوَّ منه، وذلك حكمة من الله العزيز الحكيم، وأراد أفريدُون صعوده فكسر الأسدان ساقه فلم يجسر عليه أحد بعده.

(فقه) ومُنِعَ في شرعنا تصوير الحيوان بالرأس، وتصوير الرأس، وجاز بلا رأس كما جاز غير الحيوان، وأخطأ من أجاز التصوير لهذه الآية، ويردُّه أحاديث النهي.

[قلت:] واختلف في تصوير ما لا يجوز تصويره، بنسج أو لطخ بلا ظلٍّ، والأَحْوَطُ المنع، لأنَّ المنع وردَ أوَّلاً في ستر بيت لعائشة فيه صور زجرها وخرقه، وحديث: «**إلاَّ ما كان رقما في ثوب**»[1] ضعيف.

﴿**وَجِفَانٍ**﴾ ما يوضع فيه الطعام ليؤكل، وقيل: الصحيفة ما يشبع الواحد، والمأكلة الاثنين والثلاثة، والصحفة الخمسة، والقصعة العشرة، والجفنة فوق ذلك ﴿**كَالْجَوَابِي**﴾ الحياض العظام، والمفرد «جابية» من الجباية وهي الجمع، لأنَّه يجبى إليها، وذلك من الإسنادِ إلى الظرف، أو ذلك نسب، كَلاَبِن وتَامِر، ثمَّ غُلِّبَ على الإناء المخصوص.

﴿**وَقُدُورٍ**﴾ جمع «قِدْر»، وهو ما يطبخ فيه لحم أو طعام آخر من الفخار أو حديد أو صفر على شكل مخصوص ﴿**رَّاسِيَاتٍ**﴾ ثابتات على الأثافي لا تنزل لعظمها، وقدِّمت المحاريب على التماثيل لأنَّ التماثيل تصوَّر على جدرانها، والجفان على القدور، مع أنَّ الطبخ قبل الأكل لأنَّها التي تحضر على السماط الذي يمدُّ لا القدور، وإنَّما ذِكْرُ القدور وأنَّها راسيات إخبارٌ بكثرة المأكول.

﴿**اعْمَلُواْ ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا**﴾ اعملوا الطاعات يا آل داود لأجل الشكر، أو «شُكْرًا» مفعول به لـ«اعْمَلُوا»، أو مفعول مطلق، لأنَّ الشكر نوع من

١- رواه **البخاري** في كتاب بدء الخلق (٧) باب إذا قال أحدكم آمين، رقم ٣٢٢٥، من حديث ابن عبَّاس. **والترمذي** في كتاب اللباس (١٨) باب ما جاء في الصورة، رقم ١٧٥٠، من حديث أبي طلحة الأنصاري.

العمل، فهو كـ«قعدت القُرْفُصَاء».

(فائدة) وفي وصولي لهذه الآية أكلت ليلا خبز شعير بزيت وحده، وهو معتادي، فألْهَمَنِي الله تعالى بيتًا على ارتجال من المتقارب:

وخبز الشعير مع الزيت كُـلْ ومِن بعده الحمدُ لله قُـل

وذكر البيهقي عن ابن مسعود أنَّ سليمان يأكل خبز الشعير ويطعم أهله أحسنه، والمساكين الحوارى، ولم يشبع قطُّ خوف أن ينسى الجائع، ولم يخل مُصَلاَّهُ من قائم ليلاً ونهارًا يتناوبونه.

وقد يعمُّ آل الرجل إِيَّاهُ فيشمل داود.

وروى أحمد والبيهقي قال داود: «يارب هل بات أحد أطول ذِكْرا منِّـي»؟ فأوحى الله أنَّ الضفدع أطولُ، فما نسمع من الضفدع في الماء إنَّما هو بعض ذكرها وما لا نسمع أكثر، والله به أعلم. وتُسمع دويـبةٌ على طول الليل تصوِّت في الأجنَّة وَلَعلَّهَا بعوضة[1].

وَلَمَّا نزل عليه: ﴿اعْمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُودَ شُكْرًا﴾ قال: يَا رَبِّ كيف أطيق شكرك؟ وأنت الذي تنعم عليَّ وترزقني الشكر، فمنك النعمة ومنك الشكر، فقال: «**الآنَ شكرتني وعرفتني حقَّ معرفتي**». وقال لسليمان: اكفني قيام النهار، أكفك قيام الليل، قال: لا أستطيع، قال: فاكفني صلاة النهار، أي وهي نفل في النهار أقلُّ من قيام في النهار.

(نحو) والجملة مفعول لقول مستأنف، أي قلنا: «اعملوا»، أو لحال من الفاعل في تقدير «سخَّرنا لسليمان» أي سخَّرنا لسليمان الريح قائلين: اعملوا، أو من الفاعل في «أَلَنَّا».

١- لَعَلَّهَا نوع من الصراصير.

﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ هذا مستأنف في القرآن، أو هو ممَّا خوطب به آل داود. والشَّكُورُ: من يدوم على العبادة جهده، أو في أكثر أوقاته معترفًا بنعم الله عز وجل بقلبه ولسانه، أو من يشكر على الشكر، فإنَّ كُلَّ شكرة تقتضي أخرى، فهو يرى عجزه عن أداء حقِّ الشكر، كما مرَّ عن داود عليه السلام.

[قيل:] قال ﷺ: لَمَّا فرغ سليمان من بيت المقدس سأل رَبَّهُ حُكمًا يوافق حكمه، وملكًا لا ينبغي لأحد من بعده، فأوتيَهُمَا، وأن لا يأتيه أحد للصلاة فيه إلاَّ خرج كيوم وُلِدَ، وَأرجو أنَّه أوتيه. ويقال: ملِّك وهو ابن ثلاث عشرة سنة، وبقي في الملك أربعين سنة، وشرع في بناء بيت المقدس لأربع سنين مضت من ملكه، ومات ابن ثلاث وخمسين.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ﴾ عطف قصَّة بالفاء على أخرى قبلها، أو على محذوف تقديره: أحييناه كذلك، أو فعلنا به ذلك فلمَّا قضينا عليه الموت، أي أنفذناه فيه. ﴿مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ﴾ لم يقل: ما دلَّهم عليه بعود الهاء للموت، لئلاَّ يتوهَّم عودُها لسليمان، ولأنَّ الموت المذكورَ قَبل هو حقيقة الموت، وهذا موت متشخِّص.

والهاء في «دَلَّهُمْ» عائد إلى الجنِّ الذين يعملون له عليه السلام، لا إلى «آل داود»، لأنَّ المقام للردِّ على من يتوهَّم أنَّ الجنَّ تعلم الغيب، كما يدلُّ له: ﴿فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ﴾.

﴿إِلاَّ دَآبَّةُ الاَرْضِ﴾ دَابَّة الأَكلِ، يقال أَرَضَت الدَّابَّة الخشب (بفتح الراء) تَأرِضُهُ (بكسرها): أكلته، فـ«الأرض» في الآية مصدر أضيف إليه فاعله، وهو الدَّابَّة المخصوصة المسمَّاة «سُرْفة» (بضمٍّ فإسكان): سوسة الخشب، سوداء الرأس حمراء البدن.

(صرف) ومطاوع ذلك الفعل «أرِضَ» (بالكسر) تَأرَضُ (بالفتح)، أرَضَتْ تلك الدَّابـــةُ الخشبةَ (بفتح الراء) أرْضًا بإسكانها، فأرِضَتْ (بكسرها) الخشبةُ: أي تَأَثَّرَ فيها أكلُهَا، أرَضًا (بفتحها)، كما قرأ به ابن عبَّاس، ولعلَّ من فسَّر الآية بالأرْضِ التي نَحْنُ عليها لم يطَّلع عليها أنَّها ذكرت في اللغة.

﴿تَاكُلُ منسَاتَهُ،﴾ عصاه، والألف عن همزة، يقال: نَسَأْتُ البعير إذا طَردتُّه، ونسأته أخَّرته. والجملة حال من «دَابَّةُ».

﴿فَلَمَّا خَرَّ﴾ بالموت ﴿تَبَـيَّـنَت الْجِنُّ﴾ علمت بعد التباس ﴿أَن لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ اَلْغَيْبَ مَا لَبِثُواْ فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ بعد موته. «أَنْ» مخفَّفة، أي أنَّه أي الشأن، أو أنَّهم أي الجنُّ، والمصدر من معنى «لَوْ» مفعول به لـــ«تَبيَّنت» أي علمت ضعفاء الجنِّ انتفاء علم أقويائهم الغيبَ لبقائهم سنة في الخدمة الشَّاقة التي استخدمهم بها، وهي عَذَابٌ مُهِينٌ، أي مذلٌّ لهم بحمل الصخر، واستخراج المعادن، والبناء، والعكوف على بابه، وحول محرابه.

وأسند التبيُّن والعلم، لمجموع الجنِّ والمراد التفصيل المذكور، كانت ضعفاؤهم يدَّعون أنَّ أقويائهم يعلمون الغيب. أو الجنُّ هم الأقوياء، كانوا يدَّعون علم الغيب، فَتَبَـيَّـنَ لهم أنَّهم لا يعلمونه، أو «أَنْ» وما بعده في تأويل مصدر بدل اشتمال؛ وإن اعتبر مضافٌ، أي تَبَـيَّـنَ أمر الجنِّ كان بَدَلَ كُلٍّ. وعلى فرض أنَّ الأقوياء علموا أنَّهم لا يعلمون الغيب، فالآية تهكُّم بهم.

وفي الحديث: «**لتـتَّبعنَّ سنن من قبلكم، حتَّى لو دخلوا جُحرَ ضبٍّ لدخلتموه، أو ركبوا متن ضُباةٍ لركبتموه**»[1].

١-رواه **مسلم** في كتاب العلم، باب اتِّـبَاع اليهود والنصارى، رقم ٢٦٦٩. **وابن حبَّان** في كتاب التاريخ، باب إخباره عَمَّا يكون في أمَّته ﷺ من الفتن والحوادث، رقم٦٧٠٣، من =

[قلت:] ففي هذه الأُمـــّة من يميل إلى ذلك بل يتقرَّب إليهم بالذبح، وقد قال أبو هريرة عن رسول الله ﷺ: «**لا تذبحوا للجنِّ**»[1]. قال بعض الفقهاء: ذبائح الجنِّ أن تذبح في الدار الجديدة بالطيرة، أو لعين تستخرج منها، ومن ذلك أن يذبح في الموضع الذي يراد حفر البئر فيه، أو في قريب منه، أو في موضع مَّا قصدًا للجنِّ، وكذلك أن تذبح دجاجة لمريض تقرُّبًا إلى الجنِّ، أو زعمًا بأنَّ الجنَّ يخرج بها من المريض.

(قصص) وَلَمَّا دنا موته عليه السلام كان لا يصبح إلاَّ رأى شجرة نابتة في محرابه، فيسألها: لماذا أنت ؟ فتخبره، فنبتت فيه خرنوبة وسألها فقالت: لخراب بيت المقدس، فقال: لا يخربه الله وأنا حَيٌّ، فنزعها وغرسها في جنَّة له، وَاتَّخَذَ منها عصًا، وقال: اللهمَّ أعْمِ الجنَّ عن موتي حتَّى يُعلم أنَّهم لا يعلمون الغيب كما يُمَوِّهون، وقال لملك الموت: إذا أُمِرْتَ بي فاعلمني، فقال: بقيت ساعة، فدعا الجنَّ فبنوا له صرحًا من زجاج لا باب له، فقام يُصَلِّي متَّكئًا على عصاه، وكانت الجنُّ تجتمع حول محرابه أينما صَلَّى، ومن نظر إليه منهم في صلاته احترق، فمرَّ جنِّيٌّ ولم يسمع صوته، ورجع ولم يسمع، فنظر فإذا هو قد خرَّ مَيِّتًا، ورأوا عصاه قد أكلت منها الأرضة، فوضعها الناس على العصا يوما وليلة، وأكلت فحسبوا فإذا أنَّه مات سنة.

(نقد القصة) ويبحث بأنَّها قد تأكل أحيانًا وتترك أحيانًا، وأنَّه يجوز أن تبتدئ الأكل بعد موته بزمان، وبأن الشيخ يوسف بن إبراهيم الورجلاني قال: من كان داخل بيت من زجاج لا منفذ له لا يسمع الصوت ولو ضربت عليه طبول الدنيا، إلاَّ أنَّ الله خرق العادة، ويقال:

=

حديث أبي سعيد الخدري.

١- لم نقف على تخريجه بهذا اللفظ.

علم الناس أنَّه مات سنة بالوحي إلى نبيء، ولعلَّهم أرادوا مع ذلك أن يعرفوا كم تأكل في كلِّ يوم، فلا يقال لو علموا بالوحي لم يحتاجوا إلى الاختبار، ويبعد أن يقال: بدأت الأكل في حياته.

وروي أنَّه أمر ببناء صرح له من زجاج فاختلى فيه ليصفو له يوم، فإذا بشاب فقال: كيف دخلت بلا إذن؟ فقال: دخلت بإذن، قال: من أذن لك؟ قال: رَبُّ الصرح، فعلم أنَّه ملك الموت، فقال: سبحان الله، هذا يوم طلبت فيه خلوة، فقال: طلبت ما لم يخلق.

ولم يعلم الجنُّ بموته سنة، وقد دعا الله تعالى في أن يخفي موته عن الجنِّ لِيُعلَمَ أنَّهم لا يعلمون الغيب. وعمره ثلاث وخمسون، وملِّك وعمره ثلاث عشر سنة كما قيل.

﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَٰكِنِهِمْ ءَايَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُۥ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ يُجَٰزَىٰ إِلَّا الْكَفُورُ ﴿١٧﴾ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَٰرَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَٰهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَٰعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَٰهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَٰهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْأَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾﴾

قصَّة سبأ وسيل العرم

﴿**لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ**﴾ قوم سُمُّوا باسم أبيهم سبأ بن يشجُب (بضمِّ الجيم) ابن يعرب بن قحطان من العرب، قيل: ولد له عشرة من العرب، **تيامن** منهم ستَّة: الأزد وكندة ومدحج وأشعر وأنمار وبجيلة، وهم من أنمار، وفي الحديث: أنمار منهم خثعم وبجيلة، **وتشاءم** منهم أربعة: عاملة وغسَّان ولخم وجذام. وسبأ أَوَّل ملوك اليمن واسمه عبد شمس، وَسُمِّيَ سبأ لأَنَّه أَوَّل من سبا من ولد قحطان. ملك أربعة مائة وأربعا وثمانين سنة.

﴿**فِي مَسَاكِنِهِمُ**،﴾ أي الأرض التي عمروها، كما تسمَّى الدنيا دارًا، فلا حاجة إلى جعل «في» بمعنى عند تحرُّزًا عن أن يكون المساكن ظرفًا لـ«جَنَّتَيْنِ»، ويقال: القريب من الشيء يجوز إطلاق أنَّه في الشيء مبالغة في القرب، والمفرد «مَسْكَن» (بفتح الكاف) اسم مكان السكنى، أي العمارة، أو مصدر، أي السكنى، متعلّق بـ«كَانَ» أو بمحذوف حال من قوله: ﴿**ءَايَةٌ**﴾ علامة على وجود الله تعالى وقدرته.

﴿**جَنَّتَانِ**﴾ بدل كلٍّ من «ءَايَةٌ»، ومجموع الجنتين آية واحدة، فقد اتَّحد بدل الكلِّ والمبدل منه، ولم يضرَّ التخالف لفظًا بالإفراد والتثنية، كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ، ءَايَةً﴾ (سورة المؤمنون: ٥٠) ، إذ جعل اثنين آية واحدة إذا فسَّرنا ذلك بمجرَّد كونها والدة بلا رجل، وكونه ولد منها كذلك؛ فلا يقدَّر مضاف، أي شأن جنَّتين، أو قصَّة جنَّتين إلاَّ لإيضاح المعنى.

﴿**عَنْ يَّمِينٍ وَشِمَالٍ**﴾ يمين بلادهم وشمالها، باعتبار الذاهب إلى الأجنَّة، وَسَمَّى أجنَّة اليمين كُلَّهَا جنَّة، وأجنَّة الشمال جنَّة لاتِّصال نبات كلِّ جهة كأنَّه جنَّةٌ واحدة، وقيل: المراد لكلِّ أحد جنَّة عن يمين مسكنه وجنَّة عن شماله.

﴿كُلُواْ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُواْ لَهُ،﴾ اخضعوا له بالعبادة، لأجل نعمه، مفعول لمحذوف، أي قال الله لهم كلوا، وذلك بواسطة نبيء، أو قال لهم أنبياؤهم، أو قيل لهم. وكانوا في ثلاث عشرة قرية، في كلّ قرية نبيء يدعوهم إلى التوحيد والشكر، وقيل: القول حاليٌّ لا قاليٌّ.

﴿بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ خبران لمحذوفين، أي أرضكم بلدة طيِّبة وربُّكم ربٌّ غفور لزلاّتكم إذا أحسنتم، وقيل: طيبها كونها منبتة للثمار اللذيذة، ولا حُمَّى فيها ولا حَرَّ ولا بردَ، ولا عقرب ولا حيَّة أو نحوهما، ولصحَّة هوائها وعذوبة مائها.

﴿فَأَعْرَضُواْ﴾ عن الشكر، أشركوا وعصوا وكذَّبوا أنبياءهم ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ﴾ لذلك ﴿سَيْلَ اَلْعَرِمِ﴾ الإضافة للبيان، أي هو العرم، أي الشديد الصعب، وهو معنى قولهم: من إضافة الموصوف إلى الصفة، كأنَّه قيل: السيل العرم، بتعريف سيلٍ بـ«الْ» ونصب العرم. يقال: عرم الرجل، أي صعب وساء خلقه، ويجوز تقدير: سيل الأمر العرم.

وقيل: العرم المطر الشديد، وقيل: اسم للفأر الأحمر الأعمى الذي نقب عليهم السدَّ، وكان يكثر الحفر برجليه، ورآه ملكُهم قلبَ صخرة ما يقلبها خمسون رجلا، وعليه فالإضافة لأدنى ملابسة، كما في تفسيره بما بني ورفع ليمسك الماء، إلاّ أنَّها في هذا أقوى.

(قصص) وقيل: الوادي الذي يأتي منه السيل، وبني السدُّ فيه وكان يجلب لهم ماء المطر مسيرة ثلاثة أيّام في اليمن في مأرب وسدُّوه بأمر ملكتهم بلقيس حين رأتهم يتنازعون على الماء قبل أن تتَّصل بسليمان عليه السلام، بين الجبلين بالصخر والجصِّ والقطران، وجعلت له أبوابًا ثلاثة بعضها فوق بعض يستقون من الأعلى، ثمَّ من الثاني، ثمَّ من الأوَّل، فلا

ينفذ الماء إلى السنة المقبلة، وماء الثلاثة ينصبُّ في بركة واحدا بعد واحد، إذ بنت من دونه بركة منها اثنا عشر مخرجًا، على عِدَّة أنهارهم، وكان الماء يخرج لهم على السويَّة.

(قصص) وقيل: بناه حمير أبو القبائل اليمنية، وقيل: بناه لقمان الأكبر بن عاد، ورصف أحجاره بالرصاص والحديد، وكان فرسخا.

أرسل الله عليه سيلاً حمله، والفأر خرقه، وقيل: للفأر أولاد يخرقون معه، وكان لهم علم بأن يخرب، فجعلوا بين كل حجرين هرة فغالبت تلك الهرة فأرتها فنقبت، وغابت في الثقب، وأفسد الجنان، وكثيرًا من الناس ومساكنهم بالتراب وقيل: فسدت بذهاب الماء ضائعا عنها.

﴿**وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ**﴾ وكانتا في غاية من الإثمار مع خصب الأرض، ويقال: تخرج المرأة وعلى رأسها المكتل تجري وتعمل عملها، فيمتلئ ممَّا يتساقط من الثمار ﴿**جَنَّتَيْنِ**﴾ في أرض جدبة لا ثمار لها نافعة ﴿**ذَوَاتَيْ اكُلٍ**﴾ مأكول، أي ثمر مأكول ﴿**خَمْطٍ**﴾ حامض أو مُرٌّ، نعت «أُكْلٍ»، أو شجر الأراك، أو ثمره مطلقًا، أو إذا اسودَّ، أو شجر الغضا، أو الشجرة ذات الشوك المرَّة، أو ثمر شجر على صورة الخشخاش، ويسمى البرير. وهو عطف بيان على جوازه في النكرة، أو بدل، وفي الأوجه قبله غير الأَوَّل بدل، أو بيان على حذف مضاف، أي أُكلِ خمطٍ، أو يُقَدَّرُ: ذواتي أكلٍ ذي خمطٍ.

﴿**وَأَثْلٍ**﴾ ضرب من الطرفاء ولها أربعة أصناف، أو الطرفاء مطلقًا، أو السمر ﴿**وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ**﴾ شجر النبق ورقه غسول يشبه العناب، أو ضرب من السدر له ثمر لا يؤكل ولا يصلح ورقه غسولا، يسمى الضال، وعلى الأوَّل الانتقام بقلّته أو بنقصه بالنظر إلى ما أزيح عنهم من الثمار.

روى أبو داود عنه ﷺ: «**من قطع سدرة صوب الله رأسه في النار**»[1]. والبيهقي أنَّه ﷺ قال في مرض موته: «**اخرج يا علي فقل عن الله لا عن رسول الله ﷺ: لعن الله من يقطع السدرة**»[2]. وذلك في قطع العبث، ولو كان في ملك القاطع، أو ذلك في سدر المدينة ليكون أنسًا للمهاجر، وفيه ضعف، أو سدر الفلاة ليستظلّ به ابن السبيل والحيوان، أو سدر مَكَّة لأَنـَّهَا حرم، أو السدر المملوك.

﴿**ذَٰلِكَ**﴾ التبديل البعيد رتبة في الضَّر، مفعول به لقوله: ﴿**جَزَيْنَاهُم**﴾ أو مفعول مطلق للجزاء بعده، وعلى كُلّ حال قدِّم للتهويل أو للحصر، أي لا جزاءً آخر ﴿**بِمَا كَفَرُواْ**﴾ بسبب كفرهم النعمة، أو كفرهم بالرسل الثلاثة عشر، وذلك قبل سَيِّدنَا عيسى عليه السلام، أو سيل العرم بعده والأنبياء قبله.

﴿**وَهَلْ يُجَازَىٰٓ**﴾ مثل هذا الجزاء ﴿**إِلاَّ اَلْكَفُورُ**﴾ المبالغ في الكفر، أو هل يجازى بكُلّ ما فعل إلاَّ الكفور؟ أو هل يجازى جزاء غضب إلاَّ الكفور؟ والمؤمن يجازى ببعض ما فعل في الدنيا تمحيصا لا غضبا. والمجازاة في الشرّ، والجزاء في الخير غالبًا، بل لم يرد المجازاة في القرآن إلاَّ في هذه الآية، فالجزاء فيها للشرّ.

﴿**وَجَعَلْنَا**﴾ قبل الخراب ﴿**بَيْنَهُمْ**﴾ بين بلدهم التي بني لها السدُّ ﴿**وَبَيْنَ اَلْقُرَى اَلتِي بَارَكْنَا فِيهَا**﴾ هي قرى الشام، ومنها قرى بيت المقدس، وعن ابن

١- رواه **أبو داود** في كتاب الأدب، باب من قطع السدر، رقم٥٢٣٩. من حديث عبد الله بن حبشي. وقد سئل أبو داود عن معنى الحديث فقال: من قطع سدرة في فلاة يستظلّ بها ابن السبيل والبهائم عبثا وبغير حقّ يكون له فيها صوَّب الله رأسه في النار.

٢- رواه **البيهقي** في كتاب المزارعة (٩) باب في قطع السدرة، رقم ١١٧٦٧، من حديث أبي جعفر.

عبَّاس: قرى بيت المقدس، والقولان أولى -لأنَّ المعروف بالبركة ثمارًا ودينا هو تلك البلاد القدسية- من قول: إنَّ المراد السراوية، وقول: إنَّهُ قرى صنعاء، وقيل: قرى مأرب ﴿قُرًى ظَاهِرَةً﴾ تظهر لِمَنْ في واحدة الأخرى، لشدَّة القرب عند قتادة، قيل: أربعة آلاف وسبعمائة قرية من سبأ إلى الشام، لا يحملون زادًا ولا يحتاجون، يقيلون في واحدة ويبيتون في أخرى[1]، وقال المبرِّد: ظاهرة للناظر من بعيد لكونها على المواضع المرتفعة كالجبال، وذلك شرف لها، وقيل: متبيِّنة الحسن واللياقة للمارِّ، وقيل: ظاهرة للمارِّ لكونها على الطريق، يسهل للمارِّ الانتفاع منها.

وعن ابن عطيَّة: خارجة عن المدن الكبار، وظواهر المدن ما خرج عنها، وقوله: ﴿وَجَعَلْنَا...﴾ عطف على ما قبله عطف قصَّة على أخرى، فهم في نعم عظيمة في حضرهم وسفرهم.

﴿وَقَدَّرْنَا فِيهَا اَلسَّيْرَ﴾ جعلنا السير فيما بينها على مقدار لائق، فـ«في» بمعنى بين، أو يقدَّر مضاف، أي في طرقها، ونكتة «في» الإشارة إلى أنَّ السير في خارجها كالسير في داخلها مبالغة في ذكر نعمها لهم من شدَّة القرب، كأنَّهم لم يخرجوا منها، كما مَرَّ عن قتادة، ولو اختلف القرب، وقيل: من سار صباحًا من واحدة وصل الأخرى وقت الظهر، ومن سار منه وصل الأخرى وقت الغروب، فبين كُلِّ واحدة والأخرى ما بين الصبح والظهر، أو ما بين الظهر والغروب، وقيل: بين كُلِّ قريتين ميل، وفي كُلِّ الأقوال لا يحتاج إلى حمل زاد ولا إلى مبيت في غير عمران.

وأكَّد القرب بقوله: ﴿سِيرُواْ فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ـــ امِنِينَ﴾ الجملة منصوبة

١- لمزيد التوسع في النقول والروايات راجع البحر المحيط لابن حيان في تفسير الآية.

بحال محذوفة، أي قائلين بالوحي أو بلسان الحال: سِيرُواْ... ومعنى ﴿لَيَالِيَ وَأَيَّامًا ءَامِنِينَ﴾ متى شئتم لا يختلف الأمن ولا يتخلّف بوقت لعدوٍّ أو سبع أو دَابَّة مضرَّة لفقد ذلك، ولو امتدَّ سفركم ليالي وأيَّامًا، وعن قتادة: يسيرون في ذلك أربعة أشهر.

أو المراد: مدَّة أعماركم، فعبر بـ«لَيَالِيَ وَأَيَّامًا» تلويحًا بقرب الموت. وقدَّم الليل لتقدُّمه على اليوم، ولأنَّه مظنَّة الخوف.

﴿فَقَالُواْ رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا﴾ بلسان الحال لكفرهم النعمة الموجب للانتقام، أو بلسان القال. و«قَالُوا» كلٌّ لا كليَّة لأنَّ القائل الأقوياء القادرون لا كلُّهم، لينالوا ما لا يناله الضعفاء، ممَّا يجلب من البلاد البعيدة ممَّا يشتهى، فيفتخرون بذاك على الضعفاء الذين لا يقدرون على ركوب المفازات.

وذلك كاختيار الاسرائيليِّين الفوم والعدس والبصل على المنِّ والسلوى. فأخرب الله عَزَّ وَجَلَّ ما بينهم وبين القرى المباركة، حَتَّى لا داعي ولا مجيب، وذلك بَطْرٌ للنعم. ومعنى الآية: اجعل البعْدَ بَينَ أجزاء أسفارنا ﴿وَظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ بتعريضها للعذاب، والمراد أبدانهم، لأنَّها تتألَّم بواسطة نفس الحياة، أو المراد أنفس الحياة، أعني الروح، فإنَّ السكران لا يتألَّم، أو كلاهما، وهكذا تقول حيث أمكن القول.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ، أَحَادِيثَ﴾ جعلنا أحوالهم أحاديث، أو جعلناهم بأنفسهم أحاديث، مبالغة، والمفرد «أحدوثة» (بضمِّ الهمزة): وهي الحديث العجيب لعظمه أو غرابته، أو أفنيناهم كلَّهم ولم يبق إلاَّ التحدُّث العجيب عنهم.

﴿وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ كلَّ تمزيق، فالنصب على المفعوليَّة المطلقة، أو كلَّ موضع تمزيق من مواضعهم، فالنصب على الظرفيَّة، وذلك بالنقل إلى أماكن بعيدة كما مرَّ، بعد أن كانوا يقتبسون النار بعض من بعض، مسيرة أربعة أشهر.

وقيل: لحق غسان بالشام، وأنمار بالمدينة، وجذام وخزاعة بتهامة، والأزد بعمان، وقضاعة بِمَكَّةَ، وأسد بالبحرين، وقيل: خزاعة بالأراك، من بطن مر، والأوس والخزرج بطيبة بأن قدم إليها جدُّ الأوس والخزرج، وهو عمرو بن عامر، وآل جفنة بالشام، وآل جذيمة الأبرش بالعراق، وذلك بعد إرسال السيل العرم، وقيل: قبله بأن علموا بأنَّه يخرب، ويجمع بِأَنَّ بعضًا قبلُ وبعضًا بعدُ.

والمعنى: قضينا التمزُّق عليهم، وذلك أنَّهم تفرَّقوا باختيار إذ خرب السيل السُدَّ، أو المراد بالتمزيق إخراب السدِّ الذي هو السبب في التفرُّق، وأوَّل من خرج منهم عمرو بن عامر لإخبار زوجته الكاهنة بالتخريب.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ ما ذكر من قصَّتهم ﴿لَأَيَاتٍ﴾ عظاما ﴿لِّكُلِّ صَبَّارٍ﴾ على مشاقِّ الطاعة والمصائب، وعن المعاصي كبطر النعمة ﴿شَكُورٍ﴾ على النعم، وفي ذلك آيات لكلِّ أحد، ولكن خصَّ هؤلاء لأنَّهم المنتفعون، أو لكلِّ من يتأهَّل للصبر والشكر وهم المكلَّفون.

﴿وَلَقَدْ صَدَقَ عَلَيْهِمُ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ﴾ على سبأ، أو على بني آدم، أي حقَّق عليهم ظنَّه، أو وَجَدُوه صادقًا، أو في ظنِّه، أو أصاب ظنَّه، وليس على يقين من إهلاك الناس حين قال: ﴿لَأُغْوِيَنَّهُمُ أَجْمَعِينَ﴾ (سورة الحجر: ٣٩) ، بل على ظَنٍّ، ثمَّ كلَّما أهلك أحدًا صدق ظنُّه.

ومنشأ ظنِّه في سبأ وبني آدم انهماكهم في الشهوات، أو في بني آدم قياسهم على أبيهم إذ أثَّر فيه وسواسه، قياسا للفرع على الأصل والولد على الوالد، أو منشأه ما فيه من الشهوة والغضب، أو قول الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُّفْسِدُ فِيهَا...﴾ (سورة البقرة: ٣٠) ، أو ما رأى من نفسه من المعصية ظنَّ أنَّه كما عصى يعصون، أو كلّ ذلك، والمفعول الثاني محذوف، أي ظنَّه أنَّهم يعصون.

﴿فَاتَّبَعُوهُ إِلاَّ فَرِيقًا مِّنَ اَلْمُومِنِينَ﴾ «مِنْ» للبيان، أي إلاَّ فريقًا هم المؤمنون،

والتقليل بلفظ «فريق» لقلّة المؤمنين بالنسبة للكفّار، وهذا ممَّا يقوِّي أنَّ هاء «عَلَيْهِمْ» لبني آدم، أو لقلّتهم بالذات على أنَّ الهاء لسبأ على فرض أنَّ فيهم من آمن، فـ«مِنْ» للتبعيض، كما إذا قلنا: إلاَّ فريقا من فرق المؤمنين مطلقًا، أو هم المُخْلصُونَ.

﴿وَمَا كَانَ لَهُ، عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ﴾ تسلُّط بالإغواء ﴿إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَنْ يُّومِنُ بِالاَخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ﴾ استثناء مفرَّغ، وإن فسَّرنا السلطان بالقهر فمنقطع.

(أصول الدين) والعلم الأزليُّ منسحب على الأشياء الواقعة خارجا وقت وقوعها، وغيرنا يقولون: علمه بالواقع علم متجدِّد، متعلِّق بالمعلوم، ورضوا بذلك لأنَّه ليس عن جهل بل بالمطابقة للواقع. وعُدِّي بـ«مِنْ» لتضمُّنه معنى التمييز.

[قلت:] ولا وجه لتفسير الآية بقولك: لنجعل المؤمن متميِّزًا من غيره عند الناس. وقيل: المراد من وقوع العلم وقوع المعلوم، وهو الإيمان، أي ليؤمن من علمنا أنَّه يؤمن، وذلك لعلاقة اللزوم، كما جاز أن يكون بمعنى الجزاء للتلازم، وفي ذلك جعل المعلوم نفس العلم مبالغة.

ولا وجه للتفسير بقولك: لنعامله معاملة من لا يعلم حاله، ويجوز تقدير مضاف، أي ليعلم أولياؤنا، وذكر بعض أنَّ المعنى على المضي، أي لعلمنا مَن يُومِنُ...

و﴿مِنْهَا﴾ بمعنى فيها، مُتَعَلِّق بـ«شَكٍّ» ولو كان مصدرا مُتَأَخِّرًا، لأنَّه ليس هنا على معنى الفعل وحرف المصدر. وليس التقديم للحصر كما قيل به نظرًا إلى أنَّ الضارَّ الشكُّ الصادر منها، أي من شأن الآخرة، أي في شأنها، لا مطلق الشكِّ الواقع. ونُكِّرَ، وجيء بـ«في» تلويحا إلى أنَّ قليلا من الشكِّ محيط بالشاكِّ.

﴿وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ﴾ قائم على أحوال كلّ شيء قيامًا عظيمًا.

(صرف) والمبالغة مستفادة من «فعيل» الثلاثي الذي هو بمعنى «فعَّال» بالشدِّ و«مِفعال»، أو بمعنى «مفاعل» (بضم الميم) من الرباعي بالزيادة، أي محافظ، كخليط وشريك، بمعنى مخالط ومشارك، وجليس ورضيع، بمعنى مجالس ومراضع، ووجهه أنَّ «المفاعلة» أصلها بين اثنين، كلٌّ يبذل جهدَه أن يغلب الآخر.

﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾﴾

توبيخ المشركين على عبادة ما لا ينفع

﴿قُل﴾ يا محمَّد لقومك المشركين المضروب لهم المثل بقصَّة سبأ المعروفة لهم، المذكورة في أشعارهم ﴿ادْعُواْ﴾ لكشف الجوع عنكم، كما روي أنَّها نزلت عند جوعهم، ولكشف سائر الأضرار، وجلب المنافع. والأمر توبيخ لهم على عبادة ما لا ينفع وتعجيز.

﴿الذِينَ زَعَمْتُم﴾ أي زعمتموهم آلهة، وحُذِف المفعولان، ولا يضرُّ كثرة الحذف مع ظهور المعنى، وهو هنا كالشمس، ولا سيما أنَّ حذف رابط الموصول من فعل صلته المتعدِّي للطول إذ الموصول والصلة كواحد من حديث البحر، [كما يقال: حدِّث عن البحر ولا حرج].

والثاني ناب عنه قوله: ﴿مِّن دُونِ اللهِ﴾ إلاَّ أنَّ المناسب لسائر القرآن أن يُقَدَّر: زعمتم أَنــَّهُم آلهة، إذ لم يقع في القرآن مفعولاَ الزَّعْمِ إلاَّ بــ«أَنَّ»، ومراعاة المناسبة أولى من مراعاة تقليل المحذوف، فإنَّه إذا قدِّر بــ«أَنَّ» زاد حذف «أَنَّ».

﴿لاَ يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ مستأنف جواب بما لا بدَّ أن يقولوه، فلم ينتظر أن يقولوه، أو حال لازمة من «الذِينَ»، ولا حاجة إلى تقدير: ثمَّ أجب عنهم قائلا: لا يملكون مثقال ذرَّة.

﴿فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الاَرْضِ﴾، أي في أمر من أمور الدنيا والآخرة، وذكر السماوات والأرض عبارة عن التعميم في الموجودات الشاملة للعرش والكرسي، قال بعض المحقِّقين من الحَنَفِيَّة: كما يذكر المهاجرون والأنصار تعميما للصحابة.

وأيضا في السماوات لهم آلهة كالملائكة والكواكب، وفي الأرض آلهة كالأصنام، فأخبر الله أنَّ السَّمَاوِيَّة عاجزة عن الأمر السماوي، والأرضيَّة عن الأرضي، وأنَّ المستحقَّ للعبادة من يملك أمور السماوات والأرض وغيرهما.

﴿وَمَا لَهُمْ﴾ للآلهة التي نزَّلوها منزلة الحيِّ العاقل، حتَّى إِنَّهُم يعبِّرون عنها بما للعقلاء، كــ«الذِينَ»، و«لاَ يَمْلِكُونَ»، و«لَهُمْ»، وهي الأصنام والكواكب والشمس والقمر، وإذا عمَّت الآية الملائكة فهم عقلاء تحقيقا. ﴿فِيهِمَا﴾ في النوعين الاثنين: أحدهما السماوات والآخر الأرض ﴿مِن شِرْكٍ﴾ شركة بخلق، أو إعدام، أو ملك، أو تصرُّف ﴿وَمَا لَهُ،﴾ لله عَزَّ وَجَلَّ ﴿مِنْهُم﴾ من آلهتهم ﴿مِّن ظَهِيرٍ﴾ معين على أمر من أمورهما.

﴿وَلاَ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ،﴾ شفاعة آلهتهم، أي لا شفاعة لهم لأحد فضلاً

عن أن تنفع أحدًا منكم، أو من غيركم، على حدِّ قوله: «على لاحب لا يهتدي بمناره»[1]، أي لا منار فيه فضلاً عن أن يهتدي به.

ولم يذكر الضرَّ لدخوله بأنَّ إزالته نفع، فذكر الشفاعة كاف لأنَّه موضوع للإزالة، ولو ذكر لكان كالتكرار، ولم يقع ولا تقع الشفاعة، تصريحًا بنفي ما هو غرضهم منها وهو النفع.

﴿إِلَّا لِمَنَ اَذِنَ﴾ الله ﴿لَهُۥ﴾ استثناءٌ منقطع كما علمت أنَّ المراد بما قبله أنَّ آلهتهم لا تشفع لهم ولا لغيرهم، وإن قلنا: المعنى لا تنفع الشفاعة عن شيء مَّا لشيء مَّا إلاَّ لمن أذن له، كان مفرَّغًا وهو مُتـّصِل. و«مَنْ» واقعة على المشفوع له، واللام الأولى للاستحقاق، والثانية للتعليل، أو بمعنى في، أي إلاَّ لمن أذن الله فيه بها، ولا تقع «مَنْ» على الشافع، أي للشافع الذي أذن الله له، فالهاء للشافع إلاَّ باعتبار أنَّ قبول شفاعة الشافع نفع له، والمتبادر كما لا يخفى أنَّ النفع للمشفوع له.

وزعم بعض أنَّ اللام الأولى للتعليل، وعلى كلِّ حال لا تقع الشفاعة للمشركين لأنَّه لا يؤذن لمن يشفع لهم. والشافع: الملائكة والأنبياء والأولياء.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ﴾ أزيل الفزع عنها، فإنَّ من معاني «التفعيل» السلب كـ«قرَّدت البعير»: أي أزلت قراده، كما بسطته في شرح لامية ابن مالك. و«حَتَّى» للابتداء، ولا تخلو عن غاية، أي يبقى أهل القيامة على انتظار أن يكون شافع ومشفوع له وقبول الشفاعة متحيِّرين، حتَّى إذا فُزِّعَ عن قلوبهم.

﴿قَالُواْ﴾ قال بعض، وهم المشفوع لهم لبعض وهم الشافعون، أو قال

١- البيت لامرئ القيس، وهو من الشواهد وتمامه: «إذا سافه العود الديافي جرجرا».

المشفوع لهم بعض لبعض، أو ضمير «قُلُوبِهِمْ» للمشفوع لهم، فكذا ضمير «قَالُوا» ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُواْ الْحَقَّ﴾ قالوا: قال الحقَّ في الدنيا على ألسنة الرسل، يقول الكُفَّار المشفوع لهم ذلك إقرارًا، أو يقوله الشافعون المحقُّون.

ومعنى كون الكُفَّار مشفوعًا لهم أنَّهم طالبو الشفاعة، وكون أهل الحقِّ شافعين أنَّه طُلِبَ منهم أن يكونوا شافعين.

﴿وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ من كلام المؤمنين الشافعين الذين يشفعون لسائر المؤمنين، حمدوا الله بهذه الجملة، بعد الإذنِ لهم في الشفاعة بأنَّه الغاية في العظمة، لاَ كلامَ لأحدٍ إلاَّ بإذنه.

وزعم بعض أنَّ ضمير «قُلُوبِهِمْ» للملائكة، وخصَّ الشفاعة بهم، وجعل ضمير «قَالُوا» الأوَّل لهم أيضا، والثاني للملائكة الذين فوقهم، وهم الذين يبلِّغون ذلك إليهم، وفزعُهم لهول المقام، أو لخوف التقصير في تعيين المشفوع لهم، على أنَّه جاءهم الإذن في الشفاعة إجمالاً، وفيه أنَّه لا يتبادر ذلك من الآية.

وأنَّ الملائكة الذين فوقهم أحقُّ بالشفاعة، اللهمَّ إلاَّ أن يقال: قدِّموا لأنَّهم الذين يلون أمر بني آدم في الدنيا.

وعن قتادة ومقاتل وابن السائب: «إنَّه نزل جبريل، أي النزول الأوَّل على سَـيِّدنَا محمَّد ﷺ ، فظنَّت الملائكة أنَّه لقيام الساعة، ففزعوا حتَّى صعقوا، وكانوا لم يسمعوا ذلك الصوت منذ رفع عيسى، وذلك خمسمائة، أو ستمائة عام، ولهم علم بقيام الساعة بعد بعث آخر الرسل، وخافوا الساعة، وجعل جبريل يمرُّ بأهل كُلِّ سماء يزيل عنهم الفزع، ويخبرهم أنَّه نزل للوحي، وأنَّه عزَّ وجلَّ يقول الحقَّ». وفيه أنَّه لو أخبرهم لما قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ اللَّهُمَّ إلاَّ أن يقال: يفيقون ويقولون: ماذا قال ربُّكم؟ والخطاب لجبريل بصيغة الجمع تعظيمًا، أو لبعض من بعض، وقد علموا أنَّ نزوله لقول من الله عزَّ وجلَّ ، فيجيبهم بأنَّه قال

الحقَّ. ولم يذكر الزجاج أنّهم صعقوا بل سأل بعض بعضًا ثمّ نزل جبريل فأجاب البعض بأنَّه تعالى قال الحقَّ.

والصحيح أنَّ الخوف لقيام الساعة، وورد أيضًا لغيرها، لكن ليس تفسيرًا للآية، كما جاء عنه ﷺ : «**إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة أجنحتها خضوعًا لقوله تعالى، كأنَّه صلصلة على صفوان، فإذا فُزِعَ عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربُّكم؟**»[1] وذلك صوت يخلقه الله.

وعنه ﷺ : «**إذا تكلَّم الله بالوحي سمع أهل السماء صلصلة كجر السلسلة على الصفا، فيصعقون، فلا يزالون كذلك حتَّى يأتيهم جبريل، فإذا أتاهم فزع عن قلوبهم، فيقولون: يا جبريل ماذا قال ربُّكم؟ فيقول: الحقَّ، فيقولون: الحقَّ الحقَّ**»[2] والصلصلة صوت خلقه الله ﷻ حيث شاء.

﴿قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ

١-رواه **البخاري** في كتاب التفسير (١٥) باب قوله تعالى: {إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ...} رقم٤٧٠١. **والتبريزي** في المشكاة كتاب الطب والرقي (٢) باب الكهانة، رقم٤٦٠٠. من حديث أبي هريرة.

٢-رواه **أبو داود** في كتاب السنة، باب في القرآن، رقم ٤٧٣٨ **والهندي** في الكتر، ج١١، ص٤٥٨، رقم ٣٢١٥٢، من حديث ابن مسعود.

أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَـْٔخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾

الله هو الخالق الرازق وهو المجزي كلاً على عمله

﴿قُلْ﴾ تبكيتًا لهم ﴿مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِّنَ﴾ للابتداء ﴿السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ولا محيد لهم عن أن يقولوا: هو الله، فقال: ﴿قُلِ اللَّهُ﴾ يرزقنا الله، أو الذي يرزقنا الله، والرزق من السماء المطر، ومن الأرض الثمار والنبات، ومنها الكمأة وبطاطا، ولعلّها نوع من الكمأة، ولها أوراق، ومن رزق الأرض المعادن والسمك.

﴿وَإِنَّآ أَوِ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى﴾ مبين، وحذفه لدلالة الثاني عليه، قيل: ويجوز أن يكون المذكور بعدُ نعتًا لـ«هُدًى» و«ضَلاَلٍ» لأنَّ العطف بـ«أَوْ». «أَوْ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ من جملة ما أمر بقوله، والمعنى: إنَّ أحد الفريقين منَّا معشر المؤمنين بالله الذي هو الرازق، ومعشر المكذِّبين بالوَحْدَانيَّة له لَمُتَّصِفُون بأحد أمرين التمكُّن على الهدى، والانغماس في الضلال.

(بلاغة) وذلك عبارة إنْصَاف بليغة في نسبة الضلال إليهم بالتعريض، من غير تصريح مهيِّج لهم إلى العناد، كقولك: علم الله الصادق منِّي ومنك. و«أَوْ» لأحد الشيئين بصورة الإبهام.

وقال أبو عبيدة: إنَّ «أَوْ» بمعنى الواو، وإنَّ الكلام لفٌّ ونشر مرتَّبان، فقوله تعالى: ﴿عَلَىٰ هُدًى﴾ راجع إلى «إِنَّا» و﴿فِي ضَلاَلٍ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿إِيَّاكُمْ﴾، ولا بُعدَ فيه، إلاَّ أنَّ فيه إخراجَ «أَوْ» عن أصلها بلا دليل، والإبهام الصوري باق كما فسَّرنا، إذ المعنى أنَّ الهدى والضلال فينا وفيكم، ومعلوم أنَّ الهدى فينا، كما علم أنَّ العناب لِرطبًا، والحشف لِيابسًا في قوله:

كأن قلوب الطير رطـــبا ويابسا لدى وكرها العناب والحشف البالي[1]

(نحو) ولا حذف على التفسير الأَوَّل كقولك: زيد أو عمر قائم، بالإفراد، لأنَّ المراد: أحدهما قائم، وقيل: ﴿لَعَلَىٰ هُدًى اَوْ فِي ضَلاَلٍ﴾ خبر عائد لقوله: ﴿إِيَّاكُم﴾ من العطف على معمولي عامل، ويقدَّر مثله لقوله: «إِنَّا»، أو يعكس، ولا تقدير على القول الثاني.

(بلاغة) و«عَلَى» للتمكُّن، و«فِي» للانغماس، شبَّه المؤمنين بالراكب على فرس متمكِّن منه موصل، ورمز إلى ذلك بـــ«عَلَى»، والكافر بالعاجز المنغمس فيما يعطله، ورمز إلى ذلك بـــ«في»، أو شبَّه الثبوت على الهدى بالثبوت على فرس واشتقَّ منه لفظ «ثابت»، أو «ثبت»، والكون في الضلال بالكون في سوء معطِّلٍ فتبعت ذلك الاستعارة لـــ«عَلَى» و«في».

﴿قُل لاَّ تُسْئَلُونَ عَمَّآ أَجْرَمْنَا﴾ لو أجرمنا، أو عمَّا كسبنا من الهفوات، بل نعاقب نحن عليها ﴿وَلاَ نُسْئَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ من الكفر، بل تعاقبون أنتم، والمراد بالسؤال العقاب، لأنَّه سؤال توبيخ، وذلك تعريض أبلغ من الأَوَّل، إذ لم يقيِّد السؤال الثاني، كأنَّه قيل: لا نسأل عَمَّا تعملون، ولو هفوة صغيرة لا نحملها عنكم، وأنتم لا تحملون عَنـــَّا شيئًا ولو بالغنا في الذنب، ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ (سورة فاطر: ١٨) ، وهذا مِمَّا يستمرُّ ولا ينسخ.

﴿قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا﴾ بين المؤمنين والكافرين ﴿رَبُّنَا﴾ يوم البعث الذي أنكرتم ﴿ثُمَّ يَفْتَحُ﴾ يحكم ﴿بَيْنَنَا بِالْحَقِّ﴾ العدل الذي هو إدخال المؤمنين الجنَّة والمبطلين النار، وفي هذا أيضًا تعريض بصورة الإبهام ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ﴾ القاضي القضاء البليغ الذي يفتح ما انغلق فكيف ما اتَّضَحَ، كإبطال الشرك وإثبات

١- البيت من الشواهد لامرئ القيس في وصف عقاب في ديوانه ص٣٨.

الوَحْدَانيَّة، أو القاضي الكثير القضاء في الواضحات والخفيَّات، فالقضاء فتح لما انغلق، وفتح لباب إزالة تماسك خصم بخصم، فَسُمِّيَ القاضي فاتحًا لذلك، ﴿الْعَلِيمُ﴾ بكلِّ شيء، ومنها العلم بما يقضي به.

﴿قُلَ اَرُونِيَ اَلذِينَ﴾ الآلهة الذين ﴿أَلْحَقْتُم﴾ ألحقتموهم ﴿بِه﴾ بربِّنا ﴿شُرَكَآءَ﴾ مفعول ثالث من الإراءة، بمعنى الإعلام، أي أروني ما حجَّتكم، أو الإراءة بمعنى الجعل لأحد رائيًا شيئًا بعينه، تعدَّى لاثنين بالهمزة.

و«شُرَكَاءَ» حال من هاء ألحقتموهم، أو من «الذينَ»، أو مفعول ثان لأَلْحَقَ مُضَمَّنًا معنى صيَّر أو سمَّى، فالرؤية بصريَّة غير مراد حقيقتها، فليس قول بعض: ليس المراد أروني حقيقتهم، لأنَّه يراهم، أو يحققِّهم ردًّا لذلك، كما توهَّم بعض.

والمراد بالأمر بالقول التبكيت لهم لأنَّهم لو أروه لأروه جمادًا من خشب، أو غيره، أو كوكبًا ولا قدرة لهؤلاء، ولو أرادوا إراءة مُلْكٍ لم يقدروا فيبين عجزهم.

﴿كَلاَّ﴾ ردع لهم -بعد إقامة الحجة- عمَّا لا يَصِحُّ، كقول الخليل عليه السلام: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ...﴾ (سورة الأنبياء: ٦٧) بعد إقامة الحجَّة ﴿بَلْ هُوَ اللهُ﴾ ربُّنا الله، أو الإله الله ﴿الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ نعتان، أو «هُوَ» ضمير الشأن، و«اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ» مبتدأ وخبره ونعت للعزيز، أو مبتدأ وخبران والمجموع خبر «هُوَ» العائد للشأن.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَآفَّةً﴾ حال من الناس في قوله: ﴿لِّلنَّاسِ﴾، أي إلى الناس، وما أرسلناك إلاَّ إلى الناس كافَّة العرب والعجم، وذلك على جواز تقديم الحال على صاحبها المجرور.

(نحو) والإرسال يتعدَّى إلى الثاني بإلى وإذا عدِّيَ باللام فمعناها إلى وغير ذلك بحسب القصد، فيجوز اللام بعدها للتعليل، كما قيل به في الآية، ولا إشكال.

(نحو) وإنَّما الإشكال في كون أداة الأصل أداة الاستثناء تَلاَهَا ما ليس مستثنىً ولا مستثنى منه، ولا تابعًا له، فيجاب بأنَّ الأصل: ما أرسلناك للناس إلاَّ كَافَّة، ومثل ذلك من نية التقديم جائز، ولا سيما أنَّه يتوسَّع في الظروف، كما قال مجاهد وابن أبي شيبة، ومحمد بن كعب والطبري وقتادة: إنَّ المعنى إلى الناس جميعا.

(نحو) ويجوز أن يكون «لِلنَّاسِ» مُتَعَلِّقًا بــ«كَافَّةً» على تعليق لام التقوية وعلى بقائه على الوصفيَّة، أي جامعا للناس، أو مانعا لهم عن الكفر، والتاء للمبالغة على هذا، كرجل رَاوية، أي كثير الرواية، أو مفعولا مطلقا، أي إلاَّ إرْسَالَة كَافَّة، وهذا تصرُّف في مَادَّة الكفِّ لا في «كَافَّة» التي قالوا تلزم النصب على الحال إلاَّ شاذًّا. [كقول عمر وتبعه عليٌّ في تبليغ قوله: قد جعلت لبني كاكلة عَلَى كَافَّة مال المسلمين لِكُلِّ عام مائتي مثقال ذهبا إبريزا][1]. والآية دليل عموم رسالته، وقيل: يقاس خروجه عن الحالية.

﴿بَشِيرًا﴾ بالجنَّة لمن أسلم ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالنار لمن كفر، والنصب على الحال من كاف «أَرْسَلْنَاكَ»، أو من الضمير في «كَافَّةً» إذا أبقيناه على الوصفيَّة، أو على الإبدال الكلِّي من «كَافَّة» الباقي على الوصفيَّة، فإنَّ الجمع للناس على الدين، والمنع من الكفر نفس التبشير والإنذار وفي الحديث: «**إنِّي بعثت إلى الناس كلِّهم**»[2] أي ومن قبلي ومن بعدي ومن معي، فلا يشكل بِأَنَّ غيره قد

١- ما بــين معقوفين إضافة من الطبعة العمانية.

٢- هذا جزء من حديث رواه البخاري في صحيحه بما يقاربه معنى بلفظ: «وبعثت إلى الناس عامة» وأوله: «أعطيت خمسا...» **البخاري** كتاب التيمم (١) باب قوله تعالى: {فلم تجدوا ماء =

بعث إلى الناس كلِّهم، لأنَّ غيره لم يبعث إلى من قبله. والجنُّ تبع للإنس بل قد يطلق الناس عليهم.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ الحقَّ فيُصرُّون على الضلال ﴿وَيَقُولُونَ﴾ استهزاءً بألسنتهم، كما هو المتبادر الأصل، لا بالحال، والمضارع للتجدُّد، كما هو المتبادر، لا للإحضار والمشاهدة وأنَّ الأصل: قالوا، كما قيل، والعطف على كلِّ حال على «لاَ يَعْلَمُونَ». والقائلون بعض المشركين المعاصرين له ﷺ، لا أكثر الناس مطلقا، إذا قلنا القول بلسان القال، وإن قلنا بلسان الحال فالمشركون مطلقا.

(بلاغة) ولم يعطف بالفاء لأنَّه ليس المراد التفريع على انتفاء العلم بل الإخبار باتِّصاف أكثر الناس بانتفاء العلم، وبالقول لما ذكر بعدُ سواء جعلنا القول حاليًّا، أو لسانيًّا، أو إيَّاهُما، أو بعضا حاليًّا وبعضا لسانيًّا، لا كما قال بعض الْمُحَقِّقِينَ: لم يعطف بالفاء لأنَّ المقصود حالي أو لساني، فإنَّ كونه كذلك لا يمنع التفريع، ولا كما قيل: لم يعطف بالفاء لأنَّ المراد أنَّهم يقولون لفرط تعنُّتهم، فإنَّ فرطه لا يمنع التفريع، وقيل: لم يعطف بالفاء لظهور معناها فيه، فالتفريع مستفاد بلا فاء، وأنَّ الحامل فرط الجهل، وقيل: لأنَّ القائلين قوم آخرون لا عين الموصوفين بأنَّهم لا يعملون.

﴿مَتَىٰ هَذَا اَلْوَعْدُ﴾ الموعود بالتبشير والإنذار، أو بالجمع بيننا والفتح، ﴿إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ يا محمَّد وأصحابه، ولو لم يذكروا لأنَّهم قائلون بقوله: ﴿قُل﴾ في إجابتهم ﴿لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ﴾ يوم القيامة، وقيل: يوم موهم، وقيل: يوم بدر.

=

فتيمموا...﴾ رقم ٣٥٥. والنسائي في كتاب الغسل (٢٦) باب التيمم بالصعيد رقم٤٣٠.

(صرف) «مِيعَادُ» مصدر ميميٌّ بوزن صيغة المبالغة للتأكيد، أو بمعنى «مفعول». وأضيف لليوم لأنَّه يظهر فيه، وقدَّر بعض مضافا، أي وقوع وعدِ يوم، أو إنجاز وعدِ يومٍ، ويجوز أن يكون اسم زمان ميميًّا، فالإضافة للبيان، كما يدلُّ له قراءة تنوين «مِيعَاد» ورفعه، ورفع «يَوْم» وكونه بدل اشتمال لـ«مِيعَاد» برفعهما وتنوينهما خلاف الأصل.

(نحو) وأيضا يُحْوِجُ إلى تقدير رابط، أي يوم له، وكذا تقدير: «ميعاد يوم» على إبدال ميعاد من ميعاد، بدل كُلٍّ.

(بلاغة) وتنكير «يَوْمٍ» للتعظيم. سألوا عن تعيين الوقت وأجيبوا بإبهام، فليس من الأسلوب الحكيم، لأنَّه أن تجيب بالأليق مُعْرِضًا عن كلام السائل، فإنَّ ما بعد هذا من نفي التأخير والتقديم من أوصاف ذلك اليوم المجاب به، ولا بيان لحالهم فيه.

﴿لاَّ تَسْتَاخِرُونَ عَنْهُ﴾ عن اليوم، أو الميعاد، والجملة نعت أحدهما ﴿سَاعَةً﴾ إذا فاجأكم، أو جاءكم ﴿وَلاَ تَسْتَقْدِمُونَ﴾ عنه ساعة قبل مجيئه.

﴿وَقَالَ الذِينَ كَفَرُوا لَن نُّومِنَ بِهَٰذَا الْقُرْءَانِ وَلَا بِالذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُومِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ الذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ الذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَامُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾﴾

إنكار المشركين القرآن

والحوار يوم القيامة بين الضالين والمضلين

﴿وَقَالَ اَلذِينَ كَفَرُواْ﴾ مشركو العرب **﴿لَن نُّومِنَ بِهَٰذَا اَلْقُرْءَانِ﴾** إن فسِّر بالمقروء فنعت، أو بنفسه فبدل، أو بيان، وكان كالعلم الشخصي **﴿وَلَا بِالذِي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾** هو النبيء ﷺ ، أي ولا بمحمَّد الذي ذلك القرآن بين يديه، أي عنده، أو محمَّد الذي ثبت هو، أي القرآن عنده، فتكون الصلة جرت على غير ما له، ولم يظهر لظهور المعنى.

وقيل: ﴿الذي بَيْنَ يَدَيْهِ﴾: **ما قبله من كتب الله عز وجل ، وأنَّ الهاء للقرآن،** سأل كُفَّار مَكَّة اليهود والنصارى عن رسول الله ﷺ فأخبروهم أنَّهم يجدون صفته في التوراة والإنجيل وغيرهما، فغضبوا فقالوا: لن نومن بالقرآن ولا بالتوراة ولا بالإنجيل ولا بغيرهما، وفيه أنَّه لم يَتَقَدَّم له دليل. ومعنى كون الكتب بين يدي القرآن، أو النبيء أنَّ ما تَقَدَّمَ من الكتب موجود الذكر عنده وفي القرآن.

﴿وَلَوْ تَرَىٰ﴾ يا محمَّد، أو يا من يصلح للرؤية. و«لَوْ» للتمنِّي تشفِّيًا مصروفًا للمؤمنين ولا جواب لها، أو شرطية جوابها محذوف تقديره: لرأيت ما يسرُّك عليهم، أو لرأيت أمراً فظيعًا عليهم. ومفعول «تَرَى» محذوف، أي ترى الواقع، وبهذا المحذوف يَتَعلَّقُ قوله: **﴿إِذْ﴾** قيل، وليس «إِذْ» مفعولاً لـ«تَرَى» إلاَّ إن تضمَّنَ معنى تشاهد، وفيه أنَّه لا يتبادر أن يقال: شاهدت الزمان ولو جائزًا بمعنى حضرت.

﴿الظَّالِمُونَ﴾ مقتضى الظاهر: إذ هم، ووضع الظاهر موضع الضمير ليصرِّح بالظلم الموجب لحبسهم، ولما يسوءهم، أو المراد العموم، فلم يضمر لذلك، فيدخل المذكورون أوَّلاً وبالذات.

﴿مَوْقُوفُونَ﴾ محبوسون ﴿عِندَ رَبِّهِمْ﴾ وقف خزي ومحاسبة ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ، إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ﴾ حال من المستتر في «مَوْقُوفُونَ»، أي متحاورين.

﴿يَقُولُ الذينَ اَسْتُضْعِفُواْ﴾ استئناف لبيان رجع القول، أو بدل من «يَرْجِعُ». و﴿الذينَ اَسْتُضْعِفُواْ﴾ بمعنى الذين عُدُّوا ضعفاء، وهم الأتباع ﴿لِلذِينَ اَسْتَكْبَرُواْ﴾ هم الأقوياء الذين أضلُّوهم.

﴿لَوْلَآ أَنتُمْ﴾ لولا صدُّكم لنا ﴿لَكُنَّا مُومِنِينَ﴾ بما جاء به رسول الله ﷺ. كأنَّه قيل: ماذا قال الذين استكبروا ؟ فأجاب بقوله: ﴿قَالَ اَلذينَ اَسْتَكْبَرُواْ لِلذينَ اَسْتُضْعِفُواْ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ﴾ منعناكم ﴿عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُمْ﴾؟ استفهام إنكار لأن يكونوا صدُّوهم، إمَّا لأنـَّهُم كَذَبوا، وَإِمَّا لأَنـَّهُم أرادوا: ما منعناكم بالقهر. و«إِذْ» ظرف لا يتصرَّف إلاَّ إنَّه جاء مضافا إليه هنا، وفي قوله: ﴿وَهُم مِّن فَزَعِ يَوْمَئِذٍ ــ امِنُونَ﴾ (سورة النمل: ٨٩) ، وهو كثير في القرآن، ومثله «حِينَئِذٍ».

﴿بَلْ كُنتُمْ مُّجْرِمِينَ﴾ اخترتم الكفر لأنفسكم وصمَّمتم عليه ﴿وَقَالَ اَلذينَ اَسْتُضْعِفُواْ لِلذينَ اَسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ﴾ فاعل لمحذوف، أي صدَّنا مكرُ الليل والنهار، أي صددتُّمونا بمكركم لنا على استمرارٍ في الليل والنهار، أو [مكرُ] خبرٌ، أو مبتدأ لمَحْذوف، أي سبب كفرنا مكركم، أو مكر الليل والنهار سبب كفرنا، فحذف المضافُ إليه وناب عنه الظرف، أو أسند المكر إلى وقته على طريق التجوُّز في الإسناد والمجاز العقلي، فالليل والنهار ماكران، وفيه مبالغة ليست في جعل الإضافة بمعنى في، كما في الوجه الأوَّل.

﴿إِذْ﴾ قيل: بدل من «اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ»، وفيه أنَّه يرجع إلى أنَّه أضيف إليه «مَكْرُ» لأنَّه بدل ممَّا أضيف إليه «مَكْرُ»، وهو لا يضاف إليه إلاَّ الزمان، إلاَّ أن يختار أنَّ المبدل منه من ليس في نية الطرح.

(بلاغة) وقيل: يجوز أن يكون تعليلا للمكر، ولا وجه له لأنَّه كقولك مكر بنا الليل والنهار، لأنَّكم تأمروننا، أو مكرتم بنا في الليل والنهار لأنَّكم تأمروننا، وقيل: أيضا يجوز أن يكون ظرفًا للمكر، وفيه أنَّه راجع إلى الإبدال، سواء قلنا: إنَّ قوله: ﴿**تَامُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ، أَندَادًا**﴾ نفس مكرهم، أو قلنا: مكرهم أمرٌ آخر مقارنة لأمرهم داعية إلى الامتثال، من نحو ترغيب وترهيب.

(لغة) والأنداد: جمع «نِدٌّ» بمعنى شريك مطلقا، وقال ابن العربي: مخصوص بمن يدَّعي الرُّبُوبِيَّة، وعلى كلٍّ حال سُمِّيَ لأنَّه نَدَّ عن الله، أي شَرَد عَن اللياقة، إن كان غير عاقل، وشرد عن العبادة إن كان عاقلاً.

وقرن القول الثاني بالواو لأنَّه ليس جواب سؤال بل معطوف على جوابه، كأنَّه قيل: فما كان بينهم؟ فقيل: ﴿قَالَ اَلذِينَ اَسْتَكْبَرُواْ﴾ كذا ﴿وَقَالَ اَلذِينَ اسْتُضْعِفُواْ﴾ كذا.

(فقه) ويحرم تصوير ما فيه روح، وجاز ما لاروح فيه، وعن نافع عن ابن عمر عن رسول الله ﷺ : «**إنَّ أصحاب هذه الصور يعذَّبون يوم القيامة، ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم**»[1]، أي صوَّرتم. وعن أبي هريرة عنه ﷺ : «**إنَّ الله تعالى قال: من أظلم مِمَّن ذهب يخلق كخلقي**»[2]. وعن

١-رواه **البخاري** في كتاب اللباس (٨٩) باب عذاب المصوِّرين يوم القيامة، رقم ٥٩٥٠، ورواه **الربيع** في كتاب الصلاة (٤٥) باب في الثياب والصلاة فيها وما يستحب من ذلك، رقم ٢٧٤، مع زيادة. من حديث أبي سعيد الخدري.

٢-رواه **البخاري** في كتاب اللباس (٩٠) باب نقض الصورة، رقم٥٩٥٣. مع زيادة: «فليخلقوا حبَّة، وليخلقوا ذَرَّة». و**البيهقي** في كتاب الأسماء والصفات، ص٢٠٨. من حديث أبي هريرة.

مجاهد عن النبيء ﷺ : «**لا تدخل الملائكة بيتا فيه كلب، أو صورة**»[1] فإمَّا أن يقطع رأسها، أو تبسط.

وروي أنَّه كان على باب بيت عائشة رضي الله عنها ستر معلَّق عليه تماثيل فنزل جبريل عليه السلام فقال: « إنَّا لا ندخل بيتا فيه كلب، أو تماثيل، فإمَّا أن تقطعوا رؤوسها، أو تبسطوها بسطًا» فقال بعض الفقهاء: نأخذ بأن تبسط الثياب التي عليها تماثيل. وعن عطاء وعكرمة: إنَّما يكره من التماثيل ما نصب نصبًا، وأمَّا ما وطئته الأقدام فلا بأس به.

قلت: لا بدَّ من المصير إلى هذا إذا قلنا الأمر بقطع الرؤوس، كما هو ظاهر، أو بالبسط هو من الحديث، وإلاَّ فالبسط عندي لا يجزي ولو كان فيه إهانة.

﴿**وَأَسَرُّواْ**﴾ المستكبرون والمستضعفون ﴿**النَّدَامَةَ**﴾ على الضلال والإضلال في جانب المستكبرين، وعلى الضلال في جانب المستضعفين، ومن الجائز أن تقول: وعلى قبول الإضلال أيضا، والمقام يدلُّ على قبوله ولو لم يذكروه، بل المحاورةُ وذكرُ الأمر صريح في أنَّهم قبلوه وندموا. والمراد: وأسَرُّوا الندامة حين حضر العذاب، كما قال:

﴿**لَمَّا رَأَوُاْ الْعَذَابَ**﴾ وأمَّا قبله فقد أظهروها بالتقاول المذكور بينهم، وذلك أنَّهم قبل حضوره قادرون على الكلام، وبعد حضوره فشلوا عن إظهار الندم، ولو كانوا قد يتقاولون بعد ذلك في النار.

١- رواه **البخاري** في كتاب اللباس (٩١) باب ما وطئ من التصاوير، رقم ٥٩٥٤، من حديث عائشة. ورواه **الربيع** في كتاب الصلاة (٤٥) باب في الثياب والصلاة فيها وما يستحبُّ من ذلك، رقم ٢٧٤. بلفظ: «إنَّ البيت الذي فيه تصاوير لا تدخله الملائكة عليهم السلام»، من حديث أبي سعيد.

ولا يبعد أن يكون المعنى: أظهروها قبل حضوره وأخفوها في قلوبهم بعده، وقيل: الهمزة للسلب، كأقْردتُّ البعير، وأشكيت زيدا، بمعنى: أزلت شكواه بالسعي فيما يزيل ضرَّه، فيكون المعنى: أظهروا الندامة لَمَّا رأوا العذاب، وهو خلاف الظاهر في لفظ «أَسَرُّواْ» الإظهار ما هو الندامة غير ذلك التقاول[1].

﴿وَجَعَلْنَا الاَغْلاَلَ﴾ القيود ﴿فِي أَعْنَاق الذينَ كَفَرُواْ﴾ هم الذين استكبروا والذين استضعفوا، أو هم وكلُّ شقيٍّ مِمَّن ليس رئيسًا متبوعًا في الضلال، ولا مرؤوسا فيه تابعا لإنسان، بل تبع الشيطان ونفسه، لكن إن عمَّمنا هذا في الظالمين في قوله: ﴿إِذِ الظَّالِمُونَ﴾ لم يخلوا عن رئيس ومرؤوس، وإن أريد خصوص من ذكر في الآية فالمقام للإضمار وأظهر للتصريح بما أوجب العذاب وهو الكفر.

﴿هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾ أي لا يجزون إلاَّ شرًّا اقتضاه عملهم، أو لا يجزون أقلَّ من عملهم، ولا أكثر. و«مَا» مفعول مطلق على حذف مضاف، أي إلاَّ جزاء ما كانوا يعملون، أو يُقدَّرُ الجارُّ، أي إلاَّ بما كانوا، أو على ماكانوا، أو عن ما كانوا، والكلُّ وَارِدٌ، والباء أظهر.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ اِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلِ اِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ـ امَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ

١- كذا، وفي الطبعة العمانية: «وهو خلاف الظاهر في لفظ أَسَرَّ والإظهار هو ندامة ذلك التقاول». وفي كلتا العبارتين خلل.

﴿فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾﴾

شيوع الكفر بين المترفين واعتدادهم بالأموال والأولاد

وقال الله تعالى تسلية لرسوله ﷺ: **﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ﴾** من القرى **﴿مِّن نَّذِيرٍ﴾** من النذر **﴿إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَآ﴾** مُنَعَّمُوها بالأموال والأولاد والجاه، خُصُّوا بالذكر لشدَّة غفلة قلوبهم وبُعدهَا عن الحقِّ لشدَّة قسوتها بالنعم، والاشتغال بأمر الدنيا، وأيضا هم السابقون إلى التكذيب بالحقِّ لمخالفته لزخارفهم وشهواتهم، وهم الرؤساء في ذلك، والفقراء بخلاف ذلك، فكانت أتباع الرسل الفقراء والضعفاء أوَّلاً، كما قال المقوقس لرسوله ﷺ إليه لَمَّا سأله عن أتباعه فقال: الضعفاء.

﴿إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ على زعمكم أنَّكم أرسلتم به. «بِمَا» متعلِّق بـ«كَافِرُونَ» قدِّم للفاصلة، ولسرعتهم إلى ذكره، لأنَّهم يذكرونه على وجه النفي.

(صرف) والمعنى: مترفو كلِّ قرية قالوا لنبيئها: «إنَّا كافرون» بما أرسلت به، فجُمع رسلُ القرى في «أُرْسِلْتُمْ»، والمترفون في «إِنَّا» و«كَافِرُونَ»، وفي «إنَّا» جماعات وكذا «كَافِرُونَ»، وفي «أُرْسِلْتُمْ» إفراد الرسل، والخطاب لهم، أو فيه أيضا جماعات كُلِّ رسول وأتباعه، والرسول كالجماعة، وأتباعه جماعة، بل أتباعه جماعات خوطبوا.

وقيل: الخطاب لكلِّ رسول تهكُّمًا، كأنَّه جماعة؛ أو يريد المترفون إذا خاطبوا نبيئًا، ذلك النبيء وسائر الأنبياء إنَّا بما أرسلتم أيُّهَا المدَّعون للرسالة؛ أو

الآية من مقابلة الجمع بالجمع. والآية من نوح وما بعده بل من شيت بن آدم، فيكون اثنان جماعة هو وآدم.

﴿وَقَالُواْ﴾ قال المترفون، لأنَّ الكلام قبلُ فيهم، وقيل: قريش لقوله: **﴿قُلِ انَّ رَبِّـي يَبْسُطُ...﴾**. **﴿نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا﴾** أي كثيرو الأموال والأولاد، فاسم التفضيل خارج عن التفضيل، أو أكثر منكم أموالاً وأولادًا، قالوا ذلك إهانة للفقراء بفقرهم، كيف تكون لكم الرئاسة بالرسالة.

﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ بعذاب يكدِّر عَنــّا لذَّة أموالنا وأولادنا من الله، أو من ملك قاهر بل أنتم المعذَّبون إذا قصد التعذيب، ولا سبيل لأحد علينا ولو أرادنا الله بتعذيب لشركنا لم يعطنا الأموال والأولاد، وإنَّما أعطاناهم لرضاه عنَّا.

أو لاَ نُعَذَّبُ في الآخرة كذلك لو كانت الآخرة، أو لا نعذَّبُ فيها لعدمها، أو لا نعذَّب في الدنيا ولا في الآخرة لكرمنا على الله، أو لعدم الآخرة.

﴿قُلِ انَّ رَبِّـي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ﴾ بسطه له **﴿وَيَقْدِرُ﴾** يضيِّقه لمن يشاء ضيَّقه له، وليس البسط دليل الكرامة، ولا التقتير دليل الهوان، والأخصُّ البسط بالمطيع، يفعل ما يشاء بحسب الحكمة من البسط للمطيع والقدر للعاصي، والعكس، والبسط لهما والقدر لهما، والبسط لواحد تارة والقدر له أخرى، **فلا يقاس ثواب الآخرة وعقابها على البسط والضيق.**

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ اَلنَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ ذلك فَمِنْ قائل: البسط للشرف والكرامة عند الله تعالى، والقَدْرُ للهوان والحقارة. ومن [قائل] متجبِّر معارض لله عزَّ وجلَّ: كيف بسط لفلان وقدر عليَّ، أو على فلان ؟ قيل:

كم عالم عاقل أعـــيت مذاهبُـــه ... وجاهل جاهل تلقاه مـــرزوقا

هذا الذي ترك الأوهـــام حائرة وصيَّر العالم النحـــرير زنديقا[1]

[قلت:] أراد بالعاقل الجنس، أو خصوصا نفسه، فإن أراد التعجُّب من قضاء الله مؤمنًا به فلا بأس، وإن أراد الجهل والشكَّ فهو كفور، والمؤمن من قال:

ومِن الدَّليل على القضـــاء وكونه بُؤْسُ اللّبيب وطيبُ عيش الأحمقِ

قال محمَّد بن كعب القرظي: إنَّ الغني إذا كان تقيًّا يضاعف له الأجر مرَّتين، ثمَّ قرأ قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُم بِالتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنَ ـــ امَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُواْ وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ ءَامِنُونَ﴾.

(مدح الغنى) وعنه ﷺ : «**ما أحسن الغنى مع التقوى**»[2]. وعن عمرو بن العاص عن النبيء ﷺ : «**نعم المال الصالح للرَّجل الصالح**»[3]. وعن هشام عن عمر: «كرمكم تقواكم، وشرفكم غناكم، وإحسانكم أخلاقكم».

وقال بعض الْمُتَقَدِّمين: المال في الغربة وطن، والفقر في الوطن غربة، ومن جعل الفقر لحافًا فهو غريب أينما كان. قلت: هذا غنيٌّ إذا أنس به واطمأنَّ قلبه.

قال سعيد بن المسيب: لا خير في من لا يجمع المال من حلِّه ليَصل به رحمه، ويخرج منه حقَّه، ويصون به عرضه. قال هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها: قسِّم ميراث الزبير بن العوام أربعين ألف ألفِ درهم. وكان

١- البيت لابن الراندوي، كما ذكره السيوطي في شرحه لأرجوزته عقود الجمان في علم المعاني والبيان في البلاغة، ص٢٤.

٢- لم نقف على تخريجه.

٣- أورده **ابن حبَّان** في صحيحه، كتاب الصلاة باب جمع المال من حلِّه، رقم ٣٢١٠، من حديث عمرو.

لعبد الرحمن بن عوف ثلاثة نسوة طلّق إحداهنّ في مرضه، فصولحت عن ثلث الثمن على ثلاثة وثمانين ألفًا. وعن عمرو بن دينار: غلّة طلحة بن عبيد الله كلّ يوم ألف.

وقد فضَّل قوم الغنيَّ لذلك، ولو حَرُمَ لم يتركهم النبيء على غناهم، وشرطُ ذلك إخراج الحقوق منه والنفعُ به، وعدم الفخر والكبر به، وقد اختار بعضهم الفقر من الرجل الصالح على الغنى من الغني الصالح، ويناسب الأَوَّل قوله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلاً فَأَغْنَىٰ﴾ (سورة الضحى: ٨)، فلو كان الفقر أفضل لم يغنه.

﴿وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَادُكُم بِالتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ﴾ تقريبًا، فـ«زُلْفَى» مفعول مطلق لـ«تُقَرِّبُ»، والمعنى: إنَّ الذي يقرِّبكم إلينا الإيمان والعمل الصالح لا الأموال والأولاد، فإنَّها أسباب البعد لمن لم يتحرَّز، وقال: ﴿عِندَنَا﴾ لا إلينا، لأنَّ المراد بالتقريب القبول لهم، واعتبارهم.

ويجوز أن يراد أنَّ أموالكم ليست مقرِّبة عندنا بل التي تقرِّب عندنا أموال المؤمنين وأولادهم، لأنَّهم يستعملونها في صلاح الدين والتفقُّه.

(صرف) والإفرادُ والتأنيث في ﴿التي تُقَرِّبُكُمْ﴾ لتأويل الجماعة، و«التي» واقع على الأموال والأولاد معًا، وجعْلُ الزَّجاج «التي» للأولاد وتقدير مثله للأموال أضعفُ من الزُّجَاجِ.

ويجوز وقوع «التي» على غير الأموال والأولاد، أي بالأشياء التي، وقدَّر بعض: بالخصلة التي، أو التقوى التي، بمعنى أنَّ تلك أجسام غير نافعة لكم، والخصلة والتقوى أعراض نافعة لمن هي له، وإن أريد أعراضها وهي جمعها وتوفيرها، فليس جمعُها وتوفيرها خصلةً، أو تقوى نافعة. والخطاب لِلْكُفَّارِ بعد الغيبة.

﴿إِلاَّ مَنَ ــ امَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ استثناء منفصل من كاف

«تُقَرِّبُكُمْ»، وإن كانت خطابًا لِلْكُفَّارِ والمؤمنين كان مُتــّصِلا، أَمَّا على النصب فظاهر، وأَمَّا على الإبدال فعلى قول الكوفيِّين بجواز إبدال الظاهر من ضمير الخطاب والتكلُّم.

ويجوز أن يكون متَّصلا ولو كانت لِلْكُفَّارِ، لأَنَّها اسم لذواهم هكذا: فكأنَّه قيل: إلاَّ من آمن وعمل صالحا منكم بعد كفره، ويجوز تقدير: إلاَّ أموال من آمن وعمل صالحا وأولاده بوجه اتِّصَال الاستثناء وانفصاله.

(نحو) واعلم أنَّه لا يجوز استثناء الجملة ولو في الانفصال فلا يجعل «مَنَ ــ امَنَ» مبتدأ خبره «أُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ»، ولا مبتدأ خبره مُقَدَّر هكذا: إيمانه وعمله يقرِّبانه، إذ لا يقال: جاءت الإبل إلاَّ زيد قائم، ويجوز في التفريغ.

﴿**فَأُوْلَئِكَ**﴾ العالون مرتبة، وإشارة الجماعة لمعنى «مَنْ»، كما أنَّ الإفراد في ﴿ءامَنَ وَعَمِلَ﴾ للفظها. ﴿**لَهُمْ جَزَآءُ الضِّعْفِ**﴾ زيادة المثل مرَّة أو أكثر، والمراد هنا: أكثر إلى سبعمائة فصاعدًا وأقلّ إلى عشر ﴿**بِمَا عَمِلُواْ**﴾ بما عملوه، أو بعملهم الصالحات ﴿**وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ**﴾ غرف الجنَّة ﴿**ءَامِنُونَ**﴾ ممَّا يكرهون.

﴿**وَالذِينَ يَسْعَوْنَ**﴾ ببذلهم جهدهم ﴿**فِي ءَايَاتِنَا**﴾ بالإنكار والرد والطعن فيها، شَبَّهَهُمْ بمن يسعى بالمشي إلى مرغوبه، ففي «يسعى» استعارة تبعيَّة للأصليَّة في السعي ﴿**مُعَاجِزِينَ**﴾ مُقَدِّرين أن يعجزوا الله، أو الأنبياء فيما أُوحِيَ أن لا يكون، وصيغةُ المفاعلة للمبالغة، أو شبَّه مبادئ أمور الله مِمَّا يخالفهم بمقابلتهم فيه.

﴿**أُوْلَئِكَ**﴾ البعيدون منزلةً في الشرِّ ﴿**فِي الْعَذَابِ**﴾ عذاب النار

﴿مُحضَرُونَ﴾ لا يجيئونه بلا إحضار ولا يردُّه عنهم أولاد ولا أموال، وفي ذكر العذاب دون جهنم، أو النار مثلا بدله مبالغة، فإنَّ المراد بالذات العذاب، وأمَّا النار نفسها فقد لا تضرُّ، كما لا تضرُّ الزبانية، وكما لم تضرَّ إبراهيم، وكما يجوز عليها المؤمن [في الصراط] عند غيرنا، وتقول «جز يامؤمن فقد أطفأ نورك لهبي».

﴿قُلِ انَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَّشَآءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ،﴾ يُضَيِّق لمن يشاء الضيق له، فلا تخافوا الفقر وأنفقوا في سبيل الله تعالى.

وهذا وعظ وتزهيد في الدنيا، وحضٌّ على التقرُّب إلى الله عزَّ وجلَّ، وما هنالك للرَّدِّ على الكفرة. وهاء «لَهُ» عائدة لـ«من يشاء» على الاستخدام لا «لَهُ» خصوصا، ويجوز أن تكون له خصوصا، بمعنى: يبسط الرزق للشخص تارة ويقدِّر له بعينه أخرى، فخالف الأوَّل بهذا أيضا، وربَّما يتقوَّى هذا لعدم ذكر «له» في الأَوَّل، وَالأَوَّل يعمُّ هذا وغيره، كما مرَّ.

(بلاغة) ﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ﴾ في سبيل الله، و«مِنْ» للبيان على قصد العموم، وحكمته الإشارة إلى أنَّه يُجازَى ولو على القليل، ولا دليل إلى جعل «مَا» اسما موصولا، لأنَّ الأصل في الموصول عهد الصلة لا الجنس، وعدم التضمين لا التضمين، وعدم زيادة الفاء، وقس على هذا ما أشبهه من هذا الباب وغيره.

وإنَّما يصار إلى ذلك لو وجد دليل مثل أن يرفع المضارع بعده، ويقرن الخبر بالفاء، بل مع هذا تقدير المبتدأ بعد الفعل فتكون «مَنْ» الشرطية أولى، مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ اللهُ مِنْهُ﴾ (سورة المائدة: ٩٥) ، أي فهو ينتقم الله منه.

﴿فَهُوَ يُخْلِفُهُ،﴾ بجنسه أو غير جنسه، في الدنيا والآخرة، أو في إحداهما، أو بالقناعة التي هي كنز لا يفنى.

[قلت:] وصورة أن ينفق المسلم شيئًا فيخلفه عليه في الدنيا فقط أن يقصد

بإنفاقه الخلف في الدنيا و لم يقصد الآخرة، ومع هذا فإن شاء الله لم يخلف له في الدنيا ويخلف له في الآخرة، باعتبار الصلاح الذي له، كما ورد في الدعاء بشيء يخلف الله ﷻ غير الشيء لأنّه الأصلح له، وَأَمَّا أن يخلف له في الآخرة لا بذلك الاعتبار فلا، لأنّه لم يَنْوِهَا. وقيل: المقصود في الآية الخلف في الآخرة.

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة عنه ﷺ : «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلاَّ ملكان يترلان فيه، فيقول أحدهما**: «**اللَّهُمَّ اعط منفقا خلفا**»، **ويقول الآخر: اللَّهُمَّ اعط ممسكا تلفا**»[١]. وروى البيهقي عن جابر بن عبد الله عن النبيء ﷺ : «**كُلَّمَا أنفق العبد نفقة فعلى الله خلفها ضامنا إلاَّ نفقة في بنيان لا يحتاج إليه، أو معصية**»[٢]. وروى البخاري عن أبي هريرة عنه ﷺ : «**قال الله ﷻ : أنفق يا ابن آدم أُنفق عليك**»[٣].

وروى الترمذي عنه مرفوعًا: «**إنَّ المعونة تترل من السماء على قدر المؤونة**» [٤]. وروى الزبير مرفوعا قال الله تعالى: «**أنفق أنفق عليك، ووسِّع أوسِّع عليك، ولا تضيق أضيِّق عليك، ولا تصرَّ فأصرَّ عليك، ولا تحزن**

١- تقدَّم تخريجه، انظر: ج٩، ص١٨٠.

٢- رواه **البيهقي** في كتاب شعب الإيمان، باب في الزهد وقصر الأمل، فصل في بناء ما لا يحتاج إليه من الدور، ج٧، ص٣٩٢، رقم ١٠٧١٢، من حديث جابر بن عبد الله.

٣- رواه **البخاري** في كتاب التفسير (١٧٤) باب قوله: {وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَآءِ}، رقم ٤٤٠٧. **ومسلم** في كتاب الزكاة، باب الحث على النفقة وتبشير المنفق بالخلف، رقم ٩٩٣. من حديث أبي هريرة.

٤- أورده **الهيثمي** بلفظ: «إنَّ المعونة تأتي من الله على قدر المؤونة، وَإِنَّ الصبر يأتي من الله على قدر البلاء»، وقال: «رواه البزار وفيه صادق ابن عَمَّار، قال البخاري: لا يتابع على حديثه وَبَقِيَّة رجاله رجال الصحيح». الهيثمي: مجمع الزوائد، ج٤، ص٣٢٤.

فأخزن عليك، إنّ باب الرِّزق مفتوح من فوق سبع سماوات متواصل إلى العرش، لا يغلق ليلا ولا نهارًا، يترل الله تعالى منه الرِّزق على كلّ امرئ بقدر نيته وعطيَّته وصدقته ونفقته، فمن أكثر أكثر له، ومن أمسك أمسك عليه، يا زبير، فكل وأطعم ولا توكي فيوكى عليك، ولا تحص فيحصى عليك، ولا تقتِّر فيقتَّر عليك، ولا تعسِّر فيعسَّر عليك...»[1]. وعن مجاهد: «اقتصد في النفقة إن قلّ مَالكَ، ولا تؤوِّل هذه الآية فإنّ الرِّزقَ مقسوم، ولَعَلّ ما قسم لك قليل وأنت تنفق نفقة الموسَّع عليه، ورُبـــّمَا أنفق الإنسان ماله كلّه و لم يخلف في الدنيا حتَّى يموت»، فكأنَّه أراد قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً اِلَىٰ عُنُقِكَ...﴾ (سورة الإسراء: ٢٩) .

(مدح الفقر) وقد اختار بعض الفقير الصالح على الغنيِّ الصالح، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الاِنسَانَ لَيَطْغَىٰ أن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰ﴾ (سورة العلق: ٦و٧) ، أخبرَ أنّ الغنى يحمله على الطغيان، وقوله تعالى: ﴿وَمَا نَرَىٰكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الذينَ هُمُ، أَرَاذِلُنَا﴾ (سورة هود: ٢٧) ، فأخبر الله تعالى أنّ الفقراء هم الذين يتبعون الأنبياء.

وعن أبان عن أنس بن مالك عنه ﷺ : **«لكلِّ أحد حرفة، وحرفتي اثنتان: الفقر والجهاد، فمن أحبَّهما فقد أحبَّني، ومن أبغضهما فقد أبغضني»**[2]. وعن أبي هريرة عنه ﷺ : **«اللهمَّ من أحبَّني فارزقه العفاف والكفاف، ومن أبغضني فأكثر ماله وولده»**[3]. وعن مجاهد عن

١- أورده **الحكيم الترمذي**، في نوادر الأصول، ج٢، ص٧٧.

٢- رواه **الديلمي** في الفردوس، ج٣، ص٣٣٩. عن أنس مع بعض الاختلاف في اللفظ.

٣- أورده **البيهقي**، وفي سنده عبد الله بن سعيد المقبري، قال: «غير قوي في الحديث». البيهقي: شعب الإيمان، ج٢، ص١٧٥، رقم ١٤٧٥، عن أبي هريرة.

ابن عمر: «ما أصاب عبد من الدنيا إلاّ نقُصَ من درجته عند الله تعالى ولو كان كريما عند الله». وعن عيسى بن مريم عليه السلام: «الفقر مشقّة في الدنيا مَسَرَّة في الآخرة، والغنى مسَرَّة في الدنيا مشقّة في الآخرة». وعن أنس أنَّه ﷺ قال: «**اللهمَّ أحيني مسكينا، وأمتني مسكينا واحشرني في زمرة المساكين**»[١] قيل: و لم ذلك يا رسول الله ؟ قال: «**لأنَّهم يدخلون الجَنَّة قبل الأغنياء بأربعين عامًا**». ويناسب ذلك أنَّ الغنيَّ يتمنَّى عند موته أنَّه فقير ولا يتمنَّى الفقير أنَّه غنيٌّ، ولو لم يكن للفقير فضيلة سوى أنَّ حسابه في الآخرة أخفُّ لكانت حجَّة. قيل:

دليـــلك أنَّ الفقر خير من الغنـــى — وأنَّ قليل المال خير من المثري
لقاؤك مخلـــوقا عصى الله بالغنى — و لم تر مخلوقا عصى الله بالفقر

أي عصاه لأنَّه أحَبَّ الفقر و لم يجد، كما قيل:

ياعائب الفقر ألا تــترجر — عيب الغنى أكبر لو تعتـــبر
إنَّك تعصي لتنال الغـــنى — ولست تعصي الله كي تفـــتقر

ووجه تفضيل الفقر: مشقَّة صاحبه مشقّة ليست في إعطاء الغنيِّ حقَّ المال وزيادة.

[قلت:] ولا شكَّ أنَّ الحرامَ كَثُرَ الآن والشُّـــبَهُ، فالفقر أفضل، وقد يكون الخلاف لفظيًّا. ﴿وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ﴾ يكثره ويجعله بغير حساب، ويطلق لفظ «الرازق» على غير الله حقيقة، وَقِيلَ: مجازًا.

١-رواه **الترمذي** في كتاب الزهد (٣٧) باب ما جاء في فقراء المهاجرين، رقم ٢٣٥٢، من حديث أنس. ورواه **ابن ماجه** في كتاب الزهد (٧) باب مجالسة الفقراء، رقم ٤٢٠١، من حديث أبي سعيد الخدري.

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ أَهَٰٓؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ﴿٤٠﴾ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ ٱلْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ فَٱلْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿٤٢﴾﴾

تقريع الكفّار يوم القيامة أمام معبوداتهم

﴿**وَيَوْمَ**﴾ مفعول به لـ«اذكرْ» محذوف، أو ظرف لكون محذوف، أي «ويكون ما يكون من الأهوال التي لا يحيط بها المقال يومَ». ﴿**نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا**﴾ من استضعف ومن استكبر، وما يعبدون، وفيه بعدٌ، إلاّ أنّه أساغه قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ نَقُولُ لِلْمَلآئِكَةِ أَهَؤُلآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ**﴾ فذكر الملائكة من معبوداتهم.

و«ثُمَّ» للتراخي في العظَم، أو في الزمان، كما قيل: يقف الخلق سبعة آلاف سنة في موقف لا يكلّمون حتّى يشفع ﷺ في فصل القضاء. وذلك تقريع للمشركين وإقناط من شفاعة الملائكة لهم تقريعا مثله في قوله تعالى: ﴿ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ﴾ (سورة المائدة: ١١٦) ، وخصَّ ذكر الملائكة من سائر ما عبدوا لأنّهم أشرف.

رأى عمرو بن لحي قوما في الشام يعبدون الأصنام، فسألهم فقالوا: أرباب على صور الهياكل العلويّة نستنصر بها، ونستسقي، فجاء بصنم إلى العرب وزيّن لهم عبادة الأصنام فعبدوها، وَعُبِدَ عيسى بعد ذلك. فإذا لم تشفع الملائكة فأولى أن لا يشفع سائر معبوداتهم. وقدَّم «إِيَّاكُم» لأنّه أنسب بالتقريع وأولى بالذكر.

وكأنّه قيل: فما أجابت الملائكة ؟ فقال: ﴿**قَالُواْ سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم**﴾ ومقتضى الظاهر: يقولون، فجيء بالماضي للتحقّق، كأنّه قد حشروا

فقالوا: «سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنا مِن دُونِهِم»، نواليك، ولا ولاية لهم، وما رضينا بعبادهم لنا، بل نلعنهم عليها.

﴿بَلْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ اَلْجِنَّ﴾ إذ أمروهم بعبادة غير الله عَزَّ وَجَلَّ وصوَّروا لهم صور قوم من الجنِّ، فقالوا: هذه صور الملائكة فاعبدوها، أو يدخلون في أجواف الأصنام فهم يُعبَدون إذا عُبِدت. وهذا لا تفسَّر به الآية لأنَّ الآية على أنَّهم عبدوا الملائكة.

أو تخيَّلوا شيئًا صادقا على الجنِّ لا علينا فعبدوه، فهم لم يعبدونا حقيقة، وفي سورة الأنعام [آية: ١٠٠] وغيرها أنَّ قوما عبدوا الجنَّ، ولا تفسَّر به الآية لأنَّها على أنَّه عبدت الملائكة، إلاَّ أن يقال: الإضراب انتقال إلى كلام آخر، لا نفي لأنْ عبدهم الجنُّ، وكذا في تفسيرها بأنَّهم عبدت الجنَّ إذا عبدت الأصنام وهم في جوفها.

﴿أَكْثَرُهُمْ﴾ أكثر المشركين ﴿بِهِم﴾ بالجنِّ ﴿مُّومِنُونَ﴾ بأنَّها آلهة، كما آمن المسلمون بأنَّ الله هو إله، والقليل لم يؤمنوا بأنَّها تعبد بل يعبد الله، لا كما قيل: إنَّ القليل لم يؤمنوا بهم، وإنَّما عبدوهم تبعا لأنَّ عبادهم تبعًا غير خارجة عن الذمِّ، وعن أنَّهم عبدوا غير الله سبحانه، أو قالوا بالأكثر لأنَّ من الكُفَّار من لم يعلم الملائكة بحاله.

وفيه أنَّ العبارة تعطي أنَّ القليل لم يعبدهم، إذ لم يقولوا اطَّلعنا على أكثرهم أنَّهم بهم مؤمنون، وكذا يبحث إن قيل: أكثر قلب كُلِّ واحد مؤمن بالجنِّ، وأيضا كيف يكفر بعض القلب ويؤمن بعضه؟ إلاَّ أن يقال: فيه خصلة إيمان وخصلة شرك، وأيضا لم يقل: أكثر قلوبهم. ويضعف أنَّ الأكثر بمعنى الكلِّ لأنَّه خلاف الأصل.

وأجيز عود هاء «أَكْثَرُهُمْ» للإنس صدَّقوا بأنَّ الجنَّ آلهة، ولا نسلِّم هذه الأكثريَّة، وقيل: المشركون مؤمنون بأنَّ الملائكة بنات الله، كما قال الله عز وجل: ﴿وَجَعَلُواْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا﴾ (سورة الصافات: ١٥٨)، وقيل: مؤمنون بأنَّهم آلهة. والآية من كلام الملائكة.

ومن جملة ما قيل للملائكة قوله تعالى: ﴿**فَالْيَوْمَ لاَ يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَّفْعًا وَلاَ ضَرًّا**﴾ خوطبوا مع الجنِّ، أو مع المشركين وهم البعض الثاني، والأوَّل الملائكة إظهارًا لعجزهم عن أن يشفعوا للجنِّ، مع أنَّهم لا يتعاطون الشفاعة ولا يحبُّونها لهم، وإظهارًا لخيبة عابدهم من الشفاعة.

ويضعف أنَّ الخطاب للمشركين لأنَّ المقام ليس لأن ينفي أن يملك بعضهم لبعض نفعًا أو ضرًّا، أو ذكر الضُرَّ لتعميم العجز، أو لأنَّ المراد **لا يملكون نفعكم إن عبدتموهم، أو ضرَّكم إن لم تعبدوهم.**

﴿**وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُواْ ذُوقُواْ عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ**﴾ عطف على «نَقُولُ». ونَعتَ النارَ هنا والعذابَ في سورة السجدة [آية: ٢٠] لأنَّ ما هنا قبل ملابسة النار وما هناك بعدها، ألا ترى إلى قوله: ﴿كُلَّمَآ أَرَادُواْ أَنْ يَّخْرُجُواْ﴾ (سورة سبأ: ٢٠).

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُواْ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُواْ رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُواْ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ مَا

بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾ »

تعنُّت المشركين وإقامة الحجَّة عليهم

﴿**وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمُ ءايَاتُنَا بَيِّنَاتٍ**﴾ يتلوها عليهم رسول الله ﷺ، قيل: أو من تلقَّاها منه واضحات في إثبات التوحيد، والاحتجاج له.

﴿**قَالُواْ مَا هَذَآ**﴾ محمَّد ﷺ التالي لها، قيل: أو ما هذا المتلوَّة هي عنه، والإشارة للتحقير ﴿**إِلاَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَّصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ**﴾ يعبدهُ ﴿**ءابَآؤُكُمْ**﴾ من الأصنام وغيرها ليترأَّس عليكم، وتكونوا تحته أتباعًا، وليس عن الله تعالى، ولم يقولوا: عَمَّا كان تعبدونه، تحريكا إلى النشاط على إبطال ما خالف آباءهم بالعصبيَّة.

﴿**وَقَالُواْ مَا هَذَآ**﴾ ما هذا القرآن المتلوُّ عليكم، وكرِّر القول هنا وفيما بعد تمييزًا لِمَا تقولُ كُلُّ طائفة وإن اتَّحد القائلون في المواضع، فالتكرير لبيان أنَّ كلّ واحد من الأقوال كفر مَحْضٌ، وعلى الأوَّل فالواو كلٌّ لا كُلِّية. ﴿**إِلاَّ إِفْكٌ**﴾ كلام مصروف عن وجهه، أنَّه ليس من الله، وقال: إنَّه من الله، أو ليس كما هو. ﴿**مُّفْتَرًى**﴾ مكذوب به عن الله ﷻ.

﴿**وَقَالَ**﴾ بلا تدبُّر ولا تأمُّل ﴿**الذِينَ كَفَرُواْ**﴾، أي: وقالوا، ووضع الظاهر ليصرِّح بالكفر الذي هو أعظم، لأنَّه تضمَّن التكذيب ودعوى الصدِّ والإفك، زادوا بادِّعاء السحر، ويحتمل أن يراد: فريق، فالظاهر على ظاهره. وفي تكرير

«قالَ» على الاحتمال الأوَّل تأكيد، وعلى الثاني إشارة إلى مغايرة القائلين. ﴿لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾ في شأن الحقِّ، أو مشيرين للحقِّ، أي إلى الحقِّ، وهو النبوءة ومعجزاتها الخارقة للعادة، أو الإسلام، أو القرآن المؤثِّر في القلوب، ولا تكرير على أن يراد بالآيات بلاغة الألفاظ، وبالحقِّ معنى القرآن ﴿إِنْ هَذَآ إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ﴾ لِمَا رأوه من مخالفة ما اعتادوا.

﴿وَمَآ ءاتَيْنَاهُم﴾ هؤلاء الكُفَّار، أو أهل مكَّة ﴿مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا﴾ تؤيِّد ما هم عليه وبطلان ما جئت به يحتجُّون بها، كقوله تعالى: ﴿أَمَ اَنزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُواْ بِهِ يُشْرِكُونَ﴾ (سورة الروم: ٣٦)، وقوله تعالى: ﴿أَمَ اَتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِّن قَبْلِهِ فَهُم بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ﴾ (سورة الزخرف: ٢١). وجمع الكتاب لأنَّ ما يقولون لو كان يصحُّ لاحتاج إلى أسفار كثيرة.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ﴾ يدعوهم إلى الإشراك ويتوعَّدهم بالعقاب على التوحيد، وذلك تهكُّمٌ بهم، أو هم أمِّيُّون لم يكونوا على دين قبلك من الله يتمسَّكون به، ويأبون تركه، كما فعلت اليهود والنصارى للتوراة والإنجيل، بل التوراة والانجيل يأمران باتِّباعه ﷺ.

﴿وَكَذَّبَ اَلذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ تهديد لهم بأن يعذَّبوا كما عذِّبت الأمم الكافرة قبلهم ﴿وَمَا بَلَغُواْ﴾ هؤلاء الكُفَّار، أو أهل مكَّة ﴿مِعْشَارَ﴾ أي عُشُرَ وقيل: العشر جزء من مائة، أو ذلك تمثيل للقلَّة ﴿مَآ ءاتَيْنَاهُمْ﴾ أي آتينا المكذِّبين قبلهم من طول الأعمار، وَقُوَّة الأجسام، وكثرة الأموال، ﴿فَكَذَّبُواْ﴾ أي هؤلاء المكذِّبون ﴿رُسُلِي﴾ الأنبياء الذين أرسلت إليهم.

ولا يتكرَّر هذا التكذيب مع التكذيب المذكور قبله، لأنَّ الأوَّل بمنزلة اللازم، كأنَّه قيل: من شأن مَن قبلَهم التكذيب، أرسلنا إليهم رسلنا فكذَّبوهم، فالثاني بيان للأوَّل معطوف عليه.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إهلاكي، سمَّى إهلاكهم باسم الكلام الواعظ الزاجر المضمَّن عقابا على مخالفته، وذلك مجاز لعلاقة اللزوم، أو بدَّلنا التبليغ إذ لم يأخذوا به بالإهلاك، أو وَاوُ «كَذَّبُوا» لأهل مكَّة، أو هؤلاء الكُفَّار غير الماضين، أي كذبوا الرسل كلَّهم بتكذيبهم أفضل الأنبياء وخاتَمَهُمْ، فقد زادوا في التكذيب على من هو أقوى منهم.

ويجوز عوْد واو «بَلَغُوا» لـ«الذينَ من قَبْلهِمْ»، وهاء «ءَاتَيْنَاهُمْ» لأهل مَكَّة، فما آتيناهم هو البَـيِّـنَات، أي زاد أهل مَكَّة أو الكُفَّار على من قبلهم في الكفر مع أنَّا آتيناهم من البَـيِّـنَات ما لم نؤت مَن قبلهم، **وهذا زيادة** ذمٍّ، ينبغي أن لا يكذِّبوا كما كذَّب مَن قبلهم، لأَنَّ لهم بَـيِّـنَات زائدة، وبعض الشرِّ أهون من بعض.

وقيل: الضميران لـ«الذينَ من قَبْلهِمْ»، أي كذَّب الماضون وما بلغوا شكر عشر ما آتيناهم، وفيه أنَّه لا يلائم التهديد، لأنَّهم لم يؤتوا من النعم ما أوتي الماضون، وَأَنَّـهُ خلاف الظاهر، إذ لا يتبادر ما قدِّر من مراعاة الشكر.

﴿قُلْ﴾ يا محمَّد لهم ﴿إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ﴾ ما أعظكم إلاَّ بعظة واحدة، أو خصلة واحدة ﴿أَن تَقُومُواْ﴾ بدل في التأويل من «وَاحِدَةٍ»، أو خبر لمحذوف، أي هي أن تقوموا، قيل: أو مفعول لـ«أعني»، وهو ممَّا لا يحسن أن يقال في حقِّ الله. وجملة «هي أن تقوموا» في الاحتمال الثاني نعت «وَاحِدَةٍ»، وقيل: عطف بيان ولو تخالف المعطوف عليه والمعطوف تنكيرًا وتعريفًا، فإنَّ الفعل وحرف المصدر معرفة إذا كان المسند إليه معرفة، وهو الواو هنا، أي قيامكم.

والمراد بقيامهم الجدُّ والاجتهاد -كما قال ابن جريج- في التفكُّر لا في العبادة، كما قيل، لأنَّهم ليسوا من أهلها، ولا بصددها وأيضا المقام للتفكُّر. وَأَمَّا

قوله: ﴿لِلَّهِ﴾ فلا نسلّم أنّه بمعنى لعبادة الله، بل معناه: في شأن دين الله الذي أدَّعيه، هل صَحَّ.

وقيل: المراد قيامهم عن مجلس رسول الله ﷺ. ﴿مَثْنَىٰ﴾ اثنين اثنين ﴿وَفُرَٰدَىٰ﴾ فردًا فردًا، لأنّ الكثرة مظنَّة للتخالف والشبهة والتعصُّب بخلاف الاثنين فلا مزاحمة بينهما في الأغلب، إذا كانا يدًا واحدة على الغير، وقد شاع أنّ الفتح -أي الرأي المصيب- بين الاثنين. وقدَّمهما على «فُرَادَى» لأنّ رأيهما أقرب إلى الاطمئنان من الواحد، لتعاضدهما، **والواحد إذا قصد الإنصاف أدرك الحقّ**. وقد قال غير واحد من قريش: إنَّا لم نجرب منه كذبا ولا كلامه كلام شاعر، وإنَّه أرجح عقلا، وما يقول إلاّ حَقــًّا، ثمّ إنّ بعضًا ينسبه إلى الشعر مجازفة وتخليطًا، وبعض ينسبه إليه من حيث إنّ للشاعر حذقا في الكلام.

﴿ثُمَّ تَتَفَكَّرُواْ﴾ في شأني لتعلموا حقيقته، وقوله: ﴿مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ مستأنف من كلام الله ﷻ، ونصرة منه تعالى لرسوله ﷺ بما لا يخفى إلاّ على مجنون مطْبَق، وهو أنّه عاقل جاء بما جاء من الله ﷻ.

و«مَا» نافية. ويجوز أن تكون الجملة مفعولا للتفكُّر معلّقا هو عنها بالاستفهام، على أنّ «مَا» استفهامية، لأنّ التفكُّر من أفعال القلوب والاستفهام إنكاريٌّ. ويجوز أن تكون «مَا» نافية معلّقة للتفكُّر، ويجوز تقدير: إن تتفكّروا فتعلموا أنّه ليس فيه جنون. ويجوز أن تكون مفعولاً لــ«تعلموا» المقدَّر، أي لتعرفوا الجنون الذي هو فيه، وذلك تهكُّمٌ بهم.

ويجوز أن تكون من كلام رسول الله ﷺ، وعليه فمقتضى الظاهر: ما بي من جنَّة إن أنا إلاّ نذير. على كلِّ وجهٍ عبَّر

بـ«صَاحِب» لأنَّه يظهر من الصاحب للمخالطة ما لا يظهر من غيره، فإنَّ من لم يصاحب يخفى حاله.

والمراد بقوله عزَّ وجلَّ: ﴿بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ قرب الساعة، كقرب ما بين يديك إليك، كما قال ﷺ: « **بعثت أنا والساعة كهاتين**»[1] مشيرا إلى السبابة والوسطى مضمومتين. وقال ﷺ: «**بعثت في نسم الساعة**»[2]. والباء بمعنى في. و«مِنْ» للبيان على استفهاميَّة «ما». وموصوليتان وصلة على أنَّها حرف نفي.

﴿**قُلْ مَا سَأَلْتُكُم**﴾ «مَا» شرطيَّة مفعول مقدَّم، ولا حاجة إلى دعوى أنَّها موصولة ﴿**مِّنَ اَجْرٍ**﴾ أجرة مال أو قُوَّة أو غيرهما على التبليغ، كما قال: ﴿قُلْ لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (سورة الشورى: ٢٣)، وكذا المراد هنا النفي، كأنَّه قيل: ما سألتكم من أجر. على فرض أنِّي سألتكم ﴿**فَهُوَ لَكُمْ**﴾ لاَ آخُذُهُ عنكم.

ويجوز أن يكون المراد ثبوت السؤال وأنَّ منفعته راجعة إليهم، وهو المودَّة في القربى، كما قال: ﴿قُلْ لَّآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا الاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَىٰ﴾ (سورة الشورى: ٢٣)، وقرباهم قرباه، وقرباه قرباهم.

أو الأجر: هذه المودَّة وَاتِّخَاذ سبيل الله، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنَ اَجْرٍ الاَّ مَن شَآءَ اَن يَّتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلاً﴾ (سورة الفرقان: ٥٧)، وَاتِّخَاذ السبيل إليه هو المنفعة الكبرى.

[قلت:] والصحيح ما تقدَّم من أنَّ المراد نفي السؤال، كما يدلُّ له قوله تعالى: ﴿**إِنَ اَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللهِ**﴾ إلاَّ أنَّه لا يتعيَّن لذلك، لجواز أن يريد أنَّ له

١- تَقَدَّمَ تخريجه، انظر: ج٥، ص٢٤٨.

٢- أورده **أبو نعيم** في الحلية: ج٤، ص١٦١، **والدولابي** في كتاب الكنى والأسماء: ج٢، ص٢٣. **وابن حجر** في كتاب المطالب العالية، رقم٢٥٧٧، من حديث أبي جبيرة.

الأجر على الله على تلك المنفعة التي يفعلها لهم ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فهو يعلم خلوص نيتي.

﴿قُلِ انَّ رَبِّي يَقْذِفُ﴾ يرمي رميا شديدًا، استعارة تبعيَّة للإيحاء المتقن، والإيحاء: إلقاء على قلب النبيء، فالباء في قوله: ﴿بِالْحَقِّ﴾ صلة في المفعول به، أو المفعول به محذوف، أي يلقي القرآن، أو الحكم بالحقِّ لا بالباطل، أو يرمي الباطل بالحقِّ فيزيله، فالباء غير صلة، أو يرمي الحقَّ إلى أطراف الأرض وينشره، فالباء صلة، **وذلك وعد بنشر الإسلام**.

﴿عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ خبر ثان لـ«إنَّ»، والأصل تقديم الخبر المفرد، ولذلك قيل: هو خبر لمحذوف، أي هو علاَّم الغيوب، وقيل: بدل من ضمير «يَقْذِفُ» بدل كلٍّ، على جواز الإبدال بالمشتقِّ، فإذا طرحت المبدل منه كان «عَلَّامُ» فاعل «يَقْذِفُ» من وضع الظاهر موضع المضمر، كقولك: زيد قام زيد، مع أنَّ صلوح المبدَل منه للسقوط أغلبيٌّ لا لازم.

﴿قُلْ جَآءَ اَلْحَقُّ﴾ دين الإسلام، أو القرآن لا السيف، كما قيل: إنَّه السيف، من حيث إِنَّهُ سبب لنشر الدين، وتمكُّنه لعدم تبادره، [قلت:] والأصل الحقيقة المتبادرة لا غير المتبادرة، ولا المجاز، ولا يعدل إليهما بلا قرينة واضحة.

﴿وَمَا﴾ نافية ﴿يُبْدِئُ﴾ لا يفعل شيئا ابتداء ﴿الْبَاطِلُ﴾ الشرك والمعاصي ﴿وَمَا يُعِيدُ﴾ شيئا قد سبق وذهب، وأصل العبارة التفسير بما ذكر، **ثمَّ شاع استعمالها في ذهاب الشيء البتَّة بحيث لا يبقى له أثر**، كما يقال: لا يأكل ولا يشرب، أي ميِّت، أو لا يردُّ جوابًا، أي ميِّت، وذلك مجاز مرسل لعلاقة اللزوم، أو كناية.

وقيل: ﴿الْبَاطِلُ﴾: ابليس ولا كناية ولا مجاز، سمِّي باطلا لأنَّه منشأ الباطل، وقيل: الصنم، أي لا ينشئ إبليس أو الصنم خلقا، ولا يعيده، أو لا يبدئ الصنم

كلامًا ولا يردُّ جوابًا. ويجوز أن تكون استفهامية إنكاريَّة فهي في معنى النفي، أي أيُّ شيء يبدئ وأيُّ شيء يعيد ؟ .

﴿قُلِ ان ضَلَلْتُ﴾ عن الهدى ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ عدَّاه بـ«عَلَى» لأنَّ المراد أنَّ جناية ضلالي عليَّ أُعاقب به، والمراد: عموم الضَّالِّ، وخصَّ ﷺ بالذكر لأنَّه القدوة وغيره تبع له، وإذا ضَلَّ فغيرُهُ أولى بالضلال، وكذا خصَّ بالذكر لأنَّه القدوة لا لأنَّ غيره أولى بالاهتداء في قوله:

﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ﴾ إلى الحقِّ ﴿فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّـي﴾ خبر لمحذوف. و«مَا» مَصدَرِيَّة، أي فاهتدائي بإيحاء إِلَيَّ رَبِّـي؛ أو اسم، أي فاهتدائي بما يوحيه إليَّ ربِّي، ومناسب قوله: ﴿فَإِنَّمَآ أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي﴾ أن يقال: «فلها»، أي لنفسي، كقوله تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنَ اَسَآءَ فَعَلَيْهَا﴾ (سورة فصلت: ٤٦) ، لكن بتقديم ما أخَّر هنا، أو أن يقال: إن ضللت فإنَّما أضلُّ بنفسي بالباء، كما قال: ﴿فَبِمَا يُوحِي﴾، لكن لم يقل ذلك لحصول التقابل بالمعنى، إذ كلُّ ضرر من النفس وعليها وبالُه، وقد دلَّت «عَلَى» على معنى اللام في الباء، والباء على معنى السَّـبَبِـيَّة في «عَلَى».

ويجوز أن يكون المراد: فإنَّما أضلُّ على نفسي لا على غيري، فيكون لم يؤت بمقابل «عَلَىٰ نَفْسِي» في قوله: ﴿وَإِنِ اهْتَدَيْتُ...﴾. وفي جعل «عَلَى» للتَّعليل مقابلة له بالسَّـبَبِـيَّة، لكن فيه إخراج «عَلَى» عن الاستعلاء. ولا تقابُل بين «عَلَى» والباء إذا قلنا: المعنى إنَّ ضلالي كضلالكم من النفس الأمَّارة بالسوء، واهتدائي بالوحي لا كاهتدائكم بالنظر لو اهتديتم، والاهتداء بالوحي أقوى، لأنَّ النظر قد يخطئ في الجملة، والوحي لا يخطئ، **وهو معنى بعيد لا يتبادر، والمقام ليس له.**

﴿إِنَّهُۥ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ لا يخفى عنه شيء فلا يفوته جزاء على شيء.

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ فَزِعُوا۟ فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا۟ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ۝٥١ وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٢ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ۝٥٣ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍۭ ۝٥٤﴾

تهديد الكفَّار بشديد العقاب وإيمانهم حين معاينة العذاب

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ﴾ يامحمَّد وهو الأصل، وأجيز عموم الخطاب للصالح له على البدليَّة، ولا مفعول له، على معنى: لو صدرت منك رؤية، أو المفعول به محذوف، أي ولو ترى الكُفَّار، أو لو ترى فزعهم وهو «إِذْ» من قوله عزَّ وجلَّ: ﴿إِذْ فَزِعُوا۟﴾ على التجوُّز، إذ رؤية الزمان رؤية ما فيه، كما أنَّ نفس الفزع لا يُرى إنَّما يرى جسد من تأثَّر به.

ووقت الفزع يوم القيامة، كما يتبادر، وهو قول مجاهد. والمراد كما قال بعض الْمُحَقِّقِينَ: فزع البعث، كما قال الحسن. وعن قتادة: فزع الدنيا عند الموت إذا عاينوا ملائكة الموت. وعن الضحاك: يوم بدر، فالمراد فزع الحرب. وعن السدِّي وابن زيد: فزعُ ضرب أعناقهم يوم بدر.

وجواب «لَوْ» محذوف مقدَّر بعد قوله عزَّ وجلَّ: ﴿وَقَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ على أنَّه عطف على «أُخذُوا»، أي لرأيت أمرًا مهولا ﴿فَلَا فَوْتَ﴾ أي لهم، لا يفوتون عذاب الله بهرب أو موت، أو نصر ناصر، أو شفاعة شافع، والخبر محذوف، أي لا فَوْتَ لَهُمْ.

﴿وَأُخِذُوا۟﴾ أخذهم الملائكة ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾ من الموقف إلى النار، أو أخذهم الله، أو الأرض من تحت أقدامهم من البيداء، أو من بدر، لأنَّ القليب

المطروح فيه قتلى بدر في بدر، أو أخذهم المسلمون من مواضع قتلهم في بدر إلى القليب، ولا قرب ولا بعد بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ .

(نحو) والعطف في الموضعين على «فَزِعُوا»، إلاَّ أنَّ الأَوَّل عطف اسْمِيَّة على فعْلِيَّة، وقدِّمت على الفعلِيَّة للفاصلة، أو يقدَّر مثلها بعد «قَرِيبٍ» تأكيدًا، أو لأَنَّ الأخذ غير عدم الفوت، بل مسبّب له، وسبب لتحقُّق عدم الفوت وجودًا.

(نحو) أو نعطف الفعلِيَّة على «لاَ فَوْتَ لهم»، بمعنى فلم يفوتوا وأخذوا. والفاء للترتيب بلا تسبب، ويجوز التعليل، أي فزعوا لأَنَّه لا فوتَ، فإنّ فزعهم فشلٌ يترتَّب عليه عدم الفوت في الجملة. وعدم الفوت بمعنى الحصر والضبط، ليس نفس الأخذ بل سبب له، وفاء السَّـــبَبِـــيَّة داخلة على المسبَّب، لأنَّ عدمَ فوهم من فزعهم وحيرهم والتعليلية داخلةٌ على السبب.

﴿وَقَالُواْ ءامَنَّا به﴾ أي بالله سبحانه، وأضمر لشهرته شهرة أظهر من كُلِّ شهرة، ولأنَّ كُلَّ إيمان بما يجب الإيمان به عائد إلى الإيمان به تعالى، أو آمنَّا بمحمَّد ﷺ ، ورُجِّحَ، وقد مرَّ ذكره بلفظ صاحبكم، ولأنَّه يقال لهم عند النزع: ما تقول في هذا الرجل؟ يعني مُحَمَّدًا، ويفهمونه. والإيمان به ﷺ شامل على الإيمان بالله عزّ وجلّ وبالعذاب والبعث. وقد قيل: الهاء للعذاب، وقيل: للبعث.

﴿وَأَنَّىٰ﴾ كيف، أو من أين ﴿لَهُمُ التَّـــنَاوُشُ﴾ التناول، تناول الإيمان بقولهم: الآن آمنَّا به، فهو قول ضائع لا يثبت به لهم الإيمان، أو ﴿التَّـــنَاوُشُ﴾: الرجوع ـــ كما قال ابن عبَّاس ـــ إلى الدنيا ليؤمنوا ويعملوا. و«لَهُمْ» مُتَعَلِّق بـــ«يثبت» محذوفًا، أو باستقرار من «أنَّى»، و«أنَّى» خبر. ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ عن حصوله، لأَنَّهم في غير زمان التكليف، وقد قطع عذرهم بموهم كافرين، كما قال الله عزّ وجلّ :

﴿وَقَدْ كَفَرُواْ بِهِ﴾ الجملة حال من هاء «لَهُمْ» والربط بواو الضمير وَواو الحال، أو من المستتر في «أَنَّى»، أو من «التَّنَاوُش» إذا جعلناه فاعلا لـ«يثبت» محذوفا والربط بواو الحال، ولايصحُّ أن تكون الواو للاستئناف لأنَّ واو الاستئناف لا تصحُّ، ويضعف العطف هنا، ﴿مِن قَبْلُ﴾ قبل موتهم حال التكليف.

﴿وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ﴾ يلقون الكلام من أفواههم كالرَّمي بالحجر بأمر الغيب، وهو ما لم يثبت علمه عندهم بحقٍّ، وما لم يثبت فهو غائب عنهم، بمعنى أنَّه لم يحصل عندهم فهم بمعزل عنه، كإثبات الشريك لله تعالى، وجعل الملائكة بنات الله سبحانه، وإثبات السحر والشعر والكهانة للنبيء ﷺ، والكفر بالقرآن ويوم القيامة، ﴿مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ جهة بعيدة عن الحقِّ، أو عَمَّن نسبوا إليه ما لا يليق.

(بلاغة) وفي كلٍّ من قوله: ﴿وَيَقْذِفُونَ...﴾ وقوله: ﴿أَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ...﴾ استعارة تمثيليَّة بأن شبَّه حالهم من التكلُّم بما يظهر لهم، ولم ينشأ عن تحقيق بحال من يرمي شيئًا لا يراه من مكان بعيد، لا يظنُّ لحوقه، وشبَّه حالهم في استخلاص الإيمان بعدما فاتهم وبعُد بحال من يريد أن يتناول شيئا بعد أن بعُد وفات.

وقيل: الغيب ما خفي من معائبهم، أي يرميهم الوحي بما خفي من معائبهم، وقيل: المعنى يجازون بسوء أعمالهم عند الموت، أو البعث، ولا يعلمون من أين أتاهم ذلك إلاَّ بعد حين، وقيل: تقذفهم الشياطين بالغيب، وتلقِّنهم إِيَّاهُ. وهذه الأقوال الثلاثة إنَّما هي على قراءة: «يُقْذَفُونَ» بالبناء للمفعول.

والعطف على «كَفَرُوا»، أو «قَالُوا» وصيغة المضارع للحال استحضار لما مضى.

﴿وَحِيلَ﴾ حالَ اللهُ، ونائب الفاعل ضمير الحول، أي وحيل الحول، أي أوقع الحول ﴿بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ﴾ هو الرجوع إلى الدنيا، أو الإيمان المقبول، أو التوبة، أو طاعة الله عز وجل، ومرجع الثلاثة واحد، أو الأهل والمال والولد، أو أن يغلبوا المهدي [المنتظر حسب ما يقال] وجنده، أو النجاة، أو نعيم الدنيا ولذاتها ﴿كَمَا فُعِلَ﴾ فعل الله ﴿بِأَشْيَاعِهِم﴾ أشباههم في الكفر من الأمم قبلهم، فإنّ الكُفَّار بعضٌ شيعةٌ لبعضٍ بالكفر الجامع لهم، وقيل: المراد أصحاب الفيل.

﴿مِّن قَبْلُ﴾ في الزمان قبلهم، متعلّقٌ بـ«فُعِلَ» والحيولة في الدنيا، وعلّقه بعض المحقّقين بـ«أَشْيَاعِ» على أنّ المراد من اتَّصَفَ بصفتهم قبل ورجّح بأنّ ما يفعل بجميعهم في الآخرة إنّما هو في وقت واحد.

﴿إِنَّهُمْ﴾ أي الأشياع وقيل: المحدَّث عنهم ﴿كَانُواْ فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ﴾ موقع غيره من الناس في ريبة، فهو متعدٍّ لمحذوف، أو هو للنسب فهو لازم، أي صار ذا ريبة. شبَّه الشكَّ بإنسان يصحُّ أن يكون مريبا لغيره، أو ذا ريبة، ورمز إلى ذلك بذكر الإرابة، فالتشبيه استعارة بالكناية، والإرابة قرينة، وإثباتها تخييليَّة، ففي «مُرِيبٍ» استعارة تبعيَّة.

والله الموفق

وصلى الله على سيدنا محمد وآله

تفسير سورة فاطر وآياتها ٤٥

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۚ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ۖ وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ۚ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ② يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۚ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ③ وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ ۚ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ④﴾

بعض أدلة القدرة الإلهية والتذكير بنعم الله

﴿**الْحَمْدُ للهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾ الفاطر المُوجِدُ. تخاصم أعرابيان عند ابن عبَّاس على بئر فقال أحدهما: أنا فطرتها، قال ابن عبَّاس: علمت به معنى ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ ولا أعلمه قبل. رواه البيهقي.

(لغة) وذلك على الإطلاق وهو إيجاد الشيء على صفة يترشَّح بها لفعل من الأفعال، وقيل: أصله الشقُّ، وقيل: الشقُّ طولاً ثمَّ تجوِّزَ به إلى الإنشاء مطلقا، ثمَّ صار حقيقة، ولا يشترط أن يكون على غير احتذاء مثال، بدليل كلام الأعرابي، وكونه في الآية على غير احتذاء مثال من خارج لا بالوضع. ومطاوع الفطر «انفطر»، كقوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَآءُ انفَطَرَتْ﴾ (سورة الانفطار: ١) .

وبيعد إبقاؤه على أصله بأن يكون المعنى: شقَّ السماوات يوم القيامة لنزول الأرواح والملائكة، وقبله بنزول الأمطار، والأرض بالنبات في الدنيا، وعن الموتى بالبعث يوم القيامة.

(نحو) و فاطر نعت لله وهو معرفة لإضافته للمعرفة، وإضافته محضة لأنَّه بمعنى الماضي، على معنى خالق، إذ لا مفعول له، لأنَّه لا ينصب المفعول فضلا عن أن يقال: إنَّها لَفْظِيَّة، وإنَّه في نية التنوين، وإنَّ ما بعده في نية النصب على الْمَفعُولِيَّة، أو لأنَّه على معنى: مِن شأنه الفطر، كقولك: جَاءَ مَالِكُ العبيد، تقول: لِمَن مِن شأنه أن يملكهم و لم ترد أنَّه قد ملكهم أو يملكهم، ولو كان قد ملكهم، وبهذا الوجه يقال في معنى شَاقِّ السماوات.

(نحو) وإن أريد خصوص الشقِّ الآتي أو الماضي فهو للمضيِّ تقديرًا أو تحقيقًا، وأجيز أن يكون بدلا، وقالوا: البدل بالمشتقِّ ضعيف.

وتعليق الحكم بالنعت المشتقِّ أو البدل منه المشتقِّ يوذِنُ بالعلِّيَة كتعليقه بالمشتقِّ، كأنَّه قيل: الله أهل للحمد لفطره، ومثل ذلك كلِّه في قوله: ﴿**جَاعِلِ الْمَلآئِكَة رُسُلاً**﴾ إلى الأنبياء بالوحي، وإلى الخلق مطلقا بالأمطار والرياح، وبتلقِّي المؤمنين بالخير يوم القيامة.

﴿**أُولِي**﴾ أصحاب، نعت لـ«رُسُلاً» ﴿**أَجْنِحَة**﴾ يطيرون بها من جنس أبدانهم لا من شعر أو نحوه، وهذا جمع قلَّة استعمل للكثرة، ويجوز إبقاؤه على القلَّة باعتبار كلِّ ذلك على حدة واعتبار الغالب، فلا يشكل أنَّ من الملائكة من كثرت أجنحته.

﴿**مَّثْـنَىٰ وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ**﴾ نعوت لـ«أَجْنِحَة»، فتقدَّر الفتحة في الأوَّل نائبة عن الكسرة. ومنع الصرف للوصفيَّة، والعدل عن اثنين اثنين، وثلاثة ثلاثة، وأربعة أربعة، وزعم بعض أنَّه للعدل إلى غير صيغ هذه الأعداد، والعدل إلى

عدم التكرير.

﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ يزيد للملائكة أجنحةً على أربعة وكما يزيد في أبدانهم وصفاتهم وأفعالهم زادهم الله قوَّة، ويزيد بخلق ملائكة لم توجد، ويحدث ما شاء من المعدومات: حيوان وجماد وصفات، وأفعال وأجزاء، والخلق الحسن، وملاحة العينين والصوت الحسن، والخطّ الحسن، والجمال والعقل، والعلم والصنعة، وغير ذلك من الأعراض و الأجسام، والقبح والأشياء القبيحة.

[قلت:] ومن أفرد شيئا من ذلك فتحجير للواسع ولا نقبله، أو أراد التمثيل، وكلُّ شيء من الله عَزَّ وَجَلَّ حسن. روى البخاري ومسلم في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِّنَ ءَايَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ﴾ (سورة النجم: ١٨) : «إنَّه رأى جبريل له ستمائة جناح»[1]، وعن عائشة رضي الله عنها: «رآى رسول الله ﷺ جبريل على صورته مَرَّتَيْنِ، له ستمائة جناح، سدَّ بها الأفق، مَرَّة عند سدرة المنتهى، وَمَرَّة في أجياد»[2].

وقد قيل: من الملائكة طائفة لهم ستَّة أجنحة، جناحان يلفُّون بها أجسادهم، وجناحان يطيرون بهما إلى حيث شاء الله عَزَّ وَجَلَّ، وجناحان مرخيان على وجوههم، حياء من الله سبحانه. والملائكة أجسام متنوِّرة لطيفة تتشكَّل بما تشاء أو يشاء الله عَزَّ وَجَلَّ، حتَّى إنَّ جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ يصير كالوصَع، وهو طائر صغير. ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ تعليل جمليٌّ، كأنَّه قيل: لا يعجز عن زيادة ما

١- رواه **البخاري** في كتاب التفسير (٣٣٨ باب {فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ}، رقم ٤٥٧٥، من حديث ابن مسعود.

٢- رواه **البخاري** في كتاب بدء الخلق (٧) باب إذا قال أحدكم آمين، رقم ٣٠٦٣، عن مسروق عن عائشة بدون تعيين المكان. **والترمذي** في كتاب التفسير (٥٤) باب ومن سورة النجم، رقم ٣٢٧٨، من حديث عائشة.

يشاء لأنَّه على كلِّ شيء قدير.

﴿مَّا يَفْتَحِ اللهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لَهَا﴾ يمسكها عنهم من مطر وعلم وصحَّة وأمن وتوبة وحكمة، ومال وغير ذلك من الأشياء الدِّينيَّة وَالدُّنيَوِيَّة. وكان عروة بن الزبير يقول في ركوب المحمل: «هو والله رحمة فتحها الله».

(بلاغة) والفتح مجاز مرسل عن الإرسال أصليٌّ، لأنَّ الفتح عن الشيء سبب لإرساله وإعطائه، واشتقَّ منه «يَفْتَح» على طريق المجاز المرسل التبعي، والمراد الإعطاء، ولذلك قابله بالإمساك، ومن شأن ما يعطى أن يخرج ممَّا حبس فيه.

[قلت:] وفي ذكر الفبح تلويح بعظم شأن النعمة أنَّها ممَّا يصان، وفي تنكيرها التعميم ﴿وَمَا يُمْسِكْ﴾ من رحمة مَّا ﴿فَلاَ مُرْسِلَ لَهُ،﴾ أي لها، ولكن راعى لفظ «مَا»، كما قرئ: «فَلاَ مُمْسِكَ لَها»[1]، وهذا أولى من تفسيره بما يمسك مطلقا، لأنَّه المذكور قبل، وللقراءة المذكورة. وفي تقديم الفتح **إشارة إلى كثرة نعمه وإلى أنَّ رحمته سبقت غضبه** كما جاء عنه ﷺ. ﴿مِنْ بَعْدِهِ﴾ أي من دونه، أو من بعد إمساكه.

﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ﴾ الغالب على الإطلاق على ما يشاء من إمساك وإطلاق وغيرهما ﴿الْحَكِيمُ﴾ الذي لا يفتح ولا يمسك ولا يفعل شيئا ولا يترك إلاَّ بصواب.

١- كذا في النسخ المخطوطة والمطبوعة، ولَعَلَّ الصواب: «كما قرئ: «فَلاَ مُرْسِلَ لَها»». كما ذكر الألوسي في روح المعاني، ج٢٢، ص١٦٥.

[قلت:] ومن أتقن الآية(١) قلّ اهتمامه، وانقطع عمَّا سوى الله عَزَّوَجَلَّ ، ومتى انشغل بغيره فببَدَنه لا بقلبه.

قال عامر بن عبد القيس: أربع آيات ما أبالي معهنَّ شيئا ﴿مَا يَفْتَحِ اللَّهُ...﴾، ﴿وَإِنْ يَّمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلاَ كَاشِفَ لَهُ، إِلاَّ هُوَ﴾ (سورة الأنعام: ١٧) ، و﴿سَيَجْعَلُ اللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾ (سورة الطلاق: ٧) ، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الاَرْضِ...﴾ (سورة هود: ٦) . وكان ﷺ يقول دبر كلّ صلاة: «**لا إله إلاَّ الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كلِّ شيء قدير، اللّهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجدِّ منكَ الجَدَّ**»(٢)، أي الغنى.

﴿**يَآ أَيُّهَا اَلنَّاسُ**﴾ على الإطلاق، أو أهل مَكَّة ﴿**اذْكُرُواْ**﴾ بالشكر والإذعان ﴿**نِعْمَتَ اللهِ عَلَيْكُمْ**﴾ نعت «نِعْمَةَ»، على أنَّ المراد ما أنعم الله به من عافية ومال وغيره، ومنع المضارِّ، كما أسكنكم الحرم الآمن؛ أو متعلّق بـ«نِعْمَةَ» على أنَّه بمعنى الإنعام.

﴿**هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ**﴾ لا خالق لهذه النعم التي أمرتم بشكرها غير الله، و«هَلْ» استفهام إنكار، لأنَّها في مقام صورة ادِّعاء النفي، وإنَّما يمتنع الإنكار بها في مقام ادِّعاء الثبوت، نحو: ﴿أَفَأَصْفَاكُم رَبُّكُم بِالْبَنِينَ﴾ (سورة الإسراء: ٤٠) ، فيما قيل، والتحقيق أنَّه يجوز النفي بها.

١- أي فهمها ووعاها وعيا جيِّدا.

٢- رواه **البخاري** في كِتَاب الأذان، باب الذكر بعد الصلاة، رقم ٨٠٨، ج١، ص٢٨٩. **ومسلم** في كِتَاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الذكر بعد الصلاة، رقم ٥٩٣، ج١، ص٤١٤، من حديث المغيرة بن شعبة. والشطر الثاني منه رواه **الربيع** في مسنده (المقدِّمة) باب في العلم وطلبه وفضله، رقم٢٦، من حديث معاوية.

(نحو) و«خَالِقٍ» مبتدأ، أو «غَيْرُ» فاعل أغنى عن خبره؛ أو خبر و«غَيْرُ» مبتدأ؛ أو «غَيْرُ» نعت على المحلّ والخبر محذوف، أي هل من خالق غير الله موجود؟ أو الخبر «لكم»، أو «للعالمين»، ولا إشكال في شيء من ذلك باعتبار الصناعة أو المعنى، ولا مانع لقولك: هل من قائم الزيدان ؟ .

ولا مانع من جعل الخبر قوله: ﴿**يَرْزُقُكُم مِّنَ اَلسَّمَآءِ وَالاَرْضِ**﴾ بالمطر والنبات والثمار، ولا مانع من جعله نعتا آخر لـ«خَالِقٍ»، أو خبر ثان لـ«غَيْرُ». ولا يجوز أن يكون مستأنفا مع رجوع الضمير في «يَرْزُقُ» إلى «خَالِقٍ» أو «غَيْرُ». ولا يجوز إلاّ الاستئناف إذا جعلنا الضمير لله تعالى.

﴿**لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ**﴾ مستأنف، أو حال من ضمير «يَرْزُقُ» العائد إلى الله سبحانه وتعالى . ﴿**فَأَنَّى تُوفَكُونَ**﴾ تصرفون، عطف على «لآ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ»، أو على «يَرْزُقُكُمْ»، على أنّ الضمير في «يَرْزُقُ» لله عطف إنشاء على إخبار، أو جواب لمحذوف، أي: إذا تحقّق أنّه الرازق والإله فأنّى تؤفكون ؟ .

﴿**وَإِنْ يُّكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ وَإِلَى اَللهِ تُرْجَعُ الاُمُورُ**﴾ تسلية له ﷺ بأن كُذِّب مَن قبله فليصبر كما صبرُوا، بل ولو لم يصبروا لكنّهم صبروا ولا بدّ، وتسلية له بأنّ رجوعهم إلى الله عز وجل ، ورجوع أموره إلى الله فيجازيهم على تكذيبهم إيّاك، والمراد: رجوع أمرهم وأمر غيرك وأمرك في البعث والجزاء وغيرهما.

ويترجّح أنّ المراد هما بقوله: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ﴾. والتقديم للحصر ولشوقه ﷺ لا للفاصلة مع ذلك، لجواز: «وترجع إلى الله الأمور».

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ۝٥ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُواْ حِزْبَهُۥ لِيَكُونُواْ

مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾

التحذير من الاغترار بالدنيا
والتذكير بالجزاء تسلية لرسول الله ﷺ

﴿**يَآ أَيُّهَا النَّاسُ**﴾ عُمُومًا، أو أهل مَكَّة، **والأوَّل أولى** ﴿**إنَّ وَعْدَ الله**﴾ برجوع الأمر كلِّه إليه: البعث والجزاء، أو مطلقا ويدخلان أوَّلاً وبالذات ﴿**حَقٌّ**﴾ ثابت لا يتخلَّف ﴿**فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا**﴾ بزخرفها فتذهلوا عن يوم البعث للجزاء.

والنهي في الصورة للدنيا وفي الحقيقة للمخاطبين، فهو نائب عن قولك: لا تغترُّوا بالحياة الدنيا، والمسوغ لنهيها لفظًا أنَّها السبب ﴿**وَلاَ يَغُرَّنَّكُم بِاللهِ**﴾ عن الله، أو عن دينه ﴿**الْغَرُورُ**﴾ عظيم الغرِّ وكثيرهُ، وهو الشيطان.

والنهي لفظا له لأنَّه سبب، وفي الحقيقة لهم، ومفتضى الظاهر: لا تغرنَّكم الحياة الدنيا والغرور لكن كرَّر النهي للتَّأكيد، وللتغاير بين غرور الدنيا وغرور الشيطان.

﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ**﴾ حال من قوله: ﴿**عَدُوٌّ**﴾ على قول من أجاز الحال من خبر المبتدأ مطلقا، ولا سيما قد دخل عليه حرف التحقيق، ولو تعلَّق التحقيق بخبره، أو متعلِّق بـ«عَدُوٌّ» لتضمُّنه معنى معاد، فهي لام التقوية، وقد اختلف في تعليقها، وذكر «عَدُوٌّ» بدل معاد للتأكيد، وقدِّم على طريق الاهتمام.

﴿فَاتَّخذُوهُ عَدُوًّا﴾ أي عادوه بالمخالفة اعتقادًا وفعلا وقولا، وكونوا أعداءً له، كما هو عدوٌّ لكم، أو اعتقدوا أنّه عدوٌّ لكم فتحذروا، وأكّد التحذير بكونه يريد لكم الشرَّ في قوله: ﴿إنَّمَا يَدْعُواْ حزْبَهُ﴾ إلى المعاصي ﴿ليَكُونُواْ﴾ لأجل أن يكونوا ﴿منَ اَصْحَاب السَّعير﴾ النارالسعيرة، كامرأة كحيل، أي النار المسعورة، أي الموقدة إيقادًا شديدًا. و«منْ» للتبعيض المعتبر بطائفة، وإلاَّ فكلٌّ أصحاب السعير ضلُّوا بإضلال الشيطان لا بعض فقط.

﴿الذينَ كَفَرُواْ﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَديدٌ﴾ عظيم بطول المدَّة بلا نهاية، لا بدل من «حزْبَ» ولا نعت له، ولا بدل من واو «يَكُونُوا»، ولا نعت لـــ«أَصْحَابَ»، ولا بدل له لبقاء قوله: ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَديدٌ﴾ متعطِّلاً، فيتكلَّف بجعله حالاً. وفي إبداله من «أَصْحَابَ» حَصْرٌ، لأنَّه يصير إلى قولك: ليكونوا الذين كفروا، وليس المراد الحصر، فيتكلَّف له بأنَّ المبدل منه قدْ لا يكُونُ في نية الطرح، ولفوت الازدواج مع قوله:

﴿وَالذينَ ءامَنُواْ وَعَملُواْ الصَّالحَات لَهُم مَّغْفرَةٌ﴾ عظيمة، أو كبيرة، ويجوز جعل «كَبيرٌ» نعتًا للأجر وللمغفرة، كقوله تعالى: ﴿وَالْمَلآئكَةُ بَعْدَ ذَلكَ ظَهيرٌ﴾ (سورة التحريم: ٤) في أحد الأوجه. ﴿وَأَجْرٌ كَبيرٌ﴾ كَمًّا وكَيْفًا.

﴿اَفَمَن زُيــّنَ لَهُ، سُوءُ عَمَله﴾ أي عمل الشيطان، أو عمل نفسه، زيَّنَ الشيطان والهوى له المعاصي، فكانت عملاً له ﴿فَرَءاهُ حَسَنًا﴾ الهمزة لإنكار مساواة مَن حَسُنَ عَمَلُهُ.

(نحو) والفاء للعطف على محذوف، أي: أيجوز ترك التدبُّر فمن زيِّن...؟ أو داخلة على جواب شرط مقدَّر والهمزة ممَّا بعدها، والتقدير: إذا علمتم ذلك أفمن زيِّن؟ وخبر المبتدأ وهو «مَنْ» الموصولة أو الشرطية محذوف، تقديره مع ما عطف عليه محذوفًا: أفمن زيِّن له سوء عمله فرآه حسنا ومن

استقبحه وعمل الصالحات متساويان؟ أو يقدَّر بلا عطف، أي: كمن استقبحه واجتنبه؟ أو يقدَّر المحذوف بالفاء على الشرطيَّة.

وكذا إذا قدَّرنا: كمن هداه الله، لدلالة قوله عز وجل: ﴿وَيَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ﴾، وكذا الحذف في قوله عز وجل: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ﴾ (سورة هود: ١٧)، وقد ذكر الخبر في قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ﴾ (سورة محمد: ١٤)، وقوله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ يَّعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ...﴾ (سورة الرعد: ١٩)، وقوله سبحانه: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيِّتًا فَأَحْيَيْنَاهُ﴾ (سورة الأنعام: ١٢٢).

وسوء عمله بمعنى قبح عمله، وقيل: من إضافة الصفة إلى الموصوف، والتحقيق أنَّ خبر المبتدأ الشرطي هو جملة جوابه لا جملة الشرط إذا تمَّت به الفائدة.

[قلت:] ولا نترك ما هو ظاهر إلى غير الظاهر لتكلُّف، ومن يزعم أنَّه جملة الشرط ناقض قوله بقوله: إنَّ الفاء تزاد في خبر الموصول تشبيهًا بالشرطي.

وعلَّلَ سَبَبِيَّة التزيين لرؤية القبيح حسنا بقوله: **﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَّشَآءُ﴾** مثل من كفر برسول الله ﷺ **﴿وَيَهْدِي مَنْ يَّشَآءُ﴾** مثل من آمن به ﷺ، ولا عجب في اتِّبَاع العاقل عدوَّه في تزيينه، لأنَّهم لا يدرون أنَّ الشيطان عدوُّهم، ولأنَّ هواهم من أنفسهم معين، وهم كمن سُلِبَ عقلهُ بشدَّة التزيين وزخرفته، حتَّى إنَّهُ قال: «مَن زُيِّنَ» ولم يقل: الكافر.

(أصول الدين) وذلك كلُّه بخلق الله ذلك وإيقاعه، كما قال مُعَلِّلاً: ﴿فَإِنَّ اللهَ يُضِلُّ ...﴾ أي لأنَّ الله يضلُّ...الخ، فلا قدرة لك على أن تسلك الضالَّ في زمرة المهتدي.

﴿فَلاَ تَذْهَبْ﴾ تتلف ﴿نَفْسُكَ﴾ روحك، أو بدنك كلُّه ﴿عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾ عطف إنشاء على إخبار، وتفريع عليه، ولاحاجة إلى جعله جواب شرط، أي إذا كان الأمر كذلك فلا تذهب، ولا إلى دعوى التقديم والتأخير، وأنَّ التقدير: إنَّه ﷺ قال: لا، جوابًا لقوله عز وجل: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُ﴾ فإذا كان جوابك لا فلا تذهب نفسك عليهم حسرات لأنَّ الله يضلُّ...الخ، ولا دليل على ذلك.

[قلت:] وليس كلُّ ما صحَّ في نفس الأمر يقدَّر تفسيرًا للقرآن، والحسرة: الغمُّ والندم على فائت، كأنَّه انحسر عنه ما حمله على ما ارتكبه، أو انحسرت قوَّته لشدَّه غمٍّ، أو أدركه عياء عن تدارك ما صدر منه. و«عَلَيْهِمْ» بمعنى لأجلهم، و«حَسَرَاتٍ» حال، مبالغة، كأنَّها نفس الحسرات، أو يقدَّر ذات حسرات، أو حاسرات.

(نحو) أو يتعلَّق [عليهم] بـ«حَسَرَاتٍ» ولو كان جمع مصدر، لأنَّ هذا المصدر ليس هنا على معنى حرف المصدر والفعل، ولتوسُّعهم في الظروف، وإذا علِّق بـ«حَسَرَاتٍ» وليس تعليلا صحَّ جعل «حَسَرَاتٍ» مفعولا من أجله، ولا وجه لتعليقه بـ«تَذْهَبْ» مع أنَّه تعليل، ومع جعل «حَسَرَاتٍ» مفعولا من أجله إذ لا يتكرَّر المفعول من أجله بلا تبعيَّة، ولا يصحُّ تعليقه بـ«تَذْهَبْ» إلاَّ على معنى التعليل. وجمع حسرة للدلالة على الأنواع من تضاعف اغتمامه ﷺ بأحوالهم وكثرة قبائحهم.

وسلَّى الله تعالى رسوله ﷺ بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ﴾ أي لأنَّ الله ﴿عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ فيعاقبهم، وقوله: ﴿افَمَن زُيِّنَ لَهُ... بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ آية واحدة نزلت في أبي جهل إذ أصرَّ على كفره، وعمر رضي الله عنه إذْ تَابَ وَأسلم.

﴿ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَٰلِكَ النُّشُورُ ۝٩ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ۝١٠ وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ۝١١ ﴾

إثبات القدرة والعزَّة والعلم لله تعالى

﴿**وَاللَّهُ الذي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ**﴾ مبتدأ وخبر للحصر، أي الله هو الذي أرسل الرياح لإثارة السحاب، إذا شاء، لا كُلَّما أرسلها أثارت ﴿**فَتُثِيرُ**﴾ تنهض ﴿**سَحَابًا**﴾ أي هو الذي أرسل الرياح فيما مضى.

(**بلاغة**) وكلّما أرسلها تحضرها الإثارة، والإثارة ماضية عبَّر عنها بمضارع الحال لتكون كالمشاهدة، فقيسوا عليه المستقبل، فذلك وجه المضي في الإرسال، ووجه الحالية والاستقبالية في الإثارة، ولكن الحالية مجازية لقرب الإرسال بالإثارة. أو «أَرْسَلَ» بمعنى يرسل والماضي للسرعة المتفرِّعة على قول: «كن» وكأنَّه مضى، كما قال الله ﷻ : ﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ نُشُراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِه﴾ (سورة النمل: ٦٣) بالمضارع، وقال في سورة الروم: ﴿اللَّهُ الذي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا﴾ (الآية: ٤٨) ، وأيضا الإرسال متقدِّم على الإثارة فناسب المضيَّ، فهو متقدِّم والإثارة بعدها.

﴿**فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ**﴾ لا نبات فيه يُعتبر، أو البتَّة، شبيه بما مات من ذوات الأرواح، في عدم صدور شيء منها، وضدُّه في قوله :﴿**فَأَحْيَيْنَا بِهِ**﴾ بمطره ﴿**الأَرْضَ**﴾ المعهودة بلفظ «بَلَدٍ مَّيِّتٍ»، فـ«ال» للعهد.

ومقتضى الظاهر: فأحييناه، بردِّ الهاء إلى البلد، ولكن ذكره باسم الأرض مع إعادة ذكر الموت في قوله: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ تلويحا إلى أنَّ المطر حياة للأرض الميتة هكذا مطلقا، ولو كان فيها نبات، وتفسيرًا للبلد الْمَيِّت فإنَّه في الآية نكرة في الإثبات ظاهرة في بلد واحد، ولأنَّه أوفق بالبعث المطلق، وقال: ﴿بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ مع أنَّ ذكر الإحياء يغني عنه للإشارة -قيل- إلى أنَّ الموت للأرض الذي تعلَّق به الإحياء معلوم عندهم.

﴿كَذَالِكَ﴾ مثل إنبات الأرض بعد أن لا نبات فيها ﴿النُّشُورُ﴾ نَشْرُنا الموتى من قبورهم أحياءً، كما ينشر الثوب بعد طيِّه، أو مثل ذلك النبات بالمعنى المصدري نشور الموتى، أي حياهم. قال الأعشى:

حَـتَّى يقول الناس مِمَّا رأوا   يا عجبا للمـيِّت الناشـر

أي الذي حيي، ووجه الشبه أنَّه كما قبلت الأرض الميتة النبات تقبل أعضاء الْمَيِّت الحياة، وكما تجمع الرياح قطع السحاب يجمع الله أجزاء الموتى، وكما يسوق السحاب إلى البلد الْمَيِّت فينبت بمائه يسوق الروح والحياة إلى الأبدان، وكما يرسل الماء إلى الأرض فتنبت يرسل ماء كالمني كالطلِّ من تحت العرش إلى الموتى فيحيون، كما جاء في الحديث[1].

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ﴾ بالمعصية كالتكبُّر على الغير بلا حقٍّ، وكما يتعزَّز الكُفَّار بالأصنام، كما قال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُواْ مِن دُونِ اللهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ

١- يشير إلى ما روي عن ابن مسعود في أثر طويل: «...ثُمَّ يرسل الله ماءا من تحت العرش يمنى كمني الرجال فتنبت جسمانهم ولحمانهم من ذلك الماء كما تنبت الأرض من الري ثم قرأ عبدالله: {وَاللَّهُ الذي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الاَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَالِكَ النُّشُورُ} ...». أورده **الهيثمي** وقال: رواه الطبراني وهو موقوف. مجمع الزوائد، كتاب البعث، باب أمارات الساعة وقيامها، ج١٠، ص٣٢٩.

عزًّا﴾ (سورة مريم: ٨١) ، وكما يتعزَّز المنافقون بالمشركين، كما قال ﷻ : ﴿الذينَ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ الْمُومِنِينَ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ العِزَّةَ﴾ (سورة النساء: ١٣٩) . والجواب محذوف، أي يَخِيَّبْ، أو يذلْ، أو فليطلبها من الله بالطاعة، أو فهو مغلوب، أو فليطع العزيز، لقوله ﷺ : «**إنَّ ربَّكم يقول كلَّ يوم: أنا العزيز فمن أراد عزَّ الدارين فليطع العزيز**»[1] نابت عنه علّته في قوله تعالى:

﴿فَللَّه الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي لأنَّ العزَّة لله جميعا، وأمَّا قوله تعالى: ﴿فَللَّه الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِه وَلِلْمُومِنِينَ﴾ (سورة المنافقون: ٨) فلا يرد على ذلك لأنَّ تعزُّز الرسول والمؤمنين ليس بطريق المعصية بل بالتقرُّب إلى الله ﷻ .

وفي الآية حصران: أحدهما بتقديم «لله»، والآخر بــ«جَميعًا». وإن جعلنا «ال» في «الْعِزَّة» للاستغراق كان حصرا آخر لا إن جعلناها للحقيقة.

ولا يصحُّ جعل «ال» في الأَوَّل للاستغراق ولا للفرد الكامل، لأنَّه لا يعتاد ذلك في الناس، فضلا عن أن يقال: من كان ذلك، إلاَّ ما شذَّ وقلَّ مع أنَّه لا يخلو قلب صاحبه من خلاف ذلك، إلاَّ أن يقال: ذكر الله ذلك ليذكر اختصاصه تعالى به، لا لصدور إرادته من أحد. و«جَميعًا» حال من الضمير في «لله».

﴿الَيْه يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّــيِّبُ﴾ بيان لما تحصل به العزَّة عند الله للإنسان، وبيان لكون العزَّة كُلِّها له تعالى، وهي بالطاعة ولا يعتدُّ بها ما لم تقبل، وأجيز أن يكون استئنافا وإذا أمكن التعلُّق للجملة بما قبلها وأمكن الاستئناف فالتعلُّق أولى لزيادة الفائدة.

١-رواه **الخطيب** البغدادي في تاريخ بغداد، رقم ٣٠٩٠، ج٦، ص٦٠. وأورده **الديلمي** في الفردوس، رقم ٨١٠٥، ج٥، ص٢٥٣. من حديث أنس.

و﴿الْكَلِمُ الطَّـيِّبُ﴾: «لا إله إلاَّ الله»، لأنَّه يستطيبه العقل، لأنَّه منجاة، والشرع، والملائكة، وكلُّ كلمة منه طيِّبة لأنَّه يتوصَّل بلا وبإله [في جملة لا إله إلاَّ الله] إلى الاستثناء.

فكلاهما ممَّا حسن في العبارة، وإن قلنا: الكلمة هنا بمعنى الكلام التامِّ المفيد مجازًا على المشهور كقوله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّـكَ﴾ (سورة الأنعام: ١١٥)، و﴿كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ﴾ (سورة المؤمنون: ١٠٠)، وقوله ﷺ: «**أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد : ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل...**»[1] فالجمع باعتبار الناطقين.

وعلى التجوُّز تكون القرينة الوصف بالطيِّب، لأنَّ الأصل في الطيِّب الكلام التامُّ المستلذُّ. وعن ابن مسعود موقوفا: هو «سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلاَّ الله، والله أكبر، وتبارك الله»، يصعد بهنَّ ملك لا يمرُّ على جماعة من الملائكة إلاَّ استغفروا لقائلهنَّ. وعن أبي هريرة ذلك إلى «والله أكبر».

وقيل: ذكر الله مطلقا، وقيل: القرآن، وقيل: كلُّ كلام الله عَزَّوَجَلَّ من ذكر وأمر ونهي ووعظ.

(صرف) ونعت «الْكَلِم» بالمفرد لجواز ذلك في اسم الجمع، ولأنَّ أصله «فعيل» فقدِّم الياء، وأدغم، و«فعيل» بوزن مصدر السير والصوت، والمصدر يصلح للقليل والكثير.

(بلاغة) والصعود مجاز مرسل عن القبول لعلاقة الاعتبار بالصاعد، أصليٌّ، اشتق منه «يَصْعَدُ» على طريق المجاز المرسل التبعي، أو استعارة أَصليَّة للقبول بعلاقة الاعتبار، واشتقَّ منه «يَصْعَدُ» على طريق التبعيَّة، أو

١- رواه **البخاري** في كتاب فضائل الصحابة(٥٦) باب أيـَّام الجَاهليَّة، رقم٣٦٢٨ و٥٧٩٥ و٦١٢٤. **والنووي** في كتاب رياض الصالحين، باب فضل الزهد في الدنيا... رقم٤٨٧. من حديث أبي هريرة.

«الْكَلِمُ» مجاز عن نحو الورقة التي كتب هو فيها لحلول متضمَّن «الْكَلِم» فيه، أو يقدَّر مضاف، أي صحيفة الكلم، أو شبَّه وجوده في الأرض وكتبه في السماء بالصعود.

﴿**وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ**﴾ الفرائض، أو مع النقل ﴿**يَرْفَعُه،**﴾ ضمير «يَرْفَعُ» للعمل، والهاء «للكلم الطيب» فمن تكلَّمَ بالطيِّب وعمل سوءًا لم يقبل كلامه.

والرفع القبول، أو يرفع إلى السماء، ويعتبر موته، فإن مات مصرًّا رُدَّ، وعنه ﷺ : «**لا يقبل الله قولا إلاَّ بعمل، ولا يقبل قولا وعملا إلاَّ بنية، ولا يقبل قولا وعملا ونية إلاَّ بإصابة السنة**»[1] ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿إلاَّ مَن تَابَ...﴾ (سورة الفرقان: ٧٠) ، وقوله ﷺ : «**هَلَكَ المصرُّون**»[2] ؟ وألا ترى إلى محبطات الأعمال كالرِّياء ؟ .

وقيل: ضمير «يَرْفَعُ» للكلم، والهاء للعمل، على أن «الْكَلِم» كلمات التوحيد، **ولا يرفع عمل لمشرك**، وفيه جريان الخبر على غير ما هو له، مع غير البروز بلا قرينة، فلا يجوز هذا القول.

وقراءة ابن أبي عبلة وعيسى[3] بنصب «العمل» على الاشتغال لا يكون قرينة، لأنَّ ما يحتاج فيه إلى قرينة لتصحيح العبارة يكون في تلك العبارة لا في عبارة أخرى، وقيل: الضميران للعمل على حذف مضاف، أي العمل الصالح

١-أورده **الزبيدي** في الإتحاف: ج١٠، ص٣٤. **ابن القيسراني** في تذكرة الموضوعات، ص٩٩٦. (م.أ.ح)

٢-أورده **ابن الجوزي** في تفسيره زاد المسير: ج٤، ص٢٠٤. (م.أ.ح)

٣-هو أبو عمرو عيسى الثقفي النحوي البصري مؤلِّف كتابي الجامع والكامل في النحو، وله اختيار في القرءات على قياس قواعد اللغة، روى القراءة عنه أحمد بن موسى اللؤلؤي والخليل بن أحمد. توفي ١٤٩هـ. القراءات الشاذة، ص١٦.

يرفع عامله، أي يشرِّفه، وهو خلاف الظاهر.

﴿وَالذين يَمْكُرُونَ اَلسَّيِّئَاتِ﴾ مفعول مطلق، أي المكرات السَّيِّئَات، أو مفعول به على تضمين «يَمْكُرُ» معنى يعمل ﴿لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾.

(سبب النزول) نزلت في الذين مكروا برسول الله ﷺ في دار الندوة، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الذينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَو يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ﴾ (سورة الأنفال: ٣٠) ، فالمضارع في الآيتين لحكاية الحال الماضية، وجمع المكرات إذ قال: ﴿السَّيِّئَات﴾ لأنَّها متعدِّدة على سبيل البدليَّة، الحبس والقتل والإخراج، ويجوز أن يراد هنا العموم فيدخل هؤلاء بالأولى.

﴿وَمَكْرُ أُوْلَئِكَ﴾ بالنبيء ﷺ ، أراد ومكر أولئك البعداء في الشرِّ الممتازين بالمبالغة فيه، ولذلك لم يقل: ومكرهم. ﴿هُوَ﴾ لا مَكرُنا بهم ﴿يَبُورُ﴾ يضيع ولا يُؤثِّرُ، فإنَّهم لم يقتلوه ﷺ ولا أخرجوه ولا حبسوه بعد أن بالغوا في فعل أحد الثلاثة، وفعل الله بهم الثلاثة جميعًا: أخرجهم من مَكَّة، وقتلهم، وحبسهم في قليب بدر ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (سورة آل عمران: ٥٤) ، ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ الاَّ بِأَهْلِه﴾ (سورة فاطر: ٤٣) .

وعن مجاهد وسعيد بن جبير وشهر بن حوشب[1] أنَّ قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ يَمْكُرُونَ... يَبُورُ﴾ في أصحاب الرياء، بمعنى الذين يغرون الناس بأعمالهم، يوهمونهم أنَّها لله عَزَّ وَجَلَّ ، لهم عذاب شديد على ذلك، ومكرهم بائر لا ترفع

١- شهر بن حوشب الأشعري، فقيه من رجال الحديث، وكان ظريفا، قال له رجل: إنِّي أحبُّك فقال: ولم لا تحبُّني وأنا أخوك في كتاب الله ووزيرك على دين الله، ومؤونتي على غيرك. الزركلي: الأعلام، ج٣، ص١٧٨.

أعمالهم، وقد ظنَّ الناس وهم أنَّها تُرفع.

وزاد دليلا آخر على صحَّة البعث بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ﴾ في ضمن خلق آدم منه، فهم مخلوقون من تراب بوسائط الآباء والأمَّهات، أو بوسائط الدم المتولِّد من الثمار المتولِّدة من التراب، أو يقدَّر مضاف، أي خلق أباكم آدم.

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا﴾ ذكرانا وإناثا، كما قال: ﴿أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا﴾ (سورة الشورى: ٥٠) ، أو زوَّج الذكور بالإناث، والإناث بالذكور، ويناسب هذا ذكر النطفة وقوله تعالى: ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ﴾ جنينا ﴿وَلَا تَضَعُ﴾ لا تضعه حيًّا أو ميِّتًا، نطفة أو علقة أو مضغة أو عظامًا أو مصوَّرًا ﴿إِلَّا بِعِلْمِهِ﴾ حال من الفاعل وهو «أُنثى»، أي إلاَّ ملتبِّسة بعلمه بها علما كُلِّيًّا بذاتها وجنينها وأحوالها كلِّها.

﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ﴾ المعمَّر لا يزاد عمرًا آخر ولا يوجد تعميره الحاصل، لأنَّ إيجاد الموجود بعد وجوده تحصيل للحاصل وهومحال، فإمَّا أن يكون «يُعَمَّرُ» بمعنى الماضي، أي ما عُمِّرَ مَن حَصُل تعميره، أي فكذلك التعمير الماضي إلاَّ بعمله، وإمَّا أن يكون «مُعَمَّر» بمعنى من شأنه التعمير، أو مآله إليه، ومن ذلك حديث: «**من قتل قتيلاً فله سلبه**»[1]، ومن مجاز المآل مثل: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾ (سورة يوسف: ٣٦) .

﴿وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ﴾ الهاء عائدة إلى «مُعَمَّرٍ» المذكور لفظا مرادا بها

١- رواه **البيهقي** (الكبرى) في كتاب قسم الفيء والغنيمة، جماع أبواب الأنفال (٩) باب السلب للقاتل، رقم١٢٧٨١. من حديث سمرة. ورواه **أبو داود** في كتاب الجهاد، باب في السلب بعض القاتل، رقم ٢٧١٧. بلفظ: «من قتل قتيلا له عليه بيِّنة فله سلبه»، من حديث أبي قتادة.

غيره معنى، على طريق الاستخدام، أي من عمر معمَّر آخر، كدرهم ونصفه، وذلك استخدام حقيق لا شبيه به، ويجوز تقدير مضاف، أي من عمر مثله، والمزيد في عمره لا يكون منقوصا من عمره.

ومعنى تعمير المعمَّر إطالة عمره، ومعنى نقص العمر خلقه قصيرًا من أوَّل، كقولك: أطِلِ البناء، ووَسِّعْ فم البئر، أي اجعل البناء من أوَّل أمره على الإطالة واجعل فم البئر واسعا من أوَّل.

ويجوز عود الهاء على المعمَّر تحقيقا بدون استخدام على أنَّ المعمَّر صاحب العمر مطلقا طال، أو قصر، أي لا يجعل لصاحب العمر عمره طويلا ولا ناقصا إلاَّ بعلمه، أو على أنَّ النقص بمعنى المضي من بعض عمره، مثل لحظة وساعة ويوم وشهر وسنة، أو على معنى أنَّه إن فعل كذا طال عمره، وإن لم يفعله نقص، ففعله فيطول، أو لا يفعله فينقص.

(أصول الدين) وقد قضى الله قبله أن يفعله، أو قضى أن لا يفعله، وهو تعالى لا يجهل ولا يتغيَّر قضاؤه، ولا يحدث له علم لأنَّ علمه أزليٌّ عامٌّ، لا يخرج عنه شيء، فبذلك جاز الدعاء بطول العمر للمتأهِّل له، وبنقصه للمتأهِّل له، والأجل واحد مبرم لا يتغيَّر.

ويحتمل تفسير إطالة العمر بالبركة ونقصه بعدمها، قيل: أو على أنَّه لا ينقص من عمر المعمَّر لغيره فـ«معمَّر» بمعنى مبقى على عمره، وفيه أنَّه يقتضي أنَّه قد ينقص من عمره لغيره بعمله تعالى، وهو محال، ولعلَّ قائله أراد أنَّ البقاء على العمر وعدم النقص منه للغير متصوَّر بعلمه.

وقيل: الهاء للمنقوص من عمره، ولو لم يجر له ذكر للعلم به، أي لا ينقص من عمر المنقوص من عمره بجعله ناقصا.

﴿إِلاَّ فِي كِتَابٍ﴾ عظيم القدر بالضبط، وهو اللوح المحفوظ، أو صحيفة

الإنسان، أو علم الله الرحمن الرحيم، ويناسب ذلك كُلَّه، إلاَّ أنَّه بالثاني أنسب قوله ﷺ : «**يدخل الملك على النطفة في الرَّحم بعد أربعين، أو خمس وأربعين ليلة، فيقول: ياربِّ أشقيٌّ أم سعيدٌ؟ أذكر أم أنثى؟ فيقول الله تعالى ويكتب، ثمَّ يكتب عمله، ورزقه، وأجله، وأثره، ومصيبته، ثمَّ تطوى الصفيحة فلا يزاد فيها ولا ينقص منها**»[1].

﴿**إنَّ ذَٰلِكَ**﴾ المذكور من الخلق وما بعده، مع أنَّه تحيرُ فيه العقول ﴿**عَلَى اللهِ**﴾ لا على غيره، ليس المقام لذكر الحصر لأنَّه لا يتصوَّر لغيره بعسر ولا يسر، إلاَّ أن يقال: المعنى لا يعدُّه يسيرًا إلاَّ الله، وأمَّا غيره فيعدُّه بحسب بادئ الرأي صعبا على الله عزَّ وجلَّ .

﴿**يَسِيرٌ**﴾ لأنَّه بمُجَرَّد توجُّه الإرادة الأَزَلِيَّة لا بعمل، أو احتياج إلى سبب يتوقَّف عليه، فكذلك البعث، والله الرحمن الرحيم الموفِّق.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٢﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾

١- رواه **الربيع** باب ما جاء في الحجَّة على القَدَرِيَّة، ج٣، رقم ٨٠١. وأورده **ابن أبي عاصم** في كتاب السنة، رقم ١٨٠ و١٨٥، من حديث أسيد الغفاري.

من دلائل الوحدانيَّة والقدرة الإلهيَّة وخيبة المشركين

﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ﴾ تمثيل للتفاوت بين المؤمن والكافر. و«ال» لحقيقة البحر العذب والبحر المالح، لتعدُّد كلٍّ منهما. والبحر: الماء المغرق ولو كان يجري. وكذا الإشارتان للحقيقة في قوله: ﴿هَذَا عَذْبٌ﴾ طيِّبٌ ﴿فُرَاتٌ﴾ شديد العذوبة، كأسود حالك، وأصفر فاقع، وأبيض يقق، وقيل: [فرات] كاسر للعطش ومزيله، ولعلَّه تفسير باللازم، فمن شأن شديد العذوبة إزالة العطش إزالة شديدة ﴿سَآئِغٌ شَرَابُهُ﴾ سهل انحداره لموافقته للطبع وخلوِّه من مكدِّر.

﴿وَهَذَا مِلْحٌ﴾ مغاير للطبع، المغايرة المعروفة كملح الطعام إذا كثر في طعام أو شراب، ويقال أيضا على القلَّة: مالح، وليس لغة رديئة كما قيل، وقيل: المِلْحُ ما ملح بالخلقة، والمالح ما ملح بمخالطة شيء ﴿اجَاجٌ﴾ شديد الملوحة كأنَّه يحرق بملوحته، والمؤمن كالبحر العذب، والكافر كالبحر الملح.

واستأنف كلاما خارجًا عن التمثيل بقوله: ﴿وَمِن كُلٍّ تَاكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾، كما خرج عن التمثيل قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾ وذلك لأنَّه لا فائدة تحصل من الكافر، كما تحصل من المؤمن، ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ خارج عن التمثيل، فإنَّه لا حلية من البحر العذب.

فقوله: ﴿وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾ عائد إلى الملح، أي وتستخرجون من الملح حلية، أو ذلك مجموعٌ وكلٌّ لا كُلِّـيَّة، كما في قوله تعالى: ﴿يُخْرَجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ (سورة الرحمن: ٢٢) . ويدلُّ لذلك إفراد الضمير في «فيه» فإنَّ أمر الفلك في الملح أعظم منه في العذب، والمتبادر ردُّ الهاء إلى الملح، وقد يقال: الفائدة من الكافر أخذُ ماله وذرِّيته، أو الجزية.

قلت: ولا يكفي جوابا ما قيل: إنّ بعض الصخر التي في مجرى السيل تكسر، ويخرج منها حجر الماس، وهو حلية إذ لا ندري أصحَّ ذلك أم لا ؟ بل هو حجر متقوم كجوزة، وأصغر لا أكبر، يكسر جميع الأجساد الحجريَّة، وإمساكه في الفم يكسر الأسنان، ولا تعمل فيه النار والحديد، وإنَّما يكسره الرصاص ويسحقه ويثقب به الدرُّ وغيره، وإذ ليس ذلك من البحر المتبادر.

ولا ما قيل: إنَّه تستخرج منه سمك تؤخذ من عظامه مقابض السيوف والخناجر، إذ لا تدرى صحَّته، وإذ ليس ذلك زينة تلبس. ولا ما قيل: لَعَلَّ في العذب لؤلؤا لا نراه، إذ لا نعمل بمثل هذا الترجِّي، مع وجود مسلك غيره.

فحاصل الكلام تشبيههما بالبحر العذب والملح، وتفضيل المؤمن بمزيد الفائدة كلؤلؤ البحر الملح ومرجانه، وبأنَّه لم يتغيَّر عن طبعه وخلقته، كما تغيَّر الكافر عنها.

واللَّحم الطريُّ: السمك، واختار له اسم اللحم لأنَّه لا يحتاج إلى ذكاة، ولا غسل دمٍ، ولا عزل شيء منه بالتحريم، كما أنَّه حلال ولو بصورة إنسان، ولو يحيى في البرِّ أيضا، ولو بصورة خنزير، وذلك أولى ممَّا قيل: اختار له اسم اللحم الطريِّ لانحصار منفعته في الأكل، إذ فيه أدوية، وفي عظامه حلية وغير ذلك. وَممَّا قيل: إنَّه سَمَّاهُ بذلك لسرعة فساده، إن لم يعجَّل بأكله لأنَّه يصلح للبقاء بالتشريح، كما يشاهد[1].

(فقه) ومن حلف لا يأكل اللحم حنث به، واختلف فيه على عرف لا يُسَمَّى فيه لحمًا، والصحيح عدم الحنث في ذلك العرف. ولو حلف لا يركب دَابَّة فركب كافرا، لم يحنث مع قوله ﷻ : ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَآبِّ عِندَ اللهِ الذِينَ كَفَرُواْ﴾ (سورة الأنفال: ٥٥) .

١- لعلَّ الأولى أن نقول: إنَّ لحم السمك ينضج بسرعة وسهولة شيًّا وطبخا.

ومعنى ﴿تَلْبَسُونَهَا﴾ تلبسونها أنتم ونساؤكم، ولو اختلفت كَيفيَّة اللبس، وأيضا لبس النساء لأجل الرجال، وأيضا هنَّ منهم.

والخطاب في «تَرَى» لمن يصلح للرؤية ورأى، والنبيء ﷺ لم ير البحر، وإن قلت: الرؤية علميَّة لا بصريَّة خُصُوصًا فالخطاب يعمُّه ﷺ، ويجوز أنَّ الله قد كشف له فرآه ببصره، ورأى مخر الفلك، أي شقَّ السفن فيه الماء ذاهبة وراجعة.

وقيل: المخر صوتُهُنَّ مع الماء، والماء على كلِّ حال أصل، والمفرد ماخر، وأخِّر هنا لأنَّ المراد أن تقع الرؤية عليها فيه، فيَتَعلَّقُ بــ«تَرَى» وقدِّم في النحل [آية: ١٤] لأنَّ المراد أن تقع الرؤية للمخر فيه، فيتعلَّق بــ«مَوَاخِرَ» فذلك معنيان.

[قلت:] وأولى من هذا أنَّه أخِّر هنا لأنَّ المخر ذكر استطرادًا، أو تتميمًا للتمثيل لا تمثيلا حقيقيًّا، وقدِّمَ المخر في النحل [آية: ١٤] لأنَّ الكلام في تعداد النعم، وشقُّ الماء للوصول وإيصال الأموال والنجاة نِعَمٌ، ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا﴾ (سورة النمل: ١٨) ، ولذلك قال فيها: ﴿وَلِتَبْتَغُواْ﴾ بالواو، وهنا قال: ﴿لِتَبْتَغُواْ﴾ بلا واو، وهو متعلِّق بــ«مَوَاخِرَ»، أو بمحذوف، أي سخَّرها لتبتغوا، أو سخَّر البحرين لتبتغوا، أو فعل ذلك لتبتغوا.

﴿مِن فَضْلِه﴾ أي من فضل الله، ولو لم يجر له ذكر في الآية لجريه له قبلها، ولدلالة المعنى عليه عزَّ شأنه، ولو لم يجر له ذكر فيها ولا قبلها.

﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ نعمه بطاعته والاعتراف بها. و«لَعَلَّ» للترجية، أو للتعليل، أو للترجِّي، بمعنى أنَّ صورة الإنعامِ عليكم كصورة من فعل لَكُم ما يرجو به منكُم الشكر، فتكون الاستعارة التمثيليَّة في الجملة، أو تكون الاستعارة التبعيَّة في «لَعَلَّ».

﴿يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ﴾ بإدخاله فيه شيئا فشيئا، فيقصر ويطول النهار ﴿وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ﴾ عكس ذلك، والمضارع للتجدُّد.

﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ الماضي لعدم التجدُّد، ولو كانت آثارهما تتجدَّد ﴿كُلٌّ يَجْرِي﴾ من المغرب إلى المشرق، إلاَّ أنَّ الفلك يدركهما في طريقهما ويتحرَّك بهما إلى المغرب، وهما مستمرَّان إلى المشرق كنملة تجري إلى أسفل اللوح وأنت تجبذ اللوح إليك.

﴿لأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة، أو سنةٌ للشمس وشهرٌ للقمر.

﴿ذَلِكُمُ﴾ أي العالي الشأن الفاعل ما لا يفعله غيره، وأخبر عنه بثلاثة أخبار في قوله: ﴿اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ الأوَّلانِ مفرَدان، والثالث جملة.

(نحو) ولا يجوز أن يكون «الله» نعتا، لأنَّه عَلَم، إلاَّ بتأويل المتأهِّل للعبادة، ويجوزالإبدال. وعلى الوجهين النعت بالتأويل والبدَل يكون خبران لا ثلاثةً. ولا يجوز عطف بيان لأنَّه لاَ خَفَاءَ في المعطوف عليه، اللهمَّ إلاَّ أن يكون على طريقة عطف البَيَان، لا حقيقته، أو لجواز أن يُشار إلى غير الله عند السَّامع، ولا يتعيَّن أنَّ الإشارة إليه تعالى حتَّى يذكر ما يختصُّ به، فجاز البيانُ قبل ذكر ما يختَصُّ به.

ومن الجائز أن يكون «لَهُ الْمُلْكُ» مستأنفا مقابلا به قوله تعالى: ﴿وَالذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ تعبدونهم، أو تطلبونهم في حوائجكم، وصيغة العقلاء للأصنام معتبرة باعتقادهم، لعنهم الله.

(لغة) ﴿مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾ قشرة رقيقة بيضاء على النواة على المشهور، أو القمع الذي على رأس النواة من خارج، أو ما بين القمع والنواة ممتدًّا منه إليها، أو القشرة على رأسها، أو النقطة على ظهرها، أو قشرة الثوم،

والمعنى: الإلهُ [أي: الله] يملك كلَّ شيء، والذين تدعون لا يملكون شيئا، فليسوا آلهة.

﴿إن تَدْعُوهُمْ﴾ تطلبوهم، أو تعبدوهم ﴿لاَ يَسْمَعُواْ دُعَآءَكُمْ﴾ لأنَّه لا آذان لهم، أو لا يقبلوا عبادتكم ﴿وَلَوْ سَمِعُواْ﴾ كما يسمع صاحب الأذن، أو قَبِلُوا عبادتكم ﴿مَا اسْتَجَابُواْ لَكُمْ﴾ لأنَّه لا لسان لهم، أو ما نفعوكم، لأنَّه لا يملكون شيئًا، والتفسير في ذلك كلِّه بسمع الأذن، والتكلُّم أولى.

والشمس والقمر والنجوم كالأصنام لعابديها. وإن فسِّر هؤلاء بعيسى، أو الملائكة، أو بهما، أو بالأصنام وبهما، أو بأحدهما والأصنام، فعدم سمع عيسى والملائكة لبعدهم، وموت عيسى في اعتقادهم عن اليهود.

[قلت:] والحقُّ أنَّه الآن حَيٌّ في السماء بعد موته بالأرض بلا قتل.

أو عدم قبولهم عبادة غير الله سبحانه، أو طلب الحوائج من غير الله تعالى، لأنَّ ذلك كفرٌ ولا قدرة لَهم على النفع.

﴿وَيَوْمَ اَلْقِيَامَةِ﴾ قُدِّم على متعلّقه ليَتَّصِل بما قصد من الزَّمان الأَوَّل، وهو الدنيا، لأنَّ المراد: لا يسمعوا دعاءكم في الدنيا، وما استجابوا لكم فيها، ولأنَّ يوم القيامة هو الأهمُّ للنفع، ولو ذهل عنه الكافر وأعرض عنه.

﴿يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ يكفر هؤلاء المعبودون من الأصنام والملائكة، وعيسى والجنِّ، والنجوم والشمس، والقمر، لأنَّهم لم يعلموا بتلك العبادة، ولأنَّهم لم يقبلوها مع ذلك، وهي الإشراك المذكور أيضا بقوله: ﴿بِشِرْكِكُمْ﴾ أي بما حصل منكم من الإشراك، يبرأون به، وينكرونه.

أو هو اسم مصدر بمعنى الإشراك، ينطق الله ما لا يتكلَّم من هؤلاء، فيكفر بشركهم، أو ينطقون بلسان الحال، ومن له لسان ينطق به، كما تقول الملائكة:

﴿سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِمْ...﴾ (سورة سبأ: ٤١) إذ قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَهَؤُلَآءِ إِيَّاكُمْ كَانُواْ يَعْبُدُونَ﴾ (سورةسبأ: ٤٠)؟ ومن رضي بتلك العبادة في الدنيا كالجنِّ أنكرها في الآخرة خوفًا من العقاب.

﴿وَلاَ يُنَبِّئُكَ﴾ بالأمر المذكور يا محمَّد، أو مطلق من يصلح للخطاب ﴿مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ عظيم في العلم بالأشياء كُلِّها، وهو الله عَزَّ وَجَلَّ، ويبعد أن يكون هذا من تمام ذكر الأصنام ونحوها، بمعنى: لا يخبرك مثلُ من يُخبِر عن نفسه إنَّها ليست آلهة، وإنَّها لم ترض أن تعبد.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ۝١٥ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٦ وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ ۝١٧ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾

حاجة الخلق إلى الله وهو في غنى عنهم ومسؤولية كل فرد على عمله

﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مطلقا، أو المعهودون بقوله: ﴿ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ﴾ أي ذلكم المعبود الموصوف بصفات الجلال، لاَ الذين تدعون من دونه، وأنتم الفقراء إليه عَزَّ وَجَلَّ، كما قال:

﴿أَنتُمُ الْفُقَرَآءُ إِلَى اللهِ﴾ في إبقائكم، وتمكينكم ممَّا تحتاجون إليه. أو الناس الجنس، أو الاستغراق. والحصرُ مبالغةٌ لا تحقيق، لأنَّ غير الناس المعهودين أو غير الناس مطلقًا فقيرٌ إلى الله عَزَّ وَجَلَّ أيضًا، كأنَّه لكثرة افتقارهم وشدَّته هم الفقراء وحدهم، وافتقار غيرهم كَلاَ افتقار، كذا قيل.

وفيه أنَّ افتقارهم ليس بأشَدَّ من غيرهم، وافتقار الخلق كُلِّهم إليه على حَدٍّ سواء، ومن اعتقد غير ذلك أشرك إلاَّ اعتقاده كثرة الحوائج وقلَّتها، مثل احتياجنا إلى الأكل والشرب، والجمادُ لا يحتاج إليهما.

والظاهر أنَّه لا حصر إلاَّ بكثرة الحوائج، فإنَّ الجنَّ لا يأكلون ولا يشربون إلاَّ قليلا من طعام أو شراب، أو يكتفون بالشمِّ، وأيضا الكلام مع من يُظهر العناد. أو المراد بالناس ما يشمل الجنَّ، أو الخلق كلّهم إطلاقًا لاسم البعض على الكُلِّ، وتغليبًا بخطاب العاقل، أي **أنتم أيــُّهَا الخلق المحتاجون إلى الله** عَزَّوَجَلَّ **لا الله محتاج إليكم**.

﴿وَاللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ﴾ عمَّا سواه عبادةً وغيرها **﴿الْحَمِيدُ﴾** المتأهِّل لأن يحمده ما سواه على نعمه، إذ هو النافع للمحتاج لجوده، وذلك العموم أولى من أن يقال: هو غنيٌّ عن عبادتكم أيُّها الناس المخصوصون، أو المطلقون بعبادة غيرهم، وهم الملائكة.

(سبب النزول) ولا ينافي العموم ما روي أنَّه لَمَّا ألَحَّ ﷺ عليهم بالدعاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ قالوا: «لعلَّ الله يحتاج إلى عبادتنا» فنزلت الآية.

وأكَّد الغنَى عن الخلق بقوله عَزَّوَجَلَّ: **﴿إِنْ يَّشَأْ﴾** إذهابكم **﴿يُذْهِبْكُمْ﴾** أيــُّهَا المشركون، أو العرب **﴿وَيَاتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾** يعبدونه على استمرار، أو يذهبكم أيــُّهَا الناس مطلقا، أو الخَلق كلّهم تغليبا لأولي العقل، ويَأتِ بعَالَم آخر يعبدونه أوَّلاً، إذ هو مستغْنٍ قادر.

﴿وَمَا ذَٰلِكَ﴾ المذكور من الإذهاب والإتيان بخلق جديد **﴿عَلَى ٱللَّهِ بِعَزِيزٍ﴾** صعب، ولا غائب عن الله، وإذا قيل: في الآية تغليب الحاضر عن الغائب فالمراد الغيبةُ عن النبيء ﷺ، وعن نزول الآية وفَهْمِهَا.

﴿وَلاَ تَزِرُ﴾ لا تحمِل، والوزْرُ حَمل ما ثَقُلَ، وَسُمِّيَ الوَزير لأنَّه يحمل ثقلَ الرَّأي واستخراجه مع السلطان، فليس يَختَصُّ بالذنب ﴿وَازِرَةٌ﴾ نفسٌ ذات ذَنبٍ ﴿وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ مفعول لـ«تَزِرُ»، أي لا تحمل ذنب نفسٍ أخرى، أو حملها، وهو الذنب، ويجوز حمل «تَزِرُ» على معنى تذنب، فيكون «وِزْرَ» مفعولا مطلقا، أي لا تذنب ذنبها، أي لا تتَّصف به فتخلو عَنْهُ الأُخرى، وتنجو، بل تَزِرُ وِزْرَ نَفْسِهَا وهو ضلالُها وَوِزْرَ الإِضْلاَلِ، والإضلال هو أيضا فعلُه من غير أن يُنقص من وزر الضَّالِّ التابع له شيءٌ.

فللضَّال ذنبه، وللضَّال المضلِّ ذنبان، كقوله تعالى: ﴿وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُم وَأَثْقَالاً مَّعَ أَثْقَالِهِمْ﴾ (سورة العنكبوت: ١٣) ، فَكلٌّ ما فعله الضَّالُّ فمثله لمضلِّه، وكذلك لا تزر غير الوازرة وزْرَ الوَازِرةِ بل تنجو، إلاَّ إن ضلَّت الأخرى بإضلالِها، فعليها مثل وزرها لأنَّها أضلَّتها.

وخصَّت الآية بذكر الوازرة لأنَّها نزلت في شأن المذنب الحامل لغيره على الذنب، كما روي أنَّ الوليد لعنه الله قال لقوم من المؤمنين: «اكفروا بمحمَّد وعليَّ وِزْرُكُمْ».

﴿وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ﴾ نفس أثقلها حمْلُها نفسًا أخرى، وازرة أو غير وازرة ﴿إِلَىٰ حِمْلِهَا﴾ بأن تحمله عنها كلَّه أو بعضه ﴿لاَ يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ﴾ لا تحملُ منه شيئاً، ومن باب أولى لا تحمل منه شيئاً إن لم تُدعَ إلى الحمل، وأمَّا حملُ الكلِّ ففي قوله: ﴿وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ واندفع التكرار بذلك.

ولا حاجة إلى دفعه بأنَّ الأَوَّل في نفي الإجبار على الحمل والثاني في نفي الحمل اختيارًا، إذ لا دليل على الإجبار إلاَّ ما يتوهَّم من أنَّ المراد لا يحكم الله بحمل الوازرة وزر الأخرى، وأيضا الأَوَّل نزل في اختيار الوليد لمن يدعوه إلى الضلال.

وأيضا مضمون الأَوَّل الدلالة على عدل الله، والثانية أنّه لا مُستغاثَ من هَوْل ذلك اليوم، وإذا قيل: ضرب ضارب زيدًا، فليس هناك إلاّ ضربٌ واحدٌ، والمعنى: ذات حَدَثَ منها ضربٌ.

﴿وَلَوْ كَانَ﴾ أي النفس، وجاز تذكيره لأنَّ المراد الإنسان مثلا، أو الشخص، أو المكَلّف، أو ولو كان الدَّاعي المعلوم من «تَدْعُ» ﴿ذَا قُرْبَىٰ﴾ أي قرابة من المدْعُو، وهذا أولى من أن يقال: ولو كان المدعو ذا قرابة من الداعي، لأنَّ المذكور هو المثقلة، فَرَدُّ الضمير إليها بالمعنى أولى، وهي الداعي، ولا ذِكر للمَدعوة هنا.

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِۦ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾ وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ﴿١٩﴾ وَلَا الظُّلُمَٰتُ وَلَا النُّورُ ﴿٢٠﴾ وَلَا الظِّلُّ وَلَا الْحَرُورُ ﴿٢١﴾ وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلَا الْأَمْوَٰتُ إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَن يَشَاءُ وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِى الْقُبُورِ ﴿٢٢﴾ إِنْ أَنتَ إِلَّا نَذِيرٌ ﴿٢٣﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَٰكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَٰبِ الْمُنِيرِ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٢٦﴾﴾

اختلاف الناس في الاستجابة لدعوة الرسل

﴿إِنَّمَا تُنذِرُ الَذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم﴾ أي يؤثّر إنذارُكَ فيهم لا في سائر من تنذر، فاستعمل السبب في المسبب، وما خرج إلاَّ مَن هو شَقيٌّ، فكلٌّ من أنذر واتَّبعه فهو خاشٍ لربِّه إلاّ إن ختم له بالشقوة، أو أفسَدَ خَشْيَتَهُ بترك إقامة الصلاة مثلا، أو بغير ذلك ﴿بِالْغَيْبِ﴾ حال من الواو،

أي ثابتين في الغيب عن عذاب الله، أو عن الناس، أو من ربِّ، أي غائبًا عنهم لا يرونه، أو غائبا عذابُه إذ لم يحضر.

﴿وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ﴾ راعَوْهَا بشروطها وشطورها، أو رفعوها بذلك، كنار على علم، ولو في الغيب عن الناس.

﴿وَمَن تَزَكَّىٰ﴾ تَطَهَّرَ من الأوْزَار باجتنابها، والخشية، وإقامة الصلاة، والتوبةِ من صغائرها وكبائرها ﴿فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ﴾ لعود نفع تزكِّيه إليه، ومن تَدَنَّسَ فعليه، ﴿وَإِلَى اَللَّهِ﴾ لا إلى غيره، ولا إليه وَإلى غيره ﴿الْمَصِيرُ﴾ الصَّيْرُورة، فيجد عنده لنفسه، أو على نفسه ما قدَّم من خيرٍ أو شرٍّ يُجَازَى به.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الاَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ عطف قِصَّة على أخرى، أو على ﴿وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ...﴾ أي المؤمن و الكافر، وقيل: الصنم والله.

﴿وَلاَ اَلظُّلُمَاتُ﴾ الشرك والمعاصي والباطل، للشبه بالظلمات في التضرُّر بها، وعدم الاهتداء بها إلى النجاة والخير ﴿وَلاَ اَلنُّورُ﴾ التوحيد والطاعات والحقُّ، للشبه بالنُّور في عدم التضرُّر به، وبالاهتداء فيه إلى المقصود.

﴿وَلاَ اَلظِّلُّ﴾ الثواب على الإسلام الجَنَّة وغيرها ﴿وَلاَ اَلْحَرُورُ﴾ العقاب على غيره، النارُ وغيرها، وهو الحرُّ الشديد ليلاً أو نهارًا، أو حرُّ الشمس حال الشدَّة، وقيل الحرور السموم، إلاَّ أنَّ السموم نهارًا والحرور ليلاً ونهارًا، وقيلَ: ليلاً.

﴿وَمَا يَسْتَوِي الاَحْيَآءُ﴾ المؤمنون مطلقا، أو بعد الإشراك ﴿وَلاَ الاَمْوَاتُ﴾ الكُفَّار مطلقًا من أوَّل، أو المرتدُّونَ، أو العلماء والجهلاء.

﴿إِنَّ اَللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَّشَآءُ﴾ إسْمَاعَهُ بالتوفيق إلى الإيمان والعلم والعمل ﴿وَمَآ أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ من قضى الله عليه بالخذلان، فهو كالميِّت في قبره لا تُصَيِّره سامعًا.

(صرف) و«لاَ» في ذلك كلِّه لتأكيد عدم الاستواء وتأكيد التضادِّ، ولو سقطت «لاَ» لأغنى «مَا» الداخلة على «يَسْتَوِي»، كما تقول: ما يستوي الأب والولد والذكر والأنثى والحرُّ والعبد.

وليس المراد: ما يستوي أنواع الظلمات أو أفرادها فيما بينها، وليس المراد: لا يستوي أنواع النور أو أفراده فيما بينها، وهكذا، بل لو أريد لم يلزم التكرار أيضا، مع وجود الدليل.

ولم تذكر «لاَ» مع «الْبَصِير» لأنَّ قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الاَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ﴾ كالتمهيد لقوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الاَحْيَآءُ وَلاَ الاَمْوَاتُ﴾ ولذلك كرَّر ﴿وَمَا يَسْتَوِي﴾ فكأنَّ المقصود بالذات هو قوله: ﴿وَمَا يَسْتَوِي الاَحْيَآءُ وَلاَ الاَمْوَاتُ﴾ وذكرت في التمثيلين بعد «البصير» لأنَّهما مقصودان بالذات، لأنَّهما للحقِّ والباطل، وما يؤدِّيان إليه من الثواب والعقاب.

(بلاغة) وأيضا لم تذكر في «البصير» لأنَّ الشخص يكون بصيرًا ثمَّ يكون أعمى، وليست الظلمة تكون نورًا، وليس النور يكون ظلمةً، وليس الظلُّ يكون حرورًا وليس الحرور يكون ظلاًّ.

وإن قلت: لم كرِّرت في الأحياء والأموات مع أنَّهما كالأعمى والبصير؟ فإنَّ الحيَّ يموت، كالبصير يعمى، قُلتُ: كرِّرت لزيادة المنافاة، فإنَّ الأعمى والبصير يشتركان في الإدراك والأفعال، والأقوال، والاعتقاد، بخلاف الحيِّ وَالمَيِّت. ولا يقال: لم تكرَّر أوَّلاً، لأنَّ المخاطب في أوَّل الكلام لا يُقصِّر في فهم المراد، لأَنَّا نقول: قد يكون له ذهول يناسب التكرار، كما ينادى أوَّلاً ويؤتى له بأداة التنبيه وأداة الاستفتاح إزالةً لذلك الذهول.

(بلاغة) وقيل: كرِّرت في الثاني والثالث لئلاَّ يُتوهَّم أنَّ المراد لا تستوي الظلمات والنور مع الظلِّ والحرور، أو ما يستوي الأعمى والبصير

مع الظلمات والنور. وقدَّم الأعمى لسبق الكفر عند البعثة، ولحدوث البصر الحسِّي، بعد عدمه.

(بلاغة) وقدَّم «الظلمات» لسبق الكفر وحدوث النور الحسيِّ بعدها، وقدَّم «الظل» لتقدُّم الإسلام الفطري، ولأنَّ الحرارة لحادث كالشمس والنار، ولسبق الرحمة، وللفاصلة، وقدَّم «الأحياء» لتقدُّم الإيمان بعد البعثة على الإصرار، ولأنَّ الموت بعد الحياة.

(بلاغة) وجمع الظلمة لتعدُّد فنون الباطل، والنور مُتَّحدٌ. وأفرد «الأعمى والبصير» لإرادة الجنس وهو في المفرد أظهر، وأيضا أفرد «البصير» وأخَّره للفاصلة، ولو قال: وما يستوي العمي والبصراء لم تأت الفاصلة، كما قال الأندلسي[1]: لا سوى ألف معها.

﴿إِنَ اَنتَ إِلاَّ نَذِيرٌ﴾ تخبر الناس عن الله بأحكامه، ووعيده على المخالفة، وليس عليك توفيقهم ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾ حال من الكاف، أي ثابتا بالحقِّ، أو من «نا»، أي ثابتين بِالْحَقِّ، أو متعلِّق بنعت المصدر، أي إرسالاً مصحوبًا بالحقِّ، أو متعلِّق بقوله: ﴿بَشِيرًا﴾ ويقدَّر ضميره لقوله: ﴿وَنَذِيرًا﴾ أي به، لا على التنازع، والأولى: بشيرًا بالجنَّة على الموافقة، ونذيرًا بالنار على المخالفة.

﴿وَإِن مِّنُ امَّةٍ﴾ ما أُمَّة من الأمم الماضية ﴿إِلاَّ خلاَ﴾ مضى ﴿فِيهَا نَذِيرٌ﴾ هو نبيء، أو عالم. وحذف النعت للعلم به، أي نذير بشير، ولإغناء «نَذير» عنه، لأنَّه لا يخلو الإنذار عن خير يبشِّر به من عَمِل بالإنذار.

١-أي ابن عطية، راجع البحر المحيط لأبي حيان، والتعليق على كلام ابن عطية في تفسير الآية، ج٧، ص٣٠٨.

والبشارة المجملة بأن يقال: من فعل كذا فله كذا، لا تختصُّ بالنبيء بل تكون من أتباعه القائلين ذلك عنه، وليس المراد: إنَّك يا فلان من أهل النار، أو من أهل الجنَّة، فضلا عن أن تختصَّ بالأنبياء.

وسلاَّه ﷺ بقوله: ﴿**وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ**﴾ **أي** قومك، وقد جئتهم بالقرآن ﴿**فَقَدْ كَذَّبَ الذينَ مِن قَبْلِهِمْ**﴾ من الأمم الماضية رُسُلهم، فلا تحزن فسيأخذ الله عَزَّوَجَلَّ المُصرِّين على تكذيبهم.

﴿**جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم**﴾ مستأنف، أو حال بتقدير قدْ، لأنَّها فعْليَّة ماضويَّة، متصرِّف فعلها مثبت، وأجيز بلا تقدير لقد ﴿**بِالْبَيِّنَاتِ**﴾ المعجزات الدَّالَّة على صدقهم ﴿**وَبِالزُّبُرِ**﴾ الكتب الصغار كصحف شيت، وصحف إبراهيم، وصحف موسى ﴿**وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ**﴾ جنس الكتاب الكبير، التوراة والزبور والإنجيل.

﴿**ثُمَّ أَخَذتُ الذينَ كَفَرُواْ**﴾ أهلكتهم بالحجارة، أو الصاعقة، أو بالصيحة، أو الخسف، أو الإغراق، وغير ذلك. ولم يقل: ثمَّ أخذهم ليُصرِّح بموجب الأخذ ﴿**فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِي**﴾ تهويل لذلك الأخذ.

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَٰرَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴿٣٠﴾ ﴾

الظواهر العلمية الطبيعية دليل آخر على وحدانيّة الله وقدرته وحال العلماء أمام مشاهد الكون

﴿أَلَمْ تَرَ﴾ ألم تعلم يا من يصلح للعلم، أو ألم تر بعينك أثر الإنزال، كما قال: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً...﴾إلخ مناسب للنكير في العظم، كيف يُعصَى مَنْ عَظُمَ أخذُه ونكيرُه، وقَدَرَ على إنزال الماء، وإخراج الثمرات به؟ ومَنْ خَلْقُه الجبال والناس والدوابُّ والأنعامُ المختلفة في أنفسها ومع غيرها.

(لغة) وهكذا كلّما كانت الرؤية بصريَّة وسلِّطت على ما لا يدرك بالبصر تكون الرؤية مسلَّطة على الأثر، و في سورة أخرى: ﴿فَتُصْبِحُ الأَرْضُ مُخْضَرَّةً﴾ (سورة الحج: ٦٣) بفاء التراخي كَـ«ثُمَّ» مجازًا، أو مجرَّد الترتيب والسَّـببِيَّة، والمعنى: فتصير، وليس المراد ضدَّ الإمساء، وورد مشاهدة إنبات الأرض صُبحا بماء ليله أو أمسه في الحجاز.

والآية أيضا مناسبةٌ في الاختلاف لاختلاف الناس إيمانًا وكفرًا واختلاف تلك المثل، ومقَرِّرَةٌ للوحدانيَّة بأدلّة سماويَّة وأرضيَّة، ومقرِّرةٌ للآيات المعجزات المذكورة.

فكذا في قوله ﷻ : ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا﴾ الفاء للتراخي مجازًا، أو لمجرَّد الترتيب والسَّـببِيَّة. واختلافَ ألوانها اختلافُهَا بالصُّفرة والحمرة والسواد والخضرة وغيرها، كما هو الظاهر المروي عن ابن عبَّاس، المناسب لقوله ﷻ :

﴿وَمِنَ ٱلْجِبَالِ﴾ بخلقه ﷻ ﴿جُدَدُۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ وقوله: ﴿وَغَرَابِيبُ سُودٌ﴾، أو ﴿أَلْوَٰنُهَا﴾: أنواعها تقول لفلان ألوان من العلم، أو الطعام، أو

الكلام، أي أنواع من ذلك، وكلٌّ نوع من الثمرات مختلف في إفراده، أو مختلفٌ مع النوع الآخر طعمًا ورائحة ولذّةً وهيئة، كما قال:

﴿**مُّخْتَلِفٌ اَلْوَانُهَا**﴾ أي أنواعها بالشدَّة والضعف، والقصر والطول، ولا بأس بإدراج نحو الصفرة والحمرة والخضرة، ونحوها مع الأنواع في الموضعين، لأنَّ الصفرة نوع، والحمرة نوع، والكدرة نوع، وهكذا...

والعطف عطف قصَّة على أخرى، وفيه ارتباط بحسب المعنى، وهو أنَّه خلق جبالاً بيضًا وحمرا وسودًا، كما أخرج ثمارًا مختلفة الألوان.

(لغة) و«جدَدٌ» جمع جُدَّة كغرفة وغرف، وهي الطريقة المخالفة لما يليها لونًا، من «جَدَّه» بمعنى قطعه، وفي ذلك مبالغة، إذْ جعل الجبل نفس الجُدَّة حضًّا على التفكُّر في شأنها، أو يقدَّر منعوت ونعت، أي جبال ذوات جدد، أو جبال ذات جدد، أو اعتبر التبعيض في نفس إفراد جبال، فإنَّ الجدَّة بعض من الجبل، وكأنَّه بعض الجبل جدد، وبعض الجبل جدد. و«مُخْتَلِفٌ» نعت لجبال المقدَّر إذا قدَّرناه، أو نعت لـ«حُمْرٌ» باعتبار منعوته، ويقدَّر مثله لـ«بِيضٌ»، أو نعت «جُدَدٌ». و«أَلْوَانُهَا» فاعل «مُخْتَلِفٌ».

﴿**وَغَرَابِيبُ سُودٌ**﴾ نعت توكيد للخاصِّ بالعامِّ، قيل: أو بدل، أو بيان، وهو عطف على «حُمْرٌ»، أو على «بِيضٌ»، باعتبار منعوته، فالغرابيب جددٌ، أو على «جُدَدٌ» فالغرابيب غير جدد، بل نفس الجبال السود.

(لغة) والمفرد «غربيب»، وهو الجبل الشديد السواد، يقال: أسودُ حالكٌ، وأسود غربيب، وأبيض يقَقٌ، وأصفر فاقِعٌ، وأحمر قَانِئ. و لا يلزم أن يكون غربيب نعتا لأسود، بل يجوز استعماله غير نعت، مثل: هذا الجبل غربيب، ولا أن يكون للجبل، بل يستعمل للجبل وغيره، ففي الحديث: «**إنَّ الله يبغض**

الشيخ الغربيب»، أي الذي يخضب بالسَّواد، أو لا يهتمُّ بأمر الدِّين والآخرة، فلم تشب لحيته لتفسُّحه في دُنياه التي قلّ تكدُّرُهَا، وقال شاعر:

العين طامحة واليد شامخــة والرجل لائحة والوجه غربيب

﴿**وَمِنَ اَلنَّاسِ وَالدَّوَآبِّ وَالاَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ اَلْوَانُهُ،**﴾ فريق من كلّ تلك الأنواع مختلف مع الفريق الآخر من النوع الواحد، فمن الناس فريق مختلف مع الفريق منهم، ومن الدوابِّ فريق مختلف مع الفريق الآخر منها، وكذلك الأنعام، وكذلك كلُّ فريق متعدِّد من النوع الواحد، مختلف مع الآخر منه.

وكذا كلُّ نوع مخالف للنوع الآخر كالناس مع الدوابِّ، أو مع الأنعام، وكذا كلُّ فردٍ مع فردٍ من نوع واحد، أو نوعين، أو أنواعٍ، وكلُّ ذلك داخل في الآية. ويجوز إطلاق الفريق على الفرد باعتبار مباينته للفرد الآخر فصاعدًا.

والمراد بالدوابِّ سائر ما يَدِبُّ غير الناس والأنعام من الحيوانات الأنسية والوحشية ﴿**كَذَٰلِكَ**﴾ اختلافًا ثابتًا كذلك الاختلاف المذكور للثمرات والجبال.

﴿**إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ**﴾ خوفَ إجْلَالٍ ﴿**الْعُلَمَآءُ**﴾ قَدَّم لفظ الجلالة ليتسلَّط الحصر على «العلماء»، وهو المراد، أي ما يخشاه إلاَّ العلماء، ولو أُخِّر لكان المعنى لا يخشى العلماء إلاَّ الله، وليس مرادًا، ولو صحَّ في الجملة، كقوله: ﴿وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا الاَّ اللهَ﴾ (سورة الأحزاب: ٣٩)، وساغ حصرها في العلماء لأنَّ المقصود بها الخشية التامَّة.

والمراد بـــ«العلماء»: **العالمون بحقِّ الله، المذعنة له جوارحهم وقلوبُهم لا مطلق علماء** عِلمِ الكلام، وعِلم الفقه، وعلم الآلة. وعن ابن عبَّاس: «العلماء بجبروتي وعزَّتي وسلطاني»، فهم أشدُّ تعظيما له.

وقد قيل: نزلت في الصدِّيق رضي الله عنه ، فنقول بذلك المعنى: كلٌّ من كان أعلم بالله كان أخشى له، كما قال صلى الله عليه وسلم : «**أنا أخشاكم لله وأتقاكم**»[1] وقال موسى عليه السلام : يارب أيُّ عبادك أحكم؟ قال: «الذي يحكم للناس كما يحكم لنفسه»، قال: يارب أيُّ عبادك أغنى؟ قال: «أرضاهم بما قسمت له»، قال: يارب أيُّ عبادك أخشى؟ قال: «أعلمهم بي».

﴿**إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ**﴾ تعليل جمليٌّ للخشية، فهم يخشونه خوفًا من عقابه لعزَّته تعالى، وطمعًا لغفرانه لسعة رحمته. ولو كان الحصر إفْرَاديـــًّا بأن فتحت الهمزة لكان الحصر فيه، أي مَا خَافُوهُ إلاَّ لأنَّه عزيز غفور، و لم تفتح بل كسرت.

﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ**﴾ يكرِّرون تلاوة القرآن، كحصين بن الحارث بن عبد المطلب القريشي، وقد قيل: نزلت فيه، لكن الحكم بعموم اللفظ، كما قيل: المراد أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فيدخل بالأولى، وكما قيل: المؤمنون، فيدخل هو والأصحاب بالأولى.

والمراد: التلاوة المستتبعة بالعمل، كما يدلُّ له ذكر بعض الشرائط بعد، وقد فسِّرت التلاوة بالعمل والاتِّباع، كما يقال: تلوت الشيء، أي تبعته، وقد وَرَدَ: «ربَّ قارئٍ للقرآن والْقُرآنُ يَلْعَنُهُ».

وأجيز أن يفسَّر ﴿كِتَابَ اللَّهِ﴾ بكتبه، فتشمل المتَّقين من الأمم السابقة، فالمضارع للتجدُّد المستمرِّ حكمُه، حتَّى يشمل القرآن وأهلَهُ، أو لحكاية الحال الماضية بحيث يقاس عليها القرآن وأهلُه قياسَ الأعلَى على ما دونه.

١- رواه **البخاري** بلفظ: «...إِنِّي لأَخْشَاكُمْ لِلَّهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، لَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ...»الخ الحديث. كِتَاب النكاح، باب الترغيب في النكاح، رقم ٤٧٧٦، ج٥، ص١٩٤٩.

﴿وَأَقَامُواْ الصَّلَوٰةَ﴾ أتوا بها مستقيمة ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ الرِّزقَ ما انتفع به أحد ولو حرامًا، إلاّ أنّه يعذّب على الحرام.

(فقه) والمراد هنا الحلال، إذ لا يمدحهم الله على إنفاق الحرام، ولا يثيبهم عليه، لأنّ إنفاقه كبيرة كأكله، وكذا كلُّ تصرُّف فيه سواءٌ رَدَّهُ لصاحبه أو وَرَثَتِه، وَحَفِظَهُ بنية الرَّد، أو للفقراء إن لم يجده. وخصَّته المعتزلة بالحلال.

وفي لفظ «من» إشارة إلى أنّهم لم يسرفوا و لم يقتروا، ولا يتصوَّر إسراف في الواجب كالزكاة لأنّها قليل من كثير، ولا في واجب استغرق المال أو كاد، ككفّارات كثيرة لم تبق من المال إلاّ نفقة سنة، فما زاد صامها صومًا.

﴿سِرًّا وَعَلاَنِيَةً﴾ كيفما اتَّفقَ له، من غير قصد إلى سرٍّ أو ظهور، والأولى في الواجب كالزكاة الإظهار، وكَالَمسْنون المؤكّد كصدقة الفطر، إلا لدَاعٍ صحيح، وفي غير ذلك الإسرار، إلاّ لعرض صحيح كنية الاقتداء مع إخلاص، وقد فسَّر بعض السرَّ بغير الفرض، والعلانية بالواجب.

(نحو) والنصب على الْمَفعُوليَّة المطلقة على حذف مضاف، أي إنفاق سرٍّ وعلانية، أو على نزع الجارِّ، أي في سرٍّ وعلانية، أو على الحالية، بمعنى مُسرِّين ومعلنين، أو مصاحبي سرٍّ وعلانية.

﴿يَرْجُونَ﴾ بالتلاوة وإقامة الصلاة والإنفاق، حال من واو «أَنفَقُوا»، ويقدَّر مثله لــ«يَتْلُونَ»، ومثله لــ«أَقَامُوا» لا على التنازع، لأنّ المهمل يضمر له، والحال لا تكون ضميرا، ويقدَّر ما يعمُّ الكلّ، أي يفعلون ذلك يرجون.

(بلاغة) ﴿تِجَارَةً﴾ سمّى فعل ذلك، بل إخلاصه، بل قصد الثواب عليه تجارةً، على طريق الاستعارة التصريحيَّة الأَصلِيَّة، لجامع قصد أن يأخذ أكثر مِمَّا

خرج منه، والقرينة لَفْظِيَّة، وهي التلاوة والإقامة والإنفاق لوجه الله، ليست مِمَّا يباع. ﴿لَّن تَبُورَ﴾ نعت «تجارَةً»، أي لن تضيع بالكساد، فهذا ترشيح للاستعارة، ويجوز أن تكون تمثيلية بأن شبَّه القصد إلى تلك الأعمال وإيقاعها، وقصد الثواب عليها بأكثر، بالقصد إلى نحو سلعة وشرائها والمبايعة به، وقصد الربح الزائد عَمَّا اشتراها به.

(نحو) وخبر «إنَّ» محذوف، أي لهم ما رجوا، ويقدَّر هذا الخبر قبل ﴿إِنَّهُ، غَفُورٌ شَكُورٌ﴾، أو الخبر: ﴿إِنَّهُ، غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ والرابط محذوف، أي غفورٌ لذنوبهم، شكور لتلك الأفعال منهم، أو الخبر «يَرْجُونَ» على طريق المدح لا على طريق الإخبار بالثواب، وهو مدح يتضمَّن الثواب، وهو كالحجَّة للثواب. وفسَّر بعضٌ التجارة بتحصيل الثواب، وبعضٌ بالجنَّة، وبـ«لَن تَبُورَ» بلن تنقطع.

﴿لِيُوَفِّـيَهُمْ، أُجُورَهُمْ﴾ مُتَعَلِّق بـ«يَرْجُونَ» على أنَّ اللام للعاقبة، ويجوز أن تكون للتعليل، أي قصدوا بإيقاع الرجاء توفية الأجور، فقد رجوا لتحصل، ولو لم يرجوا لم تحصل، أو متعلِّق بـ«لن» لتضمُّنه مع مدخوله معنى لينتفي البوار، أو يقدَّر: ينتفي البوار ليوفِّيهم، أو متعلِّق بـ«يَتْلُونَ» أو «أَقَامُوا» أو «أَنفَقُوا» على التنازع، أو بمحذوف أي فعلوا ذلك ليوفِّيهم أجورهم.

﴿وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ﴾ يزيدهم تشفيعهم فيمن أحسن إليهم، وتضعيف الحسنات والدرجات، وانشراح القلوب. ويجوز عود «مِن فَضْلِهِ» إلى «يُوَفِّي» وإلى «يَزِيدَ» على التنازع، فيكون تنبيهًا على أنَّ كلَّ ما عمل من الخير لا يوفِّي حقَّ الله، فكلُّ ما أعطاه فضلٌ. والمتبادر عوده إلى «يَزِيدَ» بناء على ما عوَّدنا الله أنَّ توفية الأجور كالواجب، ولا واجب على الله عَزَّ وَجَلَّ. ﴿إِنَّهُ، غَفُورٌ﴾ للذنوب ﴿شَكُورٌ﴾ للحسنات.

﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ ۝٣١ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ۝٣٢ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ۝٣٣ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ ۝٣٤ الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ۝٣٥﴾

وحدة الرسالة السماوية وأحوال المؤمنين بها

﴿وَالذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ منَ اَلْكتَاب﴾ من القرآن. و«مِنْ» للبيان، والقرآن ولو لم يكمل نزوله عند هذه الآية لكن كأنّه قد كمل، لتحقّق الوقوع، وللشروع في إنزاله، كالشيء الطويل طرفه عندك. أو للتبعيض، أي والبعض الذي أنزلناه من جملة القرآن. أو ﴿الْكتَاب﴾ الجنس و«مِنْ» للتبعيض، لأنّ القرآن المعبَّر عنه بـ«الذي أَوْحَيْنَا» بعض كتب الله، أو ﴿الْكتَاب﴾: اللوح المحفوظ، فـ«مِنْ» للابتداء.

﴿هُوَ اَلْحَقُّ﴾ لا ما يقوله أهل الكتاب، فإنّه غير حقّ، لأنّه كذب، والحصر إضافيٌّ، أي لا حقَّ إلاّ هوَ، أي القرآن بالإضافة إلى كذبهم لا مطلقا، لأنّ كتب الله كلّها حقٌّ.

﴿مُصَدِّقًا﴾ حال مؤكّدة لغيره، وهو الجملة قبله، نحو: ابني أنت حقًّا، وعامله محذوف، أي أحقّقه مصدِّقا ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْه﴾ من كتب الله، لتقدُّمها، كالشيء الموجود بين يديه. و«مَا» مفعول به لـ«مُصَدِّقًا» قرن بلام التقوية لضعف في عمل الوصف.

﴿إِنَّ اللَّهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ﴾ الباء متعلِّقٌ بـ«خَبيرٌ»، أو «بَصيرٌ» ويقدَّر مثله للآخر، ولا صدر للاَّم في خبر «إنَّ»، وإن كان لها فالظرف يتوسَّع فيه، أي ﴿لَخَبيرٌ﴾: بما في القلوب، ﴿بَصيرٌ﴾: أي عالم بما هو خارج عنها. وقدَّم الأَوَّل لأنَّ المعتبر ما في القلب، قال ﷺ : « **إنَّ الله لا ينظر إلى صوركم ولكن ينظر إلى ما في قلوبكم**»[1].

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا﴾ أعطينا بسهولة ﴿الْكِتَابَ﴾ القرآن، عطف على قوله: ﴿الذي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ...﴾ عطف فعْلِيَّة على اسْمِيَّة، ولو عطفناها على «أَوْحَيْنَا» لتوافَقَتَا فعْلِيَّة، وصحَّ على وضع «الكتاب» موضع الضمير، لكن فيه الإخبار قبل العطف، أو الكتاب القرآن وغيره، والجمهور على الأوَّل وهو الصحيح.

و«ثُمَّ» للتراخي الرُّتبي لأنَّ عنوان الإيراث أفضلُ من الايحاء لأنَّ فيه إيحاءً وَكَيفيَّة تمليك عظيمةً، وعَكَسَ بعضٌ فيكون التراخي لما دون الأوَّل وإنْ فَسَّرنَا الإيراث بالحكم بالإرث فالتراخي إلى ما فَوْقَ، على أنَّ الحكم أفضلُ من الإيقاع، وقد يُعكَسُ بأنَّ في الإيقاع حكمًا ووقوعًا، ويحصل تراخي الرتبة بكون الكتاب هو القرآن.

ويجوز الترتيب بالإخبار وبالزمان، باعتبار أنَّ تَلَقِّيَ الأمَّة القرآن والعملَ به بعدَ الوحي لا مَعَهُ ولا قَبْلَهُ، ولا يخفى تراخي الزمان باعتبار الأمم السابقة.

﴿الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ هم هذه الأمَّة أمَّة الإجابة على الأَوَّل الصحيح، وهو أنَّ الكتابَ القرآن، أو المتَّقون مطلقا على الثاني، وهوَ أنَّ الكتاب

١- رواه **مسلم** في كتاب البر والصلة (١٠) باب تحريم ظلم المسلم وخذله... رقم٣٣ و٣٤. **وابن ماجه** في كتاب الزهد (٩) باب القناعة، رقم ٤٢١٨، من حديث أبي هريرة.

القرآن وغيرَه، اصطفى الله ﷻ هذه الأمَّة، جعلهم أمَّةً وسطًا ليكونوا شهداء على الناس، وخصَّهم بالانتساب إلى أفضل الأنبياء.

وقيل: الذين اصطفينا علماء الأمَّة الصحابة ومن بعدهم، اصطَفاهُم بالوقوف على حقائقه، ودقائقه، والأمانة عليه، وزعمت الشيعة أنَّهم آل البيت، والصحيح **أنَّهم الأمَّة**، أو علماؤها، فيدخل متَّقوا آل البيت أوَّلاً.

وقيل: المراد الأنبياء، و«الكتاب» الجنس، وقيل: المذكورون في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ﴾ (سورة آل عمران: ٣٣) وليس كذلك، و«مِنْ» للتبعيض لا للبيان، وليست الإضافة للتشريف، لأنَّ المراد مطلق العباد، و«الذينَ» مفعول أوَّل لأنَّه الفاعل في المعنى، أي جعلناهم وارثين الكتاب، وقدَّم الثاني لشرفه.

ولا مانع من أن يراد بـ﴿الذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ **هذه الأُمَّة مؤمنها وكافرها، وضيَّع الكافر هذا الاصطفاء،** فتكون هاءات منهم في قوله ﷻ : **﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾** لجملة العباد، أو واو «يَدْخُلُونَهَا» للمقتصد والسابق.

ولا نصيب **للظالم في الجنَّة إن لم يتب،** كما فسَّر ابن عبَّاس الآية به. ولا يخفى أنَّه يبعد تفسير «عباد» بمؤمني هذه الأُمَّة، و﴿الذِينَ اصْطَفَيْنَا﴾ بعلمائها وأنَّ الإضافة للتشريف، إذْ لا عهد يدلُّ أنَّ العباد مؤمنوها.

قلت: ولا مانع من أن يراد بالظالم لنفسه المسرف في المعاصي، ولو بالإشراك، لكن مات تائبًا لو عند قرب موته جدًّا، ما لم يره، كما قال الله ﷻ : ﴿ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ ﴾ (سورة يونس: ٩٨) . وأنت خبير بأنَّه تكون درجة المسرف في طول عمره دون درجة المقتصد والسابق، إلاَّ أنَّ لله أن يفعل ما يشاء لزيادة فضله، ولاطِّلاعه على شأنه في توبته، ولا سيما من أسرف ثمَّ أقلع، وبالغَ في الاجتهاد بَقِيَّة عمره، فربَّما التحق بالمقتصد أو السابق، والعلم عند الله الرحمن الرحيم.

وقد تكون الهاءات لـ«الذينَ اصْطَفَيْنَا»، على أنّ الاصطفاء بالإسعاد، فيدخل الظالم التائب في «الذينَ اصْطَفَيْنا»، **والظالم لنفسه شامل لمن ظلم غيره، لأنّ ظلمه لغيره ظالم به نفسه، وحسناته قليلة وسيِّئاته كثيرة، ومنها أن لا يبالي من أين رزقُه، وكثرة الاهتمام بالدنيا، وترك النهي عن المنكر والجهل.**

﴿**وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ**﴾ يكثر السَّيِّـئَـات والحسنات ولا يُصِرُّ، ومن أذنب ولم يقصد أن لا يتوب وغفل أو نسي فالتحقيق أنّه ليس مُصرًّا، ولا سيما أنّه يستغفر من الذنوب إجمالاً، وقيل: متّقي الكبائر، ولو مات على صغيرة إن لم يقصد الإصرار.

﴿**وَمِنْهُمْ سَابِقٌۢ بِالْخَيْرَٰتِ**﴾ بالأعمال الصالحات، يسبق الظالم والمقتصد بسببها في الدرجات، قَلَّت سيِّئاته وكثرت حسناته.

ولا يصحُّ تفسير الظالم بطالب النجاة، والسابق بطالب المناجاة، فيبقى للمقتصد طلب الدرجات، كيف يقال لطالب النجاة ظالم؟ ولا دليل على طلب المناجاة.

ولا يصحُّ تفسيره بتارك الزلّة، والمقتصد بتارك الغفلة، والسابق بتارك العلاقة، لأنّ في الأخيرين تشديدًا لا دليل عليه، وفي الأوّل الهجوم باسم الظلم تشديدًا أيضا دون استحقاق.

ولا يصحُّ بساكن البادية والحاضرة والمجاهد، إذ ليس كلُّ ساكن البادية جاهلاً أو عاصيًا.

[قلت:] ولا يفسَّر القرآن بالنظر إلى الغالب، ولا يحسن التفسير بأشخاص كفلان وفلان، ولا بأنواع متشخّصة، كمن أسلم بعد الفتح، ومن أسلم قبله، ومن أسلم قبل الهجرة، بل يحسن التعميم في الكلّ، مع أنّ

في كلِّ واحد من الثلاثة: طالب النجاة...الخ وتارك الزلّة...الخ وساكن البادية...الخ مراتب.

وعن ابن عبَّاس: السابق المؤمن المخلص، والمقتصد المرائي، والظالم كافر النعمة غير الجاحد لها، ففي كلامه إثبات اسم الكفر لكفر النعمة، ومراده بالمرآئي التائب من الرياء، أو من لم يخلص رياؤه، ففي بعض الآثار أنَّه من لم يتمحَّض رياؤه بَلْ لَهُ معه قصدٌ من قلبه إلى الله تعالى يثاب على ذلك.

وقيل: الظالم أصحاب الكبائر، والمقتصد أصحاب الصغائر، والسابق من لا كبيرة ولا صغيرة، وقيل: الظالم الجاهل، والمقتصد المتعلِّم، والسابق العالم، وقيل: الظالم مَن ظاهره خير من باطنه، والمقتصد من استويا منه، والسابق من باطنه خير من ظاهره.

﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾ بتيسيره، عائد إلى «سابق»، فلا يعجب بنفسه، فإنَّ الله الرحمن الرحيم هوالذي أنعم عليه بالتيسير. وقدَّم الظالم لكثرته، ولأنَّ الاقتصاد بعد التوبة من الظلم ومَعَهُ ولئلاَّ ييأس، ولأنَّ مبدأ المكلَّف القصور، وتلويحًا بأنَّـــهُ لا يتقرَّب إليه إلاَّ بكرمه، ولأنَّ أوَّل ما يدخل عليه التوبة والاصطفاء، وبعده المقتصد لقلَّته بالنسبة إلى الظالم، ولأنَّ توبته بعد معصية الظلم، فذلك معصية، وتوبة من المقتصد وقربة من السابق.

(بلاغة) وأخَّر السَابق لِئَلاَّ يعجب، فلم يبق للمتقصد إلاَّ التوسُّط، إذ قدَّم الظالم لِئَلاَّ يَيْأس مثلا، أو أخَّر السابق ليتَّصل بقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾ فهو يدخلها أيضا قبلُ، ويليه في الدخول المقتصد، فتلاه في الذكر، فهو يدخل تاليًّا للسابق، فاتَّصل به، والظالم بعدهما، فـــأخِّر عن ذكر الجنَّة بالفصل بهما. وأيضا وسَّط المقتصد بينهما في الذكر، كما توسَّط في الدخول.

قيل: لو قدَّم «سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ» على «ظَالِمٌ»، أو «مُقْتَصِدٌ» لحصل الفصل بقوله: ﴿بِإِذْنِ اللهِ﴾، قلت: لا ضير.

﴿**ذَلِكَ**﴾ ما ذكر من الإيراث والاصطفاء ﴿**هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ**﴾ من الله ﷻ لا كسب فيه، وجملة قوله: «ذَلِكَ هُوَ...» مستأنفة، وكذا قوله: ﴿**جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا**﴾ والواو للأقسام الثلاثة، بشرط التوبة كما مرَّ. قرأ رسول الله ﷺ الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الذينَ... سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ وقال: «**هؤلاء كلُّهم بمترلة واحدة، وكلُّهم في الجَنَّة**» يعني بمترلة واحدة في رضى الله، أو قوله: «**وكلُّهم في الجَنَّة**» تفسير لقوله: «بمترلة واحدة» والمراتب تختلف.

وفي الطبراني عن أسامة بن زيد عنه ﷺ: «**كلُّهم من هذه الأُمَّة، وكلُّهم في الجَنَّة**»[1]. وعن أنس وعمر عنه ﷺ: «**إنَّ سابقنا سابق، ومقتصدنا ناج، وظالمنا مغفور له**»[2].

وفي الطبري والطبراني والبيهقي عنه ﷺ: «**السابق يدخل الجنَّة بغير حساب، والمقتصد يحاسب حسابا يسيرا، والظالم يحبس على طول المحشر، ويشتدُّ حزنه، ثمَّ يتلقَّاه الله برحمته**»[3]، وهو الذي يقول: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾.

١- رواه **الترمذي** في كتاب التفسير (٣٦) باب ومن تفسير سورة الملائكة، رقم ٣٢٢٥. **والسيوطي** في الدر: ج٥، ص٢٧٣، من حديث أبي هريرة.

٢- أورده **العقيلي** في الضعفاء: ج٣، ص٤٤٣. **والهندي** في الكتر، ج٢، ص١٠، رقم ٢٩٢٥، من حديث عمر.

٣- أورده **السيوطي** في الدر: ج٥، ص٢٧٤، من حديث حذيفة، وقال: أخرجه الديلمي وابن مردويه.

وفي البيهقي عن البراء أنَّه قرأ الآية فقال: «أشهد على الله تعالى أنَّه يدخلهم الجنَّة جميعًا». وعن كعب الأحبار أنَّه قرأ إلى ﴿لُغُوب﴾ فقال: «دخلوها كلُّهم وربِّ الكعبة» ألا ترى إلى قوله تعالى على إثره: ﴿وَالذينَ كَفَرُواْ لَهُم نَارُ جَهَنَّمَ﴾؟. ولا تتوهَّم أنَّ الموحِّد من أهل الجَنــَّة ولو أصَرَّ، بل إن تاب.

﴿يُحَلَّوْنَ فيهَا منَ اَسَاورَ من ذَهَب وَلُؤْلُؤًا﴾ خبر ثان لـــ«جَنَّاتُ»، أو حال من واو «يَدْخُلُونَهَا» مقدَّرة، لأنَّ التحلية بعد الدخول لا مع الدخول.

(صرف) و«أَسَاوِر» جمع الجمع وهو «أسْورة» الذي هو جمع «سِوار» (بالكسر أو الضمِّ) لا جمع المفرد، وإلاَّ قيل: أساوير (بالياء)، أو يحتاج إلى دعوى حذفها، و«من» للتبعيض، ولأنَّ «فعالاً» (بفتح أو كسر أو ضمٍّ) يجمع على «فعائل»، لا على «أفاعل»، وهي بعض ما خلق الله من الأساور، على جواز زيادة «مِن» في الإثبات، ومع المعرفة يكون مفعولا ثانيا، بمعنى: يُلْبَسُون أساور بالبناء للمفعول من الإلباس.

ويجوز أنَّها للبيان لمحذوف، أي يحلَّون فيها زخارفَ أو حليًّا من أساور، كما أنَّها بيانيَّة في قوله ﷻ : ﴿مِن ذَهَبٍ﴾ لـــ«أَسَاوِرَ»، أو تبعيض من جملة ما خلق الله من الذهب.

ونصب «لُؤْلؤًا» عطفا على محلِّ «أَسَاوِرَ» إذا قيل بزيادة «مِنْ»، أو بمحذوف، أي يحلون لؤلؤًا، أو عطفا على المبهم المحذوف. وفي البيهقي والترمذي عن أبي سعيد الخدري، أنَّ رسول الله ﷺ تلا الآية فقال: «**إنَّ عليهم التيجان، إنَّ أدنى لؤلؤة منهم لتضيء ما بين المشرق والمغرب**»[1].

١- رواه **الحاكم** في كتاب التفسير (٣٥) باب تفسير سورة الملائكة، رقم ٧٣١/٣٥٩٤. وأورده **السيوطي** في الدر: ج٥، ص٢٧٤. من حديث أبي سعيد الخدري. وقال: أخرجه الترمذي والحاكم وصحَّحه والبيهقي في البعث.

﴿وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا﴾ متعلّق بـ«لِبَاس»، بمعنى ملبوس ﴿حَرِيرٌ﴾ خالص، وفسَّره بعض بما رَقَّ من الثياب. والجملة الاسميَّة المخالفة للفعليَّة التي قبلها للدلالة على أنَّ الحرير ثيابهم المعتادة، ولأنَّ اللباس معلوم أنَّه لا بدَّ منه، وإنَّما يسأل عنه لو سئل عنه ما هو؟ فقيل: إنَّه حرير، فلذلك وللفاصلة لم يقل: ويلبسون حريرًا.

﴿وَقَالُواْ﴾ ويقولونَ، لَكنَّ الماضي لتحقُّق الوقوع، ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الذِي أَذْهَبَ عَنَّا اَلْحَزَنَ﴾ حزن تقلُّب القلب، وخوف العاقبة، وحزن هول البعث والموقف، وحزن النار، وحزن الخروج، وحزن أن لا يقبل عمل، وحزن خوف الشيطان، وحزن معيشة الدنيا كالكسب، وكراء الدار، وحزن الآفات والمصائب، وكلّ مكروه.

﴿إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ﴾ للذنوب ولو عظامًا ﴿شَكُورٌ﴾ للطاعات ولو قليلة ﴿الذِي أَحَلَّنَا﴾ جعلنا حالِّين، أي نازلين ﴿دَارَ اَلْمُقَامَةِ﴾ أي الإقامة الدائمة، وهو مصدر ميميٌّ من الرباعي بالزيادة، وزيدت فيه التاء ﴿مِن فَضْلِهِ﴾ المحض الخالص، لا نستحقُّ منه شيئًا بأعمالنا، ولو شرطها الله عَزَّ وَجَلَّ علينا، وجعلها كصورة سَبَب، وجعل الجنَّة كأُجرة عمل، وذلك الجعل فضل منه.

[قلت:] ولا يدخلون الجنَّة حتَّى يُبَيِّنَ لهم الله أنَّ أعمالهم كلّها لم تف بحقِّه، ويتحقَّقون ذلك، ولو لم يستشعروا ذلك لبان لهم أنَّ النعيم الدائم العظيم لا يكون أجرة لعملهم القليل المنقطع. و«من» متعلّق بـ«أَحَلّ»، أو بمحذوف حال من «دَارَ».

﴿لاَ يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ﴾ أي لا ينالنا فيها تعب مطلقا، وقيل: تعب الجسم، كما لا يمسُّنا فيها تعب القلب، أي لا نصب فيها فضلاً عن أن يمسَّنا، والجملة حال مقارنة من دار مُتَّصِفة بأنَّها لا يَمَسُّنا فيها نصبٌ، أو مقدَّرة من «نا».

﴿وَلاَ يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ﴾ كَلاَلٌ وفُتُور، وقيل: تعب القلب، وعلى كلٍّ هو متولّد من النصب، أي لا لغوب فيها فضلا عن أن ينالنَا، وأعاد «لاَ يَمَسُّنا» مبالغة في النفي.

﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ ﴿٣٦﴾ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ ﴿٣٧﴾ إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿٣٨﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا ﴿٣٩﴾﴾

جزاء الكافرين وأحوالهم في النار وعلم الله المحيط بكلّ شيء

﴿وَالذينَ كَفَرُواْ لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لاَ يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ لا يُقتلون، يقال: قضى عليه بمعنى قتله، أو لا يُحكم عليهم بالموت. و«عَلَى» بمعنى اللام، أو على ظاهرها من الإيقاع على الشيء، أو باعتبار الأصل في الموت بأنَّه مكروه، كأنَّه قيل: لا يقضى عليهم بالموت الذي كرهوه في الدنيا، وأمَّا في النار فهو أحَبُّ شيء إليهم. والجملة حال من هاء «لَهُمْ»، أو من «نَارُ» لكن على تقدير الرابط، أي لا يقضى فيها عليهم ﴿فَيَمُوتُواْ﴾ يستريحوا ﴿وَلاَ يُخَفَّفُ عَنْهُم مِّنْ عَذَابِهَا﴾ من عذاب النار المعهود لهم ﴿كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا﴾ (سورة الإسراء: ٩٧) ، وانتقالهم إلى الزمهرير أيضا ليس تخفيفًا من عذاب النار، فإنَّه أشدُّ، أو مثلها، وإن رُدَّ الضمير إلى جهنَّم لا إلى النار فالزمهرير أيضا من جهنَّم، ولو لم يكن من نارها، فإنَّها دار

واحدة تشتمل على النار والزمهرير. ونائب الفاعل «عَنْهُمْ» لقربه، أو «مِنْ عَذَابِهَا» لأنَّه العمدة في المقام.

﴿كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ مبالغ في الكفر، وكلُّ كافر يدخلها، وصيغة المبالغة لأنَّ الكلام مع المبالغين فيه، ولا حصر في الآية، ﴿وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا﴾ «يفتعل» من الصراخ، أبدلت تاؤه طاءً للصاد قبلها، وهو شِدَّة الصياح، والمعنى: يستغيثون بصوت هائل من جهنَّم إلى الله عزَّ وجلَّ بدليل قوله تعالى:

﴿رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا﴾ منها إلى الدنيا ﴿نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ اَلذِي كُنَّا نَعْمَلُ﴾ هذه الجمل محكيَّة بـ«يَصْطَرِخُ» لتضمُّنه معنى القول، ولا مانع من إرادة اصطراخ بعض إلى بعض، مستغيثين بالله، وأمَّا استغاثة بعض ببعض فبعيدة، ولو أمكنت بالتحيُّر. ويجوز تقدير قول معطوف، أي ويقولون: ربَّنا، أو قول حال، أي يقولون، أو قائلين: ربَّنا.

(نحو) و«صَالِحًا» مفعول لـ«نَعْمَلْ»، أي لنُوقعَ عملاً صالحًا، أو مفعول مطلق، أي لنعملَ عملا صالحا. و«غَيْرَ» نعت مُؤكِّد، فإنَّ الذي كانوا يعملون غير صالح، أو نعت مُؤَسِّس، أي صالحا غير الصالح الذي كان صالحًا في زعمنا.

والمراد نوحِّدك ونؤمن بنبيئك ونعمل بما جاءنا به. ويجابون بعد مقدار عمر الدنيا، وقيل: بعد خمس مائة عام بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُواْ فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِن نَّصِيرٍ﴾ أي ثمَّ نقول لهم، أو فيقال لهم: «أَوَلَمْ...»، أو يقدَّر القول بلا عطف، على أنَّه جواب سؤال كأنَّه قيل: فبم يجابون؟ فقيل: نقول لهم، أو يقال لهم: «أَوَ لَمْ نُعَمِّرْكُم» وعلى طريقة الحذف يقدَّر: أعَاجَلْنَاكُمْ و لم نعمِّركم؟. والهمزة للإنكار و«مَا» اسمٌ واقعٌ على التعمير، أو الزمان معرفة، أو نكرة، أي أو لم نعمِّركم التعمير الذي يتذكَّر فيه من

تذكّر، أو تعميرًا يتذكّر فيه...إلخ، أو المقدار الذي يتذكّر فيه، أو مقدارًا يتذكّر فيه...إلخ فإذا وقعت على التعمير فمفعول مطلق، أو على المقدار من الزمان فظرف، أي أو لم نبقكم فيه.

وذلك يحصل بالبلوغ، والمراهقة قبله، وقد فسَّره بعض بزمانها، وعن الحسن: سنُّ البلوغ، إذ قد يتذكّر قبل المراهقة.

وَأَمَّا رواية البخاري والنسائي عن سهل بن سعد مرفوعا وعن ابن عبَّاس موقوفا: «إنَّه ستّــونَ سنة»، وما روي عنه موقوفا أيضا: «ستٌّ وأربعون»، وما روي عن الحسن: «أربعون»، وما قيل: «سبع عشرة»، وما قيل: «ثمان عشرة»، وما قيل عن عمر بن عبد العزيز: «عشرون»، وما روي عن مجاهد: «ما بين العشرين إلى الستّين» فتمثيل.

ويحتمل أنَّ تلك المقادير وعظَ بها أشخاصٌ تمّت لهم.

إلاَّ الرواية عن مجاهد توهَّم رواتُهن أنَّها الحدُّ، وأنَّه عُذرَ مَنْ دون تلك المدد، ولا قائل بعذره إلاَّ في الوجهين الأوَّلين، فإنَّه يعذر من لم يبلغ إجماعًا، أو يقال: يختصُّ بهذا التعنيف من بلغ تلك المُدَد، ومن لم يبلغها ودخل النار لم يُعَنَّف بذلك. ومعنى «تَذَكَّرَ» أراد التذكّر.

(نحو) وجملة «جَاءَكُمُ النَّذِيرُ» معطوفة على الجملة قبلها التي لفظها إنشاء، ومعناها إخبار، أي عمَّرناكم وجاءكم النذير، وقد يتسلَّط الاستفهام على «جَاءَكُمْ» كذا قيل، وفيه أنَّه للإنكار، و«في» جاء للتقرير، فلا تستعمل الهمزة في معنيين، إلاَّ عند مجيز استعمال الكلمة في معنيين مجازين، أو حقيقين، أو أحدهما حقيق، ولا يجوز نفي الماضي بعطفه على مضارع منفي.

و«النذير» رسول الله ﷺ والآيات في أمَّته، وعلى العموم النذير نبيء كلّ أمَّة، أو نائبه من العلماء، وعن ابن عبَّاس وغيره: الشَّيبُ، وفي الأثر ما تبيَضُّ

شعرة إلاَّ قالت لأختها: «استَعدِّي فقد قرب الموت»، وقيل: الحُمَّى فإنَّها نذير من النار، وقيل: موت الأهل والأقارب، وقيل: كمال العقل.

[قلت:] وهذه أقوال لا يحسن التفسير بها إذ لا دليل عليها، ولأنَّها لا تطَّرِدُ في الناس، والأصل التعميمُ، ولأنَّها تخالف الإنذار في سائر القرآن.

والفاء الأخيرة تعليل. والأصل: فذوقوا العذاب لأنَّه ما لكم من نصير، فَذَكَرَهُم باسم الظلم الموجب للذوق.

﴿إِنَّ اَللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضِ﴾ الأرضين ما غاب عنكم عليها، أو تحتها، أو داخلها، من أجزائها وغيرها. وذِكْرُ ذلك تمثيلٌ لعموم عِلْمه بنفسه وَلِكُلٍّ ما سواه، كالعرش والكرسيِّ فهو الذي اقتضت حكمته وعلمُه خلودَكم، ولو قُلْتَ: أعمارَكُم في المعصية، وقد علم أنَّكم لو رجعتم إلى الدنيا لكفرتم، وأنَّكم لو خلدتم في الدنيا لم تؤمنوا، وهو عالم بأحوال قلوبكم، والأصل: غائب السماوات، أو ذا غيب السماوات.

﴿إِنَّهُ، عَلِيمُۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ بكلمة في القلب، وهي أخفى مِمَّا ذكر، لأنَّ ما ذكر لو حُفِرَ إليه، أو طُلِعَ إليه لأُدْرِكَ، نَعَمْ يُساويه ما تضمَّنته تلك الأشياء من مصالح، وما يتولَّد منها.

﴿هُوَ اَلذِي جَعَلَكُمْ خَلَآئِفَ فِي الاَرْضِ﴾ عمَّن قبلكم، تتصرَّفون فيها تصرُّف الوارث فيما وَرِث، وتكلَّفون كما كُلِّفُوا لتشكروه بالتوحيد والعبادة، ولا تكفروا كما كفروا وأهلكوا فتهلكوا كما هلكوا إن لم تتَّعظوا بهم، والخطاب عامٌّ، أو لأهلِ مكَّة.

﴿فَمَن كَفَرَ﴾ ابتداءً، أو ارْتدادًا، أو استمرَّ على الشرك ﴿فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ،﴾ وبالُ كفره لا على غيره ﴿وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمُۥ﴾ متعلِّقٌ

بـــ«يَزِيدُ» ﴿إِلاَّ مَقْتًا﴾ أشدَّ البغض، وبغضُه تعالى عقابُه، وهو متنزّهٌ عن حقيقة البغض، لأنّه تألُّمٌ في القلب وضيْقُهُ بشيء، فَعَبَّر بالملزوم والسَّبب عن اللازم والمسبَّبِ، فالجملة بَيانٌ لوَبَالِ كُفره المذكور.

وَكرَّرَ في قوله: ﴿وَلاَ يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ، إِلاَّ خَسَارًا﴾ في الآخرة للتأكيد وزيادة التقرير، وإشارة بأنّه لو لم يكن إلاَّ المقت على الكفر لظهر للمُتَدَبِّر تركُه، ولو لم يكن إلاَّ الخَسَارُ بكُفرهِ لاختَارَ تركَهُ، والخسارُ زيادة العذاب، أو جزاء تضييع أبدانهم، وأموالهم، وعقولهم عن العمل بما ينفعهم في الآخرة.

﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا فَهُمْ عَلَىٰ بَيِّنَتٍ مِّنْهُ بَلْ إِن يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا ﴿٤٠﴾ إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَن تَزُولَا وَلَئِن زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِّن بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤١﴾﴾

مناقشة المشركين في ضلالهم

﴿قُلْ﴾ يا محمَّد لقومك تَبْكيتًا لهم ﴿أَرَآيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ من تُسَمُّونَهُم شركاء لله، ولكون التسمية منهم أضاف الشركاء إليهم، ولاعتقادهم أنّهم شركاء له تعالى، أو هُم شركاؤهم تحقيقًا عندهم، لأنّهم أشركوهم في أموالهم، لكن لم يشعروا بتلك الشركة البتة، ولا قَبلوهَا لأنّهم جمادٌ ولا أنكروها، أو أضافهم إليهم لأنّهم شركاؤهم في النار، ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ من دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ﴾ (سورةالأنبياء: ٩٨) ولأنَّ من عَبَد صَنَمًا قُرِنَ به في النار، والسياق واللحاق يدلاّن للأوَّل.

﴿الذينَ تَدْعُونَ﴾ تعبدون من دون الله، أو تسألونَهم حوائجكم، والأوَّل أولى ﴿مِن دُون الله﴾ غير الله، أو معه ﴿أَرُونِي مَاذَا خَلَقُواْ مِنَ الاَرْضِ﴾ بدل اشتمال من ﴿اَرَآيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ لأنَّ معنى ﴿اَرَآيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ تأمَّلوا فيهم، وأخبروني عن شأنهم، وبين التأمُّل فيهم وبين انتفاء خلقهم شيئًا ملابسةٌ بغير الجزئيَّة والكليَّة، فهو بدل اشتمال.

(بلاغة) والاستفهام غَيرُ حَقيق، ويجوز أن يكون كالحقيق، أي أعلمتم ما هذه الأصنام، وعلمتم عجزها ؟. وجملة «مَاذَا...» سدَّت مسَدَّ مفعولي الإراءة الثاني، والثالث معلّقًا عنها.

﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ بل ألهم شركة مع الله في تملُّكه السماوات؟ أو في خلقه لهنَّ، أو تصرُّفه فيهِنَّ، فتعبدوهم كما يعبد الله.

﴿أَمَ ـــ اتَيْنَاهُمْ﴾ أي المشركين ﴿كِتَابًا﴾ بل أآتيناهم كتابًا فيه أنَّهم آلهة مع الله ﴿فَهُمْ﴾ أي المشركون ﴿عَلَىٰ بَـيِّـنَاتٍ مِّنْهُ﴾ حجَّاتٍ ظاهراتٍ من ذلك الكتاب بأنَّهم شركاؤنا في الأُلوهيَّة.

(بلاغة) ومقتضى الظاهر: أم آتيناكم كتابًا فأنتم على بيِّنات منه؟ فجعل الغيبة بدل الخطاب المتقدِّم في ﴿اَرَآيْتُمْ شُرَكَآءَكُمُ﴾ و﴿تَدْعُونَ﴾ و﴿أَرُونِي﴾، وقيل: الضميران للشركاء فليس الكلام على طريق الالتفات، وقيل: هاء «آتَيْنَاهُمْ» للشركاء، وهاء «فَهُمْ» للمشركين، بمعنى أم آتينا الشُّركاء كتابًا فَعَابِدُوهَا على بيِّـنَات؟ كأنَّه قيل: فمن عبدها على بيِّنات؟ فليس من طريق الالتفات. وجَمَعَ البيِّنة لأنَّ الشرك لا يثبت لو كان يثبت إلاَّ بحجج كثيرة لظهور قبحه.

﴿بَلِ انْ يَّعِدُ اَلظَّالِمُونَ بَعْضُهُم بَعْضًا﴾ في الدعاء إلى الشرك ﴿إِلاَّ غُرُورًا﴾ هو شفاعة الأصنام لعبادها عند الله ﷻ ، وقيل: الآية في عبدة غير الله صنما، أو ملكًا، أو قمرًا، أو شمسًا، أو نجمًا، أو شيطانًا.

﴿إِنَّ اَللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالاَرْضَ أَن تَزُولاَ﴾ يمنعهما عن أو من أن تزولا، قيل: أو يمسكهما كراهة أن تزولا، أو لئَلاَّ تزولا. والزوال: التَلَفُ والفَنَاءُ، أو الانتقال.

والمخلوقات كما احتاجت إلى الموجد سبحانه، احتاجت بعد إيجاده إيَّاها إلى إبقائه إيَّاهَا، ولولم يبقها لفنيت، ولم تقتصر على السقوط، وإن شاء أبقاها وأسقطها، وليس شركاؤكم ماسكين لهما.

ويجوز أن يكون «أَن تَزُولاَ» بدل اشتمال و«يُمْسِكُ» بمعنى يمنع، و«السَّمَاوَات» غير الأفلاك.

(**فلك**) وهنَّ والأرض سَوَاكِن، والمتحرِّك النجوم والقمران، وزعم بعض أنَّهنَّ ثوابت والمتحرِّك الأرض وتميل للمشرق، فيكون الغروب، وتميل للمغرب فيكون الطلوع، وتميل جانبا فتختلف مطالع النجوم، وذلك لا دليل له، ويردُّه تحقيق الاختبار، وقوله تعالى: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَاتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ﴾ (سورة البقرة: ٢٥٨) ، وظاهر إسناد الطلوع والغروب للشمس حيث ذُكِرَا.

﴿وَلَئِن زَالَتَآ﴾ أشرفتا على التلف، أو الانتقال لكن لا تشرفان عليه، كما قرئ: «وَلَوْ زَالَتَا» بلَوْ الامتناعية، قيل: أو إن زَالَتَا يوم القيامة على أنَّهُمَا تزولان يومَها، ولو كان ذلك مرادًا هُنا لقيل: وإذا زالتا إلاَّ إن كانت صيغة الشكِّ لشكِّهم في قيامها، أو في طيِّها.

﴿إِنَ اَمْسَكَهُمَا﴾ ما أمسكهما عن الزوال بعد الإشراف عليه، أو عن الزيادة في الزوال بعد وقوعه ﴿مِنَ اَحَدٍ مِّنْ بَعْدِهِ﴾ «مِنْ» هذه للابتداء، وهي صلة، والهاء لله تعالى، أو لإمساكه، أو للزوال، أي بعد الإشراف عليه.

(نحو) والجملة جواب القسم لتقدُّمه قبل الشرط، بدليل اللام لا للشرط، وإلاَّ قُرِنَ بالفاء، ولا جواب للشرط مُقدَّر، بلْ أغنى عن تقديره جواب القسم، وإذا قلت: قم إن قُمت، فليس مرادك قم إن قمت فقم، وإذا لم يكن مرادًا لك فكيف يقدَّر: ولو كانوا شركاء الله لأمسَكُوهُمَا إذا زالتا ؟ .

﴿إِنَّهُ، كَانَ حَلِيمًا﴾ على المشركين، فلم يعاجلهم بالإهلاك ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب منهم أو من غيرهم، مع عظم المعصية، ولاسيما الإشراك، ولَوْلاَ حلمُه وغفرانُه لأسْقطَ السماء، وأخْرَبَ الأرض.

سَمعَ بعضُ قريش أنَّ الله أرسل إلى اليهود والنصارى رُسُلاً فكذَّبوهم، فقالوا: لَعَنَكُم الله، لو جاءنا رسولٌ لم نُكَذِّبه، فجاءهم ﷺ فكذَّبوهُ، فنزل قوله تعالى:

﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعْجِزَهُۥ مِن شَيْءٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴿٤٤﴾ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًا ﴿٤٥﴾﴾

إنكار المشركين الرسالة النبوية وتهديدهم بالإهلاك

﴿وَأَقْسَمُواْ بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ غاية أيْمانهم، وهو مفعول مطلق، ﴿لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ رسول من الله ﴿لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنِ اِحْدَى اَلاُمَمِ﴾ لا نُكذِّبهُ، كما كذَّب اليهود والنصارى رسلهم.

(نحو) وجملة «لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ...» جواب «أَقْسَمُواْ» والذي قالوا: لئن جاءنا نذير لنكوننَّ، فوضع ضميري الغيبة موضع ضميري التكلُّم، وليس إحدى العبارتين أولى من الأخرى، وكلتاهما أصلٌ، ولو قال: «وقالوا» لكان الأصل التكلُّم فلا تهم.

و«إحدى» عامٌّ في الإثبات على أنَّ إضافته للجنس، فاكتسبت العموم، وكأنَّه قيل: مِن وَاحِدَاتِ الأُمَمِ، أي من الأمم الواحدات، أي الفاضلات، فنكون أمَّة فاضلة من جملة الأمم الفاضلات، تقول: زيد واحد قومه، أي أفضَلُهم، وهند إحدى النساء، أي فاضلتهنَّ.

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ﴾ أعظم النذر محمَّد رسول الله ﷺ ، بأعظم الكتب، وزعم مقاتل أنَّه انشقاق القمر، ولا يقبل ﴿مَّا زَادَهُمْ،﴾ أي هذا النذير، أي قول هذا النذير ﴿إِلاَّ نُفُورًا﴾ بُعدًا عنه، وعن مَّاجاءَ به، وإسناد الزيادة إلى النذير من الإسناد إلى السبب، فإنَّ قوله: إِنِّي رَسُولَ اللهِ، وإنَّ الله يأمر بكذا، غير مقبول عندهم، بل سبب للنفور.

﴿اسْتِكْبَارًا فِي الاَرْضِ﴾ مفعول من أجله لـــ«نُفُورًا»، أو بدل منه بدل كلٍّ، لأنَّ التكبُّر نفور وترفُّع، وقد يقال: بدل اشتمال، ولا نلتزم وجود الرابط فيه، بل الملابسة بغير الجزئيَّة والكلِّية، مع تلويح العامل إليها، والتكبُّر في القلب يتولَّد منه نفور اللسان والجوارح، أو حال بمعنى الوصف، أي مستكبرين، أو

مصاحبي استكبار أوْ مبالغة، والثلاثة خلاف الأصل، ولاسيما الثالث ففيه حالية الجامد بلا تأويل.

﴿**وَمَكْرَ اَلسَّيِّءِ**﴾ عطف على «اسْتِكْبَارًا» في غير أوجُه الحال، لأنَّ «مَكْرَ» معرفة بالإضافة، والمراد: مكر الإنسان السيِّء، أي كمكره، أي خداعه، قالوا: أو من إضافة الموصوف إلى الصفة، أي والمكر السيِّء، ويجوز عطفه على «نُفُورًا».

أو يناسب وجه إضافة الموصوف للصِّفة قوله تعالى: ﴿**وَلاَ يَحِيقُ**﴾ يحيط ﴿**الْمَكْرُ السَّيِّءُ اِلاَّ بِأَهْلِه**﴾ إلاّ بفاعله، ولا يستعمل «حَاق» إلاّ في الشرِّ، ومن أمثال العرب: «من حفر لأخيه جُــبًّا وقع فيه مُنكبًّا».

قال كعب الأحبار: قرأت في التوراة: «من حفر مهواة وقع فيها»، فقال ابن عبَّاس: أنا وجدت ذلك في كتاب الله تعالى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ اِلاَّ بِأَهْلِه﴾. وفي الخبر: «لا تمكروا ولا تعينوا ماكرا فإنَّ الله تعالى يقول: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّءُ اِلاَّ بِأَهْلِه﴾، ولا تبغوا ولا تعينوا باغيًا، فإنَّ الله سبحانه يقول: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ﴾ (سورة يونس: ٢٣) ». والآية **عَامَّة على الصحيح لا مخصوصة بيوم بدر**، ودخل فيها ما حاق بهم يوم بدر.

﴿**فَهَلْ**﴾ ما ﴿**يَنظُرُونَ**﴾ ينتظرون ويراقبون ﴿**اِلاَّ سُنَّتَ اَلاَوَّلِينَ**﴾ إلاَّ مثل عادته في المكذِّبين قبلهم، وهي إهلاكهم على التكذيب، ولا إقرار لهم بذلك، ولا مراقبة، لكن عبَّر باللازم المسبّب، وهو الانتظار عن الملزوم السبب، وهو فعل ما يوجب الهلاك، أي وهل يفعلون إلاَّ موجب سنَّة الأَوَّلِينَ.

(**بلاغة**) أو شبَّه بقاءهم على موجب الهلاك بانتظاره، ففي «يَنظُرُونَ» استعارة تبعيَّة، أو عبَّر بالمقيَّد وهو استقبال الإنسان الشيء بقيد العلم به عن المطلق، وهو مطلق استقبال، أي تأخُّر.

﴿فَلَن تَجِدَ﴾ لأنَّكَ لن تجد ﴿لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً﴾ بأن لا يعذِّب المكَذِّبين ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ بأن يعذِّب غير المكذِّبين بدل المكذِّبين.

ولا يَخْـتَصُّ قولك: لن تجد كذا، بأنَّه قد حصل ولكنَّك لا تجده، فهو حقيقة في أنَّك لا تجده مع حصوله خارجًا، وفي أنَّه لم يحصل فضلاً عن أن تجده، كما لا يرى زيد في السوق، أي لا يوجد فيها، فلا تَهِم. والخطاب للعموم البدلي، أو له ﷺ، فيلتحق به غيره.

﴿أَوَلَمْ يَسِيرُواْ فِي الاَرْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من المكذِّبين عاقبهم الله على التكذيب، يرون بَقيَّة منازلهم خالية في سفرهم إلى الشام والعراق واليمن. والهمزة مِمَّا بعد الواو، وإلاَّ قدَّرنا: أَقَعَدُواْ و لم يسيروا ؟.

﴿وَكَانُواْ﴾ أي من قبلهم، والواو للحال على تقدير قَدْ، على المشهور حيث كان الفعل ماضيًا مثبتًا متصرِّفًا ﴿أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ في أبْدانهم ومنافعها ﴿وَمَا كَانَ اَللهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلاَ فِي الاَرْضِ إِنَّهُ، كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ لا يفوته شيءٌ عمَّا أراد به من إيجاد وإعدام، وزيادة ونقص، وتعذيب، وغير ذلك كالعلم به، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاَّ أحصاها، وكون الواو عاطفة أولى من كونها للحال من واو «كَانُوا».

﴿وَلَوْ يُوَاخِذُ اللهُ النَّاسَ﴾ العاصين ﴿بِمَا كَسَبُواْ﴾ من السيِّئات، كما آخذ هؤلاء العاصين ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ من أحد منكم أيُّها العصاة، عبَّر عنهم بالدَّابة إهَانَةً لهم لمعاصيهم، ويدلُّ له قوله تعالى: ﴿وَلَكِنْ يُّوَخِّرُهُمُ، إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هو يوم القيامة يعاقبهم فيه، ولا عقاب على سائر الحيوان.

أو ما ترك على ظهرها من ذي روح عاص، أو مطيع لشؤم المعصية، ﴿وَاتَّقُواْ فِتْنَةً لاَّ تُصِيبَنَّ الذينَ ظَلَمُواْ مِنكُمْ خَآصَّةً﴾ (سورة الأنفال: ٢٥) ، فيبعثون على نياتهم وأعمالهم من خير أو شرٍّ، كما في الحديث[١].

أو يؤخِّر الخلق إلى أجلٍ مسمًّى لكلِّ فرد يموت فيه بقتل أو بلا قتل، وقيام الساعة لمن يحضره. والمراد بـ«الناس» الجنس لا كلُّهم، لأنَّهم لم يكسبوا كلُّهم ما يؤاخذون به، إلاَّ أن يراد بالناس الغالب، وقد يجوز العموم لأنَّ للأنبياء ما عَدَّه الله عليهم سيِّـئةً، كما قال ﷺ : «**لو حاسبني الله، أو أخي موسى بما يقول اللسان لأهلكَنا**»[٢].

﴿**فَإِذَا جَآءَ اَجَلُهُمْ**﴾ أجلُ جزائهم بعد الموت والبعث، والجواب محذوف، أي جازاهم على أعمالهم، نابت عنه علَّته في قوله عز وجل : ﴿**فَإِنَّ**﴾ لأنَّ ﴿**اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا**﴾ وهو الرحمن الرحيم، الموفِّق المستعان.

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلّم

[تـمَّ بحمد الله وحسن عونه الجزء الحادي عشر من تيسير التفسير، وبه تمام الربع الثالث من القرآن الكريم، ويليه بحول الله الجزء الثاني عشر، وأوَّله أوَّل سورة يس]

١- أورده **المنذري** في المقَدِّمَة، باب النيات بلفظ: «إنَّما يبعث الناس على نياتهم»، رقم ١٧، وقال: رواه ابن ماجه وأحمد من حديث جابر.

٢- لم نقف على تخريجه.

الفهارس



الفهرس التفصيلي للمسائل الأصولية

الفهرس التفصيلي للمسائل الفقهية



فهرس لبعض مختارات الشيخ

فهارس عامة للموضوعات الفرعية

الموضوع	الصفحة

فهرس الآيات والعناوين الرئيسية

تفسير سورة الروم

تفسير سورة لقمان

تفسير سورة السجدة

تفسير سورة الأحزاب

تفسير سورة سبأ

تفسير سورة فاطر



التعريف بالمفسِّر*

• في سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨١٨م بمدينة غرداية العريقة شمال صحراء الجزائر، وُلد الشيخ امحمد بن يوسف اطفيش.

• في سنة ١٢٤٣هـ/١٨٢٧م حفظ القرآن الكريم في بني يسجن ــ بلده الأصلي ــ واشتغل بحفظ المتون الدينية واللغوية على يد شقيقه الأكبر إبراهيم اطفيش، وعلى غيره من مشايخ المنطقة، ونبغ في فروع الثقافة الإسلامية نبوغا كبيراً.

• في سنة ١٢٥٣هـ/١٨٣٧م جلس للتدريس والتعليم في داره ببني يسجن، ثمَّ في مدينة بنورة لفترة من الزمن، ثمَّ عاد إلى بني يسجن وواصل نشاطه الدؤوب في معهده، وتولَّى مهمَّة الوعظ والإرشاد والفتوى في المسجد.

• منذ سنة ١٣٠٠هـ/١٨٨٢م قاوم الاستعمار الفرنسي عند دخوله إلى وادي ميزاب، وتولَّى إحباط خططه وتصرفاته، وله زيارات ميدانية للدعوة والإرشاد والتعليم إلى جميع قرى وادي ميزاب.

• في سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م زار البقاع المقدَّسة للمرَّة الثانية، وفي طريقه زار جامع الزيتونة بتونس، وجامع الأزهر بالقاهرة، واستمع لعلمائها،

* انظر تفاصيل ترجمته في مقدِّمة الجزء الأوَّل من هذا التفسير.

وألقى دروسا في الحرم المدني، تشريفا وتقديرا له من علمائه.

• له مراسلات هامَّة إلى علماء عصره جاب بها الشرق والغرب، وترك في كلِّ فنٍّ تأليفا أو أكثر يشهد له بالتفوق والإتقان.

• تخرَّج من معهده عدد كبير من الدعاة والقضاة والعلماء، وإليه يرجع الفضل الكبير في بثِّ الوعي الديني، ونشر الروح العلمية في هذه الربوع وفي غيرها بأبحاثه وتآليفه القيِّمة، وبتفانيه في التدريس والتعليم.

• في سنة ١٣٣٢هـ/١٩١٤م اختاره الله إلى جواره في مركز نشاطه ببني يسجن، رحمه الله وأرضاه وجعل الجنَّة مثواه.

ص.ب : ٦٦٨ - الرمز البريدي : ١١٣ - مسقط - سلطنة عُمان

رقم الإيداع : ٣٢٤ / ٢٠٠٥م

شركة مطابع الباطنة ومكتبتها للطباعة التكنولوجية الحديثة ش.م.م

٢٤٨١٠١٣٣ - ٢٤٨١٤١٣٢